

رواية

ليوناردو بادورا

الرّجلُ الذي كانَ يُحِبُّ الكِلاب

ترجمة: بسّام البزّاز

ليوناردو بادورا

الرّجلُ الذي كانَ يُحِبُّ الكلِاب

ترجمة : بسّام البزّاز

الرّجلُ الذي كانَ
يُحِبُّ الكِلاب



اسم المؤلف: ليوناردو بادورا

عنوان الكتاب: الرّجلُ الذي كانَ يُحِبُّ الكِلاب

ترجمة: بسّام البزّاز

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2018

Author: **Leonardo Padura**

Title: **El hombre que amaba a los perros**

Translated by: **Bassam Al-Bazzaz**

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2018**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مقدمة المترجم

سمعتُ باسم تروتسكي، أوّل ما سمعت، في منتصف أعوام الستينات من القرن الماضي، وأنا بعدُ طالب في المرحلة المتوسطة. كان أبي اعتاد، منذ نهاية الأربعينات، أن يضمّ إلى مكتبته أعدادا من مجلة الهلال المصرية الشهريّة المعروفة. أذكر أنّني رأيتُ، وأنا أقلّب واحدا من تلك الأعداد، رسما تصويريا باللون البرتقالي يظهر فيه رجل مرعوب ينظر، بيدين مرفوعتين، إلى فأس تهوي على رأسه. لا أذكر مضمون الموضوع، لكنّي أذكر التعليق على الرسم. منذ ذلك الوقت عرفتُ أنّ زعيما من زعماء الثورة البلشفيّة العظمى، يدعى تروتسكي، اغتيل في المكسيك.

في أيلول الماضي كلّفتني «المدى» بترجمة رواية «الرجل الذي كان يحب الكلاب» للروائي الكوبي ليوناردو بادورا، وقرأتُ أنّ محور الرواية هو بالذات حادث الاغتيال الشهير ذاك.

لكنّ الرواية تقع في ما يقرب من 600 صفحة.

فكيف لرواية تسرد حادثة، أو حتّى سيرة حياة، أن تمتد كلّ هذا الامتداد؟

الرواية هي في الواقع روايتان أو ثلاث، فضلا عن أجزاء وشظايا من سير وحيوات:

- قصّة القتيل: ليف دافيدوفيتش تروتسكي
- قصّة القاتل: رامون ميركادير دل ريو
- قصّة الراوي: إيبان كارديناس ماتوريل

- نتف من قصص أبناء وبنات وأمهات وأزواج وخبراء ومخابرات وعملاء وساسة وكلاب! نعم كلاب: چورّو/ مايا/ إيكس/ داكس/ تروكو/ آثتيكا/ سانتياغو/ كوبا/ آدم/ حواء/ كورّي/ تاتو/ بورزوي/ ترير/ بودل...

....

EL HOMBRE QUE AMABA A LOS PERROS

هذا هو عنوان الرواية بالإسبانية. وترجمته: الرجل الذي كان يحب الكلاب. مع ذلك فهناك من ترجمها، وعيناه على الترجمة الإنكليزية THE MAN WHO LOVED DOGS بـ «الرجل الذي أحبّ الكلاب»، لأنّ الإنكليزية لا تمتلك ما يعرف في الإسبانية بالماضي الناقص «كان يحب». مع ذلك، فسواء أكان بطلنا هو «الرجل الذي كان يحب الكلاب» أو «الرجل الذي أحبّ الكلاب»، فالرواية تعجّ بالرجال الذين أحبّوا الكلاب.

فعلا. فالجميع، في هذه الرواية، يحبّون الكلاب:

- القتيل وحفيده الصغير
- القاتل وأخوه الصغير أيضا
- الراوي (هذا كان نصف بيطري وشغوفا وعارفا بالكلاب)

مع ذلك فالمقصود بالرجل الذي كان يحب الكلاب هو القاتل: رامون ميركادير، وإن أوحت صورة تروتسكي مع كلابه، التي تظهر على غلاف الرواية، بنسختها الإسبانية الأصليّة، بأنّ المقصود هو القتيل.

....

فالرواية، إذن، ثلاث روايات. أو بالأحرى ثلاثة خطوط، ثلاث حيوات بشريّة، متوازية متداخلة، لكن بتواريخ مختلفة: تبدأ الأولى منفردة من عام 1929، حين نفي ليف دافيدوفيتش من بلده. وتبدأ الثانية من عام 1938، حين عُرضت على رامون ميركادير فكرة القيام بعمل يدخله التاريخ. أمّا

الثالثة، وهي التي تحكي القصّة كاملة، فتبدأ من عام 1977، حين التقى القاتل بالراوي في أحد شواطئ كوبا صدفة ليستودعه سرّه وقصّته.

والرواية هذه هي مزيج من القصّة Story والتاريخHistory . خيال وحقائق. أسماء حقيقية لشخصيات تاريخيّة لاعبة، لها تاريخ ولادة وتاريخ وفاة. لها أفعال ولها أقوال. لكنّ فيها من الخيال ومن المعالجة الدرامية ما يسدّ نقص المعلومة ويعوّض غياب المشهد والوثيقة، كما صرّح بذلك المؤلف.

والرواية، بعد ذلك، عرض، لا لحياة شخص أو أشخاص، بل لطرف مهمّ من التاريخ الحديث: تاريخ الاتحاد السوفييتي وتاريخ أوربا وتاريخ كوبا. ومع التاريخ السياسة. ومع السياسة الحروب. ومع الحروب المعاهدات والاتفاقات والتوافقات والصفقات والخيانات والطعن في الظهر والغزو من دون سابق إنذار وقضم البلدان وخيانة الشعوب بعد اللعب عليها وإيهامها بمعسول الكلام وحلو الوعود.

صحيح أنّ الحدث يتصل باغتيال سياسي. لكنّ وراء الاغتيال سياسة واستراتيجيّة وهوسا وتنظيفا وتمهيدا للتربة باغتيالات وإعدامات وتصفيات داخل البيت وعلى عتبته، وبعيدا بعيدا عنه.

صحيح أنّ الحدث يتصل بفرد، لكنّ الوصول إلى ذلك الفرد كان يستدعي الوصول إلى العشرات والمئات والآلاف سواه. لأنّ الهدف كان أسمى من الأرواح. ولأنّ الغاية كانت أبعد من العدل: السلطة.

الرواية، بعد كلّ ما قلنا، ترسم صورة واضحة عن كواليس السياسة ودهاليزها، بعيدا عن كلّ شعور ومنطق. إنّها سياسة الروبوتات الذكيّة-الغبيّة. العقول التي تضع الهدف والغاية من دون التفكير في الوسيلة وما تكلّفه من تضحيات وأرواح. ومن دون اعتبارات معنوية أو أخلاقيّة: إنّها سياسة النفوذ والقوة وليّ الأذرع وكسر العظام والأنوف والرؤوس. سياسية الأنانيّة والتفرد وصناعة المجد الشخصي الذي يدخل صاحبه من أوسع أبواب التاريخ.

استمتعتُ بالترجمة أيّما استمتاع، على الرغم من طول القصّة وتشعباتها.

واستمتعتُ برفقة شخوصها، على ما في الكثيرين منهم، أو معظمهم، من شرّ واستهتار (يبدو أنّ الشرّ هو ما يصنع الرواية والقصّة والحدث. فما من قصّة تبنى على خير تام. ولا على نصف خير. ولا على ربع خير. لا بدّ للشر أن يشغل 90 % من أيّة قصّة). وتعاطفتُ مع المنفيّ، مع نتاليا زوجته على نحو خاص، وهي تجاهد من أجل أسرتها: بين زوج مطارد مهدد تشاركه حتّى لحظات الموت المحدق به، وأبناء موزعين مهددين في أمنهم لاِ تدري متى يأتيها «خبر» أحدهما أو كليهما. خفتُ مع خوفهم. وقلقت مع قلقهم. وسخطتُ على مطارديهم وطالبي دمائهم. وبكيتُ مع بكائهم.

أرجو أن أكونَ وفقتُ في نقل ما اجتهد (بادورا)، مع فريقه الكبير، طوال خمس سنوات من العمل المضني، في كتابته بالإسبانيّة، وقرّبتُ قارئنا من نص روائي جيد الحبكة وجيد السرد، وحدث تاريخي صار بعيدا عنّا زمانيا، لكنّه، بلا شك، قطعة مهمة من القطع المعروضة في «فيترينات» متحف التاريخ المعاصر الحديث.

بعد ثلاثين عاماً... وما زال... إلى لوثيّا

حدث هذا حين كان الموتى وحدَهم يبتسمون
سعداءَ إذ وجدوا أخيراً راحتهم...

آنا آخماتوفا

(صلاة)

الحياةُ [...] أوسعُ من التاريخ.

غريغوريو مارانيون

(تاريخ عداوة)

لندن في الثاني والعشرين من آب من عام 1940 (وكالة تاس للأنباء).- أوردت إذاعة لندن اليوم الخبر التالي: «توفي في أحد مستشفيات مدينة المكسيك ليون تروتسكي مصاباً بكسر في الجمجمة نتج عن اعتداء أقدم عليه أحد أفراد دائرته المقربة».

لياندرو سانجيث سالازار: ألم يكن يشكّ في أحد؟

المعتقل: لا

ل.س.س.: ألم تفكّر في أنّك تهاجم شخصاً أعزلَ مسنّاً، وترتكب فعلاً يحمل كلّ معاني الغدر والجبن؟

المعتقل: لم أفكّر في شيء.

ل.س.س.: أنتما ذهبتما إلى حيث كان يُطعم الأرانب، عمّ كنتما تتحدثان؟

المعتقل: لا أذكر إن كان يتكلّم أم لا.

ل.س.س.: ألم يركَ وأنتَ ترفع الفأس؟

المعتقل: لا.

ل.س.س.: كيف كانت ردّة فعله بعد أن ضربته؟

المعتقل: قفز كالمجنون وهو يصرخ... سأذكر صرخته ما حييت.

ل.س.س.: كيف كانت صرخته؟

المعتقل: آآآآآآآآه! مدوّية.

القِسْمُ الأوَّل

-1-

هافانا 2004

- ارقدي بسلام - تلك كانت آخر كلمات القسّ الراعي.

لم يكن لتلك الجملة المطروقة، البادية التصنّع على لسان تلك الشخصيّة المسرحية، أن تكتسب معناها التام كما اكتسبته في تلك اللحظة، حين كان الحفّارون ينزلون في القبر المفتوح تابوت «آنا»، ببرود من احترف الدفن ومارسه. أيقنتُ وقتها بأنّ الحياة يمكن أن تكون أسوأ جحيم، واقتنعتُ بأنّ ذلك الرقاد كفيل بإزالة كلّ خوف وتسكين كلّ ألم. لكنّي شعرتُ، على الرغم من ذاك اليقين وتلك القناعة، براحة دنيئة وتساءلتُ إن كنتُ، بشكل من الأشكال، أغبط امرأتي على رحلتها الأخيرة نحو السكينة والسكون، لأنّ الموت الحقيقي الناجز هو في نظر البعض شبيه بمباركة الربّ الذي حاولتْ «آنا» شدّي إليه وربطي به في السنوات الأخيرة من حياتها الأليمة المحزنة.

وما إن انتهى الحفّارون من تثبيت البلاطة على شاهد القبر ووضع أكاليل الورد التي جاء بها الأصدقاء حتى استدرتُ وابتعدتُ هرباً من موجات الشدّ على كتفي ومن سيل عبارات التعزية المستهلكة التي طالما رددناها مضطرين. فكلّ كلام في تلك اللحظة فائض، وكلّ قول فيها زائد، إلّا تلك الجملة التي نطق بها الراعي، فهي جملة يروق لي سماعها والتمعّن في معناها. «ارقدي بسلام»: ذلك هو ما نالته «آنا»، وذلك هو ما كنتُ أطالب أنا به وأتمناه.

حين جلستُ في «البونتياك» بانتظار وصول دانييل، علمتُ أنّني كنتُ على وشك أن أصاب بالإغماء، وشعرتُ بأنّني إن لم أغادر المقبرة فلن أجد طريقاً للرجوع إلى الحياة. كانت شمس أيلول تحرق سقف السيارة، لكنّ حالتي لم تكن تسمح لي بالانتقال إلى مكان آخر. أغمضتُ عيني بما تبقّى لي من قوة محاولاً السيطرة على دوّار المُصيبة والتعب، بينما أحسستُ بعَرَق حامضي ينزل من جفنيّ ووجنتيّ، ينبعُ من إبطيّ ومن رقبتي ومن ذراعيّ ويغمر ظهري الذي أحرقه مقعد الفاينيل، ليتحوّل من بعدُ إلى سيل ساخن يجري على ساقيّ بحثاً عن قاع حذائي. خشيتُ أن يكون ذلك العرق المنتن والتعب الشديد هما بداية تحللي الجزيئي، أو بوادر أزمة قلبية ستقضي عليَّ في أيّة لحظة، وبدا لي أنّ كلا الاحتمالين وارد، بل مرغوب، وإن لم يكن ذلك عادلاً، فليس من الإنصاف أن أجبر أصدقائي على حضور جنازتين في ظرف ثلاثة أيام.

– ما بك يا إيبان؟ ألستَ على ما يرام؟ – أفزعني سؤال داني، الذي أطلّ برأسه من النافذة– عجباً، أترى؟ ما أغزر العرق...

– أريد الانصراف... لكنّي لا أعرف كيف...

– سننصرف، يا صديقي، لا تقلق. انتظر لحظة. سأعطي هؤلاء الدفانين بعض النقود...–. ووجدتُ في كلمات داني إحساساً ردّني إلى الواقع والحياة، إحساساً بدا لي غريباً وبعيداً، بلا شك.

أغمضتُ عينيَّ مجدداً وبقيتُ في مكاني أتصببُ عرقاً حتّى تحركت السيّارة. ولم أتجرّأ على فتح جفنيّ إلّا بعد أن شعرتُ بالهواء المنعش ينساب عبر النافذة. لمحتُ، ونحن نغادر المقبرة، الصفّ الأخير من القبور والأضرحة، التي تعاورت عليها الشمسُ وعوامل الجو والنسيان، رأيتها ميتة كساكنيها، وعدتُ لأسأل نفسي، محقّاً في السؤال أم غير محقّ، عن السبب الذي دفع بعض العلماء الغريبين إلى اختيار اسمي ليطلقوه على ما سيكون تاسع عاصفة مداريّة تقع في ذلك الموسم، على الرغم من أنّهم لا يعدمون تسمياتٍ أخرى؟

ومع أنّني تعلّمتُ (بالأحرى علّموني، وليس بأساليب لطيفة دائماً) بعد هذا العمر ألّا أؤمن بالصدف، فقد كانت الصدفة هي ما حمل خبراءَ الأنواء الجويّة على إطلاق اسم إيبان (وهو اسم مذكّر يبدأ بالحرف التاسع من الأبجدية الإسبانية، ولم يستخدم من قبل لأغراض مشابهة) على تلك العاصفة، قبل أشهر من حدوثها. كان الجنين، الذي تحوّل من بعدُ إلى العاصفة «إيبان»، قد ولد كما يولد اللقاء بين سحب تنبئ بالخراب في المناطق القريبة من الرأس الأخضر. لكن، ما إن انقضت أيام قليلة، وبعد أن أطلق هذا الاسم على العاصفة، التي انقلبت إلى إعصار حقيقي بصفاته وعلاماته، حتّى أطلّت على الكاريبي لتضعنا تحت نظرتها المفترسة... وستعطونني الحق إذ حسبتُ أنّ الحظ العاثر هو وحده الذي كان وراء أن يحمل ذلك الإعصار، وهو واحد من الأشرس في التاريخ، اسمي، بينما لاح في الأفق إعصار آخر كان يتربّص بوجودي.

كنّا قد علمنا، أنا وزوجي، منذ بعض الوقت - وربما منذ الكثير من الوقت- بأنّ نهايتها هي باتت محتومة، مع ذلك فقد مكّنتنا السنوات الطويلة التي احتملنا فيها مرضها من التعايش مع ذلك المرض. لكنّ الإعلان عن أنّ هشاشة عظامها (وهي مشكلة سببها التهاب يصيب الأعصاب، ناتج عن نقص في الفيتامينات، وقد أصيبت به إبّان سنوات التسعينيات العجاف) تطوّر إلى سرطان في عظامها، وضعنا أمام حقيقة أنّ النهاية باتت وشيكة، ووضعني أمام يقين مروّع من أنّ قدَراً متعثراً، متمثلاً بذلك المرض، هو ما يقف وراء تردّي صحة زوجي.

ساءتْ حال «آنا» منذ بداية السنة، بعد ثلاثة أشهر من التشخيص النهائي لمرضها، لكنّ احتضارها النهائي لم يبدأ إلّا في منتصف تمّوز. ومع أنّ شقيقتها خيسيلا حضرت كثيراً إلى بيتنا لمساعدتي فقد اضطررتُ إلى ترك العمل للعناية بزوجي، أمّا كيّف رتّبنا أمورنا المادية في تلك الأشهر فبفضل دعم أصدقاء لنا، مثل داني وآنسيلمو أو الطبيب فرانك، الذين طالما زارونا في شقتنا الصغيرة في حيّ «لاوتون» وجاؤونا بجزء

من المعونة القليلة أصلاً التي استطاعوا الحصول عليها بأكثر الأساليب التواءً وتعرّجاً. وكم عرض عليَّ داني أن يأتي ليساعدني في العناية بزوجي، لكنّي رفضتُ لفتته، فالألم والفقر هما من بين الأشياء القليلة التي يزداد ضررها كلما ازداد عدد من يعانون منها.

كان الجوّ الذي عشناه بين الجدران المتصدعة في شقتنا كئيباً موحشاً، وكان الأسوأ من ذلك في تلك الظروف، القوة الغريبة التي أبداها جسم «آنا» للتشبّث بالحياة، على الرغم من إرادة صاحبته.

في الأيّام الأولى من أيلول، حين عبر الإعصار المحيط الأطلسي بأقصى قوته وراح يقترب من جزيرة غرناطة، أحسّتْ «آنا» فجأة بحالة من الصحوة وشعرتْ براحة غير متوقعة من آلامها. ولمّا كنّا امتنعنا، بطلب منها، عن إدخالها إلى المستشفى، فقد تكفّلت جارة ممرضة لنا وصديقنا فرانك بحقنها بالأمصال وبجرعات المورفين التي أبقت عليها في حالة من السبات القلق. حين رأى فرانك ردّة الفعل تلك نبّهني إلى دنوّ أجلها ونصحني بألّا أطعمها أكثر ممّا تطلبه هي، وألّا أكثر من الأمصال، وألّا أعطيها من الدواء إلَّا ما يسكن آلامها، لكي تنعم في أيامها الأخيرة بوعيها وإدراكها. وهكذا عادت «آنا»، بعدة عظام مكسورة وبعينين مفتوحتين، لتهتمّ بالعالم المحيط بها، فكأنّها استردّت وقع حياتها الطبيعيّة. شدّ انتباهها التلفزيون والراديو، وهما يتحدثان عن مسار الإعصار الذي كان قد بدأ رقصته القاتلة فدمّر جزيرة غرناطة، وخلّف أكثر من عشرين ضحيّة. وألقت عليَّ طوال تلك الأيام أكثر من محاضرة عن صفات الإعصار الحلزوني، وهو واحد من أقوى الأعاصير التي تذكرها حوليات الأنواء الجويّة، وأرجعت قوته الفائقة إلى التغيّر المناخي الذي طرأ على الكرة الأرضية، وهو تغيّر يمكن أن يقضي على الجنس البشري إن لم تتخذ الإجراءات اللازمة، قالت لي، بكل ما لديها من قناعة. وكان لي في تأمّلي لزوجي المحتضرة وهي تفكّر في مستقبل الباقين، ألم مضاف إلى الآلام التي امتلأت بها روحي.

حين اقترب الإعصار من جامايكا وكشف عن نواياه الواضحة للتوغل إلى كوبا من ناحية الشرق، أصاب «آنا» نوع من الانفعال الجوّي الذي أبقى عليها متنبهة، وفي حالة من التوتر ما كانت تتحرر منها إلّا حين يغلبها النوم لساعتين أو ثلاث ساعات. كان كلّ انتباهها مشدوداً إلى خطّ مسار «إيبان» وإلى أعداد الضحايا الذين خلّفهم وراءه (قتيل واحد في ترينيداد وخمسة قتلى في فنزويلا وآخر في كولومبيا وخمسة آخرون في جمهورية الدومنيكان وخمسة عشر في جامايكا، المجموع، تحسبهم بأصابعها الملتوية) وإلى حساب ما سيدمّر إن ضرب كوبا من أيّة جهة من جهات نصف الكرة الجنوبي التي حددها المختصون مسالكَ محتملة له. كانت «آنا» تعيش نوعاً من الاتصال الكوني، في قمّة ملتقى يتعايش فيه جسمان يدركان أنّهما محكومان بالقضاء على بعضهما في ظرف أيام قليلة. وبدأتُ أتساءل إن لم يكن المرض والعقاقير قد أفقداها صوابها، ووجدتُ أنّ من سيفقدُ صوابه، إن لم يمرّ الإعصار بسرعة وتهدأ «آنا»، هو أنا.

وحلّت المرحلة الأخطر والأدق في نظر «آنا»، ونظر سكان الجزيرة جميعاً بالطبع، حين راح «إيبان»، بسرعة ريح تقرب من مئتين وخمسين كيلومتراً في الساعة، يجوب السواحل الجنوبية لكوبا. لقد راح يحوم بصلف المستهتر، فكأنّه يختار عن عمد النقطة التي يريد أن يستدير منها صوب الشمال، بعد أن يشطر البلد إلى نصفين ويخلّف طابوراً طويلاً من الدمار والموت. حبست «آنا» غصّة في صدرها وتوجهت بأحاسيسها إلى الراديو والتلفزيون الملوّن، الذي كان جار لنا قد أعارنا إيّاه. كانت تمسك بالكتاب المقدس بيد وتربّتُ بالأخرى على ظهر كلبنا تروكو. بكتْ وضحكتْ ولعنتْ وصلّتْ بقوّة لا تناسب حالتها. ظلّت على تلك الحال أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة، ترقب «إيبان»، وهو يزحف بصمت، فكأنّ أفكارها وصلواتها كانت ضرورية للإبقاء على الإعصار بعيداً عن الجزيرة، متوقفاً في ذلك الاتجاه الغريب صوب

الغرب، متردداً في الانطلاق نحو الشمال لتدمير البلد، كما يقتضي كلّ منطق تاريخي وجوّي وكوكبي.

وفي الليلة الحادية والعشرين من أيلول، حين توافقت معلومات الأقمار الصناعية والرادارات وخبرة رجال الأنواء في العالم على أنّ الإعصار سيحرّك قيدومه ويدير دفته صوب الشمال، ليستمتع بتدمير هافانا تدميراً كاملاً برشقاته المنجنيقية وأمواجه العملاقة وطرْق أمطاره، طلبت منّي «آنا» أن أنزلَ لها من على الحائط الصليبَ الخشبي المتآكل، الذي كان البحر قد أهداني إياه (الصليب الغريق) قبل ذلك الوقت بعشرين سنة، وأن أضعه عند نهاية سريرها. ثمّ ترجّتني أن أعدّ لها كوباً من الشوكولا الساخنة مع الخبز المحمّص بالزبدة. ولو أنّ التوقعات صدقت، لكان ذلك عشاءها الأخير، فما كان لسقف شقتنا المتصدع أن يتحمّل قوة الإعصار، وكانت هي، ولا حاجة بي لقول ذلك، ترفض التحوّل من مكانها. بعد أن تناولت الشوكولا وقضمت الخبز المحمّص، طلبت مني أن أضع الصليب جنبها على السرير، ثم راحت تصلّي، وقد سمّرت عينيها في السقف وفي الدعامات الخشبيّة التي كانت تؤمّن توازنه، وربّما راحت ترسم في خيالها مشاهد القيامة التي تحدق بالمدينة وتترصدها.

في صباح الرابع عشر من أيلول أعلن خبراء الأنواء عن حدوث المعجزة: لقد استدار الإعصار أخيراً صوب الشمال، وكان انحرافه صوب أقصى غرب المنطقة المتوقعة من الشدة أنّه لم يصب الطرف الغربي من الجزيرة إلّا بأضرار طفيفة. يبدو أنّ الإعصار أشفق علينا من المصائب الكثيرة التي تصيبنا فتنحّى عنّا جانباً وهو على قناعة من أنّ مروره بالبلاد سيمثّل إسرافاً وشططاً من طرف السماء. أخلدت «آنا» إلى النوم، متعبة من كثرة ما صلّت، وبعد ما أصاب معدتها من تلف بسبب قلّة الأكل، لكنّها نامت راضية عمّا اعتبرته نصراً شخصيّاً، بعد أن سمعت ما أكّد ذلك الانقلاب الجوّي. نامت وقد رسمت ما يشبه الابتسامة على شفتيها. وعاد تنفّس «آنا» إلى إيقاعه الهادئ، بعد أن اقترب لأيّام من

اللهاث، أمّا أصابعها، التي راحت تداعب شعر تروكو، فقد أصبحت، بعد ذلك بيومين، العلامتين الوحيدتين الدالتين على أنّها ما زالت حيّة.

مع حلول ليل السادس عشر من أيلول، وبينما بدأ الإعصار بالانحسار عن أراضي أمريكا الشمالية وبدأت رياحه تفقد قوتها المتراجعة، توقفت «آنا» عن مداعبة كلبنا، ثمّ توقفت رئتاها عن التنفس بعد دقائق قليلة. لقد ارتاحت أخيراً، وأتمنّى أنّ تكون راحتها أبدية.

***

ستفهمون في حينها لماذا تبدأ هذه القصّة، وهي ليست بقصّة حياتي، وإن كانت كذلك أيضاً، كما تبدأ. ومع أنّ حضراتكم ما زلتم لا تعرفون من أنا، ولا تمتلكون فكرة عمّا سأرويه لكم، فأظنّكم فهمتم شيئاً: كانت «آنا» مهمة في حياتي... مهمة إلى درجة أنّ هذه القصّة مدينة لها بالوجود، في جزء كبير منها، أقصد، بالأبيض والأسود.

لقد اعترضتْ «آنا» طريقي في واحدة من تلك اللحظات الكثيرة التي وقفتُ فيها على شفا الهاوية. كان الاتحاد السوفييتي المجيد قد بدأ يطلق حشرجاته، وبدأت تنهالُ على رؤوسنا صواعقُ الأزمة التي أتت على البلاد في أعوام التسعين. وكان إغلاق مجلة الطب البيطري، بسبب نقص الورق والحبر والكهرباء، واحدة من أولى نتائج الكارثة الوطنية. كنتُ أعملُ في تلك المجلة مصحّحاً، وكان إغلاقها أمراً متوقعاً. وانتهى بي المطاف، كما حدث لعشرات العمّال، من منضّدي حروف إلى مديري تحرير، في ورشة للصناعات الشعبيّة، حيث كان يفترض أن نعمل، ولوقت غير محدد، في نسج أقمشة مخرمة وموشاة بكريات مطليّة بالورنيش، يعلم الجميع أن لا قِبل لأحد بشرائها. لذلك بادرتُ، بعد ثلاثة أيام من بداية عملي في مكاني الجديد وغير المفيد، ومن دون أن أكلّف نفسي عناء طلب إجازة، إلى الهرب من تلك الخليّة المستاءة المحبَطة، وبدأت، بعد وقت قصير، بالعمل مساعداً في عيادة المدرسة البيطرية، التابعة لجامعة هافانا، وكانت، هي الأخرى، فقيرة بائسة. وكان

الفضل في ذلك لأصدقائي من الأطباء البيطريين، الذين طالما صححتُ نصوصهم، بل أعدتُ كتابتها.

أجد نفسي أحياناً مفرطاً في سوء الظن إلى حدّ التساؤل إن لم يكن لتوليفة القرارات العالمية والوطنيّة والشخصيّة (بل لقد تكلّموا عن «نهاية التاريخ» حين بدأنا نكوّن فكرة عن كينونة تاريخ القرن العشرين) من هدف غير أن أكون أنا من يستقبل، نهاية عصر مطير، الشابة اليائسة المبتلّة التي حضرت إلى العيادة وهي تحمل بين ذراعيها كلب بودل أشعث، وتوسلت إليّ أن أنقذ كلبها، الذي كان يشكو من انسداد في الأمعاء. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، وكان الأطباء قد انصرفوا، لذلك شرحتُ لها أنّ ليس في الإمكان فعل شيء (كانت هي والكلب يرتعشان من البرد، وشعرتُ، وأنا أراقبهما، بأنّ صوتي لا يقوى على الخروج). انخرطت الفتاة في البكاء، فهي على وشك أن تفقد كلبها، قالت، والطبيبان البيطريان اللذان كشفا عليه ليس لديهما مخدر لإجراء جراحة له، والسيارات في المدينة معدومة، لذلك جاءت من هافانا القديمة إلى العيادة سيراً تحت المطر وكلبها بين ذراعيها، وأنّ عليَّ أن أفعل شيئاً، لوجه الربّ. أفعل شيئاً؟ ما زلتُ أسأل نفسي كيف تجرأتُ، أو إن كنتُ راغباً فعلاً في أن أتجرأ. وهكذا، وبعد أن شرحتُ للفتاة أنّني لستُ طبيباً بيطريّاً، وطلبتُ منها أن تكتب ما تريد على ورقة، وأن توقعها، لكي أكونَ في حلّ من كلّ مسؤوليّة، تحوّل تاتو المحتضر إلى أول مريض يرقد بين يديّ لأجري له عملية جراحيّة. وإذا كان الربّ الذي صلّتْ له الفتاة قد قرّر ذات مرّة إنقاذ كلب من الكلاب، فلقد كان في تلك المناسبة وذلك العصر. وتكللت العملية، التي طالما قرأتُ عنها وشاهدت غيري يجريها، بالنجاح...

كانت «آنا» هي المرأة التي أحسستُ بحاجتي إليها، لكنّها، من منظور آخر، لم تكن المرأة المناسبة لي في تلك اللحظة: فهي تصغرني بخمسة عشر عاماً، متساهلة في المسائل المادية، لكنّها فظيعة ومبذرة

في المطبخ؛ مغرمة بالكلاب؛ لها إحساس غريب بالواقع يجعلها تنتقل من أغرب الأفكار وأكثرها خيالاً إلى أشدّ القرارات صلابة وعقلانيّة. منذ بداية علاقتنا أبدت قدرة جعلتني أشعر وكأنّني كنتُ أبحث عنها منذ سنوات طويلة. لذلك لم أستغرب حين بادرت إلى حشر حاجياتها في حقيبتين، وحمل بطاقتها التموينية وصندوق من الكتب وكلبها، الذي كاد يشفى، لتستقرّ معي في شقتي الرطبة والمتصدعة في «لاوتون»، بعد أسابيع قليلة من علاقة جنسية هادئة وممتعة، بدأناها يوم ذهبت إلى بيتها، الذي كانت تتقاسمه مع صديقة لها، لإعطاء الحقنة لتاتو.

وجدنا أنفسنا محاصرَيْن بالجوع وانقطاع الكهرباء وانخفاض الأجور وتوقف حركة وسائط النقل وسواها من المصائب، فعشنا مرحلة من الزهد. فلقد حوّلنا الهزال الذي أصابني وأصابها، والذي زادت فيه تنقلاتنا الطويلة على الدراجة الهوائية الصينية التي باعوها لنا في مركز عملنا، إلى مخلوقات أثيرية، إلى نوع من الكائنات المتحولة، القادرة، مع ذلك، على توظيف البقية الباقية من طاقتها لممارسة الحب والحديث لساعات والقراءة كالملعونين - «آنا» تقرأ الشعر؛ أمّا أنا فأقرأ الروايات، بعد انقطاع طويل عن المطالعة-. كانت سنوات غير واقعيّة، كالخيال، في بلد مظلم وبطيء، حارّ دائماً، ينهار كلّ يوم، من دون أن يسقط في مغارات المجتمع البدائي الذي يتربص بنا. مع ذلك، كانت سنوات لم تتمكن الحاجة والعوز، من هزيمة الفرحة التي كنّا نشعر بها ونحن نعيش متجاورين معاً، مثل ناجيين من الغرق يتشبّث أحدهما بالآخر ليعيشا معاً أو ليموتا معاً.

وبعيداً عن الجوع والعوز، اللذين كانا يضيّقان علينا الخناق -وإن كنّا نراهما خارجيين وحتميّين، وبالتالي خارجين عن إرادتنا-، كان الحدث الشخصي الوحيد المحزن الذي عشناه في تلك الفترة هو إصابة «آنا» بالتهاب الأعصاب المصحوب بنقص الفيتامينات، ثمّ موت «تاتو» بعد أن أتمّ السادسة عشرة من عمره. لقد أثّر موت الكلب على زوجي

إلى حدّ أنّني حاولت بعد موته بأسبوعين أن أخفّف من حزنها فأتيتُ لها بجرو ضالّ أجرب أطلقتْ هي عليه اسم «تروكو= حيلة» لمهارته في الاختباء، وانصرفتْ لعلاجه وإطعامه مما راحتْ تقتطعه من طعامنا القليل الذي ما كان يكفينا إلّا لإقامة الأود والبقاء على قيد الحياة.

لقد بلغنا نحن الاثنين درجة من التكامل والتفاهم أنّني، في ليلة انقطع الكهرباء فيها، ليلة جوع لم يهدأ وقلق وحَرّ (كيف لذلك الحرّ السافل أن يدوم وللقمر أن ينير أقلّ من سابق عهده؟) بدأتُ، وكأنّني أمارس حاجة طبيعية، أحكي لها قصّة اللقاءات التي جمعتني، قبل أربعة عشر عاماً، بذلك الشخص الذي أطلقتُ عليه، منذ أن التقيته، اسم «الرجل الذي كان يحبّ الكلاب». لم أكن، حتّى تلك الليلة التي قرّرتُ فيها، فجأة، ومن دون مقدمات، أن أقصّ على «آنا» تلك القصّة، قد أخبرتُ أحداً بفحوى ما تحدثنا به أنا وذلك الرجل، ولا برغبتي في كتابة القصة التي ائتمنني عليها، والتي طالما أجلتها وكبحتها ونسيتها طوال تلك السنوات. ولكي أعطي «آنا» فكرة أفضل عن مدى الأثر الذي تركه فيّ اقترابي من ذلك الرجل، وعن قصة الكراهية والخداع والموت المثيرة للغثيان التي سلّمني إيّاها، فقد أعطيتها بعض الملاحظات التي كان عليَّ أن أكتبها قبل سنوات، وأنا غارق في الجهل، على الرغم منّي تقريباً. وحين انتهت «آنا» من قراءتها راحت تتطلّع إليَّ، حتّى صار ثقلُ عينيها السوداوين – وهما أكثر ما في جسمها حياة وتوهجاً– ينهش في جلدي. ثمّ قالت لي، عن يقين أفزعني، إنّها لا تفهم كيف يمكن لي، أنا بالذات، ألّا أؤلف كتاباً أضمّنه تلك القصّة التي وضعها الربّ في طريقي. نظرتُ إلى عينيها – إلى تينك العينين اللتين يأكلها الدود الآن– وأعطيتها الجواب الذي طالما تكتمت عليه، والذي لم أصرّح لها به إلّا لأنّ من سأله هو «آنا»:

– لم أكتبه من الخوف.

-2-

التهم الضبابُ الجليدي مشهدَ آخر الأكواخ ودخلت القافلة ثانية في دوّامة ذلك البياض المكّدر للنفس، الخالي من كلّ دالة وأيّ أفق. في تلك اللحظة فقط أدرك ليف دافيدوفيتش سبب انصراف الناس في ذلك الصقع الوعر، ومنذ القدم، إلى عبادة الحجر.

كانت الأيام الستّة التي أنفقها رجال الشرطة والمُبعدون في السفر من آلماتا إلى فرونزا[1] عبر سهوب قيرغستان الجليدية، يحفّ بهم البياض المطلق، حيث يضيع مفهوما الزمان والبعد، كفيلة ببيان بطلان كلّ عنجهيّة آدميّة، وإظهار الحجم الحقيقي لتفاهتها الكونيّة أمام القوّة الجوهرية لما هو أزلي وخالد. كانت أمواجُ الثلوج، الساقطة من سماء زال عنها كلّ أثر للشمس، تهدد بالتهام كلّ ما يجرؤ على تحدي اندفاعها المدمّر، وتبدي قوةً منفلتة لا يمكن لأحد أن يقف في وجهها: تلك هي الصورة التي يصبح فيها ظهور شجرة أو بروز جبل أو انكسار جليد أو وجود صخرة في وسط السهب حالة خاصة جديرة بالعبادة والتوقير: لقد عظّم سكانُ تلك الصحارى النائية الحجرَ لأنّهم رأوا في قدرته على المقاومة والصمود تعبيراً عن قوّة دائمة كامنة في داخله، ورأوا فيها ثمرة إرادة أبديّة أزليّة. قبل أشهر قرأ ليف دافيدوفيتش، وهو في منفاه، أنّ عالِماً يُعرف بابن بطوطة، ويعرفونه في الشرق بشمس الدين، كشف لقومه أنّ

1- آلماتا هي عاصمة جمهورية كازاخستان(السوفييتية). أمّا فرونزا فهي مدينة من مدن أوكرانيا.

تقبيل حجر مقدّس يولّد متعة روحية منشطة، لأنّ الشفاه، وهي تقبّله، تشعر بحلاوة تولّد رغبة في مواصلة تقبيل الحجر وإلى الأبد[2]. من أجل ذلك حرّموا القتال أو الثأر من الأعداء في الأماكن التي يوجد فيها حجر مقدّس، فالواجب يقتضي الإبقاء على صفاء الأمل ونقائه. كانت الحكمة العميقة الراسخة التي ألهمت تلك المدرسة من الشفافية والصفاء أن سأل لييف دافيدوفيتش نفسه إن كان من حق الثورة أن تغيّر نظاماً سلفيّاً قديماً، يراه هو فاضلاً، لكنّه قاصر وغير ممكن بالنسبة إلى تفكير أوروبي تؤثر فيه أحكام نمطية عقلانية وثقافيّة. وبدأت تلك النواحي والأصقاع تشهد حركة لنشطاء سياسيين أرسلتهم موسكو ليجتهدوا في تحويل القبائل الرّحل إلى عمّال منتجين في مزارع جماعيّة، وتحويل ماعزهم الجبلية إلى أغنام حكومية. كان هؤلاء عازمين على أن يوضّحوا للتركمان والكازاخستان والأوزبك والقرغيز أنّ تقاليدهم البالية في عبادة حجر السهب أو شجرها تمثّل موقفاً مؤسفاً ومنافياً للماركسية، وأنّ عليهم أن يتخلّوا عن تلك التقاليد، خدمة لإنسانيّة لا ترى في تلك الحجارة غير حجارة، وتؤمن بأنّ الإنسان هناك، وهو المجرد إلّا من إيمانه، لا يكسب من قطعة الحجر تلك أكثر من اتصال مادي بسيط، لذلك فهو يحملها إلى شفتيه، بعد أن اشتد عليه البرد ونال منه التعب وسط صحراء من الجليد.

***

كان لييف دافيدوفيتش قد رأى، قبل أسبوع مضى، كيف سلبوه آخر الأحجار التي كانت تسمح له بالبقاء على خارطة بلده السياسية المضطربة. كتب أنّه استيقظ في ذلك الصباح متجمداً متضايقاً من فكرة أرّقته. كان مقتنعاً بأنّ الارتعاش الذي اعترى بدنه لم يكن كلّه من عمل البرد، فحاول التحكّم بنوبات التشنّج وأفلح في أن يرتب في العتمة وضع الكرسي المقلقل الذي حوّله إلى منضدة. تلمّس طريقه حتى عثر على نظارته، لكنّه أخفق مرتين في وضع ذراعيها المعدنيتين وراء أذنيه

2- تكلم ابن بطوطة في رحلته إلى مكّة عن مسألة استلام الحجر الأسود وتقبيله.

بسبب ما كان به من ارتعاش. تمكّن، على ضوء الفجر الشتائي الأبيض، من رؤية تقويم معلق على الحائط، أرسل له قبل أيام من موسكو، تزينه صورة عدد من شباب الكومسومول الأشداء[3]. لم يكن يعرف من الذي أرسل له ذلك التقويم، فقد اختفى الظرف واختفت الرسالة المفترضة، تماماً كما حدث لكلّ بريده في الأشهر الأخيرة. في تلك اللحظة، حين أرجعته أرقام التقويم الواضحة إلى واقعه، وردّه الحائط الخشن الذي علّق عليه إلى ذاته، في تلك اللحظة فقط تيقّن أنّ سبب اضطرابه وضيق صدره هو عجزه عن تحديد مكانه ومعرفة وقت استيقاظه. لذلك أحسّ بالراحة حين علم أنّ يومه هو العشرون من كانون الثاني من عام 1929 وأنّه في آلماتا، مطروحاً على سرير ذي صرير وإلى جانبه ترقد زوجه نتاليا سيدوفا.

عدّل جلسته على السرير محاولا ألّا يحرّك المرتبة. شعر فجأة بفكّي مايا يضغطان على ركبتيه: إنّها كلبته تلقي عليه تحية الصباح. داعب أذنيها، اللتين وجد فيهما حرارة وشعوراً مريحاً بعودته إلى الواقع. أفرغ مثانته في المبولة ودثّر بدنه بعباءة الجلد ورقبته بالتلفيعة وانتقل إلى الغرفة، وهي واحدة للمأكل والطبخ، وكانت مضاءة بقنديلين غازيين، يدفئها موقد وضع عليه السّماور الذي جهّزه سجّانه الشخصي. لقد فضّل دائماً شرب القهوة في الصباح، لكنّه استسلم ورضي بما قسمه له بيروقراطيو آلماتا الشحاح وحرّاسه من الشرطة السريّة. جلس إلى الطاولة، قريباً من المدفأة، وراح يرتشف ذلك الشاي الثقيل، الفجّ في مقاييس ذوقه، من كوب صيني كبير، ويداعب رأس مايا، وهو في غفلة عن أنّ قراراً خبيثاً سيصدر قريباً في حقّه، يضع مسألة حياته، ومماته، في يد سواه.

مرّ عام كامل على نفيه إلى آلماتا، عند أطراف روسيا الآسيويّة، في مكان هو أقرب إلى الحدود الصينيّة منه إلى آخر محطة قطار روسيّة.

3- هو اتحاد الشبيبة الشيوعية اللينينية في الاتحاد السوفييتي. أُسّس بعد عام من انتصار ثورة أكتوبر 1917.

لقد بدأ ليف دافيدوفيتش، في الواقع، ينتظر الموت منذ أن ترجّل هو وزوجه وابنه ليوفا من الشاحنة المكسوة بالثلج التي نقلتهم إلى المرحلة الأخيرة من الطريق إلى منفى اختير بعناية وخبث. وكان متيقناً من أنّه إن نجا بمعجزة من الملاريا والبلهارزيا فإنّ الأمر بتصفيته سيصل آجلاً أم عاجلاً («إن مات بعيداً، فسيعلم الناس بالخبر بعد أن يكون هو قد شبع موتاً»، هكذا فكّر أعداؤه). لكنّ خصومه، كانوا قد قرّروا استغلال الوقت، بانتظار وقوع ما فكروا به، وراحوا يزيلونه من التاريخ ومن الذاكرة، التي صارت هي الأخرى من أملاك الحزب: توقف طبع كتبه حين بلغ ما طبع منها واحداً وعشرين مجلداً، وانطلقت حملة لسحب نسخه من محلات بيع الكتب والمكتبات العامة؛ وبدأ اسمه، بعد أن افتُرِيَ عليه وقُلّص ذكره، يُرفع من الإشارات التاريخية واحتفالات التكريم ومقالات الصحف، بل من الصور، وصولاً به إلى الشعور بعدم مطلق وإلى حفرة في الذاكرة ليس لها قرار. لذلك رأى ليف دافيدوفيتش أنّهم إن أبقوا عليه حيّاً حتى ذلك الوقت فلخوف من الزلزال الذي يمكن لقرارهم أن يحدثه، هذا إذا سلّمنا ببقاء ما هو قادر على بعث الحياة في وعي بلد شوّهته الشعارات والأكاذيب والخوف. لكنّ سنة من الصمت القسري ومن الضرب تحت الحزام دونما قدرة على الردّ، ومن رؤية ما تبقّى من المعارضة التي كان قادها وهي تتفكك، أقنعته بأنّ اختفاءه أصبح ضرورة يقتضيها المنزلق الرهيب الذي اختطته الثورة البروليتاريّة العظمى نحو الطغيان.

لا شكّ في أنّ عام 1928 ذاك كان الأسوأ في حياته، حتّى لو كان قدّر له أن يعيش أزمنة رهيبة أخرى كثيرة في سجون القياصرة، أو هائماً على وجهه في أنحاء أوروبا من دون مورد وبالقليل القليل من الآمال. لكنّ ما شدّ أزره وقوّى عزيمته في كلّ ظرف محبط ومحزن كان إيمانه بأنّ كلّ التضحيات ضرورية حين يكون ما نطمح إليه هو مصلحة الثورة العليا. ولماذا عليه أن يواصل الكفاح والثورة تمسك بزمام السلطة، من عشر

سنوات؟ ويتوضّح الجواب في ذهنه شيئاً فشيئاً: لانتشالها من هاوية ردّة مصممة على القضاء على أسمى مُثل الحضارة البشريّة. ولكن، كيف؟ ذلك هو السؤال الأكبر. وتتقاطع الأجوبة المحتملة أمامه، في خليط متناقض قادر على شلّه وسط صراع غريب بين شيوعي مهمّش يقف على طرف النقيض من شيوعيين آخرين اختطفوا الثورة والتفّوا عليها.

لقد تواصل العمل، عن طريق معلومات محجوبة وحتّى مزيفة، في عملية زعزعة أيديولوجية وتشويش مواقف سياسية كانت حتى وقت قصير بادية المعالم والحدود، جرّده ستالين وأعوانه بواسطتها من كلماته وأفكاره بأن تبنّوا البرامج ذاتها التي لوحق بسببها وصولاً إلى طرده من الحزب.

في لحظة التأملات تلك سمع صوت باب البيت يفتح، فعلتْ صرخة الخشب المتجمّد، ثمّ رأى الجندي دريتسر داخلاً وهو يجرّ خلفه سحابة من الريح الباردة. لقد اعتاد الرئيس الجديد لزمرة الحراسة من جهاز الجيبيو[4] أن يستعرض جانباً من سلطته بأن يدخل إلى البيت من دون أن يكلّف نفسه مهمة طرق باب نزعوا عنه مغلاقه. بدأ الشرطي، الذي غطّى أذنه بطاقيته وتدثَّر بعباءة من الجلد، بنفض الثلج عن نفسه، وهو لا يجرؤ على النظر إلى ليف دافيدوفيتش، فقد كان يعلم أنّه يحمل أمراً لا يصدر إلّا من رجل واحد في عموم الاتحاد السوفييتي. رجل واحد قادر على إصداره وعلى الأمر بتنفيذه.

منذ ثلاثة أسابيع مضت، كان غراب البين دريتسر قد وصل من الكرملين محمّلاً بقيود جديدة وبإنذار أخير: إن لم يتوقّف تروتسكي نهائيّاً عن حملته بين مجاميع المبعدين، فسيعزل نهائيّاً عن الحياة السياسيّة. عن أيّة حملة يتحدثون وهو الذي لم يستطع منذ شهور أن

4- GPU هو جهاز أمن الدولة أو الشرطة السرية بين عامي 1922-1934. انفصل عام 1922 عن جهاز التشيكا. وفي عام 1934 دمج بـ «المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية»، المعروفة بالـ NKVD وهو الجهاز الذي جمع بين أنشطة الشرطة والشرطة السرية.

يرسل بريداً أو يتلقّى رسالة؟ وبأيّ عزل جديد يهددونه إن لم يكن الموت؟ ولكي تكون سلطته بادية وفعّالة فقد أصدر الشرطي الأمر بمنع ليف دافيدوفيتش وولده ليف سيدوف من الخروج إلى الصيد، مع علمه بأنّ الصيد مستحيل في فصل تساقط الثلوج. ثمّ عمد إلى مصادرة البنادق والخراطيش لتأكيد إرادته وسلطته.

حين تخلّص دريتسر من ندف الثلج التي تكدّست على معطفه، اقترب من السماور ليصبّ الشاي لنفسه. وخمّن ليف دافيدوفيتش، من صوت الريح، أنّ درجة الحرارة في الخارج دون الثلاثين تحت الصفر، وأنّ سُلطة الثلج المنهمر هي، ما خلا بعض الأحجار المقدسة، الوحيدة في ذلك السهل الملعون. بعد الرشفة الأولى تكلّم الجندي دريتسر وقال، بلكنة الدب السيبيري، إنّه يحمل رسالة من موسكو. لم يكن صعباً على ليف دافيدوفيتش تصوّر أن تلك الرسالة، القادرة على اجتياز الرقابة البريدية، لم تكن تحمل غير أسوأ الأخبار، وممّا أكد له ذلك هو أنّ دريتسر لم يخاطبه بعبارته المعتادة «الرفيق تروتسكي»، وهو آخر ما بقي له من ألقاب بعد سقوطه المدوّي من قمة السلطة إلى وحدة المنفى الذي اختاره له الدخيل جوزيف ستالين.

منذ أن تلقّى ليف دافيدوفيتش في تمّوز خبر وفاة ابنته نينا، المريضة بالسل، عاش هاجس وقوع مصائب أخرى في كنف أسرته، من صنع الحياة أو من صنع الكراهية، وكان هذا الاحتمال الأخير هو ما يخيفه أكثر. وأصيبت زينا، وهي ابنته الأخرى من زواجه الأول، بمرض في الأعصاب، وزجّ بزوجها أفلاطون فولكوف، كغيره من المعارضين، في معسكر عمل في الدائرة القطبية الشمالية. أمّا ابنه ليوفا فقد كان، من حسن الحظ، معهما، بينما ظلّ الشاب سيروجا، وهو رجل العائلة غير المسيَّس، بعيداً عن صراعات السياسة ومشاكلها.

وصل صوت نتاليا سيدوفا إلى تلك الحجرة وهي تلقي بتحيّة الصباح وتلعن البرد. انتظر هو أن تدخلَ لتتلقاها مايا بفرح، وأحسّ بقلبه ينقبض:

كيف له أن يبلّغ ناتاشا بخبر مشؤوم عن حبيب قلبها سيروجا؟ جلست على أحد الكراسي وفي يدها كوب، وراح هو يرقبها: ما زالت جميلة، فكّر وكتب لاحقاً. أخبرها بأنّ لديهم بريداً من موسكو فوضعت هي أيضاً يدها على قلبها وراحت تنتظر.

كان دريتسر قد ترك كوبه بالقرب من المدفأة ليفتش في جيبه عن علبة السجائر التركستانية الرديئة، ثمّ مدّ يده، كمن ينتهز المناسبة، في الجيب الداخلي لمعطفه ليخرج ظرفاً أصفر. بدا لثانية وكأنّه ينوي فتحه، لكنّه اختار أن يضع الظرف على الطاولة. نظر ليف دافيدوفيتش إلى نتاليا ثمّ إلى الظرف الخالي من الطوابع، وعليه اسمه، وكأنّ الترقب لا يؤثر فيه، ثمّ سكب فضلة الشاي البارد في زاوية من زوايا الحجرة. مدّ يده بالكوب إلى دريتسر، فأخذه هذا منه مضطراً ثمّ عاد به إلى السماور ليملأه. ومع أنّ ليف دافيدوفيتش أعجبه دائماً أن تكون حركاته مسرحية، فقد أدرك أنّه يهدر طاقته التمثيليّة أمام ذلك الجمهور القليل، ففتح الظرف، من دون أن ينتظر وصول الشاي. كان في الظرف ورقة واحدة، مكتوبة على الآلة الكاتبة، تحمل عنوان جهاز الجيبيو من دون تاريخ إرسال. بعد أنّ عدّل وضع نظارته، أنفق أقلّ من دقيقة في القراءة، لكنّه أطال صمته، هذه المرة من دون مقاصد تمثيليّة: لقد سلبته الصدمة صوته وهو يقرأ ما لم تصدّقه عيناه: على المواطن ليف دافيدوفيتش أن يغادر البلد خلال أربع وعشرين ساعة. كان قرار الطرد، الذي لا يذكر وجهة محددة، يستند إلى المادة 58/ 10 التي صدرت مؤخراً، والتي تنفع لكلّ الحالات، وإن كانت الورقة تتهمه بـ«دعم حملات مضادة للثورة عن طريق تنظيم حزب سريّ معادٍ للسوفييت...». سلّم زوجه الورقة وهو ساكت.

نظرت إليه نتاليا، ويداها على الطاولة الخشبية الخشنة. وقد أصابها الذهول من وقع قرار لا يحكم عليهم بالموت برداً في أحد أصقاع البلاد، بل بسلوك طريق يحملهم إلى منفى يبدو كسحابة مظلمة. كانت ثلاثة وعشرون عاماً من الحياة المشتركة، التي تقاسما فيها السرّاء والضرّاء،

الآلام والانتصارات، الإخفاقات والأمجاد، أكثر من كافية لكي يقرأ ليف دافيدوفيتش أفكار امرأته من خلال عينيها الزرقاوين: أيُنفى القائد الذي حرّك ضمير البلاد عام 1905 وقاد ثورة أكتوبر إلى النصر عام 1917 وأنشأ جيشاً من وسط الفوضى وأنقذ الثورة في سنوات الغزو الإمبريالي والحرب الأهليّة؟ أينفى بسبب اختلافات في وجهات النظر حول الاستراتيجيّة السياسية والاقتصاديّة؟ فكّرت هي. صحيح أنّ شرّ البليّة ما يضحك!

نهض ليسأل الجندي دريتسر، بفضلة السخرية لديه، إن كان يعرف تاريخ انعقاد المؤتمر الأوّل لـ«حزبه السري»، لكنّ غراب البين لم يردّ، بل طلب منه أن يكتب إشعاراً بتسلّم الرسالة. فكتب ليف دافيدوفيتش على حاشية الورقة: «أُبلغتُ بقرار جهاز الجيبيو، الإجرامي في مضمونه والباطل في شكله، بتاريخ العشرين من شهر كانون الثاني من عام 1929». وقّع على ما كتب بسرعة وثبّت الورقة تحت سكين متسخة. حينئذٍ نظر إلى امرأته، وكانت بعدُ مذهولة، وطلب منها أن توقظ ليوفا فليس أمامهم إلّا القليل من الوقت لحمل الأوراق والكتب، وسار نحو الغرفة تتبعه مايا، فكأنّ العجلة تدفعه دفعاً، وإن كان، في الحقيقة، هرب خوفاً من أن يلمحه الشرطي وامرأته وهو يبكي من شعوره بالعجز إزاء الإهانة التي لحقت به والأراجيف التي روّجت ضدّه.

تناولوا فطورهم بصمت، وراح ليف دافيدوفيتش كعادته يطعم مايا لبّ الخبز مع الزبدة المنتنة التي يأتونهم بها. واعترفت نتاليا سيدوفا له لاحقاً أنّها رأت في عينيه، إذّاك، وللمرة الأولى منذ أن عرفته، بريق التسليم القاتم، وهي حالة معنوية لم تعرفها فيه قبل ذلك الوقت بعام واحد، حين اضطر خصومه، وهم يحاولون إبعاده من موسكو، أن يخرجوه إلى محطة القطار محمولاً بين أيدي أربعة من الرجال، بينما هو يصيح ويلعن صورة حفّاري قبر الثورة.

عاد ليف دافيدوفيتش إلى غرفته تتبعه كلبته، وبدأ هناك بتحضير

الصناديق التي سيضع فيها أوراقه، وهي كلّ ما يملك، والتي تعدل عنده حياته أو أكثر من حياته: مقالات وخطابات وبيانات عسكريّة ومعاهدات غيّرت مصير العالم، فضلاً عن مئات، بل آلاف الرسائل التي تحمل تواقيع لينين وبليخانوف[5] وروزا لكسمبورغ[6] وبلاشفة آخرين ومنشفيين واشتراكيين ثوريين عاش بينهم وناضل منذ أن أسس، وهو بعد فتى مراهق، اتحاد عمّال جنوب روسيا الرومانسي، على أساس فكرة غريبة هدفها الإطاحة بالقيصر.

كانت قناعته بهزيمته تلحّ عليه وتضغط على صدره، فكأنّ حصاناً يطأه بقدمه فيقطع أنفاسه. لذلك أخذ الجوارب الجلديّة وقالوشات اللباد وتوجّه بها إلى غرفة الطعام، حيث كان ليوفا ينظّم الملفات، وراح ينتعل حذاءه، والشاب يسأله عن نيّته مستغرباً. لم يردّ على سؤال ولده، بل تناول تلفيعته المعلّقة خلف الباب وخرج للقاء الريح والثلج ولون الصباح الرمادي، تتبعه كلبته. ما كان يبدو أنّ العاصفة المستمرة من يومين تجنح إلى الانحسار. حين دخل فيها شعر وكأنّ جسمه وروحه يغوصان في الجليد وفي الضباب، بينما كان الهواء يجرّح بشرة وجهه. تقدم خطوات صوب الشارع من حيث تظهر آخر سلاسل جبال «تين-شان»، التي بدت وكأنّها تعانق السحاب الأبيض إلى حدّ الامتزاج به. صفّر منادياً على مايا، وأحسّ بالراحة حين اقتربت الكلبة منه. وضع يده على رأسها ولاحظ أن الثلج بدأ يغطي بدنه. وفكّر: إن هو ظلّ عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أخرى في مكانه، فسيتحوّل إلى جسد ضخم

5- جورجي بليخانوف (1856-1918). ثوري ومنظر ماركسي بارز. يعدّ مؤسس الماركسية في روسيا. انضمّ إلى المناشفة (جناح الأقليّة) ورفض الطروحات الراديكالية للبلاشفة ولم يؤيد ثورة أكتوبر 1917. رحل إلى فنلندا بعد أن توقع نشوب حرب أهليّة في بلاده، ومات هناك بالسل.

6- روزا لكسمبورغ (1871-1919). منظّرة ماركسية. ألمانية- بولونية من أصل يهودي. فيلسوفة واقتصادية وناشطة نسويّة. في عام 1916 أسست «عصبة سبارتاكوس»، وكانت نواة الحزب الشيوعي الألماني. اغتالتها جماعة يمينية متطرفة بعد أشهر من إعلان الجمهورية الاشتراكية في ألمانيا.

متجمد، وسيتوقف قلبه عن الخفقان، على الرغم من المعاطف. قد يكون ذلك حلّاً مقبولاً. لكنّي، ما لم يقتلني الجلادون، فلن أسبقهم في المسعى. قال في نفسه. وقفل راجعاً، قاطعاً الأمتار القليلة التي تفصله عن المسكن، ومايا تتقدمه: كان لييف دافيدوفيتش يعلم أنّ أمامه فضلة من العمر يحياها، وأنّ في جعبته سهاماً تنتظر أن يرمي بها.

***

جلست نتاليا سيدوفا ولييف سيدوفا ولييف دافيدوفيتش لتناول آخر شاي لهم بانتظار وصول بطانة الشرطة المكلفة بحملهم إلى المنفى. في الغرفة، كانت صناديق الأوراق جاهزة، بعد غربلة عشرات الكتب التي وجدوا أنّ في إمكانهم الاستغناء عنها. في الصباح الباكر، حمل أحد رجال الشرطة الكتب المتروكة إلى خارج المسكن ليضرم فيها النار بعد أن رشّها بالنفط.

وصل دريتسر في حدود الحادية عشرة، ودخل كعادته من دون أن يطرق على الباب ليبلغهم بأنّ الرحلة قد أجّلت. سألته نتاليا سيدوفا، المهتمة دائماً بالجوانب العمليّة، لماذا يظنّ أنّ العاصفة ستنحسر في اليوم التالي، فشرح لها رئيس الحرس بأنّه تلقّى تقريراً بهذا المعنى عن الحالة الجويّة، وإن كان يعرف مسبقاً بالمعلومة لأنّ في مقدوره أن يرصد ذلك في الهواء. ثمّ التفت إلى لييف دافيدوفيتش ليبلغه، في استعراض جديد لسلطته، أنّ في غير مقدورهم أن يصطحبوا الكلبة معهم.

كانت ردّة المنفي من العنف أنّها فاجأت الشرطي: مايا جزء من عائلته، فإمّا أن تذهب معهم أو لن يذهب أحد منهم. ذكّره دريتسر أنّه ما عاد في ظرف يسمح له بالأمر والتهديد، فوافقه لييف دافيدوفيتش على ما ذهب إليه، لكنّه ذكّره بأنّه ما زال في مقدوره أن يأتي بحماقة تقضي على مستقبل الحارس وتجعلهم يعيدونه إلى سيبيريا، لا إلى قريته، بل إلى أحد معسكرات العمل التي يديرها رئيسه في جهاز الجيبيو. حين لاحظ لييف دافيدوفيتش أثر كلماته المباشر على الشرطي، أدرك أنّ

ذلك الرجل واقع تحت ضغط كبير، فقرر كسب الجولة من دون أن يلعب أوراقاً أخرى: كيف يمكن لسيبيريّ أن يطلب من أحد أن يتخلّى عن كلب صيد روسي؟ ليت دريتسر رأى كيف تصطاد مايا الثعالب في الصحراء الجليدية. نفّذ الشرطي، وهو يتسلل من الباب الذي فتحه له الآخر، الإجراء الذي حاول من خلاله إثبات سلطته: إن في مقدورهم اصطحاب الحيوان، لكن عليهم أن يتكفلوا بنظافته وأوساخه.

وأخفق شمّ الشرطي السيبيريّ، كما أخفقت تنبؤات خبراء الطقس، فالعاصفة التي غادروا أثناءها آلماتا لم تنحسر، بل اشتدت مع تقدّم الباص الذي يقلّهم في السهوب. وعند العصر (لم يعلم أنه وقت العصر إلَّا لأنّ الساعات كانت تشير إلى ذلك)، حين وصلوا إلى ضيعة «كوشمانبيت»، تبيّن له أنّهم أمضوا سبع ساعات لقطع ثلاثين كيلومتراً من طريق منبسط تحت الثلج.

في اليوم التالي، وصل الباص، وهو يتهادى فوق الطريق المتجمد، إلى ممرّ «كورداي» الجبلي، لكن محاولة سحب قافلة مكونة من سبع سيارات بجرّار عبر ذلك الممرّ كانت عقيمة ودامية: لقد مات بسبب البرد سبعة من رجال الشرطة ونفق عدد لا بأس به من الأحصنة. حينها قرّر دريتسر مواصلة الرحلة بالزلاجات، لكي يصلوا، بعد مسيرة يومين آخرين، إلى «بيشكك»، حيث ينبسط الطريق مجدداً، وحيث تنتظرهم سيارات أخرى.

بدت فرونزا، بمساجدها ورائحة شحم العجل المنبعثة من مداخنها، للجميع، منفيين ونافين، واحة أمان. فقد استطاعوا، وللمرة الأولى، منذ أن غادروا آلماتا، أن يستحمّوا وأن يناموا على سرير، بعد أن تخلّصوا من معاطفهم النتنة التي تثقل حركتهم حتّى تكاد تمنعهم من السير. وللبرهنة على أنّ كلّ التفاصيل في الفقر ترف، فقد كان في مقدور ليف دافيدوفيتش أن يستمتع بتناول قهوة تركية ذكيّة الرائحة، شرب منها حتى أحسّ بقلبه ينتفض ويهتزّ.

في تلك الليلة، وقبل أن يذهب الجميع إلى الفراش، جلس الجندي

إيغور دريتسر لتناول القهوة مع أسرة تروتسكي وليبلغهم بأنّ مهمته على رأس الحرس تنتهي هناك. لكنّ أسابيع من التعايش مع ذلك السيبيريّ القبيح جعلت وجهه مألوفاً لديهم، وحين حانت لحظة الوداع تمنّى له ليف دافيدوفيتش حظّاً سعيداً وأجاز لنفسه أن يذكّره بشيء: لا يهمّ من يكون السكرتير العام للحزب. سيّان أن يكون لينين أو ستالين أو زينوفييف[7] أو هو... فالرجال مثله يعملون من أجل البلد لا من أجل زعيم. بعد أن استمع إليه دريتسر، مدّ له يده مصافحاً وفاجأه بالقول بأنّه تشرف بمعرفته على الرغم من الظروف؛ لكنّ استغراب ليف دافيدوفيتش بلغ ذروته حين أبلغه رجل الشرطة بالهمس تقريباً بأنّ الأوامر كانت تنص على أن تحرق كلّ أوراق المنفي، مع ذلك فقد قرر هو أن تحرق بعض الكتب فحسب. وما إن استوعب ليف دافيدوفيتش تلك المعلومة الغريبة حتّى أحسّ على أصابعه بضغط اليد السيبيرية... يد دريتسر، الذي استدار وخرج إلى حيث الظلمة والثلج.

ومع تبديل فريق الحراسة، الذي صار على رأسه عسكري يدعى بولانوف، راود المنفيين الأمل في أن يعرفوا شيئاً عن وجهتهم. لكنّ بولانوف لم يستطع أن يخبرهم بأكثر من أنّهم سيركبون قطاراً خاصّاً في بداية خط فرونزا لم تحدد الأوامر وجهته. وفكّر ليف دافيدوفيتش في أنّ مردّ الغموض هو الخوف من ردود فعل أتباعه المتناقصين في موسكو. صحيح أنّ ردود فعلهم غير محتملة، لكنّهم ما زالوا يشكّلون مصدر قلق وتخوّف. ورأى في تلك العمليّة تمثيلاً صامتاً منظّماً يهدف إلى خلق حالة من الغموض والرأي يسهل تحريكها والتلاعب بها، وهو أسلوب من الأساليب المفضلة لدى ستالين. لقد أطلقت طوال ذلك

7- غريغوري زينوفييف (1883-1936). من زعماء ثورة أكتوبر التاريخيين. رئيس السوفييت الأعلى. كان أحد أعضاء الثلاثية التي تولت الرئاسة في الاتحاد السوفيتي بعد وفاة لينين عام 1924. اصطفّ أولاً مع ستالين لتهميش تروتسكي ثمّ اصطف مع هذا ضد ذاك. صدر عليه الحكم بالإعدام في محاكمات 1936 بعد أن أدين بالخيانة ومعاداة النظام.

العام شائعات حول نفي وشيك، ثمّ كذبوا الإشاعات بشدة أو بأقلّ شدّة، لكنّها نفعتهم في بثّ الفكرة والتحضير لذلك القرار الذي لن يبلغ علم الناس إلَّا وقد أصبح أمراً واقعاً.

عانى ليف دافيدوفيتش، في الأشهر التي سبقت نفيه، من هزيمة سياسية قيّدت يديه، فراح يقوّم بموضوعية وذهول حجم دهاء ستالين ومدى قدرته على التلاعب والتلفيق. لم يدرك إلَّا متأخراً جدّاً أنّه استهان بذكاء تلميذ مدرسته الجورجي السابق، وأنّه لم يحسن تقدير مدى استعداده للتآمر ولا قابليته على الكذب المفضوح وترتيب الصفقات. لقد تعلّم ستالين، الذي تربّى في أقبية النضال السرّي، كلّ أنواع الهدم تحت الأرض، وها هو يوظفها لمصلحته، طلباً للأهداف ذاتها التي وظّفها الحزب البلشفي من أجل بلوغها: السيطرة على السلطة. لقد مثّل أسلوب تجريد ليف دافيدوفيتش من قوته ثمّ إزاحته، مع تحريك مشاعر الغرور والخوف في رجال لم يبدُ يوماً أنّهم خائفون ولا مغرورون، وتوجيه قواه المحسوبة باتجاه هذا الطرف أو ذاك من ميزان السياسة، نموذجاً في التلاعب استفاد من تكبّر الخصم وعماه المفاجئ، وانتهى بانتصار الجيورجي.

لم يتمثّل انتصار ستالين في طرد خصمه من الحزب ومن البلاد فحسب، بل في تحويل صوته إلى تجسيد لعدوّ داخلي للثورة ولاستقرار البلاد وللتراث اللينيني، وفي سحقه بسور من دعاية تروّج لها منظومة كان ليف دافيدوفيتش نفسه قد أسهم في إنشائها، فما كان في مقدوره، لدواع تتصل بالمبادئ، أن يعارضها من دون أن يعرّض وجود تلك المنظومة للخطر. لذلك رأى أنّ معركته ستكون منذ تلك اللحظة مع حفنة من الرجال، مع جناح من الأجنحة، وليس مع الفكرة. ولكن أنّى له أن يحاربهم وقد استولوا على الفكرة وقدّموا أنفسهم للبلد وللعالم على أنّهم التجسيد الحيّ للثورة البروليتاريّة؟ من حينها بدأ يفكّر، وسيواصل التفكير حتّى بعد إبعاده.

***

انطلقوا، وفرونزا وراء ظهورهم، في رحلة شاقة بالقطار. وفرضت الثلوج على القاطرة الإنكليزية القديمة، ذات العربات الأربع، أن تسير بطيئة. كان ليف دافيدوفيتش، في سنواته التي أمضاها في قيادة الجيش الأحمر، قد طاف البلاد وهي تخوض حربها الأهلية، طولاً وعرضاً، وخبرَ شبكة السكك الحديدية الوطنية كلّها تقريباً، بل لقد قطع في ذلك القطار مسافة تعادل، وفق حساباته، لفّ الأرض خمس مرات ونصفاً. لذلك فقد خمّن، حين خروجهم من فرونزا، أنّهم سيتحركون قاطعين الجنوب الآسيوي للاتحاد السوفييتي متجهين صوب البحر الأسود، ومن أحد موانئه سيخرجونهم من البلاد. ولكن إلى أين؟ بعد يومين، وبعد توقف قصير في محطة ضائعة في السهب، وصل بولانوف حاملاً الخبر الذي وضع نهاية للترقّب: وصلت برقية من موسكو تفيد بأنّ الحكومة التركية وافقت على استقباله مدعوّاً بتأشيرة دخول لأسباب صحيّة. حين أبلغ بالخبر أحسّ بلهفته وقد تجمّدت، فكأنّها تسافر عارية على سقف القطار: فمن بين جميع المنافي التي تصوّرها، لم تخطر تركيا كمال باشا أتاتورك على باله خياراً واقعيّاً، إلّا إذا كان هدفهم هو أن يصعدوه على سقالة الإعدام ويزيّنوا عنقه بحبل مغموس بالدسم، فمنذ انتصار ثورة أكتوبر تحوّلت الجارة الجنوبيّة إلى قاعدة للمنفيين[8] البيض الأكثر عداءً للنظام السوفييتي وعدوانية عليه، وكان نقله إلى ذلك البلد هو من قبيل إطلاق أرنب بين جوقة من الكلاب. لذلك صرخ في وجه بولانوف: لن أذهب إلى تركيا. قد يوافق على أن يبعدوه عن بلده الذي سرقوه، لكنّ بلاد العالم لا تنتمي إليهم، ولا ينتمي إليهم مصيره.

حين توقفوا في سمرقند الأسطوريّة، رأى ليف دافيدوفيتش بولانوف واثنين من ضبّاطه ينزلون من عربة رئيس الحرس ويدخلون في بناية بدت مسجداً حوّل إلى محطّة: لعلّهم يحاولون تنفيذ مطالبه وطلب تأشيرة دخول

8- إشارة إلى أعضاء الجيش الأبيض الذي ساند النظام القيصري وقاتل الجيش الأحمر بعد ثورة أكتوبر.

في بلد آخر. بدأ في ذلك اليوم انتظار متلهّف لنتائج المشاورات، وحين تبيّن أنّ العملية ستتأخّر، ساروا بالقطار مسافة ساعة ليوقفوه في نقطة ميتة من السكة في وسط الصحراء المتجمدة. طلبت نتاليا سيدوفا عندئذٍ من بولانوف أنّ يستغلّوا فترة انتظار الردّ من موسكو ويبرقوا إلى ابنها سيرغي سيدوف وإلى زوج ليوفا آنيا ليلتحقا بهم ويكونا في صحبتهم لأيام قبل أن يغادروا البلاد.

لن يفهم ليف دافيدوفيتش أبداً إن كان سبب التوقف طوال اثني عشر يوماً في ذلك المكان وسط العدم هي المشاورات الدبلوماسيّة أم العاصفة الثلجية الهوجاء التي لم يشهد لها مثيلاً، والتي هبطت بمقياس الحرارة إلى الأربعين تحت الصفر. استقبلوا، وقد تدثروا بكل ما وقع تحت أيديهم من معاطف وطاقيات وأغطية، سيروجا وآنيا، التي حضرت من دون الأطفال، فقد كانوا صغاراً ولن يتحملوا درجات الحرارة تلك. واستمتعت الأسرة، تحت النظرة العابرة لحارس من الحراس، طوال ثمانية أيام بمسامرات لطيفة ومسابقات في الشطرنج وقراءة بصوت عالٍ، بينما تكفّل ليف دافيدوفيتش بإعداد القهوة التي جاء بها سيرغي. لكنّ تفاؤله المكبوت كان يطفو على السطح كلّما غاب الحارس وتركهم وحدهم، لينطلق متحدثاً عن خططه للنضال والعودة، على الرغم من شكوك جمهور مستمعيه. أمّا في الليل، حين ينصرف الجميع للنوم، ثمّ يعلو صوت أنفاسهم المتقطعة بسبب الأنفلونزا التي عمّت القافلة، فكان ينزوي في عربة القطار ليعالج أرقه بكتابة رسائل احتجاج موجهة إلى اللجنة المركزية البلشفيّة، وبوضع برامج لعمل المعارضة، وإن قرر في النهاية أن يبقيها معه لكي لا يعرّض ولده سيروجا للخطر بأوراق قد تؤدي به إلى السجن.

كان البرد من الشدّة أنّ القاطرة كانت تضطر إلى تشغيل محركاتها من حين لآخر وتسير بضعة كيلومترات كي لا تتعطل حركتها ويتوقف نظامها. ما كان في مقدورهم النزول بسبب تساقط الثلج (ليف دافيدوفيتش لم يشأ أن يتذلل ويطلب رخصة للذهاب إلى سمرقند، المدينة الأسطورية التي تحكمت قبل قرون بمصائر آسيا الوسطى كلّها)، أمّا الجرائد، التي

كانوا ينتظرونها، فما كانوا يجدون فيها غير الأخبار المحبطة، ففي كلّ يوم أخبار عن اعتقالات جديدة لمناوئين للثورة ومعادين للسوفييت، وفق ما صار يوصف به المعارضون. وتضافر الشعور بالعجز مع الملل وآلام المفاصل وصعوبة هضم الأطعمة المعلّبة لتضع ليف دافيدوفيتش على حافة اليأس.

في اليوم الثاني عشر قدّم له بولانوف ملخصاً بالردود: ألمانيا ليست مهتمّة بمنحه تأشيرة دخول، ولا حتى لأسباب صحيّة. النمسا تتحجج وتتمنع. النرويج تطلب وثائق كثيرة. فرنسا تكشف عن أمر قضائي صدر عام 1916 يمنعه من دخول أراضيها. تركيا هي الوحيدة التي كررت استعدادها لاستقباله... وصارت لدى ليف دافيدوفيتش قناعة بأنّ العالم، بحكم شخصه الذي كان وفعله الذي فعل، أصبح كوكباً لمن لا يمتلك تأشيرة دخول.

في أيام الطريق إلى أوديسا، وجد مفوّض الحرب السابق[9] متسعاً من الوقت ليعيد حساب الأعمال والقناعات والأخطاء الكبيرة والصغيرة في حياته، وانتهى به تفكيره إلى أنّه غير نادم على ما فعله، حتّى لو حوّلوه إلى شخص منبوذ؛ أنّه على أتمّ الاستعداد لدفع ثمن أفعاله وأحلامه. وبدا أشدّ تمسّكاً بقناعاته حين اجتاز القطار أوديسا وحين تذكّر تلك السنوات، التي تصرّ على أن تبدو بعيدة جدّاً، حين دخل في جامعة المدينة وأدرك أنّ مستقبله ليس في الرياضيّات، بل في مقارعة نظام طاغٍ مستبدّ، وكانت تلك بداية مسيرته الثورية الطويلة، في أوديسا قدّم اتحاد عمال جنوب روسيا، الذي كان قد أنشأه حديثاً، إلى مجموعات سريّة أخرى، من دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن مشاريعها السياسيّة؛ وهناك ذاق مرارة الاعتقال للمرة الأولى، وقرأ داروين وأبعد عن ذهنه، ذهن الشاب اليهودي الميّال إلى الإلحاد، فكرة وجود أيّ كائن أعظم؛ وهناك حوكم وصدر عليه أول

9- شغل تروتسكي هذا المنصب العسكري الرفيع الذي يوازي وزير الدفاع، حتى عام 1925.

حكم، وكانت العقوبة هي الإبعاد أيضاً، لكنّ زبانية القيصر نفوه آنذاك إلى سيبيريا لأربعة أعوام، بينما ينفيه رفاق النضال اليوم إلى خارج بلاده لما بقي من حياته ربّما. وفي أوديسا تعرّف على السجّان الطيّب الذي كان يمدّه بالورق والحبر، والذي اختار لقبه الرنان «تروتسكي»، الذي لزمه منذ ذلك الحين، ليضعه في جواز السفر الفارغ الذي جاءه به بعض الرفاق بعد هروبه من سيبيريا، ليخرج به إلى منفاه الأول.

توقّف القطار، بعد أن لفّ المدينة من ناحية شاطئ البحر، في سكّة فرعية تنتهي بمرسى الزوارق في الميناء. كان المشهد الذي امتدّ أمام المسافرين مؤثراً: فمن وسط العاصفة الثلجيّة التي كانت تطرق على الشبابيك، رأوا منظر الخليج المتجمّد الرائع: سفن مزروعة في الجليد، وأشرعة محطمة.

غادر بولانوف وأفراد آخرون من أعضاء التشيكا [3] القطار وصعدوا إلى الباخرة «كالينين»، بينما حضر آخرون إلى عربة القطار ليبلغوهم بأنّ على سيرغي سيدوف وآنيا أن ينصرفا، لأنّ المبعدين سيسافرون قريباً. كان الوداع، بعد أيام أمضوها معاً بين جدران عربة، أكثر ألماً مما تصوروه. بكت نتاليا وهي تداعب وجه صغيرها سيروجا، وتعانق ليوفا مع آنيا وكأنهما يبغيان، من خلال جلديهما، أن يتبادلا شعورهما بهجر حكم عليهما به فراق لا يعرف منتهاه. أمّا هو فقد آثر أن يوجز في الوداع، لدواعٍ تتصل بأمنه، لكنّه شعر، وهو ينظر إلى عيني سيروجا، وكأنّه لن يعود إلى رؤية ذلك الشاب المعافى في صحته، الجميل في جسمه وملامحه، الذي يملك من الذكاء ما يكفي ليستهين بالسياسة ويدير لها ظهره. عانقه بقوّة وقبّله من شفتيه، ليحمل معه شيئاً من حرارته وشكله. انزوى بعدها في ركنه تتبعه مايا وجاهد ليبعد عن ذهنه الكلمات التي قالها له بياتاكوف[10]، عند خروجهم من ذلك الاجتماع الرهيب للجنة

10- جيورجي بياتاكوف (1890-1937). ثوري شيوعي وعضو في المعارضة اليسارية. أعدم بتهمة التآمر وعلاقته بتروتسكي.

المركزيّة عام 1926، الذي تمّ فيه لستالين، بدعم من بوخارين[11]، إبعاده من المكتب السياسي، والذي وصف هو فيه ستالين، أمام جميع الرفاق، بأنّه حفّار قبر الثورة. قال له بياتاكوف، ذو الشعر الأحمر، بطريقته المعتادة في الكلام همساً: «لماذا؟ لماذا قلتَ ذلك؟ لن يغفر لك تلك الإهانة. وسيجعلك تدفع الثمن حتى الجيل الثالث أو الرابع». هل من الممكن أن تبلغ الكراهية السياسية إلى حدّ أن يمسّ خصمه بسوء هذه المخلوقات التي هي أفضل ما في الثورة، بل أفضل ما في الحياة؟ وسأل نفسه: «أمن الممكن أن تصل نذالة ستالين إلى سيروجا، الذي علّم الصغيرة سفيتلانا ستالينا[12] القراءة والحساب؟»، ووجد نفسه يردّ على نفسه بأنّ الكراهية مرض لا يمكن إيقافه، ثمّ راح يداعب رأس كلبته ويرقب للمرة الأخيرة – وكان ذلك هاجسه في قرارة نفسه- المدينة التي قرن اسمها بالثورة قبل ثلاثين سنة وإلى الأبد.

11- نيكولاي بوخارين (1888-1938). من أبرز قادة ثورة أكتوبر ومن منظريها ومثقفيها. لزم جانب ستالين. اتهم بالخيانة وأعدم في محاكمات 1938.

12- هي البنت الوحيدة لستالين (1928-2011).

-3-

- نعم. قولي له إنّي موافق.

سيذكر رامون ميركادير ما بقي حيا أنّه لم يكتشف الكثافة الوبيلة التي ترافق الصمت في غمرة الحرب إلَّا قبل ثوانٍ من نطقه بالكلمات التي غيّرت مجرى حياته ووجوده. لقد تراكم دوي القنابل والرصاص والمحركات وصخب الأوامر وصرخات الألم التي عاش بينها أسابيع، في وعيه مثل أصوات الحياة، وتحوّل السقوط المفاجئ لذلك الصمت الكثيف، القادر على أن يثير فيه شعوراً بالوحدة شبيهاً بالخوف، إلى حضور مقلِق، حين أدرك أنّ وراء ذلك الصمت الهشّ القلق يكمن انفجار الموت متربصاً.

لطالما انشغل رامون، في سنوات السجن والشك والتهميش التي حملته إليها تلك الكلمات الأربع، في تحدي نفسه وتصوّر ما كان سيحدث له لو أنّه قال «لا». وراح يجتهد في خلق وجود موازٍ، مرور وهمي في جوهره، لم ينسَ فيه أن اسمه رامون، ولا أنّه هو رامون، ولا أن يتصرّف تصرّف رامون، صحيح أنّه كان بعيداً عن أرضه وذكرياته، مثل الكثيرين من أبناء جيله، لكنّه كان على الدوام رامون ميركادير دل ريو، بجسده، وقبل ذلك، بروحه.

كانت كاريداد[13] قد وصلت قبله بساعات، ومعها الصغير لويس، قادمين من برشلونه عن طريق بلنسية، وهي تقود سيارة الفورد القوية التي

13- هي كاريداد ميركادير أو كاريداد دل ريو (1892-1975).

اعتاد الزعماء الشيوعيون الكتلان استخدامها في تحركاتهم، وكانت من قبل ملكاً لأرستقراطيين جرى إعدامهم. كانت أوراق المرور، المزينة بتوقيعين، والقادرة على فتح كلّ الحواجز التابعة لقوات الجمهوريين، قد سمحت لهما بالوصول إلى سفح ذلك الجبل الوعر من جبال «غوادا راما»[14]. لكنّ شدّة البرد، عدة درجات تحت الصفر، أجبرتهما على البقاء في السيارة، متدثرين بالأغطية، وإن وَضَعَ الهواءُ الذي أفسدته سجائر كاريداد، لويس على حافة الغثيان. حين نزل رامون أخيراً إلى المنطقة الآمنة من السفح، متضايقاً مما اعتبره تدخلاً آخر معتاداً من طرف أمّه في حياة المقربين منها، رأى أخاه لويس نائماً في المقعد الخلفي، بينما راحت كاريداد، والسيجارة في يدها، تدور حول السيّارة تركل الحجر وتلعن البرد، فينبعث من جوفها سحاب مكثف. حين رأته، غمرته بنظرتها الخضراء، الأشد برداً من ليل تلك الجبال، فتذكّر رامون أنّه لم يتلقّ من أمّه، منذ آخر لقاء لهما قبل أكثر من عام، تلك القبلة الطريّة التي كانت تطبعها، وهو طفل، بدقة على شق شفتيه حتّى يلامس طعمُ لعابها الحلو، بمذاق اليانسون الدائم، حليمات لسانه ليشعره بحاجة ترهقه للإبقاء عليه في فمه وقتاً أطول من الوقت الذي يسعفه به لعابه هو.

منذ أشهر وهما لا يلتقيان. انتدبها الحزبُ للسفر إلى المكسيك للحصول على مساعدات مادية ولكسب التضامن من أجل قضية الجمهوريّة، بعد أن تعافت من جراحها التي أصيبت بها في جبهة «الباثيته»[15]. منذ ذلك الوقت والمرأة غير المرأة. لم يكن سبب ذلك التحوّل حركة ذراعها اليسرى، التي ما زالت محدودة بسبب الجرح الذي نتج عن إصابتها؛ كما لا يمكن أن يكون السبب مصرع ولدها بابلو، المراهق الذي أجبرته هي على الذهاب إلى جبهة مدريد لتمزقه سُرفة

14- هي سلسلة جبال تمتد على مسافة 80 كيلومتراً بين محافظتي مدريد وسيغوبيا في وسط إسبانيا.

15- Albacete إحدى محافظات وسط إسبانيا. تقع على مسافة 300 كم إلى الجنوب الشرقي من مدريد.

دبابة إيطاليّة: لقد عزا رامون ذلك التغيير إلى شيء أعمق سيكتشفه في تلك الليلة التي بدأت فيها حياته تصبح حياة أخرى.

- منذ ست ساعات وأنا أنتظرك. الفجر وشيك وأنا لا أطيق البقاء وقتاً أطول من دون قهوة - تلك كانت تحية المرأة، التي انشغلت بسحق السيجارة بحذائها العسكري، وهي تنظر إلى الكلب الصغير المصوّف الذي كان في صحبة رامون.

من بعيد، كانت المدافع تزمجر وأزيز الطائرات المقاتلة يملأ المكان في سماء خلت من النجوم. هل سيسقط الثلج؟ فكّر رامون.

- لم أستطع ترك البندقية والخروج مسرعاً - قال-. كيف حالك؟ وكيف حال لويس؟

- مشتاق لرؤيتك، لذلك أحضرته. أنا بخير. وذاك الكلب؟

ابتسم رامون ونظر إلى الحيوان، الذي راح يشمّ عجلات الفورد.

- يعيش معنا في الكتيبة... لقد تعلّق بي. إنّه جميل. أليس كذلك؟ - وجلس القرفصاء-، چورّو! - همس، واقترب الحيوان منه وهو يحرّك ذيله. داعب رامون أذنيه وراح ينظفهما من الحسك، ثمّ رفع بصره، لماذا أتيتِ؟

نظرتْ كاريداد إلى عينيه لوقت تجاوز قدرة الشاب على التحمّل من دون أن يشيح بنظره، فنهض.

- أرسلوني لأطرح عليك سؤالاً...

- هذا غير معقول... جئتِ لتطرحي عليَّ سؤالاً؟ - حاول رامون أن يبدو متهكماً.

- نعم. أهمّ سؤال: هل أنتَ مستعدّ للعمل على هزيمة الفاشيّة من أجل الاشتراكيّة؟... لا تنظر إليّ هكذا، أنا لا أمزح. نحتاج أن نسمع الردّ منك.

عاد رامون إلى الابتسام، لكن من دون إحساس بالفرح. لماذا يطرحون عليه هذا السؤال؟

- تبدين كضابط تجنيد... ومن ذا الذي يحتاج أيضاً أن يسمع الرد منّي؟ هل هو الحزب؟

- ردّ على سؤالي أولاً وسأشرح لك الأمر في ما بعد - حافظت كاريداد على نبرتها الجادة.

- لا أدري، كاريداد. أليس ما أفعله الآن هو ما تطلبين؟ أخاطر بحياتي، وأعمل من أجل الحزب... ولا أدع أولاد القحبة الفاشيين يدخلون مدريد.

- ليس هذا كافياً- قالت.

- ليس كافياً؟ لا تعقّدي عليَّ حياتي...

- القتال سهل. والموت أيضاً. آلاف الأشخاص يقاتلون ويموتون... أخوك بابلو... أنا أسأل إن كنتَ مستعدّاً للتنازل عن كلّ شيء؟ وحين أقول كلّ شيء أعني كلّ شيء. كلّ حلم، كلّ خوف، كلّ تردد... مستعدّ لأن تكون أنتَ نفسك...

- أنا لا أفهم ما تقولين، كاريداد - قال رامون، بكلّ الصدق الذي فيه وبالهاجس الجديد الذي ولد في صدره-. هل أنتِ جادة؟ هل لك أن توضحي لي الأمر أكثر؟... أنا أيضاً لا أستطيع أن أظلّ هنا الليل كلّه- وأشار إلى الجبل الذي نزل منه.

- أظنّ أنّ كلامي واضح - قالت وتناولت سيجارة أخرى. اشتعلت السماء، لحظة إشعالها عود الكبريت، ببريق انفجار انفتح له باب السيارة الخلفيّ الصغير. ركض الصغير لويس، وهو متدثر ببطانية، صوب رامون، منزلقاً فوق الأرض المتجمدة، ليعانقه.

- ياه! لويسيتو، لقد صرت رجلاً!

- وأنتَ نحفت كثيراً. أنا ألمس عظامك.

- إنّها الحرب القذرة.

- وهل هذا كلبك؟ ما اسمه؟

- چورّو... إنّه ليس كلبي، لكنّه مثل كلبي. ظهر ذات يوم...- صفّر

له لويس واقترب الحيوان من قدميه. يتعلّم بسرعة، وهو طيب للغاية... هل تريد أن تحمله معك؟- داعب رامون شعر أخيه الصغير الأشعث ومسح له عينيه بإبهاميه.

نظر لويس إلى أمّه، متردداً.

- لا يمكننا الآن أن نمتلك كلاباً - قالت وسحبت بنهم نفساً من سيجارتها-. فنحن أحياناً لا نمتلك ما نعيش به.

- چورّو يأكل أيّ شيء، إنّه لا يأكل شيئاً تقريباً - قال رامون، ورفع غريزيّاً كتفيه ليحمي نفسه حين دوّى مدفع على بعد-. بما تصرفين على سجائرك يمكن لعائلة كاملة أن تعيش.

- مشكلتك ليست سجائري... هيّا، لويس، اذهب مع الكلب، أريد أن أتحدث مع رامون - طلبت كاريداد من ابنها الصغير، وسارت نحو شجرة بلوط قاومت أوراقها شتاء الجبال القاسي.

تحت الشجرة عاد رامون إلى التبسّم حين لاحظ لويس وجورّو يلعبان.

- هل لك أن تقولي لي لماذا جئت؟ ومن بعث بك؟

- كوتوف. يريد أن يعرض عليك أمراً بالغ الأهميّة - قالت ثمّ عادت لتضعه تحت نظرتها الخضراء المتحجرة.

- هل كوتوف في برشلونه؟

- مؤقتاً. يريد أن يعرف إن كنت مستعدّاً للعمل معه.

- في الجيش؟

- كلا. في أمور أهم.

- أهمّ من الحرب؟

- أهمّ بكثير. هذه الحرب يمكن كسبها ويمكن خسارتها، لكن...

- ماذا تقولين! لا يمكن أن نخسر، كاريداد. مع ما يرسله لنا السوفييت

ومع مقاتلي الألوية الدوليّة[16] سنقضي على أولاد القحبة الفاشيين واحداً واحداً...

- سيكون هذا جيداً، ولكن قل لي... هل يمكن الانتصار في الحرب بينما أتباع تروتسكي يحرّكون الفاشيين في الخنادق المجاورة، وبينما الفوضويون يُخضعون الأوامر بالقتال للتصويت؟... كوتوف يريد أن تعمل في أمور مهمّة حقّاً.

- مثل ماذا؟

هزّ الانفجارُ الجبلَ القريب من حيث كانوا. ودفعت الغريزة برامون إلى حماية كاريداد بجسده وتقلّب معها على الأرض المتجمدة.

- سأصاب بالجنون! ألا يهجع هؤلاء المخنثون؟ - قال، وهو جاثٍ على ركبتيه، بينما نظّف كمّ معطف كاريداد.

أمسكت هي بيده وانحنت لتلتقط السيجارة التي كان الدخان ما زال ينبعث منها. أعانها رامون على النهوض.

- كوتوف يرى أنّك شيوعي جيد ويمكن أن تكون نافعاً في الجبهة الداخليّة.

- الشيوعيون يزدادون في إسبانيا. لقد غيّر الناس رأيهم فينا منذ أن وصل السوفييت والسلاح.

- ليس الأمر هكذا، رامون. الناس يخشوننا، الكثيرون لا يحبوننا. هذا بلد أغبياء، متدينين منافقين وفاشيين بالولادة.

تطلّع رامون إلى أمّه وهي تنفث دخان سيجارتها بغضب.

- وما الذي يريدني كوتوف أن أفعل؟

- ألم أقله لك: إنّه يريدك أن تقوم بما هو أهمّ من إطلاق النار من بندقية وأنت في خندق مليء بالماء والقاذورات.

16- هي مجموعات كبيرة من المتطوعين اليساريين الذين توجهوا من أوروبا وأمريكا إلى إسبانيا طوال سنوات الحرب الأهلية (1936-1939) للقتال في صفوف الجمهورية في مواجهة فرانكو وحلفائه من اليمينيين المدعومين من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشيّة.

- لا أستطيع أن أتصوّر ما يريده منّي... الفاشيون يتقدمون وإن هم استولوا على مدريد...- حركَّ رامون رأسه في إشارة رفض حين أحسّ بضغط خفيف على صدره-. كاريداد، لولا أنّني أعرفكِ لقلتُ إنّك تكلمتِ مع كوتوف لينقلني من الجبهة بعد ما وقع لبابلو...

- لكنّك تعرفني...- قاطعته-. الحروب تكسب بألف طريقة وطريقة، هذا ما يجب عليك أن تفهمه... رامون، أريد أن أبتعد عن هذا المكان قبل أن تشرق الشمس. أحتاج إلى ردّ منك.

هل يعرفها؟ تطلّع رامون إليها وسأل نفسه عمّا بقي من تلك المرأة الرقيقة المهذبة المقبلة على الحياة التي اعتاد هو وأخوته وأبوه أن يتنزهوا معها وقت العصر في أيام الأحد في ميدان كاتالونيا بحثاً عن المطاعم التي يتردد عليها الناس، أو عن محل المثلجات الإيطاليّة الذي افتتحوه مؤخراً في جادة «غراثيا»: لم يبق من تلك المرأة شيء. كاريداد الآن كائن مسترجل تنبعث منها رائحة النيكوتين والعرق الدائم، وتتكلّم وكأنّها مفوّض سياسي، ولا تفكر إلّا في مهمات الحزب وسياسة الحزب ونضالات الحزب.

لم يشعر الشاب، وهو غارق في التفكير، بأنّ صمتاً مطبقاً خيّم على الجبال عقب انفجار القذيفة التي طرحتهما أرضاً: فكأنّ العالم هجعَ بعد أن هزمه التعب والألم. لقد بدا رامون، بعد وقت طويل من العيش وسط ضجيج الحرب، وكأنّه فقد القدرة على سماع الصمت، وطافت في ذهنه، الذي أثاره احتمال عودته، صورة برشلونه الحيّة الصاخبة، وكان قد خرج منها قبل أشهر، وصورة مغرية للشابة التي أضفت على حياته معنى وعمقاً.

- هل رأيتِ أفريكا[17]؟ هل ما زالتْ تعمل مع السوفييت؟ - سأل، وهو يشكو من ضعف هورموني لم يفلح في التخلص منه.

17- أفريكا دي لاس هيراس (1909-1988). شيوعية إسبانية عملت طوال 40 عاماً في المخابرات السوفييتية ونالت العديد من الأوسمة والميداليات لقاء خدماتها لصالح الاتحاد السوفييتي.

- أنتَ مجرد صورة، رامون. أنتَ ضعيف كأبيك - قالت كاريداد، وهي تضربُ على وتر حساسٍ فيه. شعر رامون بأنه قادر على أن يكره أمّه، لكنّه وافقها الرأي مضطرّاً: فهو مدمن على امرأة اسمها أفريكا.

- سألتكِ إن كانتْ ما زالت في برشلونه.

- نعم. نعم. إنّها تعمل مع المستشارين. منذ أيام شاهدتها في لابيدريرا[18].

لاحظ رامون أنّ سجائر كاريداد فرنسيّة معطرة ومختلفة عن تلك السجائر الملفوفة الكريهة الرائحة التي يستهلكها رفاقه في الكتيبة.

- أعطيني سيجارة.

- خذِ العلبة كلّها. ألا يمكنك، رامون، أن تترك هذه المرأة؟

كان يتوقع أنّ الجواب عن سؤال كهذا قد يكون أصعب جواب.

- ما الذي يريده كوتوف؟ - كرر سؤاله متهرّباً من الردّ على سؤالها.

- لقد أخبرتك، يريدك أن تنسى كلّ ما قالوا لنا، وعلى مدى قرون، إنّه مهم بغرض استعبادنا.

بدا لرامون كأنّه يستمع إلى أفريكا. تصوّر وكأنّ كلمات كاريداد تنبع من برج الكرملين، أو من كتاب رأس المال، وهو الكتاب ذاته الذي تخرج منه كلمات أفريكا. في تلك اللحظة أدرك معنى الصمت الذي يستغرقهما منذ دقائق: كاريداد هي أفريكا وأفريكا هي كاريداد، أمّا نسيان كلّ ما كان فهو شيء يُطلب منه الآن على شكل واجب، بينما يجثم على ضميره ذلك الصمت المؤلم والهش، ليضيف خوفاً على خوفه من أن تمزّق جسده في الدقيقة اللاحقة قذيفة أو رصاصة أو قنبلة يدوية، ما زالت بعيدة، لكنها تستهدف تحطيم وجوده. أدرك رامون أنّ خوفه من الصمت يفوق خوفه من صخب الحرب الدنيء، وتمنّى لو أنّه ابتعد عن ذلك المكان. حينها قال، ومن دون أن يعرف أنّه يعلّق حياته على تلك الكلمات القليلة:

18- هو البناء الذي اتخذ منه المستشارون السوفييت مقرّاً لهم في برشلونه.

- نعم. قولي له إنّني موافق.

ابتسمت كاريداد. أمسكت بوجه ولدها، وطبعت على شدقيه قبلة بطيئة تعمدت طولها ومكانها، فأحسّ رامون بلعاب المرأة يترسب في لعابه، لكنّه لم يجد فيه طعم اليانسون، ولا طعم شراب الجين الذي ذاقه في المرة الأخيرة التي قبلته فيها: لم يذق غير طعم التبغ المقرف وحموضة متخمرة ناتجة عن سوء هضم.

- بعد أيام قليلة سيستدعونك من برشلونه. سنكون في انتظارك. حياتك ستتغيّر، يا رامون، ستتغير كثيراً - قالت ونفضت التراب عنها-. أنا ذاهبة الآن، فالنهار يطلع.

أدار رامون رأسه وبصق، في ما بدا أمراً عرضيّاً، ثمّ أشعل سيجارة. سار خلف كاريداد نحو السيارة، التي نزل منها لويس وهو يحمل الكلب بين ذراعيه.

- اترك الكلب وودّع رامون.

أطاعها لويس وعانق أخاه.

- سنلتقي قريباً في برشلونه. سآخذك معي لأسجلك في الشبيبة. فقد أتممت الرابعة عشرة، أليس كذلك؟

فابتسم لويس.

- وهل ستجندني؟ فقد سجّل جميع الشيوعيين في الجيش الشعبي...

- لا تتعجل، لويسيتو - ابتسم رامون وضمّه إلى صدره. واكتشف، من فوق رأس الصبيّ، نظرة كاريداد الهائمة مرّة أخرى. تحاشى التشويش الذي أحدثته فيه عينا أمّه ورأى، مع خيوط الفجر الأولى، صورة الأسكوريال[19] الظلّيّة الحجرية العدائية-. انظر، لويسيتو، الأسكوريال. أنا في الجانب الآخر، في ذلك السفح.

19- بناء تاريخي فخم وصرح ديني وثقافي وعلمي شيّده الملك فليب الثاني في القرن السادس عشر، ويضمّ ديراً وكنيسة وقصراً ومكتبة ومتحفاً، ويحتوي على نفائس اللوحات والمخطوطات والكتب. يقع على بعد 45 كم من مدريد.

- وهل الطقس بارد دائماً؟

- جدّاً.

- هيّا. اصعد، لويس- قاطعت كاريداد ولديها، والتفّ لويس، بعد أن ودّع رامون بتحية المليشيات، من حول السيارة ليحتلّ المقعد المجاور لمقعد السائق.

- إن رأيتِ أفريكا فقولي لها إنني سأراها عن قريب- قال رامون هامساً تقريباً.

فتحت كاريداد باب السيارة، لكنّها توقفت وعاودت غلقها.

- رامون، لا أريد أن أذكّرك بأنّ الحديث الذي دار بيننا سرّي. منذ هذه اللحظة ضع في علمك أنّ استعدادك للتخلّي عن كلّ شيء ليس مجرد كلام: إنّه نمط حياة- ورأى الابن أمّه وهي تفتح المعطف العسكري وتخرج مسدس براوننغ برّاقاً. خطت كاريداد عدّة خطوات ومن دون أن تنظر إلى ابنها سألته-: هل أنتَ متأكّد من أنّك قادر على أن تتخلّى عن كلّ شيء؟

- نعم - قال رامون، بينما أضاء انفجارُ قنبلة سفحاً بعيداً من سفوح الجبل. وفي تلك الأثناء، كانت كاريداد، وسلاحها في يدها، تصوّب على الكلب وتطلق النار على رأسه من دون أن تمنح ابنها فرصة للتحرك. تدحرج الحيوانُ مدفوعاً بقوة الرصاصة، وبدأت جثته تتجمّد في فجر جبال «غوادا راما» البارد.

***

لطالما كان فصل الشتاء في سان فيليو دي غيشولز[20] ضبابيّاً ومواتياً للعواصف التي تنزل من جبال «البيرينيه». أمّا الصيف فكان ترفاً تجود به الطبيعة على تلك البلدة. صخرة الساحل، التي ترتفع مكوّنة الجبل، تنتهي في شرم من الرمال الخشنة، حيث يكون الماء في العادة أشفّ منه

20- Sant Feliu de Guíxols و Emporda بلديتان من بلديات محافظة جيرونا Gerona الكاتالانيّة.

على طول شاطئ «إمبوردا». في سنوات العشرين، لم يكن سكان «سان فيليو» غير الصيادين وبعض الزهّاد غير المؤمنين، الهاربين من صخب المدينة والحداثة. أمّا في الصيف، فكانت عوائل برشلونه الموسرة، من مُلاك شاليهات الشواطئ أو بيوت الجبال. وكانت أسرة ميركادير واحدة من تلك الأسر التي اغتنت بفضل تجارة النسيج التي ازدهرت أثناء الحرب الكبرى.

كانت أسرة الأب، التي صاهرت النبلاء المحليين، قد جمعت ثروات طائلة على مدى أجيال عديدة؛ فقد عملوا، شأنهم شأن الكتلان الأصليين، في التجارة والصناعة. أمّا أسرة كاريداد، وهم أصحاب قلعة في «سان ميغيل دي آراس»، بالقرب من سانتانديو، فقد كانوا من هنود أمريكا، وقد عادوا من كوبا قبل نكبة [21] 1898، بثروة منقوصة، بعد أن فقدوا جزءاً منها مع العبيد الذين اضطروا إلى تحريرهم بموجب قانون إنهاء الاسترقاق في الجزيرة. ومع أنّ «باو»، والد رامون، كان يكبر كاريداد بسنوات، فقد كان الزوج وزوجه في عين ولدهما الصغير زوجين مثاليين، شغوفين بالفروسيّة، شأنهما شأن الأرستقراطيين الحقيقيين، وكان يكفي أن تراهما على فرسين يخبّان لتعرف أنّهما فارسان رائعان، وإن كانت هي أكثر مهارة منه.

كان صيف 1922 هو الأول والوحيد الذي استمتعت فيه الأسرة بفصل كامل، بين شمس وشاطئ وحريّة، في ذلك الشرم الذي صوّرته الذاكرة رائعاً مدهشاً، وطبعته صورة ثابتة للسعادة. ولم تمضِ إلّا سنتان حين بدأت الحياة تأخذ منحى آخر. وعلم رامون أنّ قرار أبيه، الحريص المقتصد، بقضاء الصيف في قلعة «سان ميغيل» بدلاً من قضائه في خلوة الشاليه المستأجر في ساحل «إمبوردا»، لم يكن لإمتاع أولاده، بل لعزمه على إصلاح ما لم يعد قابلاً للإصلاح: علاقته مع امرأته.

21- يطلق الإسبان تسمية (النكبة) على هزيمتهم في الحرب الأمريكية الإسبانية عام 1898 والتي كان من نتائجها فقدانهم آخر مستعمراتهم في كوبا والفيلبين.

في «سان فيليو دي غيشولز»، وفي ذلك الصيف، تدثّر الزوجان، وللمرة الأخيرة، بحرارة علاقتهما الزوجيّة، ويبدو أنّهما أنسلا، في تلك الليلة، لويس، الذي ولد في الربيع اللاحق. علم رامون، بعد وقت طويل من ذلك، أنّ تلك المضاجعة كانت تراجعاً لموجة تبددت على الشاطئ لتنسحب في الحال إلى أعماق بعيدة الغور. لأنّ شيئاً جامحاً منفلتاً كان قد بدأ يكبر في داخل كاريداد قبل أن تلد أخاه الأصغر: الكراهية. كراهية مدمرة ستلاحقها إلى الأبد ولن تتوقف عند حياتها هي، بل ستغيّر إلى حدّ الفناء حياة كلّ واحد من أبنائها.

قبل أشهر قليلة من ذلك، ومع الخوف الذي يبعثه في نفسه أيّ اقتراب من أمّه، تجرأ رامون على سؤالها عن سبب النقاط الحمر التي تظهر على جلد ذراعيها الأبيض، فردّت عليه بأنّها مريضة. لكنّه سرعان ما اكتشف، بعد أن هبّت العاصفة وملأ الصراخُ والشجارُ البيتَ البرجوازي الكائن في «سان جيرفازي»، أنّ تلك النقاط كانت من أثر إبر الهيروين التي كانت تحقن نفسها بها بعد أن أدمنتها، في حياة موازية لحياتها تمضيها ليلاً، خارج جدران بيت الأسرة الوادعة.

وبعد سنوات كثيرة، وفي ليلة مكسيكية من آب 1940، سمع رامون من كاريداد أنّ زوجها المحترم، صاحب المشاريع والمبادرات، والرجل الكاثوليكي، هو من دفعها بنفسه لتخطو خطواتها الأولى نحو انحطاط سريع لم تنقذها منه إلّا المُثل العليا للثورة الاشتراكيّة، بعد أن عانت الكثير من الإهانات وتلقّت الكثير من الضربات. كان باو ميركادير، وهو يفكّر في طريقة تساعدها على التغلّب على حالة الرفض الجنسي التي تعاني منها منذ بداية زواجهما، قد نصحها بأن ترافقه إلى مواخير خاصة في برشلونه، حيث كان ممكناً الاستمتاع، عن طريق النظر عبر زجاج خاص، بأكثر الحركات الجنسية إثارة، حيث يتدخل رجل وامرأة، أو رجلان وامرأتان، أو رجل وامرأتان أو حتّى ثلاث، أو امرأتان مفردتان، كلهم وكلهنّ خبراء وخبيرات في أوضاع وفنتازيا جنسيّة مثيرة: فهم ذوو

أعضاء ضخمة عظيمة، وهنّ قادرات على تلقّي أحجام كبيرة، طبيعية كانت أم اصطناعية، عن طريق أيّة فتحة أو أيّ ثقب من فتحات أجسادهنّ وثقوبها. لكنّ المحصلة لم تكن مُرضية بالنسبة إلى توقعات الزوج، فقد صارت كاريداد أشدّ رفضاً لرغباته الجنسيّة، وإن أقبلتْ على تناول بعض المشروبات الروحيّة التي كانت تقدّم في تلك الأوكار، خلف الستائر البنفسجيّة والأضواء الخافتة، مشروبات تزيل عنها كلّ قيد، وتسمح لها، في نهاية الليلة، بفتح ساقيها في ما يشبه الفعل الانعكاسي. ثمّ راحت، في بحثها الدؤوب عن ذلك الإكسير، تتردد على أرقى حانات المدينة، في أغلب المرات من دون زوجها، المنشغل أكثر فأكثر بتجارته التي تستنفد وقته. وسرعان ما اكتشفت كاريداد أنّ تلك الأماكن تفيض بما لا تطلبه (رجال مستعدون لإسكارها ثمّ مضاجعتها)، بينما هي تبحث عن شيء ما زال غير محدد بالنسبة إليها، شيء قادر على إثارة حماسها وخلق حالة من التصالح مع ذاتها.

حينئذٍ عمدت تلك السيّدة، التي عاشت، منذ ولادتها، في ترف ودعة، والتي تلقّت تربيتها وتعليمها على أيدي الراهبات، الخبيرة في ركوب الخيول العربيّة، المتزوجة من صاحب مصانع منصرف بطبعه عن مشاعر الرجال الذين يعملون من أجل ثروته، إلى خلع حليها وزينتها وملابسها الفاخرة ونزلت تبحث عن زوايا المدينة الأقل إضاءة. تحسست بيديها جغرافية أخرى، عالماً آخر، وراحت تتجوّل في شوارع الحي الصيني، وميادين رافال الأشد ظلمة، والعطفات الضيّقة المنتنة القريبة من الميناء، وتجرّب أنواعاً من الشراب أكثر بساطة، لكنّها أشد فاعلية وأثراً. اكتشفت إنسانية مكدرة كالحة، محمّلة بالإحباط والكراهية، تتحدث بلغة جديدة عليها، عن أشياء خطيرة كالحاجة إلى القضاء على الأديان أو الإطاحة بالبرجوازيّة المستغلة، عدوة كرامة الإنسان، ذلك العالم الذي تنحدر هي منه. لقد سدّد إليها الغضب الفوضويّ، الذي لم تكن تمتلك، حتى تلك اللحظة، أيّة فكرة عنه، ضربة هزّت كلّ خليّة من خلايا كيانها.

وجرّبت كاريداد، مع أصدقائها الفوضويين ومع رعاع الميناء وأحياء المومسات، الهيروين، الذي كانت تدفع ثمنه هي من جيبها الكريم، ووجدت في تحطيم الأيقونات والرموز شعوراً خفيّاً بالرضا، يمنح حياتها مذاقات ألذّ وطعماً أشهى. اكتشفت الجنس ثانية، على مستوى آخر ومع مكوّنات أخرى، ومارسته، وكأنّه صراع حتى الموت، بطريقة بدائيّة لم تتخيل وجودها في حياتها الزوجيّة البائسة: استمتعت مع عمال الشحن والبحارة وعمّال النسيج وسائقي الترام ومحرضين محترفين كانت تدفع لهم، مع الأجور التي يتلقونها من زوجها، شرابهم وحقنهم. كان يفرحها أنّ أصلها وتعليمها لم يكن يعني لأولئك العطشى شيئاً: كانوا يتقبلونها ويرحبون بها، فقد كانت رفيقة مستعدة لتحطيم القواعد وكسر القيود الطبقيّة والتحرر من رهق المجتمع البرجوازي وأثقاله.

وعلى الرغم من أنّ أطفالاً أربعة، حملت بهم في بطنها، كانوا ينامون في بيتها، فإنّ كاريداد لم تدرك حجم الكراهية التي تقوّض كيانها، ولم تتحوّل إلى امرأة بالغة إلّا في دوامة المشاعر الجديدة تلك وفي لجّة الخطاب الفوضويّ الذي تعلمته حديثاً. لم تدرك قط إلى أيّ مدى تبنّت، عن قناعة أم عن تمرّد، أفكار الفوضويين، لكنّها حين اختلطت بهم شعرت بأنّها تعمل من أجل تحررها جسديّاً وروحيّاً. بل لقد أحسّت في بعض الأحيان بالفرح لتدني طبقتها ومرتبتها، بسبب الاحتقار الذي كانت تشعر به تجاه ذاتها ونمط حياتها وإمكانية استمرار ذلك كلّه. لكنّها اندفعت، عن قناعة أو عن كراهية، في ذلك الدرب بالطريقة التي سارت عليها دائماً منذ ذلك الحين: بقوة متعصبة متطرفة جامحة. ولإثبات ذلك، وربّما لإثباته لنفسها، أعدّت نفسها لاجتياز آخر حدوده فخططت مع رفاقها الجدد لانتحارها الطبقي المدوّي: عملتْ معهم أولاً على تحريك احتجاجات في مصانع «باو»، الذي جعلت منه تجسيداً للعدوّ البرجوازي؛ ثمّ بدأتْ، في دوامة الكراهية المتصاعدة لديها، في التحضير لعمل ينطوي على قطيعة أشدّ وأكبر، حين خططت

مع مجموعة من الرفاق لنسف أحد المصانع التي تمتلكها الأسرة في برشلونه.

لم يكن رامون، بسنواته التسع أو العشر، يعي ما يحدث في كواليس الأسرة. كان يعيش، بعد أن سجل في إحدى مدارس المدينة الراقية، لاهياً عن كلّ شيء، موظفاً وقت فراغه في النشاطات الرياضيّة، التي كان يفضلها على النشاطات الذهنية، التي كان يمارسها منذ صغره في بيت يتكلّم أفراده الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والكاتلانيّة وفق توقيتات مقررة. ربّما نشأ منذ ذلك الحين شيء استقر عميقاً في طبعه: فأفضل أصدقائه لم يكونوا زملاء الدراسة ولا منافسيه في الرياضة، بل هما كلباه، اللذان أهداهما له جده لأمّه بعد أن وجد في الطفل ميلاً خاصّاً إلى الكلاب. وأطلق الجد الكوبي عليهما اسمين يحملان حنيناً إلى وطنه الأم: «سانتياغو» و«كوبا». كان الكلبان قد جلبا من كانتابريا[22] وهما بعدُ جروان صغيران، وأقام رامون معهما علاقة وديّة، فقد اعتاد الطفل في أيام الأحد، بعد القدّاس، وساعات العصر، أيّام العودة المبكرة من المدرسة، أن يجتاز معهما حدود المدينة، ليشاركهما البسكوت والجري والميل إلى الصمت. ما كان يرى أبويه إلّا لماماً، فقد راحت هي تمضي النهار يوماً بعد يوم نائمة، حتّى إذا حلّ المساء خرجت إلى حياتها الاجتماعية، كما كانت تسمّي جولاتها الليلية التي كانت تعود منها وعلى ذراعيها وخزاتٌ جديدة. أمّا الأب فكان بين أن يتأخر في مكاتبه، محاولاً إنقاذ تجارته، التي كان يدفعها إلى الإفلاس كسلُ أخيه الأكبر، وهو المساهم الرئيس، وتهاونه، أو أن يغلق على نفسه ويرفض أن يرى أحداً أو أن يكلم أحداً. مع ذلك فقد استمرت الحياة المنزلية وادعة، بل كانت، في معيّة الكلاب، مرضية.

حين حضرت الشرطة إلى بيت «سان جيرفازي»، خيّرت الأسرة بين أمرين بشأن كاريداد: فإمّا أن يلقى بها في السجن بتهمة التخطيط

22- Cantabria إقليم من أقاليم إسبانيا الشمالية وعاصمته مدينة سانتاندير Santander.

لاعتداءات على الملكية الخاصة، أو أن تودع في مصح عقلي، لكونها مدمنة على المخدرات. كان رفاق النضال والتسكّع يقبعون، آنذاك، خلف القضبان، لكنّ مكانة «باو» الاجتماعية ولقب أسرتي الزوجين حالت بينها وبين الأمر القضائي. ثمّ إنّ أحد أخوتها، وهو قاضٍ بلدي في المدينة، تدخل لصالحها ووصفها بأنّها مريضة مسلوبة الإرادة تتحكّم بها شياطين الفوضويين وتحركها النقابات المعادية للنظام. وتوصل «باو»، في مسعى لإنقاذ مكانته وسمعته وما تبقّى من علاقتهما الزوجية البرجوازية الكاثوليكية، إلى حلّ مقبول، إذ تعهّد بمنع زوجه من التردد على تجمعات الفوضويين ومن تعاطي المخدرات، وأعطى ضماناً كلمته (مع كلمته، بلا شكّ، مبالغ محترمة من المال).

وعقب شهرين، وبعد علاج الإدمان الذي وافقت كاريداد على الخضوع له، سافرت الأسرة إلى «سان فيليو دي غيشولز»، في إجازتها الصيفية تلك، حيث أمضى الجميع أياماً قريبين فيها من السعادة والانسجام. على هذه الصورة سيتذكر رامون تلك الأيام، التي ظلّت أثمن ما تحويه ذاكرته من كنوز.

***

ومع انتفاخ بطن كاريداد، شاع بين الأسرة إيقاع حياة يومية هادئ. مع ذلك لم تتعافَ تجارة «باو» إلّا بصعوبة، وسط الأزمة التي نشأت عن القطيعة مع أخيه الأكبر، المنغمس في الملذات، وعن مطالب العمال المتزايدة. ولد لويس، وهو آخر الإخوة، عام 1923، قبيل بداية دكتاتورية بريمو دي ريبيرا[23] ووسط الهدنة التي خرقتها كاريداد بعد عام من ذلك: فالكراهية واحد من أعصى الأمراض على الشفاء، وكانت هي قد أدمنت الانتقام أكثر من إدمانها الهيروين.

23- ميغيل بريمو دي ريبيرا (1870-1930) جنرال إسباني قام بانقلاب عسكري بمباركة من الملك ألفونسو الثالث عشر وعطّل الدستور وأقام حكماً دكتاتورياً ترأس فيه حكومة البلاد بين عامي 1923 و 1930.

عادت كاريداد إلى عالمها الفوضوي المضطرب عودة فريدة في أسلوبها. كان أخوها القاضي، خوسيه، قد صارحها أنّه يعاني من مشاكل مادية خطيرة، نتجت عن ديون تراكمت عليه من لعب القمار، وأنّه إن افتضح أمره ففي مقدورهم القضاء على مستقبله. وعدته كاريداد أن تساعده مقابل معلومات: طلبت منه أن يكشف لها عن هويّة القضاة الذين سيبتون في مصير رفاقها الفوضويين المعتقلين، وعن المحاكم التي ستنظر في قضاياهم. وبدأ رفاق آخرون، مزودين بتلك المعلومات، حملة هدفها تخويف القضاة وإرهابهم، فأرسلوا لهم رسائل يهددونهم فيها بالويل والثبور إن هم تجرؤوا على إصدار أيٍّ حكم في حق الفوضويين. وسرعان ما اكتشف باو ميركادير تسرباً في أمواله وعرف بالطريق الذي سلكته. لكنّه، بالضعف الذي ميّزه في علاقته بزوجه، لم يتخذ إلَّا إجراءات تحدّ من تحكّمها بمبالغ كبيرة، ثمّ انصرف مجدداً إلى تجارته، التي كان يحاول الإبقاء عليها وإدارتها من مكتبه الجديد في شارع «آمبلي».

حين وجدت كاريداد أن الأبواب قد سدّت أمام مساهمتها في القضيّة، تمرّدت على تلك البرجوازية الصغيرة، وعادت إلى المواخير لتحتسي الخمرة وتتعاطى المخدرات، وإلى الاجتماعات، لتطالب فيها بنهاية الدكتاتورية والملكية والنظام البرجوازي وبتفتيت الدولة ومؤسساتها الرجعية. واتفق أخوها خوسيه، بعد أن تخلّص من مشاكله، مع زوجها على حلّ مشرف، وأفلحا في أن يأمر أحد الأطباء بإدخال كاريداد في مصح عقلي.

بعد خمسة عشر عاماً وصفت كاريداد لرامون الشهرين اللذين عاشتهما في ذلك الجحيم، بين حمامات الماء البارد والحجز والإبر والحقن الشرجية وعلاجات قاتلة أخرى. وما زال التفكير في أنّهم حاولوا الوصول بها إلى حدود الجنون يحطم أعصابها ويثير عدوانيتها؛ ولئن لم يفلحوا في ذلك فلأنّ رفاقها الفوضويين خفّوا لإنقاذها من ذلك

الحبس وهددوا بكنس مصالح «باو» وهدّ المصحح إن لم يأمروا بإخراجها منه. وفعل التهديد فعله، ووجد «باو» نفسه مضطرّاً إلى العودة بامرأته إلى البيت. لكنّها عادت إلى بيت «سان جيرفازي» لتحمل أولادها الخمسة وبعض الحقائب بما هو ضروري ولازم: رحلت، لا تدري إلى أين، المهم هو أنّها لن تعود للعيش مع زوجها ولا بالقرب من عائلتها وعائلته، بعد أن أقسمت أن تنتقم منهم وتمحوهم من على وجه الأرض.

وحين تبيّن لزوجها أن لا شيء قادراً على منعها وإيقافها عمّا خططت له، ترجاها ألّا تأخذ الأولاد معها. ماذا ستفعل بخمسة صبيان؟ كيف ستعيلهم؟ ثمّ، منذ متى وهي تحبّهم ولا تستطيع العيش من دونهم؟ ربّما فعلت ذلك لتنتقم، بشكل من الأشكال، من الوالد، الذي كان يشعر نحوهم بحب بعيد وصامت، فهذا كان طبعه؛ وربّما كانت تحاول أن تجد فيهم سنداً روحيّاً؛ وربّما لأنّها بدأت تحلم بما ستفعله مع كلّ واحد منهم وبالمستقبل الذي ينتظر كلّ واحد منهم. ما عاد أيّ رجاء ينفع في أن تغيّر رأيها بعد أن اتخذت قرارها بحمل الأولاد معها.

كان في ما حدث اعتباراً من تلك اللحظة شيء من الجدّة والمغامرة في نظر الأولاد الكبار. لقد رأى رامون، وهو الذي اعتاد ثورات أمّه، فيه انفجاراً عابراً، وحزن لفراق كلبيه «كوبا» و«سانتياغو»، لكنّه هدأ حين أكّدت له الطبّاخة أنّها ستعتني بهما لحين عودته.

في ربيع 1925 عبرت كاريداد، تجرّ أولادها، الحدود الفرنسيّة. ومع أنّ هدفها كان الوصول إلى باريس، فقد قررت التوقف في مدينة «داكس» الهادئة، ربّما لأنّها أحست بنفسها مشوشة، فكأنّها كانت في حاجة إلى إعادة رسم خرائط حياتها، أو لأنّها اقتنعت بأن تدمير المنظومة وتربية خمسة أطفال في وقت واحد يمكن أن يكون أشدّ تعقيداً مما بدا لها، خصوصاً حين لا يتوفر (يا لتناقضات الحياة) المال الكافي.

عقب وقت قصير من وصولهم إلى «داكس» دخل رامون وأخوته، باستثناء الرضيع لويس، في مدرسة حكوميّة، وبدأت كاريداد بالبحث

عن رفقة سياسية، وسرعان ما وجدتها، فالفوضويون والنقابيون موجودون في كلّ مكان. بدأت تبيع جواهرها لتدبير أمر المعيشة، لكن الأمر بدا غير ممكن مع وتيرة الإنفاق في الحانات، وفي التدخين وحقن الهيروين والولائم (كانت تؤكد أنّ الشيوعي هو الوحيد الذي يمكنه أن يكون أكثر جوعاً وأقلّ مالاً من الفوضوي).

وبدأ رامون في ذلك الوقت تعليماً أعاد تحديد وضعه. كان قد أتمَّ الثانية عشرة من عمره، وكان حتى ذلك الوقت طفلاً يتعلّم في مدارس خاصّة، وينمو في وفرة ونعمة، ثمّ صحا فجأة، وبخطوة واحدة، ليجد نفسه في حالة من الفقر، أو، على الأقل، في عالم أقرب بكثير إلى الواقع، تعدّ فيه قطع النقود قبل شراء وجبة العصر، وتظلّ الأسرّة فيه بلا ترتيب إلى أن يرتبها الواحد بنفسه. تكفّلت الصغيرة مونتسي، ذات السنوات العشر، بالعناية بالصغير لويس وإطعامه، بينما تكفّل بابلو بالتنظيف. أمّا رامون وخورخي، وهما الولدان الكبيران، فقد تكفلا بالتسوّق ثم بإعداد الطعام الذي أنقذهم من الموت جوعاً، إذ لم تكن كاريداد تعود إلى البيت في الوقت المحدد، أو كانت تعود مخدرة بارتباطات حياتها السياسية. بدأ كلّ واحد منهم يستحمّ حين يشاء، وصار أيّ عذر للامتناع عن الذهاب إلى المدرسة مقبولاً. كان أصدقاؤه في «داكس» هم من أبناء المزارعين الفقراء والمهاجرين الإسبان، وكان يستمتع بالخروج معهم إلى الغابات القريبة وجمع الكمأة مستدلين بالخنازير[24]. في ذلك الوقت بدأ رامون أيضاً يحسّ في جلده بحرارة نظرة الاحتقار الباردة التي يرمقه بها شباب المدينة الصغيرة البرجوازيين.

بعد وصول المعلومات التي طلبتها شرطة «داكس» من برشلونه، رُفض طلب كاريداد بالإقامة في المدينة وطُلب منها أن تبحث لها عن وجهة أخرى، فاضطرت أن تجهز الحقائب من جديد وتخرج

24- يستدلّ على الكمأة بالكلاب المدربة أو بالخنازير، التي يقال إنّها تشمّ رائحة الكمأة المطمورة من على بعد خمسة أمتار.

مع أولادها إلى «تولوز»، فتلك المدينة كبيرة ورقعتها واسعة، وقد لا تجلب فيها انتباه أحد إليها. وتجنباً لضغوط الشرطة، وبعد أن اقتنعت بأنّ الجواهر لن تصمد معها طويلاً، بدأت بالعمل مديرة قاعة في أحد المطاعم، إذ إنّ لديها من التربية وأساليب التعامل ما يناسب ذلك العمل. واستطاع خورخي ورامون، بدفع من أصحاب المطعم، الذين سرعان ما أحبوا الأولاد، أن يدخلا إلى مدرسة الفندقة في «تولوز»، الأول ليدرس ويعدّ نفسه رئيساً للطباخين، ورامون ليكون موظف فندق، وهكذا قرّبهم الاستقرار الذي استردوه من حلمهم بالعودة إلى أن يكونوا أسرة طبيعيّة.

لم تخلق كاريداد لكي تُجلس برجوازيين إلى مائدة الطعام وتبتسم لهم بينما تقترح عليهم الأطباق. لقد صارت تجد حياتها، بعد أن تشبّعت بغضب الثورة الشاملة والكراهية للمنظومة، تعيسة بائسة، وترى فيها فضلة قوى تصرخ مطالبة بالتحرر. لم تتضح قط حقيقة ما جرى، لكنّ رامون ما انفكّ يفكّر في أنّ حادثة تسميم زبائن المطعم، التي وقعت ذات ليلة، كانت من تدبير أمّه. لم يمت أحد، لحسن الحظ، ولم يتضّح شيء، لا الهدف ولا الدافع ولا الفاعل بالطبع. مع ذلك، قرر أصحاب المطعم تسريح كاريداد، ولم يكن الضابط المسؤول عن التحقيق في القضيّة واهماً حين شكّ في علاقتها بالحادث، فذهب إلى بيتها عدة مرات وطلب منها أن تختفي وإلّا زجّ بها في السجن.

حتّى تلك الحادثة كانت كاريداد تعيش في حالة سبات، وما كانت تتحرك إلّا كرقّاص الساعة، في وقع يتراوح بين نوبات من الحماس أو الغضب ونوبات من الصمت والاكتئاب تمتد لأيّام. كان واضحاً أنّ حياتها، الخالية من أيّ سند أيديولوجي متين، فقدت بوصلتها، وحين وجدت نفسها محرومة من القدرة على التصارع والتدمير، لم تلقَ أمامها غير حلقة مفرغة من الاكتئاب والغضب واليأس لم تستطع الخروج منها، ففقدت حينئذٍ السيطرة وحاولت الانتحار بتناول حفنة من الحبوب المهدئة.

اكتشفها خورخي ورامون حين قررا في تلك الليلة الدخول إلى غرفتها لحمل الطعام إليها. لم تعلق في ذهن رامون عن تلك اللحظة إلّا ذكريات مشوشة. هو يتذكّر أنّهما تصرفا بعفويّة ولم يتوقفا عند التفكير في الأسباب. جرّها رامون اليائس جرّاً من سريرها وهي غارقة في برازها وبولها، وتمكن من إخراجها إلى الشارع، بمعونة خورخي، الذي كان يستعمل أطرافاً صناعية، بسبب التهاب في النخاع الشوكي ترك أثره في واحدة من رجليه. وأفلح الولدان، وهما في شغل عن قدميها اللتين كانتا تتجرحان من اصطدامها بحجر الرصف، غير عابئين ببرد ولا بمطر، من إيصالها إلى الشارع والصعود إلى سيارة والانطلاق بها إلى المستشفى.

لم تعد كاريداد إلى الحديث عن ذلك الفصل، بل لم تنطق بكلمة شكر لولديها على ما فعلاه من أجلها. لا شكّ في أنّ رامون فكّر، طوال سنوات، في أن صمتها ذاك كان لشعورها بالخجل من الضعف الذي كشفت عنه، وهي المرأة التي تريد أن تغيّر العالم، وزاد من شعورها بالمذلّة أنّها اضطرت، بعد خروجها من المستشفى، إلى القبول بأن يكون زوجها، الذي أبلغه أولاده بما حدث، مسؤولاً أمام الأطباء عن سلامتها. لم يرَ رامون أمّه تبكي إلّا في ذلك اليوم الذي ودّعته فيه وودعت خورخي لتسافر مع زوجها وأولادهما الصغار إلى برشلونه.

في وسط عاصفة الحبّ والكراهية التي عاشوها لسنوات كثيرة، لم تلاحظ كاريداد قط أنّ رامون، لحظة رآها وهي تسافر مع من كانت ترى فيه تجسيداً لما تحتقره، كبُر وما عاد طفلاً، ولم يمنحها هو متعة اعترافه بما شعر. لقد اقتنع بأنّ أمّه محقّة: فإن لم تستطع أن تكون حرّاً بحق فعليك أن تفعل شيئاً لتغيير هذا العالم القذر الذي يدنس كرامة الإنسان. ولن يلبث رامون أن يتعلّم هو الآخر أنّ ذلك التغيير لن يحدث إن لم يلتفّ الكثيرون حول الراية نفسها ويناضلوا كتفاً إلى كتف من أجلها: لا بدّ من الثورة.

-4-

«خراء الحاضر المتحجر»... رمى لييف دافيدوفيتش بالجريدة على الحائط وترك مكتبه. وبينما كان ينزل من درج المطبخ وصلته رائحة يخنة الجَدي التي كانت نتاليا تعدّها للعشاء، وبدت له تلك الرائحة الشهيّة مغرية. من خلف منضدة عمله تأمّل الرائعة سارة ويبر[25]، التي بدت له، وهي تضرب بسرعة على الحروف، آلة أوتوماتيكية لا تمتُّ للبشر بصلة. اجتاز باب الدخول إلى الحديقة المقفرة فابتسم له رجال الشرطة الأتراك واستعدوا للسير وراءه، لكنّه أوقفهم بإشارة منه. توقفوا وهم يتصنعون أنّهم يطيعون أمره، لكنّهم لن يغفلوا عنه لحظة واحدة، فالأوامر الصادرة لهم دقيقة صارمة: إنّ حياتهم تتوقف على ألّا يفقد المنفيّ حياته.

لم يشعر، وهو يهبط من على الكثيب الذي يموت عند الساحل، تتبعه كلبته مايا، إلّا قليلاً بجمال شهر نيسان في برينكيبو[26]. أيّة أحزان تلك التي في مقدورها أن تعذّب فكر رجل حسّاس ومقبل على الحياة مثل ماياكوفسكي[27] لكي يتنازل، طائعاً مختاراً، عن رائحة اليخنة وسحر الغروب والنظر إلى الفتنة الأنثوية ويلوذ بسكون الموت الأبدي؟ سأل

25-.هي سكرتيرة تروتسكي (1933-1934).

26- برينكيبو أو (بيوك آضه)، ومعناها بالتركية (الجزيرة الكبرى)، لأنّها كبرى الجزر التسع المعروفة بجزر الأميرات الواقعة في بحر مرمرة. من الآن فصاعداً سنستعمل التسمية الثانية في الإشارة إلى (برينكيبو).

27- فلاديمير ماياكوفسكي (1893-1930). شاعر الثورة ومن كبار الشعراء الروس. كاتب ومسرحي وثوري. مات منتحراً.

نفسه وهو يتقدّم على الشاطئ يرقب رشاقة كلبته، هبة الطبيعة التي بدت له غاية في الانسجام والتناسق.

قبل ثلاث سنوات، حين صدر الأمر بإبعاده من موسكو وانتحر صديقه الطيب يوفي [27]، قاصداً أن يحدث بفعله هزّة قادرة على تحريك ضمير الحزب وتمنع كارثة إقالة ليف دافيدوفيتش ورفاقه، فكّر في أنّ مأساوية ذلك الفعل لها دلالة في النضال السياسي، وإن لم يكن يشاركه الإيمان بنجاعة مثل ذلك الحل. لكنّ الخبر الذي قرأه للتوّ هزّه لما لمس فيه من قدر كبير من الإخصاء العقلي. فكم استشرى النفاق والفساد لكي يُقدم الشاعر ماياكوفسكي، ماياكوفسكي بالذات، على التهرب من مجسات استشعاره بإزهاق روحه؟ هل طفح خراء الحاضر المتحجر الذي أثار فزع الشاعر في أبياته الأخيرة حتى دفع به إلى الانتحار؟ وما كان للخبر الرسمي المعدّ في موسكو أن يكون أكثر إهانة لذكرى الفنان الذي ناضل من أجل فن جديد وثوري باندفاع وحماس فاق فيه سواه، والذي قدّم إلى روح مجتمعه الجديد شعراً مشحوناً بالصراخ والفوضى والانسجام المحطم وشعارات النصر، كما لم يفعل سواه غيرة وحمية، والذي أبدى إصراراً فائقاً على المقاومة وعلى تحمّل التشكيك والضغوط التي عمدت البيروقراطية بها إلى محاصرة العبقرية السوفييتيّة. يتحدث الخبر عن «شعور منحط بالفشل الشخصي»، وبما أنّ كلمة «انحطاط» تطلق، في الخطاب السائد في البلاد، على الفن والمجتمع والحياة البرجوازية، فهم حين جعلوا الفشل «شخصيّاً» إنّما يؤكدون، بدناءة محسوبة، ذلك الشرط الفردي الذي لا يوجد إلّا في الفنان البرجوازي، الذي يحمله دائماً، كما اعتادوا القول، كلّ مبدع، كالخطيئة الأصليّة، ومهما ادعى من ثوريّة. لم يكن لموت الكاتب، أوضح الخبر، من علاقة بـ «نشاطاته الاجتماعية والأدبية»، وكأنّ من الممكن فصل ماياكوفسكي عن أفعال كانت هي الهواء الذي يتنفسه.

لا بدّ أنّ أمراً وبيلاً وبغيضاً قد شاع في المجتمع السوفييتي ليجعل

منشديه الغيورين يطلقون النار على قلوبهم مستائين من الغثيان الذي يولده فيهم خراء حاضرهم المتحجر. كان ذلك الانتحار، ولييف دافيدوفيتش عارف وخبير بذلك، تأكيداً مأساويّاً لأوقات قادمة أشدّ اضطراباً، وإعلاناً عن أنّ آخر جمرات زواج المصلحة بين الثورة والفن قد انطفأت، وأنّ الفنّ سيكون هو الضحيّة: إنّها أوقات يمكن أن يشعر بها رجل مثل ماياكوفسكي، منضبط حتّى الانتحار، باحتقار أصحاب السلطة له حين يدير ظهره، لأنّ الشعر والشعراء في نظر هؤلاء انحرافات يمكن الاستعانة بها عند الحاجة لتأكيد تفوّقهم ورفعة مقامهم، ويمكن الاستغناء عنها حين تنتفي الحاجة إليها.

تذكّر لييف دافيدوفيتش أنّه كتب، منذ سنوات، أنّ التاريخ انتصر على تولستوي، لكنّه لم يكسره. فقد عرف ذلك العبقري، حتّى آخر أيامه، كيف يحافظ على نعمة الغضب الأخلاقي الثمينة، ولذلك أطلق في وجه رجال الكنيسة صيحته الشهيرة «لا يمكنني السكوت!». أمّا ماياكوفسكي فقد سكت، بعد أن ألزم نفسه بأن يكون مؤمناً، ولذلك انتهى مكسوراً. لم يقوَ على الذهاب إلى المنفى كما فعل الآخرون؛ ولم يتوقّف عن الكتابة حين كسر الآخرون أقلامهم. أصرّ على خدمة السياسة بشعره، ليضحّي هكذا بفنّه وروحه: اجتهد كثيراً من أجل أن يكون حزبيّاً مثاليّاً اضطر إلى الانتحار ليصبح شاعراً. كان صمت ماياكوفسكي ينبئ عن حالات صمت أخرى أشدّ إيلاماً من تلك التي ستتوالى، بكلّ تأكيد، مستقبلاً: لن يهدأ للتعصّب السياسي، الذي راح يغزو المجتمع، بال إلّا بخنق ذلك المجتمع. كما خنقوا الشاعر، وكما يحاولون خنقي، كتب المنفي، الواقف قرب بحر مرمرة، الذي يحيط به منذ عام مضى.

***

سيذكر لييف دافيدوفيتش، حتّى آخر يوم في حياته، بداية منفاه التركي في صورة مرور أعمى تنقّل أثناءه متلمساً الجدران في حركة دائبة. كان أوّل ما أثار دهشته أنّ عملاء الجيبيو، المكلفين بإيصاله إلى منفاه، سلّموه

ألفاً وخمسمئة دولار قالوا إنّهم مدينون له بها عن عمله، واستمروا يعاملونه بلطف، على الرغم من أنّه أرسل، بعد دخوله المياه التركية، برسالة إلى الرئيس كمال باشا أتاتورك يقول له فيها إنّه يقيم في تركيا لأنّه أجبر على ذلك. بعد ذلك ذهب إليه دبلوماسيو المفوضية السوفييتيّة في اسطنبول ليظهروا له من الحماية والودّ ما لن ينعموا بهما إلّا على ضيف من الدرجة الأولى، مبعوث من حكومتهم. لذلك لم يستغرب، إزاء ذلك اللطف المصطنع، أن تتكلّم الصحف الأوروبيّة، مدفوعة بالإشاعات التي بثّها رجال موسكو الموجودون في كلّ مكان، عن أنّ تروتسكي ربّما أرسل إلى تركيا بأمر من ستالين ليؤجج الثورة في الشرق الأدنى.

وقرّر، بعد أن أدرك أنّ الصمت والسلبيّة يمكن أن يكونا أسوأ أعدائه، أن يتحرّك. وبينما كان يلحّ في طلب تأشيرة للسفر من العديد من البلدان (تكلّم رئيس البرلمان الألماني عن استعداد بلاده لمنحه «لجوء حريّة»)، كتب مقالاً نشرته بعض الصحف الأوروبية أوضح فيه ظروف نفيه، وأدان أعمال الملاحقة والاعتقال التي يتعرض لها أتباعه في الاتحاد السوفييتي ووصف ستالين، للمرة الأولى علانية، بحفّار قبر الثورة.

وسرعان ما تغيّرت مواقف الدبلوماسيين والشرطة السوفييت، وكان غريباً أن يتوافق ذلك مع رفض النرويج والنمسا طلبه للجوء إليهما، ومع ما شهدته برلين، حيث بدأ ثلمان[28] والشيوعيون المناصرون لموسكو بالهتاف رافضين أيّة إمكانية لاستقبال المرتد في ألمانيا. واضطر آل تروتسكي إلى الإقامة في فندق صغير في اسطنبول بعد أن طردتهم القنصلية السوفييتية من دون أيّ اعتبار وجرّدتهم من كلّ حماية لتصبح حياتهم معرّضة إلى اعتداءات محتملة قد تأتيهم من أعدائهم الحمر والبيض. مع ذلك، بعث ليف دافيدوفيتش، ما إن استقر بهم المقام في الفندق، ببرقيّة أحرق بها آخر سفنه التي استودعها مصيره: «عندي أنّ

28- أرنست ثلمان (1886-1944). عضو في الحزب الشيوعي الألماني ثم أمينه العام في عام 1921. اعتقله الجستابو عام 1933 وظلّ في السجن إلى أن أعدم بأمر من هتلر.

الصمت طريقة غير صادقة للرفض». ثمّ بدا له أنّ ما قاله غير كافٍ فصلّب موقفه وأتبع تلك البرقيّة بأخرى أخيرة: «يؤسفني أن أُمنعَ من إمكانية أن أدرس عمليّاً فضائل حق اللجوء الديموقراطي».

فاجأهم الربيع في ذلك المسكن البارد ذي الجدران المتصدعة القذرة. ومع أنّ ليف دافيدوفيتش لم تكن لديه أيّة فكرة عن الخطوة التالية، فقد قرّر أن ينتهز الفصل وينفق وقت فراغه في التعرّف على اسطنبول المُبْهِجة. ولكن، ما كان لاكتشاف عالم من الرقّة، يرجع بالمرء إلى أصول الحضارة، أن يوقظه من حالة السبات المتشائم التي سقط فيها، ومن شعوره بالغربة عن نفسه ذاتها: كان ليف دافيدوفيتش تروتسكي في حاجة إلى سيف وميدان معركة وقتال.

بعد أسابيع، وافق، من دون حماس كبير، على اقتراح زوجه وأبنائه في القيام بجولة في بحر مرمرة حتى جزيرة بيوك آضه. كان الأرخبيل البركاني الصغير، الواقع على بعد ساعة ونصف من العاصمة، ملجأ للأمراء العثمانيين المخلوعين، وهو المكان الذي كان مقرراً أن يعقد فيه مؤتمر السلام لوضع نهاية للحرب الأهليّة الروسيّة عام 1919. انتهز ليف دافيدوفيتش تلك الجولة ليمنح ذهنه المشغول هدنة وليعرّض جسمه للشمس وليستمتع بتناول فطائر «البيدا» التركية اللذيذة التي أولعت نتاليا بها. كان في صحبتهم شابان من مؤيديه، كان صديقه القديم ألفريد روسمر[29] قد بعث بهما قبل أيام من فرنسا ليوفرا له حدّاً أدنى من الحماية والأمن.

أقلع المركب الصغير في الساعة التاسعة صباحاً. وارتدى الجميع قبعاتهم، واتخذوا أماكنهم في مقدمة المركب ليستمتعوا بمعاينة شطري اسطنبول. مع ذلك، كان ليف دافيدوفيتش يحاول أن يصل بنظره إلى

29- ألفريد روسمر (1877-1964). زعيم نقابي فرنسي وأحد مؤسسي الأممية الثالثة وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، ومن أصدقاء تروتسكي المقربين.

ما هو أبعد من المباني والكنائس المدببة والمساجد المقبّبة: كان يريد أن يرى نفسه في تلك المدينة التي ليس له فيها صديق صدوق ولا نصير موثوق. لكنّه لم يرَ نفسه. أحسّ ساعتها بأنّ منفاه بدأ: منفى حقيقي، شامل، ليس فيه ما يتشبث به ولا ما يتكئ عليه. هو فيه رجل وحيد، لا صحبة لديه غير عائلته وعدد قليل من أصدقائه الذين جددوا تضامنهم معه. أمّا حلفاؤه المؤثرون في نضال كالذي ينتظره (كيف يبدأ ومن أين يبدأ؟) فما زالوا أسرى معسكرات العمل، انهار منهم من انهار، وصمد منهم من صمد، لكنّهم جميعاً، الصامدين والمنهارين، ما زالوا هناك، داخل حدود الاتحاد السوفييتي، بينما راحت علاقته بهم تخبو مع البُعد والقمع والخوف.

كلّما استحضر ليف دافيدوفيتش ذلك الصباح بادي السكينة والهدوء، تذكّر إحساسه بالحاجة إلى الإمساك بيد نتاليا سيدوفا ليشعر بدفء كائن قريب منه، كي لا يخنقه قلقه من شعور بالضياع يطارده. لكنّه تذكّر أيضاً أنّه، في تلك اللحظة، جدّد قراره بأنّ مهمّته هي النضال، وإن كان وحيداً. فلئن سلّمت الثورة التي قاتل من أجلها جسدها لدكتاتورية قيصر يرتدي مسوح البلشفية، فالواجب يقتضي اقتلاعها من جذورها وإعادة غرسها، لأنّ العالم يحتاج إلى ثورات حقيقيّة. لقد قرّبه ذلك القرار، وهو مدرك واعٍ، من حتفه الذي كان يتربص به، قابعاً بين أبراج الكرملين. مع ذلك فقد يكون الموت أمراً محتّماً وتحصيلاً حاصلاً: فلطالما اعتقد ليف دافيدوفيتش أنّ حياة الرجل الواحد والعشرة والمئة والألف يمكن أن تفنى، بل يجب أن تفنى، إن كان ذلك ما يتطلبه الإعصار الاجتماعي لبلوغ أهدافه التحويليّة، لأنّ التضحية الفرديّة هي، في كثير من الأحيان، الحطب الذي يغذي النار في محرقة الثورة. لذلك كان يثير ضحكه أن تصرّ صحف معينة على الحديث عن «مأساته الشخصيّة». عن أيّة مأساة يتحدثون؟ كتب: في عملية الثورة التي تتجاوز الإنسان، لا مكان للتفكير في مآسٍ شخصيّة. مأساته الحقيقية كانت معرفته أنّه لا

يمتلك أتباعاً ومناصرين صهرتهم أفران الثورة لينهض بهم إلى الكفاح، ولا موارد مادية، ولا حزب. مع ذلك، فهو ما زال يحتفظ بما اعتبره دائماً خير أسلحته وأمضاها: قلمه، هو القلم نفسه الذي نشر أفكاره في مقالاته التي كان يبعث بها إلى صحيفة «إسكرا= الشرارة»[30]، التي هدت قلبه، في منفاه الأول، إلى الكفاح، منذ تلك الليلة من عام 1901، حين تلقّى الرسالة التي وضعت حياته النضالية في دوّامة التاريخ: لقد استدعي قلمه إلى مقر «إسكرا» في لندن، حيث كان في انتظاره فلاديمير إليتش أوليانوف، الذي كان معروفاً آنذاك بلينين.

أشار ليوفا بيده قائلاً إنّ قرية صيادين التي يشاهدونها على الساحل هي بيوك آضه، فأعادته كلمات الشاب إلى واقع جزيرة صغيرة تغطيها أشجار الصنوبر وبنايات تظهر على شكل نقاط بيض فوقها. حينها سأل، وهو يستفزّ القدر، إن كان ممكناً النزول في تلك الجزيرة لتناول الغداء: وأضاف، من دون تفكّر تقريباً، إنّ المكان يعجبه، ففيه هدوء سيساعده، بلا شك، على الكتابة، وفيه صيد جيد للتمتّع بأكل حوت الهركول. نظرت إليه نتاليا سيدوفا، وهي التي تعرفه حقّ المعرفة، وابتسمت وقالت: «بماذا تفكّر، ليوفنوشيك؟»...

لم تعرف المرأة بأفكار زوجها إلّا عقب أسبوع، فشعرت بالسعادة: إنّهم ذاهبون للعيش في بيوك آضه، أكبر جزر أرخبيل الأمراء المنفيين.

***

لم يجدوا صعوبة في العثور على البيت المناسب لاحتياجاتهم ومواردهم. كان بيتاً يقوم على مرتفع بسيط، على بعد مئتي متر تقريباً من المرسى، وبدا أنّ طابقيه مرتفعان إلى درجة أنّهما يضعان بروبنتس[31] تحت نظر ساكنيهما. استحسنوا أيضاً أنّ البناء محاط بسياج سميك يسهّل

30- ظهرت عام 1900 بهدف نشر الفكر الاشتراكي خارج روسيا، وتنقل مقر صدورها بين عدة مدن أوروبية. كان من محرريها لينين وكبار زعماء ثورة 1917.

31- هو الاسم القديم لبحر مرمرة.

على الشرطيين اللذين أرسلتهما الحكومة وعلى الشبان الفرنسيين، من أنصار محازبه مولينيه[32]، مراقبته وحراسته. كانت «الفيللا» ملكاً لباشا تركي عجوز، وكانت متهالكة كمالكها، لذلك شمّرت نتاليا سيدوفا عن ساعدها لتحويله إلى مكان صالح لسكنهم. وشارك الجميع، سكّاناً وشرطةً وحرساً وصحفيين عابرين، في حملة التنظيف، فصبغوا الجدران وكيّفوا الأثاث اللازم للأكل والنوم والعمل على المكان المتوفر. وظهر الارتجال الذي رتّبوا به ذلك الملاذ مع غياب مستلزمات الديكور والزينة، بل لقد خلت الحديقة من أيّة شجرة ورد: «غرس بذرة في الأرض سيكون بمثابة اعتراف بالهزيمة»، قال لييف دافيدوفيتش لامرأته، فما زال ذهنه معلّقاً في مراكز النضال التي يفكّر أنّه سيفلح في الدخول إليها عاجلاً غير آجل.

على امتداد سنة النفي الأولى، كانت المهمّة الأشق على المكلفين بحراسة الثوري وأمنه هي التعامل مع الصحفيين، الحريصين على الظفر بسبق صحفي منه، واستقبال الناشرين القادمين من شتّى أنحاء العالم (الذين تعاقدوا معه على نشر عدة كتب ودفعوا له مقدماً مبالغ سخيّة تخفف من الضائقة المالية التي تمرّ بها العائلة) والتحقق من صحة هوية الأنصار والأصدقاء الذين بدؤوا بالتوافد. مع ذلك، وبعيداً عن تلك الزيارات الثقيلة، فإنّ الحياة في تلك الجزيرة الضائعة في التاريخ، التي لا يرى فيها، طوال السنة، غير الصيادين والرعاة، كانت من البدائية والهدوء أنّ من اليسير الكشف عن أيّ حضور غريب فيها. لقد شعر لييف دافيدوفيتش، على الرغم من سجنه، بشيء قريب من السعادة لعثوره على ذلك المكان الذي لم تدرج فيه سيارة، والذي كانت وسيلة النقل فيه هي ذاتها قبل خمسة وعشرين قرناً: ظهر حمار.

ما إن استقر المنفي حتّى بدأ بالتحضير لهجومه المضاد، وقرّر أن يولي أولوية لتوحيد المعارضة خارج الاتحاد السوفييتي، لكنّه سرعان

32- ريمون مولينيه (1904-1994). أحد زعماء التروتسكية في فرنسا.

ما اكتشف أنّ ستالين سبقه كثيراً إذ كلّف بيادقه في الكومنترن[33] بمهمة تحويل شخصه وأفكاره إلى صورة كبير أعداء الثورة. وكما كان متوقعاً، فقد كان عدد الشيوعيين الأوروبيين الذين تجرؤوا على تبنّي الهرطقة «التروتسكيّة» قليلاً، ولا سيّما حين بدا أنّها لا تعود بفوائد عمليّة، وأنّها تؤدي بكل تأكيد إلى الطرد الفوري من الحزب، بل من صفوف المناضلين الثوريين. مع ذلك، فقد أصرّ ليف دافيدوفيتش ووضع على عاتق ابنه ليوفا مهمة تنظيم حركة للمعارضة، بينما انصرف هو إلى العمل مع أبرز أتباعه. أمّا بقيّة الوقت فقد خصصه لكتابة سيرته الذاتية، التي بدأ بكتابتها في آلماتا، وفي جمع المعلومات لكتاب «تاريخ الثورة» الذي خطط لتأليفه.

من بين الـزوّار الذين استقبلهم في تلك الأشهر الأولـى رفاقه القدامى ألفريد ومارغريت روسمر، والعنيدان في السياسة دائماً نافيل وسوفارين[34]، والمتهوّر ريمون مولينيه، الذي جاء يجرجر زوجه «جين» وأخاه هنري وكأنّه ذاهب بهما في رحلة صيفيّة. لكنّ أوّل الواصلين، كما كان متوقعاً، كانا صديقيه المخلصين موريس ومادلينا باث[35]، اللذين لم يعودا لرؤية آل تروتسكي منذ أن طردوا من فرنسا إبّان الحرب العالمية

33- وهو المختصر الإنكليزي لعبارة(الشيوعية العالمية) أو (الأممية الشيوعية) COMENTERN. هي منظمة دولية أسست في موسكو عام 1919 بهدف نشر الفكر الشيوعي في أنحاء العالم وإسقاط البرجوازية الدولية وصولاً إلى إقامة الجمهورية السوفييتية الدوليّة وإلغاء مفهوم الدولة.

34- بيير نافيل (1904-1993). مثقف وعالم اجتماع فرنسي. انتمى إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1926 وتبنى أفكار تروتسكي في أعوام الثلاثينيات، ثمّ انتمى إلى الحزب الاشتراكي الموحد الفرنسي. بوريس سوفارين (1895-1984). مؤرخ وصحفي وكاتب اشتراكي وشيوعي فرنسي مولود في روسيا. من الأوائل الذين فضحوا الطبيعة المستبدة لستالين. وألف كتاباً حول سيرته.

35- موريس باث (1896-1985). محامٍ ومؤرخ وسياسي فرنسي. عضو مؤسس في الحزب الشيوعي الفرنسي. أسس مع زوجه مادلينا باث (1889-1973) أول نواة للمعارضة عام 1923 وتحالفا مع تروتسكي.

الأولى. وقد أحدث وصول الزوجين، اللذين حملا معهما الجبنة الفرنسية، دفقة من سعادة في صورة حريّة تسمح لهما باستقبال رفيقين من رفاقهم القدماء. كان الزوجان «باث»، أثناء إبعاده في آلماتا، ممثليه في باريس، وقد سافرا إلى بيوك آضه لمراجعة حسابات والتزامات، وليجددا له تضامنهما المجرّب في أوقات الشدّة والمحن.

لقد اكتسى واحد من الأحاديث التي جرت مع الزوجين «باث» بعداً غريباً عقب أشهر قليلة، حين كسر ستالين حاجز الدم المقدس. كانت نتاليا وليوفا وموريس ومادلينا وليبف دافيدوفيتش، تسبقهم الكلبة مايا قد نزلوا، عصر يوم من أوائل أيام أيّار، باتجاه الشاطئ للاستمتاع بنسمة العصر، يحملون قربة من النبيذ الأحمر اليوناني، بينما كان رجال الشرطة الأتراك يحضرون عشاءً من السمك والبحريات المتبلة على الطريقة التركية. كان ليبف دافيدوفيتش يعاني من ألم في أسفل ظهره بسبب الجهد الذي بذله أثناء حملة تأهيل المسكن. لم تكن تلك الحالة تسمح له بمواصلة كتاباته العديدة التي كانت بين يديه. بعد تناول الكؤوس الأولى أطلق الزوجان «باث» العنان لحماسهما حول إمكانية النضال جنباً إلى جنب مع ليبف تروتسكي الأسطوري، وأعربا عن سرورهما لأنّ المنفي الذي يتأمل الآن غروب الشمس في بيوك آضه ليس هو ذاك الذي ودّعاه في باريس 1916، حين كان يتحرّك صوتاً ثائراً متطرفاً، ولكن من دون انتماء محدد، بين اتجاهات حركة سريّة لم يكن يراهن على نجاحها إلّا القليلون. أمّا الآن فهو «المُبعد»، والعالم يعرفه، فهو رفيق لينين وقائد ثورة أكتوبر ومفوّض الحرب المنتصر ومؤسس الجيش الأحمر ومنشّط الأممية الثالثة، التي أسسها مع فلاديمير إليتش. بل لقد ذكّره موريس، ربّما منطلقاً من قناعته بأنّ مضيفه في حاجة إلى أن يرفع من روحه المعنوية، بأنّ شخصيّته بلغت مستويات لا يمكنه النزول منها، ولا يسمح له بالتراجع عنها. وراح يشيد بمسؤوليته التاريخيّة، إذ لم يسبق لأيّ ماركسي، ربّما باستثناء لينين، أن امتلك تلك السلطة الأخلاقيّة،

لا بصفته منظّراً ولا بوصفه منضالاً. وأنهى كلامه قائلاً: «منافسك هو التاريخ، وليس الدخيل ستالين، الذي سيسقط في أيّة لحظة فريسة طموحه...».

حاول المُبعد أن يخفف من نبرة التعظيم التاريخيّ تلك، فذكّر محازبه بأنّ ما من شيء خلفه غير ألم ظهره، وأنّ روح العداوة التي تحيط به مقتدرة ومطلقة، أمّا نزاعه الرئيس فهو مع ثورة قادها إلى النصر ومع دولة ساعد على قيامها: وذلك الواقع هو ما يقيّد إحدى يديه.

على الرغم من ذلك التمجيد وكلمات المودّة التي تصله كلّ يوم بالبريد، كان ليف دافيدوفيتش يعرف أنّ أولئك الأنصار لا يحملون آثار الجراح التي لا تتركها على الأبدان إلّا المعارك الحقيقيّة. لذلك واصل، وبصمت، رهن مستقبل نضاله بعمليات إبعاد المعارضين التي سيأمر ستالين، من دون شك، بها؛ وسيعمل ثبات هؤلاء الرجال، الذين صهرهم الظلم والتعذيب والنفي، والذين ظلّت قناعاتهم، مع ذلك، سليمة معافاة، على تقوية الحركة ودعمها.

حلّ الصيف فزالت بحلوله رُقية السلام الذي كان مخيماً على الجزيرة. لقد وصل تجّار اسطنبول وموظفوها، وتعالى ضجيجهم الصاخب السوقي، إلى بيوك آضه، بعد أن لم تسعفهم مواردهم المحدودة في الوصول إلى باريس ولندن. وتمكن ليف دافيدوفيتش، الذي اعتكف في منزله، من الدفع قدماً بكتابه الذي يستعرض فيه حياته، وإن لم يستطع التخلّص من خيبة الأمل التي كان يشعر بها مع وصول أنباء عن عمليات تنازل واستسلام للسلطة يُقدم عليها أبرز زعماء المجموعات المعارضة. وانصرف، من على صفحات «جريدة المعارضة»، التي بدأت تصدر في باريس، وعن طريق رسائل مسرّبة بطرق ملتوية إلى داخل الاتحاد السوفييتي، إلى تحذير رفاقه من أنّ ستالين يسعى إلى أن يتخلوا عن مواقعهم، بوعود سياسية لن يفي بها (اعتاد لينين أن يقول إنّ اختصاصه هو عدم الوفاء بالوعود) وبالإعلان عن تعديلات لن ينفذها، لأنّها

ستعني اعترافه ضمناً بتلاعبات لا يريد الدبّ الجبلي[36] أن يعترف بأنه مارسها أبداً. كتب: «لن يقبل ستالين بالمستسلمين في موسكو إلّا حين يأتون راكعين ومستعدين للإقرار بأنّه، وليسوا هم، كان دائماً على حق».

أقنعت موجة الاستسلام تلك ليف دافيدوفيتش بأنّ حربه تبدو خاسرة، على الأقل داخل الاتحاد السوفييتي. لقد وضعت الحركة الفجائيّة التي نفذها ستالين، إذ استولى على البرنامج الاقتصادي للمعارضة وأجبر منافسيه السابقين على المجاهرة بتأييدهم للاستراتيجيّة التي قدمها على أنّها استراتيجيته، نقطة النهاية لهزيمة سياسية كتبت أقسى فصولها حين استسلم رجال بدؤوا، وقد وجدوا أنفسهم مقيدي اليدين موثوقي القدمين، يسألون أنفسهم عن سبب استمرارهم في تحمّل النفي وتعريض أهليهم إلى أقسى الضغوط دفاعاً عن مُثُل هي، في نهاية الأمر، مُثل فرضت نفسها فرضاً. وتمثلت الحالة الأشد إيلاماً من سقوط المعارضة المدوي في الإعلان عن أنّ رجالاً نابهين من قدر راديك وسميلغا وبريوبراجنسكي[37] أبدوا رغبتهم في التصالح مع خط ستالين، فليس في ذلك ما يلامون عليه، بعد أن تحققت الأهداف الكبرى التي ناضلوا من أجلها. كان موقف راديك هو ما بدا له، على وجه الخصوص، دنيئاً ذليلاً، راديك الذي صرّح بعدائه لتروتسكي منذ أن صار هذا الأخير ينشر مقالات في الصحافة الإمبريالية. أمّا الأدعى إلى الحزن فكان علمه بأنّ أولئك الثوريين، وعلى رأسهم زينوفييف، صنّفوا، بعد استسلامهم، في مرتبة القريبين من درجة العفو: وهم صنف الرجال الذين سيعيشون في خوف من أن ينطقوا بكلمة واحدة بصوت عالٍ، ومن أن يبدوا أيّ رأي. وهم الذين سيضطرون إلى الزحف زحفاً، يقلّبون وجوههم يمنة ويسرة ليراقبوا ظلهم.

36- الدبّ الجبلي. لقب كان يطلقه تروتسكي على ستالين.

37- كارل راديك (1885-1939).صحفي وسياسي وثوري بولوني. إيفار سميلغا (1892-1938) سياسي وثوري سوفييتي. يفغيني بريوبراجنسكي (1886-1937) سياسي واقتصادي وعضو في الحزب البلشفي ثم في الحزب الشيوعي السوفييتي.

لكنّ أحدث الأخبار وأصدقها حول حالة المعارضة وصلت إلى بيوك آضه عن طريق وسيط غير منتظر. كان الوقتُ في بداية آب، وكان حامل الأخبار شبح قادم من الماضي اسمه ياكوف بلومكين[38].

كان بلومكين قد أرسل له رسالة من اسطنبول يطلب منه أن يسمح له بلقائه. تقول الرسالة إنّ الشاب عائد من الهند، بعد أن أنجز مهمّة في مكافحة التجسس، وهو راغب في أن يراه ليجدد له احترامه وولاءه. حين علمت نتاليا سيدوفا برسالة بلومكين طلبت من زوجها ألّا يستقبله: فليس للقاء بإرهابي سابق، أصبح ضابطاً رفيعاً في جهاز الجيبيو، إلّا أن يأتي بالمصائب. وعبّر ليوفا أيضاً عن شكوكه حول جدوى اللقاء، وتطوّع أن يقابله هو، للإبقاء عليه بعيداً عن الجزيرة. فنبّه ليف دافيدوفيتش ولده إلى أنّ الواجب يقتضي، على الأقل، أن يستمعوا إلى ما يريد ذلك الرجل، الذي عهد إليه في وقت من الأوقات بأكثر السُّلطات مأساوية: سُلطة «دعه حيّاً أو اقتله».

قبل اثنتي عشرة سنة، استدعاه مفوض الحرب الجديد، ليف تروتسكي، إلى مكتبه. كان بلومكين حينها شابّاً يافعاً، يبدو وكأنّه إحدى شخصيات دستويفيسكي، وكان يواجه تهماً تقضي المحكمة العسكرية فيها بالإعدام. كان الشاب واحداً من ناشطَي الحزب الاجتماعي الثوري اللذين اغتالا السفير الألماني في موسكو، بقصد إسقاط اتفاقية السلام المثيرة للجدل التي وقعها البلاشفة مع ألمانيا في بريست- ليتوفسك، بداية عام 1918. طلب ليف دافيدوفيتش، عشية المحاكمة، بإحضار الشاب إلى مكتبه، بعد أن قرأ قصائد كان قد كتبها. تحدثا تلك الليلة لساعات عن الشعر الروسي والفرنسي (توافقا على الإعجاب ببودلير) وعن عبثية الأسلوب الإرهابي وعقمه (إذا كان كلّ شيء يحل بالقنابل فما الفائدة من الأحزاب، ولماذا صراع الطبقات؟)، وعند نهاية الاجتماع كتب بلومكين رسالة عبّر فيها عن ندمه على ما بدر منه وتعهد، إن هم

38- ياكوف بلومكين (1900-1929). عميل في جهاز التشيكا ثم في جهاز الجيبيو.

عفوا عنه، أن يخدم الثورة في الجبهة التي يختارونها له. وكان تأثير المفوض القوي حاسماً ليغفر له ويعفى عنه، بينما أبلغوا الحكومة الألمانية رسمياً بأنّ الإرهابي أعدم. في ذلك اليوم كتب لييف تروتسكي لياكوف بلومكين حياة جديدة.

برز بلومكين أثناء الحرب عميلاً في مصلحة مكافحة التجسس، وهو ما عاد عليه بالنياشين والترقيات، بل بعضوية الحزب البلشفي. مع ذلك فقد عدّه رفاقه القدامى خائناً، ونجا بأعجوبة من محاولتين لاغتياله. في الأشهر الأخيرة من الحرب، وبينما كان يتعافى من جراح محاولة الاغتيال الثانية، ضُمّ إلى هيئة لمستشاري لييف دافيدوفيتش، الذي كافأه، بعد ما رأى من قدراته وإمكانياته، بمنحه توصية خاصة للدخول إلى الأكاديمية العسكرية. مع ذلك مالت به قدرته على إنجاز مهمات التجسس إلى عالم المخابرات، ومنذ سنوات ونجمه يسطع في سماء المصالح السرية، فواصل العمل لصالحها، على الرغم من أن الجميع يعرفون، بمن فيهم الرئيس الأعلى لجهاز الجيبيو، بأنّ ميوله السياسية كانت، بسبب إخلاصه لتروتسكي، مع «المعارضة».

حين قصّ عليه ليوفا تفاصيل لقائه مع بلومكين (كان الإرهابي السابق في رحلة إلى الهند وهو الآن في تركيا لبيع مخطوطات عبرية قديمة للحصول على أموال للحكومة)، اقتنع لييف دافيدوفيتش بأن العميل السري ما زال على ودّه له، ووافق على استقباله، على الرغم من تحذيرات نتاليا سيدوفا.

حين رأى لييف دافيدوفيتش مجدداً الوجه اليهودي المميّز والعينين الكبيرتين اللتين تشعّان ذكاءً للشاب الصغير ياكوف، كما اعتاد أن يناديه، أحسّ بفرحة غامرة، مشحونة بمشاعر الحنين. وامتزج الاثنان في عناق حار، وقبّل بلومكين وجه مضيفه وشفتيه مرات ومرات، ثمّ بكى، كما فعل في الليلة التي كتب فيها الرسالة التي أنقذت حياته في مكتب مفوض الحرب القوي المقتدر.

كانت زيارات بلومكين الثلاث لبيوك آضه، في الأسبوع الثاني من شهر آب، بمثابة دفقة من الروح في حالة الخمود التي بدأت تتمكّن من لييف دافيدوفيتش. وضحك الاثنان وبكيا، بين استذكار الماضي وأخبار الحاضر، وتناقشا (حتى في موضوع ماياكوفسكي وحالة الشعر السوفييتي المزرية)، وعرض عليه بلومكين، بعد أن وضعه في الصورة عن حالة المعارضين اليائسة داخل البلاد، أن يكون ساعياً لبريده في عودته القريبة إلى موسكو، لأنّ طبيعة عمله المخابراتي في تحييد أعداء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية في الخارج لا يتعارض، حسب رأيه، مع أفكاره السياسية المعارضة.

سمع لييف دافيدوفيتش من فم العميل حجج راديك لتبرير استسلام لم يكن، في رأي الشاب، سوى مناورة هدفها كسب الوقت. ودافع بلومكين عن موقف صديقه راديك، في عرض لقدرة فائقة على حفظ الود والإخلاص، فهو أيضاً يعتقد أنّ من الممكن النضال من داخل الحزب، وأنّ النضال من داخل الحزب خير من النضال من خارجه. واعترف له لييف دافيدوفيتش أنّه ما عاد يثق في قدرة حزب يتزعمه رجل مثل ستالين وينتمي إليه آخر مثل راديك. وتعجّب بلومكين من تشاؤمه وذكّره بأنّه، هو بالذات، لييف دافيدوفيتش، لا يمكن له أن يضعف.

ترك سفرُ الشاب في نفس المنفي شعوراً بالفراغ، حلّ مكانه، عقب أسابيع، شعور بسخط متولد عن الخيانة. أمّا سبب تغير الحالة المعنوية فقد كانت رسالة وصلت إليه من آل باث، بدأها مرسلاها، بعد تحيّة باردة لم يألفها منهما، في الموضوع من دون أيّة اعتبارات: «لا تعلّق الكثير من الآمال على وزن اسمك». كان لتلك الفقرة طعم شاهد القبر، فقد وضعت الثوريّ، وبطريقة مثيرة للفزع، أمام نهايته السياسية الواضحة. «لقد شوّهت الصحافة الشيوعيّة طوال خمسة أعوام صورتك حتى لم يبق من صورة قائد الجيش الأحمر وزعيم العمال في أكتوبر إلّا ذكرى مشوشة مبهمة. وصار اسمك مع مرور الوقت لا يعني شيئاً، وستنتهي

الحملة التي بدأت ضدك بالقضاء عليك بعد أن قضت على اسمك». بعد انتهائه من القراءة الثالثة للرسالة مسح نظاراته بطرف قميصه الروسي، وكأنّ عدساتها هي المسؤولة عن الفهم المضطرب لكلمات بلغت سمعه مؤلمة على الرغم من صدقها. حين ابتعد عن النافذة التي كان ينظر منها إلى الحديقة، التي غزتها الأعشاب الضارة وغزاها البريق الزيتي لبحر «بروبنتس» القديم، شعر بأن تفاؤله المتماسك وإيمانه القوي بالقضية ما عادا قادرين على إنقاذه من الإحساس بالوحدة الذي أحاط به وغزاه. وهل كان قليلاً ما شهد من المصائب في أشهر قليلة ليكتب له موريس ومادلينا باث تلك الرسالة المسممة بالحقائق؟ وكيف قرر الواقع أن يبدّل خطاباً موجّهاً لمخاطبة كبرياء رجل عملاق إلى أفكار موجهة للحط من قدر رجل طواه النسيان؟... أمّا أشدّ ما أشعرته به الرسالة من المهانة فهو أنّ آل باث، في زيارتهما الثانية له في بيوك آضه، قبل شهر واحد فقط، لم يصارحاه بأفكارهما وفهمهما، وسافرا وهما يعدانه ويتعهدان له بالعمل من أجل وحدة التروتسكيين الفرنسيين، الذين يحافظون، كما كررا له القول، على اسمه ومكانته ويتمسكون بأفكاره سليمة معافاة.

ظلت تلك الرسالة تتنقّل على مكتب لييف دافيدوفيتش، شاهدة على تذبذبه بين أن ينساها وألّا ينساها. ووجد في اقتراب فصل الشتاء، وما فيه من هدوء، ما دفعه إلى أنّ يركز جهده في عمله الجاد، فانكبّ على كتابة «تاريخ الثورة». وطلبت نتاليا سيدوفا منه ذات مرّة أن يردّ على الرسالة، فردّ عليها بحجة ابتدعها.

ما كان من وجه شبه بين برد الشتاء في بيوك آضه وذاك الذي عانوا منه في آلماتا من عام مضى. لقد اعتاد لييف دافيدوفيتش، وقد تدثّر بلبادة قديمة، أن يستمتع بساعة الشروق وهو في مكتبه، يحتسي القهوة ويتأمّل ضوء الفجر وهو ينساب، من خلال ستار فضّي، ثلاثي الأبعاد تقريباً، فيجعل البحر يتوهّج. كان في ذلك اليوم يستعدّ للعمل في تاريخ الثورة حين دخل ليوفا ليخرجه من شرود فكره. وصلت أخبار من موسكو. لقد

صار التفكير في أنّ أمراً خطيراً وقع لعزيز مما يثير فزع المنفي ويحطمه. توجّه ليوفا، وقد بدا متردداً في الكلام، للجلوس في الطرف الآخر من المنضدة ليكون في مواجهة ليف دافيدوفيتش، الذي ظلّ صامتاً، وهو مقتنع بأنّه سيستمع إلى أمر مروع. لكنّ كلمات ولده فاقت توقعاته: «لقد أعدموا بلومكين».

وافاه ليوفا بالتفاصيل: «لقد انقطعت أخبار العميل لأنّه ظلّ محتجزاً طوال شهرين في أقبية اللوبيانكا[39]، يخضع لاستجواب رفاقه في الشرطة السريّة. وبحسب المصدر السوفييتي، فقد جرى اعتقاله عقب بلاغ قدمه راديك، الذي كان بلومكين نفسه قد أطلعه على لقاءاته بتروتسكي. لكنّ راديك نفى أنّه هو من وشى به، وأكّد أنّ جهاز الجيبيو علم بأنّ بلومكين زار تروتسكي وعاد إلى الاتحاد السوفييتي برسائل منه إلى المعارضين. لا أحد يعرف على وجه التحديد متى أعدم»، قال ليوفا.

شعر ليف دافيدوفيتش بالذنب يضيّق عليه. لقد كانت نتاليا سيدوفا على حق: ما كان عليه أن يلتقي الشاب، إنّه يرى الآن واضحاً أنّ ستالين تعمّد أن يمرّ بلومكين بتركيا لعلمه بأنّه سيحاول لقاءه، وكان يخطط، بهذه الطريقة، لتلقين المعارضين درساً قاسياً. لكنّ ستالين ذهب هذه المرّة بعيداً جدّاً: فقتل الخصوم بسبب خلافات سياسية هو تكرار للخطأ الذي ارتكبه اليعاقبة في فتح أبواب الثورة على الانتقام والعنف بين الإخوة[40]. كانت إحدى الشروط التي وضعها لينين وطالب بها دائماً (مع أنّه لم يكن رحيماً حين تستدعي السياسة ذلك، قال لابنه ليوفا) ألّا تسيل الدماء بينهم. لا بدّ لموت الشاب ياكوف من أن يكون دافعاً لتحريك ضمائر الشيوعيين الذين يدينون بالطاعة لستالين. يمكن لبلومكين أن يصبح

39- هو المبنى الذي يضمّ مقر المخابرات السوفييتية في موسكو.

40- إشارة إلى ما عرف بـ «عهد الإرهاب» الذي حدث إبّان حكم اليعاقبة من أتباع روبسبير أثناء الثورة الفرنسية.

ساكو وفانزيتي[41] نضالنا، قال لولده ليوفا، الذي كان ينظر إليه بعينين ثابتتين. ولئن أحسّ الشاب بالشفقة على أبيه للحظة، فقد كان، في تلك اللحظة، يلوم، بلا شك، نفسه.

حين انصرف ليوفا، فكّر لييف دافيدوفيتش، ونظرته مثبتة في البحر، أنّه سيتأسف طوال حياته على ضعفه العاطفي الذي منعه من تقدير أنّ حضور بلومكين إلى تركيا كان بداية لعبة شطرنج غامضة من تدبير ستالين. وبهذه الروح، تناول ورقة بيضاء وتهيأ لإنجاز واجب معلّق:

«السيد والسيدة باث:

تلقيت اليوم خبراً يكشف عن دناءة أشخاص مثلكما، لا يعدوان عن أن يكونا بلاشفة صالونات، لا يريان في الثورة إلّا تسلية وقضاء وقت. في مقدوركما، وأنتما اللذان لم تذوقا الظلم ولا التعذيب ولا برد الشتاء في معسكرات العمل، أن تتخليا عن الكفاح حين لا يبلغ ما تأملاه من النجاح والظهور. لكنّ الثوري الحقيقي لا يكون حقيقيّاً إلّا إذا قدّم الفكرَ على طموحه الشخصي. قد يكون الثوريون مثقفين أو جهلة، أذكياء أو حمقى، لكنّهم لا يستطيعون أن يظلّوا من دون إرادة، من دون إيمان، من دون روح تضحية. ولمّا لم يكن لهذه الخصال عندكما من وجود، فأنا أشكر لكما أنّكما تنحيتما عن الطريق بسرعة ونشاط.

ل.د. تروتسكي

***

لم يعرف لييف دافيدوفيتش في العام الأول من منفاه غير الهزائم والخيانات: فقد تشظت المعارضة في داخل الاتحاد السوفييتي من دون

41- نيكولا ساكو (1891-1927) وبارتولوميو فانزيتي (1888-1927) عاملان وفوضويان إيطاليان كانا يعيشان في ماساشوستس واتهما بجريمة سطو مسلح وقتل شخصين وأعدما بالكرسي الكهربائي. ثمّ تبين أنّ الحكم كان مدفوعاً بمشاعر المدعي العام والقاضي المعادية للإيطاليين وللمهاجرين وللفوضوين، مما أثار موجة من النقد بين الرأي العام العالمي.

أن تقع عمليات الإبعاد المنتظرة. أمّا في خارج البلاد فقد كان أتباعه يتصارعون على قطعة من السلطة، أو ليكونوا على اليسار تقريباً من فكرة ما، أو لأنّهم تخلوا عنه، كما فعل الزوجان «باث»، بعد أن عجزا عن مقاومة ضغوط أتباع ستالين أو لأنهما فقدا الأمل في نصر واضح... وربّما كان هذا هو سبب الصدمة التي أحدثها فيه خبر انتحار ماياكوفسكي لأسابيع، شعر أثناءها بالذنب لأنّه جادل الشاعر مرّات كثيرة وقدّم بذلك الحجج للخصوم الذين نبعوا في كلّ أنحاء البلد.

في خضمّ تلك الخسارات، لم يُحدث وصول النسخ الأولى من سيرته الذاتية، التي كان متلهفاً لوصولها، إلّا القليل من الراحة في نفسه. حين أعاد قراءة كتابه، الذي انتهى منه قبل عام، أسف على أنّه خصص صفحات كثيرة لتبرئة ساحة نفسه، وهو ما يبدو تافهاً وسط ريح الشدائد العاصفة التي تتغذى على حيوات رفاقه وكرامتهم؛ وبدا له انتهازيّاً حرصه على تبرير خلافاته مع لينين طوال عشرين عاماً من المعارك، ولام نفسه على أنّه لم يتحلّ بالشجاعة الكافية للاعتراف، من منظور السنوات، الإيجابي أو السلبي، بالتجاوزات التي ارتكبها هو نفسه دفاعاً عن الثورة وعن ديمومتها. ومع أنّه لن يتجرأ أبداً على المجاهرة بذلك، فقد بدأ، منذ سنوات، يشعر بالندم على اللحظات التي تعسّف فيها باستخدام سلطاته، وسمح فيها للقوة بأن تتحكم به، بغضّ النظر عن الأهداف المبتغاة. بدت له عسكرة نقابات السكك الحديدية الضرورية، حين كان ميزان الحرب يعتمد على القاطرات المتوقفة في أيّ خط من خطوط السكك الحديدية في البلاد، إجراءً مفرطاً، وإن توقف مصير الثورة عليه وتعلّق به. ولن يغفر لنفسه أنّه حاول تطبيق تلك الإجراءات التأديبية لإعادة البناء بعد انتهاء الحرب، حين بدا واضحاً أنّ البلاد تقف على شفير التفكك وأنّ من غير الممكن حثّ العمال المستائين على ذلك إلّا بالقوة. تثقل عاتقه أيضاً مسؤوليته عن إبعاد الزعماء النقابيين ومحو الديموقراطية من التنظيمات العمالية والمساهمة في تحويلها إلى كيانات عديمة الشكل

يستخدمونها الآن على هوى البيروقراطيين الستالينيين لتقوية هيمنتهم. ساهم أيضاً، وهو في السلطة، في اغتيال ذات الديموقراطية التي صار يطالب بها وهو في المعارضة.

ولم يبدُ له دوره في سحق انتفاضة البحارة في قاعدة «كرونشتادت» في شهر آذار المشؤوم من عام 1921 أقلّ منقصة وخزياً[42]. كانت فرقة البحارة تلك، التي دعمت انقلاب البلشفيين في تشرين الأول عام 1917 وانتصرت الثورة بفضل تأييدهم لها، قد طالبت، قبل أربعة أشهر من ذلك، بحقوق أساسيّة من قبيل منح حرية أكبر للعمال وتوفير معاملة أقل ظلماً للمزارعين، الذين يجبرون على تسليم جلّ محصولهم، وحرمانهم، وهذا هو الأهم، من الحق المقدس في الانتخابات الحرة لمجالس السوفييت. وما كان للحجة القائلة بأنّ الفوضويين والضباط المناهضين للثورة يتحكّمون بأفكار البحارة الجدد في أسطول البلطيق أن تبرر الإجراء الذي تكفّل هو، بصفته مفوض الحرب، بتطبيقه: سحق الانتفاضة وفرض حالة من العنف وصلت إلى حدّ إعدام الرهائن. لقد صار واضحاً لديه ولدى لينين أنّ التنكيل يشكّل ضرورة سياسية، فمع علمهما بأن الاحتجاج لا يمكن أن يتحول إلى ثورة ثالثة معلنة، فقد كانا يخشيان أن تتفاقم الفوضى الناشبة في بلد مدمّر من جوع ومن شلل اقتصادي لتصل إلى حدود لا يمكن التنبوء بها أو السيطرة عليها.

ولو أنّ البلشفيين، وكان يدرك ذلك أيضاً، سمحوا بإجراء انتخابات حرة في آذار من عام 1921 لكان من المحتمل أن يخسروا السلطة، على الرغم من أنّ النظرية الماركسية، التي كان هو ولينين يستخدمانها لتبرير قراراتهما، لم تكن تأخذ في حسبانها أن يفقد الشيوعيون، وقد تسلّموا السلطة، دعم العمال. كان عليهم، وللمرة الأولى منذ انتصار أكتوبر،

42- حدثت في آذار 1921 على أيدي البحارة السوفييت في جزيرة كوتلين، ضدّ حكومة روسيا الاتحادية السوفييتية. وهي آخر ثورة كبيرة على البلاشفة ضمن الحرب الأهلية الروسية. وقد عرفت بثورة كرونشتادت نسبة إلى الحصن البحري في الجزيرة المذكورة.

أن يسألوا أنفسهم: (هل طرحنا على أنفسنا ذات مرّة هذا السؤال؟ قال لزوجه نتاليا سيدوفا) إن كان من العدل وضع الاشتراكية في مواجهة إرادة الأغلبية أو على هامشها. إنّ على الدكتاتورية البروليتاريّة أن تزيل الطبقات المستغِلّة، ولكن، هل عليها أن تقمع العمال أيضاً؟ كان الخيار مأساويّاً، خيار «الأبيض أم الأسود»: لم يكن ممكناً السماح بالتعبير عن الإرادة الشعبيّة، لأنّ ذلك قد يقلب العملية ذاتها. لكنّ إلغاء تلك الإرادة تحرم الحكومة البلشفيّة من شرعيتها الجوهريّة: وحين حلَّت الساعة التي تخلّت فيها الجماهير عن إيمانها، استدعت الحاجة إلى جعلها تؤمن بالقوّة. واستعملوا القوّة. في «كرونشتادت»- وكان ليف دافيدوفيتش يعلم بذلك- كانت الثورة قد بدأت تأكل أبناءها، وكان هو من تشرف بإعطاء الأمر بالشروع في الوليمة.

وربّما وجدت الحدّة التي تصرّف بها (عموماً بدعم من لينين) ما يبررها في تلك السنوات. أمّا الآن، فإنّه لا يستطيع، وهو يراجع مواقفه، إلّا أن يسأل نفسه: لو أنّه امتلك الوقاحة والدهاء اللازمين لتسلق السلطة عقب موت لينين، ألم يكن تحوّل، هو أيضاً، إلى قيصر في مسوح شيوعي؟ أمَا كان سيرفع مبررات ديمومة الثورة سلاحاً لسحق خصومه، كما رفعها لينين في عام 1918 وهو يقصد نزع الشرعية عن الأحزاب التي ناضلت مع البلاشفة من أجل الثورة؟ هل كان سيستطيع الحفاظ على متطلبات الديموقراطية في معارضة وأجنحة متعددة ضمن الحزب الواحد وصحافة من دون رقابة؟

***

ورأى ليف دافيدوفيتش مدى ما أخذت السياسة وشجونها من طاقته حين فاجأته زوجه بأنّ ولدهما ليوفا يعدّ العدة للرحيل عن بيوك آضه. في تلك اللحظة تكشّفت له الهزّة الخفيّة التي بدأت، من أشهر، تحرّك أسسَ مسكن بيوك آضه، حين بلغت قوتها درجة الهزّة الأرضيّة. تذكّر حينها أنّ نتاليا سيدوفا قالت له ذات مرّة إنّ من غير المناسب أن يعود

ريمون مولينيه إلى باريس وتظلّ زوجه «جين» معهم طويلاً. جرى ذلك الحديث بينهما في مساء حين خرجا للتنزّه حتى بلغا بناء فندق بيوك آضه بالاس القديم الفخم، وهو أكبر بناء خشبي في أوروبا. حين سمع ما قالته سألها باستغراب عمّا يحدث. وابتسمت وهي تشرح له الأمر بأسلوبها البراغماتي المعهود: يحدث أنّ الزوجات يجب أن يبقين مع أزواجهنّ، وأنّ ابنهما ليوفنوتشيك يكبر وأنّ النظر يعشو مع السنين، حتّى في حالة رجل مثله.

حتى تلك اللحظة، مثّل سفر ريمون مولينيه المستمر وعودته حدثاً من الأحداث الروتينية التي ألفها سكّان بيوك آضه. لقد تحوّل ذلك المناصر، بحيويته «المولينيّة»، التي كان ليف دافيدوفيتش معجباً بها، إلى الداعم الرئيس للمعارضة في باريس، بل لقد تحمّس لفكرة تحويل التروتسكيّة إلى قوّة سياسية داخل اليسار الفرنسي، فوضع اهتمامه وثروته وعائلته في خدمة المشروع. كان هو يجاهد في باريس بحثاً عن أنصار ومؤيدين لمشروعه، بينما تحوّلت زوجه «جين» إلى حلقة وصل بين الأمانة العامة، التي كانت تحت مسؤولية ليوفا، والمؤيدين التروتسكيين في أوروبا. لقد مسّ حماس مولينيه أليافاً حساسة في الثوري المحنّك، فقرر أن يضع بين يديه مصير المعارضة الفرنسية، غير ملتفتٍ إلى آراء رفاق آخرين، مثل ألفريد روسمر ومارغريت روسمر، اللذين قررا الانسحاب من المعركة بهدوء.

لكنّه لم ينتبه، إلّا الآن، إلى أنّ نتاليا شمّت رائحة ما سيحدث، منذ أن ترك ريمون زوجه للمرة الأولى في بيوك آضه: فقد كانت «جين» شابة، فيها من التراخي والفتور ما يتعارض والتعجّل الذي يتصف به زوجها، وكانت أعوام ليوفا الثلاثة والعشرون تنبض في كلّ خليّة من خلايا جسمها، حتّى وإن نذرت نفسها للقضيّة. لقد أدرك الثوري، وهو يستمع إلى زوجه تخبره بأنّ «جين» ستسافر إلى باريس لفضّ علاقتها مع ريمون، وبأنّ ليوفا يخطط للرحيل معها إلى مكان آخر، مدى ما قصّر من

ناحية الاهتمام باحتياجات ولده، وإنّ رأى أنّ عملاً استمرّ شهوراً كثيرة، وحصاداً متواضعاً ومؤلماً عقب منغصات ومصائب، قد يذهب سدى من جراء نزوة أنانيّة لرجل وامرأة. لم يتمالك نفسه في تلك الليلة، فعنّف ليوفا على عبثه العاطفي، الذي لا يليق بمناضل.

وكانت ردّة فعل ريمون، لحسن الحظ، فرنسية بامتياز، بحسب كلمات نتاليا، فقد ترك «جين» ترحل مع ليوفا، الذي كان يخطط للعيش في ألمانيا. حينها أدرك ليف دافيدوفيتش أنّ لا خيارَ أمامه غير القبول بذلك: فعلى الرغم من أن روح التضحية عند الفتى كبيرة، فليس في وسعه أن يطلب منه أن يدفن شبابه في جزيرة ضائعة. مع ذلك فقد آلمه أشدّ الألم، كتب، أن يفقد الرجل الوحيد الذي كان في مقدوره أن يحمّله خيبات أمله، والوحيد الذي كان يستمع إلى انتقاداته الصريحة، والذي لم يكن يخشى من طرفه أذى يأتيه في صورة طعنة تسدد إلى ظهره أو سمّ يسقاه أو رصاصة تخترق قفاه وتنهي، آجلاً أم عاجلاً، حياته.

لكن حَـدَثَ ما غطّى مؤقتاً على مشاعر القلق من رحيل ليوفا. كان حدثاً تحوّل، بعد أن شاع وعرف، إلى هاجس مثير لقلق ليف دافيدوفيتش: لقد تمخضت الانتخابات العامة الألمانية، التي جرت في 14 أيلول من عام 1930، عن حصول الحزب القومي الاشتراكي، بزعامة هتلر، على المرتبة الثانية في عدد الأصوات. لقد قفز من ثمان مئة صوت في عام 1928 إلى أكثر من ستة ملايين صوت. أصاب ليف دافيدوفيتش الذهول، وهو يقرأ عن سياسة الشيوعيين الألمان الغريبة وغير المسؤولة، فقد احتفلوا بارتفاع الأصوات التي حصلوا عليها من ثلاثة ملايين إلى أربعة ملايين ونصف صوت، وراحوا يرددون أنّ المدّ الهتلري ما هو إلّا رقصة الطائر المذبوح لحزب من أحزاب البرجوازية الصغيرة المحكوم عليها بالفشل. كان هو، قبل ذلك بأشهر، وفي واحدة من الرسائل التي اعتاد أن يصبّ فيها نيرانه على اللجنة المركزية للحزب السوفييتي، قد حذّر من خطورة تجذّر التيار القومي الاشتراكي في ألمانيا،

لأنّه يرى فيه ناقلاً لأيديولوجية قادرة على أن تجمع شتات كلّ «الغبار البشري» من برجوازية صغيرة فرمتها الأزمة وصارت متلهفة للانتقام. وبدأ، منذ ذلك الحين، بالتأكيد على ضرورة قيام تحالف استراتيجي بين الشيوعيين والاشتراكيين لإيقاف العملية التي قد تؤدي بأتباع هتلر إلى السلطة. وجاء الردّ على دعوته المنذرة وندائه المحذر في صورة أمر ورد من موسكو، عبر الكومنترن، بأنّ يمتنع الحزب الشيوعي الألماني عن الدخول في أيّ تحالف مع الاشتراكيين والديموقراطيين.

لم يشعر لييف دافيدوفيتش قط بوطأة الحكم الصادر عليه كما شعر به في تلك اللحظة. فأين حالة العزلة التي يعيشها في تلك الجزيرة الضائعة في الزمن، بلا نشاط يمارسه غير كتابة المقالات وتنظيم أتباعه المتفرقين، من الحالة التي يتحتّم عليه أن يكون فيها، وسط أحداث يلمسها لمس اليد ويشعر بها قريبة منه، أحداث تعني الشيء الكثير بالنسبة إلى مصير الطبقة العاملة في ألمانيا ومصير الثورة الأوروبية وربّما مصير الاتحاد السوفييتي ذاته. كان يدرك أنّ من الضروري تعبئة اليسار الألماني، فما زال من الممكن تحاشي الكارثة التي ترتسم معالمها في سماء برلين. أما من أحد يدرك أنّ هتلر إن وجد الطريق مسدوداً أمامه فسيستولي على السلطة وسيكون الشيوعيون أولى ضحاياه؟ ما الذي يجري في موسكو؟ سأل نفسه. كان يخمّن أنّ أمراً غامضاً يدبّر خلف أسوار الكرملين الحمر. ما لم يكن، حتى ذلك الوقت، قادراً على تصوره هو أنّه سيسمع قريباً جدّاً أولى صيحات العواء، تنزل من أعلى أبراج القلعة الموسكوفية. عواء مخلوقٍ مروّع قادر على أن يزرع الرعب في قلبه.

-5-

كثافة الهواء تدغدغ البشرة، ومن البحر المتلألئ ينبعث صوت خافت يدعو إلى الخدر. في مقدور الواحد هناك أن يشعر كيف أنّ العالم، في أيام ولحظات سحرية، يقدم له انطباعاً خدّاعاً بأنّه مكان أنيس لطيف، معمول على مقياس الأحلام وعلى ما يناسب أغرب ما يتمناه البشر. تتيه الذاكرة، المشربة بذلك الجو الهادئ، وتسهو عن الأحقاد والأحزان.

جلستُ على الرمل، وقد أسندتُ ظهري إلى جذع شجرة من أشجار «الكازوارينا»، وأشعلت سيجارة وأغلقتُ عيني. ساعة واحدة وتغرب الشمس، لكنّي، كما اعتدت أن تكون عليه حياتي، لم أكن أستعجل شيئاً ولا أنتظر شيئاً. بل لم يكن لديّ شيء البتة تقريباً، وتقريباً من دون تقريباً. لم يكن يهمّني في تلك اللحظة إلّا الاستمتاع بالهدية التي ستصلني لحظة الغروب، تلك اللحظة الرائعة التي تقترب فيها الشمس من بحر الخليج الفضّي لترسم على صفحته خطّاً من نار. في شهر آذار، حين يكون الشاطئ خالياً، كان موعدي مع ذلك المنظر يبعث في نفسي شيئاً من الراحة، حالة من الاقتراب من التوازن، تريحني وتسمح لي بالتفكير في حضور ألمسه، أحسّ به، حضور سعادة قليلة، معمولة على مقياس طموحاتي القليلة أيضاً.

كنتُ قد أخرجتُ من حقيبتي، وأنا أنتظر غروب الشمس في «سانتا ماريا دل مار»، الكتاب الذي كنتُ أطالعه. كان كتاباً من قصص ريمون

شاندلر[43]، أحد الكتّاب الذين كنتُ، وما زلتُ، أكنّ له كلّ إعجاب وتقدير. كنتُ تمكّنتُ من عمل مجموعة من أعمال شاندلر الكاملة تقريباً، وجدتها في أماكن لا تخطر على بال أحد، وضممتُ الطبعات التي صدرت منها في كوبا إلى الطبعات التي صدرت في إسبانيا والأرجنتين، وبالإضافة إلى خمس روايات من رواياته السبع، كان لديه عدة مجموعات قصصية، من بينها تلك التي كنتُ أقرؤها في ذلك العصر، وعنوانها «قاتل في المطر»، أصدرتها دار «بروغيرا» عام 1975. مع القصة التي تحمل ذلك العنوان هناك أربع قصص أخرى، بضمنها قصة عنوانها «الرجل الذي كان يحبّ الكلاب». قبل ساعتين من ذلك، حين كنتُ مسافراً بالسيارة صوب الشاطئ، بدأتُ بقراءة تلك القصة، التي شدّني عنوانها المفعم بالإيحاء، بعد أن مسّ نقطة ضعفي تجاه الكلاب مسّاً مباشراً. لماذا قررتُ أن أحمل في «ذلك» اليوم «ذلك» الكتاب، وليس غيره، من بين كتب أخرى ممكنة كثيرة؟ (لدي في البيت، من بين كتب أخرى اقتنيتها ولم أقرأها، رواية «الوداع الطويل»، وهي المفضلة من بين روايات شاندلر؛ «رابيت، اركض» ومؤلفها أبدايك[44]؛ و«حديث في الكاتدرائية»، لبارغاس يوسا، تلك الرواية التي جعلتني، بعد أسابيع من قراءتها، أرتجف، من فرط ما شعرتُ من الحسد). أظنّ أنّني اخترت «قاتل في المطر» من دون أن أعي تماماً ما يمكن أن تعنيه، ولمجرّد أنّها تضمّ تلك الحكاية التي تتحدث عن قاتل محترف ذي ميل خاص نحو الكلاب. فهل كان كلّ شيء منظماً مثل دست من الشطرنج (دست آخر) لم يكن فيه الكثير من الأشخاص - ذلك الشخص الذي أسموه أيضاً «الرجل الذي كان يحب الكلاب» وأنا، مع آخرين سوانا- إلّا قطعاً تتحرك بوحي من المصادفات وصروف الحياة والمقادير؟ هل هو «الغائيّة»، كما يسمونه الآن؟ لا يظنّن أحد منكم أنّني أبالغ، أو أنّني أحاول أن أعقّد ما هو معقد أصلاً أو أن أبحث عن مؤامرة

43- Raymond Chandler (1888-1959). روائي وكاتب أمريكي.

44- John Updike (1932-2009). روائي وشاعر وناقد أمريكي.

كونية في كلّ شيء صادفته في هذه الحياة العاهرة: لكن، لو أنّ الجبهة الباردة التي كانت متوقعة لذلك اليوم لم تنتهِ في رذاذ عابر من المطر، ومن دون أن تغيّر، إلّا قليلاً، درجات الحرارة، لما كنتُ في «سانتا ماريّا دل مار» في ذلك العصر من شهر آذار من عام 1977، أطالع كتاباً صادف أنّه يحتوي على قصة عنوانها «الرجل الذي كان يحب الكلاب»، ولا أنتظر غير جنوح الشمس نحو الخليج. لو أنّ واحدة من تلك الحلقات تغيّرت، لما سنحت لي فرصة التركيز في ذلك الرجل الذي كان يقف على بعد أمتار من المكان الذي كنتُ أنا فيه وينادي على كلاب حقيقية بهرني منظرها ما إن رأيتها.

- إيكس! داكس! - صاح الرجل.

حين رفعتُ نظري، رأيت الكلبين. أغلقت الكتاب من دون إرادة لأتأمّل ذينك الحيوانين الغريبين، وهما أول كلبي صيد روسيين، من نوع «البورزوي» الثمين، أراهما رأي العين وليس في صور كتاب أو في المجلة البيطرية التي كنتُ أعمل فيها آنذاك. في ضوء المساء الربيعي المشوش بدا الكلبان كاملين تامّين، رائعين من دون شك، عظيمين، وهما يركضان على الشاطئ محدثين طرطشة في الماء بأرجلهما الطويلة الثقيلة. تأمّلتُ بريق الجلد الأبيض المشوب بلون أرجواني غامق في الظهر وفي مؤخرة البدن، وتأملتُ دقة المخطم، القادر، بحسب أدبيات الكلاب، على كسر عظم فخذ ذئب.

على بعد عشرين متراً تقريباً بدت صورة ظلّ حرقتها الشمس للرجل الذي نادى على الكلبين. حين بدأ بالسير باتجاه المكان الذي كان فيه الكلبان وأنا، كان أوّل ما خطر على بالي هو السؤال عمّن يمكن أن يكون ذلك الشخص الذي يمتلك، وهو في كوبا السبعينيات، كلبي صيد روسيين، أصيلين في ما يبدو. لكنّ انتباهي ظلّ منشغلاً بجري الحيوانين ولعبهما، ونهضتُ، لا يجذبني غير الفضول، وتقدمتُ خطوات نحو الشاطئ لأنظر، من قريب، إلى كلبي «البورزوي»، بعد أن صارت

الشمس في ظهري. في تلك الوضعيّة ومن ذلك المكان سمعتُ مجدداً صوت الرجل وقررتُ للمرة الأولى أن أنظر إليه.

قدّرتُ أنّ عمر الرجل قريب من السبعين (تبيّن لي بعد ذلك أنّ عمره كان أقل من ذلك بنحو عشر سنوات)، أشمط الشعر مجزوزه، ويلبس نظارات مرقشة الإطار. كان طويلاً، عابس الوجه أقرب إلى الضخامة، لكنّه غير أنيق. يمسك بسيرين من الجلد بينما ربطت يده اليمنى بضماد من النسيج الأبيض وكأنّه يحمي جرحاً حديثاً أصابه. استرعى انتباهي أن يرتدي بنطلوناً من القطن باللون الكاكي، وخفّين جلديين وقميصاً عريضاً كثير الألوان: ملابس تنبئ في الحال عن هويته الأجنبيّة في بلد قمصان «كلّنا- لدينا»، (المقلمة أو المربعة)، وأحذية «اذهب وإلّا ركلتُ مؤخرتك» أو «القدم المتعفنة»، (أحذية طويلة روسية أو أحذية الهنود الحمر البلاستيكيّة) وبنطلونات الجنفاص أو البولستر، التي تخنق بيضتيك في حرّ الصيف القائظ.

وصلنا إلى الاقتراب من بعضنا إلى حدّ أن تقاطع النظرات بيننا بات أمراً محتماً: ابتسمتُ له وتبسّم هو في وجهي، وقد بدا عليه كبرياء من يمتلك كلبي صيد روسيين. وبعد أن نادى على الكلبين مرّة أخرى، أشعل سيجارة وقرّرتُ أنا أن أفعل فعله، فتقدمتُ أربع أو خمس خطوات أخرى حيث توقّف مَن أفترض أنّه أجنبي.

- كلباك رائعان.

- شكراً - ردّ الرجل-. إيكس! داكس! - كرّر، وأنا ما زلتُ عاجزاً عن تحديد مصدر لهجته.

- هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها كلاباً من فصيلة «البورزوي». فضّلتُ التوجّه بنظري إلى حيث الكلبان، اللذان اقتربا في لعبهما من صاحبهما.

- إنّهما الوحيدان في كوبا - قال هو وفكّرتُ أنا: إنّه إسباني.

لكنّي لمستُ في لهجته نبراتٍ غريبة جعلتني أشكّ.

- تحتاج إلى تمرين كثير، لكن يجب مراعاة حرارة الجو.

- فعلاً. الحر مشكلة. لذلك آتي بهما إلى هنا...

- قرأتُ أنّ هذه الحيوانات قويّة جدّاً، لكنّها في الوقت نفسه رقيقة. كانت كلاب قياصرة روسيا...- ترددتُ في طرح سؤال قد تكون فيه جرأة، لكنّي لم أكن أملك ما أخسره، فسألته-: هل أتيتَ بهما من الاتحاد السوفييتي؟

نظر الرجل إلى البحر ورمى بسيجارته إلى الرمل.

- نعم، أهدوني إيّاهما في موسكو.

- لكنّ حضرتك لستَ روسيّاً، أليس كذلك؟

حدّق الرجل في عينيّ وضرب على ساق بنطلونه بالسيرين الجلديين. استنتجتُ أنّه ربّما لم يعجبه أن أخلط بينه وبين روسي، لكنّي أقنعتُ نفسي بأنّ سؤالي لا يمكن أن يحمل على هذا المحمل. هل يمكن أن يكون بالفعل روسيّاً- لا، ربّما جورجي أو أرمني، من لون شعره وبشرته - ولذلك تظهر في لهجته تلك النبرة الغريبة وذلك التفخيم عند لفظ الكلمات؟

في تلك اللحظة، لمحتُ، من فتحة بين أشجار «الكازوارينا»، شخصاً أسود طويلاً ونحيفاً يتطلّع إلينا، وقد وضُع منشفة على كتفيه، من دون مواربة ولا تخفّ، فكأنّه كان يراقبنا. لكنّي التفتُّ حين سمعتُ الرجل يهمس بشيء لكلبيه، وهو يضع لهما السيور، بلغة لم أتبينها. حين نهض لاحظتُ أنّ قدمه قد زلّت، فكأنّه أصيب بدوار واستمعتُ إليه يتنفس بشيء من الصعوبة. وفجأة بادرني بالسؤال:

- من أين لك كلّ هذه المعرفة بالكلاب؟

- أنا أعمل في مجلّة بيطرية وقد انتهيت للتوّ من مراجعة مقال حول علم الوراثة كتبه عالم سوفييتي، وقد تكلّم فيه كثيراً عن كلاب «البورزوي» وعن سلالتين أخريين أوروبيتين. ثمّ إنّني مغرم بالكلاب أجبتُه بجرّة واحدة.

ابتسم الرجل للمرة الأولى. حملني تهرب الرجل من الردّ على سؤالي عن أصله، ومظهره غير المألوف وعيشه في موسكو، بالإضافة إلى وجود الرجل الأسود النحيف الذي يراقبنا، على التفكير في أنّ رجل الكلبين دبلوماسي.

- أتمنّى أن أقرأ هذا المقال.

- أظنّ أنّ في الإمكان الحصول على نسخة - قلتُ، من دون أن أفكر في أنّني، من أجل تحقيق ذلك الوعد (حتى صدور المجلة بعد شهرين) سأضطر على الأرجح إلى كتابة النص المليء بالرموز الجينية الغريبة على الآلة الكاتبة.

- أنا أحبّ الكلاب - قال الأجنبي مستخدماً الفعل «يحب» بتلك الطريقة التي ما عاد أحد تقريباً يستعمله بها، وبدا لي في ابتسامته حنين خفي، لا صلة له بكلماته اللاحقة-. مع السلامة.

تمتمتُ أنا بمثلها متأخرة: مع السلامة، وأنا غير متأكّد إن كان الرجل، الذي بدأ بالابتعاد إلى حيث الأسود الطويل النحيف، قد سمعني أم لا. حين أدرك الكلبان نيّته في الانصراف، جريا صوب الأسود، الذي جلس القرفصاء لاستقبالهما والمسح على بطنيهما بالمنشفة التي ظلّت معلّقة على كتفيه. اقترب الأجنبي منهما وحرف مساره فكأنّه أراد أن ينحرف انحرافاً بسيطاً أو أن يتجنّب السير في خط مستقيم، وبعد أن قال شيئاً للأسود، ضاع بين أشجار «الكازوارينا» يتبعه كلباه، اللذان راحا يسيران على وقع خطوات سيدهما. وعاود الأسود، الذي استدار ليرمقني بنظرة خاطفة، وضع المنشفة على كتفه وتابعهم حتّى اختفى هو الآخر بين الأشجار.

حين عاودتُ النظر إلى الشاطئ رأيت الشمس تلمس البحر في الأفق وترسم خيطاً دمويّاً يوشك أن تطفئه الأمواج، على مسافة خطوات قليلة من قدمي. بدأ ليل التاسع عشر من آذار من عام 1977.

***

قبل سنة من تعرّفي على الرجل الذي يحبّ الكلاب، كنتُ قد بدأتُ العملَ مصححاً في المجلة البيطريّة. كانت تلك الوظيفة هي النتيجة التي خرجتُ بها من سقطتي الثالثة، وهي الأكبر في حياتي.

في عام 1973، حين انتهيت من دراستي الجامعية، بدرجات ممتازة، بالإضافة إلى كتاب منشور، اختاروني للعمل مديراً للتحرير في إذاعة محليّة في «باراكوا»، البلدة النائية الضائعة (لا توجد صفات أخرى تصفها) التي تفخر، بسند من التاريخ وبقدر كبير من الخيال، بأنّها أوّل مدينة أسسها الإسبان، وبأنّها كانت أيضاً أول عاصمة للجزيرة التي اكتشفها أولئك الفاتحون. كان سبب منحي تلك المرتبة الرفيعة - ذكر لي «الرفيق» الذي استقبلني في مصلحة التشغيل، قسم الخريجين الجامعيين الجدد - لا يعود إلى تميّزي في الدراسة بقدر ما يعود إلى أنّ عليَّ، بحكم شبابي آنذاك، أن أكون مستعدّاً للانطلاق متّى أؤمر وإلى حيث أؤمر وللوقت اللازم وتحت أيّة ظروف. لم يتكلّم عن أنني ملزم بالعمل في المكان الذي يختارونه، وفق القانون الذي يسمّى «قانون الخدمة الاجتماعية»، الذي يلزم جميع الخريجين الجدد بأداء تلك الخدمة مقابل الدراسة الجامعية المجانية التي تلقيناها. ما لم يقله لي الرفيق أيضاً، على الرغم من أنّ السبب الحقيقي الذي جعل «أحداً ما» يقرر «أن يختارني» و «يدفع بي» إلى وظيفة «باراكوا»، هو تقديرهم أنّني بحاجة إلى «شدّة أذن» لإنزالي من عليائي ووضعي في حجمي الطبيعي، كما يقال في العادة.

أمّا الحافز الأكبر الذي حملتُه معي وأنا أصعد إلى الحافلة التي أوصلتني إلى «باراكوا»، بعد رحلة دامت ستّاً وعشرين ساعة، فكان التفكير في الميزة التي سيعود عليَّ بها ذلك النوع من النفي الذي يشبه نفياً إلى سيبيريا استوائية: فما سيفيض هناك من الوقت، وخصوصاً مع العمل الذي كلّفوني به، سأخصصه للكتابة. كان ذلك الحلم يتحرّك في داخلي كالجنين في المشيمة، كالضرورة البيولوجية. في تلك الحقبة

كنتُ أعي بقدر كافٍ أنّ قصص كتابي المنشور هي قصص ذات نوعيّة مشؤومة، ولئن حاز الكتاب على المرتبة الأولى في مسابقة للكتّاب الجدد قضت بطبعه، فبسبب المواضيع التي عالجتُها وطريقة عرضها، لا بسبب القيمة الأدبية للنصوص. أنا كنتُ قد كتبتُ تلك القصص وأنا مشبع، أو بالأحرى، مذهول بالجوّ القاسي المنغلق الذي كنتُ أعيشه بين جدران الأدب والأيديولوجية الأربعة في الجزيرة، فقد عصفت بها، في السنوات الأخيرة، حركات من كلّ صنف ونوع: طرد وتهميش وإبعاد للمشاغبين و«توصيف» لمثيري المتاعب ورفع متوقع لأسوار التعصّب والرقابة إلى عنان السماء. لم أكن الوحيد، بالطبع، الذي تصرّف كالقرد النشيط الذي يتحدث عنه شاندلر، والذي بدأ، بعد أن تسلّح بالقناعات الرومانسيّة، التي كنّا جميعاً تقريباً نمتلكها في تلك الأوقات، بكتابة ما يجب كتابته، ومن دون انتظار الكثير، في تلك اللحظة التاريخيّة (من حياة الأمّة والإنسانيّة جمعاء): قصص عن حاصدي قصب مجتهدين، وعن مقاتلين شجعان مدافعين عن وطنهم، وعن عمّال متفانين تتصل نزاعاتهم، التي ما زالت تؤثر على وعيهم، بعوائق موروثة من الماضي البرجوازي - الذكوريّة، مثلاً؛ والشك حول تطبيق منهج في العمل، مثلاً أيضاً-، وهي موروثات عليهم، باجتهادهم وشجاعتهم وتفانيهم، أن يتخطوها في صعودهم نحو صفتهم المعنوية كرجال جدد... لكنّي، وبعد مرور وقت، حين نظرت إلى داخلي وأقدمتُ على محاولة أدبيّة خجولة للابتعاد عن ذلك الجدول وتلوينه بألوان أخرى، ضربوني بالمسطرة على يدي لأسحبها.

ومع أنّ الواقع كان يحاول في كلّ يوم مهاجمتنا والاعتداء علينا، فأنا الآن أجدُ غريباً، بل غير مفهوم تقريباً، أن شرح كيف كانت تلك الحقبة، بالنسبة إلى الكثيرين منّا، حقبة عشناها في نوع من فقاعة الصابون كنّا نحفظ أنفسنا فيها، (في الواقع حفظونا فيها)، لاهين عن الغليان الذي كان يعيشه محيطنا، بل جوارنا الأقربُ إلينا. أعتقد أنّ أحد العوامل التي

غذّت سذاجتي (أو بالأحرى، سذاجتنا) هو أنّني، وأنا طالب في الثانوية والجامعة، في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، كنتُ رومانسيّاً مؤمناً: عملتُ في قطع القصب، في موسم حصاده الأبدي عام 1970، إلى حدّ الإنهاك، وانقصم ظهري وأنا أزرع قهوة الكاتورّا، وتلقّيت تدريبات عسكرية شاقة من أجل استعداد أفضل للدفاع عن الوطن، وشهدتُ مبتهجاً استعراضات وتجمعات سياسية. وكنتُ على الدوام مؤمناً متيقناً، ومسلحاً بذلك المزيج المتماسك، الذي كان يغمرنا جميعاً تقريباً، من الحماس المقاتل وذلك الإيمان الصلب بإنجاز كلّ أهداف حياتنا تقريباً، والإيمان، على نحو خاص، بضرورة الانتظار الصابر، والأكيد، للمستقبل المشرق الوضّاء الذي سيشهد ازدهار الجزيرة ماديّاً وروحيّاً، كما تزدهر جنّة من الجنان أو حديقة من الحدائق.

أظنّ أنّنا، في تلك السنوات، وضمن العالم الغربي المتحضر والطلابي، الوحيدون من جيلنا الذين لم نضع، مثلاً، سيجارة الماريجوانا بين شفاهنا، والوحيدون الذين تأخرنا، على الرغم من الحرارة التي تجري في عروقنا، في التخلّص من التقاليد الجنسية، وعلى رأسها حُرمة العذريّة (ليس أقرب إلى الأخلاق الشيوعية من التعاليم الكاثوليكيّة)؛ في الكاريبي الإسباني كنّا الوحيدين الذين عشنا من دون أن نعرف بأن موسيقى الصلصا كانت في طور ولادة وذيوع، أو أن البيتلز (والرولينغ ستونز وماماس آند ذي باباس أيضاً) كانوا رموزاً للتمرّد وليس للثقافة الإمبرياليّة، كما كانوا يقولون لنا؛ ثمّ كنّا، حينها، وكما هو متوقع وسط حظر المعلومات وتشويهها، آخر من أدرك حجم الجرح المادي والفلسفي الذي أحدثته في براغ الدبابات المُهددة المتوعدة، ومذبحة الطلبة في ميدان «تلاتيلولكو» في المكسيك، والدمار الإنساني والتاريخي الذي أحدثته الثورة الثقافية للرفيق المحبوب «ماو»، وولادة نوع آخر من الأحلام، لم نشهدها نحن، في شوارع باريس وفي حفلات الروك في كاليفورنيا.

أمّا ما كنّا عالمين به ومتأكدين منه فهو أنّ كلّ ما يُنتظر منّا هو الولاء والمزيد من التضحيات والطاعة والمزيد من الانضباط. لم نفهم في الواقع إلّا قليلاً كيف غيّرت ما يمكن أن أسمّيها بالكارثة السياسية الاقتصادية التي نتجت عن فشل موسم حصاد القصب عام 1970 حياة البلد، وإن أدركنا بعد تلك التجربة المؤلمة أنّ المستقبل المشرق الوضاء، الذي كنّا نراه قريباً، ابتعد عنّا قليلاً (لن أنسى الأشهر الأربعة التي أمضيتها في حقل لقصب السكر وأنا أقطع وأقطع وأقطع بكلّ قوتي واضعاً إيماني في كلّ ضربة منجل، مقتنعاً بأنّ تلك المهمة البطوليّة ستكون حاسمة للخروج من تخلفنا، كما كانوا يقولون لنا). لم تفاجئنا حالة العوز التي اشتدّت منذ ذلك الوقت، فقد رحنا نألفها، كما لم يفزعنا أن يزداد حمل المطالب الأيديولوجية علينا، ردّاً على الإخفاق الاقتصادي، فقد كانت تشكّل جزءاً من حياتنا، نحن الشباب الثوري المتطلع إلى أن يصبح شيوعيّاً، وكنّا نفهمها أو نريد أن نفهمها على أنّها ضرورية لازمة. هزّنا في أجواء الغليان تلك سماعُ خبر إيقاف اثنين من أساتذة الجامعة عن عملهما لأنهما اعترفا بتبنّي معتقدات دينيّة، لكنّنا استمعنا بصمت وأقررنا التهم التي أسست لقرار صودق عليه حزبيّاً ووزاريّاً، ورأينا فيها تهماً منطقيّة. ثمّ طُردت مُدرستان أخريان طرداً نهائيّاً بسبب ميولهما الجنسيّة «المنحرفة»، فلم يهزّنا الخبر كثيراً، ربّما تسبب لنا في هزّة هرمونيّة، فمن كان يصدّق أنّ تينك المدرستين كانتا سحاقيتين، وخصوصاً الحنطيّة، التي كانت حامية جدّاً وهي في عزّ سنواتها الأربعين.

أظنّ أنّنا كنّا في عام 1971، العام الذي اشتدّت فيه حرارة الجوّ مع صدور الأمر بملاحقة أيّ نوع من التهكّم يلوح من بعيد، حين ارتكبتُ خطيئة كبرى، صدرت عن براءة وصدق، في الطريق العام. لقد بدأ كلّ شيء حين تجرأتُ على القول، في حلقة من الأصدقاء، إنّ هناك أساتذة آخرين ما زالوا يعملون، بفضل البطاقة الحمراء التي يحملونها في جيوبهم، ويشهد القاصي والداني أنّهم أسوأ علميّاً من أولئك الذين

أوقفوا عن العمل بسبب تدينهم، وإنّ هناك آخرين، على قيد الحياة أيضاً ويحملون هوية الحزب، تبدو عليهم ملامح المخنثين والسحاقيات أكثر من المُدرستين المبعدتين. لا أتذكّر إن كنتُ أضفتُ القول بأنّي لا أرى في معتقدات فلان ولا في ميول علان الجنسية ما يصحّ أن يعدّ مشكلة ما دام الأمر لا يؤثر على التلاميذ... بعد أشهر عرفتُ أن ذلك التعليق غير المناسب تحوّل إلى سبب سقطتي الأولى، حين رفضوا قبولي في مجموعة النخبة بعد صعودي في عضوية الشبيبة لأنّي أخفقتُ في تجاوز بعض المشاكل الأيديولوجية، ولأنّي أحتاج إلى المزيد من النضج والقدرة على فهم قرارات الرفاق المسؤولين. قبلتُ النقدَ وتعهدتُ بإصلاح الخلل.

لم أكن أعرف أنّ تلك الدفقات من الهواء العكر هي جزءٌ من إعصار كان يطوف صامتاً، ولكن بقدرٍ مدمّر، في أرجاء الجزيرة، التي تبنّت، في النهاية، مساراً يعتمد مفهوم المجتمع والثقافة المأخوذ من النموذج السوفيتي. أضيفت ساعتان دراسيتان أسبوعيّاً لقراءة الخطب والمواد السياسية، وتكررت الدعوات بخصوص طول الشعر وعرض السراويل، وانتقد الطلبة الذين يميلون إلى مظاهر الثقافة الغربية والأمريكية، وصار ذلك كلّه جزءاً مكمّلاً من العالم الذي نعيش فيه، وقضينا على كلّ مظاهر التطرّف (أنا على الأقل قضيتُ عليها)، من دون مشاكل كبيرة ولا قلق، ومن دون فكرة عن ظلمات العصور الوسطى وادعاءات الجراحة الفصيّة التي كانت تحركها. من دون أن نناقش شيئاً تقريباً.

ورحت، بكلّ سذاجتي السياسية والأدبيّة التي أحملها (والقليل من النبوغ كما أظن)، أكتبُ تلك القصص التي صنعتُ منها أخيراً مجلداً من مئة ورقة «من قطع الربع» أرسلتها إلى مسابقة للكُتّاب الذين لم يسبق لهم النشر. وما هما إلّا شهران حتّى تلقّيتُ بمفاجأة وفرح خبر وصولي إلى النهائيات، التي تعني، من بين أشياء أخرى، نشر المخطوط. لقد أزال ذلك النجاح أيّة شكوك ممكنة في روحي، وشعرتُ، ولأوّل مرّة في

حياتي، بل للمرة الوحيدة في حياتي- ربّما لأنّني كنتُ مخطئاً تماماً-، بالثقة بنفسي وبقدراتي وأفكاري: لقد أثبتُّ أنّني كاتبٌ أنتمي إلى زمني، وما عليَّ الآن إلّا أن أعمل لوضع الأساس لصعودي نحو مجدي الفني والمنفعة الاجتماعية، كما كنّا نفكّر آنذاك عن الأدب (كان بالأحرى يبدو سُلّماً لعيناً وليس مهنة ماسوخيين بائسين كما هو في الحقيقة).

بين المتطلبات الجامعية والنشاطات الكثيرة السياسية الأيديولوجية اللاصفيّة (التي تخضع للاختبار والتقويم بقدر النشاطات التعليمية، وأحياناً أكثر)، بالإضافة إلى الشلل الذي أصابني، وقد انتشيتُ بالنجاح الذي منحني شعبيّة وامتيازاً غير منتظرين (انتخبوني سكرتيراً للنشاطات الثقافية في اتحاد الطلبة في الكليّة، وطليعيّاً في العديد من المنافسات)، ومع الأدب الحقيقي الذي كنتُ أقرأه في ذلك الوقت، خصوصاً، لم أتمكّن طوال سنتين من العودة إلى كتابة أيّة قصّة بدت لي قريبة من إمكانياتي وطموحاتي. لكنّي اضطررتُ، وأنا في السنة الرابعة والأخيرة في الجامعة، وكان كتابي «الدم والنار» قد نشر، إلى أن أرقد في السرير ثلاثة أسابيع بسبب التواء في كعب قدمي، وعندها كتبت قصّة، أطول من تلك التي اعتدت كتابتها، عثرتُ فيها على موضوع وعلى نبرة وطريقة في رؤية الواقع ترضياني وتؤكدان لي، من دون أن أكونَ عبقرية فذّة، كم أنا قادر على أن أتفوّق على ذاتي. وبلا شك، فقد فعلت موجة شعوري بالانتصار والشهرة فعلها، خصوصاً تلك القراءات التي انغمست بها محاولاً العثور على أسباب أخلاقيّة في كبار الكتّاب - كافكا وهمنغواي وغارسيا ماركيث وكورتاثر وفولكنر وورولفو وكاربنتيير، يا إلهي، كم كنتُ بعيداً عنهم!-، ووضعت ثمرة خجولة في تلك القصّة حيث رويتُ قصّة مناضل ثوري يشعر بالخوف، وقبل أن يتحوّل إلى واشٍ، يقرر الانتحار... طبعاً أنا لم أستطع، حتى مجرّد التفكير في أنني أستبق نفسي وأستخرج من خوفي المستقبلي التفكير العميق حول أسباب الخوف وحول ما هو أدهى منه وأسوأ: آثاره المدمرة.

في نهاية العام 1973، وكنتُ حينها قد انتهيت للتوّ من امتحانات الفصل الدراسي الأول، راجعتُ القصّة في صورتها النهائية وحملتُ الأوراق، مطبوعة على الآلة الكاتبة، إلى المجلة الجامعية ذاتها التي نشرت فيها، قبل سنة ونصف، واحدة من قصصي، مع مقدمة للناشر تحدث فيها عنّي ووصفني بأني أديبٌ واعد على المستوى الوطني، وربّما العالمي، لأنّ الحلول التي أقدمها واقعيّة ولأنّ رؤيتي للفن هي رؤية اشتراكيّة. حظيتْ قصّتي الجديدة بالترحيب الحار، وأكدوا لي أنّهم سينشرونها في عدد آذار أو في عدد نيسان على أبعد تاريخ. ولم أنتظر طويلاً لأعلم كيف تلقّى القرّاء أفضل قصصي وكيف قرؤوها: فبعد أسبوع طلبني مدير المجلة في مكتبه، وهناك تعرضتُ لثاني سقطة في حياتي وأظنّ أنّها كانت أشدّ إيلاماً من الأولى. فما إن دخلتُ حتى بادرني المدير الغضبان: كيف تجرؤ على تسليمنا هذا؟ «هذا» كانت هي الأوراق التي سطرتُ عليها قصتي، وكان المدير المحتدّ، أو بالأحرى المثير للاشمئزاز، يحملها بين يديه، هناك، خلف المكتب...

ما زالتُ إلى الآن أشعر بألم المجهود الاستثنائي الذي أبذله لتذكّر ما قاله لي ذلك الرجل المجسّد للسلطة، الواثق من قدرته على بثّ الرعب. ولأنّ قصّتي تكررت كثيراً مع كتّاب كثيرين آخرين، فسأعمل الآن على إيجازها: «تلك القصّة غير مناسبة وغير قابلة للنشر وغير مقبولة إطلاقاً، لأنّها قصّة مضادة للثورة تقريباً»- وأحدثَ سماع تلك الكلمة، كما لكم أن تتصوروا، رجفة باردة في بدني، بالطبع رجفة خوف-. مع ذلك، وعلى الرغم من خطورة الموضوع، فقد قرّر هو، بصفته مدير المجلة، و«الرفاق» (كلّنا نعرف من كان «الرفاق» وماذا كانوا يفعلون)، ألّا يتخذوا بحقّي أيّ إجراء، مراعاة لعملي السابق وسنّي والارتباك الأيديولوجيّ الواضح الذي أعاني منه، وسيتصرفون وكأنّ تلك القصة لم ترَ النور، وكأنّها لم تخرج من رأسي. «لكنّهم»، هو و«الرفاق»، يأملون ألّا يتكرر هذا الأمر، ويتمنون عليَّ أن أدوّر الأفكار في رأسي أكثر ساعة الكتابة،

لأنّ الفن سلاح من أسلحة الثورة، ختم كلامه، وهو يطوي الأوراق ويحشرها في دُرج مكتبه ويغلق عليها بمفتاح حشره في جيبه بالقوة ذاتها التي كان سيبتلعه فيها.

أذكر أنني خرجت من ذلك المكتب أحمل مزيجاً مبهماً ومختلطاً من المشاعر (ارتباك وقلق والكثير من الخوف)، ولكنّي خرجتُ ممتنّاً. نعم، ممتنّاً كثيراً، من أنّهم لم يتخذوا بحقي أيّة إجراءات أخرى، وأنا العارفُ بما يمكنهم أن يتخذوه منها، وليس بيني وبين نهاية دراستي الجامعية سوى أربعة أشهر. في ذلك اليوم عرفتُ ما معنى أن تشعر بالخوف، «الخوف»، بحروف بارزة كبيرة، خوف حقيقي، نافذ، واسع وقدير؛ خوف يفوق في قدرته التدميرية خوفنا من الألم أو خوفنا الذي عانيناه جميعاً ذات مرّة. ما حدث حقيقة في ذلك اليوم هو أنّهم أفسدوا عليَّ بقيّة حياتي وعيشتي، وانصرفتُ، كما قلتُ، وأنا أشعر بالامتنان، وبالخوف يرهقني، لكنّي كنتُ مقتنعاً تماماً بأنّ الواجب كان يقتضي ألَّا أكتب قصتي، لأنّ ذلك هو أسوأ ما يمكن لهم أن يحملوا الكاتب على فعله.

من الواضح أنّ ذلك الفصل، ومعه تعليقاتي المحفوظة جيداً حول طرد الأساتذة وولعي الجديد بأدب كتّاب مثل كامو وسارتر (كان سارتر حتّى سنوات قليلة محبوباً في الجزيرة، لكنّه الآن كاتب ملعون، لأنّه تجرأ على توجيه انتقادات تنمّ عن فساد أيديولوجيته البرجوازية الصغيرة)، كانت موضوعة على مكتب آخر يوم حددوا مكان عملي بعد تخرجي. لقد خطرت ببالهم فكرة عبقرية تقضي بإرسالي إلى «باراكوا» النائية. ففي ذلك المكان سأجد التطهير اللازم لي، وإن بدت الوظيفة مكافأة وجائزة. وصلتُ إلى «باراكوا» في شهر أيلول، وكان الحرّ الرطب والمرهق، الذي لم أرَ مثله، ما زال يخيّم عليها، وإن كان يلازمني شعور ساذج بأنني سأتمكن هناك من إصلاح حال تطلعاتي الأدبيّة. ما لم أستطع أن أدركه إلى الآن هو مدى عمق تلك السقطة الثانية، وحجم الضرر، الذي لا مرجع عنه الذي عانيت منه، ولذلك ما زلتُ مقتنعاً بأنّني، على الرغم من

زلة القصّة «غير المناسبة»، كنتُ مهيّأً لكتابة الأعمال الجيدة التي يتطلبها زمني وظروفي. وسأثبت بها أيضاً مبلغ قدرتي على الاستماع، وكم أنا جديرٌ بالثقة.

كان مدير التحرير في الإذاعة ينتظر وصولي ليرحل هو عن «باراكوا». أمضى معي أسبوعاً لتدريبي على التفاصيل الفنيّة لعملي. كانت مسؤوليتي تبدو، للوهلة الأولى، سهلة: ترتيب النشرات الإخبارية التي يكتبها المحررون والتأكد من أنّها لا تخلو من الأخبار الوطنية المنشورة في صحف الحزب والشبيبة، ولا من تقارير الصحفيين الرسميين والمراسلين المتطوعين حول النشاطات الكثيرة التي تقوم بها مؤسسات المحافظة وخصوصاً، التي يرعاها الحزب والشبيبة والنقابات وبقية تنظيمات «المنطقة»، كما كان يطلق حينها على البلديات القديمة، قبل أن تسترد هذه تسميتها لاحقاً. لن أنسى ابتسامة صديقي وهو يتناول يدي ويسلّمني مفتاح مكتبه، يوم نقل القيادة رسمياً لي. ولن أنسى كلماته التي همس بها في أذني:

- جهّز نفسك، أيّها الشريك: عليك هنا أن تختار بين أن تكون مستهتراً، غير مبالٍ، أو أن يصنعوا منك خراءً... مرحباً بك في الواقع الواقعي.

***

يقول سكان «باراكوا» عن مدينتهم إنّها واقعة تحت لعنة «البلو»، وهو متنبئ مجنون قضى عليها بأن تكون بلدة المشاريع التي لا تتحقّق. وأوّل ما يحكونه لك حين وصولك هو أنّ شهرتها تقوم على ثلاث كذبات: إنّ فيها نهراً اسمه «عسل» لا يُحلّي، لأنّه مجرى للماء فحسب؛ وإنّ فيها جبلاً اسمه «سندان»، لا يستطيع حداد أن يصنع شيئاً فوقه؛ وإنّ فيها «عمود إنارة» لا ضوء فيه، بل هو اسم الطريق الذي يربط «المدينة» ببقية أنحاء البلاد.

كنتُ أعرف أنّ اسم المدينة يعود إلى اسم مشيخة هنديّة كانت موجودة حين وصل الفاتحون الإسبان. لكنّي سرعان ما اكتشفتُ أنّ

تلك المنطقة ما زالت، وبعد أربعة قرون ونصف، مشيخة، مع فارق أنّ من يديرها الآن هم زعماء المنظمات المحليّة. وسرعان ما أدركتُ أنّ القول المأثور «بلدة صغيرة جهنّم كبيرة» لن يجد تطبيقاً أفضل من تطبيقه على ذلك المكان. ولكي يكتمل تعليمي في ميدان الحياة الواقعيّة، فقد عانيت في «باراكوا» من عواقب عجزي البشري والفكري عن التعامل يوميّاً مع الشيوخ ومع الشياطين.

كانت إذاعة المدينة الأسقفية لكوبا الحرة بالذات هي الوسيلة المكلّفة بخلق واقع افتراضيّ أشدّ كذباً من مسألة نهر العسل وجبل السندان وطريق عمود الإنارة، لأنّ المدينة كانت تبنى على خرائط ووعود وأهداف وأرقام سحريّة، لا يكلّف أحد نفسه بالتحقق منها، تأسيساً على ثوابت اسمها التضحية والمراقبة والانضباط، يحاول كلّ واحد من الزعماء المحليين بها أن يبني سلّماً لصعوده الشخصي - المتوّج بخروجه من ذلك المكان الضائع. كان عملي يتمثّل في تلقي مكالمات وطلبات من تلك الشخصيّات لكي أراعي مصالحهم، التي يطلقون عليها دائماً بالطبع «مصالح البلد والشعب». وما كان أمامي من خيار إلَّا القبول بتلك الشروط، طائعاً غير مبال، وتوجيه أوامري إلى الرجلين الآليين البليدين السكيرين اللذين يعملان محررين مكلفين بالكتابة عن الخطط التي نفذت في وقت قياسي، والالتزامات التي استجيب لها بحماس ثوري، والأهداف التي تحققت بروح قتالية وطنيّة، والأرقام التي تفوق حدَّ التصديق والتضحيات التي تقدم ببسالة ونكران ذات، ليصيغوا بلاغيّاً واقعاً غير موجود، مصنوعاً دائماً من كلمات وشعارات، وفي مرات قليلة من الموز والبطاطا الحلوة والقرع. أمّا الخيار الآخر فكان أن أرفض، بل أن أتخلّى عن عملي وأنصرف. وعلى الرغم من أنّني فكرتُ في ذلك مراراً، فقد منعني الخوف والتفكير في العواقب (إبطال الشهادة الجامعية، مثلاً) كما منع الكثيرين غيري. كان ذلك هو الواقع الواقعي الذي بشّرني به سلفي وهو يرحّب بي.

لكنّي، بدلاً من أداء ذلك الدور ببراغماتيّة ووقاحة، كما يفعل الكثير من الناس، وبدلاً من شغل أوقات فراغي بقراءات ومشاريع أدبيّة، بسبب خوفي أو بسبب عجزي عن التمرّد والثورة، وجدتُ نفسي منجرّاً إلى دوامة من النشاطات والاجتماعات والتجمعات والجمعيات التي تنتهي دائماً بدعوة موجّهة إلى «الرفيق الصحفي» لمأدبة طعام وشراب (مَن يقول إنّ هناك تقتيراً وفقراً وعوزاً؟)، ينظمها الرئيس المناوب للقطاع المناوب. واستغربتُ إذ اكتشفتُ أنّ خجلي المألوف من الجنس يختفي في تلك الأجواء، مع زوال الحواجز التي يسقطها الكحول، ومع الإحساس بالتخلّص من القيود في ذلك المكان المنزوي ومع العجلة (عجلتي وعجلة عشيقات الصدفة) في تحرير شيء ما في داخلي. لم يصادف أن أكلتُ ولا شربتُ ولا، بالطبع، غامرتُ، لا مع ذلك العدد من النساء، ولا في أماكن لا يمكن تصورها، كما أكلتُ وشربتُ وغامرتُ خلال تينك السنتين، لأنتهيَ خليعاً مستهتراً قادراً على الكذب بلا تردد، مصاباً بسيلان رحتُ أنشره بكرم (شأن الكثيرين من سكان المنطقة)، ومتحولاً إلى سكّير من أولئك الذين يفطرون صباحاً على جرعة من العرق ومن الجعّة الباردة، لإزالة آثار السكر في الليلة البارحة.

آن الأوان لأقول إنّ «باراكوا» هي واحدة من أجمل الأماكن في الجزيرة وأكثرها سحراً، وساكنيها أناس ذوو طيبة كبيرة وبراءة فائقة. ومع أنّني لم أعد إليها - يخيفني أن أعود إلى هناك ثم لا أقدر على الخروج منها لسبب أو لآخر-، فما زلتُ أتذكّر، وكأنّني وسط الضباب، جمال بحرها وقلاعها القديمة، التي تعود إلى عهد الاستعمار، وجبالها المغطاة بالخضرة وجداولها الكثيرة وأنهارها التي قد تثور وتغضب، كما هو حال التوا. أتذكّر لطف أهلها المستعدين دائماً لاستضافة الغرباء والمنبوذين الذين يتطلعون إلى مكان يلوذون به ويضيعون فيه وهم أحياء: فقر يحاصر المدينة منذ ما يقرب من نصف ألفيّة، وهو لعنتها الحقيقية، فقر ما زال ظاهراً ملموساً، وإن تحدثوا عنه دائماً بالزمن الماضي، وكأنّهم

تجاوزوه، طيلة سنتين من العمل في «البرامج الإخباريّة» للإذاعة المحليّة.

يبدو لي واضحاً الآن أنّ لا قِبَلَ لأحد بتحمّل ذلك المرور عبر الواقع الواقعي ما لم يكن سكّيراً، ينام مع أول امرأة يعثر بها في طريقه (سكّيرة مثلي، من أولئك اللواتي يرسلن للعمل سنتين أو ثلاثاً) وما لم يكن مستهتراً وقحاً... أمّا سقطتي الثالثة فكانت في هافانا، حين دخلتُ بقدميّ وإرادتي إلى قسم علاج المدمنين في المستشفى العام كاليستو غارثيّا، بعد أن تمتعتُ بإقامة لمدة ثلاثة أسابيع في القاعة المجاورة المخصصة للكسور. حملوني إلى هناك على نقّالة، وأنا مصاب بكسور وجروح نتجت عن شجار صاخب عنيف تسببته في أول بار دخلت إليه لدى عودتي إلى هافانا، وأنا أحاول، ربّما، التخلّص من الخوف الذي سمّم داخلي.

-6-

سمّاها والداها أفريكا تيمّناً بالقديسة شفيعة سبتة، مسقط رأسها، وما أقلّ ما وافق اسم شخص طبعَ مَن سُمّي به، فقد كانت الفتاة قويّة غامضة وحشيّة كما هي القارة التي تحمل اسمها. تعرّف رامون على أفريكا في مؤتمر للشبيبة الشيوعيّة في كاتالونيا، وشعر في الحال بأنّه مأخوذ بجمالها، جذبته في تلك الفتاة أفكارها الصلبة وعزيمتها المزلزلة: كانت أفريكا دي لاس هيراس [17] إعصاراً هائجاً يهدر هاتفاً بحياة الثورة. واعتادت أن تستشهد بفقرات كاملة من أقوال ماركس وإنجلز ولينين، وتتحدث عن الرفيق المحبوب ستالين، التجسيد الحيّ للمستقبل على الأرض، وتوقّره وتجلّه وتدعوه بدليل البروليتارية العالمية، وتنادي بأقصى درجات الانضباط الحزبي. كانت تعدّ الرقص والنبيذ سموماً برجوازيّة للروح، وتبدو وكأنها تحمل كتاباً عن الماركسية خيط تحت ذراعها وتحمل وعياً حزبيّاً يكبح كلّ اندفاع رومانسي آتٍ من طرف رامون لتضعه موضع اختبار وتجربة دائمين.

كان رامون قد عاد من فرنسا قبل عام، وهو يوشك أن يتمّ العشرين من عمره. وما إن وصل إلى برشلونه، حتّى تمكن، بفضل شهادته في الفندقة، من الحصول على وظيفة مساعد طباخ في فندق «ريتز»، وسرعان ما تقرّب من شيوعيي المكان (لم يعرف على وجه الدقة إن كان تقرّبه منهم بتأثير من الأفكار التي شحنته بها كاريداد أم بسبب روحه المتمردة)، وخطا خطوته الأولى نحو الانضمام إلى الحزب. وجدَ إسبانيا التي

عاد إليها تغلي على نار هادئة، وتنتظر مَن يضيف إلى تلك النار حطباً جزلاً يابساً ليصعد لهيبها إلى السماء: كانت إسبانيا بلداً موجوعاً يصارع من أجل نفض أحمال الماضي وخيبات الحاضر. فقد كان الدكتاتور بريمو دي ريبيرا [23] قد استقال للتوّ، وشهر أنصار الملكية وأنصار الجمهورية آنذاك سيوفهم. وضاعفت النقابات، الواقعة تحت سيطرة الاشتراكيين والفوضويين، من قوتها، أمّا الشيوعيون الإسبان فقد كانوا، قياساً إلى فرنسا، قليلين، ولا يحظون، كما هو متوقع في بلد شبه إقطاعي وكاثوليكيّ متشدد، إلّا بنظرة سيئة، بل كانوا يطاردون ويلاحقون.

لكنّ شباب رامون كان يستمتع بذلك الجوّ المتوتر، حيث يعيش الجميع بانتظار حادث وشيك. وأخيراً وقع الحادث، حين فاز الجمهوريون- الاشتراكيون، بدعم من النقابيين، في الانتخابات البلدية عام 1931، وأسقطوا الملكيّة وأعلنوا قيام الجمهورية الثانية[45]. ظلّ رامون حتى نهاية حياته يرى أنّ عودته إلى بلده جاءت في اللحظة المناسبة، وفي السن المناسبة، حين كان تفكيره في حالة فوران: وكأنّ حياته والتاريخ كانا يرصدان بعضهما، ليُهيأ كلّ منهما حججه وليضعه في الطريق الذي سيأخذه بعد سنوات قليلة إلى جبال «غواداراما»، ومن هناك إلى مهمّة على درجة عالية من المسؤوليّة.

كان التوجيه الحزبي في تلك اللحظة يدعو أولاً إلى توطيد دعائم الجمهورية، قبل الانتقال بها إلى الراديكالية. لذلك ساند الشباب الشيوعيون آنذاك الإجراءات الضعيفة المتهيبة في حق الإقطاع وسلطة الكنيسة، والإجراءات الأخرى لصالح المساواة بين الرجل والمرأة، ولصالح حقوق العمال، ولصالح الجمهور العريض، المبتلى بالتخلف والفقر، من الفلاحين الإسبان. عقب سنوات، ابتسم رامون وهو يتذكّر

45- بعد سقوط دكتاتورية بريمو دي ريبيرا [23]، المدعومة من الملك ألفونسو الثالث عشر عام 1930 وفوز القوى اليسارية بالانتخابات البلدية، بعد سنة من ذلك، أعلن هؤلاء إسقاط الملكية وإعلان الجمهورية. استمرت الجمهورية قائمة حتى نهاية الحرب الأهلية الإسبانية وتولّي الجنرال فرانكو مقاليد الحكم عام 1939.

بعض الشعارات التي كان فيها من الكلمات أكثر مما فيها من الحلول، لكنّ ذلك البلد كان على مدى تلك السنوات، حتّى أثناء الحرب، بلد شعارات، فكان كلّ حزب وكلّ تيّار وكلّ مجموعة يروّج لشعاراته أينما يشاء، في الاجتماعات الجماهيرية وفي الصحف وعلى الجدران والواجهات وعربات الترام، حتى في عربات الفحم التي كانت تجوب المدن.

اجتاز رامون تلك السنوات بطولها وعرضها، وبقليل من المسؤولية. ولم تكن معرفته الحقيقية بمبادئ الشيوعية هي ما حملته إلى موقع بارز في الشبيبة، بل قدرته على البذل والطاعة. لقد دفعه ذلك الموقع المتقدم إلى أن يعيش حياته باندفاع وحماس. ولطالما حنّ رامون إلى تلك الأوقات التي لم يشهد لها تاريخ إسبانيا مثيلاً، أوقات أحبّ فيها كثيراً، وباندفاع ولهفة، في حفلة ماجنة من المشاعر الجسدية والفكرية.

في ذلك الوقت تعرّف على أفريكا دي لاس هيراس، المرأة الثانية التي احتلت موقعاً مركزيّاً ومأساويّاً أيضاً في حياته. كانت تكبره بثلاث سنوات، سمراء وذكية وبالغة الجمال. لا تضع زينة على وجهها، بل تعيش كلّ ثانية من حياتها وتؤدي كلّ فعل كما يفترض في المناضلة الشيوعية الحقيقية أن تؤديه. ولم يستطع رامون، على الرغم من رفضه الداخلي لكلّ قواعد السلوك البرجوازي، أن يتجنّب الوقوع في غرامها. فسعى جاهداً، مثله مثل أيِّ شاب يحمل هورمونات محملة بالديناميت، إلى استمالة الفتاة، واندفع خلفها لتحمله وتلقي به في مهاوي السياسة ولججها. كان يستمع إلى حججها فيتبنّى النظريات التي يدافع عنها جمالها الأحمر، من دون نقد ولا ردّ، وتفهّم (أو قال إنّه تفهّم في بعض الحالات) المخاطر المحدقة بالنضال السياسي في جمهوريّة من السادة الأثرياء والبرجوازيين؛ واعتاد الأفكار التي تذهب إلى أنّ حمَلة الفكر التروتسكي هم ألدّ أعداء الشيوعيين، وأنّ الفوضويين والنقابيين هم مجرد رفاق في رحلة الصعود نحو الأهداف السامية، يُمكن نبذهم

واستبعادهم، وأنّ الموقف منهم سيتغيّر حين يكون الشيوعيون في وضع يؤهلهم لإحداث ثورة حقيقية تقودها دكتاتورية بروليتارية ضرورية. وسمع رامون آنـذاك، وللمرّة الأولـى، كلاماً مكرراً عن الانتهازي تروتسكي، المنفي في تركيّا، فهو أكثر الأعداء نفاقاً وأشدهم مواربة، وعن أنصاره من الإسبان باعتبارهم أخطر المندسّين في الطبقة العمالية. لكنّه اكتشف عشق أفريكا الحقيقي حين ألقت محاضرة حول الفكر السياسي وتطبيقه لدى جوزيف ستالين، الرجل الذي يقود الثورة البلشفية وصولاً إلى توطيد دعائمها. وقد وجد رامون في اندفاع أفريكا ما أصابه بعدوى الكراهية الشديدة نحو تروتسكي والحب لستالين، من دون أن يتصوّر المدى الذي ستحمله إليه تلك المشاعر.

حين أفلح رامون في أن يجعل أفريكا تنصتُ إلى نداءاته، دخل الشاب في مرحلة متقدمة من التبعيّة. فقد وضعته أفريكا تحت رحمتها، بالطريقة الشاملة في ممارسة الحب التي اكتسحته بها، وبتلك المعرفة الأساسيّة الخليعة القادرة على إصابته بالجنون، وسقته جرعات متساوية من اللذة والألم، فصار يحلم، وهو في ضعف البرجوازية الصغيرة الذي ما زال حيّاً فيه، بأنّها أصبحت ملكه، وحين يتملكها يفخر بأنّه أسعد رجل على وجه الأرض، لكنّه حين كان يراها تهرب من بين يديه، يصاب بنوبات غيرة عنيفة، فيحاول أن يقوّي من عزيمته بأن يلوم نفسه على أنّه لا يمتلك القناعة الأيديولوجيّة اللازمة لتحطيم حواجز المشاعر ولا الاندفاع لبلوغ المستوى الثوري الذي تشعّ فيه مبادئ تلك المرأة، المخطوبة للقضيّة والمتزوجة من الفكرة. ليس غير.

لقد علّمته أفريكا دي لاي هيراس أنّ الحبّ والأسرة شعوران وظرفان قد يثقلان كاهل الثوري: هي، مثلاً، قطعت العلاقة مع زوجها بسبب تنافر أيديولوجي واضح بينهما، فقد كان يعتنق مبادئ الفوضويّة النقابيّة. ما كان رامون، الذي يشعر بحاجته إلى الانعتاق من الروابط الأسريّة، يمتلك، في ذلك الوقت، علاقات مع أقربائه، لذلك قرر، منذ

حينها، أن يقوي نفسه، لا أن ينشط تلك العلاقات. أمّا عن كاريداد فما كانت تصله إلّا أنباء عن أنّها كانت في باريس، وهي الآن في بوردو، وأنّها قطعت كل علاقة مع أبيه منذ أن علمت، حين عادت إلى برشلونه، من الطباخة القديمة بأنّ السيد باو أهدى كلاب رامون إلى فلاح التقى به في سوق سان غيرفازي، ثمّ باع بيت الأسرة وانتقل للسكن في الطابق العلوي من مخازن شارع «آمبلي». أمّا أخوته، فقد علم أنّ والده أخذ مونتسي والصغير لويس معه، وأنّ الحزب اصطاد خورخي، وأنّ الشاب بابلو، وهو الوحيد الذي كان يراه من حين لآخر، التحق، كأبيهم، بمنظمة قوميّة كاتالانية.

لكنّ قطيعة رامون مع عواطفه القديمة شقّت عليه، لأنّه لم يكن، في الواقع، يرى غير ما كانت أفريكا تضيئه له، بينما هو يجري وراءها، في برشلونه، متبلد الذهن، يترجاها، بين تجمّع شعبي واجتماع، أن تمنحه وقتاً للحب، الذي كان شبابه مستعدّاً دائماً لتلقيه.

في ربيع 1933 أدرك رامون أنّه، مهما جرى وراء أفريكا، فإنّه لن يطالها، ولن يبلغ شأوها، اللهم إلّا إذا قفز قفزة مميتة وهائلة صوب المستقبل. بينما كان رامون وأفريكا وخوامي غرايلس والنواة الإدارية لشبيبة برشلونه يعملون لرفع عدد الأعضاء المنتمين بما يسمح للحزب أن يصبح قوّة مؤثرة في المشهد السياسي الإسباني المضطرب، استدعي رامون لأداء خدمته العسكرية، وأرسل لمدة أربعة أسابيع إلى مركز للتدريب قريب من ليريدا. وعند عودته إلى برشلونه، في أولى إجازاته، عزم على تنفيذ الخطة التي انهمك في إعدادها طوال ذلك الشهر، وخياله دائماً مركز في النظرة التي ستقابله أفريكا بها: هل ستكون نظرة فرح أم نظرة استهزاء؟ كان يتعذّب. تواعد معها على اللقاء في مقهى قريب من الكاتدرائيّة، ولكي يحدث أثراً صادماً فيها، فقد انتظر وصولها مستعيناً بالصورة التي كان يعكسها زجاج واجهة محل يبيع أشياء دينيّة. حين رآها تصل كتم لهفته وانتظر دقائق. حينها سار نحو المقهى، مستعدّاً

لتلقّي ردّة فعل الشابة إزاء التحوّل الخارجي الذي طرأ على هيئته: كان يرتدي بدلة القيافة العسكريّة ويحمل رتبة نائب عريف استطلاع، منحوه إياها بسبب طول قامته (يبلغ طوله متراً وثمانين سنتمتراً، وهو طول غير مألوف في إسبان ذلك الوقت) ومظهر جسمه (كان قادراً على طيّ عملة نحاس بأصابعه)، المناسب لتقدم المسيرة في الاستعراضات العسكريّة والعروض. كان رامون يعلم أنّ بدلة القيافة مع القبعة العسكرية تناسبه تماماً، وكانت، على الأخص، تجعله يشعر بشعور مختلف وتمنحه متعة مَن يكون موضع النظر والمراقبة. بل إنّ بريق تلك المطرزات في أكمام بدلته جعله يفكّر في إمكانية الانخراط في صفوف الجيش، حيث، قال لأفريكا (وهي التي تملك كلّ الأجوبة وكلّ الحلول) إنّ في مقدوره أن يقوم بعمل نشيط يكسب فيه أنصاراً للحزب وللثورة المستقبليّة.

حين دخل رامون إلى المقهى لم يجدها، فظنّ أنّها ربّما تكون نزلت إلى التواليت، فذهب إلى المشرب، لكنّه لم يطلب كأساً، كما تمنّى، بل اختار أن يتناول نقيع البابونج. تأمله صاحب المقهى بإعجاب كان رامون يعلم أنّه يوقظه، وقدّم له ما طلب. حين عادت أفريكا من المغاسل، وقف رامون على قدميه، بطوله المُبهر. فنظرت إليه بعين متفحصة وبضربة واحدة جرّدته من سلاحه:

- لماذا جئت متنكراً؟ هل يعجبك أن يتطلّعوا إليك؟

أحسّ رامون بالعالم ينهار أمامه، وجاهد ليعرض لها فكرته عن العمل، انطلاقاً من جحور الرجعيّة في الجيش، خدمة للقضيّة. اكتفتْ هي بالتعليق بأنّ عليهم رفع ذلك إلى الجهات العليا، فالأمر لا يتصل بقرار شخصي: فالمناضل يلتزم بلجنته وبالضبط والـ... هو يفهم ذلك، إنّما أراد أن يستشيرها في الأمر.

- قد تكون فكرة جيدة - قالت، ربّما لتواسيه، لكنّها أبلغته، من دون استئذان، بأنّ عليها أن تذهب لحضور اجتماع.

طلب الشاب كأساً من الكونياك، وراح يشربه وهو يحسّ برغبة

في البكاء. وما له لا يشرب وقد انصرفت أفريكا إلى غير رجعة؟ أنتَ ضعيف يا رامون، قال لنفسه. انتهى من الكأس وخرج إلى الشارع، حيث رفعت نظرة حادّة رمقته بها شابة من كبريائه المحطّم.

بعد أشهر، تبخرت أحلام رامون في التطوّع في الجيش بدلاً من أداء الخدمة العسكريّة الإلزامية، إذ رفضوا طلبه بسبب ميوله السياسية. حينئذٍ أقسم رامون أنّ يدفّع العسكريين ثمن تلك الإهانة.

***

الاتجاه الإصلاحي يؤدي إلى عودة الملكيّة: والسلطة الشيوعية، البروليتارية الخالصة الصارمة، هي الوحيدة القادرة على إحداث التغييرات العميقة التي يحتاجها بلد مريض بالكراهية وبالتفاوتات، كما اعتادت أفريكا، الخطيبة المفوّهة، أن تقول دائماً. أدرك رامون كم كانت الشابة مصيبة حين اندفع المحافظون منتشين بانتصارهم الانتخابي في نهاية ذلك العام وشرعوا في عملية هدم خبيثة للتغييرات السياسية التي جاءت بها الجمهورية، بإلغاء مراسيم النفع الاجتماعي والبدء بحركة إصلاح زراعي مضاد يعيد الأراضي إلى الإقطاعيين ويعود بالبلد إلى عصوره الوسطى الدائمة.

وكان عمال المناجم في أستورياس والقوميون الكاتلان هم من تحرّك في تشرين الأول 1934 في وجه القوانين التي تحظى بدعم الاتحاد الإسباني لأحزاب اليمين المستقلة المشؤوم. فأعلنوا الإضراب العام أولاً، ثمّ ثاروا في النهاية: كان عمال المناجم يهتفون للثورة، بينما القوميون يطالبون بقانون للحكم الذاتي. وصدرت الأوامر للشبيبة الشيوعية لكي تكون مهيأة للتدخل، وبالعنف، إن تطوّرت الأوضاع لصالحهم في برشلونه. لكنّ المشروع الكاتلوني أسقط مرّة واحدة، وقبل أن يبدأ التحرّك الشعبي الذي كانوا ينتظرونه متلهفين، بينما نجح إضراب عمال المناجم الأستوريين، ودعمت حركات الشبيبة، باعتبارها جزءاً من الكتلة الشيوعية، المتمردين. وطلبت أفريكا ورامون من قيادتهما، وهما

يريان فتور همّة القادة الكاتلان، بالسماح لهما بالذهاب إلى أستورياس، حيث الوضع على أشدّه، عقب قرار إلغاء العملة والملكية الخاصة وإقامة جيش بروليتاري. وحين رأى الحزب أنّ حصاراً رجعيّاً بدأ يفرض على عمّال المناجم، أمر الشباب الشيوعيين بالبقاء في برشلونه، ليجتهدوا في توفير السلاح للحاجة الماسة للمنتفضين إليه. تجرأ رامون، وهو يرغب في الانتقال إلى الفعل، على انتقاد ذلك الأسلوب التسويفي، في أحد الاجتماعات، وتولّت أفريكا بنفسها الردّ عليه، بعد أن هالها عجزه عن فهم قرارات الحزب الاستراتيجية في اللحظات التاريخيّة الحرجة. «الحزب دائماً على حق»، قالت، «وإن لم تفهم، المهم هو أن تطيع فحسب»، وأنهت الجدل بهذه الطريقة.

قمع عمّال المناجم بوحشيّة وسحقت ثورة أكتوبر تلك سحقاً، وسقط قريب من ألف وأربع مئة قتيل واعتقل أكثر من ثلاثين ألفاً، فتولدت في نفس رامون قناعة بأن الرحمة غير موجودة، وما من مكان لها في صراع الطبقات. وآمن بأنّ دورهم سيأتي في يوم ما: على الأقل لأنّ المبادئ تقول بذلك.

مع الهزيمة في أستورياس وُضع الشيوعيون في اللائحة السوداء للأعداء الذين يجب أن يلاحقوا بشراسة أكبر، وأودع الكثيرون منهم السجن، إمّا بسبب اشتراكهم في أحداث أستورياس، أو، لمجرد انتمائهم الحزبي، وكان على الباقين، تذكّرت أفريكا، المولعة بالتاريخ والجدلية، أن يفعلوا ما فعل البلاشفة في روسيا قبيل الثورة، حين كمنوا في الأقبية والسراديب وعملوا منها، بانتظار حلول لحظة تسمّى «الحالة الثورية» ضرب المنظومة.

في تلك اللحظة المفصليّة، تلقّى زعماء الشبيبة الأوامر بإنشاء خلايا سريّة في حارات المدينة ومصانعها. وذهبت أفريكا للعمل في منطقة «غراثيا» وذهب رامون إلى منطقة «الربال» وإلى برشلونه، حيث رتّب أيضاً دروساً لمحو الأميّة. ولتطوير العمل السياسي وتفعيله، ولإعداد الأعضاء لمعارك قادمة، نظّم رامون، مع خوانمي غرايلس وجوان بروفاو ورفاق آخرين، خليّة «العصبة الفنيّة والإبداعية»، وأطلقوا عليها اسماً لا يثير أيّة

شبهة: «ميغيل دي ثربانتس»، وجعلوا من بار «خواكين كوستا»، الواقع في نهاية شارع «غيفري»، مكاناً لاجتماعاتهم. صاروا يذهبون ليلتين أو ثلاثاً في الأسبوع، معظم الأحيان مع أفريكا، التي كانت تمارس هناك مواهبها في التحريض بحماس يترك رامون مأخوذاً باندفاع الفتاة وإيمانها بمستقبل مشرق للإنسانية، لا مكان فيه لمستغِلين ولا مستغَلين. سارت الأمور على ما يرام طوال شهور عديدة، حتّى وقعوا في فخ الثقة والاطمئنان، وفوجئوا بالشرطة، التي اعتقلت سبعة عشر منهم (تمكنت أفريكا من الهرب بالقفز من فوق جدار يصعب على الرجل تسلقه) بتهمة التآمر على الجمهوريّة وزعزعة الأمن والنظام وإقامة دكتاتوريّة شيوعيّة ملحدة.

ولئن كان رامون يحتاج إلى أسباب ليقتنع بأنّ تمثيلية الجمهورية الديموقراطية تلك لم تكن سوى خدعة، وبأنّ الحاجة تستلزم أن تجتثّ تلك المنظومة، فقد عززت الأشهر الثمانية التي أمضاها في سجن بلنسية في نفسه تلك القناعة. لم تكن التهم الموجهة إليهم ملفقة، بل صحيحة: فقد كانوا يتآمرون لزعزعة النظام، لكنّهم، وضمن ذلك الخيار، كانوا محقين في مطالبتهم بجمهورية كتلك التي عرفها البلد، الذي يفترض أنّه ديموقراطي منذ 1931.

غصّت سجون إسبانيا بالمعتقلين، وزُجّ بالسجناء العاديين، في فعل خبيث مقصود، مع السجناء السياسيين، وبلغ عدد الشيوعيين المعتقلين من الكثرة أنّ العنابر تحوّلت إلى محافل لمناقشة مشاريع الحزب وخططه، والحديث عن صعود الفاشيّة في ألمانيا وإيطاليا، والنجاحات الاقتصادية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ومبادئ صراع الطبقات. ووصلت إلى السجن تعليمات غير منتظرة، بإيحاء من موسكو، حول إقامة تحالف بين الشيوعيين والأحزاب اليسارية (باستثناء التروتسكيين الانتهازيين) للانطلاق معاً في طريق النضال من أجل السلطة، وتلقّى رامون الأمر، لكنّه لم يجرؤ على مناقشة ذلك التحوّل الجذري في استراتيجية الحزب. على أنّ العقاب الحقيقي الذي تلقاه

أثناء إقامته في السجن تمثّل في أنّ أفريكا لم تزره طوال تلك الأشهر، ولم تبعث له برسالة ولا بكلمة دعم وتشجيع.

أعادت انتخابات شباط 1936، التي فازت فيها الجبهة السياسية الجديدة، المشكّلة من الاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين، السلطة إلى اليساريين، والحرية الفورية إلى الذين اعتقلوا بسبب انتماءاتهم السياسية أو بسبب مشاركتهم في ثورة 1934. وحين وضع رامون قدميه في الشارع، بعد ثمانية أشهر أمضاها في السجن، لم يكن هو ذلك الشاب الرومانسي المندفع، بل لقد تحوّل إلى رجل عقيدة وإيمان، إلى عدوّ لدود لكلّ ما يقف في طريق الحرية ودكتاتورية البروليتاريا. وكرّس لهذا الهدف كلّ نفس من حياته، فكّر: وإن تطلب منه الأمر أن يدفع أبهظ الأثمان.

وكما فعل الكثيرون من رفاق سجنه، فقد غادر رامون بلنسية مباشرة وتوجّه إلى مدريد، حيث كانت أحزاب الجبهة الشعبيّة قد نظّمت مظاهرة كبرى للاحتفال بالنصر الانتخابي وبتشكيل الحكومة الجديدة. في العاصمة، وجدوا ذلك الجوّ الاحتفالي والمتوتر الذي خيّم على إسبانيا حتّى بداية الحرب. كانت قِرَب النبيذ تتطاير من الأرصفة إلى الشاحنات التي استقلّها المطلق سراحهم حديثاً، والفتيات يرمين بالزهور، وتتقاطع الهتافات بحياة الحرية والموت للملكيّة والبرجوازية وملاك الأراضي والكنيسة. كانت رائحة الثورة تخيّم على الأجواء.

في ذلك الاجتماع السياسي استمع رامون إلى خطاب خوسيه دياث، الأمين العام للحزب الشيوعي، ورأى للمرة الأولى امرأة هائجة مؤثرة بدت وحدها مظاهرة: دولورس إيباروري، التي عرفها العالم لاحقاً بالباسيوناريا[46]. وفي وسط الحشد الحماسي سرى فيه شعور بالفرحة حين أحسّ بذراعين مشتاقتين تلتفان حول عنقه ويضوع منهما عطر

46- دولورس إيباروري (1895-1989). سياسية إسبانية وسكرتيرة الحزب الشيوعي في إسبانيا بين 1942 و 1961. أطلق عليها لقب Pasionaria وهو اسم النبتة المعروفة بزهرة الآلام الشائعة أو وردة الساعة.

البنفسج الذي لم يكفّ عن الحلم به أثناء شهور حبسه. واستمتعت كلّ خلية من خلايا جسمه بموسيقى صوت امرأة كان يشعر بأنّه مستعد من أجلها أن يضحي بكلّ شيء، كاستعداده أن يضحي بكل شيء من أجل الثورة العالميّة، وحين نظر إليها ورآها بدأ يؤمن بوجود المعجزات. إنّها أفريكا، التي ازدادت جمالاً في تلك الشهور وصارت أكثر حدّة وصلابة، وكأنّ دثاراً مُحسناً مرّ على جسمها ووجهها فغيرهما. وعلم رامون، بعد دقائق، حين هربا بعيداً عن الجمهور، الذي اشتعل إنشاداً وشراباً، أنّ شيئاً مؤثراً هزّ كيان المرأة، شيئاً عاش هو بعيداً عنه حتى تلك اللحظة: لقد أنجبت أفريكا طفلة قبل شهر ونصف. طفلة من صلب رامون.

ورأى رامون ميركادير، بعد طول تمعن وتفكير، أنّ الهزّة التي أحدثها فيه ذلك الخبر هي واحدة من أكبر الهزات التي تلقاها في حياته، وما أكثرها! حكت له أفريكا أنّها لم تذهب إلى السجن لزيارته، ولم تخبره بحملها لكي لا ترهقه بمشاعر ترى أن الرجل الثوري في غنى عنها. ثمّ إنّها فضّلت أن تواجه الموقف منفردة، لأنّها قررت، منذ أن اكتشفت حملها ولم تُنصح بإسقاط الجنين بسبب تقدم الحمل، أنّ ذلك المخلوق لن يؤثر على الهدف الأكبر في حياتيهما: الكفاح الثوري. لذلك ذهبت، مع اقتراب تاريخ الوضع، إلى مالقا، حيث يسكن والداها، وهناك وضعت الطفلة، التي أسموها لينينا دي لاس هيراس، ثمّ تركتها للجدين وعادت إلى برشلونه للنضال من أجل النصر الانتخابي للجبهة الشعبيّة، كما أمرتها لجنة الحزب. إنّ قرارها بالإبقاء على الطفلة بعيداً لا رجعة فيه: وهي حين تبلغه بما حدث فلدواعٍ تتصل بالأمانة والصدق.

وشعر رامون بسيل من المشاعر الملتهبة تنصبّ على رأسه. فإلى مفاجأة الأبوّة أضيف قرار أفريكا المنسجم مع أفكارها ومُثلها. ومع أنّه وجد ذلك كلّه ثقيلاً باهظاً ويصعب بلعه دفعة واحدة، فقد غمره شعور بامتنان واضح نحو المرأة التي أحبها كثيراً، والتي أثبتتْ له قامتها السياسية عن طريق فعل صارم ومحرر. مع ذلك فقد توهج في أعمق

زوايا ضميره بصيصٌ من الفضول لمعرفة كيف هو شكل الطفلة التي ولدها، كيف سيشعر بقربها، وكيف سيربيها. ألا تشعر أفريكا بالشيء نفسه؟ كان رامون يعرف أنّ متطلبات النضال سرعان ما ستخفي تلك الصورة السريعة، وفكّر بقناعة أكبر، وهما يجتازان ميدان «كيّاو»: أفريكا على حق، فمن الممكن أن تصبح الأسرة عبئاً على الثوري حين لا يجد هذا لنفسه بوصلة ولا يعرف لها اتجاهاً.

فتحت أفريكا باب مقهى في جادة «غران بيّا». وحين دخلت حال ضياء الشارع دون أن يرى رامون داخل المكان. إنّه واحد من بارات مدريد القديمة التي غطيت جدرانها بالخشب الغامق. تقدمت أفريكا، كالمنقادة بنور داخلي، نحو نهاية المقهى، متجنبة الطاولات والكراسي، بتلك الثقة التي تميّزها. حاول هو أن يتبعها، معتمداً على ظهور الكراسي، وعندها لمح في نهاية المقهى خيال امرأة، كما يشير إلى ذلك الشعر، وتبين له، بعد أن اقترب منها، أنّها امرأة طويلة وقوية البنية. تقدم الخيال صوبه، ومن دون أن يتحقق رامون بعد من هويتها، أحسّ برعشة تسري في بدنه حين قبلته تلك المرأة قريباً من شدقيه، فكأنها تريد أن تترك في فمه طعم يانسون متميّزاً، قادراً على فرض نفسه على طعم الجنّ الجاف الذي كان يسيطر على رائحة فمه.

-7-

أدار كارالامبوس الدفّة قليلاً فدخل القارب، تحت شمس العصر، في نهر ذهبي فوق بحر كان الشاب الصيّاد قد تعلّم الخوض فيه مع أبيه، وهذا مع جده، وهذا مع جده الثاني، في تراكم من المعرفة والخبرة قد يعود إلى أيام طافت فيها جيوش الإسكندر تلك المياه حاملة غضب الملك المقدوني العظيم ومجده. لقد سأل لييف دافيدوفيتش نفسه أكثر من مرّة، وهو يتأمّل خبرة كارالامبوس ومهارته، إن لم يكن الوقتُ قد حان لكي يقوم بفعل حكيم يتخلّص فيه من كلّ حماياته وينال، وللمرة الأولى في حياته الناضجة، فرصة لاستنشاق هواء بسيط كالذي يغذّي دم الصيّاد، بعيداً عن دوامات زمنه.

وراح لييف دافيدوفيتش يقوم بعملية جمع: أربعة أعوام من المنفى وخمسة أعوام من التهميش وعقود من الموت والإحباط، ثورات مغدورة وحملات قمع وحشيّة. كان عليه أن يتقبّل فكرة أنه لم يعد إلّا القليل من دواعي الأمل وأسباب الرجاء. لقد بدأ الرجلُ العالمي والمناضل البطل والقائد الجماهيري يشيخ وهو في الثانية والخمسين من العمر: لم يتصوّر قط أنّ ذلك الركن المنزوي من العالم يمكن أن يولّد فيه إحساساً بامتلاك ما يدعونه مسكناً. ولم يتصوّر، بالطبع، أن يصل به الأمر أن يتمنى، ولو للحظة، أن يتخلّى عن كلّ شيء ويرمي بأسلحته إلى البحر.

مرّ عام على مشهد رحيل ليوفا عبر ذلك الخط الذي يبحر كارالامبوس فيه الآن. أمّا شعوره وهو يتلقّى قرار ولده بالاستقلال، والحياة بعيداً عن

ظلّ أبيه، فكان مزيجاً من القلق والارتياح، لقد سهّل إجراءات السفر على ابنه حصوله على منحة لمواصلة دراساته في الرياضيات والفيزياء في المدرسة العليا التقنية في برلين، وقرر لييف دافيدوفيتش انتهاز فرصة انتقال ولده الشاب إلى مكان متميّز، ليجعل منه عيناً له وصوتاً، بينما يواصل هو المقام بلا حراك في تركيا.

ومع اقتراب موعد سفر ولده، صار لييف دافيدوفيتش يستحضر ذكرى ساعات الصباح الباردة تلك في باريس المضطربة، باريس 1915، حين بدأ ليوفا العمل في السياسة وهو بعدُ في الثامنة من عمره. كانوا يسكنون في شارع «أودري»، قريباً من ميدان «إيطاليا»، وكان هو يكرّس ليله لكتابة مقالاته المناهضة للحرب لصالح صحيفة «ناش سلوفو». وفي الصباح، كان ليوفا هو المكلف بحمل الأوراق التي كتبها أبوه إلى المطبعة، وهو ذاهب إلى المدرسة، يجرّ أخاه الصغير سيروجا بيده. لم يدرك لييف دافيدوفيتش الفراغ الكبير الذي خلّفه ليوفا في قلبه، إلّا بعد أن صار الفراق حقيقة، وندم على نوبات الغضب التي وصلت به أحياناً إلى اتهامه، من دون وجه حق، بانعدام الحساسية وقلة النضج السياسي. وكما حدث له حين فارق سيروجا قبل ذلك بسنتين، فقد لفّه، وهو يرى ولده يرحل، هاجس بأنّه لن يرى ثانية ولده الشجاع الجريء ليوفا، لكنّه تمكّن من طرد تلك الأفكار بأن قلب المعادلات قلباً واقعيّاً: إن لم يعودا إلى رؤية بعضهما فليس لأنّ ليوفا سيتغيّب عن الموعد القادم، بل لأنّ الغائب سيكون بالتأكيد هو، فقد راح يشعر يوماً بعد يوم بأنّه شاخ أكثر، وأنّ عدد الخصوم الذين يلاحقونه ويتمنون صمته في ازدياد.

لكنّ رحيلَ الشاب لم يكن أكبر هموم لييف دافيدوفيتش في تلك الأسابيع، فقد كان عليه أن يتسلّح بأفضل ما لديه من إرادة، ورغم مخاوفه من عجزه عن تصريف المشاكل البيتيّة، لوصول زينا، كبرى بناته، التي حصلت أخيراً على إذن بالسفر إلى الخارج للعلاج من التدرن المتفاقم الذي تعاني منه.

في الرسائل التي بعثت بها إليه زوجه الأولى، ألكساندرا سوكولوفسكايا، وهي والدة زينا، من لينينغراد، صار لدى ليف دافيدوفيتش تصوّر عن الحالة المتردية التي وصلت إليها الشابة في السنوات الأخيرة، بدنياً وعقليّاً، وخصوصاً مع انصرافها للعناية بشقيقتها نينا، بينما كانت هي نفسها تعاني، بسبب انخراطها في صفوف المعارضة، من القمع السياسي الذي انتهى بنفي زوجها أفلاطون فولكوف وبطردها من الحزب ومن عملها، وكانت موظفة اقتصاديّة. أمّا لمسة السفالة فقد تمثلت في أنّهم سمحوا لزينا بالخروج من الأراضي السوفييتية ولكن من دون طفلتها الصغيرة أولغا، التي تحوّلت، بهذه الطريقة، إلى رهينة سياسية. ومع ذلك الحكم على الطفلة البريئة، تحقق ليف دافيدوفيتش، بما لا يدع مجالاً للشك، ممّا كان بياتاكوف [10] قد قاله له، قبل ذلك بسنوات، من أنّ انتقام ستالين وتخطيطه سيطال الجيل الثالث أو الرابع من ذريته.

وصلت زينا صباح يوم مشمس من أواخر كانون الثاني من عام 1931، وهي تحمل ابنها الصغير سييفا. نزلت نتاليا وليوفا وجين والسكرتيرات والحراس الشخصيون والشرطة التركية خلف ليف دافيدوفيتش نحو المرسى لاستقبالها. كان اندفاع كلّ واحد منهم يحمل أقصى ما تسمح به الظروف من الفرحة، وقابلتهم ابتسامة امرأة نحيفة مبتهجة متفتحة، ونظرة متفحصة من طفل بالغ الشقرة، لم يعر اهتماماً باحتفاء جديه وخاله به قدر ما أبداه من اهتمام بالكلبة مايا.

أثبتت زينا في الحال، على الرغم من تردي حالتها الصحيّة، أنّها ابنة ليف دافيدوفيتش وألكساندرا سوكولوفسكايا الصلبة، التي وضعت بين يدي المناضل اليافع، في اجتماعات نيكولاييف السريّة أولى كراسات الماركسيّة التي قرأها في حياته. وصلت الشابة بنفس متقطع، منهكة من الحمى التي تعتادها ليلاً، لتطالب بموقع لها في العمل السياسي، ولتبدي استعدادها لإثبات كفاءتها والتزامها. ولمّا كان أبوها يعي حاجتها إلى الرعاية الطبية أكثر من حاجتها إلى المسؤوليات، فقد أوكل إليها مهمة

هينة، وإن كانت ثقيلة بطبيعتها، وهي تصنيف مراسلاته، بينما كلّف نتاليا بأن ترافقها إلى اسطنبول، حيث بدأ الأطباء عملهم معها.

***

مع الرسائل التي بدأ ليوفا بإرسالها إليه من برلين، تكوّنت لدى المناضل القديم فكرة أوضح عن الكارثة التي ستدق، لا محالة، على باب الشيوعيين الألمان. وسأل نفسه المرّة تلو المرّة: كيف تبدي موسكو هذا القدر من الغباء السياسي؟ لم يكن الأمر يستدعي ذكاءً خارقاً لملاحظة ما يعنيه صعود النازية التي بدأت، وهي بعدُ خارج السلطة، حملة عنف تكفلت بها قواتٌ هجومية ارتفع عدد أعضائها في ظرف شهرين من مئة ألف إلى أربع مئة ألف عضو. كانت الأحداث تشي بأنّ الأمر لا يتعلّق بعمل سياسي: لا بدّ أنّ وراء الاستراتيجيّة الانتحارية عند الشيوعيين الألمان سبباً آخر، أبعدَ من التوجيهات المعلنة التي يمليها سادة موسكو، فكّر وكتب.

وبلغته كلمات ترددت في عُقر الاتحاد السوفييتي ففتحت له فجوة يصل من خلالها إلى جواب كان يقضّ مضجعه. لقد صرّح ستالين، في موسكو الجائعة، حيث الأحذية والخبز ضرب من الترف، وحيث يعتقل كلّ ليلة العشرات من الرجال والنساء ويرسلون إلى معسكرات الاعتقال في سيبيريا من دون أوامر قضائية، أنّ البلاد بلغت مرحلة الاشتراكيّة. الاشتراكيّة؟ لقد تمكّن ليف دافيدوفيتش أن يرى نقطة في الظلمة: هنالك تكمن علّة التهاون المُريب: إنّ الشعور العبثي بالنصر هو ما يقيّد أيدي الشيوعيين الألمان ويمنعهم من أيّ تحالف مع قوى اليسار والوسط. لقد شعر بالرعب حين أدرك أنّ السبب الحقيقي في تلك المواقف الغريبة هو أنّ ستالين، وللإمساك بالسلطة كلّها في يده، ما عاد مكتفياً بأشباح اعتداءات محتملة من طرف الإمبريالية الفرنسية أو السياسة العسكرية اليابانيّة، بل صار يسعى إلى خلق عدوّ من قامة هتلر ليؤسس لصعوده الشخصي ملوّحاً بالنازية. ومع أنّ ليف دافيدوفيتش عارض دائماً إمكانية إنشاء حزب آخر، احتراماً لأفكار لينين وخوفاً مما قد يحدثه أيّ انشقاق، فقد بدأ الدليلُ على

خيانة، كالتي كان ستالين ينفذها، والتي ستكون عواقبها مؤلمة لألمانيا وخطيرة على الاتحاد السوفييتي، يحرّك الشكّ في رأسه.

كان من حسن حظه أنّ وجد في الصغير سييفا ما خفف من مشاعره بالخوف وإحساسه بالفراغ. لقد أقام لييف دافيدوفيتش مع الطفل علاقة مختلفة عن تلك التي كانت تربطه، وهو منغمس في النضال، بأولاده. وتمكّن الحفيد من الاستيلاء على ساعات الفراغ القليلة التي كان في مقدور الجد أن يستمتع بها، ونشأ بين الاثنين تقليد النزول كلّ عصر إلى شاطئ البحر، حيث اعتاد سييفا الركض مع مايا والصعود إلى قارب الصياد، إن سمح كارالامبوس الطيب بذلك، والوصول به حتّى الجرف الصخري. كان الحبّ الذي يكنّه للطفل يقلل من مخاوفه وهمومه السياسية، ولطالما أحسّ براحة كبيرة تمنحه شعور الجد الذي بدأ يشيخ، وصار في مقدوره، لأوّل مرّة منذ ثلاثين سنة، أن يتحرر من ضغوط النضال ومتطلباته. وسرعان ما سيتحوّل ركض سييفا ومايا وأحاديثه مع كارالامبوس حول فن الصيد، والتنزه في بحر مرمرة إلى صور جميلة سيحرص على استذكارها في الأوقات الأصعب التي تنتظره.

***

في فجر يوم من أيّام أول صيف يمضيه سييفا معهم، أنقذ لييف دافيدوفيتش، بعد ليلة من ليالي أرقه، حياته وحياة أسرته من موت محقق. كان مستلقياً على سريره، بينما تمرّ الليلة المستنزفة، وهو يستمع إلى أصوات ليليّة ويفكّر في ولده سيرغي. كان قد تلقّى صباح ذلك اليوم رسالة من سيروجا يؤكد لهم فيها أنّ حياته في موسكو تسير سيراً اعتياديّاً، ويحدثهم عن زواجه وعن تقدمه في دراساته العلمية. ومع أنّ الفتى كان ملتزماً بالابتعاد عن السياسة، فقد كانت حاسة شمّ الأب تحدثه عن أنّ ذلك الابتعاد لن يدوم طويلاً وأنّ السياسة ستطرق بابه يوماً من الأيام. لذلك قرّر، بعد أن تحدث حول الموضوع مع نتاليا، ألّا يؤجل فكرته في أن يبدأ سيروجا مساعي تسمح له بالسفر إلى برلين للالتحاق بأخيه.

وبلغ من انشغال فكره أنّه لم يفهم سبب اضطراب مايا، التي اقتربت من سريره عدة مرات، بل أحسّ بها وكأنها تبكي. وفجأة أيقظته إشارة تحذير فاستردّ صفاء فكره: إنّها رائحة خشب يحترق. أيقظ نتاليا من دون تفكير وركض صوب الغرفة التي صار سييفا ينام فيها مع السكرتيرتين الشابتين، منذ أن سافرت أمّه إلى اسطنبول لإجراء العملية.

كانت النار قد اندلعت في الجدار الخارجي للمكان المخصص للسكرتاريّة، وأدرك ليف دافيدوفيتش في الحال نوايا الفاعل: أوراقه. وبينما راح أفراد الشرطة الأتراك، بعد أن استيقظوا، يسكبون جرادل الماء على النيران، التي انتشرت في اتجاه صالة الجلوس، ترك هو سييفا ومايا في رعاية نتاليا وبدأ يحمل الأوراق التي كانت تحتوي على مذكراته وحياته كلها تقريباً، تساعده السكرتيرتان والحراس ورودولف كليمنت[47]، الذي كان قد وصل مؤخراً. واستطاعوا أن يخرجوا من بين الدخان، والماء ينهمر من فوقهم، الملفات والكثير من الكتب، قبل أن ينبعث من سقف تلك الناحية الصريرُ الذي يسبق الانهيار.

عند بزوغ الفجر، وقف ليف دافيدوفيتش ونتاليا بين صناديق الأوراق والكتب المطروحة على الأرض يراقبان فعل النار، وهو يداعب أذني الكلبة المرتجفة الخائفة. صحيح أنّ مسعى الأطفائيين المرتجلين حال دون دمار البيت بالكامل، إلّا أنّ ضوء الشمس التي أشرقت أبان عن بناء يتطلب ترميماً كبيراً لكي يصبح قابلاً للسكن من جديد. حين أخرج الآخرون الأغراض والملابس التي لم تتعرض للتلف، انصرف هو إلى رفع العشرات من الكتب المغمورة التي قد يمكن إنقاذها، وإلى الأسف على تلف كتب أخرى ووثائق (صور الثورة! سيتأسف العمر كلّه على صور الثورة) باتت جميعها طعماً للنار.

***

47- رودولف كليمنت (1908-1938). شيوعي ألماني من أنصار تروتسكي. عمل سكرتيراً له. قتل غيلة في باريس عام 1938.

عثر رودولف كليمنت، الشاب الألماني الذي جاء ليحل محل ليوفا في أعمال السكرتارية، على بيت يوفر قدراً من الأمن، في حيّ كاديكوي السكني المخصص للإنكليز والأمريكان، في ضواحي اسطنبول. لم يكن البيت، في الواقع، مناسباً لعدد الموجودين من أسرة وسكرتيرات وحراس شخصيين ورجال شرطة (وهم أربعة منذ أن وقع الحريق)، ولم يكن مناسباً، على وجه الخصوص، للعيش مع زينا، التي بدت مهووسة، وهي تطالب أباها بمسؤولية أكبر في العمل السياسي، بعد أن تعافت من عملية جراحية سرعان ما تبيّن أنّها لم تكن ناجحة.

في الأربعة أشهر التي عاشوها بين جدران بيت «كاديكوي» الأربعة، جرى العديد من الحوادث الغريبة. سنحت له أولاً فرصة للسفر إلى برلين لإلقاء بعض المحاضرات، لكنّ الفاشيين والشيوعيين خفّوا في عمل مشترك لإجهاض تلك الفرصة. وقد سبّبت له تلك النكسة المتوقعة خيبة أمل مريرة، إذ عاوده الشعور بالثمن الباهظ الذي يتحتّم عليه دفعه عن أفعاله السابقة، وبالطوق المحكم الذي جعله يفكّر في ما عاناه نابليون: ألهذا الحد يخشونني؟ كتب، وهو محبط من الحصار الشديد الذي يفرض عليه في تركيا والذي يحرمه من أيّة فرصة للمشاركة المباشرة في أيّ نشاط خارجها.

ثمّ وقعت بداية حريق لم يلتهم، لحسن الحظ، سوى حجرة صغيرة في الباحة، وقد عزاه المحققون إلى حادث عرضي، حيث وجدوا، بالقرب من مراجل السخّان، بقايا علبة كبريت كان سيفا يعبث بها.

في الحادثة الثالثة، وكانت أشدّ إثارة ودلالة، تلقى ليف دافيدوفيتش زيارة لضابط في الأمن الداخلي التركي، حضر ليبلغه بأنّ شرطة البلد اعتقلت مجموعة من المهاجرين الروس كانت تعدّ العدّة للاعتداء على حياته. قائد المجموعة جنرال سابق يدعى توركول، وهو واحد من قادة الحرس الأبيض الذي هُزم على يد الجيش الأحمر في الحرب الأهليّة. وبحسب الضابط فإن المؤامرة كشفت وإنّ في مقدوره أن يكون مطمئناً في ضيافة صاحب الفخامة كمال باشا أتاتورك.

حين انصرف الضابط شرح ليف دافيدوفيتش لزوجه نتاليا أنّ في تلك القصّة ما يثير الشك. فقد كان احتمال أن يرتكب المهاجرون الروس المقيمون في تركيا أعمالاً عنيفة ضدّه قائماً على الدوام. مع ذلك لم يحدث شيء خلال أكثر من سنتين، أي إنّ الروس البيض لم يكونوا يضعونه بين أولوياتهم، أو إنّهم يدركون أنّ الاعتداء على من يعدّ ضيفاً شخصيّاً لكمال أتاتورك يمثل تحدياً قد يعود بالضرر عليهم.

أمّا أسوأ ما مرّ به في ذلك الوقت، فقد كانت أجواء التوتر التي نشأت عن تذبذب زينا، التي كانت تطالب بمشاركة أكبر في أعمال الحزب، مع أنّ سلوكها كان مذبذباً بين الحماسة والاكتئاب. وعلى الرغم من أنّ أباها كان يكلمها بلطف عن ضرورة خضوعها للعلاج النفسي، فقد كانت ترفض طلبه، لأنّها لم تكن مستعدة، بحسب قولها، للكشف عن القذارة المتجمعة في داخلها. ووصل اضطرابها العقلي نقطة حرجة حين علمت أنّ العملية الجراحية التي أجريت لها لم تتمّ كما ينبغي، لأنّ الجراحين الأتراك تدخلوا لجراحة الرئة الصحيحة الباقية. وخشي ليف دافيدوفيتش على حياة ابنته أو خاف من مواجهة مباشرة معها، فأمر ابنه ليوفا بعمل اللازم لكي يُسفّرها إلى برلين لتتلقى هناك العلاج اللازم على أيدي أطباء مختصين قادرين على إصلاح ما فسد من جسدها ونفسيتها.

مع بداية الخريف، وبعد تحفظ وممانعة، سافرت زينا إلى برلين تاركة في نفس والدها ارتياحاً ممزوجاً بشعور حادّ بالذنب. لقد وعدها ليف دافيدوفيتش بأنّها ستعمل مع ليوفا وبأنهم سيبعثون لها بالصغير ما إن تستعيد جزءاً من عافيتها. وفي هذه الأثناء، سيظلّ سييفا في تركيا، لأنّ ذلك يصبّ في مصلحة استقراره، مع أنّ الجد، في داخله، كان يعلم أنّ في قراره الإبقاء على الطفل قدراً من الأنانية بعد أن صار هذا خير بلسم له من التعب والتشاؤم.

سافرت زينوشكا برفقة أبراهام سوبوليفيسيوس، أو العملاق

سينين[48]، أحد أعوان ليف دافيدوفيتش في برلين، والذي كان قد مرّ بالصدفة ببيت «كاديكوي». منذ سنتين كان سينين وأخوه الأصغر قد أصبحا رجليه الأكثر نشاطاً في برلين، لكنّ العلاقة بهما مرّت بمرحلة من التوتر، منذ أن صار ليوفا على رأس محازبيه الألمان، وقد عزاها هو إلى الأفضليّة التي منحها ليف دافيدوفيتش إلى ولده في ميدان كان الشقيقان يتحكمان به. وكان أغرب ما ظهر من تبدّل في مواقف هذين الرفيقين هو رفضهما، بصورة أو بأخرى، التعليمات الموجهة إلى فضح حالات اللامسؤولية السياسية الستالينيّة الخاصة بالوضع في ألمانيا. كانت اختلافات الأخوين سوبوليفيسيوس تسبب قلقاً لليف دافيدوفيتش، خصوصاً وأنّها تصدر عن أشخاص مجربين موثوقين.

عقب أيام من سفر زينا، وصلت معلومة مسرّبة من موسكو أنارت الظلمة التي عاش فيها المنفي طوال سنتين. كان مصدر المعلومة شخصاً هو الأجدر بثقته: إنّه الرفيق V.V، الذي ما كان يعلم بوجوده غيره هو وليوفا، فقد كانت وظيفته داخل الجيبيو حسّاسة ومفيدة، على نحو خاص. ينبّه V.V في تقريره إلى أنّه يردد فحسب تعليقاً سمعه حول عمل ينفذه الشقيقان سوبوليفيسيوس لصالح جهاز الجيبيو داخل الحلقة المقربة من تروتسكي. لكنّ ذلك التعليق، -موضوعاً في سياقه-، منح لغز الشقيقين شكلاً وتفسيراً.

لكنّ افتضاح أمر العميلين - اللذين تبخرا ما إن أعلن ليف دافيدوفيتش عن صفتهما الحقيقية - سبب له قلقاً عميقاً. فقد وضع ثقته في ذينك الرجلين إلى درجة أنّه سلمهما ابنته ودعاهما للنوم في بيته واللعب مع سيفا والحديث على انفراد مع ناتاشا أو معه، وفي ذلك كلّه ما يكشف له عن هشاشة أيّة منظومة حماية ممكنة، وما يوضّح له كم لستالين من سلطة على حياته: إن اكتفى حفار قبر الثورة في الوقت الحاضر بمعرفة

48- أبراهام سوبوليفيسيوس أو أدولف سينين (1903-1967). عميل مخابرات سوفيتي من ليتوانيا. وكان في بداياته منحازاً لتروتسكي وأفكاره.

ما يفعله وما يفكّر فيه، فماذا عن الغد؟ إنّه مقتنع من أن الحرائق والمؤامرة المزعومة التي خطط لها الجنرال السابق توركول لم تكن سوى مناورات هدفها الإزعاج والتشويش وجذب الانتباه، أمّا المطاردة فلم تبدأ إلّا منذ قليل، ولن تستدعي نهايتها أفعالاً استعراضيّة ولا مؤامرات من أصدقاء بيض قدامى، بل ستأتي الطلقة الأخيرة من يد أعدّها ستالين بنفسه، قادرة على عبور كلّ حواجز الريبة والشك حتّى تبدو يداً صديقة تقريباً. مع ذلك، فقد أثبت عمل الشقيقين سوبوليفيسيوس له أنّ حياته ما زالت مهمّة من أجل أن يرتقي السكرتير العام أعلى مراتب السلطة المطلقة وأرفع درجاتها. وأصابه الرعبُ بعد أن تبيّنت له الأسباب التي دفعت بهم إلى السماح له بالرحيل بدلاً من قتله في سهوب آلماتا: إنّهم يريدون له أن يظلّ تجسيداً للثورة المضادة، ما دام على قيد الحياة. ستعلّق صورتُه على أيّة مطالبة بالتغيير السياسي الداخلي، وسيُسمع صوته على أنّه الصوت الذي يفسد أيّ صوت ينادي بحدّ أدنى من الحقيقة والعدالة. سيكون مسطرة لتبرير أيّ إجراء قمعي وأساساً لأيّ عملية إبعاد للناقدين ولصناع الفوضى، وسيكون وجهَ العملة المعادية لشيوعيي العالم: العملة التي لن تلبث أن تضمّ صورة أدولف هتلر في الوجه الثاني منها لكي تطرح للتداول.

***

حين انتهت أعمال الترميم في مسكن بيوك آضه طلب ليف دافيدوفيتش العودة للسكن فيه. ففي الأشهر التسعة التي أمضاها في اسطنبول لم يفارقه دوار الحالة المؤقتة العارضة والشعور بالوقوف على جرف هاوية، ولم يتمكن من مواصلة العمل، كما كان ينتظر، في كتابة «تاريخ الثورة». لذلك كان يأمل أن يجد في عودته إلى ما صار الآن بيته ما يسمح له بالتركيز في ما هو مهم بالفعل.

كان كارالامبوس ورجال آخرون من الضيعة في انتظارهم عند الرصيف. رحّبوا بأسرة تروتسكي وقدّموا لها سلّة من السمك والمحار وسواها من الأحياء البحريّة الطازجة، وأكياساً من الفواكه الجافّة وأقراصاً

من جبن الماعز وصحوناً من الحلويات التي يسمونها المشمش، وهديّة خاصة هي عبارة عن قدر من الفخار يحتوي على نوع من الفاصولياء والفطائر، الجاهزة لتغمر في زيت الزيتون المغلي وتهدي لمذاقهم متعة شهوانية متوسطية مختلفة جدّاً عن الأطعمة البدائية للوصفات الروسية والأوكرانية. وشكرت لهم الأسرة ترحيبهم وهديتهم.

وسرعان ما استأنف المنفي إيقاعه في العمل، وخصص عشر ساعات، أو اثنتي عشرة ساعة، لكتابة التاريخ ولتحضير المقالات المخصصة للوقائع[49]. ومع نهاية العصر، وبعد أن ينال التعب من عينيه فيسيل الدمع المزعج من جرائه، صار الجدّ ينادي على حفيده لينزلا، تسبقهما مايا، إلى الشاطئ لتأمّل مشهد الغروب. هناك كان يقصّ على سييفا قصص يهود يانوفسكا[50]، ويكلّمه عن أمه زينوشكا، التي تتعافى في برلين، ويدرّبه على مخاطبة الكلاب وترجمة حركاتها، معتمداً على فطنة مايا وصبرها.

لم تمرّ سوى ثلاثة أسابيع حين تلقّى ليف دافيدوفيتش طعنة سُددت له من موسكو في أوضح ما يكون عليه التحذير من أنّ الحرب عليه لن تتوقف وبأنّهم لن يمنحوه هدنة ولا سلاماً. كان ليوفا هو من أوصل الخبر، بعد تردد: اعتباراً من العشرين من شباط من عام 1932 ما عاد ليف تروتسكي وأفراد أسرته الموجودون خارج أراضي الاتحاد السوفييتي من مواطني البلد، وما عادوا يتمتعون بأيّ من الحقوق الدستورية وأيّة حماية من الدولة. أمّا الجريمة التي ارتكبها «العضو السابق في الحزب» (ما عادوا يدعونه الزعيم)، فهي المشاركة في أعمال مضادة للثورة، وهو لهذا يصنّف «عدوّاً للشعب»، وغير جدير بحمل جنسية الدولة البروليتارية الأولى في العالم. كان المرسوم الصادر عن الهيئة التنفيذية

49- Boletín أو الوقائع. وهي جريدة المعارضة التروتسكية التي كانت تصدر في عدة عواصم أوروبية.

50- وهو معسكر اعتقال لليهود في أوكرانيا.

لرئاسة اللجنة المركزية، والمنشور في جريدة البرافدا، لسان حال الحزب الشيوعي، يتضمّن الحكم، الذي أعيد العمل به مؤخراً، بالحرمان من المواطنة على ثلاثين منفيّاً آخرين، عدّوا أيضاً أعداء للشعب، وقد كانوا، في وقت من الأوقات، شخصيات بارزة في جناح المناشفة[51].

بينما كان يقرأ ذلك البلاغ، حيث حُشر فيه اسمه بخبث مع أسماء منفيين قدماء كان هو ولينين دعاهم إلى المهجر عام 1921، راح يدرس المقاصد ويبحث عن الأهداف الخفيّة لإجراء كان هو من أسس له في التاريخ السوفييتي. لا شكّ أنّ غرض ستالين الأول هو تحويله إلى مُبعد لا تدعمه أيّة دولة، واقع تحت رحمة أعدائه، الذين صار الشعبُ السوفييتي كلّه من بينهم الآن. وتترتب على ذلك نتيجة منطقية تتمثل في أنّ جميع مناصريه ومؤيديه داخل البلاد سيتحولون من معارضين سياسيين إلى متعاونين مع عميل «أجنبي»، وهي صفة تجعل منهم متهمين بجريمة الخيانة، وهي التهمة الأكثر إثارة للخوف وللرعب في أيام المدّ الوطني والقومي.

إزاء الهاوية التي وجد أنّه وأسرته يقفون على شفيرها، أدرك لييف دافيدوفيتش، لأوّل مرّة، غياب الواقعية لديه ومبالغته في ثقة أعمت بصيرته طوال سنين، ممّا سمح لذلك الورم الخبيث الملتصق بأسوار الكرملين، المدعو جوزيف ستالين، بأن يولد ويكبر أمام عينيه. فكيف لرجل مثله، عُرف بخبرته بالنفس البشرية وبمواطن ضعف الرجال وحاجاتهم، وتفاخر بمهارته وقدرته على تحريك الضمائر والجماهير، ألا يشعر بالرائحة النتنة التي كانت تنبعث من ذلك الكائن الغامض؟ كان ستالين، طوال سنين، قميئاً في عينيه، ضئيل الشأن، بل إنّه لم يجد له أثراً في رأسه وهو يعود بذاكرته إلى ما يفترض أن يكون أوّل لقاء

51- انشقّ حزب العمل الاشتراكي الديموقراطي الروسي عام 1903 إلى تيارين: تيار البلاشفة (الأغلبية) بزعامة لينين، وتيار المناشفة (الأقليّة) بزعامة مارتوف. وقد غيّر البلاشفة اسم الحزب إلى الحزب الشيوعي السوفييتي بعد انتصار ثورتهم عام 1917.

بينهما في لندن عام 1907. كان هو، آنذاك، تروتسكي الذي خلّف وراءه مشاركة باسلة في ثورة 1905، حين صار رئيساً لسوفييت بطرسبورغ؛ تروتسكي، الخطيب والصحفي القادر على إقناع لينين أو مواجهته ودعوته بالدكتاتور المبتدئ و«روبسبير روسيا»، الثوري المقبل على الحياة، المدلل والمكروه. فلا شكّ أنّه كان ينظر من دون اهتمام إلى الجورجي الواصل حديثاً، غير المثقف والمجرد من التاريخ، والذي تملأ وجهه آثار الجدري. لكنّه يتذكر ذلك اللقاء الخاطف الذي جرى بينهما عام 1913 في فيينا، حين قدمه أحدهم رسميّاً إلى «الدب الجبلي»، من دون أن يجد ضرورة للتعريف بتروتسكي، وأيّ ثوري روسي لا يعرف تروتسكي؟ وما زال ليف دافيدوفيتش يتذكّر أنّ ستالين، في تلك المناسبة، مدّ له بالكاد يده للمصافحة، قبل أن يعود إلى فنجان الشاي، مثل حيوان صغير أسيئت تغذيته. ولئن أفلح في تثبيت شيء في ذاكرته يتصل بذلك الرجل، فهي تلك النظرة الصفراء المنزوية، الخارجة من عينين صغيرتين لا ترمشان، كعيني سحلية متربّصة - كانت تلك هي الجزئية!-. كيف لم يلاحظ أنّ رجلاً له نظرة الزواحف تلك لم يكن كائناً شديد الخطورة؟

أثناء إعصار 1917، مرّ ستالين قبالته خيالاً عابراً، وفي مناسبات قليلة، ولم يعره ليف دافيدوفيتش أدنى اهتمام. وحين توقف، من بعدُ، للتفكير فيه اكتشف أن سبب نفوره من الجورجي هي طباعه التي فيها تكمن قوته: دناءة جوهريّة، وفظاظة سيكولوجية، وتهكّم البرجوازي الصغير الذي حررته الماركسية من الكثير من تحامله وأفكاره المسبقة، وإن لم تفلح في نزعها وإحلال منظومة أيديولوجية صالحة محلها. وثنته غريزته أمام أيّة محاولة قام بها ستالين للتقرب منه، وأقام بين الاثنين، من دون أن يعرف لذلك سبباً، مسافة من نفور وابتعاد: لكنّه لم يدرك خطأ حساباته، حتى بعد سنوات من ذلك. «الصفة الأساس التي تميّز ستالين» قال له بوخارين [11] في أحد الأيام في برلين «هي الكسل. أمّا الصفة الثانية

فهي الحسد، وبلا حدود، لكلّ من يعرف أو من يستطيع أن يعرف أكثر منه. بل لقد حفر حتّى من تحت قدمي لينين».

ووصل لييف دافيدوفيتش إلى قناعة مفادها أنّ خطأه الأعظم تمثّل في أنّه لم يتحرّك في اللحظة التي كان واضحاً فيها أنّ صراعاً من أجل السلطة قد بدأ، وأنّه كان يمتلك بين يديه ورقة رابحة هي رسائل لينين وهو يعنّف ستالين بسبب تصرفه القاسي حيال مسألة القوميات و«الوصية» التي يطلب فلاديمير أليتش فيها إبعاد الجورجي من سكرتارية الحزب. لكنّه رأى حينها أنّ ستالين ليس منافساً ذا شأن ولا خصماً ذا بال وأنّ إطلاق حملة على الدبّ الجبليّ ستسوّق (وهكذا كان سيتلاعب بها الموالون لستالين من المندسّين في الجهاز الحزبي) على أنّها معركة شخصيّة موجّهة لشغل مكان لينين، وهو ما لم يكن لييف دافيدوفيتش يستطيع أن يفكّر فيه من دون أن يشعر بالخجل. لكنّه فهم لاحقاً أنّه، حتى مع دعم لينين له، بالإرادة والرأي، فقد خسر تلك المعركة منذ وقت طويل: لقد مرروا من تحت قدميه مؤامرة متقنة، وجرده ستالين من سلاحه، بمعونة من زينوفييف [7] وكامينيف[52] وبدعم رخيص من بوخارين، ومن دون أن يشعر هو، ليصبح سقوطه واقعاً بانتظار أن يتحقق ويعلن. الأدهى من ذلك إدراكه بأنّ الهزيمة لا تعني هزيمته وحده، بل هزيمة مشروعه: وما كان ذلك لأنّه حُرم من الوصول إلى السلطة، بل لأنّه سهّل صعود ستالين وبالتالي، تدمير الحلم الاجتماعي، ذلك التدمير الذي كان الجورجي الجامح ينفذه.

انصرف لييف دافيدوفيتش عدّة أيام للتفكير في الردّ الذي يستدعيه ذلك البلاغ. كان متردداً بين كتابة خطاب معتدل، يركّز فيه على بطلان الحكم، أو الهجوم المباشر على الدكتاتور، انطلاقاً من علمه بأنّه

52- لييف كامينيف (1883-1936). سياسي شيوعي روسي. عديل تروتسكي. كان أحد أعضاء الهيئة الرئاسية الثلاثية التي تولت الحكم بعد موت لينين، جنباً إلى جنب ستالين وزينوفييف. أعدم عام 1936 ضمن محاكمات موسكو الأولى.

سيكون هدفاً لتهجّم مصادر الدعاية الكبيرة والفاسدة القادرة على الكذب المفضوح من دون أدنى شعور بالخجل. لكنّ ما شغل فكره، على وجه الخصوص، كان تساؤله إن كانت لحظة التخلّي عن كفاح تتضاءل إمكانياته من أجل إصلاح الحزب والدولة السوفييتيّة قد حلّت، وإن كانت ساعة القفز إلى الفراغ والإعلان عن ضرورة قيام حزب جديد قادر على استعادة حقيقة الثورة قد أزفت.

لم تلبث أصداء البلاغ أن شاعت في أجواء حياته الخاصة، فأرسلت له زينا، وهي مشمولة بالقرار، برسالة مستفهمة يائسة من برلين: كيف ستلتقي بابنتها المحتجزة في لينينغراد؟ وتطلب منه أن يكون سييفا معها، فهي تريد أن يكون واحد من أولادها، على الأقل، معها... وها هو لييف دافيدوفيتش يشعر بمعنى أن يكون مسؤولاً عن أسرة.

***

وصلت إلى بيوك آضه رسالة من موسكو هرّبتها يدٌ صديقة، أكّدت لليف دافيدوفيتش حجم الكارثة التي تتشكّل في بلده السابق. مرسلها هو إيفان سميرنوف[53]، البلشفي القديم الذي ربطته به صداقة حميمة، والذي كان واحداً من المعارضين الذين أذعنوا وتراجعوا عن مواقفهم في صيف 1929. لكنّ سميرنوف، وعلى الرغم من أنّهم أسندوا إليه منصباً رسميّاً، سرعان ما أدرك أنّ اسمه سيظلّ مشوباً بأنّه عارض في يوم ما ستالين تحت راية المرتد تروتسكي. وقرّر، وهو يخمّن نوعية الهجوم المضاد الذي سيطلقه رفيقه القديم، أن يجازف ويرسل له تقريراً حول حجم الخراب الاقتصادي والسياسي الذي يعصف بالاتحاد السوفييتي، والذي لا يبشّر، مع ذلك، إلّا بالقليل من الآمال بالنصر لأيّة معارضة، على المدى القريب، على الأقل.

53- إيفان سميرنوف (1881-1936). شيوعي بلشفي وأحد أعضاء المعارضة التروتسكية. أعدم في حملة التطهير الكبرى عام 1936. وبعد إعدامه بعام اعتقلت زوجه وابنته وحوكمتا وأعدمتا. أعيد إليه الاعتبار عام 1988 إبّان حقبة البرسترويكا.

وفي محاولة لتبرير خضوعه للسلطة، أشار سميرنوف في رسالته إلى أنّ تغيير وجهة الاقتصاد الذي بدأه ستالين عام 1929 كان يبدو عملية منطقية، بل معتدلة، فقد كانت تسير خطوة خطوة وفق الأفكار المتصلة بالتصنيع والملكية الجماعية للأرض، وهي مبادئ كانت، حتى ذلك الوقت، برنامجاً، وفي الوقت نفسه، سمة من سمات معارضة متهمة بعدائها للفلاحين وتعصبها للتنمية الصناعية. على الرغم من ذلك، فقد أدى القضاء على الاتجاه الذي كان يقوده بوخارين، واستسلام آخر المعارضين التروتسكيين، إلى أن يظلّ ستالين من دون منافسين ولا خصوم، وسمحت له بتحويل الحرب على الفلاحين، الذين أثروا واغتنوا، إلى عاصفة من العنف الجمعي، الذي شلّ الزراعة السوفييتيّة: وحين رأى الملاك الكبار أولاً، ثمّ المتوسطون والصغار، أن ثرواتهم باتت مهددة بتدخل يشمل حتى الدجاج وكلاب الحراسة، اختاروا طريق التخريب الصامت، فأقدموا على ذبح الحيوانات في حملات ملأت الحقول بالعظام النتنة وبخار الزيت المغلي، وأتت على أكثر من نصف أغنام الأمّة. وبدؤوا أيضاً، كما كان منتظراً، بالتهام القمح وبقيّة الحبوب، بل لم تسلم منهم حتى البذور التي توفر الضمانة لموسم الحصاد القادم، الذي لم يشهد بذراً ولا عناية إلّا حين صُفّ المزارعون أمام البنادق. تفاقم الخمول واستشرى فتور الهمّة مع نقل قرى وبلدات كاملة من أوكرانيا ومن القوقاز إلى غابات سيبيريا ومناجمها، التي صارت الحكومة تفكر في أن تستخرج منها الثروات التي ما عادت الأرض تجود بها. وكانت النتيجة المتوقعة هي المجاعة التي عصفت بالبلاد، منذ عام 1930، وما كان يرى لها من نهاية. في أوكرانيا هناك حديث عن ملايين من البشر قضوا جوعاً، بل هناك من يؤكد وقوع حالات من أكل لحوم البشر. في المدن راح الناس يستولون على بضع حبات من البطاطس في السوق السوداء مقابل كمية ضخمة من الروبلات، بعد أن فقدت هذه العملة قيمتها، حتى صار الكثيرون يفضلون المقايضة بين البضائع. لن يعرف أحدٌ كم من الأنفس كلّف

ذلك «الهجوم» على الاشتراكية، ويرى سميرنوف أنّ زراعة الأمّة لن تتعافى في خمسين سنة.

لا تقلّ تخريباً، يضيف سميرنوف، العملية التي بدأها ستالين حين أصرّ على مسح عناصر الذاكرة التي لا توافق هدفه في إعادة كتابة التاريخ السوفييتي بما يناسب بروزه وعلوّ شأنه. قبل ذلك بأشهر، أبعد ريازانوف، مدير معهد ماركس- إنجلز، وياروسلافسكي، مؤلف «تاريخ للثورة البلشفية»، بعد أن اتهما بأنّهما لم يبرزا تراث لينين بالقدر الكافي. لكنّ السبب الحقيقي هو أنّ ريازانوف لم يستطع أن يبرهن على أنّ ستالين قدّم أيّة إضافة للنظرية الماركسية، وأن «تاريخ» ياروسلافسكي، الذي شابه الكثير من التحريف، لم يقدر على تمجيد ستالين تماماً، لأنّ أحداث الثورة كانت قريبة العهد وما زال الكثير من أبطالها أحياء.

حكى له الرفيق القديم أنّ سعار حبّ الذات لدى ستالين اختطّ سبلاً أشدّ إيلاماً بما تسبب في نتائج كارثيّة لا صلاح لها. فمع «التغيير العظيم» نشأت فكرة تحويل موسكو إلى المدينة الاشتراكية الجديدة، ونصّب ستالين نفسه على رأس مشروع بدأ بتغيير الكرملين، فهدم دير «المعجزات» ودير «القيامة»، الكائنين داخل أسواره، واللذين يعودان إلى العام 1358 و 1389، وهدم كذلك قصر نيقولا الرائع، وهو بناء يرجع إلى عصر كتالينا الثانية. أمّا خارج أسوار قلعة السلطة فقد شهد أقسى التدمير في هيكل المسيح المخلّص، أكبر مبنى مقدس في المدينة، بارتفاعه الذي يبلغ تسعين متراً، وجدرانه المكسوّة بالجرانيت الفنلندي وألواح المرمر المجلوبة من ألتاي وبودول، وقبته المضاءة بصفائح البرونز، وصليبه الكبير الذي يبلغ طوله عشرة أمتار، وأبراجه الأربعة، المحمّلة بأربعة عشر ناقوساً، والتي يبرز منها ذلك الناقوس العملاق الذي يبلغ وزنه أربعة وعشرين طنّاً، والذي تحدى قوانين الفيزياء وأثار فضول المؤمنين في جميع أنحاء أوروبا. ذلك الهيكل، الذي بورك عام 1883 أمام حشد من عشرين ألف شخص في داخله، هدم بعد مرور

ثمانية وأربعين عاماً من تشييده، بعد أن قرر ستالين أن المكان الذي يشغله هو المكان المثالي لتشييد قصر للسوفييت، بسبب قربه من الكرملين والساحة الحمراء. لقد بدا ذلك القرار لسميرنوف أوضح دليل على حجم السلطة التي بات ستالين يمتلكها، لا ليقرر مصير السياسة في البلد، بل مصير الزراعة والثروة الحيوانية والمناجم والتاريخ واللغة (كان قد اكتشف مؤخراً تلك القدرة عنده)، بل الهندسة المعماريّة، فبعد أن هدّم هيكل المسيح المخلّص صرّح بأنّ الساحة الحمراء صارت أفضلَ منظراً بعد إزالة كاتدرائية القديس باسيليوس، التي كانت تحجب الرؤية عنها... كل ذلك، ختم سميرنوف كلامه، يحدث تحت غطاء سياسة الرعب التي كمّمت أفواه العمال، كما كممت أفواه العلماء، رعب لم يتحوّل إلى طاعة مرعبة، بل إلى فتور دبّ في الشعب الذي تزعّم أعظم تحوّل اجتماعي في تاريخ البشريّة.

***

مع أنّ قيمة أسهمه كانت في هبوط، فقد كان ليف دافيدوفيتش يعرف أنّ لا بدّ من نهاية لمعتزله التركي. فلربّما يمكنه، وهو في مكان أقرب إلى الأحداث، أن يساعد في الحيلولة دون وقوع شرور أكبر، لذلك بدأ حملة جديدة للحصول على تأشيرة دخول إلى أيّ مكان وبأيّة شروط وتحت أيّة ظروف، وركّز مساعيه على فرنسا والنرويج، بعد أن استبعد ألمانيا، وإن كانت إقامته فيها ستكون أنفع وأجدى، بسبب مظاهر العداء التي كان يبديها نحوه الشيوعيون والفاشيون على السواء. بل إنّ محازبيه القدامى كانوا أشدّ تحاملاً عليه، فكان ثلمان [28] يكيل له سيلاً من الشتائم عن كلّ تحذير يوجهه لهم من الخطر القومي الاشتراكي. بل لقد صرّح بأنّ فكرة تروتسكي عن إقامة حلف شيوعي مع الوسط واليسار تمثّل نظرية بالغة الخطورة صادرة عن معاد للثورة مفلس.

في حدود خريف عام 1932 حطّم طوق الظلمة نور غامض أومض حين فُتح الباب على احتمال أن يسافر لأيّام إلى الدنمارك، مدعوّاً من

الطلبة الديموقراطيين الاجتماعيين، للمشاركة في محاضرات تلقى بمناسبة مرور خمسة عشر عاماً على ثورة أكتوبر. ومع فرحة كان هو نفسه يعلم أنّها فرحة اليائس، شرع من فوره بالتحرّك، متأملاً أن يتمكن، أثناء مروره بفرنسا أو في النرويج، أو حتى في الدنمارك، أن يحصل، على لجوء، ولو مؤقت، يسمح له بفضاء يمارس فيه عمله السياسي.

كانت الأسابيع التي سبقت السفر مشحونة بالتوتر: تأشيرات مرور لم تصل، وقيود متزايدة يضعها الدنماركيون على مدة إقامته، ودعوات إلى مظاهرات معادية للتروتسكية في فرنسا وبلجيكا وألمانيا، ولو كانت عزيمته فاترة لتخلّى عن تلك المغامرة التي واجهتها المصاعب والمثبطات ولمّا تبدأ.

في الرابع عشر من تشرين الثاني، وبعد حصوله على تأشيرة دخول دنماركية مدتها ثمانية أيام، ركب أفراد عائلة تروتسكي الباخرة في اسطنبول، وهم بعدُ تحت تأثير خبر جديد وغامض يشير إلى انتحار ناديا أليلوييفا، زوج ستالين الشابة[54]. خلال الأيام التسعة التي استغرقها مرورهم باليونان وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا، أشعره أعداؤه بأنّه، لو كان يقوم بتلك الرحلة بصفته قائد أمّة تخوض حرباً، أو زعيم مؤامرة في طور التنفيذ، لما أحدث حضوره، في كلّ واحد من تلك البلدان، صخباً كالذي أحدثه وهو مجرّد من كلّ شيء إلّا من ماضيه ومن صفة المنفي التي يحملها. إنّه لا يرى بأساً في تلك الاضطرابات، بل يجد فيها ما يريحه، لأنّ فيها الدليل على أنّه ما زال قادراً على أن يولّد خوفاً بين الحاكمين والأعداء، وعلى أنّهم ما زالوا ينظرون إليه على أنّه شخص قادر على إحداث ثورات.

54- زوجه الثانية. ولدت عام 1901 وتزوجها وهي في الثامنة عشرة. في التاسع من تشرين الثاني من عام 1932 وجدت في غرفتها قتيلة بعيار ناري. تحدثت الرواية الرسمية عن التهاب في الزائدة الدودية، وأشيع أنّها انتحرت، ولم يستبعد آخرون أن يكون ستالين نفسه هو من قتلها.

لكنّ ليف دافيدوفيتش اضطر، بعد ثلاثة أسابيع من ذلك، وبعد عودته إلى معتزله في بيوك آضه، أن يعترف بأنّه لم يلقَ الترحاب إلّا في إيطاليا موسوليني، حيث سمحوا له، وهو ذاهب، بزيارة مدينة «بومبي» الأثرية، وبقضاء يوم في البندقية، وهو عائد. أمّا بقيّة الرحلة فقد كانت سلسلة متصلة من نطاق أمني فرضته الشرطة على أماكن سيره، لا يدري إن كان لحمايته أم للتحكم في حركته، بينما مرّت الأيام في كوبنهاغن في جوّ من التوتر بين احتجاجات الدبلوماسية السوفييتية ومطالبة الأمير الدنماركي آجي باعتقاله لكونه واحداً من قتلة أسرة آخر قيصر روسي، وهو ابن أميرة دنماركيّة.

لكنّه لا ينفي أنّه استمتع كثيراً بالحديث عن الثورة الروسية أمام جمهور غفير تجاوز عدده الألفي شخص، فقد أشعره ذلك الجمهور بطعم التحريض الذي كان مدمناً عليه. ثمّ إنّ عودته للقاء طقس شديد، وفي مدينة خافتة الأنوار شاحبة الليالي، كليالي سان بطرسبورغ، ملأت نفسه بالحنين. لذلك، ومع علمه بالردّ الذي سيتلقاه من طرف السلطات الدنماركية، فقد ألحّ في تقديم تقارير طبية تؤكّد حالته الصحية وحاجته إلى علاج متخصص. وحين أبلغوه بأن طلباته لم تحظَ بالموافقة، استنتج ليف دافيدوفيتش أنّه إن شكّ مراراً في إخلاص أصدقائه، فليس له أن يشكّ في تصميم أعدائه ومثابرتهم، بغضّ النظر عن الجهة التي ينتمون إليها.

لم تكن لعودته هذه المرّة إلى جزيرته- محبسه، حيث أوراقه وكتبه، وحيث حفيده وكلبته المدللة، رائحة العودة الطيبة إلى البيت، بل كانت رائحة تهميش كريهة، بدت له بلا نهاية. لم تكن تنتظرهم عند الرصيف الحشود المتحمسة أو اللاعنة، ولا السلاسل البشرية من رجال الشرطة أو الموظفين الخائفين، كما حدث في كلّ مكان مرّوا به أو ذهبوا إليه في الأيام الأخيرة، بل وجدوا بعض الصيادين الأصدقاء وأولئك الشرطة الأتراك الذين كانوا في معظم الأحيان يشاركونهم طعامهم. لم يكن وجودهم في بيوك آضه يسبب مشاكل، وقد جعلته تلك الحقيقة يدرك

أنّ الضجّة التي ما زال اسمه قادراً على أن يثيرها في أوروبا لا ترجع إلى ما في مقدوره أن يفعله، بل إلى ما يطالب أعداؤه بأن يُسدّد إليه جزاءً عن أعماله: عداءً واضطهاداً ورفضاً. لقد حركّت كراهية ستالين، التي تحولت إلى مصلحة عليا للدولة، أضخم آلة تهميش معروفة في حقّ فرد واحد، بل لقد رُفعت بصفتها استراتيجية عالمية للشيوعية الموجّهة من موسكو، بل بصفتها سياسة في النشر لعشرات الصحف. لذلك كان عليه أن يبلع ما تبقّى من كبريائه ويعي أنّ القابعين في الكرملين، حتّى يقرروا أن حياته ما عادت مهمة بالنسبة إليهم، سيبقون عليه محبوساً في قوقعة مغلقة بإحكام، لحين نزول الستارة وانتهاء المهزلة. وتجرأ للمرة الأولى على التفكير في حياته من منظور تراجيدي: كلاسيكي، على طريقة الإغريق، ومن دون أيّة فرصة للنقض أو الاستئناف.

***

حلّ عام 1933 وحلّت معه هجمة شرسة من الضيق والإحباط. كان طلب زينة بإرسال سييفا إلى برلين لا يحتمل أيّ تأخير، فاضطر ليف دافيدوفيتش ونتاليا، حال عودتهما من كوبنهاغن، إلى وداع الطفل. كان ليوفا قد حدثهما، أثناء لقائهما السريع معه، لدى مرورهما بفرنسا، عن سوء حالة زينوشكا ونصيحة الأطباء بأن وجود ولد من أولادها معها قد يعود ببعض الفائدة على معنوياتها المنكسرة. ومع أنّ ليف دافيدوفيتش وناتاليا طالما فكرا في مناسبة ذلك، فقد قررا أن يقدما حالة الطفل النفسية على صحة أمّه المريضة، لكنّ حضانتهما المحدودة على سييفا، من جهة، وإلحاح زينوشكا عليهما، من جهة أخرى، اضطرهما إلى الرضوخ لطلبها. ولم يستطيعا، وهما يريانه يبكي، صباح سفره، فراق صديقته الكبيرة مايا وأولاد كارالامبوس وجديه، اللذين ألفا التوديع والفقدان، أن يقاوما الشعور بأنّ فلذة من قلبيهما تفارقهما.

وجد ليف دافيدوفيتش أنّ الطريقة الوحيدة لقتل وقت فراغه هي العمل، الوسواسي دائماً، في إدخال التعديلات على «تاريخ الثورة»،

وفي مراجعة مواده ومصادره بقصد الشروع في واحد من مشاريعه عن تاريخ الحرب الأهلية، والسيرة الموجزة المشتركة لماركس وإنجلز، وسيرة لينين. مع ذلك فقد أبقى عليه القلق متوتراً ومشتتاً، فكأنّه ينتظر حدثاً لم يتصوّر وصوله بذلك القدر من القسوة.

كانت البرقية الأولى التي وردته من ليوفا وجيزة وقاسية: لقد انتحرت زينوشكا في شقتها في برلين ولا يُعرف مكان سييفا. أغلق ليف دافيدوفيتش على نفسه في غرفته ويداه تطبقان على الورقة. إنّ عجزه عن أن يكون قريباً من مكان الحدث ليؤلمه قدر ما يؤلمه الحدث نفسه. لم يكن يقوى على رؤية أحد ولا سماع أحد. ومع أنّه كان ينتظر نهاية كالتي وقعت، وعلى الرغم من أنّ ابنته الشابة كانت في مركز هواجسه في الأيام الأخيرة، فإنّ ما آلمه حقّاً كان شعوراً بالذنب دهمه دهماً. كان يعلم حق العلم أنّ حياة زينوشكا المأساوية، والآن موتها، وهي في الثلاثين من عمرها، هما ثمرة انشغاله بالسياسة، وحرصه على أن يكون له دور البطولة في تخليص الجماهير العريضة، بينما ترك مصير أقرب الناس إليه طعماً للنار، بعد أن ضحى بهم على مذبح الانتقام لثورة أصابها الفساد. أمّا مبعث ألمه الأكبر فكان التفكير في المكروه الذي ربّما وقع للصغير سييفا، وجدّ عليه إحساس بالاحتضار نتج عن خوفه على مصير الطفل، عزاه هو إلى الشيخوخة والتعب.

عند المساء وصل أحد مساعديه من العاصمة وهو يحمل برقية ثانية من ليوفا أوقدتْ في نفسه بصيصاً من الأمل. ألقى نظرة سريعة على البرقية، متجاوزاً تفاصيل الانتحار، حتّى وصل إلى حيث وجد شيئاً من الاطمئنان الذي كان يبحث عنه: لقد تركت زينوشكا رسالة تقول فيها إنّها حملت سييفا إلى امرأة تدعى «فراو ك.»، ومع أنّها لم تعطِ عن تلك المرأة معلومات أخرى، فإنّ ليوفا ورفاقه يبحثون عنها في أنحاء برلين. أمضى ليلته مسهداً، معلّقاً بذلك الأمل، يحاول ألّا ينظر إلى الساعة. وقرر أن يستقل أوّل قطار مسافر إلى اسطنبول صباحاً، علّه يفلح في الاتصال

هاتفيّاً بولده ليوفا. استحضر عدة مرّات، على الرغم منه، حياة ابنتيه التعيسة، ولم يفلح في أن يبعد عن ذهنه فكرة أنّ مصيراً مشابهاً يمكن أن يرسم حياة ليوفا والشاب سيروجا وسييفا. وتساءل إن كان الوقت قد حان ليتخذ الإجراء الوحيد القادر على وضع حدّ لسلسلة القرابين تلك: فقد يساعد موته على التخفيف من الرغبة في الانتقام التي تطوف حول أسرته، التي وقعت فريسة مواجهة لا تعرف حدوداً. نظر غير مرّة إلى المسدس المطعم بالصدف في وجهيه، الذي كان بلومكين [38] قد جلبه له هدية من دلهي. هل من حق الثوري أن ينسحب من المعركة؟ هل حياة أبنائه أهمّ من مصير طبقة بأكملها، من فكرة مخلصة منقذة؟ هل سيقدم هدية إلى ستالين؟ ومع أنّه كان يعرف الأجوبة، فإنّ فكرة استخدام المسدس ثبتت في ذهنه بقوة لم يشهد لها نظيراً حتّى ذلك اليوم.

تأمّل في المرسى، وهو يرتجف من النسمة الباردة القادمة من البحر، وصول أولى البواخر المنطلقة صباحاً. من بين المسافرين القليلين الذي كانوا يسافرون في تلك الساعة وفي ذلك الموسم، لمح معاونه رودولف كليمنت، الذي ارتسمت على وجهه بسمة بعثت فيه الأمل، إذ سمع منه الخبر الذي كان ينتظره: لقد عثروا على سييفا. كان لييف دافيدوفيتش، في لحظة من اللحظات، على وشك أن يقدم الشكر لأيّ ربّ، لأيّ إله، واعترف بأنانيته وهو يشعر بالفرح الذي سببه له سماع ذلك الخبر. لكنّه سرعان ما أحسّ، في مساء ذلك اليوم، بعد أن غلبه التوتر، بأنّ رصيده من قوته، الذي أبقى عليه واقفاً على قدميه، قد بدأ ينفد، وسقط على الفراش من نوبة ملاريا أصابته.

تلقى لييف دافيدوفيتش بعد أيام رسالة كتبتها له أليكساندرا سوكولوفسكايا من لينينغراد، حيث تعيش عيشة الكفاف. وكما كان منتظراً فقد كانت رسالة مشحونة بالألم والاستياء، فهي تتهمه بإبعاد زينوشكا من ميدان الكفاح السياسي ودفعها دفعاً إلى الانتحار. ولمّا لم يكن فيه من القوة البدنية ولا المعنوية ما يعينه على الردّ على الوالدة

الثكلى، فقد اختار أن يتحمّل الذنوب التي تخصّه ويوزّع على الآخرين تلك التي لم تكن ذنوبه. وكتب، بالبرود الذهني القليل الذي بقي لديه، رسالة مفتوحة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي يضع فيها الذنب على ستالين في موت ابنته، التي نفيت لمجرد انتمائها إلى أسرته، وأبعدت عن ابنتها وعن أمها وعن زوجها للسبب ذاته، وطردت من الحزب وفصلت من عملها في أشدّ أساليب الانتقام سفالة ودناءة. إنّ الانتقام الذي يصيب أشخاصاً أبرياء هو الأكثر دناءة والأكثر إجراماً وخسّة، قال. ولكن كان على ليف دافيدوفيتش أن يعترف، متألماً، بأنّ هناك من يضارع جوزيف ستالين في مسؤوليته عن موت ابنته زينوشكا: الشيوعيون المزعومون الذين وصفوا ستالين، في المؤتمر الحزبي الأخير، وفي حالة بالغة الخزي، بعبقري الثورة وبأبي الشعوب التقدمية في العالم، بينما يموت ملايين الفلاحين جوعاً في أرجاء البلاد، ويسقط مئات الآلاف من الرجال والنساء فريسة الضعف في معسكرات العمل القسري وفي مستعمرات المبعدين، ويهيم ملايين البشر على وجوههم حفاة، وبينما تمكّن السياسة السوفييتية الطمع النازي من مصير العمال الألمان والأوروبيين.

أعدّت السكرتيرات النسخ التي خرجت في اليوم التالي إلى موسكو وإلى الصحف والأحزاب والتجمعات السياسية الأوروبية. كان ليف دافيدوفيتش يثق بأنّ موت زينا سيلقى الصدى الذي لم يلقه اغتيال بلومكين، والهزّة التي لم يولدها إبعاده هو... ولكن، جاء التاريخ، ومن جديد، ليصرخ في أذنيه، وارتفع صدى أحداث أخرى أكثر دويّاً دفنت آماله، ففي الوقت الذي خرجت فيه رسائله من بيوك آضه، سرت في أنحاء أوروبا وأرجاء العالم موجه من خوف له ما يبرره: لقد أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا وأغرقت الأعلام الفاشية البلد بين هتافات الملايين من الألمان. لقد أصبحت برلين مدينة هتلر المنتصر، وليست مدينة شابة شيوعية منفية ومنتحرة.

-8-

تملّك رامون، لدى وصوله إلى برشلونه، إحساسٌ بأنّ المدينة قد شاخت.

وصل أمرُ رئاسة الأركان في الجيش الشعبي إلى معسكره، وفيه طلب بحضوره إلى المدينة، بعد أسبوع من زيارة كاريداد له في جبال «غوادارااما». ودّع رامون زملاءه وهو في بحر من الشكوك والشعور بالخجل. وصعد بملابسه الملطخة بالطين في العربة العسكرية المخصصة لإخلاء الجرحى في الجبهة. لن يمرّوا!، هتف متوجهاً بالخطاب إلى رفاق الخندق، الذين ردّوا على هتافه بهتاف مماثل: لن يمرّوا! لم يكن رامون ميركادير يتخيّل أنّه لن يردد بعد الآن ذلك الهتاف.[55]

قبل ذلك الوقت بستة أشهر، حين عاد رامون إلى برشلونه مع ما تبقى من فوجه، الذي مزقه أول هجوم شنّته قوات فرانكو على مدريد، وجد مدينة في حالة غليان سياسي، وتمكّن في أيام قليلة من تشكيل فوج جديد مستعدّ للالتحاق بصفوف الجيش الشعبي، الذي كان قد أنشئ حديثاً. انخرط معه ووراءه أغلب رفاقه الناجين من فوجه المدمّر وعشرات من شباب الطابور الحديدي التابعين للشبيبة الاشتراكية، فرحين بإمكانية ذهابهم إلى جبهة مدريد، حيث سيتقرر، في ما يبدو،

55- «لن يمرّوا» هو الشعار الذي رفعه أنصار الجمهورية من قوى اليسار إبّان الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939) في إشارة إلى دفاعهم المستميت عن مدريد في وجه «الوطنيين» من أتباع فرانكو.

كلّ شيء. كان الإيمان بالنصر هو الأوكسجين الذي تستنشقه برشلونه آنذاك.

كانت جادة «لاس رامبلاس» في تلك الأيام من بداية الحرب الأهليّة، تلخّص، في نظر رامون، روح مدينة مبتهجة، سكرى بأحلام الفوضويين والشيوعيين والنقابيين. وعلى الرغم من أنّ رياح الحرب الخبيثة والموت كانا حاضرين محسوسين، فقد كان مئات الأشخاص يتجوّلون في الجادة وهو يرتدون بدلات العمل الزرق ويحملون شارات مليشيات مختلفة أنشئت حديثاً، بينما راحت مكبرات الصوت، المعلّقة في مبانٍ تدلّت منها شعارات الأحزاب الموالية للحكومة وأعلامها، تصدح بموسيقى المارشات الثوريّة المدوّية. وصارت صفة العامل والحزبي والمقاتل، في إحدى الميليشيات أو في صفوف جيش الجمهورية، علامة مميزة، وبدا ممكناً أن تكون الطبقات الثرية، كالتي تنتمي عائلته إليها، والتي ازدان بها لعقود ذلك المكان، قد تبخرت من على وجه تلك الأرض الثائرة، حيث يتبادل الناس التحيّة برفع قبضة اليد، ويتبادلون الشعارات ويعدّون النفس للتضحية، مؤمنين بوجوب النضال من أجل كرامة الإنسان التي اكتشفها الكثيرون مؤخراً.

شرب رامون وشعر بحماس واستعداد أكبر لدفع عجلة التاريخ نحو الأمام، في تلك الأجواء المجنونة، التي لم يبدُ أحدٌ فيها مدركاً للمأساة الوشيكة المتربصة. وحين حلّت، بعد ذلك الوقت بأسابيع، أخطر اللحظات التي شهدها مسار تلك الحرب، حين أعلن الاتحاد السوفيتي عن تقديم مساعدة عسكرية للجمهوريّة، استقبل الخبرُ بفرح عارم، لأنّه أعطى دعماً قويّاً للحزب وأعضائه، الذين تراجعوا في الأسابيع الأولى أمام مدّ فوضوي استمتع بأفضل صيف في تاريخه.

استثمر رامون، بدعم من أفريكا وجوان برفاو وزملائه في إدارة الشبيبة الموحدة، الحماس الثوري المضاعف، وقاموا بحملة سريعة ومكثفة لتجنيد متطوعين من الفتية. وعجّل طابور خوامي غرايلز

(سقط المسكين خوامي في معركة الدفاع عن مدريد وكان أوّل شهيد في المجموعة) بالسفر إلى وجهتهم العسكرية الجديدة، على بعد بضعة كيلومترات من مدريد، وكان يحاصرها الوطنيون. تولّى رامون، وهو المحارب القديم الفخور بأثر الجرح الذي أصيب به من رصاصة مزّقت ظاهر يده اليمنى في الأيام الأولى من الحرب، قيادة الطابور لحين التحاقه بالكتيبة الخامسة، وتجوّل خلال أيام في برشلونه مستعرضاً شاراتٍ تملؤه بالحماس المتأجج.

أمضى رامون في برشلونه أسبوعين من شهر تشرين الأول عام 1937 قبل أن يعود إلى الجبهة. وانتهزت أفريكا ذينك الأسبوعين لتطلعه على مستجدات السياسة الغامضة التي بدأت تتحرّك من تحت الأجواء الحماسية المتأججة. كان الخطر الأكبر الذي تواجهه قوى الجمهورية، بحسب الشابة، هو الحزبيّة والتحزّب الذي شاع بين تلك القوى منذ بداية الحرب. فقد كان القوميون الكاتلان والنقابيون الفوضويون أو الاشتراكيون، والمرتدون التروتسكيون، من مثل جماعة حزب العمال الماركسي الموحد – الذي يرأسه المتشدد العنيد أندريس نين[56] (وكان عضواً حتى في حكومة كاتالونيا المحليّة) –، يعارضون الاستراتيجيّة الشيوعية ويقدمون المسألة الأهم في ذلك الوقت: الحرب «مع» ثورة أم الحرب «مع» نصر و«من دون» ثورة. كان الحزب الشيوعي، حتى قبل وصول المستشارين السوفييت وزعماء الكومنترن إلى إسبانيا، قد هضم سياسات موسكو المصيبة على الدوام وأبدى موقفه بوضوح: أولوية قوى اليسار هي الاتحاد من أجل بلوغ النصر العسكري والحيلولة دون صعود فاشيّة تنطلق لدعم العسكريين المتمردين وتقديم مساعدة كبيرة وفوريّة لهم. ولن يكون ممكناً، إلّا بعد تحقق هذا النصر الجمهوري،

56- أندريو أو أندريس نين (1892–1937). سياسي ونقابي إسباني عرف بنشاطاته في العديد من الحركات اليسارية. كان واحداً من مؤسسي حزب العمال الماركسي الموحدPOUM ذي التوجه التروتسكي. اغتيل عام 1937 في ما يبدو بأوامر من موسكو.

الحديث عن التأسيس لثورة اجتماعيّة. تلك الثورة الاجتماعية التي كان مجرد الإعلان عنها، في تلك اللحظات، يثير رعب الديموقراطيات غير المستقرة، والتي ليس عليهم أن يثيروا رعبها، لأنّ الواجب يقتضي أن تكون تلك الديموقراطيات الحليف الطبيعي للجمهوريين ضد الفاشيّين. كان أنصار حزب العمال الماركسي الموحد، بفلسفتهم التروتسكية حول الثورة الأوروبيّة، والفوضويون، بدعواتهم الليبراليّة (التي دفعتهم إلى ارتكاب فظائع وجرائم دنيئة كالتي فعلها العسكريون المتمردون)، قد عارضوا تلك الاستراتيجية منذ البداية، لأنّهم عدّوها خاطئة، بينما دعوا إلى خوض الحرب والثورة، في آنٍ معاً، على النظام البرجوازي. كان ذلك الفرق في المبادئ إعلاناً عن معارك شرسة، لأنّ عمل الشيوعيين، بحسب أفريكا، يلتفت إلى جبهة القتال بقدر ما يلتفت إلى الجبهة الداخلية، حيث يتحتّم عليهم النضال من أجل إثبات صحة السياسة التي يطالب بها المستشارون السوفييت، إذ اشترطوا مقابلاً لدعمهم العمل على تحقيق الانتصار العسكري من دون الوقوع في تصدعات أيديولوجية كان الفوضويون والتروتسكيون يعملون على إحداثها في صفوفهم.

– هؤلاء المحرّفون يعجبهم أن يلعبوا لعبة الثورة – قالت له أفريكا– وإن تركناهم وشأنهم فسيفلحون في أن نكون معزولين وسنخسر الحرب. هم يحملون شارة تروتسكي على جباههم وسنضطر إلى نزعها منهم بالنار. من دون المساعدة السوفييتيّة لن نستطيع أن نحقق النصر، ولا في الأحلام، ولك أن تخبرني حينها كيف سنحقق الثورة... يبدو أنّهم نسوا ما جرى في 1934.

اصطحبت أفريكا رامون في سيارة الهسبانو– سويزا الفاخرة، التي كانت تستخدمها في تنقلاتها، في جولة عبر جادة «لاس رامبلاس» وفي البلدات القريبة من برشلونه لتطلعه على الفوضى التي كان التروتسكيون والفوضويون يقودون البلاد إليها. لقد ساد خراب محزن أطراف «لاس

رامبلاس» والمراكز الحساسة من المدينة، فقطعت الشوارع بمتاريس عشوائية، وتوقفت المصانع عن العمل، ونهبت البنايات حتى الأساس، وتحوّلت الكنائس والأديرة إلى هياكل متفحمة. وروت له أفريكا قصصاً عن الإعدامات التي كان الفوضويون ينفذونها، وعن خوف العمّال من التعبير عن آرائهم. لقد جرّدت الطبقة الوسطى من أملاكها، وجرد الكثيرون من أصحاب المصانع من أموالهم، وراح مشروع إنشاء صناعة حربية يبحر في لجّة من فلسفة الإرادية النقابيّة، وشحّت المواد في المحلات والأسواق. صحيح أنّ الناس متحمسون، لكنّهم جائعون. الحصول على الخبز يعني، في أماكن كثيرة، طوابير طويلة من الانتظار، وهو غير متوفر إلّا لمن يحمل بطاقة يتولى توزيعها الفوضويون والنقابيون حصراً، بعد أن أصبحوا سادة مدينة لم تعد الحكومة المركزية والمحلية فيها سوى مرجعيات مركونة مهمّشة. يؤكد الفوضويون أنّ الدخول في عصر المساواة يضمن لهم دعم جماهير استعبدت لقرون، لكنّ أفريكا لا تنفكّ تتساءل: وإلامَ سيدوم الحماس، وحتّام يبقى الإيمان بالنصر؟

- ما هذه الجمهورية إلّا ماخور ويجب أن تُردّ إلى جادة الصواب.

وهو الآن، بعد أشهر قليلة من رجوعه من الجبهة، حيث رائحة الدم والقصف، وحيث يسقط في كلّ يوم شباب، كأخيه بابلو أو صديقه خوامي، يجد مدينة متعبة، بل محبطة ومحاصرة بالعوز ومتلهفة للعودة إلى طبيعتها التي دمرتها الحرب والأحلام الثوريّة. فكأنّ الناس لا تتطلّع إلى أكثر من أن تحيا حياة طبيعيّة وعادية، حتّى لو كان الثمن هو عار الاستسلام. قبل أيام قليلة، أحدث الهجوم المدمر الذي شنته قوات فرانكو على مالقا، والذي أبادت فيه القوات المتمردة من سلاحي المشاة والبحرية، وبدعم من الطيران والجيش الإيطاليين، وكلّ من فرّ من المدينة، أثراً كبيراً في ثقة الناس وإيمانها. ومع أنّ الإعلانات ظلّت معلّقة في المباني والكنائس المصادرة والقليل الباقي من وسائط النقل التي تجوب أنحاء برشلونه، فقد صارت تدعو لا إلى الوحدة والنصر،

بل تصرخ مطالبة بإبادة الأعداء الذين كانوا حتّى وقت قريب حلفاء، بل إخوة. وأطلّت البرجوازية برأسها من جحورها، وكانت حتّى أسابيع ماضية معزولة: بدأت المعاطف الجلدية من جديد تنافس بدلات العمل في مقاهي «الرامبلاس»، الفقيرة بعدُ في تجهيزاتها. أمّا في البارات فقد كان رجال الميليشيا الفوضويون يشربون، بكلّ استهتارهم، ما يجدون، ويلعبون الدومينو، ويدخنون السجائر الملفوفة الكريهة الرائحة، ويعبثون مع العاهرات، وكانوا، من أسابيع قليلة، يشجعونهنّ على التحديث والقيام بعملية إعادة هيكلة بروليتاريّة. راح عنفوان الأشهر الماضية يفقد بريقه، كحال تلك الحروف الباهتة على اليافطات التي ما زالت تذكّر بالأهداف العظمى، والتي كتبها أولئك الرجال أنفسهم في تلك البارات نفسها: «الرقص هو المدخل إلى الماخور»؛ «الحانة تضعف الطباع»؛ «البار يفسد الروح»؛ «لنغلقها!».

في الطريق إلى قصر قريبه الماركيز دي بيّوتا المصادر، أحسّ رامون، وهو يتنشّق رائحة الجبل والبارود، بالفخر لعلمه بأنّه مخلص لأهدافه، وشعر بالرغبة في معرفة ميدان عمله الجديد. لم تغب عن باله بعدُ الأسباب الأخيرة للتغيّر الذي طرأ على الأجواء في برشلونه، لكنّه أحسّ، منذ تلك اللحظة، بضرورة القيام بأفعال محددة، قاسية إن تطلّب الأمر ذلك، من أجل إعادة الثقة المتصدّعة وفرض الانضباط الغائب الذي كانت الجمهورية المدحورة تنادي به وتدعو إليه.

بينما كانت عربة الترام تصعد صوب جادة «بونانوفا»، تذكّر رامون زياراته التي قام بها مع والديه إلى بيت القريب الثري النبيل، صاحب مجموعة الكلاب الرائعة، التي كان يمضي ساعات تلك الزيارات معها. بدت الذكريات له بعيدة، بل غريبة عليه، فكأنّ سنوات طويلة، أو حيوات عديدة، جالت في كيانه بين أيام الماضي السهلة تلك وساعات الحاضر المثقلة، فلم يبقَ من رامون الطفل سوى اسم وبقايا حنين وشيء آخر قليل. في السياج العالي من العقار عُلقت قطعة من كارتون تعلن عن

مقرّ تجمّع النساء المناهضات للفاشيّة، الذي تترأسه كاريداد. ومع أنّ للبناء ألقاً بادياً لا يمكن إخفاؤه، فقد كانت الحديقة مليئة بالأعشاب الضارة وبالسيارات التي نزعت أحشاؤها وبالكلاب الجائعة التي فضّل رامون ألّا ينظر إليها. اجتاز الشاب، من دون أن يلحظه أحد، الحديقة ومدخل القصر، بأرضيّته المرصوفة بالرخام الإيطالي، الذي لطخه الوحل والدهن، وبالصورة الكبيرة لستالين مشرق وقوي معلّقة في مكان بارز كانت أسرة الماركيز، يتذكّر ذلك تماماً، تعلّق فيه لوحة من لوحات ثورباران[57] تصوّر طبيعة ساكنة. حين أبلغوه أنّ الرفيقة كاريداد موجودة في الفناء الخلفي، بحث رامون، وهو العارف بمسالك البيت، عن الطريق إلى المكتبة وشاهد تحت شجرة السرو الطاولة الصغيرة وقد جلست عندها كاريداد وكوتوف الصارم الضارب إلى الحمرة يتبادلان أطراف الحديث مبتسمين.

كان رامون قد تعرّف على السوفييتي عن طريق أمّه حال وصول هذا إلى برشلونه مع طلائع مستشاري المخابرات ومبعوثي الشيوعيّة الدولية. وقبل أن يتوجّه رامون إلى مدريد وكاريداد إلى «الباثيته»، جرت عدة لقاءات لهما مع كوتوف، وقد أعجب رامون بقدرة التحليل المدهشة لدى خبير المهمات السريّة ذاك، صاحب العينين الشفافتين الحادتين، والعرج الخفيف في قدمه اليسرى، الذي يفلح أحياناً في إخفائه. حين كانت مدريد موشكة على السقوط، بلغت مسامع الشاب حكايات وتعليقات عن أعمال تكاد تكون انتحارية، قام بها ذلك الشخص الآتي من موسكو، فقد اندفع في مرات عديدة على رأس مقاتلي الميليشيات والمحاربين الدوليين، خلف الصف الأول من الدبابات السوفييتية، متجاهلاً أوامر موسكو، التي تمنع المستشارين من المشاركة المباشرة في الأعمال القتالية. كان يعرف أنّ أمّه أيضاً تشعر بالإعجاب نحو ذلك الرجل، القادر، كما تقول، على قراءة كتاب من خمس مئة صفحة في ليلة

57- من رسامي إسبانيا المشهورين في القرن السابع عشر. (1598-1664).

واحدة، وعلى إنشاد قصائد بوشكين التي يحفظها عن ظهر قلب وعلى التحدث بثماني لغات مختلفة ومن بينها الكانتونيّة الصينية.

قدّمت له كاريداد كرسيّاً وكأنّها التقته ذلك الصباح، بينما تلقاه كوتوف بحرارة، فحضنه حضنة الدب الروسية، ودعاه إلى تناول جرعة من الفودكا، لكنّ رامون اعتذر. لم يكن بادياً أنّ هواء آذار البارد له تأثير على السوفييتي، الذي لم يكن يرتدي غير قميص من الصوف الخالص ومنديل ملوّن ملفوف حول رقبته؛ أمّا كاريداد فقد كانت تتدثر بالأغطية وكان الذبول بادياً على وجهها.

- كيف تركتَ الأمور في مدريد؟ - سأله كوتوف مستطلعاً، وحاول هو أن يشرح له ما يمكن معرفته أو التكهن به حول المعركة الطويلة من أجل العاصمة، من مكانه في خطوط القتال على بعد ثلاثين كيلومتراً من المدينة، وإن عبّر له عن قناعته بأنّ نتيجة الهجوم الذي بدأ في «غواداراما» ستكون كنتيجة هجوم الخراما: سيكلل بنصر جديد على الفاشيين.

- هذا أمر لا جدال فيه - أكّد كوتوف، وكأنّه قادر على التنبؤ، حتى بمستقبل تلك الحرب التي لا يمكن التنبؤ بها. تناول واحدة من سجائر كاريداد الموضوعة على الطاولة وراح يدخن من دون أن يبتلع الدخان-. لكن لدينا معركة أكثر تعقيداً هنا في برشلونه - أضاف، ومن دون مقدمات، ورسم لرامون مخططاً بالتوترات السياسية في العاصمة الكاتالانيّة، حيث تحاول الحكومة المحليّة أن تصبح شيئاً أكبر من جمعية من المستشارين لا تحظى بطاعة أحد. وأكّد له أنّ مسار الحرب يتقرر في برشلونه أكثر ممّا يتقرر في مدريد.

تذكّر رامون، وهو يستمع إلى كوتوف، سؤال كاريداد له، قبل ذلك الوقت بأيام، وتشديدها على فكرة أنّ هناك جبهات أهمّ وأخطر في تلك الحرب. فالرئيس كومبانيز[58]، بحسب المستشار، يبدو مستعدّاً لفرض

58- لويس كومبانيز (1882-1940). سياسي كاتلاني قومي جمهوري ترأس الحكومة الإقليمية لكاتالونيا من 1934 حتى وفاته.

النظام على أراضيه، وقد أمر بمصادرة الأسلحة وحلّ دوريات الحراسة الفوضوية والنقابية التي كانت تتحكم ببرشلونه. أمّا بالنسبة إلى الحزب، فقد أصبحت الحاجة إلى تحييد الأجنحة المختلفة من الجمهوريين، أو الجمهوريين المزيفين، مهمته الأولى، ولذلك عليهم أن يدعموا مسعى كومبانيز. لكنّ المشكلة هي أنّ سياسة الشيوعيين تواجه دائماً بعداوة حكومة المصالحة التي يقودها الاشتراكي لارغو كاباييرو[59]، الذي واصل التعبير عن كرهه لهم وعجزه، وهذا هو الأسوأ، عن إدارة الحرب. بدأت الصورة تتوضح أمام رامون حين شرح له كوتوف أنّ مجموعة من الحزبيين الموثوقين ستبدأ العمل في مسألة لا تقبل التأخير: التخلص من الأعباء التي تؤثر على الانضباط والإرادة العسكرية، ودعم جهود الجمهوريين الموجهة نحو توحيد قواهم. ولبلوغ ذلك الهدف فسيلجؤون إلى استخدام جميع الوسائل، من الدعاية الأكثر شراسة حتى إمكانية خلق أزمة تؤدي إلى تغيير في الحكومة وتسمح بإسقاط لارغو كاباييرو وإحلال زعيم آخر محله قادر على توحيد القوى.

بدأ رامون يكوّن فكرة عن أبعاد المهمة التي استدعي من أجلها، واستمع إلى أفكار كوتوف حول ضرورة الشروع بالهجوم انطلاقاً من عملية تطهير داخل الجيش، إذ يجب التخلّص من بعض القادة من أتباع لارغو كاباييرو. لقد ألمح الرفيق ستالين شخصيّاً إلى البدء بعملية تطهير بين القيادات وتعيين قادة أكثر كفاءة منهم بدلهم: لقد تصرّفوا في كارثة مالقا كالأغبياء، بل كالخونة والمخربين. لذلك فلا بدّ من إزاحة المعارضين المنهزمين وترجيح كفة الشيوعيين داخل الحلف الجمهوري، في الجيش وفي المؤسسات. هكذا فقط يمكن بلوغ التجانس اللازم والبدء بالحلم بالنصر.

59- لارغو كاباييرو (1869-1946). سياسي ونقابي ماركسي اشتراكي إسباني. الزعيم التاريخي لحزب العمال الاشتراكي الإسبانيPSOE وللاتحاد العام للعمالUGT. شغل وزارة العمل في حكومة الجمهورية الثانية ثمّ تولّى رئاسة الحكومة مع بداية الحرب الأهلية (1936-1937).

- أيها الفتى، في هذه الحرب تتقرر أشياء كثيرة تتصل بمستقبل البروليتارية والعالم أجمع، ولا يمكننا أن نواصل العمل بأنصاف حلول. نعلم أن لارغو كاباييرو وأتباعه الأرذال من الاشتراكيين ينظمون حملة دنيئة ضدّ السوفييت والشيوعيين وضدّ مسؤولينا السياسيين، أم يبدو لك صدفة أن يتحدثوا ويتحدثوا عن المعونة المجردة عن المصلحة التي تقدمها المكسيك للجمهوريّة؟ بل إنّ بعضهم يتهموننا بأننا أخذنا احتياطي الذهب الإسباني إلى موسكو مقابل الأسلحة، ويعلمُ القاصي والداني أنّنا، ونحنُ نبيع لهم أسلحة لن يبيعها لهم أحد، نحمي لهم ذلك الكنز الذي كان يمكن أن يقع في أيدي الفاشيين، وكان ذلك سيعني نهاية الجمهورية... الأمر واضح جدّاً: هناك تحالف بين الاشتراكيين والتروتسكيين لتشويه صورة السوفييت والإساءة إلى سمعتهم. بل إننا نعتقد أنّ الحكومة تدبّر لإقامة تحالف مع الإنكليز للتخلّص منّا وإزاحتنا. في مقدورنا نحن أن نعود أدراجنا، ونحن آسفون لهزيمة الجمهورية، ولكن ماذا عنكم؟ أنتم ستكونون كبش الفداء وستدفعون الثمن من دمائكم. فرانكو يريد أن يحصل على كلّ شيء، مع هتلر وموسوليني، ويدفع بالأمور حتّى النهاية...

لاحظ رامون، وقد استبدّ به الغضب مما كان يسمعه، كاريداد تشعل سيجارة وتسحب نفسين منها ثمّ تلقي بها بعيداً عنها.

- أنا في حالة سيئة. أعاني من ذبحة صدريّة - قالت وانحنت على الطاولة-. والتبغ الملعون... أظنّ أنّ كوتوف كان واضحاً.

أحسّ رامون بأنّ الأفكار صارت تشكّل خليطاً قاتماً في ذهنه. فقائمة المؤامرات والخيانات والدناءات التي عددها كوتوف ثقيلة محزنة، وبدا مشروعه في إقامة جبهة عريضة مناهضة للفاشية يتلاشى تحت وطأة تلك الحجج، على الرغم من إيمانه بها ونضاله من أجلها. مع ذلك فهو ما زال لا يجد مكاناً له في حرب خارجة عن سياقها ومركزها، حرب ليس ميدانها ساحة المعركة فحسب، بل هي حرب قد

يبرز الأعداء فيها من أيّة زاوية وركن. نهض المستشار وحدّق في عينيه ليبقيه مرفوع الرأس.

- لكي تفهمني أفضل: لا شكّ أنّك علمتَ بأنهم سحبوا، قبل أشهر، عدداً من مستشاري المجموعة الأولى التي وصلت... لكنّ ما لا تعرفه بالتأكيد هو أنّهم الآن في موسكو، وقد حاكموهم وصدر الحكم على العديد منهم بالإعدام... هل تريد أن أقول لك من سيكون القادم في القائمة؟ - خفض المستشار صوته وتعمّد السكوت في حركة دراميّة -. وصلنا للتوّ الأمر بعودة أنطونوف- أفزينكو، قنصلنا هنا في برشلونه، إلى موسكو... أنطونوف- تغيّر صوت كوتوف وهو يكرر الاسم-، رمز كبير من رموز البلاشفة، فقد كان هو من أمّن في 1917 السيطرة على قصر الشتاء... هل تفهم معنى أن يخرجوه من اللعبة هو وأعضاء قدماء آخرين؟ معناه أننا لا نتعامل مع أحد برحمة، رامون، ولا حتّى مع أنفسنا إن ارتكبنا أدنى خطأ. إسبانيا الجمهورية تحتاج إلى حكومة قادرة على ضمان النصر العسكري... لذلك علينا أن نتحرك بحذر وبسرعة.

- وما يفترض بنا أن نفعل؟ - خشي رامون ألّا يكون فهم بدقة ما كان يجول في ذهن المستشار ويكشف عن خوفه مما سمعه من كلامه.

- الحزب يجب أن يتولى السلطة الفعليّة، حتى لو استدعى ذلك استخدام القوّة - قال كوتوف-. ولكن، قبل ذلك، يجب تنظيف البيت...

تجرأ رامون على البحث عن النظرة الخضراء المتحجرة في عيني كاريداد، وكانت تتجرّع بإيقاع منتظم شراباً أصفر من كأس مزيّن بشعار الماركيز دي بيّوتا.

- لا تنظر إليَّ هكذا: إنّه عصير ليمون، من أجل الذبحة...- قالت وأضافت-: قد لا تعلم بأنّ أفريكا تعمل الآن معنا - وأحسّ رامون بسوط يجلده. عاود رفع بصره نحو كوتوف. وخطا خطوة نحو أفريكا.

- وماذا عليَّ أن أفعل؟

- ستعلم بالموضوع في حينها... - ابتسم كوتوف، وبعد أن تمشّى

قليلاً، عاد إلى كرسيّه-. ما عليك أن تعرفه الآن هو أنّك إن عملتَ معنا فلن تعود رامون ميركادير الذي كنته. عليَّ أن أقول لك أيضاً إنّك إن أتيتَ بأيّة حركة طائشة وغير رصينة أو تقاعستَ عن أيّة مهمّة، فسنكون قساة معك. أنتَ لا تمتلك أيّة فكرة عن مبلغ قسوتنا... لقد سمحنا لك بالمجيء إلى هنا وسماع كلّ ما سمعت لأنّ كاريداد أكّدتْ لنا بأنّك رجل ذو قدرة على التزام الصمت والكتمان.

- يمكنكم الوثوق بي. أنا شيوعيّ وثوري وأنا مستعد لتقديم أيّة تضحية من أجل القضيّة.

- هذا شيء يسعدني - عاد كوتوف إلى الابتسام-. لكنّ عليَّ أن أذكّرك بشيء آخر... إنّنا لا ندعوك إلى الانضمام إلى نادٍ اجتماعي. إن قررت الدخول، فليس في مقدورك أن تخرج أبداً. وأبداً معناه أبداً. هل هذا واضح؟ هل ستكون مستعدّاً لتنفيذ أيّة مهمة والتضحية بأيّ شيء، كما تقول، حتى بأشياء يعدّها الآخرون لاأخلاقيّة أو إجراميّة؟

كان رامون يشعر بأنّ رمالاً متحركة تبتلعه، فكأنّ دمه يهربُ من جسمه ويتركه من دون حرارة. تصوّر أنّهم فعلوا مع أفريكا الشيء ذاته، وأجروا معها الاستجواب نفسه، ولم يكن من الصعب عليه تخمين أجوبتها. وبدت له أفكار الثورة والاشتراكيّة والمثاليّة الإنسانية العظيمة، التي ناضل من أجلها، فجأة مختلفة عن تلك الشعارات الرومانسيّة المثبّتة في عربات الفحم التي تجرها البغال: كلمات. أمّا الحقيقة، كلّ الحقيقة، فتكمن في السؤال الذي طرحه عليه مبعوث تلك الثورة الوحيدة المنتصرة التي تطبّق، للحفاظ على مبادئها، قسوة ضروريّة لا تعرف الرحمة، حتّى مع أعزّ أبنائها، وتطالب بالرفض القاطع لأيّ نزوع إلى القديم. إنّ صعوده إلى ذلك المستوى الرفيع سيعني تحوّله إلى أكثر من مجرد مناصر للثورة ومعجب ببلاغة شعاراتها.

- أنا مستعد - قال، وأحسّ في الحال بأنّه بات أرفع مرتبة.

***

راح رامون يتأمّل الميناء، الذي رست فيه مراكب قليلة، وشعر بأنّ أيام الحرب الأولى باتت بعيدة عنه، فكأنّها ومضاتٌ من تجسّد آخر، تجسّد عاشه في جسدٍ آخر سواه، بل في ذهن آخر سواه.

استحمّ في ذلك المساء ثمّ تحدّث برهة مع الصغير لويس ومع شابة حزينة العينين اسمها لينا إمبرت، كان ضاجعها ذات مرّة، وهي الآن مساعدة كاريداد. لم يأخذ سيارة الفورد، التي عرضتها عليه أمّه، بل فضّل السير حتى جادة «غراثيا». إنّه يحتاج إلى أن يراجع وضعه ضمن مستجدات حياته، وهو متلهّف، على نحو خاص، للحديث مع أفريكا ليحصل منها على تأكيد للصورة المثيرة التي رسمها له كوتوف. توقّف رامون قبالة بناية بدريرا، حيث وقف عدد من ميليشيا الحزب لحراستها. لم تكن أوراقه التعريفية، العسكرية والسياسية، كافية لكي يسمحوا له بالدخول. لقد تحوّل ذلك المبنى، وهو من بنات فنطازيات غاودي[60]، إلى مقرّ لرجال المخابرات السوفييتية وقادة الحزب في كاتالونيا، منذ شهر أيلول الفائت، وصار محاطاً بأشد إجراءات الحماية التي عرفتها المدينة. سلّم رامون أحد رجال المليشيا ورقة كتبها للرفيقة أفريكا وجلس ينتظر على إحدى دكّات الشارع.

وأحسّ بالجوع يهاجمه، فانصرف يبحث عن حانة من حانات الميناء التي ما تزال على قيد الحياة. اتجه من بعدها إلى كنيسة الرحمة، ووقف أمام البناية المتواضعة البسيطة التي ينزل فيها والده، الذي بلغه أنّه صار يعمل محاسباً بعد أن انهارت تجارته. لم يشعر، وقد انتهى من فضوله وتطلعه، بالرغبة في مقابلة الرجل، فهو لا يتخيّل حتّى المواضيع التي يمكنه أن يتحدث بها مع ذلك السيّد البرجوازي المتمسّك بتعصبه القومي الرجعي لكاتالونيا والضعيف أمام رغباته. غادر شارع «آمبلي» وبحث عن بداية «لاس رامبلاس»، وكان حدده واحداً من نقاط اللقاء مع أفريكا.

60- أنطونيو غاودي (1852-1926). أشهر المهندسين المعماريين في إسبانيا، وأبرز ممثلي الحداثة المعمارية فيها. من أشهر أعماله كنيسة (العائلة المقدسة) في برشلونه.

بدأ الليل يبرد، وصارت لهفته لرؤية الفتاة تعذبه، فلاذ بأفكاره. ما كان واضحاً لعينيه، قبل أشهر، صار سديماً مظلماً مليئاً بالأوعار. وانتقل من الحماس الذي حمله إلى السجن وإلى حيّ «برثلونيتا» ليعلّم أبناء العمّال القراءة والكتابة، ومن الاندفاع الذي حمله بعد ذلك على تنظيم ألعاب أولمبيّة لم يكتب لها النجاح، إلى الدفاع عن الجمهوريّة من الانقلاب العسكري، حين قاتل الفوضويون والاتحاديون الماركسيون والاشتراكيون والشيوعيون منصهرين ومجتمعين للحيلولة دون غلبة الانقلاب. كان انخراطه في الميليشيات، ثم في صفوف الجيش الجمهوري الجديد، نتيجة طبيعيّة لحماسته وإيمانه واقتناعه بأنّ حياته لن تكون ذات معنى إلّا إذا كان قادراً على أن يدافع بالبندقية عن الأفكار التي نشأ عليها. بعد نصف عام من الحرب، وإزاء الانحطاط الواضح للساسة البريطانيين والأمريكان، والاشتراكيين الفرنسيين على وجه الخصوص، كان من الواضح أنّ الروس وحدهم هم من سيدعمون الجمهورية، وأنّ بقاءها سيعتمد على ذلك الدعم.

فاجأه وصول أفريكا وهو في بحر تفكيره، إذ لم يكن يأمل أن يراها. لذلك أحسّ بفرحة مضاعفة حين سمع صوتها وتنشق عطر الشابة الأنثوي الذي لا يتغيّر فيها. قبّلها بحرارة، وأبعدها عنه ليتأملها ويتطلّع إليها: إنّه لا يدري إن كانت الأشهر الأربعة من الحملة العسكرية، بين روائح وصراخ ودماء وموت، قد أثّرت على إحساسه، لكنّه رأى أمامه ملاكاً مجزوز الشعر يرتدي بدلة قتال وعليه هيئة عسكرية بادية الوضوح.

كانت أفريكا قد جلبت مفاتيح شقة صغيرة في حيّ «برثلونيتا» فسار الاثنان مسرعين يبحثان عن الشوارع التي تقرّبهما من إطفاء غليل الرغبة فيهما. صعدا درجاً مظلماً مشبعاً برائحة الرطوبة، وحين فتح الباب وجد رامون حجرة صغيرة، يتوسطها سرير كبير فرشت عليه ملاءة تنبعث منها رائحة الصابون. ومع اللهفة المتراكمة والإحساس الخانق بالرغبة مارس رامون الحب معها باستمتاع وهياج منفلتين. وحين أحسّ بالشبع

والاكتفاء، وبينما اختار أن يستريح استعداداً لكرّة أخرى، تجرأ على فتح حديث كان يرغب في الخوض فيه قدر رغبته في جسد المرأة التي لم يعشق في حياته مثلها.

حكت له أفريكا أنّ ابنته بخير، وإن لم تصلها عنها أخبار منذ أسبوعين. عرفت أنّ والديها تمكّنا، بعد سقوط مالقا الدموي على يد الفاشيين، من الخروج إلى قرية صغيرة في ألبوخاراس حيث يسكن بعض أقاربهم. أمّا عنها هي فقد انشغلت بالعمل في مكتب بيدرو، المدير المحلي لمستشاري الكومنترن، إلى حدّ أنّها لا تجد إلّا القليل من الوقت للتفكير في نفسها، ولا تجد أيّ وقت للتفكير في لينينا، التي يتولى والداها، بلا شكّ، العناية بها.

- أعملُ الآن مع مجموعة الدعاية - قالت له وشرحت له العمل الخفيّ الذي يوجهونه إلى الرأي العام في محاولة لكسر شوكة أولئك الذين ما زالوا يعارضون الوجود السوفييتي في البلاد، بدءاً بلارغو كاباييرو، الذي يتقبّل السلاح السوفييتي، بكلّ تملّق ونفاق، لكنّه لا يستمع إلى نصائح المستشارين السوفييت إلّا على مضض. إنّ الاشتراكيين صاروا يصفونهم، يوماً بعد يوم، وهم يطلعون على النمو المتصاعد للحزب ومكانته المتنامية في الجبهة، بدمى موسكو، وبأنّهم يريدون السيطرة على مقاليد الجمهورية. وإنّ هجمات التروتسكيين، من أعضاء حزب العمال الماركسي الموحد، هي الأشدّ إيلاماً، لذلك فإنّ من الضروري فضح جوهرها الرجعي الحقيقي.

- لقد طلبوا منّي أيضاً أن أعمل لإزاحة هؤلاء الناس من الطريق - قال لها رامون، وقد بات مقتنعاً تماماً بالحاجة إلى مهمة جديدة، وحكى لها عن مقابلته مع كوتوف.

- أتعلم رامون؟ - قالت-. ما حكيته لي يمكن أن يكلفك حياتك.

- أنتِ أيضاً قلتِ لهم نعم. أعلم أنّ في استطاعتي أن أثق بكِ.

- أنتَ مخطئ. ليس لك أن تثق بأحد...

- لا تكوني مجنونة رجاءً.

ابتسمت أفريكا وأشارت برأسها رافضة.

- يا رفيقي، الطريقة الوحيدة لضمان سير عملنا هي أن نعمل بصمت. أدخل هذا في رأسك، وإلّا فسيدخلون فيه رصاصة. واستمع لي جيداً الآن، لأنني أيضاً أغامر بما سأقوله لك... السوفييت يريدون مساعدتنا لكسب الحرب، لكنّ من عليه كسبها هم نحن، وإن لم تتغيّر الأشياء، فلن نكسب الحرب أبداً. أنتَ ستكون جزءاً من ذلك التغيير. لذلك عليك أن تنسى أنّ لك روحاً، أو أن تحبّ أحداً، عليك أن تنسى أنني موجودة.

- هذا مستحيل - قال وهو يحاول أن يبتسم.

- هذا هو أفضل شيء تستطيع أن تفعله... رامون، قد تكون هذه الليلة آخر ليلة لنا مع بعض ولوقت طويل. عليَّ أن أغادر برشلونه في غضون يومين...- قالت بينما راحت ترتدي ملابسها، وهو يراقبها، ويحسّ كيف تتجمّد رغباته-. ولا تسألني لماذا ولا إلى أين، فأنا لم أسألك. أنا جندي، أذهب إلى حيث يأمرونني أن أذهب.

-9-

على مدى ربيع عام 1977 حملني فضولٌ بريء مرات عديدة إلى شاطئ البحر، وكنتُ في كلّ مرّة أجلس برهة من الوقت تحت أشجار الصنوبر لعلّي أظفر بلقاء جديد، بعيد الاحتمال بالتأكيد، مع صاحب الكلبين الروسيين الذي صرتُ، منذ أن تعرفتُ إليه، أسمّيه بـ«الرجل الذي يُحب الكلاب».

منذ رحيلي عن برشلونه قبل ذلك الوقت بسنتين، وبعد انتهاء معالجتي من الإدمان على الكحول، الذي أمسكت عن شربه طيلة خمسة عشر عاماً - حين بدأت الأزمة في البلد وشعرتُ بأنّ في مقدوري العودة إلى تناول جرعة من الرون أو الجعّة من دون أن أسقط من سُلّم يعقوب[61]، لأننا كنّا نقف تحته-، أقدمتُ على إدخال تغيير مهم في مجرى حياتي. فوجئ أصدقائي بأني رفضتُ، من دون أن أعرف، وما زلتُ لا أعرف، تماماً ما أريده لنفسي، الوظيفة التي عرضوها عليَّ في فريق الخدمات الإعلاميّة في إحدى الإذاعات الوطنية، مكافأة لي على العمل الذي يفترض أنني قمتُ به في «باراكوا»، والذي عدّوه ممتازاً. لقد رحتُ أبحث في عالم الصحافة والثقافة السفلي، الذي ما زال مليئاً بالملائكة الساقطين الذين كانوا من قبلُ كتّاباً وصحفيين وروّاداً ملؤوا الدنيا وشغلوا الناس صيتاً وشهرة وجدلاً، والذين أطيح بهم، ربّما مدى

61- ورد في الكتاب المقدس أنّ الملائكة كانت تنزل من السماء وتصعد إليها من على سلّم ظهر للنبي يعقوب في الرؤيا بعد هروبه من أخيه عيسو.

الحياة، لأغرب الأسباب أو لأشدّ صور التعسف والشطط تبايناً. وانتهى بي ذلك البحث إلى وظيفة متواضعة: مصحح في مجلة الطب البيطري الكوبيّة، وكان يشغلها شخص توفي قبل ذلك الوقت بأسابيع، منتحراً في ما يبدو. كان ذلك العمل يبدو على قدر كاف من الغموض والانزواء والبعد عن أيّ طموح وأيّ هوى، ثمّ إنّه يضمن لي الشيئين اللذين أحتاجهما في ذلك الوقت: راتباً أعيش منه وهدوءاً وروتيناً، أحاول بهما إعادة بناء روحي. فكرتُ، لحظتها، في العودة إلى الكتابة التي بدت لي آنذاك ممكنة.

لم تكن الطريقة التي فكرتُ أن أعود بها إلى الكتابة واضحة تماماً. كنّا في عام 1975، وما من شيء في الأفق ينبئ بحدوث ما قد يغيّر في مفاهيم سياسةٍ وأدبٍ لم يكونا قادرين، وهما تحت وطأة أشدّ المعتقدات صرامة، إلَّا على إنتاج أعمال والترويج لكتب من قبيل الكتاب الذي ألفته قبل أربع سنوات: كتب لا تثير مشاكل - كما وُصفت في ما بعد-، مرضيّ عنها، خالية من أيّة إشارة إلى أيّة مشكلة اجتماعية أو إنسانية لا تجيز قنواتُ الدعاية الرسميّة إذاعتها. ولئن كنتُ متأكداً من شيء فمن أنّ ذلك النوع من الكتابات ما عاد له أيّة صلة بالشخص الذي يمكنني أن أكونه. كانت المشكلة تكمن في أنّني أعدمُ الفكرة عن الأدب الذي يتوجب عليَّ، أو، بالأحرى، أستطيع الخوض فيه. بل لا فكرة لديّ عمّن أريدُ أن أكون وكيف السبيل إلى بلوغ ذلك.

إبّان زياراتي تلك إلى شاطئ البحر، والتي كنتُ بها - وهذا ما عرفته من بعد- أستفزّ قدري، كنتُ قد بدأتُ علاقتي مع راكيليتا، طبيبة الأسنان المتخرجة حديثاً، التي أصبحت في ذلك العام زوجي. في الصيف السابق تعارفنا على شاطئ البحر، لذلك عرفت منذ البداية هوايتي في المشاركة في مباريات السكواش التي كانت تجري في ملاعب «سانتا ماريا» و«الميغانو» و«غوانابو»، ولا سيّما المباريات التي كان يمكن الاتفاق عليها بين تشرين الثاني ونيسان، حين لا يعود الاستحمام في

البحر يجذب الكوبيين، فلا يتردد على الشواطئ من أهل هافانا سوى أمثالنا من المتحمسين، ممّن اعتدنا الذهاب للاستمتاع بلعب هادئ رفيع.

وهكذا، وبدلاً من العودة إلى تحرير المجلة، بعد تسليم النسخ الأصليّة أو التجربة اللوحيّة إلى المطبعة عصراً، صار عليَّ أن أعرّج على بيت إشبينتي، حيث اعتدت حفظ مضرب التنس، لألتفّ من حول طريق «لاإستريّا» الأسطوري، الذي تسير فيه باصات «لايلاند» المزيّنة بين المدينة والشواطئ، حتّى بلوغ منتجع «غوانابو».

في نيسان، عقب أسبوعين من أول لقاء لنا، وبعد ثلاث أو أربع رحلات إلى الشاطئ، عدتُ للعثور بالأجنبي صاحب الكلبين. كان المشهد مشابهاً لمشهد اللقاء الأول: الكلبان يجريان على الرمل، وهو يراقبهما عن بعد والسيور في يديه ويسير سير المتعثر، أو ربّما السكران. كان يومها يرتدي بنطلوناً أبيض من قماش خفيف وقميص مربعات، كقمصان الكاوبوي. أمّا أنا فقد بقيت، على غير عادتي في المرة الأولى، جالساً، وأنا أحملُ الرواية التي كنتُ أقرؤها آنذاك – كنتُ قد بدأتُ بقراءة رواية «رابيت، اركض»، ذلك الكتاب الذي لم يؤلف أوبدايك [44] أفضل منه–. صفّر هو للكلبين، اللذين لم يلتفتا إليّ بالكاد، فابتسمتُ للرجل وسلّمتُ عليه بحركة من رأسي، فردّ عليَّ بأن رفع يده اليمنى، وكانت ما تزال مربوطة بضماد من القماش. وبعد دقائق اكتمل المشهد بظهور الأسود الطويل النحيف، منتظراً بين أشجار «الكازوارينا».

توقفَ الرجل فنهضتُ واقتربتُ منه خطوات، فبدا لقاءً تولّد عن محض صدفة.

– كيفَ حضرتك؟ – سألته، وأنا متردد في النحو الذي سأنحوه في الحديث معه.

– حظيتُ بأوقات أفضل – قال الرجل وابتسم بشيء من المرارة.

لم أشمّ راحة الكحول تنبعث منه، فكنتُ على وشك أن أسأله إن كان

مريضاً، فقد كانت مشيته تشي بمشكلة في التوازن. لاحظتُ أنّ اللون الليموني في جلده قد تركز، وحسبتُه يشكو من علّة في الكبد أو في الدورة الدموية أو في جهاز التنفس، لكنّي امتنعتُ عن السؤال وذهبتُ في اتجاه آمن.

- كم عمرُ الكلبين؟

- أتمّا العشر سنوات. إنّهما يشيخان، فكلاب الصيد لا تعمّر.

- وكيف تقاوم حرارة الطقس هنا في كوبا؟

- لدينا في البيت مكيّف هواء...- قال، لكنّه توقف، فهو يعرف أن لا أحد في كوبا تقريباً يتوفر على ذلك الترف-. لكنّها تأقلمت واعتادت. خصوصاً إيكس، الأنثى. أمّا داكس فقد تغيّر طبعه قليلاً مؤخراً.

- أصبح عدوانيّاً؟ في بعض الأحيان يحدث هذا لكلاب «البورزوي»...

- نعم، أحياناً...- قال الرجل، وقد صار عندي يقين بأنني تجاوزتُ حدودي، إذ لا يعرف كلّ تلك التفاصيل عن سلوك كلاب الصيد الروسية إلا متخصص أو شخص مهتم بذلك النوع من الكلاب. اخترتُ حينها أن أكشف له جزءاً من الحقيقة.

- منذ أن رأيت الكلبين في المرة السابقة - أشرتُ إلى الكلبين-، أثارا إعجابي، حتّى إنّي بحثت عمّا كتب حول هذه الكلاب. كلابك تعجبني كثيراً.

ابتسم الرجل، وقد خفّ توتره وبدا عليه الزهو.

- منذ أشهر طلبوهما منّي لتصوير فيلم. الفيلم يحكي قصّة عائلة غنيّة أرادت أن ترحل عن كوبا بعد الثورة، وقد بدا للمخرج أنّ إيكس وداكس مناسبين لتلك العائلة... واضطررتُ أن أحملهما كلّما تطلّب الدور حضورهما، والحقيقة أنّ حضور التصوير ممتع، فهم يرتبون كذبة تبدو في ما بعد كالحقيقة. بي رغبة شديدة لمشاهدة ما نتج عن ذلك كلّه...

وتواصل الحديث، والأسود الطويل النحيف يراقبنا من بين أشجار «الكازوارينا»: تكلمنا عن السينما وعن الكتب وعن طقس الجزيرة الربيعي اللطيف وعن عملي وعن الأصل الأرستقراطي لكلاب «البورزوي»، التي تروى عنها، بحسب الرجل، أخبار ينقلها كتاب من كتب التاريخ الفرنسية، يعود إلى القرن الحادي عشر، يروي حادثة وصول آنا ياروزلافنا، ابنة دوق كييف العظيم، إلى باريس للزواج من الملك هنري الأوّل، تصحبها ثلاثة من كلاب «البورزوي».

- يتفاخر الروس بأنّ «البورزوي» هي كلاب القياصرة والشعراء، فقد كان إيفان الرهيب وبطرس الأكبر ونيقولا الثاني وبوشكين وتورجينيف يمتلكون كلاباً من هذا النوع. أمّا أشهر من ربّى كلاب «البورزوي» واعتنى بها فهو الدوق نيقولا العظيم، الذي كان يمتلك العديد من بيوت الكلاب... لكنّ تلك الكلاب اختفت تقريباً بعد الثورة، وقد باتت الآن من كلاب النومنكلاتورا «= المسؤولين»، كما يقولون هم- وأومأ بيده مشيراً إلى الارتفاع-. السوفييتي العادي لا يمكنه أن يغذّي هذه الحيوانات على الرغم من أنّها، في الحقيقة، لا تأكل كثيراً بالنسبة إلى حجمها. المشكلة الحقيقية هي أنّها تحتاج إلى فضاء واسع... فهي إن لم تتمرن تملّكها شعور فظيع.

في ذلك العصر أجاب الرجل أخيراً على واحد من الأسئلة التي كانت تلحّ عليَّ: قال لي إنّه إسباني، لكنّه عاش سنوات طويلة في موسكو، منذ أن انتهت الحرب الأهليّة، الإسبانيّة، طبعاً. وإنّه يعيش منذ ثلاث سنوات في كوبا، لأنّ زوجه، المكسيكية، لم تتأقلم على الحياة في الاتحاد السوفييتي: البرد وطباع الروس أصبنها بالجنون (أكثر جنوناً مما هي عليه، قال نصّاً).

حين ودّعنا بعضنا علمتُ أيضاً أن اسم الرجل هو خايمي لوبيث، وأنّه سعد بلقائي ثانية. وكما حدث في المرة الأولى فقد رأيته وهو يبتعد برفقة الرجل الأسود الطويل النحيف. انتظرتُ، هذه المرّة، مدفوعاً بالفضول،

مدة دقيقتين، ثمّ خرجتُ صوب الطريق العام. رأيتُ الرجل من بعيد والأسود والكلبين، وهم يعبرون ساحة الموقف الخالية ويقتربون من سيارة فولغا بيضاء من نوع «بيك- أب»، صعد من بابها الخلفي إيكس وداكس، ثم خرجت السيارة، يقودها الرجل الأسود، إلى الطريق العام وابتعدت باتجاه هافانا.

طوال شهر نيسان وخلال الأسابيع الأولى من أيّـار، التقينا أنا ولوبيث- كما طلب منّي الرجل أن أدعوه- مرات عديدة على شاطئ البحر، وكانت لقاءات مختصرة دائماً تقريباً. ومهما فكّرتُ في الأمر فما زلتُ لا أعرف سرّ اهتمامي بذلك الشخص، الذي لا يتكلّم تقريباً عن نفسه، ولا يبدو مهتمّاً كثيراً بي ولا بالجوّ السائد في البلد الذي يعيش فيه، على الرغم من أنّ أمّه، كما قال لي، ولدت في هافانا، حين كانت الجزيرة بعدُ مستعمرة إسبانية. مع ذلك، فحين استنفدنا الحديث عن الكلاب وعن علاقته القديمة بكوبا - وكان في كلّ مرّة ينتهي بسرعة أكبر-، بدأ الحديث يقترب أكثر من مواضيع تكشف لي معلومات عن خصوصيات «الرجل الذي كان يحب الكلاب».

كانت إحدى أولى المعلومات التي كشف لي لوبيث عنها هي أنّهم، في مكان عمله، عيّنوا له سائقاً (الأسود الطويل النحيف الغامض الذي يظهر ويختفي بين أشجار الكازوارينا)، ليس لأنّه شخصيّة مهمّة تستدعي أن يخصصوا له سائقاً، بل لأنّه يعاني من حالات دوار متكرر، نتج عن حادثتي مرور كانتا، لحسن الحظ، طفيفتين. منذ أشهر، قال لي، وهم يُجرون له تحاليل طبية، أكثر تعقيداً في كلّ مرّة؛ ومع أنهم قرروا أنّه لا يعاني من أيّ التهاب عصبي ولا سمعي يمكن أن يتسبب في تلك الحالات من الدوخة، فالصحيح هو أنّ تلك الحالات تزداد في عددها وشدتها. تمكنتُ أيضاً من معرفة أنّ لديه ولدين: ولد ذكر، من عمري تقريباً، يحلم أن يدرس ليصبح قبطان سفينة تجارية، وبنت أنثى، أصغر من الولد بسبع سنوات، هي نور عينيه، كما قال، جرياً على عادته في

استخدام العبارات الجاهزة. وقال إنّ ولداً آخر، يكاد يكون ولده، فهو ابن أخت زوجه، وقد تيتّم وهو بعد طفل، يعيش معهم من حين آخر.

سألت خايمي لوبيث مرّة عمّا يعمل في كوبا حتّى يكون لديه سيارة جديدة وسائق. فردّ عليَّ بأنّه يعمل مستشاراً لأحد الوزراء، ثمّ غيّر سريعاً مجرى الحديث. وحين سألته عن مكان سكنه، تجنّب الردّ على سؤالي واكتفى بالقول: «في الجانب الآخر من النهر»، وهو عنوان غير دقيق ما كان لأيّ شخص من سكّان هافانا أن يعطيه، لأنّ نهر «المنداريس» الآسن ما عاد، ومنذ سنوات، يمثّل نقطة دالة على مكان ولا بالنسبة لأيّ شخص.

مع بداية شهر أيّار وارتفاع درجات الحرارة، بدأ مرتادو الشاطئ يزدادون، وصار واضحاً أنّ على لوبيث وكلبيه أن يبحثوا عن مكان آخر للتنزّه. في ذلك الوقت كنتُ قد فقدت كلّ اهتمام تقريباً بذلك الإسباني المنغلق، المولود من أم كوبيّة، لم يحكِ لي شيئاً عنها («لا أحب الكلامَ عنها»، قال بالنصّ تقريباً)، شارك في حرب لم يتكلّم عنها («يؤلمني أن أتذكرها»، قال أيضاً حرفيّاً تقريباً)، وعاش في موسكو، التي ليس له رأي فيها، وعملِ وأقام في كوبا، في أماكن غير محددة ولا دقيقة قريبة من نهر كان معروفاً في أزمنة أخرى وهو الآن مهمل. لذلك فحين اختفى الرجل الذي كان يحبّ الكلاب لم أفتقده، ولولا كلبا «البورزوي»، اللذان أتذكرهما من وقت لآخر، لتلاشت صورة لوبيث من ذاكرتي وإلى الأبد، كما تلاشت صورة النهر «المنداريس» وصور الكثير من الشخصيات والأماكن العزيزة التي بدأت تختفي من ذاكرة الهافانيين الضعيفة.

***

شهد عام 1977 زواجي المشؤوم من راكيليتا، ثمّ بعد ذلك بأسابيع، الكشف عن المثلية الجنسية عند أخي وليام.

فاجأ قراري بالزواج من راكيليتا أصدقائي، وخصوصاً حين علموا أنّ الزواج لم يكن بسبب حملٍ طارئ. لقد قرّرتُ أن أتزوّج لأنّي، ببساطة،

شعرتُ بحاجة شديدة إلى الصحبة، وبرغبة في تعزيز ملاذي الشخصي. ووافقت هي على الاقتراح، لأنّ وضع المتزوجة - وقد عرفتُ ذلك بعد سنوات، حين قررتْ هجري وإذلالي أيضاً- كان يسهّل لها إجراءً كان أحد أقربائها، وكان له «مركز جيد»، بحسب وصف «النومنكلاتورا»، يسعى من خلاله إلى إعفائها من أداء الخدمة الاجتماعية، التي كانت، بالنسبة لبقيّة الخريجين، فرضاً واجباً وعامل دعم أيديولوجي لهم. أقمنا العرس بطريقة غير مألوفة، فقد أحضرنا الكاتب بالعدل إلى بيت والدي راكيليتا، في «ألتاهافانا». وعلى الرغم من أنّ صديقي داني كان هو من عرّفني بمن أصبحت زوجي، فقد اخترت شاهداً، ولأسباب تتصل بالأقدمية، صديقي الأسود فرانك، الذي كان قد وصل حديثاً من خدمة اجتماعية حقيقية، إذ عمل طبيباً في مدينة المناجم «موا»، وهي سيبيريا كوبا. وأقيمت الحفلة التي تلت العقد في أجواء البروليتاريّة الفقيرة القائمة: جعّة تباع بمبلغ محدد للعرسان مع ما حمله الأصدقاء من مأكل ومشرب. وبعد أن استمتعنا بشهر العسل في أحد فنادق هافانا ذهبنا إلى البيت في «بيبورا بارك». ومع أننا شاركنا والديّ وأخي وليام السكن، فقد حظينا أنا وزوجي بخصوصية غرفة تضمّ حماماً منفصلاً، أضفنا إليه مطبخاً صغيراً، أخذناه من جزء من السطح المسقف، لنتجنّب الاحتكاكات المؤكدة مع أمّي.

لكنّ العالمَ الهادئ الذي حاولتُ تشييده تعرّض لهزّة عنيفة بعد أسابيع من زواجنا. كانت المثليّة الجنسية عند وليام، الذي يصغرني بسبعة أعوام، بالنسبة إليَّ وبالنسبة إلى والديَّ، واقعاً كنّا نحاربه، ونرفض، في الوقت نفسه، أن نعترف به، وكان، بالطبع، ممّا لا يتطرق إليه أحد بالحديث في البيت. لقد عاش وليم، منذ صغره، أنوثة خجولة منعزلة، بدت وكأنّها انحسرت، أو اختفت، حين دخل إلى المدرسة الثانوية. وقد أخذه والداي إلى طبيب نفسي وعللا نفسيهما، بعد سنتين من المراجعات، بأنّ معجزة «الشفاء» قد تحققت عن طريق دورة من حقن

الهورمونات التي أحدثت فيه أثراً جانبيّاً جعل ذكره يكبر إلى ما يقرب من ذكر الحصان. وعلى الرغم من أنّ علاقتي بوليام صارت، في السنوات الأخيرة، غير وديّة، بل خشنة أحياناً، فقد فكّرتُ على الدوام في أنّ مثليته الجنسية هاجعة، وأنّها ستصحو في يوم من الأيام من رقدتها. لكنّي لم أتصوّر أنّ استيقاظها سيصبحُ كابوساً حقيقيّاً ينتهي إلى أن يشملنا جميعاً.

مهما بلغت علاقة طباع والديّ وقدرهما بمجريات هذه القصّة، فإنّي أجد من الضروري أن أقدّم تعليقاً بسيطاً حولهما. كانا في الواقع شخصين عاديين طبيعيين إلى درجة تبعث على الحزن: كانا عاملين، وكانت علاقتهما مع بعضهما جيدة، وما كانا يطمحان إلّا إلى أن نحيا أنا ووليام حياة طيبة وأن ننال تحصيلاً جامعياً لم يتمكنا هما من بلوغه. كان أبي ماسونيّاً وكانت أمّي كاثوليكيّة، ولم يخفيا قط انتماءيهما، في زمن كان فيه جميع الناس تقريباً يفضّلون المداراة، بل التخلّي عن هاتين النزوتين، اللتين هما من نزوات البرجوازية الصغيرة، وتنتميان إلى أزمنة ماضية خلفتها الاشتراكية وراءها. أتذكّر أنّ والدينا، منذ أن بدأتُ أدرك الأشياء، حاولا تربيتنا، أنا ووليام، على وجوب مواجهة الحقيقة، وتوجيهنا إلى أن العمل وحده هو ما يجعل الإنسان كبيراً، وإلى أن السلوك المهذّب هو ذاته، لا يتغيّر (لا تقتل. لا تسرق. لا تخن، إلخ)، مهما تغيّرت الظروف، فما من قوة في الأرض تستطيع أن تفرض نفسها على تلك القيم الثلاث: الحقيقة. العمل. التهذيب. فوالداي، كما يتّضح، كانا بسيطين ساذجين. بالطبع، لم أكن أتصوّر ولا أفهم، بتلك الدقة، ذلك الموجز من أخلاقيات الماسونية-الكاثوليكية الأساسيّة، ولم أكن أحمل تلك النظرة عنهما. ما أنا متأكد منه هو أنّ موقفهما ذاك من الحياة أثّر كثيراً في وعيينا، أنا وأخي، وأنّ تربيتهما لنا وفق تلك القيم والمفاهيم لم تكن موفقة في زمن كان من الأفضل فيه، ربما، التمرّن منذ الصغر على ممارسة فنون النفاق والتخفي سبيلاً للصعود أو، على الأقل، للبقاء على قيد الحياة.

كان وليام طالباً متفوقاً. أنهى في ذلك الصيف سنته الأولى في المدرسة

الطبّيّة بدرجات عالية وغير مألوفة بالنسبة إلى تلك المرحلة، وهي الأصعب في الجامعة. لكنّه، حين بدأ سنته الثانية في أيلول، اتهم هو وأستاذه في مادة التشريح، وكان يقيم معه علاقة جنسية منذ السنة الماضية، بأنهما مثليان. أمّا من وجّه إليهما التهمة في اجتماع الخلية الحزبية فكان أستاذاً آخر ينتمي إلى الخلية ذاتها. وكما هو معتاد في مثل هذه الحالات فقد شكّلت لجنة انضباطية مؤلفة من «جميع العناصر»: الحزب والشبيبة والنقابة واتحاد الطلبة. ومع عدم توفر الأدلة وعدم التحقق من صحة أنّهما مارسا في المدرسة شذوذهما، كما نص الوصف، فقد أخضعا لجلسات نفى الأستاذ أثناءها نفياً قاطعاً إقدامه على ارتكاب أيّ طيش من هذا النوع. لكنّ وليام، وبعد أن قاوم، طوال أسابيع، وبكلّ شدّة تلك الاتهامات، استلهم قوة لم أعرفها فيه وتمرّد على التكتّم المُرهق الضاغط وقال نعم، إنّه مثلي، مارس المثلية، سالباً وموجباً، منذ أن كان عمره ثلاثة عشر عاماً، وإن رفض الكشف عمّن كان يمارس معه ذلك، لأنّ الموضوع خاص ولا يعني أحداً غيره. على الرغم من أنّ ربط الميول الجنسية عند المتهمين بوضعهما كأستاذ وطالب لم يكن ممكناً، ومع أنّ محصّلة كلّ منهما في العمل والدراسة كانت متميزة، فقد كان الحكم قد تقرر مقدماً، فطبقت لجنة «العناصر» إجراءاتها: يطرد الأستاذ طرداً نهائيّاً من الحزب ومن منظومة التعليم الوطنية، ويفصل وليام لمدة عامين من الجامعة، ونهائيّاً من دراسة الطب.

لم يكن القرار الجامعي، بل كانت وصمة العار، التي ضربت مبادئ والدينا، أنطونيو وسارة، الأخلاقية ضربة قاسية، هو ما دفعهما إلى إضافة حكم على الحكم الذي تلقاه الفتى، ليرتكبا ما كان أكبر خطأ في حياتيهما: طردا وليام من البيت على الرغم من احتجاجاتي (شعرتُ دائماً بالشفقة على أخي) التي لم تكن كافية لإقناعهما وثنيهما عن موقفهما. وبدأت الأسرة تتفكك، وكانت حتّى ذلك الوقت متحدة متماسكة، وبدأت المصيبة النهائية تلوح في الأفق.

قد يجد البعضُ اليوم قصّة سقوط وليام – كما هي حال الكثير من

زلاتي - أمراً مبالغاً فيه، لكنّ الصحيح أنّها كانت مشتركة، ولسنوات طويلة، بين أناس كثيرين. في تلك اللحظة، خرجتُ، يحرّكني شعوري بالشفقة ويدفعني الرعب الذي أصيبت به راكيليتا وهي ترى مظاهر العداء للمثليّة والقسوة العائلية، أبحث عن وليام في أنحاء هافانا، إلى أن تمكنت من العثور عليه... في بيت الأستاذ السابق. حاولت بهدوء، وبكل ما أوتيت من حذر وصبر، أن أبني علاقة مختلفة مع أخي وتمكنت بعد وقت قصير من أن أبدي نحوه، بدل الشعور البدائي بالشفقة، إعجاباً مردّه طريقته في مواجهة الحكم الذي صدر بحقه: المجابهة. (على العكس تماماً مما فعلتُه وممّا كنتُ سأفعل لو كنتُ مكانه). تقبّل وليام قرار الطرد من مدرسة الطب لمدة عامين، لكنّه طالب بحقه في مواصلة دراسته الجامعية، فليس هناك من قاعدة ولا قانون يمنعانه من ذلك. في تلك الأثناء، بدأت علاقتي مع والديّ تتدهور، ومع أنّني واصلتُ السكن معهما، فقد سمحتُ لجدار من التوتر والسخط أن يقوم وسط بيتنا في «بيبورا بارك».

كان الوقت في نهاية تشرين الأول، وفي خضمّ تلك الأزمة العائلية، وبينما كانت شواطئ البحر تعود إلى حالة الخلو أمام فصل الخريف- الشتاء الكاريبي المخيف دائماً، عدتُ إلى لقاء الرجل الذي كان يحبّ الكلاب. حدث ذلك في المكان ذاته، وقت جنوح الشمس نحو المغيب، ومع تتابع المشهد المألوف ذاته، وصولاً إلى حضور الرجل الأسود الطويل النحيف. كنت في ذلك اليوم قد ذهبت لألعب السكواش، ترافقني راكيليتا، ولم أكن أفكر حتّى في احتمال أن ألقاه، لكنّ عثوري عليه على الشاطئ الخالي تقريباً أسعدني، أعترف بذلك وأقرّ، وأسعدني أكثر وجود كلبي الصيد. فوجئت، حين رأيته، بأنّ الرجل فقد كيلوات من وزنه، وبأنّ تنفسه صار متثاقلاً ولون جلده بادي الدلالة على المرض. لكنّي أدركتُ أنّ شيئاً ما لم يكن على ما يرام حين انتبهتُ إلى أنّ يده اليمنى، وبعد سبعة أشهر على لقائنا الأول، ما زالت مضمدة، وكأنه يخفي وراء الضماد جرحاً لا يندمل.

بعد أن قدّمتُ له زوجي - قلتُ «الرفيقة»، لأنّ الكلمة كانت تدلّ على حداثة وتهذيب أكبر- وسألته عن الكلبين - داكس يعاني من نوبات غضب متزايدة، وقد نصحه أحد الأطباء البيطريين بأن يفكّر حتّى في قتله، وهو أمر كان لا يستبعده في ذلك الوقت-، حكيت له بعض التفاصيل عن زواجنا وكلمته عن كتاب كانوا قد أعطوني إياه لمراجعته، حول مخاطر الانحطاط الجيني في خمس سلالات من الكلاب التي تنتمي إلى أصول مختلفة، وكان من بين السلالات المدروسة سلالة «البورزوي». وتجرأت أخيراً على سؤاله عن نوبات الدوار التي يعاني منها. نظر إليّ لثوانٍ ثمّ عرض عليَّ، ولأوّل مرّة منذ تعارفنا، أن نجلس على الرمل.

- ما زال الأطباء لا يعرفون السبب، لكنّ شعوري بالضيق يزداد. ما عدتُ أستطيع تقريباً أن أتنزّه مع الكلبين على الشاطئ، وهو واحد من أكثر الأشياء التي تعجبني في حياتي. أدخل إلى العيادة وأخرج منها، يسحبون دماً من كلّ أنحاء جسمي، يفحصونني من الداخل ومن الخارج، لكنّهم لا يجدون أيّ شيء.

- فليس بك علّة إذن. لا شيء خطيراً، على الأقل- قالت راكيليتا بأسلوبها العلمي.

نظر إليها نظرة من اكتشف حشرة صغيرة ناطقة. وأوشك أن يبتسم وهو يقول لها:

- أعرف أنني مشرف على الموت. لا أدري بأيّة علّة، لكنّ شيئاً ما يقتلني.

- لا تقل ذلك - قلتُ له.

- يجب الإمساك بالثور من قرنيه[62] - قال لوبيث مبتسماً، وهو ينظر إلى البحر. وبحركة آليّة بحث عن سيجارة في جيب قميصه، الذي بدا وكأنّه صار واسعاً عليه، ومدّ بلطف العلبة نحو راكيليتا، لكنّها ردّته بحركة فيها شيء من الفظاظة.

62- Coger el toro por los cuernos وهو تعبير معناه مواجهة المواقف الصعبة بشجاعة.

– بدايةً، عليك الإقلاع عن التدخين – قالت راكيليتا.

– بعد كلّ هذا العمر؟ أتعرفون ما الذي يخفف من الدوار الذي أشعر به؟ القهوة. أشرب لترات من القهوة... وأدخن.

بينما كان عصر تشرين الأول القصير يفسح المجال لحلول الظلام، المبكّر في تلك الفترة من السنة، اعترف لنا الرجل الذي كان يحبّ الكلاب، بفصاحة غير معهودة، بأنّه يهيم حبّاً بالبحر لأنّه ولد في برشلونه، قبالة البحر المتوسط: البحر ورائحته ولونه هي هوسه وشغله. لو لم يكن على ذلك القدر من الضيق والتعب، ولو كان يمتلك المال الكافي، لفعل المستحيل للعودة إلى إسبانيا، إلى برشلونه، لأنّ جميع المنفيين تقريباً استطاعوا العودة منذ أن مات ابن القحبة فرانكو. ومع أنّني لم أفهم على وجه الدقة إن كان في مقدور لوبيث أن يعود إلى إسبانيا أم لا، إن كانت المشكلة صحيّة أم ماليّة أم من نوع آخر، فقد شعرتُ بالحزن لحزنه ولإحساسه بأنّ الموت، بعيداً عن مسقط رأسه، بات قاب قوسين منه.

أشعل الرجل سيجارة أخرى وقال، وهو ينظر إلى راكيليتا نظرة فيها مزيج من التهكّم والسخرية:

– بعد غدٍ أسافر إلى باريس... هناك سيجرون لي اختباراً للرئتين.

وكان ردّ راكيليتا فوريّاً، بل متهوراً:

– إلى باريس؟ – سألته ونظر هو إليّ.

كانت باريس، في تلك الأوقات، وما زالت بالنسبة إلى أغلبنا، عالماً آخر، عالماً لا نراه إلّا في أفلام تروفو وغودار ورينيه، ومؤخراً، في «أرجوحة» كورتاثر[63]. أمّا أن يتحدث إنسان من لحم ودم أمامنا عن

63- إشارات إلى المخرجين الفرنسيين François Truffaut (1932-1984) وJean-Luc Godard (1930) وAlain Resnais (1922-2014)، والروائي الأرجنتيني Julio Cortázar (1914-1984) وروايته السريالية الشهيرة Rayuela (1964) التي تتخذ من باريس مسرحاً لأحداثها.

الذهاب إلى باريس - إلى باريس الحقيقية- فهو شيء ذو وقع غريب وغامض، من قبيل وقع قفزة آليثيا من خلال المرآة[64].

- وهل ستظلّ هناك طويلاً؟ - أرادت زوجي أن تعرف، وهي ما زالت تحت وقع الصدمة.

- ليس أكثر من أسبوعين. هذا يعتمد على الظروف. باريس في هذه الأوقات فظيعة: أمّا ما يقال عن جمال الخريف في باريس فما هو إلّا أكاذيب. باريس لا تعجبني.

- لا تعجبك؟ - سألتُ أنا هذه المرّة.

- لا، لا تعجبني، كما لا يعجبني الفرنسيون - قال، وهو يسحق السيجارة بالرمل ويغرسها غرساً-. عجباً، لقد حلّ الليل - قال الرجل وكأنّه لم ينتبه إلى الوقت والمكان إلّا في تلك اللحظة-. هل لكَ أن تساعدني؟- مدّ ذراعه نحو الأعلى.

نهضتُ ومددتُ له يدي اليمنى، فتناولها لوبيث بيده، وكانت ما زالت مربوطة، وانتبهتُ إلى أنّني اتصل للمرة الأولى بذلك الرجل جسديّاً. نهض لوبيث، لكنّ قدميه ارتجفتا عندما أطلق يدي، فكأنّ الأرض اهتزّت من تحته، وخففتُ أنا للإمساك بذراعيه. في تلك اللحظة سمعتُ زئير الكلبين يهددني فبقيت بلا حراك، لكنّي لم أطلق لوبيث. أدرك هو ما كان يحدث فكلّم الكلبين باللغة الكتلانية.

- اهدآ، اهدآ!

حضر الرجل الأسود الطويل النحيف قريباً منّا، من دون أن ألاحظه، فكأنه خرج من الظلّ.

- أنا أساعده - قال الأسود، فأطلقتُ الرجلَ من يديّ ببطء.

- شكراً أيّها الفتى - همس لوبيث، وأضاف مبتسماً، وهو ينظر إلى

64- إشارة إلى رواية Alice in Wonderland (1865) للكاتب الإنكليزي لويس كارول (1832-1898).

راكيليتا-: وداعاً أيتها الشابة ومبروك -. ثمّ ابتعد وهو يسير على الرمل بمشقة، مستنداً على سائقه، طلباً للطريق المرصوف الذي يمتد بين أشجار «الكازوارينا» والشاطئ.

- ما أغرب هذا الرجل!- قالت راكيليتا.

- هل لأنّه أجنبي ومريض؟ أم لأنّه يقول عن باريس إنّها قطعة من خراء؟

- لا أدري، لكنّ فيه شيئاً غامضاً يشعرني بالخوف - قالت، ولم أستطع أنا أن أتجنّب الابتسام. شيء غامض؟

-10-

أحسّ بأنّهم يدبرون أمراً، لذلك قرّر أن يتصنّع النوم: من سريره القاسي، الذي كان يحاول به أن يخفف من نوبة الألم في أسفل ظهره، ومن بين ضباب قِصَر نظره، ميّز سيروجا وهو يدخل بخطوات ساكنة إلى غرف الكرملين، التي حُوّلت إلى سكن للعائلة، منذ أن انتقلت الحكومة إلى موسكو. كان الشاب يحمل بين ذراعيه ما بدا أنّه صندوق لعلب الساردين، مع لوحات مبيّضة بماء الكلس وشريط من القماش الأحمر- اعترف له سيروجا بأنّه قص عَلَماً، وهو واحد من مواد قليلة متوفرة في تلك الأوقات- محاولاً عمل شريط ليضفي على غلاف الصندوق شكل الهدية. استطاع من سريره أيضاً أن يرى وجوه المشاركين في الجريمة تطلّ من الباب: ناتاليا وليوفا ونينا وزينا، بينما راح سيروجا الصغير يتقدم نحوه.

كان ليف دافيدوفيتش، في ذلك اليوم، قد أتمّ الخامسة والأربعين، وهو أيضاً يوم الذكرى السابعة لثورة أكتوبر. كانت زوجه وأولاده قد قرروا أن يقدموا له أفضل هدية يسعهم تقديمها، الهدية التي يعلمون أنّها ستعجبه وترضيه. لذلك، حين عدّل المحتفى به من جلسته على سريره وأحاطت به عائلته، استطاع أن يحزر ما يحويه ذلك الصندوق: فكّ الشريط ورفع الغطاء، وكم كانت دهشته كبيرة حين رأى كرة من الشعر الأبيض والأحمر ترفع رأسها نحوه.

منذ ذلك اليوم من عام 1924 استحوذت مايا على قلبه حتّى أصبحت كلبته المفضّلة. وحين دسّ جثمانها في ربيع عام 1933 الأسود في

الحفرة المفتوحة بالقرب من سور مقبرة بيوك آضه، لم يستطع إلَّا أن يتذكّر لحظات الفرح التي منحه إياها ذلك المخلوق الذي صار جزءاً من عائلته، والذي فقده، كما فقد سواه من أفراد تلك العائلة.

لقد جاهدوا طيلة عشرة أيام لإنقاذ حياتها. استدعوا طبيبين بيطريين من العاصمة، وكان الطبيبان متفقين على تشخيص الحالة: الكلبة مصابة بمرض معدٍ مستعصٍ نتج عن بكتريا رئويّة. لكنّ لييف دافيدوفيتش، وعلى الرغم من كلّ شيء، حاول معالجة المرض بالعقاقير التي كان يهود يانوفسكا القدماء يعطونها لكلابهم، وتلك التي اعتاد رعاة بيوك آضه أن يصفوها لكلابهم. لكنّ مايا ماتت. انطفأت روحها، ليضاف إلى الحزن الذي يعيشه المُبعد سبباً آخر للألم والحزن. وأصرّ، على الرغم من نوبات ألم الظهر الحادة التي كان يعانيها في تلك الأيام، على أن يحمل جثمان كلبته «البورزوي» بين ذراعيه إلى حيث تدفن. وللحيلولة دون أن ينتهك سكان البلدة الجدد حرمة قبرها بعد رحيله هو عن بيوك آضه، فقد حصل على موافقة السكان على دفنها عند سور المقبرة. تكفّل كارالامبوس بالحفر وحضّر السكرتير الجديد، جان فان هاينورت[65]، لوحة خشبية صغيرة ليضعوها شاهداً على القبر. حين دسّوا الكلبة في الحفرة، شعر لييف دافيدوفيتش بأنّ جزءاً من حياته قد انتزع منه. وألقى، جرياً على طريقته في توديع الموتى، بحفنة من التراب على الدثار الفارسي الذي كفّن به الجثمان، واستدار ليعتصم بوحدته، التي عادت أكثر وضوحاً ووطأة.

منذ أن بلغه نبأ وفاة زينا وخبر صعود هتلر إلى السلطة في ألمانيا، ولييف دافيدوفيتش يشعر وكأنّ الأرض تنخسف من تحت قدميه. حاول أن يقصر آماله على نتائج مفاوضاته التي استأنفها أصدقاؤه الفرنسيون، وعلى رأسهم مترجمه موريس باريخانين وآل مولينيه [32]، الذين عادوا

65- فرنسي من الرواد في تاريخ رياضيات المنطق. من أنصار تروتسكي. عمل سكرتيراً وحارساً شخصياً له بين 1932-1939.

يحرّكون الخيوط على أمل أن تمنحه حكومة الراديكالي إدوارد دالاديه الجديدة[66] حقّ اللجوء في فرنسا.

ومع أنّ ليف دافيدوفيتش كان يتوقّع صعود القوميين الاشتراكيين في ألمانيا، ويدرك حجم الضغوط التي تمارس لتكميم أفواه الشيوعيين المحليين هناك، فقد ألحّ في إرشادهم إلى خيار أخير ما زال موجوداً أمامهم، وليس لهم أن يفرطوا فيه. إنّ التحالف الذي قاد هتلر إلى السلطة مهلهل، وعلى قوى اليسار والوسط أن تستثمر نقطة الضعف هذه قبل أن يعزز الزعيم الفاشي مواقعه. لكنّ الأيام مضت من دون أن يحرّك الشيوعيون ساكناً، فكأنّهم ما كانوا يعون الخطر الذي يحيق بهم. لن ينسى أبداً أنّ نبأ الحريق الذي شبّ في الرايخستاغ الألماني ليلة السابع والعشرين من شباط عام 1927 وصله بينما كان يكتب واحدة من رسائله الموجهة إلى الشغيلة الألمانيّة. ومع أنّ الأخبار كانت مبتسرة ومتناقضة فإنّها كانت تنذر بشر قادم مستطير: لقد أعلن هتلر حالة الطوارئ وصرّح بأنّه صدق وعده وأوفى بعهده في اجتثاث البلشفية في ألمانيا وفي العالم...

وسرعان ما وصلت رسائل من ليوفا، محملة بالشكوك حول مسار الأحداث، وبأخبار تمسّ مُبعد بيوك آضه مباشرة: كان في منع صدور جريدة «الوقائع» ومصادرة أعماله من المكتبات العامة ومخازن بيع الكتب وإحراق صناديق كاملة من كتابه الجديد «تاريخ الثورة الروسيّة» على رؤوس الأشهاد، إشارة واضحة على أنّ محاكم التفتيش الفاشيّة وضعته، هو وجماعته، في صدر أولوياتهم. قرّر حينها أن الوقت ما عاد يحتمل المجازفة، وأمر ليوفا أن يغادر برلين على جناح السرعة.

لكنّ ليف دافيدوفيتش انفجر غضباً حين علم أن المكتب التنفيذي للأممية الشيوعية أصدر تصريحاً مخجلاً يدعم فيه الحزب الشيوعي

66- أدوارد دالاديه (1884-1970) سياسي فرنسي من الحزب الراديكالي الاشتراكي. ترأس الحكومة الفرنسية ثلاث مرّات كانت آخرها وأهمها بين 1938 و 1940 والتي شهدت اندلاع الحرب العالمية الثانية.

الألماني، ويصف استراتيجيته السياسية بأنها صحيحة ولا غبار عليها، بينما وصف انتصار النازية بالمرحلة العابرة التي ستخرج القوى التقدمية منها منتصرة. لكنّ المقلق في الأمر هو أنّ الأحزاب التي أقرّت تلك الوثيقة، التي هي بمثابة انتحار سياسي جليّ العواقب، وامتثلت لها بصمت، لم تكن الأحزاب الألمانيّة المحليّة فحسب، بل جميع الأحزاب المنضوية تحت راية الكومنترن. كيف للشيوعيين أن ينساقوا وراء تلك اللعبة الفظّة؟ ألم تبقَ لدى تلك الأحزاب ذرّة من المسؤوليّة تنذرهم بالكارثة التي تهدد وجودهم والسلام في أوروبا؟ إن لم يقرّوا، على الأقل، بدنوّ الخطر، كتب على هامش غضبه، فعليهم الإقرار بأنّ الستالينيّة حطّت من قدر الحركة الشيوعيّة إلى درجة أنّ أيّة محاولة لإصلاحها صارت ضرباً من المستحيل. لقد سقطت في تلك اللحظة واحدة من أكثر خياراته السياسية إيلاماً، وحان الوقتُ للإلقاء بكلّ شيء في النار. ومع الألم الذي يحدثه التخلّي عن ابن ضلّ طريقه حتّى صار كائناً غريباً لا يمكن التعرف إليه، قرّر أنّ الوقت قد حان للقطيعة مع تلك الأممية، للشروع، ربّما، بتأسيس أمميّة جديدة تعارض الفاشيّة بالأفعال وليس بشعارات مزيفة تخفي وراءها نوايا أخرى مروّعة.

بعد أسبوع واحد من موت مايا وصل الخبر المنتظر الذي أخرج ليف دافيدوفيتش من مستنقع الكآبة: لقد وافقت حكومة دالاديه على منحه اللجوء في فرنسا. ولم يتردد في قبول العرض، على الرغم من شروط الضيافة ومحدداتها الكثيرة: حسب تأشيرة الدخول الممنوحة، يصرّح له بالإقامة في دائرة من دوائر الجنوب، شرط ألّا يصل إلى باريس، ثمّ إنّ عليه الخضوع إلى مراقبة وزارة الداخليّة. ها هو يعود ليصبح سجيناً أكثر منه لاجئاً، وإن انتقل الآن في سجنه إلى واحد من ممراته المركزية، وليس محشوراً في زنزانة الحجز. ومن هناك فكّر في العمل.

صباح نزول موكب السكرتيرات والحرّاس الشخصيين والشرطة نحو الرصيف، حيث كانت الحقائب بالانتظار، وقفت نتاليا وليف

دافيدوفيتش لدقائق أمام منزلهم الذي يوشكون على مغادرته. كانا يريدان توديع بيوك آضه، حيث أتمّ هو كتابة سيرته الذاتية و«تاريخ الثورة»؛ وحيث نزعت عنه صفته السوفييتيّة وبكى ابنته، وحيث قرر، وهو غارق في أشدّ مشاعر الخذلان، أنّ كفاحه لم ينتهِ وبأنّ مهمات أخرى تحتاجه حيّاً، لمواجهة سلطة قاسية عاتية تجيز لنفسها أن تواجهه رجلاً وحيداً صفراً من الموارد ومثقلاً، يوماً بعد يوم، بالسنين. لا شكّ أنّ كارالامبوس الطيب قد سأل نفسه، وهو يتأملهما بصمت من الطريق، إن كان ذلك الرجل الوحيد قد تزعّم الجماهير، في وقت من الأوقات، وقادها إلى الثورة. لا أحد يتصوّر ذلك، لا شكّ أنّه انتهى إلى ذلك الاستنتاج، بينما كان يتأمله وهو يغلق بوابة الحديقة وينحني لالتقاط بعض الزهور البرّيّة من الأرض، التي منع قبل أربع سنوات من أن يزرع شجرة ورد فيها. حين اقتربوا منه، ابتسم لهم كارالامبوس، بعينين نديتين، وتلقّى الزهور التي امتدت له بها يد المنفي. رفع لييف دافيدوفيتش نظره، من دون أن يتفوّه بكلمة، صوب أشجار الصنوبر التي كانت أسوار مقبرة جزيرة الأمراء المنفيين البيض تقوم خلفها.

***

بعد تسعة أيام وصل لييف دافيدوفيتش ونتاليا وليوفا، من دون الفرحة المنتظرة، إلى فيللا «أمبرون»، التي كان ريمون مولينيه قد استأجرها لهم عند أطراف «سان باليه» في الجنوب الفرنسي. لم يكن دخوله إلى البيت دخولاً مُبجلاً: فقد كان مفوّض الحرب السابق يرتجف من الحمى، ويحسب أن نبضات قلبه، التي تطرق على صدغيه، ستحطّم جمجمته، وكانت وخزة من ألم، يجاهد لبلوغ أقصى درجات التعذيب، تقصم خصره، لذلك انهار على الأريكة ما إن اجتاز عتبة الباب، فخفّت نتاليا سيدوفا تسعفه بالمسكنات والمنومات.

ما إن أقلعوا من اسطنبول حتّى تضافرت نوبات اللمباجو مع عودة الملاريا. ظلّ لييف دافيدوفيتش طوال الرحلة في قمرته، بل رفض

الحديث مع الصحفيين الذين كانوا بانتظاره في ميناء «بيريه»[67] بعد أن سرت شائعات عن اجتماع له في باريس مع وزير خارجية ستالين الجديد وعن عودته القريبة إلى الاتحاد السوفييتي. حين لاحت لهم مارسيليا، حيث كان عشرات الصحفيين ورجال الشرطة والمتظاهرين المناوئين لوجوده في فرنسا بانتظارهم، فاجأته زوجه بأنّ ليوفا ومولينيه وصلا من الميناء في مركب ليمنعا حدوث لقاء حاشد قد يضايق السلطات. وكان له في لقائه بولده ثانية، عقب فراق متوتر، وفي سماعه منه بأنّ «جين» ستأتي من باريس ومعها سييفا، ما منحه فرحة خففت من آلامه. علم حينها أنّ مولينيه رتّب لنزولهم في كاسي، من حيث سيسافرون في سيارات إلى «سان باليه». لكنّ تلك الرحلة، التي استغرقت ساعتين تقريباً وفي طرق ضيّقة، انتهت بالتغلّب على قدرة بدنه على المقاومة.

بدأت الحبوب تفعل فعلها حين سمع ليف دافيدوفيتش أصواتاً انتزعته من ذلك السبات اللطيف. حكى لنتاليا أنّه ظنّ، في البداية، أنّه كان يحلم: رأى أنّ هناك من كان يصرخ: حريق! حريق!، لكنّه تملك ما يكفيه من اليقظة ليلعن الكابوس الذي يصرّ على تذكيره بحريقي بيوك آضه و«كاديكوي». لم يستطع فتح عينيه ورؤية الهلع في وجه ليوفا إلّا حين شعر بأنّه يجرّ جرّاً من ذراعيه. حينها أدرك أنّ الواقع يفوق هذيان الحمّى، وأفلح، بالاستناد على ولده، في الخروج إلى الحديقة، التي كان الدخان يحوم فوقها، وخامره إحساس بأنّه يحمل الجحيم معه أنّى حلّ وأنّى ارتحل. خراء! فكّر، وألقى بنفسه على العشب، حيث أخبروه بأنّ النار (بدا أنّ الحريق نتج عن شرارة صدرت من قطار عابر وسقطت على العشب اليابس) لم تأتِ إلّا على السياج وعلى الكشك الخشبي الموجود في الفناء.

كان ليوفا ومولينيه يستعجلان الحديث مع ليف دافيدوفيتش، فلا بدّ من عقد الجمعية التأسيسية للأممية الرابعة، التي فكّر المنفيّ بتأسيسها،

67- هو الميناء الرئيس في العاصمة اليونانية أثينا.

في ظرف شهر واحد. مع ذلك اضطرا، بعد أن نهتهما نتاليا سيدوفا، إلى التريث لينعم المريض بقسط من الهدوء والسلام. ولم يحتفلوا، كما تمنوا، بوصول سييفا، بسبب الحمّى التي ما انفكت تلازمه؛ مع ذلك فقد طلب من نتاليا أن تتركه مع الطفل، فقد أراد أن يختبر معنوياته وأن يشرح له سبب غياب محبوبته مايا.

حين انحسرت الحمى، وبدأت آلام الظهر تخف، ضرب ليف دافيدوفيتش بأوامر زوجه عرض الحائط وعقد اجتماعاً مع ليف سيدوفا وريمون مولينيه ومحازبه ماكس شاختمان[68]، الذي رافقه من بيوك آضه. كان المنفي يعلم أنّ الوقت لا يسير في صالحه، وأنّ الأسابيع الأربعة التي تفصلهم عن الاجتماع التأسيسي في باريس تتطلّب منهم عملاً فعّالاً، فقد كان يشعر بأنّه يلعب الورقة الأهم في منفاه. أمّا همّه الأكبر فكان يتركز في قدرة ليوفا ومولينيه على الحشد والدعوة، إذ لن يتكفل هذان بتنظيم اللقاء فحسب، بل سيكونان صوته هو، الممنوع من السفر إلى باريس بسبب شروط اللجوء التي وضعت له. استمع الثوري القديم إلى آراء معاونيه ومشورتهم، فتولدت لديه على الفور قناعة بشفير الهاوية الذي تسير نحوه الأممية الرابعة، المصابة بتناقضاتها والمنعقدة في زمن رديء، وعلى عجل. وبينما رسم ليوفا صورة قاتمة (خوف وشكوك في ألمانيا، فرقة وخصومات في فرنسا وبلجيكا ونهج سياسي مغامر في الولايات المتحدة الأمريكية)، كان مولينيه يثق في قدرة المنفي على الإجابة على الشكوك التي تعتمل في صدر الكثيرين من الأتباع والمؤيدين، وفي إمكانية توظيف صعود نجم الفاشيّة في الدعوة إلى الوحدة ورصّ الصفوف.

اعترف ليوفا لأمّه، قبل عودته إلى باريس، بأنّه أحسّ، وللمرة الثانية

68- ماكس شاختمان (1904-1972). منظّر ماركسي أمريكي بولوني الأصل. هاجر مع عائلته إلى نيويورك واعتنق الشيوعية مبكراً. صار أحد زعماء التروتسكيّة لكنّ علاقته انتهت بالقطيعة معها.

في حياته، بالإشفاق على ليف دافيدوفيتش، وبلغ به الأمر أن سأل نفسه عن جدوى مواصلة النضال. إنّ أباه لا يرضى بالهزيمة لمجرد أنّ كبرياءه وإيمانه التاريخي ومسؤوليته تجعله يتمسّك بأفكاره ويصرّ على مواصلتها: لقد بات واضحاً أنّ ذلك الرجل، وبعد ثلاثين سنة من النضال الثوري، صار وحيداً، يتطلّع إلى عالم يتحطّم من حوله تحت وطأة الرجعيّة والشموليّة والكذب والتهديد بحرب مدمّرة.

وجد ليف دافيدوفيتش في ذلك التفاؤل وفي الإيمان بالمستقبل وبقوانين التاريخ الركيزة التي استند عليها ليخصص، وهو على أريكته، وقتاً، يصل أحياناً إلى خمس عشرة ساعة يومياً، لكتابة الأطروحات التي ستناقش في باريس. كان فكره السياسي، الذي تعرض للاهتزاز بسبب الأحداث التي شهدتها السنوات الأخيرة، يسمح له بتوضيح بعضٍ من مقاصده من الدعوة لتأسيس أممية جديدة، يأمل أن يجذب إليها المجموعات التروتسكية المشتتة والمستائين من السياسة التي يتبعها الستالينيون في ألمانيا، وبعض القطاعات الراديكالية، التي يصعب في العادة ضبطها. لكنّ تناقضه الأكبر ما زال يتمثّل في السياسة التي يجب على المجتمعين أن يتبنوها تجاه الاتحاد السوفييتي: فالوضع هناك مختلف والحيطة في تلك اللحظة واجبة، لأنّ النضال لا يعني ضرورة مهاجمة جوهر المنظومة إن كان فضحها ثمّ إسقاط الزائدة البيروقراطية متاحين ممكنين، ولو بعد حين.

لم تكن المهمة، على أيّة حال، سهلة. كان ستالين قد أمر «أصدقاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيّة» بالشروع في حملة لاستقطاب التيّارات المعادية للفاشيّة، على الأقل على المستوى الخطابي، أمّا ما يتّصل بالأفعال، فلم يبدُ أنّهم كانوا معنيين كثيراً بمواجهة العدو الذي خرج مؤخراً من بين الرماد الألماني. أمّا الفكرة التي كانت تلك الحملة الجديدة تروّج لها فمفادها أنّ النظام السوفيتي هو الخيار الوحيد الممكن لمقاومة هتلر والهمجية. لقد اتهموا الديموقراطيين بالتعاطف

مع الفاشية، بل بأنهم من تسبب في قيامها، ولخصوا البدائل الأخلاقية والسياسية في اثنين: الرعب الذي تجسّده الفاشية، والأمل والخير اللذين يمثلهما الشيوعيون، وعلى رأسهم ستالين. هكذا نصب الفخ فصار ليف دافيدوفيتش يتوقّع السقوط في حفرة جميع القوى التقدمية في الغرب تقريباً.

خلال الأسابيع الأربعة التي عمل فيها على إعداد خطابه، لم تفارقه الآلام والحمّى. حاولت نتاليا غير مرّة إبعاده عن العمل، لكنّه رفض، وتعهد لها بالخضوع للنظام الذي تقرره هي ما إن ينتهي المؤتمر. وانتهى من كتابة الوثائق وهو على حافة الانهيار، وودّع جان فان هاينورت وهو يترجاه أن ينسى أوامر امرأته وأن يطلعه على سير الأمور أولاً بأوّل.

لكنّ القلق سرعان ما انقلب خيبة أمل ناشئة عن توقّع الإخفاق. لقد كانت الأحزاب والمجموعات الممثلة في باريس انعكاساً للتشتت الذي يعيشه اليسار الأوروبي والأمريكيّ، الذي فتر حماسه بسبب سلسلة الإخفاقات وداخل الخوف قلبه بسبب ضغوطات موسكو. أمّا أتباعه، وهم في أغلبهم منشقون عن أحزاب شيوعيّة، فكانوا أقرب إلى المجموعات الصغيرة منهم إلى التيّار، وقد تراجعوا أمام الخوف من انتماء جديد يطالبهم بموقف محدد مناهض لستالين وبممارسة فلسفيّة ماركسية في جوهرها، تكون عقيدة الثورة الدائمة هي مبدأها الأيديولوجي. فكّر ليف دافيدوفيتش في احتمال أن يكون اندفاع مولينيه وقلة خبرة ليوفا أسهما في الإخفاق للوصول إلى اتفاقات استراتيجيّة مهمّة، إذ لم توافق على الدخول في التحالف الجديد إلّا ثلاثة أحزاب، من بين الأحزاب المدعوة. لذلك، وحفظاً لماء الوجه، نصح ليوفا بالتراجع عن تأسيس الأممية الرابعة والإعلان عن أنّ اللقاء كان مجرد اجتماع أولي تمهيداً لتأسيس تنظيم مستقبلي.

بعد أن تمكّن منه التعب والإحباط سلّم قياد جسمه وصحته إلى نتاليا، فبدأت بحجره في غرفة ليس فيها مكتب ولا طاولة، ومنعت عنه

الزيارات، حتّى لقد منعت ليوفا من زيارته. مع ذلك ظلّ ذهنه مبلبلاً، وراح يفكّر في أسباب فشل اجتماع باريس لأيّام. لقد أوضح ذلك الإخفاق له مقدار انحسار نفوذه ووزنه السياسي خلال سنوات التهميش التام تقريباً الخمس تلك، مع ذلك فقد كان عليه أن يقرّ بأنّ العامل الحاسم يكمن في المرحلة السياسية الراهنة، البعيدة والمختلفة عن مرحلة 1917: فالمواقف الثورية في تراجع وإنّ من المثالية انتظار حالة قادرة على إطلاق موجة من التمرد تزحف على أوروبا وتصل إلى أبواب موسكو. لقد بات واضحاً أنّ الدعوة إلى ثورات دائمة والمطالبة بزعيم يطيح بأنظمة كالنظام القائم في موسكو أو النظام الرأسمالي صارت من الماضي.

***

عقب أسابيع، رفعت السلطات الفرنسية بعض القيود من على وثيقة اللجوء (صار المنع مقصوراً على الإقامة في باريس وفي منطقة نهر السين)، فقرّر ليف دافيدوفيتش الانتقال من «سان باليه» والتخلّي عن الاعتماد على ريمون مولينيه. واختار، بعد أن قرر الاعتماد على تمويله الخاص، أن يستقرّ في ضواحي «باربيزون»، البلدة الصغيرة التي خلّدها ميليه وروسو وسواهما من الطبيعيين. كانت «باربيزون»، الواقعة عند تخوم غابة «فونتين بلو»، وعلى مسافة أقل من ساعة من باريس، تمنحه ميزة القرب من أتباعه، وإن تحتّم عليه مجدداً استخدام الحراس الشخصيين.

كان البيت بناءً من طابقين، يعود إلى بدايات القرن، سماه مالكوه «كير مونيك»، وما كان يفصله عن الغابة غير طريق ترابي يصعب على السيارات المرور به. صار ليف دافيدوفيتش، منذ انتقالهم إلى ذلك المكان، المعطّر دائماً بأريج الغابة، يشعر بأنّه يستعيد قدرته على العمل، وقد عاد فعلاً إلى الكتابة وإلى استقبال أتباعه، الذين راح يوجههم توجيهاً سياسيّاً على نحو فردي تقريباً. كان يحاول، بتلك الطريقة، تجنّب وقوع حركات انشقاق جديدة كتلك التي حدثت مؤخراً في إسبانيا، حيث قرّرت

المجموعة المدعومة من صديقه القديم أندريس نين [56] تأسيس حزب مستقل عن أيّة أمميّة، أو تلك التي تزعمها في فرنسا مناضلون من مثل سيمون ويل وبيير نافيل [34]. لقد آلمه كثيراً اكتشافه مبلغ الضرر الذي أصاب الأممية التي فكّر في إعلانها من جرّاء مطامح مولينيه السياسية، القادرة على إشاعة الفوضى في صفوف المعارضة الفرنسيّة إلى درجة أن، كتب، توحيد المئة القليلة من المناصرين الذين ما زالوا يوالونه قد يتطلب سنين من العمل.

خصّص ساعات كثيرة من أوقات العصر في ذلك الشتاء للسير مع نتاليا في غابة البلوط والكستناء التي كانت في وقت من الأوقات منطقة صيد لملوك فرنسا، بل واجتيازها لزيارة القصر الملكي. في أمسيات أخرى ذهبا، عازمين على إمتاع نفسيهما بشيء من الترف، لتناول لحم الأيل في فندق «غران فينيغ». لكنّه غالباً ما كان يخصص تلك الساعات لمتابعة الجديد في الأدب الفرنسي، فقرأ باستمتاع روايتين من روايات جورج سيمون، ذلك الشاب البلجيكي الذي أجرى له مقابلة في بيوك آضه، واكتشف سيلين المُبهر في «رحلة إلى آخر الليل»، القادر على هزّ مفردات الأدب الفرنسي[69]، واستمتع بمالرو[70] الملحمي في روايته «الظرف الإنساني»، وهي الرواية التي أهداه الكاتبُ إياها في زيارته له في «سان باليه».

أمّا الكتاب الذي أثّر فيه حقّاً، في تلك الفترة، فقد وصله من موسكو، وقد ساعده في الكشف عن السبب الذي دفع بماياكوفسكي إلى الانتحار بإطلاق النار على قلبه، كما ساعده في معرفة مقدار الفساد الذي يمكن لنظام شمولي أن يُدخله على نبوغ الفنّان ويشوهه: كتاب «القنال المعمّد على شرف ستالين»، الذي كتب ماكسيم غوركي مقدمته وأشرف على إعداده. يضمّ الكتابُ نصوصاً لخمسة وثلاثين كاتباً، انبروا لتبرير ما لا

69- لويس فردينان سيلين (1894-1961) أديب وطبيب فرنسي.
70- أندريه مالرو (1901-1976) مثقّف وكاتب وسياسي فرنسي.

يبرر. حين افتتح القنال، الذي يربط البحر الأبيض ببحر البلطيق، بدأ «أصدقاء اتحاد الجمهوريّات الاشتراكيّة السوفييتيّة» والصحافة الشيوعيّة الأوروبيّة يشيدون بالإنجاز العظيم للهندسة الاشتراكيّة ويصفون من سيشككون في جدوى ذلك الإنجاز بأعداء الطبقة العاملة. لكنّ مهمّة غوركي في جمع النصوص جاوزت حدود الدناءة والانحطاط. كان هذا الروائي قد انشغل، في كتابه المقزز السابق، بإبراز الجهود الإنسانيّة المبذولة في معسكر «سولوفسكي» للاعتقال، حيث كانت المنظومة القانونية السوفييتية، بحسب ما قيل في موسكو وردّده غوركي بفرح، تكافح، في ظروف جوية تبلغ 30 درجة تحت الصفر، لتصيّر الغوغاء وأعداء الثورة رجالاً نافعين اجتماعيّاً. ويأتي الآن «القنال المعمّد على شرف ستالين» ليقدس الرعب، وليوثق التحوّل العظيم لسجناء مرغمين على العمل في القنال إلى نماذج مشرقة من الرجل السوفييتي الجديد. لقد بلغت وضاعة الكتاب قدراً فاجأ لييف دافيدوفيتش، وهو الذي كان يظنّ أنّه بات في حرز من ذلك النوع من الصدمات. إذا كان في مقدور كتّاب المنوعات الصحفيّة الفرنسيين أن يبرئوا ذممهم بالقول بأنّهم يجهلون حقيقة ما جرى في بناء ذلك القنال، ويحتجون بأنّهم يكتفون بترديد ما يملى عليهم من موسكو، فليس في مقدور الكتّاب السوفييت أن يدّعوا جهلهم بالرعب الذي عاشه السجناء المئتا ألف (فلاحون مستاؤون وموظفون معزولون ومعارضون سياسيون ومتدينون ومدمنون على الكحول، وحتى بعض الكتّاب)، الذين أجبروا لسنوات على بناء أهوسة وسدود وأحواض في قنال طوله خمسة وعشرون ميلاً شقّ من الصخر الخالص، فقط لكي يثبت ستالين تفوّق الهندسة الاشتراكيّة التي يقودها هو، طبعاً. لن يكون في مقدور أحد حساب الأرواح التي أزهقت أثناء تنفيذ المشروع، لكنّ أيّ سوفييتي يعلم أن أكثر من خمسة وعشرين ألف سجين ماتوا في حوادث أثناء العمل أو هلكوا بسبب البرد والتعب. والكل يعرف أيضاً أنّ من كان يورّد اليد العاملة لبناء القنال هو مفوّض

الشعب للشؤون الداخليّة، المعتوه غينريخ ياغودا[71]، الذي قلده ستالين، لهذا السبب، وسام لينين في حفل الافتتاح.

أحسّ لييف دافيدوفيتش بالتأثر إلى حدّ الاشمئزاز، وأسف للانحطاط الأخلاقي لرجل من قدر ماكسيم غوركي، ماكسيم غوركي ذاته الذي فضّل النفي عام 1921، وكان وقتها مقتنعاً بأنّ «كلّ ما قلته عن وحشيّة البلاشفة وقلة ثقافتهم وقسوتهم، القريبة من الساديّة، وعن جهلهم بنفسيّة الشعب الروسي، وعن أنّهم ينفذون تجربة مقززة على الشعب ويدمرون الطبقة العاملة، كلّ ذلك وغيره الكثير ممّا قلته عنهم، ما زال نافذاً ومحافظاً على كلّ قوته»... فأيّة حجج استخدمها ستالين ليقنع رجلاً، يحمل تلك المبادئ والأفكار، بالعودة من منفاه الإيطالي المريح؟ أيّة حجج استخدمها ليخضعه لذل التوقيع باسمه على تلك الكتب والتحول إلى مشارك في جرائم رهيبة ضد الإنسانيّة والكرامة والعبقريّة؟

***

مع حلول عام 1934 بلغ «باريبزون» شعاعُ أملٍ أبقى على لييف دافيدوفيتش في ترقب وقلق طوال أسابيع. فقد تلّقى من موسكو، عبر القنوات القليلة التي بقيت مفتوحة أمامه، ما يخبر عن أنّ منافسي ستالين السياسيين تواطؤوا على أن يستغلّوا انعقاد المؤتمر السابع عشر للحزب البلشفي لخوض معركة حاسمة من أجل البقاء. كان الكثيرون من الأعضاء الذين ما زالوا يؤيدون تروتسكي ويعتبرون عودته ضرورية، وإن لم يذكروه بالاسم، يضاف إليهم أولئك الذين وقفوا في وجه ستالين ذات مرّة، وأولئك الذين عملوا لسنوات مساعدين له قبل أن يطيح بهم، كان هؤلاء جميعاً عازمين على استخدام المؤتمر لطرد الجورجي من خلال التصويت، الذي علّقوا عليه مستقبلهم السياسي. كان على رأس المجموعة (التي لا يجمعها غير الكره لستالين أو الخوف

71- أحد المشاركين في ثورة أكتوبر. تقلّد منصب مدير جهاز الشرطة السرية ثمّ عيّن مفوضاً للشؤون الداخلية (1934 - 1936). أعدم بعد أن اتهم بالخيانة.

منه) العديد من البلاشفة من مختلف الأجنحة، ومن بينهم أقدم رفاق لينين - زينوفييف [7] وكامينيف [52] وبياتاكوف [10] والمتقلب بوخارين [11]-، ومعارضون تروتسكيون أعيد قبولهم في الحزب بعد أن تخلّوا عن مبادئهم. كانت الإشاعة تؤكد أنّ هؤلاء راهنوا على فوز سيرغي كيروف[72]، الأمين العام الشاب للحزب في لينينغراد، وهو رجل لم تلطّخ الصراعات الداخلية التي شهدها عقد العشرينيات تاريخه. وأكّدت التقارير على أنّ كيروف، على الرغم من نفيه الوصول إلى أيّ اتفاق مع المعارضين، ووصفه نفسه بأنّه مخلص للأمين العام للحزب، انتقد تطرّف ستالين في تطبيق سياساته المتصلة بالزراعة الجمعيّة والتصنيع والقمع، وأعرب عن استعداده، من صفته الشيوعية، للقبول بإرادة المؤتمر.

لكنّ ليف دافيدوفيتش، وهو الذي جرّب الطرد وذاق مرارة الإبعاد، تخيّل الدسائس التي سيحيكها ستالين للقضاء على التمرّد الوليد، الذي لا شكّ أنّه على علم به. لن تلبث قدرة ستالين على بثّ الفرقة وعلى استعمال الأشخاص وابتزاز الضعفاء منهم وتهديد الأشد التزاماً والمرتدين بالانتقام، أن تبين عن نفسها. لذلك حين افتتح المؤتمر في السادس والعشرين من شباط، وسُمعت أولى عبارات المديح للخطة الخمسية وتعالت الهتافات المؤيدة للخطط الاقتصادية المستقبلية وتقرر أن يطلق على المؤتمر اسم «مؤتمر المنتصرين»، أدرك ليف دافيدوفيتش أنّ منافسي الأمين العام خرجوا من المعركة خاسرين.

وتأكدت الهزيمة في موجز كلمة بوخارين، الذي ركّز خطابه الحماسي على إدانة الموقف السياسي الذي تزعمه هو بنفسه، واعترف بأنّ «الرفيق ستالين كان على حق حين حطّم، بتطبيقه المتميّز للجدلية الماركسية-اللينينية، سلسلة كاملة من الطروحات النظرية لليمين المنحرف، الذي

72- سيرغي كيروف (1886-1934). من قادة الحزب الشيوعي الأوائل. كان اغتياله عام 1934 ذريعة لكي يشرع ستالين في حملة تطهير طالت الكثيرين من منافسيه.

أتحمّل أنا، على الرغم من كلّ شيء، نصيبي فيه من المسؤوليّة». لم يستطع لييف دافيدوفيتش، وهو يسمع ذلك الاعتراف الضمني بالفشل، أن يخفي إعجابه بالشجاعة التي ما زال قلة من الرفاق يتحلون بها ليثيروا مسألة إزاحة ستالين عن منصبه وتهوية الأجواء السياسية المخيّمة على البلاد. لكنّ تصويت الكثيرين من المندوبين بالضدّ من ستالين لم يفلح في هزيمة الأغلبية الخائفة من شبح التغيير وفقدان الامتيازات وعمليات الانتقام المحتملة... وكما تنبأ بياتاكوف له ذات مرّة، فقد صار لييف دافيدوفيتش في وضع يسمح له بأن يتنبأ لبياتاكوف وزينوفييف وكامينيف وبوخارين بأنّ ستالين سيجعلهم يدفعون من دمائهم ثمن تجرئهم عليه وتحديهم له.

***

بلغ موسم الهدوء نهايته في «باربيزون» مع قدوم الربيع. فقد اعتقل رودولف كليمنت [47] بطريقة غريبة (تجاوز بدراجته النارية الصغيرة الحد الأقصى للسرعة)، وهكذا «اكتشفت» الشرطة وجود تروتسكي في تلك البلدة، ولم تكن مصلحة الأمن قد أبلغتها بالأمر من قبل. وقد أثار ذلك حملة قويّة على الحكومة، التي كان يقودها شيوعيون وفاشيون تمكّنوا من إصدار أمرٍ بنفيه.

وأمام الخوف من أعمال انتقامية، أعلن عنها الستالينيون والفاشيون من هيئة العمل السري الفرنسية، غادر لييف دافيدوفيتش وزوجه «باربيزون» ليلاً، بعد أن حلق هو شاربيه ولحيته وبدّل إطار نظارتيه المدوّر ليموّه على هيئته، وتسلّلا إلى باريس ليناقشا المخرج مع ليوفا.

واختار بلدة شامونيه، الواقعة في جبال «الألب»، بالقرب من الحدود السويسرية والإيطاليّة، لتكون حفرته التي سيدفن نفسه فيها حيّاً. كانت تلك البلدة منطلق رحلات التسلّق الاستكشافية نحو جبل المون بلان. وعقب أسابيع قليلة اكتشف أحد الصحفيين مكانهم فاضطروا إلى الرحيل مجدداً بأمر من حاكم الإقليم. بحث لييف دافيدوفيتش على

الخارطة عن مكان منزوٍ، فوقعت عيناه على «دومين»، وهي ضيعة قريبة من «غرونوبل»، فشدّ الرحال إليها، بعد أن قرر الاستغناء عن الحراس الشخصيين والمساعدين، ليكون في تلك القرية نكرة لا يعرفه أحد.

***

لن ينسى ليف دافيدوفيتش، ما بقي حيّاً، أنّه خرج صباح الثاني من كانون الأوّل إلى باحة الدار، وكانت نتاليا تنشر غسيلها من الشراشف، لترسم هي ورائحة الصابون وعطر الصباح، جوّاً من السلام بدا له منفصلاً عن الواقع، بعد أن سمع في الإذاعة خبراً كان له وقع الصاعقة عليه: لقد اغتيل سيرغي كيروف في مكتبه بقصر «سمولني» في لينينغراد. تتابعت في ذهنه مشاهد الصدمة التي كانت، بلا شكّ، تخيّم على الأجواء في الاتحاد السوفييتي، وسلسلة التوقعات لما سيجري اعتباراً من تلك اللحظة التي يعرف أنّها ستؤشر إلى نقطة اللاعودة.

كانت التقارير تتحدث عن اعتقالات بالجملة، والتحقيقات الأوليّة تشير إلى المعارضة التروتسكية بوصفها الفاعل المعنوي لعملية الاغتيال (أعلنوا أنّ القاتل، واسمه ليونيد نيكولاييف، ينتمي إلى تلك المعارضة)، في مؤامرة استهدفت الحكومة وشارك فيها حتى قنصل ليتوانيا في المدينة، وهو، بحسبهم، «عميل» من عملاء تروتسكي. لذلك طرحت عليه نتاليا، حين روى لها ما جرى، سؤالاً لاحقه حتّى مماته: «وماذا عن سيروجا؟».

مرّ أسبوع من الخوف والقلق، وانتهى بوصول رسالة من سيروجا، جاءهم بها ليوفا من باريس. كانت تلك الرسالة، خلافاً لرسائل سيروجا الدافئة، التي كان يوجهها دائماً إلى أمّه، تحمل صرخة تحذير. لقد عمّت الفوضى موسكو، فالاعتقالات لا تتوقف، والناس خائفون من أن يتعرضوا للاستجواب، وولدهم، المنصرف إلى العلم والبعيد عن السياسة، يرى أنّه في وضع «خطير لا يمكن تصوّره». حين انتهت نتاليا من قراءة رسالة ولدها انفجرت باكية. ماذا سيحدث للفتى؟ ولماذا هو

في خطر؟ هل لأنّه من عائلة تروتسكي؟ صارت لهفتهم لأخبار جديدة عن سيرغي مضاعفة، وأصبحت حياة الوالدين معلقة، بانتظار أيّ خبر مؤكد عن مصيره.

وتوضّح مسارُ الأحداث مع خبر إقدام جهاز الجيبيو، في ذاك اليوم نفسه، الثاني من كانون الأول، على إعدام مئة شخص، كانوا قد اعتقلوا قبل حادثة اغتيال كيروف، بينما سجن العديد من أعضاء الحزب. ونشرت صحيفة «إزفيستيا» سلسلة من المقالات لبوخارين، ألقى فيها المزيد من الضوء حين تحدث عن بطلان حدوث أيّ نوع من الانشقاق داخل البلد، وردد شعار ستالين بأنّ المعارضة لا تقود إلّا إلى الثورة المضادة، وضرب على ذلك الانحطاط مثلاً حالتي زينوفييف وكامينيف، اللذين وصفهما بالفاشيين المنحطين. لذلك، لم يبقَ لديه أدنى شكّ، حين سمع في 23 كانون الأول بأنّ زينوفييف وكامينيف قد اعتقلا بتهمة المشاركة «المعنوية» في حادثة الاغتيال، في أنّ ريحاً هوجاء مدمرة قد هبّت. لقد تخلّص ستالين مرتين من ذينك البلشفيين القديمين، رفاق لينين؛ وأعادهما إلى الحزب مرتين، بعد أن التهم، في كلّ مرّة، قطعاً من قامتيهما الإنسانيتين والسياسيتين، حتى حوّلهما إلى شبحين متذبذبين لا يقام وزن إلّا لذكرى اسميهما. أمّا الآن فيبدو أنّ لحظة الحقيقة لذينك الشبحين اللذين ينتميان إلى الماضي قد حانت، فقرّر سحقهما بقسوة، فلهما هما يعود الفضل في صعوده إلى السلطة: فلولا اصطفافهما إلى جانب (من حسبوه)، حين موت لينين، محدود القدرات وأخرق، ولولا أنّهم جميعاً تعاونوا على سدّ الطريق إلى السلطة أمام ليف دافيدوفيتش، لكان التاريخ السوفييتي غيره.

تذكّر ليف دافيدوفيتش نظرة زينوفييف المبهمة ونظرة كامينيف المراوغة (لم يفهم قطّ كيف رضيت أخته الصغيرة أولغا به زوجاً) حين اتهم بالتطلع إلى الاستيلاء على السلطة. واضطلعا، منتشيين بالنصر الذي كانا يأملان نواله، بالقيادة الظاهرية للحملة المعادية لليف

دافيدوفيتش وأفكاره، ووصفاه بأنّه رجل يجري وراء الزعامة، وبأنّه قادر على الاندفاع لنشر الثورة في عموم أوروبا بينما يعرّض المصير المقدس للاتحاد السوفييتي للخطر. لن يسعَ ذلك الثنائي البائس أن يندب حظه على تلك الساعة المشؤومة التي مدّا فيها أيديهما لليد الدبقة للدبّ الجبليّ، الذي كان يخفي في يده الأخرى خنجراً.

رافق صمتُ سيروجا الأسرة مع الانتقال إلى عام 1935، الذي دخل بأسوأ النُّذُر. على الرغم من البرد القادم من الجبال، خرج الزوجان، عشيّة آخر أيام عام 1934، للتنزّه في الحقول المجاورة والابتعاد عن جهاز الراديو الذي كان يبث من موسكو أناشيد وطنية ونصوصاً من خطابات القائد، مشحونة بنبرة الانتصار، وأخباراً من قبيل أنّ حكم الإعدام قد نفّذ في القاتل نيكولاييف وزوجه وحماته وثلاثة عشر عضواً آخرين من الحزب، بعد أن اعترفوا بقربهم من المعارضة التروتسكيّة ومشاركتهم المباشرة أو غير المباشرة في مقتل كيروف. وفي لحظة من اللحظات، طلبت نتاليا منه أن يتوقف، وجلست على الأوراق بعد أن فاجأها التعب. تأملها ليكتشف بأيّة سرعة خوّانة شاخت، من كثرة ما رأت وعانت. لكنّها لم تشكُ يوماً من نصيبها، وحين سمعته يتأسّف ويشكو، دفعته دفعاً ليواصل السير. سألها لييف دافيدوفيتش إن كانت متوعكة، فأجابته بأنّها متعبة فحسب، وعادت إلى صمتها، فكأنّها نذرت نذرَ صمت يمنعها من الكلام عن آلامها: لقد كان يأسها من غياب الأخبار عن سيروجا قبولاً من نوع مّا بأنّ ذلك الابن قد يكون راح ضحيّة العنف الأعمى الذي أطلقته ثورة كان مبدؤها السلام.

راح خوف لييف دافيدوفيتش وهلعه ينحسران مع الأيام، لكنّه هام على وجهه في بيته، في «دومين»، لأسابيع كالخيال. لم يؤثر في ذهوله الخبر الذي وصل من موسكو حول الحكم على زينوفييف وكامينيف و«المسؤولين المعنويين» الآخرين عن موت كيروف بالسجن بين خمس سنوات وعشر. وسرعان ما سمعوا بأن أحكاماً أخرى صدرت بحق

فولكوف ونيفلسون، زوجي المرحومتين زينا ودينا، المنفيين منذ عام 1928، وأن زوج ليف دافيدوفيتش الأولى، ألكساندرا سوكولوفسكايا، أبعدت، على الرغم من سنها، من لينينغراد إلى مستعمرة توبولسك، كما أبعدت أولغا كامينيفا، زوج كامينيف. مع ذلك، فقد كان لتلك العقوبات جانبها الإيجابي الذي تشبّث به آل تروتسكي: فإذا كان المعارضون المشهورون والأعضاء الآخرون من العائلة أودعوا السجن أو نفوا، فهذا معناه أنّ سيرغي ما زال حيّاً، قد يكون معتقلاً، لكنّه على قيد الحياة. ولكن. لمَ لا يكتب؟ لمَ لا يرد له ذكر؟

وبادرت نتاليا، لقطع شكوك زوجها باليقين، إلى كتابة رسالة مفتوحة وجهتها إلى الرأي العام العالمي أكّدت فيها قناعتها بأنّ سيروجا، العالم في المعهد التكنولوجي بموسكو، ليس لديه أيّ انتماء سياسي، وطالبت بالتحقيق في نشاطاته وأن يكشف عن مصيره. دعت إلى تدخل شخصيات من مثل رومان رولان وأندريه جيد وبرنارد شو والعديد من القادة العماليين، فقد كانت ترى أنّ البيروقراطية السوفييتيّة لا تستطيع أن تتجاهل الرأي العام والمثقفين اليساريين والطبقة العاملة العالمية.

في تلك الأثناء، عادت الأصوات التي تهاجمه إلى الارتفاع، وبعدوانيّة أشدّ، حتى صار ليف دافيدوفيتش يتوقع أن يسقط في أيّ يوم ضحيّة فعل عنيف أو أهوج أو مدبّر. لذلك، فقد استدعى حرّاسه من باريس وعاد إلى تعليق آماله على اللجوء إلى النرويج المنغلقة الباردة، حيث كان الحزب العمالي قد حقق للتوّ انتصاراً في الانتخابات العامة. ساق في طلبه أسباباً صحيّة، دعمها بأسباب تمسّ سلامته الشخصيّة وتعهد، كما فعل حين طلب اللجوء إلى فرنسا، بعدم التدخل أو المشاركة في سياسة البلد الداخلية.

حين أحسّ بأنّ طوق الضغط من أتباع ستالين والفاشيّة يوشك أن يطبق عليه (دار حديث عن إمكانية إرساله إلى إحدى المستعمرات، ربّما إلى غويانا)، جاءه الفرج من جديد مع وصول تأشيرة الدخول النرويجيّة.

لكنّه، وعلى العكس مما حدث قبل ذلك بسنتين، حين ترك بيوك آضه، لم يحمل معه، في خروجه المتعجل، ذرّة واحدة من الحنين إلى «دومين»، فقد عاش فيها قريباً من سنة واحدة، لكنّه لم يسعد فيها بلحظة واحدة.

سافروا برفقة ليوفا إلى باريس، حيث كان عليهم أن يجدّوا بالحصول على الفيزا، التي لم تصل بعدُ من النرويج، بينما كان الفرنسيون يطالبونه بمغادرة البلاد خلال ثمانٍ وأربعين ساعة لأنّه خرق، بسفره إلى باريس، التعليمات والشروط. سلّم ليف دافيدوفيتش، لحظة الرحيل، ولده رسالة، لينشرها في «الوقائع»، اتهم فيها ساسة فرنسا الديموقراطية باللعب القذر، لا به، بل بمصير الجمهورية، إذ تواطؤوا مع موسكو بينما الفاشية تسرح وتمرح في البلاد. «أغادر فرنسا بحب عميق نحو شعبها، وبإيمان لا تنطفئ شعلته بمستقبل الطبقة العاملة، التي ستتلقاني، آجلاً أم عاجلاً، بحسن الضيافة التي حرمتني منها البرجوازيّة»، ختم رسالته وهو ينشر تفاؤله المعهود. لكنّه أحسّ، وهو يقطع فرنسا، بالضيق، وتساءل إن لم تكن عودته التي يمنّي نفسه بها إلى باريس البروليتارية مجرد وهم. لا شك في ذلك: فقد حفرت الاشتراكية قبرها بيدها، وأرى أنها ستتعفّن هناك لوقت طويل، كتب.

***

كانت الحفاوة التي استقبله بها الصحفي النرويجي كونراد نودسن[73] في بيته بمثابة جائزة ترضية عقب أشهر الوحدة والتوتر والإبعاد التي عاشها في فرنسا. وكان الهدوء والسلام اللذان وجدهما في قرية «فيكسهول» موجودين حاضرين إلى حدّ القدرة على إزاحتهما باليد، مثل ستارة مخمليّة. أمّا ساعات الغروب الصيفيّة فكانت تنساب متكاسلة وكأنّها لا تريد الرحيل، بينما كانت ساعات الفجر تبدو وكأنّها تولد من بين فروع الأشجار، فكأنّها تخلق وتعدّ للبقاء طويلاً. منذ وصوله إلى

73- Konrad Knudsen (1890–1959). رسام وصحفي وبرلماني نرويجي. وكان من قيادات الاتحاد الاشتراكي الاسكندنافي.

«فيكسهول» اعتاد أن يستمتع بالنظر إلى تلك الغابات وهو يتناول القهوة في باحة بيت نودسن ويستنشق أريج الغابة.

كان ليف دافيدوفيتش، حين وطئت قدماه أرض النرويج، يمنّي نفسه بالهرب من التوترات التي طاردته على مدى سبعة أعوام تقريباً من النفي واللجوء. لكنّه وجد نفسه، بعد وصوله إلى تلك البلاد، عرضة لشتائم راحت الصحافة الشيوعيّة والفاشيّة تكيلها له بالشدة ذاتها وبالكلمات نفسها، سعياً إلى تحويل وجوده إلى مشكلة سياسيّة تواجهها حكومة أوسلو. لكنّ مضيفيه العماليين أجهضوا الحملة بتصريحات شديدة أكّدوا فيها أنّ حق اللجوء لا يمكن أن يكون حرفاً ميتاً في أمّة ديموقراطيّة، وأنّ الشعب النرويجي، ولا سيّما شغيلته، يشعرون بالفخر لوجوده في بلدهم، وأنّهم لن يرضخوا لأيّ ضغط من موسكو حول الضيافة التي يقدمونها لثوري يرتبط اسمه باسم لينين. وأكّد له عدد من الوزراء، محاولين تخفيف التوتر، أنّ تحديد إقامته بستة أشهر بموجب الفيزا هو عمل إجرائي فحسب. لكنّ الشروط الخاصة بعدم المشاركة في الشؤون الداخلية وتحديد مكان إقامته خارج أوسلو ظلّت سارية. لذلك طلب هؤلاء أنفسهم، أمام صعوبة العثور مؤقتاً على مكان ملائم له، من الصحفي والسياسي الاجتماعي الديموقراطي، كونراد نودسن، أن يستضيفه في «فيكسهول»، وهي ضيعة قريبة من «هونيفوس»، على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة.

سيتذكر ليف دافيدوفيتش أيامه الأولى في «فيكسهول» دائماً على أنّها أيام غريبة ومضطربة. لقد أقاموا في غرفة كبيرة، وضعت فيها منضدة جميلة، وكان على نتاليا وزوجها أن يتقبلا الواقع السائد في بيت تسكنه عائلة كثيرة العدد، تتمتع في مواسم الاصطياف بحرية تجاوز التوقيتات وبالقابلية على الازدياد أو النقصان من دون سابق إنذار. وكان في غياب الحراس الشخصيين، غير الضروريين، بحسب نودسن والعماليين، ما جعل تطلعهما إلى باب الحديقة المفتوح مفهوماً، فثقة النرويجيين، في

رأيهما، تراهن على حدود لا يعرفها ستالين وأعوانه من شرطته السرية في العادة. أمّا أهمّ إجراءات التوافق والتكيّف على الحياة في بيت «فيكسهول» فكان إقامة ما دعاه نودسن وضيفه بـ «معاهدة عدم اعتداء»، اتفقا بموجبها على الخوض في السياسة، ولكن من دون التشكيك بمنطلقات أيّ من الطرفين، شيوعية كانت أم اجتماعية ديموقراطية.

وإذا كانت بقيت فضلة من الشكوك في ذهن المنفي حيال الضيافة النرويجيّة، فقد تلاشت حين حضر وزير العدل النرويجي تريغفه لي برفقة مارتين ترانميل، زعيم الحزب العمالي ومؤسسه، لزيارته. وتحوّل الحديث، الذي كان غير رسمي في بدايته، إلى مقابلة نشرها «لي» في صحيفة «أربيد بلادا= صحيفة العمل»، وهي أهمّ صحيفة عمّالية، وقد ظهر فيها منظم المقابلة والضيف يتصافحان، على الرغم من اختلافاتهما السياسيّة.

مرّت أسابيع شعر ذهن ليف دافيدوفيتش أثناءها بأنّ التوتر قد خفّ، لكنّ وعكة عامة ألمّت بجسمه ورافقته شهوراً. مع ذلك، فقد صار يعتكف في غرفته كلّ يوم، عازماً على قهر الصداع وآلام المفاصل، ليواصل العمل في سيرة لينين، التي كان الناشر الأمريكي يحثّه ويحمّسه على إكمالها، بعد انسحاب ناشره الألماني وبعد أن أبدى الفرنسيون عدم اهتمامهم بها. لكنّ خبراً وصله من موسكو، في بداية شهر آب من عام 1935، جعله يتساءل إن كان عليه أن يصبّ جهوده على سيرة الزعيم أم إنّ الاستهتار السائد في الاتحاد السوفييتي يستدعي منه التفكّر حول رعب الحاضر والحاجة إلى إبطاله. كان عدد البرافدا الذي أثار ذعره يشير إلى تقرير عن واحدة من تلك الحفلات التي تقام في الكرملين، والتي أطلق ستالين فيها، بعد أن أغدق العطاء في الأوسمة والنياشين، واحدة من خطبه المعهودة. لقد اقتصرت مداخلته، هذه المرّة، على إطلاق صيحة نصر واحدة بسيطة: «أصبحت الحياة أفضل، أيّها الرفاق، صارت أكثر فرحاً! لنشرب نخب الحياة ونخب الاشتراكيّة!». لقد نبّهته

خبرته بحركات ذلك الرجل وتجربة في تقويم إشاراته إلى أنّ تلك الجملة لا يمكن أن تكون جملة عابرة، بل هي زئير أسد يتهيأ لمطاردة صيد مهلكة.

راح ليف دافيدوفيتش، طوال شهور، يقوّم كلّ فعل، ويضع كلّ معلومة في مكانها، محاولاً فهم أهداف سياسة إزالة أجواء التوتر التي خلقها الكرملين بعد المحاكمة التي جرت بداية عام 1935 في حق زينوفييف وكامينيف وشركائهما، والتي أسدل فيها الستار على فصل اغتيال كيروف. لقد تراجعت، منذ ذلك الحين، حدّة الاعتقالات، وبدأت تعمّ البلاد موجة من التفاؤل الرسمي، مدعومة دائماً بالماكنة الدعائية، بينما شهدت موسكو تكريم عمال متميزين وممثلي العديد من الجمهوريات، واحتفي بالعلماء والرياضيين والموظفين البارزين، وثمّنت جهود زعماء الحزب من جميع المستويات. كان ستالين، بعد المجاعة وحملات القمع التي شهدتها السنوات الأخيرة، يحاول خلق جوّ من الأمان ويسعى إلى إشاعة فكرة أنّ الأوقات الصعبة صارت من الماضي، وأنّ ما يعيشه البلد هي أوقات الازدهار الاشتراكي. لكنّ ليف دافيدوفيتش كان يدرك أنّ ضربة جديدة ستعقب ذلك السراب، ضربة ستهزّ البلاد وترسّخ نظاماً يتيح لستالين، أخيراً، حكمها والتحكم بها بلا منافس ولا منازع.

***

لم يحدث، طوال الأسابيع الأخيرة من تشرين الثاني والأسابيع الأولى من كانون الأول، ما يبعث على الفرح، سوى الخبر الذي بلغهم عن أنّ سيروجا ما زال على قيد الحياة، وهو محتجز في شقة بموسكو. رفع جسمه، وقتها، الراية البيضاء معلناً عن تعبه ونفاد طاقته. بل لقد خشي أن تكون نهايته قربت ليموت بتلك الطريقة المبتذلة، فيقال «مات من الإرهاق، ما أفظع ذلك!» كتب. مع ذلك، ربّما كان ذلك الوعي نفسه باحتمال أن يموت ويترك مشاريعه الكثيرة معلقة هو ما أحدث معجزة إخراجه، بين عشيّة وضحاها، من السرير، وبطاقة تامة تقريباً. وعلى

الرغم من أنّه أحسّ بمفاصله مشلولة، فقد غمره شعور جارف بأنّه ولد من جديد، لذلك تجرأ على قبول دعوة نودسن للمشاركة في رحلة إلى حقول شمال «هونيفوس»، المثالية لرياضة التزلج في ذلك الوقت من السنة. وسيظلّ يذكر ما وقع له حين غطس، وهو على الزلاجتين، في الثلج حتّى فخذيه وتطلّب إخراجه عملية أشرف عليها نودسن ونفذها جان فان هاينورت ومساعده الجديد الواصل حديثاً إروين وولف.

بعد ذلك الوقت بقليل، وفي الأسابيع الأولى من عام 1936، تلقّى ليف دافيدوفيتش رسالة كشفت له، خيراً من كلّ أدبيات التحليل النفسي، الفكرة الأكثر مأساوية ودقة عن ماهية الخوف وعن الآليات البشرية غير المتوقعة التي يمكن للخوف أن يحشدها. كاتب الرسالة هو خصمه القديم فيدور دان(74)، الذي نفي إلى باريس بعد وقت قصير من انتصار الثورة البلشفية. كان ليف دافيدوفيتش يعرف «دان» منذ أن كان هذا واحداً من الاجتماعيين الديموقراطيين الثوريين الذين صوّتوا في مؤتمر بروكسل عام 1903 ضد لينين ليفسحوا المجال، مع بقيّة المعارضين، لقيام حركة المناشفة داخل الحزب [51]. ومع أنّ «دان» كان واحداً من المناشفة الذين عملوا أكثر من سواهم للتقريب بين الأجنحة المنضوية تحت راية الكفاح الثوري، فإنّ ولاءه لمجموعته وضعه عام 1917 في تيّار مضاد للثورة البروليتاريّة، إذ كان يدافع عن إقامة نظام برلماني عارض ليف دافيدوفيتش قيامه طوال الأشهر التي سبقت ثورة أكتوبر. وقد حاول «دان»، بعد أن استتب الأمر للثورة البلشفية، مدّ جسر من التقارب، ثمّ امتلك، في ما بعد، الجرأة للاعتراف بالهزيمة والانسحاب في صمت.

بعد أن حيّاه «دان» وتمنّى له الصحّة، بيّن له أنّه يكتب إليه، بعد سنوات طويلة من البعد جسداً وسياسة، لأنّ صديقاً مشتركاً، هو الدكتور

74- Fedor Dan (1871-1949). أحد القادة المؤسسين لجناح الأقلية، أو المنشفيك، داخل حزب العمال الديموقراطي الاشتراكي الروسي.

لي سافورو، ألحّ عليه أن يكتب لليف دافيدوفيتش ويحكي له مسألة، هي في جوانب كثيرة، ذات صلة بماضيه ومستقبله المنظور.

ذكر له «دان» أنّ بوخارين، بعد كلّ ما تعرّض له من تهميش على يد ستالين، وبعد كلّ عمليات البتر والإخصاء، سافر إلى أوروبا في مهمة لشراء وثائق مهمة لماركس وإنجلز كان ستالين يحرص على حفظها في خزائن معهد ماركس- إنجلز- لينين القديم، الذي كبر ونما مؤخراً بعد أن ضمّ الأمين العام اسمه إليه. سافر بوخارين، ومعه أموال طائلة مخصصة لشراء الوثائق وللمصروفات الشخصيّة، إلى فيينا وكوبنهاغن وأمستردام وبرلين، قبل أن يصل إلى باريس، التي حمل الاجتماعيون الديمقراطيون الألمان إليها معظم تلك الوثائق بعد صعود هتلر إلى سدة الحكم. كان على بوخارين أن يتعامل في باريس مع صديق قديم من المناضلين الروس هو المنشفيكي بوريس نيكولاييفسكي، وكان أيضاً صديقاً للدكتور لي سافورو. بدا بوخارين أثناء الحوارات متحفظاً ومتوتراً ومتردداً، فكأنّه واقع تحت تأثير ضغط شديد. كان نيكولاييفسكي يستفزّه ويستحثّه، لكن بدا مستحيلاً الحصول منه على رأي حول ما كان يحصل في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، حول اغتيال كيروف أو حول سجن زينوفييف وكامينيف، اللذين شهّر بهما هو نفسه وشكك بهما حين اتهمهما علناً بأنّهما فاشيان. «بدا لنا رجلاً مرتاباً متشككاً»، أكّد «دان»، الذي رآه، وكانت معه زوجه، مرّة أو مرتين، وتحدث معه في المواضيع الوحيدة التي كان بوخارين يسمح بالحديث عنها: الجبنة الفرنسيّة والأدب الفرنسي والصداقة التي كانت تجمعه مع لينين والوثائق التي جاء لاقتنائها. مع ذلك تمكن «دان» في مناسبة واحدة من أن يجعله يعلّق على سياسة ستالين فاعترف بوخارين، في لحظة صدق، بالألم العظيم الذي يحدثه فيه الأسلوب الذي يسير عليه الأمين العام في هدم روح الثورة. قد يبدو، على الأقل مستغرباً، يقول «دان»، لأيّ مطلع على السياسة السوفييتية أن يختار

ستالين بوخارين لتلك العملية، فهي عملية تجارية أكثر منها فلسفيّة أو تاريخية، ولأنّ حركة عمليات التطهير السياسي في البلد تشير إلى أنّ بوخارين المنفعل، الذي تجرأ في لحظة من اللحظات على تحدي ستالين، سيكون، آجلاً أم عاجلاً، ضحية مناسبة. لكنّ المفاجأة الكبرى لم تكن قد حصلت بعد: أرسل الطاغية بزوج بوخارين الشابة، آنا لارينا، الحامل في عدة أشهر، إلى باريس، من دون طلب من بوخارين أو تلميح. فماذا أراد ستالين بتلك الحركة الغريبة؟ لماذا فتح لرهينته الباب وزيّن له الانشقاق والهرب من دون خوف على امرأته التي تركها وراءه؟ هل عساه يفضّل أن يرى بوخارين خارج الاتحاد السوفييتي وليس داخله، حيث يستطيع أن يمزقه ملوّحاً بالتبرير ذاته الذي استخدمه للرمي بزينوفييف وكامينيف في السجن، أو أن يأمر بقتله، كما فعل مع كيروف؟ هل هي لعبة لتحويل بوخارين إلى منشق قبل أن يتحوّل إلى شهيد؟ تساءل «دان»، وهو يستحث لييف دافيدوفيتش على التمعّن في ما تحويه رسالته.

بعد أسابيع - واصل «دان» في رسالته- تلقّى بوخارين تبليغاً من ستالين: عليه أن ينسى المفاوضات، فما عادت أوراق ماركس وإنجلز تهمه، وأن يعود إلى موسكو من فوره. كان الدكتور لي سافورو حاضراً حين تلقّى بوخارين الأمر، وكان شاهداً على الشحوب الذي علا وجه من كان الطفل- المعجزة للبلشفيّة، والمنظّر الواعد للثورة. اقترح لي سافورو عليه ألّا يعود: ذلك الاستدعاء المفاجئ له هدف واحد، وهو احتجازه وتحويله إلى ضحيّة واحدة من عمليات القمع. وكان لنيكولاييفسكي رأي مشابه، وذكّر هذا بوخارين بأنّه إن ظلّ في أوروبا ففي مقدوره أن يصبح تروتسكي ثانياً، وأن يقودا معاً معارضة لها حظوظ أكبر لمواجهة ستالين وتنحيته. لكنّ بوخارين بدأ بحزم حقائبه: فعل ذلك بصمت، وبطريقة آليّة، فكأنه رجل يسعى إلى حتفه بقدميه. وسأله لي سافورو، في نوبة غضب، كيف لرجل قارع حكم القياصرة لسنوات

ورافق لينين في أحلك ظروف الكفاح أن يقبل بالعودة مثل حمل وديع، ليسلّم رقبته إلى عقاب مؤكد. حينئذٍ ردّ عليه بوخارين بجوابه القاتل: «أعودُ لأنّي خائف». وحسب لي سافورو أنّه لم يفهم كلامه، ربّما لأنّ فرنسية بوخارين اختلّت من التوتر، لكنّه فكّر في قوله واقتنع بأنّه سمع تماماً ما قال محاوره: «أعود لأنّي خائف». فقال له لي سافورو بأنّ عليه ألّا يعود لذلك السبب بالذات، فهو في المنفى أكثر نفعاً لبلده وللثورة، حينئذٍ قدّم له بوخارين خلاصة تفكيره وحجته: إنّه ليس مصنوعاً من المعدن نفسه الذي صنع منه لييف دافيدوفيتش، وهذا أمر يعرفه ستالين ويعرفه هو، وهذا هو الأهم. لن يستطيع تحمّل الضغوط التي تحمّلها تروتسكي طوال سنوات، وهو ليس مستعدّاً للعيش كالمنبوذ بانتظار أن يُغرس خنجر في ظهره في أيّ يوم من الأيام. «أعلم أنّ ستالين سيقضي عليَّ آجلاً أم عاجلاً؛ ربّما يقتلني، وربّما لا. لكنّي سأعود باحتمال ألّا يرى ضرورة في قتلي. أفضّل أن أعيش بأمل على أن أعيش بخوف دائم من أنني محكوم بالموت.»

وعاد بوخارين إلى موسكو ومعه آنا لارين الحامل في شهرها السابع. ودّعه لي سافورو في «كار دي نورد» ثمّ توجّه للقاء نيكولاييفسكي و«دان» في مطعم روسي في الحيّ اللاتيني حيث اعتادوا تناول العشاء. دار الحديث بالطبع حول بوخارين. «حينئذٍ انتبهنا» –واصل (دان)– «إلى أنّ ستالين لعب معه، طوال الوقت، لعبة القط الذي يتصنّع النوم. لكنّ ستالين راهن على أنّه لا يحتاج إلى الركض وراء فريسته. كان متأكداً من أنّ الفأر المسكين الخائف سيعود لتقبيل المخالب التي ستمزقه قبل أن تلتهمه، حين تنفتح شهيّة القط. من المستحيل تصوّر موقف أكثر سادية ومرضاً. الأدهى هو أن تعلم بأنّ الرجل الذي يمارس تلك السادية هو الذي يتحكم بدفّة البلاد والثورة، التي حلمنا بها أنا وأنت، ربّما بطرق مختلفة، ولكن بالحب ذاته. الثورة التي حلم بها لينين ورجال كثيرون يعمل ستالين وسيعمل على تصفيتهم مستقبلاً.

أنا متأكّد من أنّ بوخارين سيكون ضحيّة من ضحايا مسلخ ستالين، لأنّ فيه من الخوف ما يجعله يفضّل الموت المحتّم على أن يعيش مغامرة يومية يثبت فيها شجاعته».

جاهد ليف دافيدوفيتش مع نفسه، طوال أسابيع، ليزيح عن باله تلك الحكاية المرعبة التي قصّها عليه فيدور دان، لكنّ صورة بوخارين الشاحب، المختلفة عن صورة الشاب الجميل الرومانسي الذي استقبله في نيويورك حين طردته فرنسا عام 1916، كانت تلحّ على ذهنه. بعد أسابيع، وبينما كان يلتهم الصحف التهاماً ويلاحق الأخبار التي تغطّي المحاكمة التي بدأت في موسكو بحق مجموعة من الرفاق القدماء، تذكر مرّات عديدة عبارة بوخارين: «أعود لأنّي خائف». حينئذٍ تأكّد لليف دافيدوفيتش مدى تحوّل البلد، الذي ساعد هو على إقامته، إلى أرض محكومة بالخوف. وحين استمع إلى قرارات تلك المحاكمة، وكانت أقرب إلى التمثيلية منها إلى المحاكمة، وصل إلى القناعة المؤلمة بأنّ ستالين، بقراره إعدام مجموعة من الرجال الذين عملوا من أجل انتصار البلشفيّة، سمّم آخر جذوة في روح الثورة، فما عاد أمامهم غير الجلوس وتأمّل احتضارها، غداً أو بعد عشر سنوات أو عشرين سنة. أمّا فسادها فقد بات نهائيّاً ومحتوماً.

***

منذ أن وصل ليف دافيدوفيتش، قبل عام، إلى النرويج وهو لا يفتأ يذكّر نودسن برغبته في القيام برحلة صيد، حين تسمح له صحته بذلك. حكى له عن سفراته، التي كانت تمنحه شعوراً بالاسترخاء، إلى بحر مرمرة مع صديقه كارالامبوس. لكنّ أموراً كثيرة حالت دون أن يحقق تلك الرغبة، حتّى جاء يوم الرابع من آب من عام 1936، حين صعد إلى سيارة مضيفه واتجها إلى أحد الخلجان في الجنوب، حيث توجد جزيرة صغيرة مقفرة، يقولون إنّها مثالية للصيد. كانوا بعدُ عند أطراف «فيكسهول» حين خامر نودسن شعور بأنّ هناك سيارة تتبعهم؛ فاتخذ

طريقاً فرعيّاً وتمكن من التملّص من ملاحقيه بعد أن عرف أنّهم من الحزب الفاشي الذي يتزعمه من كان يدعى بالقائد كفيشلينغ[75].

حين وصلوا إلى الخليج، صعدوا في زورق بخاري حملهم إلى الجزيرة الصغيرة، حيث أقيمت أكواخ من الخشب. وبدا ذلك المنظر الواسع الوادع لليف دافيدوفيتش صورة للأرض في الأيام الأولى من الخلق، وسرعان ما شعر بالانسجام مع عظمتها الموحشة المقفرة.

في صباح اليوم التالي استيقظ باكراً؛ وعلى الرغم من برودة الطقس، فقد خرج من الكوخ واتجه إلى الشاطئ، وهو يحمل جرّة القهوة، ليتأمل شروق الشمس من ثغرة بين الجبال. فزع، وهو غارق في تأمّلاته، حين وضع نودسن يده على كتفه ليقول له إنّه تلقى رسالة من «فيكسهول» مفادها أنّ مجموعة من الرجال بزي الشرطة، هم بكل تأكيد أعضاء في حزب القائد كفيشلينغ، دخلوا إلى بيته لتفتيش غرفة ليف دافيدوفيتش، وأنّ أبناء نودسن وأصهاره دقوا ناقوس الخطر حين اكتشفوا أنّ رجال الشرطة دخلاء، وتمكنوا من طردهم من البيت، وإن لم يتمكنوا من منعهم من حمل بعض الأوراق. كان ذلك، بحسب نودسن، هو سبب ملاحقتهم لهم بالسيارة: كانوا يريدون التأكد من أنّهم غادروا «فيكسهول».

حين اطمأنّ ليف دافيدوفيتش إلى أنّ مكروهاً لم يقع لأحد من عائلة نودسن، قلّل من أهمية ما حدث: إن كان ما بحثوا عنه هي الأوراق، فهذا يعني أنّه لا يعنيهم كثيراً في شخصه، مؤقتاً على الأقل.

عقب ثلاثة أيام، شاهد نودسن ونتاليا وليف دافيدوفيتش، مرعوبين، طائرة صغيرة تحطّ في الجزيرة، وأدركوا أنّ أمراً غير طبيعي يجري. جاء رئيس الشرطة القضائية في «هونيفوس» مبعوثاً من وزير العدل تريغفه لي لاستجواب المنفي حول الأوراق المسروقة. كان يريد أن يعرف إن كان في

75- Vidkun Quisling (1887-1945). سياسي فاشي نرويجي. قام بانقلاب في بلده النرويج عام 1940 بدعم من النازيين.

تلك الوثائق إشارة ما إلى السياسة النرويجيّة، وحين أكّد له أنّه، في الأربعة عشر شهراً من إقامته في البلد، لم يتدخل في شأن داخلي واحد، تمنّى لهم رجل الشرطة مساءً طيباً وعاد إلى الطائرة. ولكن أنّى لهم أن يتجاهلوا القلق الذي خلّفته فيهم الزيارة. لقد فكّر ليف دافيدوفيتش، على الرغم من قناعته بأنّ ليس في مقدور أحد أن يتهمه بخرق تعهداته، في أنّ قلق الوزير لا بدّ وأن يكون مستنداً إلى شيء لم يفلح في فهمه في تلك اللحظة.

في اليوم التالي، وبينما كانوا يتناولون الفطور، فتح نودسن الراديو الصغير لسماع نشرة أخبار أوسلو. ولمّا كان ليف دافيدوفيتش لا يفهم إلّا قليلاً اللغة النرويجية، لم يعر بالاً للإذاعة وخرج إلى الفناء. لكنّ نودسن اقترب منه، بعد دقائق، وبوجه متجهم ليقول له إنّ أموراً خطيرة تحدث في موسكو: لقد أعلن للتوّ عن محاكمة ستجري لزينوفييف وكامينيف وأربعة عشر رجلاً آخرين متهمين بالتآمر على السلطة السوفييتية وتدبير عملية اغتيال كيروف والترتيب لمؤامرة مع الجيستابو لاغتيال ستالين. وأنّ الادعاء العام يطالب بعقوبة الإعدام للمحكومين جميعاً.

نظر ليف دافيدوفيتش إلى صديقه وبه رغبة في صفعه من شدّة ما اعتمل في نفسه من غضب. عادا إلى الكوخ وراح المنفي يبحث في الراديو علّه يعثر على إذاعة تبيّن له أنّ تلك الأنباء محض سوء فهم مروّع. لكنّ وكالة الأنباء السوفييتية أكّدت في خبر بثته إذاعة ألمانية بعد ساعة ما سمعه نودسن، وأضافت أنّ محاضر الادعاء العام تتهم أيضاً ليف دافيدوفيتش بوصفه الرأس والمحرّض على المؤامرة، التي خطط لها مركز ذو توجّه تروتسكي- زينوفييفي، يعمل لصالح قوة أجنبية، وبيّنت أنّ هذا المركز يستخدم النرويج قاعدة لإرسال إرهابيين وقتلة إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. وأدرك ليف دافيدوفيتش في الحال أنّ موجة إرهاب دموية قد انطلقت في موسكو وأنّ آثارها ستصل حتّى «فيكسهول» البعيدة، حيث أمضى أهدأ أيام منفاه.

***

بينما كانت تجري محاكمة المتهمين الستة عشر، كان ليف دافيدوفيتش، كلما سمع صوت المدعي العام فيشنسكي[76] المجلجل، وهو يمثل ضمير الشعب السوفييتي الغاضب، مطالباً بإعدام الكلاب المسعورة الخاضعين للمحاكمة، يتذكر تلك الأوقات المجيدة التي أطلق فيها هو ولينين لفيلكس دزيرجينسكي[77] عنان آلة القمع الثوري لكي يطبّق، من دون قانون ومن دون مهادنة، «إرهاباً أحمر» قادراً، بالدم والنار، على إنقاذ ثورة وليدة بدأت للتوّ تقف على قدميها. لقد مثّل الرعب الذي زرعته «لا جيكا» [4] تحت إدارة دزيرجينسكي، الذراع المجهولة للثورة، رعباً لا يعرف الرحمة، كما يجب أن يكون عليه الرعب، رعب أباد مئات وألوفاً من أعداء الشعب، من الذين انهزموا في صراع الطبقات، والذين رفضوا القبول بسقوط نمط حياتهم وثقافتهم الجائرة. أمّا هم، المنتصرون، فقد تعاملوا بلا رحمة مع هزيمة خصومهم، وكان على الحزب أن يكون أداة في يد التاريخ لتنفيذ انتقامه الجماعي، الذي لم يكن، مع ذلك، موجّهاً لأشخاص بعينهم. كان عنفاً لا يعرف الرحمة، مفرطاً بالتأكيد، لكنّه ضروري: عنف الطبقة المنتصرة في حق المهزومة، التخيير بين «نحن أو هم»... أمّا الرجال الذين قرر ستالين قتلهم في شهر آب الأسود ذاك من عام 1936، فقد كانوا شيوعيين، رفاق نضال، وكانت آلة العنف التي قادها لينين وليف دافيدوفيتش تتوقف عندهم دائماً، عند ذلك الانتماء الذي تحترم حدوده. أمّا الإرهاب الستاليني، الذي اكتمل حين بدأ أولاً بالمزارعين والمتدينين والمثقفين، فقد كان يوشك على تجاوز كلّ حرمة واختراق كلّ منطقة محرّمة.

أراد ليف دافيدوفيتش أن يقنع نفسه بأن التمثيليّة ستتوقف في آخر

76- أندريه فيشنسكي (1883-1954). قانوني ودبلوماسي سوفييتي. المدعي العام في الاتحاد السوفييتي (1935) ومن منصبه هذا شارك في محاكمات موسكو بين عامي 36 و 38. تولى منصب وزير الخارجية بين 1949 و 1953.

77- فيلكس دزيرجنسكي (1877-1926). سياسي روسي من أصل بولوني. عرف بتشدده وتفانيه من أجل الثورة. شغل العديد من المناصب بعد نجاح ثورة 1917 وكلّف بالكثير من المهمات ويعدّ المؤسس الحقيقي لجهاز الجيبيو.

لحظة، عند حافة الهاوية: سيمنع ستالين، ببقية الحكمة التاريخية فيه، الكارثة وسيُبدي للعالم حلمه وطول أناته. فالمسألة لا تتعلق بأشخاص مجهولين مثل بلومكين، ولا بعقوبة صادرة بسبب ظروف غامضة مات فيها كيروف. فالعديد من المتهمين كانوا رفاقاً للقائد لينين وقاوموا لعقود حملات القمع والنفي في زمن القياصرة؛ بل لقد أرضوا، فوق هذا كلّه، ستالين وأدّوا دوراً استثنائياً في السيناريو المقزز حين أدانوا أنفسهم بأنفسهم واعترفوا بارتكاب أفظع الجرائم في حق الدولة السوفييتية، بل وأقرّوا بأنّ أيدي تروتسكي الكالحة ومساعده لييف سيدوفا قد حركت من تركيا وفرنسا والنرويج المؤامرة التي حاكها «مركز تروتسكي-زينوفييفي»، يخطط لاغتيال الرفيق ستالين وإعادة الرأسمالية إلى أراضي الاتحاد السوفييتي البطلة. يا لها من استهانة مخجلة بالعقول تلك التي تصدر عن تلك المهزلة القانونيّة: إنّ سماجة التمثيليّة التي تجري في موسكو تطالب عبدة سيد الثورة بنوع جديد من الإيمان الأيديولوجي وبنوع جديد من الخضوع، إيمان وخضوع يتجاوزان الطاعة السياسية ليصبحا تواطؤاً في الجريمة.

وكما الحال مع جميع الدكتاتوريين، فقد اتبع ستالين التقليد المألوف في اتهام أعدائه وبالتعاون مع قوة أجنبية وكرر، في حالة لييف دافيدوفيتش، الحجج ذاتها التي أطلقتها الحكومة المؤقتة، التي شكلّت عام 1917، في حق لينين، حين جعلت منه، بأدلة فبركتها المصالح السرية، عميلاً للإمبراطورية الألمانية مهمته تسليم روسيا إلى قيصر ألمانيا. أمّا مهمة تروتسكي، ضمن السياق نفسه، فهي تسليم الاتحاد السوفييتي إلى الفوهرر... سيستغرب المنفي، في ما بعد، من مبلغ سذاجته العابرة حين شعر باطمئنان تامّ تقريباً، بل حين وصل إلى درجة الاقتناع، بأنّ الادعاء العام سيجد، ساعة البحث عن أدلة تدعم تلك الاتهامات، الطريق مسدوداً أمامه. بل إنّ الحديث عن خمسين معتقلاً في المحاضر الأولى، لم يحضر منهم إلى المحاكمة سوى ستة عشر رجلاً، يشير بوضوح

إلى أنّ هؤلاء الستة عشر أبرموا اتفاقاً يدينون بموجبه أنفسهم مقابل أن يعفو ستالين عن حياتهم، بينما تكون الحملة التي رتّبت أصلاً لمناوأة تروتسكي وتصفية المعارضة قد حققت أهدافها الدعائية.

لكنّ هيئة المحكمة اعتمدت تلك التهم غير المعقولة، وأقرّت، ومن دون تقديم أيّ دليل، أحكام الإعدام بحق زينوفييف وكامينيف وسميرنوف وإيفدوكيموف ومراجكوفسكي وباكاييف وسبعة متهمين آخرين من بينهم الجندي دريتسر، الذي رافق لييف دافيدوفيتش في خروجه من آلماتا وسمح له بأخذ أوراق منفاه معه (هل كانت تلك هي جريمته؟). في قرارات الحكم استمع لييف دافيدوفيتش أيضاً إلى الحكم الذي كان ينتظره: إنّه، مع ولده ليوفا، مذنبان بالتحضير والقيادة المباشرة لأعمال إرهابية في الاتحاد السوفييتي- بصفتهما عميلين مأجورين للرأسمالية أولاً وللفاشية ثانياً- وأنّهما معرّضان، في حال العثور عليهما داخل الأراضي السوفييتية، للاعتقال الفوري وتقديمهما للمحاكمة أمام الفرع العسكري من المحكمة العليا.

حين سمع لييف دافيدوفيتش تلك الأحكام تُتلى، شعر بحزن كبير. حزن على مصير الثورة، فقد كان يعلم أنّه، في قاعة الأعمدة في بيت النقابات في موسكو، وتحت شعار «المحكمة البروليتارية هي حامية الثورة»، اجتاز آخر الحدود. صدّق الكثيرون من البسطاء والمتحمسين، داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وخارجه، شيئاً مما قيل في أثناء المحاكمة. لكنّ الأشخاص الذين يمتلكون أدنى قدر من الذكاء سيعترفون بأنّ كلّ كلمة قيلت هناك ملفقة وبأن تلك الكذبة سوّغت لقتل ثلاثة عشر ثوريّاً. وستظلّ محاكمة أولئك الشيوعيين وإعدامهم، على مدى الدهر، مثالاً فريداً في تأريخ الظلم المنظم وحدثاً لا سابقة له في تاريخ المصداقية. ستعني اغتيال الإيمان الحقيقي واحتضار المثالية. وستمهّد أيضاً، والمنفي يعلم ذلك تمام العلم، للتهمة الموجهة لإزالة أكبر عدوّ للشعب، الخائن الإرهابي لييف دافيدوفيتش تروتسكي.

-11-

ستظلّ أسابيع آذار ونيسان من عام 1937 الربيعيّة المشوّشة تلك، في ذهن رامون ميركادير، صورة غامضة معتمة، اضطربت فيها منظوراته، قبل أن يخرج منها فجأة بوضوح ما بعده وضوح: إنّها قناعته الراسخة بأنّ القسوة ضرورية لبلوغ النصر.

بعد أن اختفت أفريكا اختفى كوتوف (هل كانا متفقين؟). لكنّ كوتوف ترك لرامون، قبل أن يختفي، أوامر بالإقامة في قصر الماركيز دي بيّوتا، فقد يطلبه، في أيّة لحظة، زميل له سيعرّف نفسه باسم ماكسيموس. ألزمه شعوره العالي بالمسؤولية بالبقاء في الانتظار، وأنفق أوقات فراغه في مرافقة الشاب لويس، الذي اعتاد أن يلعب معه كرة القدم، وفي منح الشابة صاحبة العينين الحزينتين، لينا إمبرت، شيئاً من المتعة، كلّما وجد إلى ذلك سبيلاً، بعد أن يختلي بها في إسطبل القصر، حيث وضع مدفأة وسريراً. في الأيام الأولى، راقت له تلك الفسحة من الوقت، بعد أربعة أشهر أمضاها في الجبهة بين توتر وجوع وأرق، لكنّه سرعان ما شعر بأنّه أسير الكسل والركود، وتساءل إن كانت كاريداد قد استخدمت نفوذها وعلاقاتها، بعد مقتل ولدها الشاب بابلو، لإبعاده عن خطر الحرب والعودة به إلى برشلونه، التي لم تكن تشهد، على الرغم من تنبؤات كوتوف، غير إطلاق الشتائم وغير الشعارات المتوترة والدسائس المبطّنة والاجتماعات السرية، وقد تقع عملية إعدام، من تلك السريعة المفضلة، هنا أو هناك، والتي يبدو أن المتطرفين، من جمهوريين أو فاشيين، كانوا مولعين بها.

لم يكن رامون قادراً، من معزله، على فهم الأحداث المتسارعة. كانت صحف مختلف الأجنحة الجمهورية تصل إليه وقد عملت فيها يدُ الرقيب البدائي قصّاً وتقطيعاً، فقد كانت الرقابة ترفع النص المحظور وتترك الفراغات التي كان يشغلها بيضاً. أمّا الصحف الشيوعيّة، المعفيّة أصلاً من رقابة الحزب، التي كان يمارسها على بقية الصحف، فقد كانت خلوّاً من حفلة البتر والقطع تلك، وكانت افتتاحياتها، بغضّ النظر عن غطرستها الفجّة، تسمح لرامون بقياس حرارة الاتهامات التي تزداد ضراوة وشدة على الفاشيين التروتسكيين، من أتباع حزب العمال الماركسي الموحد POUM والنقابيين المنفلتين من عناصر الاتحاد الوطني للشغلCNT والفوضويين غير المنضبطين من عناصر الاتحاد الفوضوي الإيبيري FAI، الذين لن يترددوا في سحب كتائبهم من الجبهة لأيّ خلاف يقع مع الآخرين. أمّا المؤشر لديه فهو تصاعد حدّة الانتقادات الموجهة إلى الفتور العسكري والتنظيمي لرئيس الحكومة ووزير الحرب، لارغو كاباييرو [59]، ولرجال ثقته. كانت تلك الحملة القوية، التي تمتزج فيها الحقائق بالأكاذيب، تؤكد له كلام كوتوف من أنّ المواجهة مع قطعان المتخاذلين والمتطرفين باتت وشيكة.

تعرضت كاريداد، التي لم يرها طوال أسبوعين، لانتكاسة بسبب نوبة الذبحة الصدرية التي أبقت عليها في الفراش يومين، لقد تشنجت ذراعها اليسرى وأقضّ ذلك الألم الحاد في صدرها مضجعها. حين استطاعت النزول إلى حديقة المنزل الخربة، بحث رامون عن طريقة لإبعاد لينا الملتصقة به والبقاء وحده معها. لقد أمضى أياماً كثيرة من دون أيّ نشاط، وهو الآن يشعر بأنّ أمّه وكوتوف قد خدعاه، فتجرأ على إطلاق تحذير أخير:

- سأعود إلى الجبهة في ظرف ثلاثة أيام - قال، واكتفت كاريداد بتحريك رأسها- . كلّ كلامكم عن الصمت وعن المسؤولية هو للإبقاء عليَّ هنا تحت السيطرة.

أخرجت كاريداد من جيب معطفها علبة السجائر، فلا شكّ أنّ مجاهدتها لنفسها كانت شديدة.

- هذا سيقتلك - قال لها محذراً حين رآها تخرج واحدة.

- كلّ ما أريده، حين أشعر هكذا، هو أن أموت - قالت ثمّ راحت تسحق السيجارة بأصابعها وتحمل المسحوق إلى أنفها لتشمه. ثمّ رمت بالعقب المسحوق إلى الأرض ووضعت آخر بين شفتيها، من دون أن تشعله-. لا تنظر إليّ هكذا، ولا تحمّلني وزر شعورك بالشفقة، فأنا لا أطيق ذلك. أكره جسمي حين لا يستجيب لي. ولا تعد للحديث عن هذه السخافة في العودة إلى الجبهة... هنا تحدث أشياء لا تتصورها وسيحين وقتك بأسرع مما تتصوّر. لكن، كلّ شيء في أوانه، رامون، كلّ شيء في أوانه.

- لقد حفظتُ قصّة الوقت، كاريداد.

ابتسمت، لكنّ ألم الذراع جمّد فرحتها. انتظرت لثوان أن يتراجع التشنّج الحارق.

- قصّة؟ اسمع... هل صدقتَ قصّة أنّ بوينابنتورا دورّوتي قتلته رصاصة تائهة؟[78]

نظر رامون إلى أمّه وأحسّ بأنّه غير قادر على التلفظ بكلمة.

- أنتَ تعتقد أنّ في إمكاننا أن نكسب حرباً يقودها زعيم فوضوي له سمعة تفوق ما لجميع القادة الشيوعيين؟

- دورّوتي كان يقاتل من أجل الجمهورية - حاول أن يستنتج.

- دورّوتي كان فوضويّاً، وسيظل فوضويّاً طوال حياته. هل سمعت بقصّة المترجم الذي اختفى، المدعو روبلِس؟

- كان جاسوساً، أليس كذلك؟

- كان لاعقَ أحذية بائساً. كان كبش فداء في نزاع داخلي بين المستشارين العسكريين والأمنيين. لكنّهم لم يختاروه بالصدفة: روبلِس

78- Buenaventura Durruti (1896-1936). زعيم نقابي فوضوي إسباني. قتل في بداية الحرب الأهلية الإسبانية وهو يقود فوجاً يحمل اسمه للقتال في صفّ الجمهوريين.

هذا كان يعرف الكثير من الأمور، وكان يمكن أن يكون خطيراً. لم يكن خائناً: بل جعلوه خائناً.

- تقصدين أنّهم قتلوه من دون أن يكون خائناً؟

- نعم، وماذا؟ هل تعرف كم أعدموا من هذا الطرف أو من ذاك في شهور الحرب هذه؟ - انتظرت كاريداد ردّ رامون على سؤالها.

- الكثيرين، أعتقد.

- مئة ألف تقريباً. الفاشيون يعدمون أثناء تقدمهم كلّ من يعدونه متعاطفاً مع الجبهة الشعبية، بينما يقتل الفوضويون كلّ من يرون أنّه عدوّ برجوازي. وهل تعرف لماذا؟

- إنّها الحرب -هذا ما خطر على باله أن يقوله-. الفاشيون هم الذين أرسوا قواعد هذه اللعبة...

- إنّها الحاجة. حاجة الفاشيين إلى ألّا يظلّ لهم أعداء في خطوطهم الخلفيّة، وحاجة الفوضويين إلى أن يظلوا فوضويين. ونحن لا نستطيع أن نجعل الحرب تفلت من أيدينا. نحن أيضاً قتلنا أناساً وسنضطر إلى قتل المزيد والمزيد، وأنتَ...

رفع رامون يده ليقاطعها.

- أتيتم بي إلى هنا لكي أقتل الناس؟

- وماذا كنتَ تفعل في الجبهة؟

- الأمر مختلف، في الجبهة هناك حرب.

- يا لأسطوانة الحرب اللعينة... أليس التمكّن من أن يفرض الحزب سياسته ويواصل السوفييت دعمهم لنا هو ما يهمّنا لكسب هذه الحرب؟ أليست الحرب هي أن ننظف خطوطنا الخلفية من الأعداء والجواسيس؟ أليس التخلّص من الطابور الخامس في مدريد هو جزء من الحرب؟

- في باراكويّوس[79] أعدموا أشخاصاً لم تكن لهم علاقة بالطابور الخامس، وأنا أعلم أنّ بعض الحزبيين كانوا متورطين في ذلك.

- ومن يثبت أنّ القتلى لم يكونوا مخربين، أنتَ أم الكتائب؟[80]

خفض رامون رأسه واحتوى غضبه. في جبال «غواداراما»، مع بندقيته بيده وحفنة من رفاقه، حيث الموت برداً والارتعاش جوعاً، بينما الأعداء رابضون في الطرف الآخر من الجبل، كان كلّ شيء أبسط.

- هذه الحرب التي ستخوضها أهمّ، لأنّنا إن لم نكسبها، فلن نكسب الحرب الأخرى، وسيسقط الرفاق الذين يحاربون في الخنادق كالذباب حين تتوقف الطائرات والمدافع والبنادق والقنابل اليدوية عن الوصول من موسكو. رامون، مصير إسبانيا سيكون في أيدي أشخاص مثلك أنتَ... ولكي تكون لديك فكرة عمّا يحدث، ستأتي معي هذه الليلة إلى «لابيدريرا». هناك اجتماع مهم... لا حاجة بي إلى أن أقول لك إنّ كلّ ما سيقال هناك هو سرّ. هناك لا تستطيع أن تتكلم ولا أن تقول ما اسمك، هل هذا واضح؟

- هل ستكون أفريكا هناك أيضاً؟

- لمَ لا تنسى هذه المرأة قليلاً يا رامون؟

دخل رامون بوابة مقرّ المستشارين في تلك الليلة من دون أن يوقفه الحرّاس، فقد كان يحتمي بظلّ كاريداد. في واحد من صالونات الطابق الأعلى، راح عدد من الرجال، مغمورين في عمود من الدخان، يتناقشون. لم يأبهوا بوصول كاريداد والشاب الذي يرافقها. شعر رامون بخيبة أمل

79- Paracuellos منطقة قريبة من مدريد، شهدت في الأشهر الأولى من الحرب الأهلية الإسبانية سلسلة من الإعدامات الجماعية واتّهم أنصار الجمهورية من اليساريين بارتكابها وراح ضحيتها ما يقرب من ألفي شخص محسوبين على معارضيهم.

80- الكتائب الإسبانية منظمة شبه عسكرية ذات توجه فاشي أسسها على النمط الإيطالي خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا (1903-1936) ومارست أعمال العنف والقتل إبّان الجمهورية الثانية وأثناء الحرب الأهليّة الإسبانية.

إذ لم يرَ أفريكا، ولم يتعرّف إلّا على شخص واحد من بين الموجودين: دولورِس إيباروري [46]، وربّما كانت الوحيدة التي لم تكن تدخن في تلك اللحظة. كان هناك أيضاً رجل ذو مظهر سلافي، عرف في ما بعد أنّه الرفيق بيدرو، الهنغاري الذي يقود المبعوثين من الكومنترن. مع ذلك فقد تركّز اهتمامه في شخص مرتفع الصوت ومشعر وعظيم الجسم وكبير الرأس، عينان كرويتان وشفتان مكتنزتان تصدر صوتاً حين تفترقان وهو يتكلّم. وخمّن، بالنظر إلى طريقة كلامه مع الآخرين، أنّه رجل ساخط عصبيّ، ويبدو، مما كان يقوله، أنّه من أولئك الذين يرون في الجميع خونة، ويعدّون التقصير وعدم الكفاءة مؤامرات دنيئة وأعمال تخريب معادية. همست كاريداد في أذنه لتقول له إنّ الرجل هو أندريه مارتي[81]، وفهم رامون في الحال أنّه في حضرة شيء مهم: لو أنّ مارتي عُزل، في تلك اللحظة من الحرب، عن مركزه في قيادة الألوية الدوليّة، لكان بسبب وزنه. كان رامون قد علم، عن طريق أخته مونتسي، التي عملت مع مارتي سكرتيرة لأسابيع، أنّ للرجل سمعة رجل قاسٍ ومستبدّ، وقد تأكّدت له في تلك الليلة رشقات المدفعية التي كان يطلقها مزينة بالشتائم. فقد راح يتهم قادة الحزب بالضعف وعدم الكفاءة، فاللجنة المركزية، بحسب قوله، غير موجودة، وعمل المكتب السياسي بدائي ومتخاذل تماماً: على الإسبان، قال، وهو يشير إلى دولورِس إيباروري، أن ينضجوا تماماً، وألّا يسمحوا لكودوفيّا[82]، أن يتصرّف وكأنّ الحزب إقطاعة له، لمجرد أنّه مبعوث من الكومنترن. عليهم أن يخجلوا من أن يحرّكهم كالدمى – نظر

81- André Marti (1886-1956). ضابط بحرية فرنسي ومن قادة الحزب الشيوعي الفرنسي. شغل منصب المفتش العام في الألوية الدولية، وهي مجموعات المتطوعين اليسارية التي وصلت إلى إسبانيا من شتّى أنحاء العالم لتقاتل في صفوف أنصار الجمهوريّة في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية بين عامي 1936 و 1939.

82- Victorio Codovilla (1894-1970). زعيم شيوعي من أصل أرجنتيني. شغل منصب المنسق بين الشيوعية الأممية (الكومنترن) والحزب الشيوعي الإسباني في بداية الحرب الأهلية الإسبانية.

مجدداً إلى باسيوناريا، التي خفضت نظرها كالكلب المضروب- ويصل إلى حدّ أن يكتب خطابات الأمين العام بيبي دياث والرفيقة دولورس إيباروري بيده ليوهم الناس بوجود قيادة للشيوعيين الإسبان، وهي في الواقع لا وجود لها ولا قرار. ما عاد الوضع يحتمل التردد: فإمّا أن يهبّوا هبّة قويّة أو أن ينسوا أنّ هناك أدنى إمكانية للنجاح.

لم يستمع رامون، المساء، إلّا إلى جزء من نتائج اللقاء: بحسب بيدرو فإنّ على الحزب أن يصعّد حملته على الأسلوب الذي تدير به الحكومة المسألة العسكرية والسياسة الداخلية، وأن يطالب بالمزيد من عمليات التطهير في القيادة العسكرية وأن يكون، على نحو خاص، مهيأً للشروع في هجوم على المخربين. على الشيوعيين أن يضمنوا النجاح لعملية تؤمّن لهم السيطرة على جبهة داخليّة نظيفة من التروتسكيين والفوضويين، لأنّ القيادة السوفييتية تنتظر أن يحسن الإسبان هذه المرّة أداءهم.

- إمّا الآن أو أبداً - أكّد بيدرو، بينما خرج رامون، من دون أن ينتظر كاريداد، طلباً للهواء النقي في الشارع، الخالي في تلك الساعات من الليل.

عقب يومين حضر ماكسيموس إلى بيت جادة «بونانوفا». لقد أسهمتْ كلّ ساعة من الساعات التي مرّت بين ذلك الاجتماع ووصول مبعوث كوتوف، الذي سيرسم أخيراً خط تحرّك رامون، في تثبيت فكرة واحدة في ذهن الشاب: المستشارون محقون في ما طالبوا به وذهبوا إليه، فلا بدّ من زعزعة أسس التحالف الجمهوري. وهو، على الأقل، مستعد للاندفاع بكلّ عزيمة في تلك المهمّة، لإثبات أنّ المناضل الإسباني لا يتوقف عند الطاعة، بل إنّه يفكّر ويتصرّف، فإنّ من المهين لكبريائه الشيوعي أن يستمع، وهو ساكت، إلى متشدق، له وجه مجنون، وهو يصف الإسبان بأنّهم ثوريون من دون مبادرات، وأن يطرح حقيقة ما هم عليه أمامهم، وعلى أرضهم، وعن حربهم. لا بدّ من التحرّك.

تبيّن لرامون أنّ ماكسيموس - الذي خمّن، بعد أسابيع من العمل، أنّه هنغاري الأصل- متخصص في الحرب السريّة وزعزعة الاستقرار.

والتحق رامون، بأوامر منه، إلى خليّة مؤلفة من ستة أشخاص (من تلك المسماة بـ «المجموعات المتخصصة»)، وجميعهم من الإسبان، وبدا أنّ ماكسيموس هو الوحيد المطلع على هوياتهم الحقيقية، وقد ميّزهم، انطلاقاً من إعجابه المفترض بالعالم الروماني، بأسماء لشخصيات لاتينيّة - غراكو وقيصر وماريو- وكان يصفهم بحرس الإمبراطور. ومن وقتها صار رامون يدعى «أدريانو». كان الاسم الأول من بين أسماء كثيرة سيستعملها، وقد أحسّ بالفخر إذ منحوه اسماً جديداً، وهو بعدُ لا يملك أدنى فكرة عن السنوات التي سيعيشها، ليس بأسماء أخرى، بل بجلود أخرى.

***

لا شكّ في أنّ أدريانو استاء إذ كلّفوه بمهمّة مسالمة سهلة كالاقتراب من مقرات حزب العمال الماركسي الموحد ومراقبة تحركات زعمائه، وخصوصاً أندريس نين [56]. ومع أنّ ماكسيموس أخضع الجميع إلى تصنيف معلوماتي معقد، بحيث إن أدريانو لا يعرف تفاصيل المهمات الموكلة إلى حرس الإمبراطور الآخرين، فقد تمكن هذا، بفضل ثرثرة مواطنيه، من معرفة أنّ بعضهم يشاركون في أعمال عنيفة وخطيرة، وهو ما كانت تؤكده حالات الاختفاء الغامضة والنهائية، في بعض الحالات، لبعض الخصوم السياسيين غير المشهورين والمزعجين، ممن كانت الحاجة تستدعي إخراجهم من اللعب قبل أن يبلغ اللعب مرحلته الخطيرة التي سيعلن بيدرو عنها. لذلك، بدا له أمراً ضئيلاً أن يقتصر دوره على التجوال في ميدان «لاس رامبلاس» والدخول في الفنادق، حيث يقيم بعض أعضاء حزب العمال الماركسي الموحد والمتعاطفين معه، والتعرّف على تفاصيل النشاطات اليومية لرؤوس الحزب التروتسكي، ورأى في ذلك استهانة بقدراته، وإن لم يداخله شكّ في أنّ ما يفعله سيكون له مردوده المهم في الأعمال القادمة، وأنّ حسن أدائه ومهارته المتعددة، التي لاحظها ماكسيموس فيه، ستكون الضمانة لطريقه المتميّز.

وسرعان ما تبيّن لأدريانو أنّ من مصلحة القضيّة أن يموت أندريس نين. قبل أن تبدأ الحرب وتستعر الخصومات السياسيّة بين الجمهوريين، كان «نين» المرتدُ الخائن عدوّاً لدوداً للشيوعيين، وكان أوّل من وصف محاكمات موسكو، التي جرت عام 1936 وبداية ذلك العام، بالجرائم، (مردداً كلمات تروتسكي)، ووصف «أصدقاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية»، الذين دافعوا عن شرعية تلك المحاكمات ونزاهتها بالمتواطئين في الجريمة. وكان أيضاً من الذين دافعوا بحرارة عن فكرة ضرورة الثورة جنباً إلى جنب مع الحرب، وعن نظرية الكفاح الشامل ضد الجمهورية البرجوازيّة (التي يدعمها من يصفهم «نين» بالمتخاذلين الشيوعيين، على الرغم من تعارضها مع البروليتاريا)، وجاهر بخلافه مع المساعدات السوفييتيّة، وكأنّ الحكومة قادرة على الصمود من دونها. لكنّ ما أشّر ميوله بوضوح كانت مطالبته، بصفته مستشاراً في حكومة كاتالونيا المحلية، ومن موقعه في زعامة حزب العمال الماركسي الموحد، بأن تمنح الجمهورية لجوءاً للخائن تروتسكي، بعد أن تأكدت خيانته في محاكمات موسكو. ومع أنّ الرئيس الكاتلاني كومبانيز وجد نفسه مضطرّاً لإبعاد «نين» عن حكومته، فإنّ غطرسة التروتسكي بلغت به حد التصريح علناً بأنّهم إن أرادوا إزاحة أنصار حزبه عن الكفاح السياسي فعليهم أن يقضوا عليهم جميعاً. وربّما وجد أدريانو أن من الأفضل تلبية رغبته، هو على الأقل، ولمرة واحدة وإلى الأبد.

اختار أدريانو فندق «الكونتيننتال» واحدة من محطاته المعتادة. وعلى الرغم من الشحّة التي كانت تعصف بالمدينة، فقد كان ممكناً بعدُ تناول قهوة جيدة وشراء علبة سجائر فرنسيّة. كان العديد من أعضاء حزب العمال الماركسي الموحد ينزلون في ذلك الفندق وفي فندق «فالكون» الآخر القريب، وقد خمّن أدريانو أنّ وجوده في تلك الأماكن، إن هو حاذر واحتاط، يمكن أن يصبح مألوفاً ولا يثير ريبة ولا ارتياباً.

ثمّ إنّ العملاء السريين الذين يتجولون في البناية هم من الكثرة ألّا يثير حضوره انتباههم، أو أن يروا فيه، إن انتبهوا إليه، فضوليّاً من الفضوليين، ليس غير.

رفع أدريانو تقارير دورية إلى ماكسيموس، ووصل كلاهما إلى استنتاج مفاده أنّ العماليين الماركسيين مرعوبون من تصاعد نبرة الصحافة الشيوعيّة، لكن ليس أمام قادتهم إمكانية للتراجع، ولا هم يدركون خطورة الهاوية التي يسيرون نحوها. من بين ضيوف الفندق وزواره ممن استطاع محادثتهم عرضاً، كان صحفي إنكليزي، انضمّ إلى ميليشيا العماليين الماركسيين، وهو الذي حكى له أنّ شيئاً خطيراً سيقع في الأيام القادمة في برشلونه: كان ممكناً ملاحظة ذلك في التوتر المخيّم على الأجواء. كان ذلك الصحفي- المليشياوي، الذي أخلي من جبهة «ويسكا»[83] بعد أن أصيب بجرح، رجلًا طويلًا، بالغ النحافة، وله وجه حصان، غلب على بشرته لون ينمّ عن مرض بدا وكأنّه يبري جسده. كان يسير دائماً برفقة زوجه القميئة الصغيرة، متطلعاً إلى جميع الاتجاهات، وكأنّه يتوجس شرّاً يكمن له وراء عمود. قدّم أدريانو نفسه له باسمه الحركي الجديد، فقال له الإنكليزي إنّه يدعى جورج أورويل[84] واعترف له بأنّ الخوف الذي يشعر به، وهو في فندق من فنادق برشلونه، يفوق ذاك الذي كان يشعر به في خندق من خنادق «ويسكا» المتجمدة.

- أترى ذلك البدين الذي ينفرد بالأجانب في زاوية ويشرح لهم أنّ كلّ ما يحدث هنا هو مؤامرة تروتسكية- فوضوية؟ - سأله أورويل، نظر أدريانو خلسة إلى الشخص المعني-. إنّه عميل روسي... هذه هي

83- Huesca. إحدى محافظات إقليم أراغون الكائن في الزاوية الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الإيبيريّة.

84- George Orwell (1903-1950). صحفي وأديب وكاتب إنكليزي. عرف بميوله المناهضة للإمبريالية البريطانية ونزوعه نحو الاشتراكية الديموقراطية. اشتهر برواياته التي تنتقد الأنظمة الشمولية، وكانت أشهرها رواية (مزرعة الحيوانات). شارك في الحرب الأهلية الإسبانية انطلاقاً من معاداته للفاشيّة.

المرة الأولى التي أرى فيها شخصاً وظيفته إطلاق الأكاذيب على الملأ، باستثناء الصحفيين والسياسيين، طبعاً.

مرّت سنوات كثيرة قبل أن يعرف رامون هوية ذلك الرجل. لم يكن أحدٌ، في عام 1937، يعرف من هو جورج أورويل. لكنّه، حين طالع بعض الكتب التي تتحدث عمّا وقع في برشلونه، ورأى صورة جون دوس باسوس[85]، تذكّر أنّه، قبل أيام من انفجار الوضع، كان قد شاهد أورويل يتحدث مع دوس باسوس في كافيتريا الفندق. مع ذلك، لم يتطرّق رامون وأورويل، أثناء تلك اللقاءات، إلى الحديث عن السياسة، بل اعتادا الحديث عن الكلاب. فقد كان الإنكليزي وزوجه يحبان الكلاب وكان لديهما في إنكلترا واحد من نوع «البورزوي»، ومن أورويل سمع رامون قوله إنّ ذلك النوع من الكلاب هو أكثر كلاب الصيد رشاقة وجمالاً في الأرض.

أمّا أكثر ما راق لرامون في تلك المهمة فكان شعوره بأنّ الجلد الذي يخفيه والشخصيّة التي يتموّه بها يسمحان له، من دون أن يفكر ولا أن يقلق، بأن يسلك سلوك أدريانو اللامبالي البسيط. لقد اكتشف أن استعمال اسم آخر، واللبس بطريقة مختلفة عن تلك التي عدّها أقرب إلى ذوقه، وتكلّفَ حياة سابقة محكومة بخيبة الأمل في السياسة والرفض للسياسيين، أحاسيسُ صار يستمتع بها في سرّه. وهكذا راح، مع كلّ يوم يمرّ، يحسّ بأنّه أقرب إلى أدريانو... بأنّ ما فيه من أدريانو في نموّ وازدياد، بل لقد وصل به الأمر أن صار في مقدوره رؤية رامون وقد ابتعد شيئاً عنه. واكتشف، وهو سعيد باكتشافه، أنّه، من دون أفريكا بقربه وفي متناوله، قادر على أن يستغني عن أسرته. ثمّ إنّه، وعلى الرغم من روحه التي تنزع إلى حياة القطيع والتحزب، كان صفراً من الأصدقاء. وهكذا أصبحت القِبلة الوحيدة التي يتوجّه إليها هي مسؤوليته، التي يحاول أداءها على

85- John Dos Passaos (1896-1970). صحفي وروائي أمريكي ذو ميول اشتراكية. زار إسبانيا إبّان عهد الجمهورية وارتبط بصداقة مع الروائي الأمريكي أيضاً أرنست همنغواي.

أتمّ وجه، ولذلك فقد رأى في التهنئة التي تلقاها، يوم سلّم ماكسيموس خلاصة تحركات زعماء حزب العمال الماركسي الموحد والأماكن التي يترددون عليها وأهواءهم الشخصيّة، مفصّلاً الكلام عن أندريس نين، تهنئة لأدريانو، ومن بعيد، لرامون ميركادير، الذي أعاره جسده.

***

بدا كوتوف مثل تمثال متروك على دكّة في ميدان «كاتالونيا». الربيع في أوجه والمدينة تستحم بأشعّة الشمس الدافئة. كان المستشار، وقد رفع قليلاً وجهه، يتلقّى الحرارة مثل سحلية تستمتع بأشعّة الشمس، التي تبعث فيها الحيوية والنشاط. كان قد خلع حتى سترته والمنديل المطبوع الذي اعتاد ربطه حول رقبته، وظلّ بلا حركة، حتّى بعد ثوان من وصول رامون وجلوسه إلى جانبه.

– ما أروع هذا البلد! – قال أخيراً وابتسم–. لو خيّرتُ لاخترتُ أن أمضي حياتي كلّها هنا.

– على الرغم من أننا إسبان؟

– بل بالذات بسببكم. فالناس في البلد الذي أتيت منه هم كالأحجار، أمّا أنتم فزهور. في بلدي تنبعث رائحة أسماك الرنجة اليابسة وحشيشة الدينار، أمّا هنا فتضوع رائحة زيت الزيتون والنبيذ...

– لكنّ زملاءك يقولون إننا بدائيون وشبه أغبياء.

– لا تلتفت إلى ما يقوله هؤلاء المجانين. هم يخلطون الأيديولوجية بالتصوّف، وما هم إلّا مكائن تسير على قدمين، بل هم متعصبون. هنا يبدون أشداء صلبين قساة، لكن عليك أن تراهم حين يُستدعون إلى موسكو... تبّاً. إنّهم يتغوطون على أنفسهم. لا تنظر إليهم على أنّهم المثال والقدوة، ولا تتطلع إلى أن تصبح مثلهم. أنتَ تستطيع أن تكون أكثر منهم بكثير.

– ماذا قال لك ماكسيموس عنّي؟

– إنّه راضٍ عنك وأنتَ تعلم ذلك. لكنّك ستتخلى اليوم عن دور

أدريانو وستعود إلى أن تكون رامون، وسوف تعمل معي هذه الأيام إلى أن يتقرر أمر آخر. ما عاد لأدريانو وجود، وماكسيموس لم يكن له وجود قط، هل هذا مفهوم؟

هزّ رامون رأسه موافقاً ونزع تلفيعته بعد أن صعدت الحرارة عليه من صدره.

- استمتع بوقتك، أيّها الفتى، واملأ صدرك من هذا السلام! استثمر كلّ لحظة هدوء. النضال صعب ولن نحظى بالكثير من اللحظات كهذه... هل ترى الهدوء؟ هل تحسّ به؟

ظنّ رامون أنّ محدّثه يطرح عليه سؤالاً بلاغيّاً، لا يستدعي منه جواباً ولا ردّاً، لكنّ كوتوف عاود طرح السؤال، فاضطر إلى التطلّع من حوله والردّ.

- نعم، بالطبع، أحسّ به.

- وهل ترى تلك البناية المقابلة هناك؟

- دائرة الاتصالات الهاتفية؟ كيف لا...؟

قطعت ضحكة كوتوف كلامه. خفض المستشار وجهه وتطلّع للمرة الأولى إلى رامون. كان خدّاه يلمعان وكانت عيناه الشفافتان شبه مغمضتين، تجنباً لشدة الضياء.

- إنّها وكر لأفراد من الطابور الخامس. إنّهم يعدّون العدة للانقلاب على الحكومة المركزية - قال كوتوف، بينما رفع رامون درجة انتباه خلاياه العصبية ليتمكن من الإمساك بخيط أفكار المستشار-. علينا أن نبيدهم قبل أن ينفذوا خطتهم. علينا أن نبيدهم، كما تباد الصراصر، وكما يباد الأعداء من أمثالهم... إننا نخسر الحرب، رامون. ما فعله الفاشيون في غيرنيكا[86] لم يكن جريمة: كان تحذيراً. لا مكان للرحمة... يبدو أنّكم

86- Guernica يشير إلى القصف الجوي المدمر الذي شنّته عشرات الطائرات الألمانية والإيطالية على هذه البلدة الإسبانية الباسكيّة الصغيرة في نيسان من عام 1937 أثناء الحرب الأهلية دعماً لقوات حليفهم فرانكو. وقد خلّد الرسام الإسباني بيكاسو تلك الواقعة في لوحة شهيرة تحمل اسم البلدة ذاتها.

لا تفهمون ذلك... يظنّ هؤلاء الفوضويون أنّ مبنى الاتصالات ملكاً لهم، لأنّهم، حين ثار العسكر، دخلوا هناك وقالوا: هذه لنا. ولم تستطع الحكومة الضعيفة طردهم... وحين قصفت غرنيكا، وصل بهم الأمر أنّهم لم يعطوا رئيس الجمهورية خطّاً تلفونيّاً- عاود كوتوف الابتسام وكأنّه استطرف تلك القصة-. بعد أيام، لن يبقى من هذا السلام شيء.

- ماذا سنفعل؟

التزم كوتوف الصمت برهة لإثارة فضول رامون وتشويقه.

- ما زال الفاشيون يكسبون الأرض، وما زال القزم فرانكو يتمتع بتأييد جميع أحزاب اليمين، بينما الجمهوريون مشغولون بقلع عيون بعضهم البعض، فكلّ فريق منهم يريد أن يكون هو الزعيم... لا، لا وقت للمزيد من التفكير. إن نفّذ هؤلاء العملاء انقلابهم، فلكم أن تنسوا شيئاً اسمه إسبانيا... لا بدّ أن نقوم بعمل حاسم، أيّها الفتى. أنتظرك اليوم الساعة الثامنة عند ميدان الجامعة.

ربط كوتوف المنديل على عنقه وأخذ سترته. أدرك رامون أنّ ليس في مقدوره أن يسأله عن شيء، فقد رآه يبتعد، وكان عرجه هذه المرة بادي الوضوح. رأى، وهو على الدكّة، عدداً من أكياس الرمل مطروحة على بعد أمتار قليلة من بداية جادة «لاس رامبلاس»، وقد كانت في وقت من الأوقات متاريس قتال. ورأى الناس لاهين أو مستعجلين يتمشون، وهم يرتدون ملابس مدنية أو بدلات عسكرية يحاول كلّ جناح أن يميّز أتباعه بها. أحسّ رامون بأنّه متميّز: فقد كان واحداً من المطلعين على بواطن الأمور وسط جمهور من الدمى.

اتخذ رامون، قبل الثامنة بخمس عشرة دقيقة، مكانه على إحدى دكّات ميدان الجامعة. شاهد عدداً من الشاحنات وهي تقطع جادة «غران بيّا»، متجهة إلى محطة «سانتس»، وكانت تغصّ بالمتطوعين من مليشيات فوضويّي الاتحاد الوطني للشغل، وهم يحملون أعلامهم المرفرفة. خمّن أنّهم سيخرجون في ليلتهم تلك إلى الجبهة، وبدأ يفهم خطة كوتوف وقيادة

المستشارين العليا. عقب نصف ساعة، حين بدأت اللهفة تنهشه، أحسّ ببرودة في معدته. من الطرف الآخر من الجادة رأى قادماً مقبلاً عليه: وما كان لصورة القادم أن تختلط عليه ولو اندسّ بين ملايين سكان الأرض.

اقتربت أفريكا منه فأحسّ رامون بأنّه يفقد السيطرة التي ظنّ أنّه يمتلكها. تقدم صوب حافة الشارع وعانقها بحرارة.

- ولكن أين هو الخراء...؟

- هيّا. إنّهم ينتظروننا.

قطع برود أفريكا لهفته من جذورها، فشعر بأنّ شيئاً قد تغيّر. راحا يتقدمان صوب السوق بينما حكتْ له هي أنّها كانت في بلنسية، حيث تتخذ الحكومة الآن مقرّها، وأنّها حضرت بناءً على استدعاء من بيدرو ومن أورلوف، وهو رئيس مستشاري المخابرات، الذي نقل مركز قيادته إلى برشلونه. قالت إن لا أخبار جديدة لديها عن لينينا، وإنّها تفترض أنّ البنت مع جديها، اللذين ما زالا في جبال «البوخارّاس». ثمّ أغلقت الموضوع. حين باتا قريبين من السوق دخلا إلى أحد المباني وصعدا إلى الطابق الثالث منه. فُتح لهما الباب من دون أن يطرقاه، وفي الغرفة التي تقوم مقام الصالون، رأى رامون كوتوف وخمسة رجال آخرين لم يتعرّف من بينهم إلّا على غراكو. ظلّ اثنان منهم واقفين، بينما جلس كوتوف والآخرون على صناديق. لم يسلّم أيٌّ منهم.

كان كوتوف دقيقاً واضحاً: مهمتهم هي القبض على رجل، لا يعرف حتى هو ما اسمه، لكنّه يعرف أنّه فوضوي يجب إزاحته من الطريق. سيخرج الرجل في حدود العاشرة من بار يقع على بعد مزبعين سكنيين من هنا، وسيميزونه من تلفيعته الحمراء والسوداء. «أنتَ وأنتَ»، أشار إلى رامون وإلى رجل أسمر، تجاوز الثلاثين، يبدو عليه أنّه أندلسي، «ترتديان بدلة الشرطة الكتالانية، تعتقلانه وتحملانه إلى سيارة ستدلكما هي، أشار إلى أفريكا، عليها.» الثلاثة الآخرون سيقدمون الدعم، في حال حدوث أيّة مشكلة. شدّد كوتوف على أن يجري كلّ شيء وكأنه اعتقال

روتيني، من دون إطلاق نار ولا فضائح. سيتكفّل ركاب السيارة بحمل الرجل إلى مكانه. بعد ذلك يتفرق الجميع وينتظرون أن يستدعيهم هو أو من يبعث هو به.

ملأ جوّ الغموض والسريّة رامون بالنشوة. نظر إلى أفريكا وابتسم لها، وبينما كانا يرتديان ملابس الشرطة الكتالانية، أحسّ بحجم الخدمة التي يقدمها للقضيّة. كانت تلك المهمة بداية انخراطه في عالم الأعضاء المبتدئين الحقيقيين، أمّا العمل مع أفريكا فقد كان جائزة لم يكن ينتظرها. لن يتذكر إن كان شعر بالتوتر: لكنّه سيتذكر الإحساس بالمسؤولية الذي غمره وموقف أفريكا المتحفظ منه.

كانت السهولة التي تمّت بها عملية الاعتقال ثمّ نقل الرجل إلى السيارة (سمع رامون احتجاج المعتقل فعلم أنّه إيطالي) وانطلاق السيارة به، ما ملأ رامون بالحماس. هل من الممكن أن تجري الأمور بهذه البساطة؟ بعد أن ابتعد عدة مربعات سكنية خلع رامون سترة الشرطي ورمى بها في سطل زبالة. لقد أحسّ بالانشراح، بالرغبة في عمل المزيد، وأسف أن أمرهم كوتوف بالتفرق بمجرد الانتهاء من المهمة، وأسف لأنّه فقد أفريكا بسرعة وقد كانت قريبة منه... بحث عن أحد الشوارع الضيقة المظلمة التي تؤدي إلى الرابال، وقد تحفزت بوصلته للعثور على مغامرة أكثر دفئاً من مغامراته مع لينا إمبرت الثقيلة الدم. حين توقف لإشعال سيجارة، أحسّ ببرد جليدي: لقد ضغطت ماسورة مسدس معدنية باردة على قفاه. ظلّ فكره مشتتاً للحظات، حتّى انبرت حاسة شمّه لنجدته:

- أنتِ تعصين الأوامر - قال من دون أن يلتفت-. أنتِ المناضل الوحيد الذي تنبعث منه رائحة البنفسج. هل نأخذ الترام ليحملنا إلى بيت جادة «بونانوفا» أم ما زلتِ تحتفظين بتلك الحجرة في «برثلونيتا»؟

أعادت أفريكا المسدس إلى مكانه وبدأت المسير، مجبرة رامون على متابعتها.

- أردتُ أن أراكَ لأنّي أشعر بأنّ عليَّ أن أكون صريحة معك، رامون- قالت، واكتشف هو في صوتها نبرة أثارت ذعره.

- ما الأمر؟

رتّبت أفريكا شعرها وقالت:

- لا شيء، رامون. فقط أريدك أن تنساني.

- عمّ تتكلمين؟ - شعر رامون بارتعاش في بدنه. هل سمعتُ جيداً؟

- لن أراك مجدداً...

- ولكن...

توقف رامون وأخذها من ذراعها، بعنف تقريباً. تركته يفعل ذلك لكنّها جمدته بنظرة من عينيها. أطلق رامون ذراعها.

- لم أعدكَ بشيء قط، وما كان عليك أن تغرم بي. الحب حملٌ وترف لا نستطيع أن نسمح لأنفسنا الوقوع فيه. حظّاً سعيداً، رامون - قالت وانطلقت في الشارع، من دون أن تلتفت إلى الوراء، لتختفي في عطفة وتضيع في الظلام.

تلقى رامون الذاهل صدمة أثّرت في عضلاته ودماغه. ما الذي يحدث؟ لماذا فعلت أفريكا ذلك؟ هل هو أمر من الحزب أم هو قرار شخصيّ منها؟

صعدَ الرجل إلى أعالي المدينة من دون أن يبارحه القلق. إنّه يشعر بالإهانة وبالصغار، وفي رأسه راحت تتقاطع إشارات وحقائق كان حتى ذلك الحين لا يعيرها انتباهاً، مواقف راحت تكتسب، تحت الضوء الجديد، حجماً له دلالته ومعناه. وفي صعوده ذاك، الذي بدا كصعود ذئب جريح صوب جحره، عاهد رامون نفسه أن يُريَ أفريكا، ذات يوم، من هو رامون وما الذي يقدر على فعله...

***

وأخيراً وقع الانفجار الذي كان الصحفي الإنكليزي ذو وجه الحصان ينتظره، والذي كان كوتوف قد تنبأ بوقوعه. لم يكن الحطب اليابس

للكراهية والخوف، وما أكثره في إسبانيا، في حاجة إلَّا لعود ثقاب يوضع في المكان المناسب لكي تتأجج النار التي طالما احتاجتها الجمهورية لتطهر نفسها بها، كما كانت كاريداد تردد.

لم يفاجئ شريط الأحداث رامون، إذ كان مطلعاً على مجريات الأمور، مع ذلك فقد بدا قلقاً من نتائجها غير المحسوبة. في اليوم الثالث من أيّار، دخل فصيل من الشرطة إلى مبنى الاتصالات، بقيادة مفوّض الأمن العام رودريغيث سالاس، الذي كان يحمل أمراً من مستشار الأمن الداخلي بإخلاء المكان ووضعه تحت تصرف الحكومة، لكنّ الفوضويين، وكما كان متوقعاً، قابلوا الطلب بالرفض وتحصّنوا في الطوابق العليا من المبنى. فاندلعت المواجهات المنتظرة بين شرطة الجمهورية والحكومة المحلية والفوضويين والنقابيين من أعضاء الاتحاد الوطني للشغل، الذين انضمّ إليهم التروتسكيون من حزب العمال الماركسي الموحد. لقد انفجر الوضع المتوتر والأحقاد المتراكمة وتحوّلت برشلونه إلى ساحة حرب واقتتال.

حدث، قبل ذلك بأيام، أن تمرّدت مجموعات من ميليشيا الفوضويين على أوامر القيادة العليا وتركت الجبهة وعادت، وهي تحمل سلاحها، لتتخذ مراكز لها في المدينة. بل لقد قررت السلطات، وقد توقعت مواجهات محتملة، تعليق الاحتفالات في الأول من أيار، مع ذلك فقد أطلق أفراد من الحزب القومي الكاتالاني النار على مجموعة من الفوضويين، يوم الثاني من أيار، فتصاعدت حدة التوتر. كانت محاولة الشرطة لإخلاء مبنى الاتصالات هي القشّة التي قصمت ظهر البعير، وقد أحدثت من العنف ما جعل رامون يتساءل إن كانت الحكومة، المدعومة من الاشتراكيين والشيوعيين، قادرة على السيطرة على موجة العنف تلك والخروج منتصرة.

في صباح الثالث من أيار، فوجئ رامون بمن أبلّغه بأنّ عليه البقاء في بيت «بونانوفا»، حتّى يذهب أحد من طرف كوتوف في طلبه. في الساعة

الأولى من الصباح خرجت كاريداد مع لويس في سيارتها الفورد، لتسلّم الفتى إلى يدين أمينتين تعبر به إلى الجانب الآخر من جبال «البيرينيه». ودّع رامون لويس، ولديه هاجس غريب... وقبل أن يصعد الأخ الصغير إلى السيارة عانقه رامون وطلب منه أن يتذكر دائماً أنّه أخوه، وبأنّ كلّ ما فعله وسيفعله فلكي يستطيع الشباب من مثله أن يدخلوا إلى جنّة دنيوية خالية من الخوف والكراهية.

حين شاع، منتصف عصر ذلك اليوم، الخبر عن الحادث الذي شهده مبنى الاتصالات، وعن اندلاع العنف بين الإخوة لاحقاً، فهم رامون أنّ كاريداد اتخذت تلك الإجراءات لأنّ ما من أحد، حتّى جماعة الحزب، كان متأكداً من إمكانية السيطرة على الموقف. واتّهم الفوضويون والعمال الماركسيون، بعد أن رفضوا تسليم أسلحتهم، الشيوعي رودريغيث سالاس باستفزازهم لإشعال مواجهة. أمّا الشيوعيون فقد اتهموا خصومهم السياسيين بالتمرد على المؤسسات الرسمية وبعرقلة عمل الحكومة المركزية وبإحداث الفوضى وخلق حالة من عدم الانضباط، واتهموهم أيضاً، بطريقة غير مباشرة ثمّ مباشرة، بالتخطيط للانقلاب والقضاء على الجمهوريّة. لقد تركّزت معظم الهجمات الكلامية على قادة حزب العمال الماركسي الموحد، الذين وصفوا بالخونة-المحرضين، بل وبالمخططين للانقلاب التروتسكي- الفاشي، بالتعاون مع الكتائبيين. أدرك رامون، وهو يرى الأفعال ويسمع الأقوال، أنّه كان محظوظاً إذ شهد ولادة لعبة سياسية عرض فيها من القدرة على التنبؤ والمهارة في استغلال الظروف ما أثار إعجابه. لكنّه فكّر أيضاً، ولم يسبق له أن فكّر بهذه الطريقة، أنّ مصير الجمهورية معلّق بخيط وأنّ من الصعب تخمين الفائز في هذه الجولة.

همّ عدة مرات بالنزول إلى «لابيدريرا» ليبحث عن كوتوف المختفي وليطلب منه أن يلغي أمره له بالبقاء بعيداً. طالت عليه ساعات اليوم، وحين عادت كاريداد إلى قصر «بونانوفا» مساءً، وهي تحمل بندقيتها

على كتفها، طمأنته وأخبرته أنّ بناية الاتصالات لم تسقط بعد، لكنّ سقوطها مسألة ساعات، وأن العملية كانت ناجحة تماماً، فقد أثبتت الانتفاضة خيانة الفوضويين والتروتسكيين. إنّها واثقة من أنّ المناوشات ستنتهي سريعاً، لأنّ العديد من قادة الاتحاد الوطني للشغل يتوسطون لتهدئة النفوس ولأنّ قوات من الجيش هي الآن في الطريق قادمة من بلنسية.

- ما لا أفهمه هو سبب حجزي هنا - شكا رامون، بينما أشعلت كاريداد سيجارة وراحت بين نَفَسٍ وآخر تزدرد قطعة من السجق تدفعها بجرعة من النبيذ.

- هناك كثرة من الرجال المكلفين بقتل أعضاء الطابور الخامس والخونة. أمّا أنت فكوتوف يعرف لأيّ غرض يحتاجك.

- وماذا يفترض أن يحدث الآن؟

- لا أعرف. لكن حين ننتهي من الفوضويين والتروتسكيين ستتضح صورة من يمسك بزمام الأمور في إسبانيا الجمهوريّة. لا نستطيع أن نواصل الحرب مع وجود أناس غير منضبطين وخونة، ولا أن ننتظر أن يرحل لارغو كاباييرو طائعاً وبهدوء. نحن الآن نطرده.

- وماذا سيقول للناس؟

سحقت كاريداد السيجارة وأخرجت أخرى من العلبة. تناولت جرعة كبيرة من النبيذ لتنظف فمها ممّا علق فيه من السجق.

- إسبانيا كلّها تعرف أنّ التروتسكيين من أتباع حزب العمال الماركسي الموحد والشبيبة الفوضوية واتحاد الفوضويين تخطوا الحدود. لقد تمردوا على الحكومة، وهذا في الحرب يسمّى خيانة. بل هناك وثائق تثبت ارتباط التروتسكيين بفرانكو، لكنّ كاباييرو لا يريد الاعتراف بذلك. لقد زوّد أولاد القحبة هؤلاء الفاشيين بالخرائط وحتّى بشفرات الاتصالات للجيش.

- ما هذا... أنتِ تعلمين أنّ نصف ما تقولين كذب.

- هل أنتَ متأكد؟ مع ذلك، حتّى لو كان نصف ما أقوله كذباً، فسنحوله إلى حقيقة. المهم هو ما يصدقه الناس.

أومأ رامون برأسه موافقاً. كان من الصعب عليه الإقرار بتلك الدناءة، مع ذلك فهو يقرّ بأنّ ما يهمه هو كسب الحرب، ولا بدّ لكسبها من عملية تطهير كتلك التي تجري. ابتسمت كاريداد وأشعلت السيجارة.

- أمامك الكثير لتتعلمه، رامون. سنوقع بين الاشتراكيين من أتباع نغرين وإنداليثيو بريتو[87] والمتخاذلين من أتباع لارغو كابييرو. أو بالأصح، سنقدم لهم رأس لارغو على طبق لكي يمزّق بعضهم بعضاً.

- لكنّ بريتو ونغرين لا يحبوننا كثيراً...

- لن يجدا بدّاً من أن يحبونا. وحين يقيلون لارغو ويعينون نغرين أو بريتو، سنقضي على حزب العمال الماركسي الموحد قضاءً مبرماً. إذا كان الاشتراكيون يريدون الحكم فعليهم أن يساعدونا: فإمّا أن يحكموا معنا وإما أن يتخلّوا لنا عن الحكم. سنزيح الفوضويين والنقابيين عن طريقهم وسيشكرون لنا حينها ما فعلناه.

وافقها رامون، ثمّ تجرأ، بعد تردد، على طرح سؤال بعث في نفسها اليأس:

- وهل أفريكا منغمسة في هذا كلّه؟

- أفريكا لا تفارق بيدرو. لذلك فهي قريبة من كلّ شيء...

أومأ رامون موافقاً. هل هي الغيرة أم الحسد؟ ربّما الأمران معاً، مع قطرات من الشعور بالإحباط.

- وما هو موقعي أنا من هذا كلّه، كاريداد؟

87- Juan Nagrín (1892-1956). طبيب وسياسي إسباني. ترأس حكومة الجمهورية الثانية بين عامي 1937 و 1945 والحرب الأهلية قائمة. طرد من الحزب الاشتراكي العمالي الإسباني عام 1946 الذي كان يتزعمه حينذاك Indalecio Prieto (1883-1962) بدعوى قربه من موسكو وتبعيته للشيوعيين.

- سيخبرك كوتوف بذلك وفي الوقت المناسب... انظر، رامون، من بين الأشياء الكثيرة التي عليك أن تتعلمها هو أن تكون صبوراً، لأنّ الضربة لا توجّه إلى العدوّ حين يكون واقفاً، بل حين يكون جاثياً. حينها توجّه إليه الضربة من دون رحمة، اللعنة!

في الصباح التالي، وبعد أن رأى كاريداد وهي تخرج في سيارة الفورد، جازف رامون وخرج من البيت مخالفاً الأوامر. أحسّ بالاختناق في «بونانوفا»، حيث لا يكاد يُسمع صوتُ المدافع، ونزل إلى المدينة، من دون أن يعترف، تقريباً، في قرارة نفسه بأنّ من بين ما يتمناه هو العثور على أفريكا. تجنّب، وهو في الطريق إلى مركز المدينة، الشوارع التي أقيمت فيها المتاريس التي تصدرُ منها إطلاقات متفرقة. كانت عربات الترام والباصات المتوقفة تقطع حركة المرور، وقد رُفعت في كلّ مكان أعلامٌ تشير إلى الحزب السياسي الذي يتولى السيطرة على هذه الناصية أو تلك: شيوعيون واشتراكيون وفوضويون وعماليون ماركسيون موحدون وقوميون كاتلان ونقابيون من الاتحاد الوطني للشغل وقوات نظامية ومليشيات ورجال شرطة، في كاليدوسكوب[88] مركزي الطرد أقنع الشاب بالحاجة إلى تلك الهجمة: لا يمكن كسب حرب خطوطها الخلفية على هذا القدر من الاضطراب والفوضى والانقسام. فقد بدت المدينة كلّها مقبلة على الحرب وبدا ميدان كاتالونيا ثكنة عسكرية. كان مبنى مصلحة الاتصالات، حيث تحصّن فوضويو الاتحاد الوطني للشغل، مطوقاً وحوله عدد من قطع المدفعيّة. مع ذلك فقد بدا محاصِروه واثقين، فانتهزوا الصباح الأياري الدافئ للاستراحة. تجنّب المرور بالميدان واتجه نحو «لاس رامبلاس»، فوجد الجادة، عند مستوى قصر نائب الملك وفندق الكونتيننتال، وفي الأسفل من ذلك، عند الفالكون، خالية

88- Kaleidoscope أو المشكال وهو أنبوب أسطواني مبطن بالمرايا وضعت فيه مجموعة من الخرز أو الحصى أو الأشكال الملونة التي تبدو للناظر إليها من أحد أطراف الأنبوب رسوماً جميلة رتّبت ترتيباً عشوائيّاً.

تماماً؛ فما كان يرى، من حين لآخر، إلّا واحداً من المارة وهو يخاطر بالمرور سريعاً رافعاً منديلاً أبيض. لاحظ، وقد صار قريباً من السوق، أنّ على كلّ جانب من جانبي الشارع رجالاً متمترسين على أسطح البنايات، وافترض أنّ الموجودين عند «الكونتيننتال» هم ميليشيات حزب العمال الماركسي الموحّد وقياداته. من جانبي الشارع كانت تصدر إطلاقات فاترة، وفكّر رامون أنّ مصير المتمردين قد تقرر: حرب الخطوط الخلفيّة تلك كانت أقرب إلى محاكاة وتمثيل للمواجهات حقيقية. شعر بالرغبة في لبس جلد أدريانو من جديد والدخول به إلى حيث يكمن العماليون الماركسيون، لكنّه أدرك أنّ ذلك الخروج على الانضباط يمكن أن يكون خطيراً، وأنّ القسوة التي أقسم على الأخذ بها قد ترتد عليه إذا ما تعرّف أحدهم عليه وأبلغ عن وجوده في مناطق التروتسكيين من دون أن يكلّف بالذهاب إليها من جهة عليا.

بعد أيام قليلة لمس رامون حجم الثقة التي يضعها كوتوف في كاريداد، فقد بدأت توقعات المرأة تتحقق. فالمواجهات المتفرقة، والعنيفة أحياناً، استمرت يومين وأضافت المزيد من القتلى والجرحى، لكنّها بدأت تفقد قوتها، فكأن إعياءً لحق بها. وطلب عدد من زعماء النقابيين والفوضويين من رفاقهم أن يضعوا السلاح، حتّى إذا وصلت القوات التي أرسلتها الحكومة، أقرّ المتمردون بهزيمتهم فعاد الهدوء إلى المدينة وباتت معظم المراكز الحيوية تحت سيطرة رجال اختارهم المستشارون والحزب. وانتقلت المعركة إلى ميدان الكلام، إذ راح كلّ طرف يكيل الاتهامات للطرف الآخر، وأظهرت وسائل الدعاية الشيوعية، غير الخاضعة للرقابة، تفوقاً في تلك المعركة، إذ راحت تروّج للرأي القائل بأن نقابيي الاتحاد الوطني للشغل والفوضويين، وخصوصاً أنصار حزب العمال الماركسي، هم من خطط لذلك التمرد، الذي كانت رائحة الانقلاب تنبعث منه. رأى رامون أنّ كاتالونيا المتمردة خضعت أخيراً لسيطرة المستشارين السوفييت ورجال الكومنترن، أمّا خاتمة

النجاح فهي أنّ الحكومة انحدرت نحو الأزمة، وأنّ لارغو كاباييرو بدأ يرفس والحبل معلّق في رقبته.

تسارعت الأحداث حين أكّدت الصحافة الشيوعيّة أنّ لديها أدلّة على تعاون التروتسكيين من أتباع حزب العمال الماركسي الموحد مع الفاشيين. وتحدثت عن برقيات، بل عن خرائط بحركة القوات سُرّبت إلى المعسكر المعادي. وقدّم لارغو كاباييرو استقالته بعد أن أحيط به من جميع الجهات، أو، ربّما، بعد أن أقرّ، بعد تردد، بعجزه عن حلّ مشاكل الحرب ومشاكل الجمهوريّة. حينئذٍ صعد نغرين، بدعم من الشيوعيين والمستشارين، إلى رئاسة الحكومة وأعلن، في واحدة من أولى إجراءاته، عن حظر حزب العمال الماركسي الموحّد وعن نيته في تقديم زعمائه إلى المحاكمة.

فوجئ رامون، وكان مستاءً من عدم مشاركته بقدر أكبر في الأحداث، بحضور ماكسيموس، الذي بُعث من رقدته وجاء في طلبه. كان في رفقته رجلان آخران لا يعرفهما، إسبانيان كما بدا واضحاً، مع ذلك لم يحاول ماكسيموس أيّ شكل من أشكال التقديم. نزلوا صامتين إلى المدينة، التي كانت ميدان معركة حقيقيّة، بعد انجلاء الموقف: قوات في الساحات، مبانٍ محترقة، بقايا متاريس في النواصي. بدأ الناس يعودون إلى السير في الشوارع طلباً لطعام لا يجدونه، لكنّهم الآن يعودون صامتين، ترمقهم نظرات القوات الخاصة والشرطة المحلية والعسكريين المنتشرين في كافة الأنحاء. وصل رامون إلى القناعة بأنّ على إسبانيا الجمهورية أن تنتهز تلك الصدمة وتستثمر الكراهية والخوف المزمنين وتحسن توجيههما، وتفهم، وللمرة الأخيرة، بأن الخلاص الوحيد يأتي من انضباط أشدّ وأقسى، ومن التدخل السوفييتي المباشر. فكّر في أنّ أندريه مارتي [81] ربّما كان محقّاً حين وصف الإسبان بالبدائيين والعاجزين، وتذكّر قول كوتوف، حين وصفهم، بطريقته الشعرية تقريباً، بأنّهم رومانسيون وكسالى. إنّ ما يضايقه هو الحزن على مصير البلاد

وعلى مصير الحلم الذي يناضل من أجله منذ أربع سنوات، والذي خطا خطوة حاسمة في سبيل إنقاذه.

أوقف ماكسيموس، يصحبه رامون والرفاق الآخرون، السيارة عند طريق «البرات»، في أطراف المدينة، وانتظر وصول سيارة أخرى، كان يشغلها أيضاً أربعة رجال، بدا اثنان منهما أجنبيين، وارتدى رجل آخر منهم بدلة عسكرية برّاقة، لكن من دون رتبة. أعطى ماكسيموس أوامره التي بدت موجهة إلى رامون أكثر منها إلى مرافقيه الآخرين: الشرطة تستعد لترحيل سجين من برشلونه، إنّه جاسوس في خدمة الوطنيين، وعليهم أن يأخذوا ذلك الرجل سليماً معافى إلى بلنسية، حيث سيجري استجوابه. المعلومات التي يمتلكها ذلك الرجال أساسيّة لتفكيك شبكات المتعاونين مع العدو وللكشف عن مبلغ الخيانة التي وصل إليها التروتسكيون. يجب أن تتمّ العملية بأعلى درجات الحرص والتكتم، وهذا هو سبب اختيار رجال يحظون بثقة مطلقة لتنفيذها.

مرّت عدّة ساعات وحلّ الظلام فظهرت دورية الشرطة على الطريق وأعطت إشارة بالأنوار. أمر ماكسيموس الراكبين في السيارة الثانية أن يكونوا في المؤخرة بينما اتجه هو ورامون والرجلان الآخران إلى مقدمة القافلة وانطلقوا صوب بلنسية. حاول أحد الركاب مرتين أن يفتح حديثاً لكنّ ماكسيموس أشار عليه بالسكوت.

وصلوا فجراً إلى أطراف بلنسية، حيث كانت دورية أخرى بانتظارهم. توقفوا وأمر ماكسيموس الراكبين بعدم النزول من السيارة، وبأن يظلوا يراقبون صامتين. رأى رامون ماكسيموس وهو يتجه نحو الدوريّة، يرافقه الرجل ذو الملابس العسكرية، الذي كان يركب في السيارة الأخيرة من الموكب. حاول أن يتطلّع في الظلمة إلى ما كان يجري في الطريق، وظنّ أنّه سمع ماكسيموس وبعض من كانوا بانتظاره يتكلمون بالروسيّة. كان وجه أحد أولئك الرجال مألوفاً لديه،-فكّر في ما بعد أنّه ربّما كان ألكسندر أورلوف، رئيس مستشاري المخابرات السوفييت-، لكنّ الظلام

حال دون أن يتحقق من ذلك. أعطى العسكري إشارة للقافلة ورأى رامون بعد دقائق رجلاً مقيد اليدين يمرّ قريباً من سيارته، يقوده شرطيان. ومع قلّة الضوء وخفوته، فقد أفلح في رؤيته والتعرّف عليه، فأصابه من ذلك الذعر: إنّه أندريس نين [56].

في تلك اللحظة أدرك رامون أنّ ماكسيموس اختاره لتلك المهمة ليكافئه على عمله في محيط حزب العمال الماركسي الموحّد. حينئذٍ تذكّر الصحفي الإنكليزي المريض، ذا وجه الحصان، وتذكّر كلامه لأدريانو، في أحد الأحاديث التي جرت بينهما في فندق الكونتيننتال قبل أسابيع من ذلك:

- «نين» هو الإسباني الأشدّ أصالة من بين جميع من أعرفهم. لو لم يكن على هذا القدر من الشعور الكاتالوني، لكان الآن مصارعاً للثيران أو مطرباً شاعراً... إنّه يحيا وفي رأسه فكرة واحدة: الثورة. إنّه ممن يموتون من أجل الثورة. أنا أكره المتعصبين، لكنّي أحترم هذا الرجل.

لم يلتفت رامون إلى رفاقه في المهمة، بل قال:

- سيتحتم عليهم أن يقتلوا هذا الرجل.

وتجرأ مرافقه الأكبر عمراً على القول:

- تذكّر ما قاله الرئيس. سيجبرونه على الكلام عن كل ما يعرف من مخططات الطابور الخامس.

- لن يتكلّم - كانت قناعة رامون من الرسوخ أنّه تمنى لو يستطيع النزول من السيارة ليخبر بذلك ماكسيموس، بل أورلوف نفسه، إن كان هو من يتنحّى الآن ليأخذوا «نين» إلى شاحنة صغيرة مغطاة. كان ذلك كلّه ضرباً من العبث، فرامون يعلم أنّ الأمر سينتهي على أسوأ طريقة.

- إنّهم يجعلون أيّ واحد يتكلّم - قال الرجل وقد خفض صوته-. وجميع هؤلاء التروتسكيين طريون معمولون من الزبدة.

- أمّا هذا فلا. لن يتكلّم.

- ولماذا أنتَ متأكد إلى هذا الحدّ، أيها الرفيق؟

- لأنّه متعصب، ولأنّه يعلم أنّهم سيقتلونه على أيّة حال، أمّا إذا تكلّم فسيقتلونه وسيقتلون معه كلّ رفاقه. أقول لكم شيئاً: لو كنتُ مكانه لما تكلّمت.

-12-

مع مرور السنين، راح الكثير من تفاصيل علاقتي بالرجل الذي كان يحبّ الكلاب تبهت في ذاكرتي، لكنّي أزعم أنّني لم أنسَ جوهرها. أما ما تقرؤونه الآن فهو إعادة بناء، مستعيناً بذكريات شابتها عوامل الزمن الضارة، لأحاديث وأفكار لم أبدأ بتسجيلها على شكل ملاحظات إلّا بعد خمس سنوات من تلك اللقاءات على شاطئ البحر طوال عام 1977. لقد تحوّلت، على مدى تلك السنين، إلى شخص مختلف عن ذلك الـ «إيبان» الذي كنتُه حين التقيتُ خايمي لوبيث، وما ذاك إلّا لأنّ في غير مقدورك، كما هو مفهوم، أن تهرب من قصة كالتي حكاها لي ذلك الرجل الغامض - كانت راكيليتا دائماً تقريباً على حق- وأنتَ على حالك التي كنتَ عليها قبل أن تسمعها.

في منتصف تشرين الثاني، وفي أوّل أيّامي على الشاطئ بعد لقائنا الأخير، التقيت لوبيث مجدداً، وشعرتُ، وللمرة الأولى، بأنّ الرجل كان ينتظرني. ولكن، لماذا؟ ولأيّ غرض؟ سألتُ نفسي، وأظنّ أيضاً أنّني نسيت تلك الأسئلة في الحال. في تلك المرّة - ولكي تتكامل ظروف المعادلة، كما علمت في ما بعد- كنتُ قد ذهبتُ من دون اصطحاب راكيليتا، التي عادة ما تكون مشغولة وقت العصر، ثمّ إنّها لم تكن، في الواقع، مهتمة بتلك الرحلات الشتوية إلى شاطئ البحر.

بعد أن تبادلنا التحية بدأنا الحديث عن رحلة باريس وصحته هو، لكنّه اختار الإيجاز، فقال لي إنّ الأطباء الفرنسيين لم يشخصوا في حالته شيئاً

وأنّ الطقس في باريس كان مقيتاً، كما يتوقع دائماً من تلك المدينة. لا أدري لماذا دفعتني تلك المقاطعة الفجائية لحوار كان ممكناً حول أمور كانت موضع اهتمامي- باريس، حلم الرحلات- إلى سؤاله عن سبب وضعه الضمادة التي تغطّي دائماً يده اليمنى. كنتُ أعرف أنني أتجاوز، بذلك السؤال، حدود المسموح به في تلك العلاقة السطحيّة، حدود الأحاديث السطحيّة التافهة، مع ذلك فقد شعرتُ، في تلك اللحظة، بحاجة ملحّة إلى معرفة شيء مهم حول شخصه، ربّما مدفوعاً بالانطباع الذي تركه الرجل في راكيليتا، وبالتأكّد من أنّه لا يشكو من مشكلة صحيّة تهدد حياته.

- إنّه أثر حرق قبيح المنظر- أجاب لوبيث، من دون أيّ تفكير طويل -. أصبتُ به منذ سنوات، لكن منظره مقزز.

لمستُ في صوته أسفاً لم ألمسه فيه من قبل. لا أظنّ أنّ ما أزعجه هو الكلام عن اليد المحروقة: ربّما لم يكن يريد ليده أن تحترق، فكأنّها ما زالت تحترق. ندمتُ على تطفلي، ورحتُ أحكي له ما جرى لعائلتي في الشهرين الأخيرين، منذ أن طفا موضوع مثلية أخي الصغير على السطح. ما زلتُ لا أدري إن كنتُ فعلتُ ما فعلتُ تكفيراً عن تطفّلي، أم لأنني كنتُ أحتاج إلى التنفيس عن ألمي المتراكم. صببتُ كلّ حقدي على والديّ إذ عاقبا الفتى بتلك قسوة، وانتبهتُ، وأنا أتكلّم، إلى مدى بلادتي إذ ركّزتُ غضبي على موقف والديّ، وأستودع ذلك الشخص، الذي لا أعرف عنه إلّا القليل، تفاصيل ومشاعر لم أتحدث بها حتّى لزوجي، بينما كنتُ في الواقع أخفي أصل المشكلة، ألا وهو العداء المستحكم للمثليّة الجنسيّة على مستوى المؤسسات والتعصّب الأيديولوجيّ المستشري، اللذان يمنعان ويقمعان كلّ ما هو مختلف، ويتغذيان على كلّ ما هو أضعف وأوهن، ويطيحان بكل من لا ينطبق عليه قوانين الاستقامة ومساطرها. أدركتُ، حينئذٍ، أنّني ووالدايّ كنّا لعبة في يد نمط من التفكير قديم وضغوط اجتماعية جديدة، بل كنّا ضحايا للخوف، قدر ما كان وليام

أو أكثر (ولا شكّ أننا كنّا أكثر). شعرتُ أيضاً بشيء من الكراهية نحو أخي، لأنّه هو من صرّح بصفته وكشف عن مثليته: قد أفهم، بل أتقبل، أن تكون مدرّستان مثليتين، لكن كيف لي أن أفهم ذلك إذا ما علمتُ- وعلم الآخرون- بأنّ المثليّ هو أخي. على أيّة حال، فقد أمسكتُ عن الكلام في تلك المواضيع، التي قد يستعملها لوبيث (من يكون لوبيث هذا؟ ولصالح من يعمل؟ ولأجل ماذا يذهب إلى باريس ليقابل بعض الأطباء؟) أو أيّ كان ضدي، بعد أن تولّى زمني الماضي بتذكيري بذلك.

استمع لوبيث إليّ بصمت، كالمتألّم. وانبطح إيكس وداكس، وقد تعبا من الجري، على بعد أمتار من سيدهما، وجلس الأسود الطويل النحيف، في مكانه على بعض جذور أشجار «الكازوارينا». ظلّت تلك اللحظة محفورة في ذاكرتي مثل صورة فوتوغرافيّة، فكأنّ العالم توقف لثوانٍ، أو حتّى دقائق، إلى أن قال لوبيث:

- لا بدّ أن يلحقوا الأذى بأحد... أنا متأسف لما حصل لأخيك- وطلب منّي أن أساعده للنهوض على قدميه.

أصيب هذه المرّة بدوار أخفّ، وأكّد لي أنّه يشعر مؤخراً بتحسن كبير. حين بدأ بالابتعاد، توقف وطلب منّي أن أقترب منه. ولمّا وصلت إلى جانبه بدأ بإزالة الرباط الذي كان ملفوفاً على يده اليمنى. رأيتُ الجلد المسطح اللامع الذي ينطلق من منبت الإبهام نحو مركز اليد.

- قبيح جدّاً، أليس كذلك؟

- مثل كلّ الحروق - قلتُ له، وفاجأني أنّها لم تكن سوى ندبة قديمة.

- ما زالت تؤلمني أحياناً...- ظلّ صامتاً، ثمّ نظر إلى عينيّ وقال لي: أنا لم أذهب إلى باريس، بل ذهبتُ إلى موسكو.

فوجئت بالاعتراف: لماذا كذب عليَّ ثم عاد لينطق بالحقيقة؟ ولماذا عليَّ أن أعرف أنّه كان في موسكو؟ ألا يذهب عشرات، بل مئات الكوبيين يوميّاً إلى موسكو؟ ولأيّ سبب كان؟ بقيت صامتاً، عاجزاً عن

الإجابة عن أسئلتي، لا أفعل شيئاً غير الانتظار، الذي لا أحسن فعل شيء سواه. حينئذٍ راح لوبيث يربط يده وسألني:

- هل نستطيع أن نلتقي بعد غد؟

أشحتُ بنظري عن اليد التي اكتست بضمادها من جديد ولمحتُ في عيني الرجل رطوبة برّاقة. كانت لقاءاتنا حتى ذلك اليوم - حسب علمي على الأقل - عرضيّة، مدفوعة بأحوال الطقس ونزواته، لم تكن قطّ مواعيد متفقاً عليها. فلماذا يطلب منّي لوبيث موعداً للقاء آخر بعد أن أراني أثر الحرق الذي كان، حتى ذلك الوقت، يحرص على إخفائه واعترف لي بأنّه لم يكن في باريس، بل في موسكو؟

- نعم. أظن ذلك.

- إذن سنلتقي بعد يومين... من الأفضل ألَّا تصبحك زوجك- قال ثمّ ضرب على ساقي بنطلونه لكي يظلّ إيكس وداكس إلى جانبه ويسيران معه إلى حيث كان الأسود الطويل والنحيف بانتظارهم.

***

امتلأ الشاطئ بالطحالب الرمادية والبنيّة، بجثث قناديل البحر المنتفخة البنفسجيّة، بخشب متآكل وأحجار لفظها البحر في ليلة البارحة، مع دخول جبهة ريح باردة. ما كان يُرى شخص واحد على امتداد الشريط الرملي. راحت الشمس تبعث الدفء في المحيط، لذلك كان البرد الذي تأتي به الرياح الشمالية مقبولاً محمولاً، وكان في الإمكان مقاومته بسترة خفيفة كالتي كنتُ أرتديها في ذلك اليوم. كنتُ وصلتُ قبل الموعد المحدد للقاء، لذلك رحتُ أسير على الشاطئ برهة. رأيتُ قطعاً خشبيّة مسودة مخفيّة بين طحالب مخمليّة بدت كأنّها صليب، ثمّ تبيّن لي أنّها بالفعل ذراعا صليب. كان الخشب المتآكل يؤشر إلى أنّ ذلك الصليب - أبعاده أربعون سنتمتراً في عشرين- ظلّ لوقت طويل معرضاً لعوامل البحر والرمال، وبدا واضحاً أنّه وصل إلى الشاطئ مؤخراً بعد أن دفعته الأمواج التي أحدثتها الجبهة الباردة الأخيرة. ما كان في ذلك الصليب

ما يميزه: قطعتان من الخشب الغامق المضغوط، متآكلتان ومحفورتان ومتقاطعتان ومثبتتان على بعضهما بلولبين صدئين. مع ذلك فقد شدّني ذلك الصليب البسيط، ربّما بسبب خشبه المتهرئ أو المكان الذي وجدته فيه (من أين أتى ومن كان صاحبه؟)، إلى درجة أنّني قررتُ، على الرغم من إلحادي، حمله بعد غسله في البحر. وسمّيته «الصليب الغريق»، على الرغم من جهلي بأصله، وعدم تفكيري في الوقت الذي ستستغرقها صحبتي له.

وظهر لوبيث، وهو يرتدي قميصاً رماديّاً بسيطاً قصير الأكمام تزينه جيوب عظيمة، فكأن لديه حصانة من درجات الحرارة المتدنية. أمّا كلبا «البورزوي»، اللذان خلقا لتحمّل أجواء سيبيريا، فقد بديا أكثر من سعيدين. أمّا الأسود، المختبئ دائماً وراء أشجار «الكازوارينا»، فقد تدثّر بمعطف عسكري وبدا في وقت من الأوقات وكأنّه غطّ في النوم.

منذ أن دعاني الرجل لذلك اللقاء، لم أستطع التفكير في أيّ شيء آخر. عملتُ في ذهني ملخصاً بالقليل الذي أعرفه عنه، لكنّي لم أعثر على أيّة إشارة تدلّني على سبب حاجته إلى رؤيتي والحديث لي، كما كنتُ أنتظر، عن شيء يفترض أن يكون مهمّاً (شيء يفضّل أو يطلب ألّا تسمعه راكيليتا). رحتُ، حتّى لحظة اللقاء، أقلّب كلّ الاحتمالات: قد يكون ابن لوبيث مثليّاً أيضاً؛ ربّما يمتلك لوبيث نفوذاً كبيراً ويمكنه أن يساعد وليام؛ وفكّرتُ، غريزيّاً بالطبع، في أنّ لوبيث ربّما يبيّت أن يحكي أفكاري في مكان ما ويستعد للعودة إليّ بشخص قادر على تعقيد حياتي، وأنا الذي بدأتُ للتوّ بالتخلّص من أحلامي وطموحاتي (أظنّ حتّى من تطلعاتي الأدبية التي دخلت في طور النزع الأخير) وما عدتُ أرغب إلّا في القليل من السلم، مثل عصفور مُدرّب راضٍ ومطمئن للروتين الآمن الذي يوفره له قفصه... ومهما كان السبب، وبغضّ النظر عن العلّة، فقد خلصتُ إلى أنّ ما كان له أن يحدث فلا بدّ أن يحدث، ووصلتُ، قبيل الرابعة عصراً، إلى «سانتا ماريا دل مار»، من دون مضرب التنس، ومن دون كتاب.

ابتسم لوبيث حين رآني، وأنا أحمل الصليب الخشبي. حكيتُ له كيف عثرتُ على الصليب وطلب منّي أن يعاينه.

- يبدو قديماً جدّاً - قال، وهو يتفحصه-. ما عاد هذا النوع من اللوالب موجوداً.

- إنّه من حطام سفينة غارقة - قلت له، لمجرد أن أقول شيئاً.

- من أولئك الذين يغادرون كوبا بالطشت؟ - كان سؤاله يقطر سخرية واستهزاءً.

- لا أدري. نعم، ممكن...

- الصليب كان بانتظار أن تجده أنتَ - قال جادّاً هذه المرّة، وهو يعيده لي، وراق لي كلامه وفكرته. فلئن كنتُ، حتّى تلك اللحظة، لا أدري ماذا أفعلُ بالصليب، فقد اقتنعتُ بضرورة حمله، فلربّما كان عثوري عليه أمراً يتجاوز الصدفة المجردة، ووصلتُ، في تلك اللحظة، إلى اليقين بأنّ الصليب لا بدّ وأن يكون مهمّاً بالنسبة إلى شخص لن أتمكّن من معرفته. فهل تقع لي هذه الأشياء لأنّني ما زلتُ، وعلى الرغم من كلّ شيء، قادراً على أن أتجاوب معها كما يتجاوب الكاتب؟ ومتى فقدت تلك القدرة وسواها الكثير؟

وبدلاً من الجلوس على العشب، جلسنا على كُتل من الإسمنت وضعت قريباً من البحر. كان لوبيث، في ذلك العصر، قد جاء بكيس فيه سخّان مليء بالقهوة وبكوبين صغيرين من البلاستك، قدّم بها مرّات عديدة الشراب. وكان، في كلّ مرّة يشرب فيها القهوة، يُخرج من جيب قميصه علبة سجائر صغيرة وولاعته الغازيّة الثقيلة، المقاومة لهبات النسيم.

وحمل الرجل الذي يحبّ الكلاب معه، فضلاً عن القهوة، خبراً سيئاً.

- علينا أن نقتل داكس - قال لي، وقد جلسنا، وراح ينظر إلى حيث كان كلبا «البورزوي» يجريان ويطرطشان في الماء.

فاجأتني كلماته فالتفتُّ إلى الكلبين لأنظر إليهما.

- ماذ جرى؟ - سألته.

- قبل يومين عاينه البيطري...

- وكيف لبيطري أن يقول لحضرتك أن تقتل كلباً مثل هذا؟ هل عضّ أحداً؟ ألا ترى كيف يجري، ألا ترى أنّه طبيعي؟

أخذ لوبيث وقته لكي يردّ.

- لديه ورم في رأسه. سيموت في ظرف أربعة أشهر أو خمسة، وستبدأ معاناته في أيّة لحظة وستصعب حينها السيطرة عليه.

التزمتُ أنا الصمت هذه المرّة.

- ليست حرارة الطقس هي ما تجعله عدوانيّاً، بل هي العلّة التي يشكو منها...- أضاف لوبيث.

- هل أخذوا له أشعّة؟- عدتُ إلى النظر إلى الكلبين.

- وتحاليل أخرى. ما من مجال للخطأ... أنا أتمزّق من الألم. ليس في مقدور أحد أن يتصوّر كم أحبّ هذين الكلبين.

- أنا أفهمك - قلتُ، وتذكرت موت «كورّي»، كلب الترير الفحل، الذي رافقني على مدى طفولتي وجزءٍ من شبابي.

- هما بمثابة صديقين لي، هنا وفي موسكو. أتكلّم معهما. أقصّ عليهما أشيائي وذكرياتي وأحدثهما دائماً باللغة الكاتالانيّة. أقسم لك أنّهما يفهمان ما أقول... هل في مقدورك أن تساعدني حين تبدأ حال داكس بالتدهور وأرى أنّني استوعبتُ الأمر؟

لم أفهم للوهلة الأولى السؤال. لكنّي فهمت، لاحقاً، أنّ لوبيث يطلب منّي أن أساعده في قتل داكس. فرددتُ عليه.

- لا، أنا لستُ بيطريّاً... وحتّى لو كنتُ بيطريّاً، فلن أستطيع أن أفعل ذلك.

ظلّ الرجل صامتاً. صبّ لنفسه المزيد من القهوة وبحث عن سيجارة من سجائره.

- طبعاً. لا أدري لماذا طلبتُ منك ذلك... المشكلة هي أنّي لا أدري ماذا عليَّ أن...

في تلك اللحظة شعرتُ بوجود أمر يجول في خاطر الرجل أفظع من مصير كلب مريض، وسرعان ما تأكّد لي ذلك.

- لو قالوا لي إنّني مريض، كما هو داكس الآن، لتمنيت أن يساعدني أحد في الخروج بسرعة من المحنة. الأطباء أحياناً بالغو القسوة. عليهم، عندما يحين الموعد المحتوم، أن يكونوا أكثر إنسانيّة وأن تكون لديهم فكرة أفضل عمّا تعني المعاناة وعمّا يعني الألم.

- الأطباء يعرفون ذلك، لكنّهم لا يستطيعون فعل شيء. والبيطريون يعرفون أيضاً، ولديهم ترخيص بالقتل. فتّشْ عن شخصٍ...

شعرتُ بأنّه يحملني إلى مستنقعٍ وبأنني أفقد قدرتي على الحركة وعلى التملّص. لكنّي كنتُ ما زلتُ بعيداً عن تصوّر عمق القاع الذي سيغرقني فيه. قاع مغمور بالكراهية والدم والإحباط.

- أنا أيضاً سأموت - قال الرجل أخيراً.

- كلّنا سنموت - حاولتُ الخروج من الحرج بتلك البديهة.

- الأطباء لا يجدون فيّ علّة، لكنّي أعلم أنّني أنازع. أنا الآن أنازع - كرر.

- بسبب نوبات الدوار؟ - واصلتُ التشبّث بمنطقي وبأداء دور الأبله-. إنّها الفقرات العنقيّة... بل إنّ هناك طفيليات مداريّة تسبب الدوار.

- لا تهدر الوقت، يا فتى. لا تتصنع الغباء واستمع إلى ما أقوله لك: إنّني أحتضر، تبّاً!

سألتُ نفسي عمّا يحدث: لماذا اختارني ذلك الرجل، ونحن لا نعرف بعضنا إلّا قليلاً، ليسرّني أنّه يحتضر وأنّه يتمنّى العثور على من يستطيع أن يقلل من معاناته ويختصرها؟ ألهذا طلب مقابلتي؟ وأحسستُ بالخوف حينها.

- لا أدري لماذا حضرتك...

ابتسم لوبيث. حرّك كعب حذائه حتّى رسم أخدوداً في الرمل. في تلك اللحظة كنتُ ما أزال أستشعر الخوف مما قد يقوله لي الرجل.

- سافرتُ إلى موسكو لحضور الاحتفال بالذكرى الستين لثورة أكتوبر. لكنّي كنتُ أريد الذهاب للقاء شخصين. تمكنتُ من رؤيتهما وكانت لي معهما أحاديث تتسببُ الآن في قتلي.

- مع من تحدثت؟

توقف الرجل عن تحريك قدمه ونظر إلى يده المربوطة.

- إيبان، لقد رأيتُ الموتَ على درجة من القرب لا تستطيع أنتَ أن تتصورها. أعتقد أنّني أعرف كلّ شيء عن الموت.

أتذكّر ذلك وكأنّه حدث بالأمس: في تلك اللحظة شعرتُ بالخوف، بخوف حقيقي، فضلاً عن دهشتي من سماع تلك الكلمات التي لم تخطر لي على بال. فما من أحد يزعم أنّه ملمّ بكلّ شيء عن الموت. ما العمل في حالة كهذه؟ نظرتُ إلى الرجل وقلتُ:

- حين كنتَ في الحرب. أليس كذلك؟

وافق بصمت، فكأنّ ملاحظتي لم تكن مهمّة، ثمّ قال:

- لكنّي غير قادر على قتل كلب. أقسم لك؟

- الحرب شيء آخر...

- الحرب قذرة - قال الرجل بما يقرب من الغضب-. في الحرب إمّا أن تقتل أو أن يقتلوك. لكنّي رأيتُ أسوأ ما في البشر خارج الحرب. ليس في مقدورك أن تتصوّر مبلغ ما يستطيع الإنسان فعله، ما تستطيع الكراهية والحقد فعله حين تُغذيان وتُسمنان...

عند ذلك الحدّ قلتُ في نفسي: يكفيه لفّاً ودوراناً، ويكفيه ما قاله من هراء. خير لي أن أنهض وأضع نهاية للحديث الذي يبدو أنّه لن يقود إلى ما يُسرّ ويُرضي. لكنّي لم أتحرّك من على الحجر الذي اتخذته مجلساً، وكأنني كنتُ راغباً في معرفة إلى ما سينتهي حديث الرجل الذي كان

يحبّ الكلاب. هل صار ما يقوله يهمّني ويعنيني؟: ما كان يعتمل فيّ، حتى ذلك الوقت، كان الفتور والكسل، لكنّ الرجل أدار محرّكه في تلك اللحظة:

- قبل سنوات حكى لي أحد الأصدقاء قصّة - بدا صوت لوبيث فجأة صوت شخص آخر-. إنّها قصّة لم يعرف تفاصيلها غير أشخاص قليلين، وقد مات جلّهم. هو طلب منّي بالطبع ألّا أقصّها على أحد، لكنّ هناك ما يثير قلقي.

كنتُ قد قررتُ ألّا أعود إلى الكلام، لكنّ لوبيث كان ينتظر منّي تعليقاً.

- ما هو؟

- لقد مات صديقي ذاك... وحين أموتُ أنا، ويموت الشخص الوحيد الآخر الذي، حسب علمي، يعرف كلّ التفاصيل تقريباً، فستضيع تلك القصّة. أقصد حقيقة القصّة.

- ولماذا لا تكتبها؟

- إذا كنتُ لا أستطيع حكايتها لأولادي فكيف لي أن أكتبها؟

أومأتُ برأسي موافقاً، وسرّني أن الرجل راح يبحث عن سيجارة أخرى: فذلك الفعل كان يعفيني من السؤال.

- طلبتُ منك أن تأتي اليوم لأنّي أريد أن أحكي لك تلك القصّة، إيبان - قال لي الرجل الذي كان يحبّ الكلاب-. لقد فكرتُ في الأمر كثيراً وأنا مصمم على حكايتها لك. هل تريد أن تسمعها منّي؟

- لا أدري - قلتُ، من دون تفكّر تقريباً، وكنتُ صادقاً تماماً في ما قلتُ. فكّرت في ما بعد إن كانت تلك هي الإجابة الأذكى عن أغرب سؤال طرح عليَّ في حياتي: هل يمكن لشخص أن يختار بين أن يريد أو ألّا يريد أن يحكوا له قصّة لا يملك عنها أيّة فكرة؟ لكنّ ذلك الردّ، في تلك اللحظة، كان الوحيد الذي خطر ببالي.

- إنّها قصة فظيعة، وسترى أنّني لا أبالغ حين أقول ذلك. لكن قبل أن أحكيها لك سأطلبُ منك شيئين.

أفلحتُ هذه المرة في الإبقاء على فمي مغلقاً.

- أولاً ألَّا تخاطبني من الآن بحضرتك، ليكون الكلام هكذا أسهل عليَّ. وألَّا تحكِي القصة لأحد، ولا حتّى لزوجك، لذلك طلبتُ منك أن تأتي وحدك. الأهم من ذلك، أريد منك ألَّا تكتبها.

نظرتُ إلى الرجل بإمعان. الخوف لا يفارقني وفي دماغي دوامة من الأفكار، مع ذلك فقد كانت هناك فكرة تطلّ برأسها.

- إن لم تكن حضرتك مضطرّاً للحديث عن ذلك... فلماذا تريد أن تحكيه لي؟ ما الذي ستستفيد من ذلك؟

أطفأ الرجل سيجارته بأن دسّها في الرمل.

- أحتاج إلى أن أحكيها ولو لمرة واحدة في حياتي. لا أريد أن أموت من دون أن أقصّها على أحد. وسترى لماذا... أكرر عليك ألَّا تخاطبني بحضرتك، اتفقنا؟

أجبتُ موافقاً، لكنّ ذهني كان يسير في اتجاه واحد.

- نعم، جيد، ولكن لماذا تريد أن تقصها عليَّ أنا بالذات؟ أنتَ تعلم أنّني ألّفتُ كتاباً - أضفتُ، وكأنّني أرفع درعاً من الورق أمام نصل سيف من الفولاذ.

- لأنّي لا أجد أنسبَ منك لأحكيها له، بل لقد بدا لي أحياناً أنّني تعرّفتُ عليك لكي أستطيع أن أقصّ هذه القصّة عليك. وأظنّ أنّها قد تعلّمكَ شيئاً.

- عن الموت؟

- نعم. وعن الحياة. عن الحقائق والأكاذيب. أنا تعلّمتُ الكثير منها، وإن جاء ذلك متأخراً قليلاً...

- هل صحيح أنّك لا تعرف أحداً يمكنك أن تقصّ عليه قصتك؟ صديقاً، أو، ما أدراني،... لماذا لا تقصّها على ولدك.

- لا. ولدي لا...- كان في جوابه الكثير من الحدّة، فكأنّه قصد أن يكون جواباً دفاعيّاً، لكنّ نبرته سرعان ما تغيّرت- هو يعرف شيئاً عن

القصة، لكن... وقد قصصتُ جزءاً منها على واحد من أخوتي... ومنذ وقت وأنا لا أملك أصدقاء بالمعنى الصحيح للكلمة... لكنّي تقريباً لا أعرفك، وهذا أفضل. أنا أدرك ما أقول... منذ قليل، حين وصلتُ، لم أكن مقتنعاً، ولكنّي انتبهتُ في ما بعد إلى أنّك أفضل شخص يمكن... فإذن تعدني بأنّك لن تكتبها ولا تحكيها لأحد؟

لا حاجة بي إلى أن أقول إنّني، ومن دون فكرة واضحة عمّا أفعل ولا عمّا أعرّض نفسي له، قلتُ له نعم وتعهدتُ له بالكتمان. لو كنتُ قلتُ له إنّني لا أريد سماع القصّة أو إنّني لا أستطيع أن أتعهد له بأنّني لن أخرج في ذلك اليوم لأقصّها، لضاعت القصّة، وضاعت معها تفاصيلها العميقة القذرة، بموت خايمي لوبيث والشخص الآخر الذي، بحسبه، كان الوحيد الذي يعرف تفاصيلها وما كان ليحكيها أيضاً. ولكنّي، بعد أن راجعتُ المصادفات والحوادث العارضة التي حملتني في عصر ذلك اليوم من شهر تشرين الثاني إلى الجلوس قبالة البحر، بالقرب من شخص كان قد طلب منّي ردّاً يتجاوز حدود مقدرتي، توصلتُ إلى استنتاج واحد: كان رجل الكلاب، وقصته وأنا، نطارد أنفسنا في أنحاء العالم، مثل نجوم قدّر لمداراتها أن تتقاطع وتحدث انفجاراً.

بعد أن استمع إلى ردّي الإيجابي، تناول الرجل جرعة أخرى من القهوة وأشعل السيجارة التي كانت تنتظر في يده.

- هل سمعتَ مرّة عن رامون ميركادير؟

- كلّا - اعترفتُ، من دون تفكير.

- هذا طبيعي - قال بصوت منخفض، مع قناعة عميقة وابتسامة صغيرة، أقرب إلى أن تكون حزينة، على شفتيه-. لا أحد تقريباً يعرفه. وآخرون كانوا يفضلون ألّا يكونوا تعرّفوا إليه. وماذا تعرف عن ليون تروتسكي؟

تذكّرتُ أنّني سمعتُ بالاسم وعرفتُ لحظات من حياة تلك الشخصيّة الغامضة، المختفية تقريباً من التاريخ، والتي لا يرد لها ذكر في كوبا.

- أعرف القليل عنه. إنّه الرجل الذي خان الاتحاد السوفييتي. وهو الذي قتلوه في المكسيك - نبشتُ قليلاً في ذاكرتي-. طبعاً، هو شارك في ثورة أكتوبر. في دروس الماركسيّة تحدثوا لنا عن لينين، وقليلاً عن ستالين، وقالوا لنا إنّ تروتسكي كان مرتداً وإنّ التروتسكيّة رجعيّة ومضادة للثورة، هجمة على الاتحاد السوفييتي...

- أرى أنّهم هنا يعلمونكم جيداً - قال لوبيث.

- ومن هو رامون ميركادير؟ ولماذا عليَّ أن أعرفه؟

- عليك أن تعرف شيئاً عنه - قال، ليتوقف وقفة طويلة قبل أن يواصل الكلام-. رامون ميركادير كان صديقي، أكثر من صديقي... تعرفنا إلى بعض في برشلونه وشاركنا معاً في الحرب... قبل سنوات عدنا للالتقاء في موسكو. كانت الدبابات السوفييتيّة قد دخلت إلى براغ وعاد العالم كلّه إلى الكلام بصوت منخفض - نظر الرجل إلى البحر، وكأنّ مفاتيح الذاكرة تكمن وراء أمواجه-. مدينة الهمس. آخر فعل في مواجهة سياسة إذابة الجليد التي انتهجها خروشوف، وفي مواجهة اشتراكيّة مختلفة كان ما يزال يحلم بها. اشتراكيّة ذات وجه إنساني، يقولون...- تذكّر وفرك ظاهر يده المربوطة بضماد القماش-. عدنا للقاء بعضنا، في أول أيام سقوط الثلج من عام 1968... كان عمر رامون آنذاك خمسة وخمسين عاماً، تقريباً، لكنّه كان يبدو وكأنّه أكبر من عمره بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة. كان بديناً، وقد شاخ. لم نكن قد رأينا بعضنا منذ الحرب...- سكت، وكأنّه كان يفكّر طيلة الوقت الذي انقضى.

- أيّة حرب؟

- حربنا. الحرب الأهليّة الإسبانية.

- وهل التقيتم هكذا بالصدفة؟ - دفعني الفضول إلى سؤاله.

- حدث ذلك في اليوم الذي سقط فيه الثلج لأوّل مرّة في موسكو في ذلك الموسم. حدث وكأننا كنّا ننتظر أن نلتقي ثمّ خرجنا فجأة ليبحث

أحدنا عن الآخر...- ابتسم حين استحضر اللقاء، لكنّي لم أفهم، إلَّا بعد ذلك بسنوات طويلة، لماذا عاود النظر، في تلك اللحظة، إلى يده المربوطة-. التقينا في كورنيش فرونزا، مقابل حديقة غوركي، حيث كان يسكن. كان رامون قد سمن، كما ذكرتُ لك، وكان، إلى جانب ذلك، شديد البياض، ولو أنّ شخصاً آخر غيري رآه لكان من الصعب عليه أن يتعرّف في ذلك الرجل على الصبي الذي ودعته في خندق بجبال «غوادارّاما»، بذراع ترفع قبضتها إلى الأعلى، والثقة بالنصر تملأ نفسينا- توقف عن الكلام وأشعل سيجارة أخرى-. بعد ذلك، حين رحنا، أنا ورامون، نتبادل أطراف الحديث، اكتشفتُ أنّ صورة السعادة هي ما بقي له من تلك الحقبة الجميلة من دون شرخٍ ولا كسر، وهي صورة طالما استخدمها علاجاً يساعده على البقاء حيّاً. لذلك، حين قرر أن يحكي لي كلّ شيء، استودعني حلم حياته: إنّه لا يتمنّى شيئاً من الدنيا قدر ما يتمنّى أن يعود إلى شاطئ البحر في كاتالونيا، ولو لمرة واحدة قبل أن يموت. وأظنّ أنّه كان وقتها يعرف بأنّه سيموت...

بدأ الرجل الذي كان يحبّ الكلاب، حينها، وقد سمّر نظرته من جديد في البحر، بالحديث عن الأسباب التي جعلت صديقه رامون ميركادير يتذكر، حتّى آخر يوم من حياته، أنّه اكتشف، قبيل لحظات من نطقه بكلمات غيّرت مجرى حياته ووجوده، الكثافة الوبيلة التي ترافق الصمت في غمرة الحرب. لقد تراكم دويّ القنابل والرصاص والمحركات وصخب الأوامر وصرخات الألم التي عاش بينها طيلة أسابيع في وعيه مثل أصوات الحياة، وتحوّل السقوط المفاجئ لذلك الصمت الكثيف، القادر على أن يحدث فيه وحدة شبيهة بالخوف، إلى حضور مقلق، حين رأى أنّ وراء ذلك الصمت الهشّ القلق يكمن انفجار الموت متربصاً.

-13-

كشفت الأحداث التي جرت بدءاً من السادس والعشرين من آب من عام 1936 لليف دافيدوفيتش عن الأسباب، المعقدة في كثير من الأحيان، التي منعت ستالين، حتى ذلك الوقت، من أن يدقّ عنقه. لقد أدرك ليف دافيدوفيتش المنهمك، منذ ذلك اليوم، في معركة عمياء، أن لعبة القائد العظيم المرعبة ما زالت تستدعي بقاءه حيّاً، فمن على ظهره سيقفز ستالين إلى قمة السلطة الإمبراطورية الأعصى على البلوغ. أدرك، في الوقت نفسه، أنّ ستالين، وبعد أن يستثمر كلّ فائدة في عدوّه المثالي، ويقطع جميع الأشلاء المطلوبة، سيحدد ساعة ميتة ستحين بالدقة ذاتها التي يسقط فيها الثلج في الشتاء السيبيري.

كان ليف دافيدوفيتش، قبل أشهر قليلة من ذلك، وبعد أن توقع حدوث ما سيعقّد أجواء لجوئه الدقيقة، قد بدأ بالتخلّص من أيّة حجة يمكن للسلطات النرويجية أن ترفعها دليلاً ضده. لم تكن عدوانية حزب القائد كفيشلينغ، الموالي للنازية، تخيفه قدر ما كان يخيفه الحقد المتزايد الذي يبديه نحوه الستالينيون المحليون، الذين أضافوا إلى هجماتهم إشاعة أثارت قلقه: إنّهم يحذرون بإلحاح من أنّ «تروتسكي المعادي للثورة» يستخدم النرويج «قاعدة لنشاطاته الإرهابيّة الموجهة إلى الاتحاد السوفييتي وزعمائه». لقد نبّهته حاسة شمّه المدربة إلى أنّ التهمة ليست ثمرة حصاد محلي، بل إنّها قادمة من مكان أبعد، وتخفي أهدافاً أشدّ خبثاً. لذلك طلب من ليوفا ومن أتباعه أن يزيلوا اسمه من قائمة أعضاء

المكتب التنفيذي للأممية الرابعة، وقرر التوقف عن إجراء المقابلات، بل والامتناع عن المشاركة، ولو متفرجاً بسيطاً، في أيّ نشاط سياسي من نشاطات الحملة الانتخابية لمضيفه كونراد نودسن. وتقلّصت صلته بالعالم الخارجي لتقتصر على النزهة التي كان هو ونتاليا وآل نودسن يقومون بها مرّة في الأسبوع إلى «هونيفوس»، حيث اعتادوا أن يتناولوا العشاء في مطعم رخيص ثمّ يمضوا بقية السهرة في دار للسينما للتفرج على أحد أفلام الأخوة ماركس الكوميدية التي كانت نتاليا سيدوفا مولعة بمشاهدتها.

لذلك استغرب ألَّا يُبدي ضابطا الشرطة النرويجيان، اللذان حضرا في ذلك المساء إلى «فيكسهول»، اللطفَ الذي اعتادت سلطات البلد أن تعامله به. لقد أبلغه الضابطان بلغة رسمية جافّة أنّهما ينفذان أوامر من الوزير تريغفه لي وأنّهما حضرا ليسلماه رسالة ويعودا بها إلى أوسلو بعد أن يوقعها. بحث أصغرهما سنّاً في حقيبته عن ظرف مختوم سلّمه إيّاه. نظر نودسن ونتاليا بتوجس إلى ليف دافيدوفيتش وهو يفتح الظرف وينشر الورقة ويقرأ المكتوب، بعد أن عدّل وضع نظارتيه. لاحظا أنّ الورقة بدأت تهتزّ في يده وهو يقرأ مضمونها. حين انتهى من قراءتها، عاود ليف دافيدوفيتش حشر الورقة في الظرف ثمّ أعادها إلى الضابط راجياً منه أن يبلّغ الوزير أنّه لا يستطيع توقيع تلك الوثيقة وأن طلبه ذاك يبدو له عملاً لا يليق بتريغفه لي.

نظر الضابط الأصغر سنّاً إلى زميله دون أن يتجرأ على تناول الظرف. لقد تمكّن الارتباك من الشرطيين، اللذين تسمرا أمام موقف لم يكونا يتوقعانه. فترك ليف دافيدوفيتش الظرف ليسقط بالقرب من جزمة أكبر الضابطين، الذي تحرك بعد تردد: إن لم يوقّع على الوثيقة فقد يعتقل ويسلّم إلى العدالة إلى أن يبعد من البلد، لأنّ لديهم ما يثبت أنّه انتهك شروط الترخيص له بالإقامة حين تدخل في شؤون بلدان أخرى.

حينئذٍ وقع الانفجار: صرخ ليف دافيدوفيتش بالضابطين، وهو

يحرّك سبابته في إشارة تحذير واضحة، طالباً أن يذكّرا الوزير بأنّه تعهد له بعدم التدخل في الشؤون الداخليّة النرويجيّة، لكنّه ليس مستعدّاً، مقابل أيّ ثمن وتحت أيّ ظرف، للتخلّي عن حق تتمثل به صفة اللاجئ السياسي التي يحملها: وهو قول ما يراه مناسباً حول ما يجري في بلده. لذلك فإنّه لن يوقع تلك الوثيقة وإن أراد الوزير أن يسكته فعليه أن يخيط فمه أو أن يقدم على فعلة ستزعج ستالين بكل تأكيد: قتله.

بعد أيام، أدرك المنفيّ أنّ ستالين، بانتهازيته السياسيّة المعهودة، اختار، وعن دراية وتصميم، اللحظة الأنسب لترتيب مهزلة موسكو بهدف إظهاره وكأنّه المسؤول عن كلّ ما يمكن تصوره من فساد وشرّ. وشكّل توغل هتلر الأخير في الراينلاند صرخة في وجه أوروبا تحذّرها من أنّ النوايا التوسعية للفاشية الألمانية ليست مجرد خطاب هستيري. في تلك الأثناء، أدّى تمردُ قسم من الجيش الإسباني على الجمهورية، وبدايةُ حرب شاركت فيها قوات إيطالية وطيران وسفن ألمانية إلى وضع الحكوماتِ الديموقراطية (المرعوبة من احتمال بقائها وحيدة في مواجهة العدو الفاشي) في حالة من التبعية المطلقة تقريباً لقرارات موسكو. ما كان لأحد، في ذلك الفصل من الحوادث، حيث كانت تتقرر مصائر العديد من البلدان، أن يتجرأ على الدفاع عن مدانين مثيرين للاشمئزاز في موسكو أو عن منفي كان قد اتُّهم أساساً بالعمالة للفاشية وتلقي الأوامر من رودولف هيس[89]. لذلك بدا له واضحاً أنّ الضغط على الحكومة النرويجيّة شديد ونبّه نتاليا إلى أنّ عليهم أن يستعدوا لهجمات أكبر.

لكنّ المنفي قرّر أن يستثمر امتيازه الوحيد ما وسعه ذلك: فحكومة أوسلو لا تستطيع إبعاده، إذ لن يقبل به أحد، كما لا تستطيع أن تسلّمه إلى السلطات السوفييتيّة، التي لم تطالب به، على الرغم من طلبه بأن

89- Rudolf Hess (1894-1984). عسكري وسياسي ألماني. كان نائباً لهتلر وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية.

يُحاكم. لم يكن ستالين مهتمّاً بمحاكمته والحكم عليه، ولا سيّما بعد أن طرح موضوع إعادته إلى بلده أمام محكمة نرويجيّة حيث سيحظى بفرصة لتفنيد التهم الموجهة إلى شخصه وإلى من حوكموا وحكموا وأعدموا في موسكو.

تأكّد لليف دافيدوفيتش أنّ الأزمة نشأت حين استدعته محكمة أوسلو بحجة الإدلاء بشهادته حول حادث اقتحام بيت نودسن: وبدأ كلّ شيء يتضح حين شرح له القاضي قواعد اللعبة، ونبّهه إلى أنّه هناك لا للاستجواب بل للإدلاء بشهادته، وعليه فهو لن يسمح بحضور محاميه النرويجي بونترفولد، ولا نتاليا زوجه، ولا حتّى نودسن، بصفته مالك البيت الذي تعرّض لحادث الاقتحام. فكان عليه أن يردّ، وحيداً أمام القاضي وأمناء سرّ المحكمة، على أسئلة تتصل بطبيعة الوثائق المسروقة، التي تخلو من أيّ تدخل من ناحيته، كما أكّد هو، في أيّ شأن من شؤون النرويج الداخلية ولا من شؤون أيّ بلد غير بلده. وحين لوّح القاضي ببعض الأوراق فهم لييف دافيدوفيتش الفخ الذي نصب له: ذلك المكتوب، بحسب القاضي، يثبت العكس، لأنّه كان وجّه، بمناسبة الجبهة الشعبيّة، نداءً يدعو فيه إلى الثورة في فرنسا.

في المقال، الذي كتبه بعد انتصار تحالف القوى اليسارية الفرنسية، قال لييف دافيدوفيتش إنّ ليون بلوم، وكان رئيس الحكومة الجديدة، يمثّل حدّاً أدنى من الضمان في مواجهة النفوذ الستاليني وسعيه للحصول على موطئ قدم في البلاد، وأكّد على أن فرنسا، إذا ما استطاعت أن تتشدد في سياستها، ففي مقدورها أن تصبح مركزاً للثورة الأوروبيّة، التي انتظر حدوثها منذ عام 1905، الثورة القادرة على التصدّي للفاشيّة وعزل الستالينيّة. أمّا القاضي، فقد رأى في تلك الوثيقة دليلاً على سلوك غير وفيّ تجاه الحكومة التي استقبلته وأكرمت وفادته، وانتهاكاً لشروط اللجوء. فسألهم لييف دافيدوفيتش الغاضب إن كانوا يحققون في آرائه السياسية أم في عملية الاقتحام التي تعرض لها المنزل الذي

يقيم فيه على يد مجموعة موالية للفاشية. لكنّ القاضي التفتَ إلى كاتب المحضر، وكأنّه لم يسمعه، ليثبّتَ أنّ السيد تروتسكي أقرّ بأنّه هو كاتب الوثيقة التي تدلّ على تدخله في سياسة بلدان ثالثة.

حين اتجه نحو الباب، أبلغه رجال الشرطة الذين كانوا في حراسته بأنّ عليهم اصطحابه إلى وزارة العدل. في المبنى المجاور استقبله موظفون تقمّصوا أدوارهم حتّى بدوا له شخصيات خرجت لتوّها من واحدة من قصص تشيخوف. أبلغوه باعتذار الوزير «لي» عن لقائه، لأنّه موجود خارج الوزارة، وقدموا له تصريحاً طلبَ الوزيرُ منه أن يوقعه لغرض تمديد إقامته في البلاد. ظنّ لييف دافيدوفيتش، وهو يقرأ التصريح، أنّ صدغيه سينفجران إن هو لم ينفجر غضباً.

«أنا ليف دافيدوفيتش»، قرأ، «أصرّح بأنّنا، أنا وزوجي ومساعديّ، لن نمارس أيّ نشاط سياسي موجّه إلى أيّ بلد صديق للنرويج ما دمنا مقيمين على أرضها. وأصرّح بأننا سنقيم في المكان الذي تختاره الحكومة أو تجيزه، وبأنّنا لن نتدخل بأيّ شكل من الأشكال في الشؤون السياسيّة، وبأنّ نشاطاتي في الكتابة ستقتصر على التاريخ والسير والمذكرات، وأنّ كتاباتي النظرية لن تكون موجهة إلى حكومة أيّ بلد أجنبي. وأوافق على أن تخضع جميع المراسلات والبرقيات والمكالمات الهاتفية التي أقومُ بها أو أتلقاها للرقابة...»

نهض المنفي من مكانه وهو يطوي التصريح ويجعده ويسأل عن السبيل إلى أقرب سجن يزجونه فيه للإبقاء عليه ساكتاً.

لكنّ ليف دافيدوفيتش سرعان ما اكتشف أنّ النرويجيين الخائفين لم يكونوا في حاجة إلى الزجّ به في أيّ سجن لحمله على سكوتٍ يعرف الجميع أنّ ستالين يطالب به، سعياً منه إلى دفن أيّة حجّة تفضح الأكاذيب والتناقضات التي حفلت بها المهزلة القضائية التي شهدتها موسكو مؤخراً. مع عودته إلى «فيكسهول»، وبعد أن حجزوا مساعديه، الذين أصدروا في حقهم أوامر بالإبعاد، أودعوه هو ونتاليا في غرفة خصصها

لهما نودسن، ووضعوا على بابها زوجاً من الحرس لمنعه من الاتصال حتّى بصاحب الدار الذي ينزل فيه. وتمكّن لييف دافيدوفيتش، في حركة تذكّر بألعاب الأطفال، وإن كانت محزنة ومروعة، من أن يمرّر من تحت الباب رسالة احتجاج رسمي إلى الوزير يتهمه فيها بانتهاك الدستور إذ فرضوا عليه حجزاً لم تأمر به أيّة محكمة. وفي اليوم التالي، سلّم أحد رجال الشرطة تريغفه لي مذكرة تبلغه بأن الملك هاكون وقّع أمراً بمنحه صلاحيات تتجاوز الدستور تخصّ حالة المنفي لييف دافيدوفيتش تروتسكي وزوجه نتاليا إيفانوفا سيدوفا. وبدا تريغفه لي، من دون أدنى شك، مستعداً «بسكوته» لإلقاء ظلال كثيفة من الشك حول براءة المنفي.

كان لييف دافيدوفيتش موقناً بأنّ أوقاتاً أصعب وأقسى تقترب، لذلك كلّف سكرتيره أروين وولف بإيصال كتابه «الثورة المغدورة» في مسودته الأخيرة إلى ليوفا. على الرغم من أنّه كان قد أعلن عن انتهائه من الكتاب في بداية الصيف، فإنّ أحداث موسكو أجبرته على التريث في إرساله إلى دور النشر، فقد كان يأمل أن يتمكّن من إضافة آرائه حول محاكمة زينوفييف وكامينيف ورفاقهما. لكنّه، مع غياب عامل الاستقرار في حياته ومع جهله بما قد يقع له، قرّر الاكتفاء بإضافة مقدمة صغيرة: الكتاب هو نوع من الإعلان الذي يلائم لييف دافيدوفيتش فيه فكره مع الحاجة إلى ثورة سياسية في الاتحاد السوفييتي، تغيير اجتماعي قوي يسمح بالإطاحة بالنظام الذي فرضه ستالين. لم يفته أن ينبّه إلى المفارقة الغريبة التي ينطوي عليها مشروع سياسي لا تفهمه أشدّ العقول الماركسية تحمساً، وكيف لها أن تفهم ضرورة دعوة البروليتاريا إلى الانقلاب على دولتها بعد أن بلغت الحلم الاشتراكي. أمّا الدرس الكبير الذي يطرحه الكتاب فهو أنّ الدولة العمالية، شأنها شأن البرجوازية حين أنشأت صيغاً عديدة للحكم، بدت وكأنّها خلقت صيغها الخاصة بها، وبدت الستالينية من بين تلك الصيغ الصيغة الرجعية والدكتاتورية للنموذج الاشتراكي.

ومع الأمل في أنّ إنقاذ الثورة ما زال ممكناً، حاول أن يفصل الماركسيّة عن التشويه الستاليني، الذي كان يصفه بأنّه حكومة أقليّة بيروقراطيّة تستخدم القوة والإكراه والترهيب وإطفاء أيّ بصيص من الديموقراطية لحماية مصالحها من استياء الأغلبيّة داخل البلاد ومن البؤر الثورية لنضال الطبقات في العالم. وانتهى متسائلاً: ماذا بقي من أنبل تجربة حلم بها الإنسان بعد أن فسدت حتّى أحشاؤها والحلم الاجتماعي والهدف الاقتصادي الأسمى الذي كانت تحمله وتنادي به؟ ثمّ رد على سؤاله: لم يبقَ شيء. ولن يبقى للمستقبل غير بصمة أنانيّة استغلّت الطبقة العاملة في العالم وخدعتها؛ ستبقى ذكرى أقسى وأحقر دكتاتورية يمكن للهوس البشري أن ينتجها. أمّا الإرث الذي سيخلّفه الاتحاد السوفييتي للمستقبل فهو إخفاقه، وهو تخوّف أجيال كثيرة من البحث عن حلم في مساواة تحوّلت، في الحياة الواقعية، إلى كابوس في نظر الأغلبيّة.

***

اكتسب الهاجس الذي دفعه إلى أن يأمر أروين وولف بإرسال مسوّدة «الثورة المغدورة» شكلاً وصورة في اليوم الثاني من أيلول. في ذلك اليوم تولّد لديه ولدى نتاليا انطباع بأنهما يفتحان صفحات أكثر فصول الدوامة التي انتهت إليها حياتهما ظلاماً، وأيقنا أنّ الآلة الستالينيّة لن تتوقف قبل أن تقضي عليهما خنقاً. وصل إخطار موجز يبلغهما بأنّهما سينقلان للسكن في مكان اختاره وزير العدل، وأنّهما لن يحملا معهما متاعاً غير أغراضهما الشخصيّة. مع ذلك سمح لهما رجال الشرطة بتوديع أسرة نودسن. خيّمت على البيت أجواء الحزن، وبكى الشباب من أبناء نودسن حين رأوهما يخرجان كالمنبوذين بعد أن تقاسموا معهما العيش قرابة عام واحد من حياتهم، انضمّ أثناءه إلى عائلتهم عضو جديد (تزوّج أروين وولف جوركيس، إحدى بنات نودسن)، وشاركوهما الاستمتاع بشرب القهوة وعاشوا معهما فكرة، أوحت بها تلك اللحظات، مفادها أنّ الصحيح لا يصحّ دائماً في هذا العالم.

لقد اختاروا لهما ضيعة اسمها «ساندباي»، تقع في خليج خالٍ تقريباً من السكان في «هوروم»، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من أوسلو، حيث استأجرت الوزارة بيتاً من طابقين سيقيم فيه المبعدان وفي رفقتهما عشرون شرطيّاً، سيمضون وقتهم بالتدخين ولعب الورق. أمّا القيود فستكون أسوأ من قيود السجن: لن يسمح لهما بالخروج، ولن يستقبلا غير المحامي بونترفولد، الذي ستفتش أوراقه عند دخوله وعند خروجه. سيتسلمان الصحف والبريد بعد أن تمرّ برقابة صارمة قوامها مقص وحبر غامق، يكلّف بها موظف يتفاخر علناً، شأنه شأن جوناس دي، رئيس مجموعة الشرطة المكلفة بحراستهما، بأنّه ينتمي إلى حزب كفيشلينغ القومي الاشتراكي.

ما عاد المبعدان يعرفان أخبار ما كان يجري خارج ذلك الخليج البعيد إلَّا بعد أن تمكّن نودسن من الحصول على ترخيص بإعادة جهاز الراديو إليهما، وكان صودر منهما لدى مرورهم بأوسلو. وتمكّن ليف دافيدوفيتش من قياس مدى النجاح الذي حققه ستالين بالتعاون مع النرويجيين حين استمع إلى تصريحات المدعي العام فيشنسكي الذي قال إنّ امتناع تروتسكي عن الردّ على التهم الموجهة إليه من طرف وزارته يرجع إلى أنّه لا يملك الحيلة لتفنيدها، وما صمت أصدقائه في الحكومات الاشتراكية في النرويج وفرنسا وإسبانيا وبلجيكا إلَّا دليل على استحالة تفنيد ما لا يقبل تفنيداً. وخلُصَ ليف دافيدوفيتش إلى أنّ عليه أن يُسمع صوته وإلَّا ضاع، وإلى الأبد: حتّى الكذب المفضوح يتحوّل بالتكرار إلى حقيقة واقعة إن لم يتصدّ أحد لردّه ودحضه: يريدون إسكاتي، لكنّهم لن يظفروا ببغيتهم.

استعمل حبراً سريّاً، هرّبه له نودسن في زجاجة دواء للسعال، لكتابة رسالة وجّهها إلى ليوفا يأمره فيها بأن يبادر إلى شنّ هجوم مضاد، وأرفق بالرسالة إعلاناً موجّهاً إلى الصحافة يفنّد فيه التهم الموجهة إليه، ويتهم ستالين بترتيب محاكمة آب لقمع أجواء الاستياء التي تخيّم على اتحاد

الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وللتخلّص من كلّ معارضة، في هجمة إجراميّة بدأت باغتيال كيروف. يشير أيضاً إلى انقطاع أيّ اتصال له بأيّ شخص يعيش على الأراضي السوفييتية، بمن فيهم ولده الأصغر، سيرغي، الذي لم يصله خبر عنه منذ أكثر من تسعة أشهر. ثمّ يعرض على الحكومة النرويجية استعداده لدراسة التهم الموجهة إليه وتحليلها، ويطالب بإنشاء لجنة دوليّة مشكّلة من المنظمات العمالية للتحقيق في التهم ومحاكمته علنيّاً... في الخامس عشر من أيلول، بلغ صوته الأسماع وتردد مع تلك الصرخة، فكأنّه بُعث من عالم الغيب: كان إعلاناً عن أنّ ليف دافيدوفيتش تروتسكي لن يستسلم.

ومع أنّ المنفي تجنّب في رسالته الحديث عن خلافه مع السلطات النرويجيّة وعن الفصول المهينة التي تعرّض لها في الأيام الأخيرة، ومع أنّه وضع يوم السابع والعشرين من آب (عشيّة مثوله أمام المحكمة في أوسلو) تاريخاً لها، فقد أصدرت وزارة العدل أمراً يحرّم عليه مستقبلاً أيّ اتصال بريدي.

لذلك، وعلى الرغم من أنّه أيقن، ومنذ شهور طويلة، أنّ الوقت المتبقي من حياته لن يتسع لتصحيح مسار التيار السياسي الذي حوّله إلى منبوذ وحوّل الثورة إلى حمام دم بين الأخوة والرفاق، قرّر الاندفاع صوب الجدار والعمل على أن يكون لإعلانه صدى أكبر. فأمر محاميه بونترفولد برفع دعوى على محرري صحيفة «فريت فولك = الشعب الحُرّ» النازيّة وصحيفة «أربيدرين = العامل» الستالينية، متأملاً كسر الطوق وتحويل المحكمة إلى منبر له. قدّم المحامي الطلب في السادس من تشرين الأول وأبلغه بأنّه بدأ الإجراءات للنظر في الدعوى قبل نهاية الشهر. لكنّ الشهر انقضى ولم يبدأ النظر في الدعوى، حتّى وصل التوضيح في اليوم الثلاثين: لقد أوقف الوزير «لي» إجراءات المحاكمة مستنداً إلى مرسوم ملكي جديد ينص على أنّ «ليس في مقدور الأجنبي المحتجز وفق المرسوم الصادر في الحادي والثلاثين من آب من عام

1936 المثول أمام أيّة محكمة نرويجية بصفة مدعٍ من دون التنسيق مع وزارة العدل».

سافر بونترفولد في السابع من تشرين الثاني إلى «ساندباي» محمّلاً بكعكة رائعة أرسلها كونراد نودسن إلى ليف دافيدوفيتش بمناسبة عيد ميلاده السابع والخمسين والذكرى التاسعة عشرة لثورة أكتوبر. رافق جوناس دي، الفاشي الذي يقود مجموعة الحراسة، المحامي وهو يقدّم له الكعكة، بل لقد هنأ سجينه وتمنّى له سنوات طويلة من السعادة (كان من الوقاحة أنّه هنأه جادّاً). طلبا من حارسهما أن يسمح لهما بخلوة للاحتفال بالهدية غير المتوقعة. وحين انفردا بنفسيهما، فتحت نتاليا علبة الكعكة وأخرجت لفافة الورق الصغيرة. أغلق ليف دافيدوفيتش باب الحمام على نفسه ليقرأ: إنّ نودسن يعلم بأنّ تلك القصّة شغلت باله طوال الشهرين الأخيرين، لكنّه لم يستطع التعرف على التفاصيل إلّا مؤخراً، وسيكتب الآن للمنفي تلك التفاصيل بحروف صغيرة مستغنياً عن الأوصاف ومستخدماً الكثير من المختصرات.

قال نودسن إنّ الحكومة السوفييتية، وبعد ثلاثة أيام من تحديد إقامة المنفي في «فيكسهول» في التاسع والعشرين من آب، طلبت من الوزير «لي»، وكان حينها مكلفاً بمهام وزير الخارجية المسافر لبضعة أيام، أن يأمر بطرد المنفي، لأنّه يستخدم النرويج قاعدة للتخريب ضد الاتحاد السوفييتي، حسب قولهم، ولأنّ منحه اللجوء لوقت أطول، قالوا مهددين، سيضر بالعلاقات بين البلدين. وقد أكّد «لي» أنّه حين أمر باحتجاز تروتسكي في السادس والعشرين من آب، لم يكن قد تلقّى ذلك الطلب، لذلك لا يستطيع أحد أن يتهمه باحتجاز المنفي خضوعاً لضغوط سوفييتيّة. مع ذلك، فقد صرّح ياكوبوفيتش، السفير الروسي في أوسلو، بأنّه نقل الطلب شفويّاً إلى تريغفه لي قبل ذلك التاريخ بأيام، بعد أن أجرت صحيفة «أربيده بلاده = صحيفة العمل» مقابلة مع ليف دافيدوفيتش. في تلك المناسبة، هدّد السفير بأزمة سياسية، بل بقطع العلاقات التجارية.

وخشي البحارة وصيادو الأسماك النرويجيون، الذين بلغهم موضوع الخلاف، من عمل انتقامي يضرّ بمصالحهم، فامتثلت أوسلو للضغوط وكلّفت «لي» بمهمة الضغط على لييف دافيدوفيتش، لذلك طلب الوزير منه آنذاك أن يوقع تصريحاً أراد أن يرضي به السوفييت، لكنّه حين لم يحصل على ذلك التصريح اضطر إلى الأمر بحجزه في «ساندباي».

راح لييف دافيدوفيتش، مستعيناً بالحبر السري، يحضّر رسالة إلى ليوفا ومحاميه الفرنسي جيرارد روزنثال، سرد فيها، وهو يشعر بالتحرر من أيّ التزام تجاه الساسة النرويجيين، تفاصيل حجزه وأسبابه، وطلب من ولده أن يسرّع من وتيرة الحملة على ستالين: لقد صار يدرك أكثر من أيّ وقت مضى أن لا فرصة أمامه غير المقاومة، لأنّه بسكوته واستسلامه إنّما يعترف بالنصر للدُّمية «لي» ولستالين، الذي يحرّك، من بعيد، خيوطها.

حاول المحتجز، من خلال الراديو والصحف القليلة المقطعة التي يسمحون له باستلامها، أن يواكب مجريات الأحداث. وصدقت توقعاته حين علم، وبه شيء من الرضا المرير، بأنّ الاعتقالات مستمرة في موسكو بحق معارضين حقيقيين أو موهومين. كان من بين الذين سقطوا ذو السمعة السيئة كارل راديك [37]، الذي أعلن للصحافة مؤخراً عن موت «قاطع الطريق الكبير تروتسكي»؛ علم أيضاً باعتقال البائس بياتاكوف [10]، الذي ظنّ أنّ سيكون بمنجاة من العقاب حين صرح بأن الواجب يقتضي التخلّص من التروتسكيين، كما من الجيف. في ذلك الخط من التوقعات حدثت إقالة ياغودا [71] من قيادة جهاز الجيبيو وتعيين شخصية كالحة هو نيكولاي يجوف[90]، الذي وضع ستالين في يده العصا لقيادة فصل آخر من فصول الترويع: كان لييف دافيدوفيتش يعلم أنّ موسكو في حاجة إلى مسرحية جديدة تغطي بها على أكاذيب

90- نيكولاي يجوف (1895-1940) رئيس جهاز الجيبيو والمسؤول عمّا عرف بعمليات «التطهير الأعظم» التي جرت في ثلاثينيات القرن الماضي والتي راح ضحيتها مئات الآلاف من معارضي نظام ستالين أو ممن لم يكونوا موضع ثقته أو رضاه.

محاكمة آب وتتخلص بواسطتها من شركاء مطلعين على الكثير من بواطن الأمور، كما هو حال ياغودا أو راديك الوضيع.

كان مسار الحرب الأهليّة الإسبانية يمثّل نقطة أخرى من نقاط اهتمامه، فربّما شهدت تلك الحرب تحوّلاً بعد الإعلان الأخير الذي أصدره ستالين عن تقديم دعم لوجستي إلى الجمهورية. لكنّه لم يستغرب إذ سمع بأنّ العملاء السوفييت سافروا إلى مدريد مع الأسلحة، بل ربّما قبلها، ليهيئوا الأرضيّة وليزرعوها بالألغام لكي تؤتي مصالح موسكو ثمارها. وتصوّر لييف دافيدوفيتش مدى رغبته في أن يكون في إسبانيا، وهي تعيش أجواء الثورة والفوضى، على الرغم من تعرّج خط تلك الحركة. بل لقد كتب، قبل أشهر، حين بدأت صورة الجمهورية تتوضح بعد النصر الانتخابي الذي حققته الجبهة الشعبيّة، إلى رئيس كاتالونيا كومبانيز طالباً منه تأشيرة دخول، وهو الطلب الذي رفضته الحكومة المركزية، بعد أيام من وصوله، رفضاً قاطعاً... لقد تمنّى لييف دافيدوفيتش، بأسلوبه، أن يتمكن الجمهوريون من مقاومة زحف القوات المتمردة التي تحاول الدخول إلى مدريد واحتلالها، وإن شعر حينها بأنّ انتصار الثوريين الإسبان على الفاشيين سيكون أسهل من انتصارهم على الستالينيين المستميتين البغيضين الذين فتح الإسبان لهم الباب الخلفي.

وصلت بشرى فوز نودسن عن منطقته في الانتخابات البرلمانية إلى لييف دافيدوفيتش ومعها خبر مستغرب إذ سمحت السلطات بوصول «الكتاب الأحمر حول محاكمات موسكو»، الذي نشره ليوفا في باريس، إليه. وتبين للييف دافيدوفيتش أنّ الكتيّب نجح، بلا شكّ، في البرهنة على التناقضات التي وقع فيها الادعاء العام والأكاذيب التي ردّدها، وفي لفت أنظار العالم إلى أنّ محاكمة لم تقدم فيها أدلّة، بل بنيت على اعترافات من متهمين أودعوا الاعتقال ما يزيد على سنة، لا يمكن أن تكون محاكمة قانونية.

أمّا أكثر ما بعث السعادة والرضا في المنفي فهو تأكده من أنّ ولده ليوفا قادر على اتخاذ القرار متى حان الوقت المناسب لفعل ذلك.

كانت الرسائل التي يرسلها ليوفا إليه، قبل نشر «الكتاب الأحمر» وبعده (كان بونترفولد يحاول أن يردد تلك الرسائل على مسامعه بعد أن يحفظها في ذاكرته حفظاً)، تشي بالتوتر الذي كان الشاب يعيشه، ولا سيّما بعد محاكمات آب. ومع أنّ تلك المحاكمات كان لها أثرها الإيجابي، إذ قرّبت إليه رفاقه القدماء، من مثل ألفريد ومارغريت روسمر، المستعدين للدفاع عن ليف دافيدوفيتش، فقد خلقت في ليوفا إحساساً لا يفارقه: إحساس بأنّه محاصر، إحساس يحمله على الشعور بالخوف من أن يختطف أو يقتل. وازداد وضعه تعقيداً حين لم يجد المال المدين به لمطبعة «الوقائع»، وحين توترت علاقته مع «جين»، التي صارت تردد، بعد قطيعته السياسيّة مع موليبه، بأنّها تشعر بأن مواقفها وآراءها باتت أقرب إلى مواقف زوجها السابق منها إلى مواقف ليوفا وأبيه. مع ذلك لم يكن وضعه ولا علاقته الزوجية هما أكبر همه، بل كان شيئاً أثمن من ذلك بكثير: ملفات ليف دافيدوفيتش الشخصيّة والتاريخية، المحفوظة في باريس. كان ليوفا قد أفلح في نقل ملكية قسم من الوثائق إلى المعهد الهولندي للتاريخ الاجتماعي، وسلّم، في بداية تشرين الثاني، قسماً آخر منها إلى فرع المعهد المذكور في فرنسا. أمّا البقيّة، وكانت تضمّ بعضاً من رزم الأوراق السريّة، فقد وضعها تحت حماية صديقه مارك زبوروفسكي، المثقف البولوني الأوكراني القدير الذي كان الجميع ينادونه بـ «إيتان».

وسرعان ما تبيّن أن موضوع الملفات هو شيء يفوق الهوس لدى ليوفا، فبعد أن سلّم القسم الآخر إلى المعهد، وقع ما كان يخشاه: في ليلة السادس من تشرين الثاني دخلت مجموعة من الرجال إلى المبنى وسرقوا عدداً من رزم الأوراق تلك. رأت الشرطة في ما حدث عملية سياسية قام بها محترفون، إذ لم يأخذوا من المكان شيئاً آخر ذا قيمة.

الغريب أنّ اللصوص كانوا يعلمون بوجود مستودع لم يكن يعلم بوجوده إلّا أقرب الناس إلى ليوفا. ثُمّ: إذا كان اللصوص يعرفون أهميّة الوثائق، فلماذا سطوا على المعهد ولم يسطوا على شقّة إيتان، حيث الوثائق الأكثر قيمة؟ اتهم ليوفا جهاز الجيبيو بالسرقة، لكنّ أباه، وكما حدث في حوادث الحريق في بيتي بيوك آضه وكاديكوي، أحسّ بأنّ وراء الحادث تدبيراً.

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني حمل المحامي بونترفولد إلى آل تروتسكي نعي أملٍ ضعيف آخر من آمالهم: لقد رفض رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، روزفلت، مجدداً طلب اللجوء الذي توجه به إليه ليف دافيدوفيتش. فلم يبقَ أمامه من الخيارات للخروج من الخليج غير المسعى الذي كان أندريس نين، وهو العضو في الحكومة الكاتالونية المحلية، يقوم به للحصول له على لجوء في إسبانيا، والمسعى الآخر الذي كان ليوفا قد بدأه عن طريق آنيتا برينر[91]، الصديقة المقربة من دييغو ريبيرا[92]، لكي يتدخّل الرسام لدى الرئيس لاثارو كارديناس، ويحصل له على لجوء في المكسيك. كانت إمكانية السفر إلى المكسيك، وهي الأقرب إلى الواقع في نظر ليف دافيدوفيتش آنذاك، تثير قلقه: إنّه يعلم أنّ حياته في هذا البلد ستكون مهددة قدر التهديد الذي يمثله نومه عارياً على شاطئ خليج «هوروم» المتجمد.

في اللحظة الأدق من محتجزه، تلقى ليف دافيدوفيتش زيارة تريغفه لي، الذي لم يره منذ اندلاع الأزمة. أحضر له «لي» مؤونة بعث بها إليه نودسن، كان منها كيس قهوة، فتحته نتاليا وبدأت بتحضيرها. بعد أن تناولوا القهوة أخبره الوزير بأنّه حضر ليخبره بأنّ محاكمة رجال كفيشلينغ ستجري يوم الحادي عشر من كانون الأول. لم يستطع ليف دافيدوفيتش

91- Anita Brenner (1905–1974) صحفية ومؤرخة وكاتبة. ابنة عائلة يهودية هاجرت من ليتوانيا واستقرت في المكسيك. تأثرت بأفكار الثورة المكسيكية وكانت على صلة بالفنانين والأدباء الطليعيين.

92- Diego Rivera (1886–1957). رسّام مكسيكي شهير وشيوعي نشط. تزوّج الرسامة المكسيكية أيضاً فريدا كاهلو (1907–1954).

تجنب الابتسام: وهل سيدعونه يتكلم أمام الجمهور؟ أشاح تريغفه لي بنظره نحو المجلدات المصفوفة على المنضدة وقال له إنّ المحاكمة ستجري خلف أبواب مغلقة. ومع أنّ لييف دافيدوفيتش أحسّ بالغضب يغمره، فقد أمسك بأعصابه وسأل الوزير إن لم يكن يشعر بالخجل وهو يحلق ذقنه أمام المرآة وينظر إلى وجهه. غطّى بخار أحمر وجه «لي»، الذي انتظر لحظات قبل أن يلومه على جحوده: أليس هو سياسيّاً؟ ألا يعرف السياسي متطلبات السياسة؟ فجاء توضيح الآخر مباشراً: «لي» سياسي أمّا هو فثوري... فهل «لي» مستعد لمعاناة ما عانى هو ويعاني؟ سأل. نهض تريغفه لي، بعد أن اقتنع أن ليس عليه أن يوفّر لذلك الرجل منبراً أبداً. مع ذلك، مدّ الوزير، في مسعى للتوصل إلى شيء من التهدئة، يده إلى الكتب المكدسة على المنضدة ورفع أحد كتب إبسن: عدوّ من أعداء الشعب. ووجد لييف دافيدوفيتش الفرصة مرسومة في الهواء وأشار إلى مدى ما يتطابق ذلك العنوان مع وضعه الحالي: فالسياسي ستوكمان، الذي يخون صديقه، قريب الشبه بالوزير «لي» وأصدقائه، وردد من حافظته مقطعاً: «ما زال أمامنا أن نعرف إن كان في الشر والجُبن من القوة ما يكفي للجم فم رجل حرّ وشريف». ثمّ حيّا الوزير ومدّ له يده لكي يستعيد منه الكتاب.

ردّ تريغفه لي على المنفي، من دون أن ينظر إليه، قائلاً إنّ هناك طرقاً كثيرة للجم فم رجل «شريف»، بل للجم حياته: سيُنقل خلال أيام إلى بيت أصغر، بعيداً عن أوسلو، فالوزارة لا تستطيع تحمّل أعباء الإيجار وإعالته هو وزوجه وحرسه في ذلك المكان. ثم رمى بالكتاب على المنضدة وخرج إلى الثلج.

حضر لييف دافيدوفيتش محاكمة رجال كفيشلينغ، مع أنّه كان يعرف بأنّها لن تكون أكثر من ستارة دخان يتصافح خلفها العمال والقوميون الاشتراكيون النرويجيون، فرحين بالتعاون على تهميشه. مع ذلك، انتهز في إفادته الفرصة للقول بأنّ تلك المحاكمة تعقد خلف أبواب مغلقة تنفيذاً لأوامر أصدرها ستالين إلى الوزير الفاشي تريغفه لي.

وحين أبلغوه، بعد أسبوع من الزمان، بزيارة جديدة للوزير «لي»، استعد المنفي للأسوأ. ظلّ الوزير واقفاً. لم يخلع معطفه ولم ينظر إلى ليف دافيدوفيتش، بل بادر إلى القول بأنّ الرئيس كارديناس، ولمصلحة الجميع، وافق على منحه اللجوء في المكسيك وإنّه سيسافر في الحال.

على الرغم من أنّ السفر إلى المكسيك بدا للمنفيّ محفوفاً بالمخاطر، فقد راح يقنع نفسه بأنّ الموت على يد قاتل خير له من العيش في أسر يزداد قسوة لينتهي بسحقه. كان استعجال النرويجيين في إخراجه من بلدهم- لم يسمحوا له حتى بتقديم طلب رخصة للمرور بفرنسا ولقاء ولده ليوفا- يعكس أجواء التوتر التي عاشها «لي» وبقية الوزراء في الأشهر الأربعة الأخيرة بسببه. مع ذلك، فكّر ليف دافيدوفيتش أنّ عليه ألّا يضيّع تلك الفرصة من يديه وذكّر «لي» بأنّ ما فعله هو وحكومته في حقه استسلام، وأنّ ذلك سيكلّفهم غالياً، لأنّ لحظة وصول الفاشيين إلى النرويج تقترب، وعندها سيتحولون جميعاً إلى لاجئين. لم يكن ليف دافيدوفيتش يتمنّى سوى أن يصادف الوزير وأصدقاؤه في يوم من الأيام حكومة تعاملهم كما يعاملونه هم الآن. استمع تريغفه لي إلى تلك النبوءة، وهو مسمّر في وسط الغرفة، فرسم ابتسامة خفيفة على شفتيه، وهو عاجز عن تصوّر الطريقة المأساوية المرعبة التي قد تتحقق بها.

جهّزت نتاليا الأمتعة بينما استعد ليف دافيدوفيتش، وكان ما يزال يخشى أن تؤدي العجلة والسرّيّة بهم إلى الوقوع في فخ، لإطلاق آخر إشاراته التحذيرية. كتب، على عجل، مقالاً هاجم فيه محامي المجلس الاستشاري الملكي الإنكليزي وعضو رابطة حقوق الإنسان الفرنسي، اللذين كانا قالا بشرعيّة محاكمات موسكو، وكتب إلى ليوفا رسالة، هي بمثابة الوصية: إن حدث له أو لوالدته مكروه أثناء سفرهما إلى المكسيك أو إلى أيّ مكان، فإنّ ليوفا وسيروجا هما وريثاه. حثّ ليوفا أيضاً على ألّا ينسى أخاه، وطلب منه، إن عاد والتقى به، أن يقول له إنّ والديه لم ينسياه قط.

في التاسع عشر من كانون الأول من عام 1936، صعدا إلى السيارة التي أقلّتهما من خليج «هورروم»، يلفهما ضياء الشتاء المعتم. تأمّل لييف دافيدوفيتش الطبيعة النرويجيّة وفكّر، وهما يبتعدان عن الخليج، في حصيلة منفاه، وخلص إلى أن الخسائر والإخفاقات تفوق الربح غير المؤكد بأضعاف. لقد نالت سنوات التهميش والهجمات التسع منه وحوّلته إلى منبوذ، يهودي جديد تائه محكوم بالازدراء وينتظر موتاً مشيناً سيبلغه حين يستنفد الإذلال غرضه منه ويشبع به ساديّته. إنّه يغادر أوروبا، ربما إلى الأبد، مخلّفاً فيها جثامين رفاق كثيرين وقبري ابنتيه، من دون متاع غير الأمل في أن يقدر ليوفا وسيرغي على المقاومة والخروج، على الأقل، أحياء من تلك الدوامة؛ الأحلام تتبخر، الماضي، المجد، والأشباح، ومنها شبح الثورة التي ناضل من أجلها سنين طويلة. مع ذلك، كتب: فمعي تسافر الحياة، ومهما ظنّوا بأنني كُسرت، فلن أهزم، ما دام فيّ نفس.

-14-

ابتسم رومان بافلوفيتش ابتسامة من عاد إلى الحياة حين فكّ له غريغورييف شفرة الحروف التي كتبت بالروسيّة وقرأ الاسم المطبوع في جواز السفر: ر.و.م.ا.ن.- ب.ا.ف.ل.و.ف.ي.ت.ش.- ل.و.ب.و.ف. راح السوفييتي يحرّك سبابته فوق الحروف بينما كان المولود الجديد رومان، ابن بافلو، يتمعّن مبتسماً في الحروف الثابتة والمتباعدة ويجاهد لنقشها في ذهنه. في الصورة التي تظهر في جواز السفر، والتي أخذت له في قبو البناية التي تشغلها السفارة السوفييتية في بلنسية، كان يبدو أكبر من سنّه، فكأنّه تغيّر منذ آخر مرّة تطلع فيها إلى المرآة: مع ذلك أعجبه وجه رومان بافلوفيتش، الذي يوحي بالقوّة والشدّة، فكأنّه صُبّ من قسوة القوقاز التي تقول الوثيقة إنّه ولد فيها. مدّ غريغورييف له يده المتوترة طالباً منه أن يعيد إليه الجواز، فأعاده بإحساس من يسلّمُ قطعة من روحه.

منذ أن هبطوا في المطار العسكري، ورومان بافلوفيتش يشعر وكأنّه حلّ في عالم غامض مستغلق. لقد حاصرته اللغة الروسيّة بالقوّة نفسها التي حاصرته بها الرائحة الزيتية الكريهة الفاسدة التي تنبعث من زفير الضباط الذين أخذوه إلى غرفة مُحكمة الغلق، حيث قابل غريغورييف اثنين منهم لوقت قصير. أمّا الآن، وقد جلس في المقعد الخلفي للسيارة مع غريغورييف، فإنّه يشعر بحاسة شمّه تتنظف بالهواء الدافئ الداخل من النافذة الصغيرة وبقدر من توازنه يعود إليه مع لمسات لغته.

– هل نحن بعيدون عن موسكو؟ – سأل، وهو يلاحظ غابة الصنوبر الكثيفة التي تقطع الطريق.

– أقرب إليها مما كنّا عليه أمس – قال غريغورييف.

– ومتى ستأخذني إلى هناك؟

– أنتَ لم تأتِ للسياحة – قال غريغورييف، فأيقن أنّ نبرة الرجل قد احتدت لسبب ما.

قرّر رومان التزام الصمت. لن يسمح لأحد بأن يعكّر عليه الفرحة التي ترافقه منذ أن أبلغه كوتوف، العائد إلى برشلونه، بأنّ الاختيار وقع عليه للسفر إلى وطن الاشتراكية، مكلفاً بمهمّة الاستعداد للنضال من أجل انتصار الثورة العالمية. لقد أخبره المستشار، من دون الكثير من التفاصيل، بأنّ إقامته ستدوم أسابيع، سيكون العمل فيها مكثّفاً، وسيطلب منه خلالها أقصى ما يمكن لجسمه وعقله أن يعطيا.

أصبحت غابة الصنوبر أشدّ كثافة وانغلاقاً حين قطع سورٌ من الإسمنت رتابة الأشجار، عند أحد منعطفات الطريق. ساروا مئات الأمتار بالقرب من السور الإسمنتي قبل أن يصلوا إلى بوابة معدنيّة انفرجت مُصدرة صريراً شبيهاً بصرير بوابات السجون. أطلق رامون ميركادير مجسات حواسه، مستعدّاً لملاحظة أدقّ الجزئيات ورصد أدنى التفاصيل. عادت البوابة، بعد مرور السيارة مباشرة، إلى الانغلاق فامتدّ وراءها طريق دائريّ ضيّق سلكوه باتجاه مخالف لاتجاه عقارب الساعة. إلى اليسار، ظهر ما بدا أنّه مركز بناء دائريّ عملاق، وارتفعت هناك صنوبرات أخرى، فصلت، بين مجموعة ومجموعة منها، مسالك تختفي، كالدواليب، متجهة صوب قلب الغابة الكثيف. إلى اليسار هناك كابينات قرميديّة تحدها أسوار معدنية محاطة بأسيجة كثيفة ومنسقة، علّقت على أبوابها أرقام تتبع تسلسلاً غريباً وعشوائيّاً: فبعد الرقم (11) يأتي الرقم (3)، ثم الرقم (8) ثم (2) ثمّ (7)، فكأنّها الأرقام التي تذاع في مسابقات اليانصيب.

توقفت السيارة عند الكابينة رقم (13). حين تمتم غريغورييف بعبارة «وصلنا» اقتنع رامون بأنّ تلك الأرقام لها دلالتها: فذلك العام هو عام ولادته. نزلوا من السيارة التي سرعان ما اختفت في واحد من منعطفات الساحة المدوّرة. تقدم غريغورييف صوب الكابينة وفتح بابها بتحريك مزلاجه الخارجي. عجّل رامون، وما كان يحمل غير حقيبة من القماش سمح له بأن يحمل فيها بعض الملابس الداخلية، واجتاز العتبة، ليغلق معلمه المادي والروحي الباب خلفه.

كانت لصالة الكابينة ترتيب الصف الذي يستقبل تلميذاً واحداً. مقعد دراسي ومنضدة مع كرسيّ، سبورة كبيرة وخارطة للعالم منشورة على الحائط. في أحد الأطراف منضدة منخفضة وحولها أربعة مقاعد مبطنة بالجلد. وقف أمامها رجلان يرتديان البزّة العسكريّة: كان أحدهما يرتدي بدلة نظاميّة تحمل رتبة عسكرية على الكتفين، بينما ارتدى الآخر بدلة تدريب سوداء من دون علامات تميزه. اقترب الضابط من غريغورييف مبتسماً وعانقه ثمّ قبّله في وجنتيه وفمه، وهما يتمتمان بالروسيّة. أمّا صاحب بدلة الميدان فقد أدّى التحيّة العسكرية لغريغورييف، فشدّ هذا، بعد أن ردّ على تحيته، على يده مصافحاً وتكلّم معه قليلاً بتلك اللغة الوعرة. عندها التفت الضابط نحو رامون وتكلّم معه بالفرنسيّة.

- مرحباً بك في قاعدتنا، أيّها الرفيق رومان بافلوفيتش. أنا الماريشال كونييف، مدير المؤسسة، وهذا- أشار إلى الرجل الذي يرتدي البدلة السوداء- هو الملازم كارمين، ضابطك المدرّب. تفضل بالجلوس. هل تريد شاياً؟

ابتسم رومان بافلوفيتش، وجلس على مقعده بينما جلس الآخرون على بقية الكراسي.

- هل يمكن أن تكون قهوة، ماريشال؟ - طلب، أيضاً بالفرنسيّة.

- بالطبع!... أيّها الملازم، من فضلك...- وانصرف كارمين إلى المطبخ، بينما أشعل الماريشال سيجارة ونظر إلى رومان بافلوفيتش-.

هذه الليلة، قبل أن يأتوا لك بالعشاء، سيشرح لك الملازم كارمين النظام الداخلي الذي يجب تنفيذه بحذافيره. أخبرك مقدماً أن ليس في مقدورك أن تخرج من هذه الكابينة إلّا برفقة ضابطك المدرب أو برفقتي أو برفقة ضابطك التنفيذي، الرفيق غريغورييف. وأنبهك من الآن أنّ الإجراء الوحيد الذي نتخذه في حالة الإخلال بالانضباط هو الطرد.

سكت الماريشال فظهر كارمين وهو يحمل صينية خشبيّة عليها إبريق ينبعث منه بخار محمّل برائحة القهوة، فكأنّه أعطى، بسكوته، إشارة إلى كارمين بالظهور. جرّب رومان بابلوفيتش قهوته فندم على أنّه طلب ذلك المشروب الكريه الطعم الكثير السكر، وسأل إن كان النظام الداخلي يسمح له بإعداد قهوته بنفسه.

بدأ غريغوريف والماريشال، من دون أن يستأذناه، بالتحدث بالروسيّة، وظنّ رومان بافلوفيتش أنّهما يتفقان على تفاصيل إقامته. راح الملازم كارمين يشرب الشاي وعيناه مسمّرتان في الكوب، فكأنّه ينتظر أن يجد عربيداً في قعره. امتد الحوار لبضع دقائق، وكان نصيب كونييف منه هو الأوفر، ثمّ انتهى حين سلّم غريغوريف جواز سفر رومان بافلوفيتش إلى الماريشال، الذي نظر ثانية إلى التلميذ المستجد.

- حتّى تتقرر هويتك الجديدة ستكون حضرتك الرقم (13) - قال موجزاً، ثمّ مزّق جواز السفر في حركة استعراضيّة. بهت رامون، وتملكه إحساس واضح بأنّه أصبح شبحاً، من دون اسم ولا بوصلة ولا طريق للعودة، كما أكدت له كلمات الماريشال الأخيرة-. «أو لن تكون أحداً».

***

تناول غريغوريف والرقم (13) الإفطار في مطبخ الكابينة، وشعر هذا بالراحة أن استطاع إعداد قهوته بنفسه. كانت تلك القهوة مسحوقاً أحمر لا عطر فيه، ويصعب الحصول منه على الشراب المطلوب، بل إنّها، بعد تصفيتها، تصبح أسوأ مذاقاً وأقلّ صلاحية للشرب. دعاه غريغوريف إلى جولة في الجوار فغادرا الكابينة من بابها الخلفي. وما

هي إلّا أمتار من الأرض الفسيحة الجرداء حتّى عادت إلى الظهور غابة الصنوبر الخانقة، التي تنتشر فيها، حتّى مئة متر عن البيت تقريباً، حواجز معدنيّة مغطاة بصفائح ملونة تفصل الأرض عن المساكن. لاحظ الرقم (13)، وهما يتوغلان في الغابة، أنّ بمعلمه عرجاً طفيفاً.

في الليلة الماضية شرح له الملازم كارمين أنظمة القاعدة التي تتلخّص بعبارة واحدة: الطاعة المطلقة. كرّر عليه أنّه غير مسموح له الاتصال بأحد إلّا بتصريح منه أو من الماريشال، وبيّن له السبب: قد تكون حياته، مستقبلاً، معلقة على ألّا يكون أيّ من طلاب المدرسة رأى وجهه قط، وعلى ألّا يكون هو رأى أحداً منهم قط. كلّ الذين يدخلون في ذلك المكان هم رجال ذوو معامل ذكاء استثنائيّ، وهم ينتقون استناداً إلى تلك الميزة. أمّا بقية شروط إقامته، بوصفه جنديّاً اختير للقيام بعمليات خاصة، فسيشرحها له الرفيق غريغورييف، قال له. شعر بزخم الفخر وهو يسمع أنّه بات جزءاً من خيرة المحصول ونخبته.

لكنّ الرقم (13) أدرك، في ذلك النهار من صيف 1937، حجم التغيير الذي سيطرأ على حياته حين أطلعه غريغورييف على خطر المهمة التي قد تفتح له أبواب السماء البروليتاريّة. بدأ غريغورييف ملخصاً له الظرف الذي يمرّ به اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيّة وحدثه عن مدى علاقتهم بذلك الظرف. كان رامون يعلم أنّ الحزب والحكومة دخلا، في السنة الماضية، صراعاً حتى الموت مع التروتسكيين والمعارضين الداخليين. وكان من المؤلم أن يكتشفوا، بعد أشهر قليلة، أن مجموعة من كبار ضباط الجيش الأحمر، ومن بينهم الماريشال توخاتشيفسكي[93]، تحالفت مع المخابرات الألمانية للانقلاب على الرفيق ستالين والتحالف مع الفاشيين. كانت الأدلة التي تدينهم ساطعة قاطعة. وقد

93- ميخائيل توخاتشيفسكي (1893-1937). عسكري سوفييتي بارز. وصل إلى رتبة نائب وزير الدفاع. أعدم مع مجموعة من كبار الضباط بتهمة التخطيط للانقلاب على ستالين استناداً إلى وثائق مزورة سرّبتها المخابرات النازية. بعد وفاة ستالين جرى تحقيق في تلك التهم وأعيد إليه الاعتبار.

حوكم العسكريون وأعدموا قبل أسابيع، بينما تواصلت حملة التطهير في صفوف العناصر الخطيرة داخل الجيش وفي صفوف الحزب تحت إمرة الرفيق يجوف، مفوّض الشؤون الداخليّة، وبإشراف مباشر من الرفيق ستالين. لكنّ يجوف، -أضاف غريغورييف بصوت هامس خفيض-، على الرغم من أنّهما كانا وحيدين بين أشجار الصنوبر، بدأ، بعد سقوط سلفه ياغودا بتهمة الخيانة والتروتسكيّة، حملة تصفيات داخل الأجهزة السريّة، سواء في جهاز الشرطة السريّة السوفييتيّة أم في الاستخبارات العسكرية، وكان من فرط حماسه ورغبته في مسح الضباط القدماء من الخارطة واستبدال رجال ثقته بهم أنّه غامر بوجود تلك الأجهزة.

- لقد ترك له الرفيق ستالين حرية التصرف لأنّه يؤمن بضرورة التخلص من رجال ياغودا الذين قد يكونون مرتبطين بأفعاله الخيانية - توقف غريغورييف عن السير-. وليس أفضل من يجوف لتلك المهمة. لكنّه في الوقت نفسه رفع يده عن العديد من الإدارات، ومن بينها المخابرات الخارجيّة، التي أوكلها إلى الرفيق لافرينتي بيريا[94]. هذه القاعدة والخطط التي تعدّ فيها، على سبيل المثال. ستسير الأمور معنا على ما يرام ما دام توزيع المسؤوليات هذا قائماً، لكن، إذا أدّت حملة يجوف التطهيرية إلى مواجهة مع بيريا، الذي هو، في نهاية الأمر، مرؤوسه، ووصلت إلينا، فسنعاني الأمرين. مع ذلك، فالأسوأ من هذا كلّه والأخطر هو إمكانية ضياع خطوط العمل التي تبدأ من هنا، ومن بينها خط عملنا.

- ولماذا يجازف الرفيق ستالين بوقوع أمر كهذا؟

- لديه أسبابه، هو دائماً لديه أسبابه - قال غريغورييف وبصق باتجاه إحدى الصنوبرات. لزم الصمت لثوانٍ-. وضعي أنا معقد على نحو خاص لسببين: الأول لأنّ يجوف يعتبرني من رجال عهد ياغودا، مع

94- لافرينتي بيريا (1899-1953) سياسي سوفييتي ورئيس جهاز الأمن والشرطة السريّة بين 1938 و 1953.

إنّني دخلت إلى جهاز المخابرات قبل ذلك بكثير؛ ثانيهما، لأنّي يهودي، ومن البديهي أنّنا لا نروق له، كما يحدث مع أناس كثيرين... لذلك فإنّ بقائي في إسبانيا ومحاولة أن أكون ضرورياً هناك يوفر لي ضماناً أكثر.

شعر رامون، ربّما متضايقاً من المعلومات التي يتلقاها، أو بسبب الكلمات الإسبانية التي تبلغ مسامعه، أو بسبب الأثر الطيّب لانتقاله من إمرة غريغورييف الفظ إلى إمرة كوتوف الذي يعرفه، أو الذي يظنّ أنّه يعرفه، بأنّه يعود إلى نفسه، وبأنّ دوار المستجدات والأصوات غير المفهومة التي عاشها خلال الأيام الماضية بدأ بالانحسار، على الرغم من شعوره بأنّهم يضعونه على حافة منحدر ويتركونه هناك من دون أن يلمح بالقرب منه ما يمسكه ويتشبّث به.

- وما هي المهمّة التي يحتاجنا فيها الرفيق ستالين؟

- إنّها الأهم - توقف طويلاً وكأنّه يفكّر-. لذلك يجب عليَّ أن أصرّح لك بها من الآن، فعلى استعدادك يعتمد استمرارنا من عدمه.

- ما هي؟ - لم يشأ رامون أن يلعب لعبة الحزورات. فالأفضل له، فكّر، أن يمسك الثور من قرنيه.

- الرفيق ستالين يرى أنّ الوقت قد حان... سنعدّ العدّة لتسفير تروتسكي من الدنيا.

لم يستطع رامون أن يتجنّب شعوره بالصدمة. تمنّى أنّ يكون سمعه قد خانه، لكنّه أيقن أنّه فهم جيداً، وأنّ حياته اكتسبت في تلك اللحظة، ومع سماعه كلمات كوتوف تلك، بُعداً مهمّاً وخطيراً.

- ماذا تقصد بـ «نعدّ العدّة»؟ - سأل بعد تلكؤ.

- أقصد أن نبدأ العمل من أجل ذلك. ترتيب ضربة معلّم. ولذلك أنتَ وشيوعيون إسبان آخرون موجودون هنا.

- أنتم تهيئوننا لقتله؟

- نهيئهم لأشياء كثيرة.

- ولماذا يجب أن يكونوا إسباناً؟

ابتسم كوتوف وحرّك بقدمه صنوبرة عملاقة. شرح له أنّ الإسبان في رأيه ليسوا عملاء سريين جيدين. فعلى الرغم من أنّهم يحظون بمزيج من التهوّر والقسوة الفطرية، يجعلهم قادرين على القتل أو الموت (هذه فضيلة كبرى)، ومع أنّهم أيضاً متعصبون (هذا العمل يقتضي جرعة كبيرة من العصبيّة)، فإنّهم يتصفون بعفويّة كبيرة، بل هم، أحياناً، ودودون وعاطفيون، وهم جميعاً في داخلهم متبجحون، فثّارون بعض الشيء، والتبجح يجعلهم ثرثارين، وهذا خلل يصعب استئصاله...

- ما تقوله ليس مشجعاً. أنا لا أفهمك...

- هذه المهمة رتّبت لرجال لغتهم الأصلية هي الإسبانية. هذا هو السبب الأول. والسبب الثاني، هو أن يكون هؤلاء قادرين على تجاوز أيّ تردد.

فكّر رامون في قدر ما لديه من تلك الفضائل والرذائل، وخلص إلى أنّ كوتوف محقّ إلى حدّ كبير، باستثناء ما يتصل بالتبجح.

- أمّا السبب الحقيقي لوجودك هنا فهو أنّك تستطيع القيام بهذه المهمة - انتهى كوتوف من كلامه.

نظر رامون إلى الغابة. لقد توقدت شعلة الكبرياء في ذهنه مزيحة عنه كلّ خوف. ماذا كانت أفريكا ستقول عنه لو أنّها سمعت ذلك الكلام؟ هل ستعتقد حقّاً أنّه ضعيف؟ ما الذي جلب انتباه كوتوف إليه؟

- قلْ لي، رامون. هل أنتَ مستعد لقتل عدوّ من أعداء الثورة إن كان ذلك ضروريّاً؟

نظر الشاب إلى كوتوف وثبت هذا نظره فيه.

- إن كان ضروريّاً، بالطبع سأفعل.

ابتسم المستشار واستردت نظرته البريق الذي فقدته في الأيام الأخيرة، ثمّ أشار بإصبعه إلى صدر رامون.

- هل تتصوّر حجم الشرف الذي يمثله اختيارك لتكون مَن سيُزيح زبالة الخيانة التي اسمها تروتسكي من الدنيا؟ هل تعلم أنّ هذا المرتد عمل سنوات طويلة لتدمير الثورة، وبأنّه فأر قذر باع نفسه للألمان واليابانيين؟ وهل تعلم أنّه وصل إلى حدّ التخطيط لتسميم جماعي للعمال السوفييت وزرع الرعب في أرجاء البلاد؟ وهل تعلم أنّ فلسفته المغامراتيّة الطائشة يمكن أن تهدد مستقبل البروليتاريا هنا، وفي إسبانيا، وفي العالم كلّه؟

نظر رامون مرّة أخرة إلى الغابة. كان ذهنه خاوياً، فكأنّ قنوات ذكائه انكسرت، لكنّه قال:

- ما لا أفهمه هو سبب الانتظار إلى الآن للقضاء على ذلك الخائن؟

- ليس عليك أن تفهم شيئاً. قلتُ لك إنّ ستالين لديه أسبابه، أمّا نحن فعلينا الطاعة... بالمناسبة، كم مرّة سمعتَ كلمة «طاعة» في هذه الأيام؟

- لا أدري. كثيراً.

- وستعاود سماعها آلاف المرات، فهي أهم كلمة. بعدها يأتي «الإخلاص» و«الكتمان». هذا هو الثالوث المقدس الذي عليك أن تحفره على جبهتك، فبعد أن سمعتَ ما قلتُه لك، ليس أمامك غير طريقين: أحدهما يقودك إلى المجد والثاني يقودك إلى معسكر العمل، وليس في مقدورك أن تتصوّر كم هي رخيصة حياة رجل بائس ليس له اسم، وهو في عداد الخونة... لا بدّ أنّهم الآن ينتظرون عودتنا.

حين دخلا إلى الكابينة، نهض الماريشال كونييف وكارمين وتبادلوا التحية العسكرية. وبينما توجّه الرقم (13) للجلوس على كرسيه، تحدث غريغورييف بشيء للعسكريين. وقف كارمين، ببدلته السوداء، بالقرب من السبورة وبدا وكأنه ذاب فيها. لاحظ رامون أنّ يديه كانت رطبتين، وترددت في رأسه كلمات كوتوف الأخيرة.

- أيّها الرقم (13) - قال الملازم كارمين، بفرنسيّة جنوبيّة صافية،

ذكّرته بأيامه في «داكس» و«تولوز»، معلمك قال لنا إنّك مستعد للبدء بالتدريب. لكنّك ستخضع، قبل أن نبدأ العمل، لعدّة اختبارات بدنيّة ونفسيّة ليكون لدينا تقويم دقيق لشخصيتك. إذا كانت النتائج مرضية، كما نأمل، فستبدأ بتلقّي دروس في تاريخ الحزب والسياسة الدولية والماركسية- اللينينيّة وعلم النفس. سنعلمك أيضاً تقنيات البقاء على قيد الحياة والاستجواب والقتال القريب، وستتدرب على أنواع مختلفة من الأسلحة الناريّة والسقوط بالمظلة. مع ذلك، فإنّ أهمّ جزء من التدريب هو العمل على الشخصيّة. ستتعلّم، قبل كلّ شيء، ألّا تعود إلى أن تكون الشخص الذي كنتَه قبل وصولك إلى هذه القاعدة. سننظفك ونعيد بناءك من الداخل. إنّه عمل بطيء وصعب، لكنّك، إن نجحت فيه، فستكون في ظروف تسمح لك بالتكيّف على أيّة شخصيّة يتقرر أن تتقمصها لتنفيذ المهمّة. هذه الشخصيّة لم تحدد بعد، لكنّك، وبغضّ النظر عنها، لن تعود إسبانيّاً، وليس عليك أن تتحدث بالإسبانية، وأقلّ من ذلك بالكاتالانيّة. ستتكلم بالفرنسية وستفكّر بالفرنسيّة. سنحاول أن نجعلك تحلم بالفرنسية أيضاً. خبراؤنا سيساعدونك في هذه المهمة، لكنّ إرادتك، أكرر، هي الأساس لبلوغ النجاح.

وجد الرقم (13) سقف المطالب مرتفعاً، مع ذلك، هزّ رأسه موافقاً، فإحساسه ينبئه بأنّ تلك المعارف ستكون مفيدة له في تنفيذ المهمّة التي حدّثه عنها كوتوف.

- طيب. في البداية عليك أن تجتاز تجربة بسيطة، لكنّها حاسمة، لأنّها ستعلمك أشياء كثيرة. تعال معي!

سار كارمين نحو الباب الخلفي وتبعه الرقم (13). خرج وراءهما غريغوربيف وكونييف. كان النهار في تلك الساعة أكثر دفئاً، ومن الغابة كانت تنبعث رائحة طيبة. رأى الرقم (13) منضدة وضعت عليها ثلاثة خناجر مختلفة، وظنّ أنّهم سيعلمونه طريقة استعمالها. من بين أشجار الصنوبر برز جندي، يرتدي ثياباً كثياب كارمين، وكان يسحب وراءه

رجلاً وسخاً دهين الشعر، عليه ثياب مهلهلة، غطّت رائحته الكريهة على عبير الغابة.

- تطلّع جيداً إلى هذا الرجل - قال كارمين -. إنّه زبالة، إنّه عدوّ للشعب.

ما إن نظر الرقم (13) إلى ذلك المُعدم حتّى سمع كارمين يصرخ به، من دون أن يتلفظ بكلمات أخرى:

- اقتله!

أحسّ الرقم (13)، وقد فاجأته الصرخة، باضطراب مزدوج: هل الأمر حقيقي؟ ثمّ، لمن يوجه الملازم الأمر، أإلى الجندي رقم (13) أم إلى رامون ميركادير أم إلى رومان بافلوفيتش، الذي تبخّر؟ لم يتسع له الوقت للتفكير، فقد أخرج الملازم كارمين مسدسه من قرابه وسحب رصاصة.

- يا بن القحبة «بالروسيّة»! أتقتله أنتَ أم أقتله أنا؟

نظر الرقم (13) إلى الخناجر وتناول واحداً منها ذا نصل قصير وعريض، بدا له، من دون أن يعرف السبب، الخنجر المناسب. مناسب؟ لقتل أحد أعداء الثورة؟ فكّر. تقدّم خطوة وشعر بأن ساقيه ترتجفان. حاول أن يقنع نفسه بأنّ ما يجري مجرد اختبار، وبأنّهم سيأمرونه، في اللحظة المناسبة، بالتوقف، وسيبعدون المتسوّل من هناك. تقدم صوب الرجل المنتن، ورأى الخوف في عينيه ينمو ويزداد. تفوّه الرجل بكلمات روسيّة لم يستطع هو أن يفهمها، وإن لمس فيها توسلاً تكررت فيه كلمة «توفاريش = رفيقي»، وراح يتراجع خطوة ثم خطوتين، وقد هزّه الخوف هزّاً. واصل الرقم (13) تقدمه، وهو يرفع الخنجر على مستوى خاصرته، بانتظار أن يتلقّى الأمر بالتوقف، لكنّ الأمرَ لم يصل، وبات المتسوّل المنتن يقترب منه أكثر فأكثر.

قرأ الرقم (13) توسلات الرجل المأساويّة في عينيه، وهو لا يبعد عنه سوى متر ونصف المتر، واستطاع أن يستمع إلى الصمت. لا شيء غير

الصمت. ارتسمت في ذهنه كلمة «طاعة» مصحوبة بسؤال: ضعيف؟ ومرّت صورة أفريكا برأسه مرور البرق. تقدم حينئذٍ خطوة أخرى وحرّك الخنجر نحو الخلف ثمّ اندفع به، لكنّه رأى الآخر عاجزاً عن الهرب، بل عن التراجع. لقد شلّه الرعب وتصبب لذلك عرقاً. هل عليه أن يقتل رجلاً هكذا، بدم بارد، ليثبت ولاءه وإخلاصه لقضيّة مجيدة؟ هل عليه أن يتعامل مع أعداء الشعب في أرض العدالة بتلك القسوة مجرداً من أيّ شعور بالرحمة؟ وما علاقة ذلك بخيانة تروتسكي، أو بجرائم الفاشيين الإسبان؟ لا، قال في نفسه، سيصدر له الأمر، سيوقفونه، سيضحك الجميع، وحرّك الخنجر سنتمترات قليلة إلى أن جعله في وضعية هجوم. ثمّ لم يفكّر بشيء آخر: هوى بذراعه المسلحة باحثاً عن بطن المتسوّل واكتشف، في تلك اللحظة، أنّه الرقم (13)، وأنّ رامون ميركادير ما عاد موجوداً، وأنّه يطبّق المبدأ المقدس الأول: الطاعة. واصل الخنجر طريقه يطلب حياة الرجل الأعزل، الذي شلّه الرعب، وحين أوشك على غرس الخنجر في بطن ضحيته، تقاطعت أمامه يدا الرجل، وهو يحاول الدفاع عن نفسه، ثمّ تحركت تلكما اليدان بسرعة لا تصدق لتغيّر اتجاه النصل قبل أن يتلقّى الرقم (13) ركلة قوية على ذقنه طرحته على ظهره أرضاً فاقد الوعي.

***

بعد أسابيع قليلة بدأ الرقم (13) يلاحظ تغيّراً في ألوان إدراكه ووعيه. وبينما راحت الدروس النظرية تملأ رأسه بالحجج الفلسفيّة والتاريخية والسياسيّة لتجعل من إيمانه إيماناً لا يكسر، كانت جلسات علم النفس تجفف فكره من أحمال تجاربه وذكرياته ومخاوفه وأوهامه التي تشكّلت على مدى حياة وماضٍ راحا يبارحانه فكأنهما ينسلخان عنه. أدهشه شعوره بأنّ تاريخه الشخصي بدأ يتحوّل إلى سحابة ضبابية مطموسة، بل إنّ حوادث قريبة، كالنصائح الأخيرة التي زوّده بها كوتوف قبل أن يسافر عائداً إلى إسبانيا، بدت متناثرة مشتتة، حتّى إنّه صار يسأل نفسه أحياناً إن كان عاشها في حياة أخرى بعيدة ومشوشة.

في تلك الأشهر بدأ رامون يتغيّر فعلاً، فما عاد يرجع إلى حاله التي كان عليها إلّا حين يضيق صدر الرجل الذي حوّلوه إليه، حينئذٍ يظهر رامون ميركادير القديم لإنقاذه. وكان يعاود الظهور أيضاً حين يأمرونه بإخراج رامون ميركادير للتشمس. لكنّه لم يعد ذاك الرامون ميركادير دل ريو...

لقد صار الرجل الذي اعتنق في ماضيه أفكارَ الشيوعية، مأخوذاً برومانسية الشباب وخطابات أفريكا الحماسية، يتبنّى عقيدة مدعومة علمياً، تجد تحققها في المجتمع السوفييتي الجديد، حيث يبلغ الرجل أقصى درجات كرامته. لقد تجسّد الكفاح الثوري، العفوي وغير المنظم، الذي شنّه على الأوليغارشية والبرجوازية والفاشيّة والخونة، في نسق جديد، مبنيّ على الحاجة التاريخيّة للكفاح البروليتاري لتحقيق الهدف السامي في المساواة، وفي مسؤولية الحزب في قيادة تلك المعركة الكبيرة. تعلّم أنّ ذلك الكفاح، وإن بدا في لحظة من اللحظات قاسياً، فهو عادل دائماً. من جذور كلّ واحدة من تلك الأفكار صارت تطل النظريات والممارسات الستالينية، وتتجلّى الحكمة والنظرة الاستراتيجيّة البعيدة للرفيق ستالين، الأمين العام الذي يرتفع على التاريخ، وهو يقود بروليتاريي العالم، بوصفه وريثاً فذّاً لماركس وإنجلز ولينين. وتحوّلت قناعته بأنّ مستقبل الإنسانيّة سيكون من حصة الاشتراكية إلى معتقد؛ وتعلّم أنّ أيّة تضحية وأيّ فعل سيكونان مبررين تاريخيّاً، وأنّ أدنى انحراف عن الصف مرفوض، من أجل أن يبلغ الاتحاد السوفييتي المستقبل المنشود. عند هذه النقطة أضافوا إلى دراساته دروساً في الكراهية الطبقيّة، ومع تعرّفه على أولئك الأعداء الطبقيين، صارت قناعاته أشدّ وأصلب.

حلّ تشرين الأول وبدأت درجات الحرارة بالانخفاض. أعلمه كارمين بأنّهما سيبدآن التدريبات البدنية، مع الاستمرار في الدروس النظرية والجلسات مع أطباء علم النفس. كان الرقم (13) يتأمّل أن

يخرج من حدود القاعدة ليرى بعينيه قسماً من الواقع المضيء من بلاد السوفييت. لكنّ تدريباته، باستثناء الأسبوعين اللذين أمضاهما في جبال الأورال ليخضع لتمارين على مقاومة ظروف المناخ القاسية (عاد منها وقد فقد ستة كيلوات من وزنه، وتلقّى بفخر التهنئة من كارمين)، جرت في غابات «مالاخوفكا». هناك أضيف إلى تمريناته التمرن على إطلاق النار بالبندقيّة والمسدس والمدفع الرشاش، والقتال بالخنجر والسيف والفأس، ووسائل الدفاع عن النفس باستعمال اليدين والقدمين، والتصويب في رمي القنابل اليدوية، وتسلّق الجدران وعمليات الهدم. بعد انتهاء المرحلة الأولى بدؤوا يدربونه على أساليب مواجهة عدوّ واحد أو أكثر باستعمال الأسلحة المختلفة التي يجيد استعمالها، بعد تحديد نقاط الضعف في دفاعات المقابل ثمّ نقاط الجسم التي بإصابتها يمكن الوصول إلى التأثير المطلوب بفاعلية أكبر. أمّا أعداؤه الذين كان يتدرب معهم، وكانوا متخصصين في كلّ أنواع القتال، فقد وصفوا دائماً بأنّهم كلاب تروتسكي، وبالمرتدين التروتسكيين والخونة التروتسكيين، بهدف أنّ يصبح مجرد ذكر تلك الصفة سبباً في إحداث نزف هورموني.

ستظلّ مرحلة التمرّن على مقاومة الأساليب النفسية المتبعة في التعذيب والاستجواب تمثّل في ذهن الرقم (13) قمّة أطوار تحوّله وتدريبه. لقد ضمّوا إلى تلك الأساليب، في سعيهم لوضعها في سياقها الضروري، اعتداءات بدنية هدفها إطلاعه على مدى قدرة الإنسان على إلحاق الأذى والتسبب في المعاناة لأبناء جلدته. مع ذلك، لم يكن الهدف الأساس من ذلك التمرين اكتساب القدرة على الصمت، بل الحيلولة دون الانجرار إلى ما يريده المحققون، وقطع أيّ جسر للتفاهم قد يفتح باباً على نقاط ضعفه، والنجاح في حملهم على تصديق حكايات تضللهم وتبعدهم عن الحقيقة. وعلّموه أنّ الاحتفاظ بالسر أصعب من استخراجه من صدر حامله، ودرّبوه على حيل نفسيّة ملتوية، من مثل استحضار الأحلام أو انعكاس وساوس قهرية مريضة مفترضة.

حين عاد غريغورييف إلى الظهور في القاعدة في نهاية تشرين الثاني، كان الرقم (13)، وبشهادة المدربين وضمانتهم، قد تحوّل إلى رجل مصبوب من الرخام، مقتنع بضرورة تنفيذ أيّة مهمة يكلفونه بها، مدرّب على تحمّل كلّ أنواع الضغوط بصمت، مشحون بكراهية شديدة نحو الأعداء التروتسكيين وقابل للتحوّل إلى أيّة شخصيّة يريدون تكييفه عليها. كان رضا مدربيه عنه واضحاً، وبدا أنّ الماسة الخام التي عثر عليها غريغورييف كانت لقية فريدة برّاقة من جميع جوانبها: السياسية والفلسفية واللغوية والبدنية والنفسيّة. لقد عُززت قوته بأمتن الدروع، فصار رجلاً قادراً على التزام الصمت واستثمار الكراهية، رجلاً يستطيع تجاوز مشاعر العطف ويمكنه الموت من أجل القضيّة. لقد صار ماكينة مطيعة لا تعرف الرحمة.

كان الرقم (13) في ذلك المساء يرتدي بدلة سوداء شبيهة ببدلة مدربه، لكنّها كانت مصممة لبرد الشتاء. دخل غريغورييف إلى الكابينة، يرافقه الماريشال كونييف، فحيّاه بتحيّة عسكريّة، ومن دون أن يخلعَ أيّة قطعة كان يحتمي بها من البرد، اجتاز الغرفة واتجه صوب الباب الخلفي. تبعه الرقم (13) بأمر من كارمين، وحين دخل إلى الباحة الثلجيّة، كان على وشك الابتسام حين رأى ثلاثة خناجر مصفوفة على منضدة صغيرة تشبه تلك التي قدمت له يوم بدأ تدريباته. فهم الرقم (13) مباشرة ما ينتظرونه منه، وحين رأى مدربَه يدفع بالرجل ذي الثياب المهلهلة دفعاً، وهو يهتزّ من برد ومن خوف، استعدّ لتلقينه الدرس الذي كان متأكّداً من قدرته هذه المرة على أن يلقنه إيّاه.

- أيّها الرقم (13)- قال كارمين-، أنت تعرف... أمامك كلب تروتسكي من أعداء الشعب. اقتله!

اختار الرقم (13) خنجر الميدان الذي يستخدمه الجيش الإنكليزي. وما إن أمسك به حتّى شعر وكأنّ جلده يسخن فما عاد يشعر بالبرد، بينما تحوّلت عضلاته إلى امتداد لنصل الخنجر وقدماه إلى أفعى تزحف

صوب الضحيّة. راح الرجل يتوسل، بينما تولّى كارمين، الواقف على بعد أمتار خلفه، الترجمة له: إنّه يقسم بأنّه بريء، وبأنّه لم يتآمر، يقول إنّه يكره تروتسكي ويكره زينوفييف وكامينيف وجميع خونة الطبقة العاملة، ويؤكد أنّ الرفيق ستالين هو أبوه، ويطلب متوسلاً أن تشمله العدالة البروليتارية. هل تصدّق شيئاً من كلّ هذا؟ هزّ الرقم (13) رأسه بالنفي وواصل تقدمه نحو الرجل الذي بدا ارتعاشه حقيقيّاً، كما هو توسله الذي ظهر في عينيه طالباً الرحمة. ظنّ، في تلك اللحظة، أنّه اكتشف استراتيجيّة مختلفة في الكلب المتوسل الذي ينادي بذراعين مفتوحتين، من دون تراجع، وكأنّه انصهر بالثلج. حين حرّك الخنجر بحثاً عن الزخم وعن الحافز، أدّى حركة سريعة بيده وغيّر مسكة الخنجر. لن يوجه ضربته إلى البطن، بل إلى الرقبة، فهكذا قد يتمكن المتسوّل المزعوم من حرف اتجاه حركة النصل، لكنّه لن يمنعه من أن يطعنه بكلّ قوته في منطقة ما بين الفخذين أولاً، ثمّ، بعد سقوطه على ركبتيه، غرس عقبه في ذقنه، بنصف لفة من ساقيه.

حبس الرقم (13) أنفاسه استعداداً للانقضاض. ركّز نظرته في عيني ضحيته المفترض ومدّ ذراعه، بقوس مغلق، من جانبه الأيمن، باحثاً عن الوريد العنقي للرجل الذي لم تتوقف عيناه عن إرسال إشارات شعوره بالرعب إلى أن غرس الخنجر في عنقه، وبعد لحظة، أطلق حشرجة من دم راح يتدفق من فمه ليتناثر على صدر بدلة جلاده السوداء المبطنة. أحسّ الرقم (13) في كتفه بثقل الرجل الميت المستند على الخنجر، حتّى رآه ينهار وينفصل عن النصل المسنن، الذي سقطت منه على الثلج بضع قطرات من الدم فصبغته باللون الأحمر. لن يتذكّر الرقم (13) أنّه أحسّ بالبرد في لحظة من تلك اللحظات.

***

بينما راحت السيارة تتقدم وكثافة الغابة تتناقص، استذكر غريغورييف زمان وصوله إلى موسكو، في الأيام المضطربة العنيفة التي سبقت انتصار

الثورة. فكّر الرقم (13)، وهو يستمع إلى معلّمه، أنّ الشاب رامون، الذي يقيم الآن في داخله، كان، حتّى أربعة أشهر مضت، سيسعد بزيارة موسكو الحمراء، موسكو الثورة، قِبلة جميع الشيوعيين في العالم. لكنّه فقدَ اهتمامه وفضوله، وما عادت الزيارة في نظره إلّا إجراءً ينفذه بالانضباط ذاته وغياب الرغبة نفسه اللذين ينفذ بهما أيّ أمر يصدر له، مع ذلك فقد كانت حواسه متيقظة لتسجّل، وهي تعالج كلمات معلمه، تفاصيل الطريق في ذهنه بدقّة المحترف.

كان غريغورييف والماريشال قد ذكرا له أنّ تدريباته ستتوقف. فقد تقررَ أن يمنح إجازة لقضاء نهاية الأسبوع في العاصمة، مكافأة له على النتائج الباهرة التي حازها. وسرعان ما سيفهم الرقم (13) أنّ وراء إجازتهم تلك مقاصد أخرى.

غطّى الثلج، الذي لم يتوقف عن السقوط في الأيام الأخيرة، الساحات والمباني والقباب والحدائق، وتحوّل نهر «موسكفا» إلى مرآة متعرّجة. ما إن بدآ التجوال حتّى شعر رامون بأنّه يدخل مدينة لها طابع المدينة الإقطاعيّة ذات الفضاءات الواسعة. لقد ولّدت فيه إحساساً بتناقض بين واقعه وطموحاته، وعجزاً عن الخروج بتعريف، وهو ما لم يتبيّن سببه إلّا بعد سنوات كثيرة، حين فهم أنّ العاصمة السوفييتيّة، على الرغم من عظمتها وشموخها، ما زالت ميدان صراع، وتقاطعاً لعالمين يفقدان فيها حدودهما وحيادهما: الغرب والشرق، الكاثوليكيّة والأرثوذوكسيّة، ما هو أوروبي وما هو بيزنطي، لينتج شيء مختلف، شيء يكتسي، نهائيّاً وجوهريّاً، رداءها ويتصف بصفتها. كانت الساحة الحمراء هي محطتهم الأولى، كما توقّع. وحين اجتازوها، بدت له أكبر بكثير مما رسمته لها في مخيلته مشاهد الاستعراضات. أثارت قبب سان باسيليو البصليّة والملونة دهشته، وفوجئ بأشكالها وألوانها، مع ذلك، بدت له غريبة ومستغلقة على فهمه، فكأنّها تكلّمه بالروسيّة أو بلغة شرقيّة أخرى؛ أمّا الأسوار الحمر وأبراج الكرملين فقد بدت أقرب إليه

وأكثر انسجاماً وعظمة البلد العريق. تمكن، بتصريح خاص، من اختصار وقت الانتظار في طابور وقف فيه، في درجة حرارة تبلغ الاثنتي عشرة درجة تحت الصفر، وبين باقات الزهور التي جمدها البرد، رجال ونساء وأطفال قدموا من كافة أنحاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والعالم للوقوف باحترام وصمت لدقائق أمام الجثمان المحنط لباني الدولة السوفييتيّة. ضاع منه التأثر الذي كان ينتظر أن يشعر به حين دخوله إلى ذلك الضريح، الفرعوني في نصفه والإغريقي في نصفه الآخر، إذ لم يستطع أن يتلمّس، من خلال الزجاج الذي جزأت انعكاساته وجه المومياء إلى خطوط سيئة التركيب، تجلّيات عظمة الرجل الذي استطاع أن يحقق أسمى ما تحلم به الإنسانية وأصعبها منالاً: مجتمع المساواة.

وبتصريح آخر، دققه الحرس بعناية، تقدما نحو بوابة «التثليث»، ومنها عبرا أسوار الكرملين، التي جُرف إليها الثلج. وبينما كان غريغورييف يقوده عبر الشوارع الداخليّة إلى ساحة الكاتدرائية، أطلعه على الأماكن التي غيّرت معالمها بعد هدم بعض الكنائس القديمة التي ترجع إلى عهد القياصرة الأوائل، ثمّ أبطأ المسير ليدلّه، من أقرب نقطة ممكنة، على نوافذ المكاتب التي تصرّف منها شؤون أعظم بلدان الأرض.

– هل هذا هو مكان عمل الرفيق ستالين؟

– يعمل هنا جزءاً من اليوم – ردّ عليه غريغورييف-. حتّى سنوات قليلة كان مكتبه هناك- وأشار إلى بناية مجلس الشيوخ القديمة، التي أقيمت في عصر كاتالينا العظيمة-. لكنّه ترك تلك الغرف ليسكن عزبة «كونتسيفو»، بعد حادث انتحار زوجه [54]. ففي العزبة يروق له أن يحلّ الشؤون الأهم، فهو يعمل دائماً تقريباً طوال الليل. ينام قليلاً ويعمل كثيراً، لكنّه قوي كالثور.

حين غادرا المكان المسوّر، اقتربا من مخازن «غوم» الكبرى التي يرتادها الناس من جميع أنحاء المدينة على أمل، خائب في كثير من الأحيان، أن يفاجئوا بطونهم بما يرضيها. من أمام متحف التاريخ دخلا

في شارع «نيكولسكايا» القديم، الذي صار يطلق عليه اسم «شارع 25 أكتوبر»، ليصعدا الطلعة نحو الساحة التي ينهض فيها تمثال لفيلكس دزيرجنسكي [77]، ومن خلفه المبنى الأدعى للرهبة في الاتحاد السوفييتي.

- هذا هو اللوبيانكا - أشار غريغورييف.

كان الرقم (13) يعرف قصّة ذلك البناء، فراح يتأمّله بصمت. إنّه المقرّ القديم لشركة التأمين، بلونه البنّي الضارب إلى الصفرة ومنظره الجهم العبوس، قد استقبل قبل ما يقرب من عشرين سنة الرجال الذين تولوا مسؤولية الدفاع عن الثورة المحاطة بأعدائها الداخليين والخارجيين مستخدمين كلّ الوسائل، بعد أن تحوّلوا إلى سياط البروليتاريا الجهنمية على الأرض. كان مجرد النظر إلى البناء، الذي بدا من متانته مزروعاً في الأرض والذي ما كان لأحد أن يمشي على الرصيف القريب منه، يبعث فيه شعوراً بالقوة النابعة من أوضح صورة للقسوة: القسوة التي، شأنها شأن إرادة ربّ لا يقبل حكمها طعناً ولا استئنافاً؛ قسوة تقضي بالحياة أو بالموت من دون الحاجة إلى محاضر ولا مضابط، لأنّ قانونها يعلو على كلّ قانون. كان الرقم (13) يعلم أنّ مصيره يتقرر وراء تلك الجدران وأنّه قد أصبح، بشكل أو بآخر، حجراً من أحجار ذلك البناء العظيم الذي طالما عمل، في الخفاء، من أجل أن تظلّ الثورة حيّة. لن تلبث قوة اللوبيانكا القاهرة أن تصبح قوته، فكّر، لكنّه اكتشف أنّه أخطأ التفكير: فتلك هي قوته، وقد أحسّ بها في اليد التي رفعت قبل أيام خنجراً إنكليزيّاً.

- كما ترى، فإنّ الناس يتحاشون المرور من هناك - قال غريغورييف وتوقف-. هذه هي ساحة الخوف. إنّه خوف زرعناه بعناية، خوف ضروري. تروى حكايات كثيرة عن اللوبيانكا، كلّها تقريباً مروعة. هل تعلم؟ أغلبها حقيقي. البرجوازيون يستعملون الخوف استعمالاً جيداً، وقد تحتّم علينا أن نتعلم ذلك منهم ونمارسه: من دون الخوف لا يمكن حكم بلد من البلاد ولا الدفع بعجلته نحو المستقبل.

- البروليتاريّة لديها الحق في الدفاع عن نفسها، وبأيّة طريقة - قال الرقم (13)، فابتسم غريغوريِيف.

- أرى أنّهم حشوك جيداً بالشعارات. لك أن توفرها معي.

قاده غريغوريِيف، وقد خفّ عرجه، إلى جادة المسارح، ودخلا في شارع «بيتروفكا»، حيث وجد الرقم (13) أجواءً تتدفق حيوية وتتعارض مع العزلة الفلكية التي تحفّ بمبنى اللوبيانكا. أخبره معلمه بأنّه سيبحث عن مكان مناسب لتناول الطعام وتبادل أطراف الحديث، بعيداً عن أعين الفضوليين. أمام بناية حديثة التصميم، بدت للرقم (13) مألوفة وذكرته ببرشلونه، وقف رجل في أسفل الدرج النازل من الرصيف إلى القبو، يقاوم البرد جيئة وذهاباً في مكانه. بدا للرقم (13) أنّ الرجل ينتظرهما، فقد رمقهما بنظرة شديدة وهو ينصرف: كانت إحدى ذراعيه تتحرك بإيقاع منتظم، بينما كانت يد الذراع الأخرى، التي وضعها على صدره بصورة غريبة، تحرّك إصبعين من أصابعها في حركة قلقة على مستوى طيّة سترته. حين مرّ غريغوريِيف بالقرب منه تمتم بكلمة «لا»، ثم نزلا إلى مكان شبيه بالقبو، كانت نافذته في مستوى الشارع، ثمّ ولجا إلى مكان كان من الصعب على الرقم (13) أن يسميه خمّارة. كان ثمّة حلقات من رجال ونساء يتكئون على طاولات مرتفعة من دون كراسي تحيط بهم ويتحدثون بصوت عالٍ وهم يشربون جرعات كبيرة من سائل تنبعث منه رائحة نبتة الجنجل، يضيفون إليه بكرم من قناني الفودكا التي يحملونها في أيّ من الجيوب الكثيرة الموجودة في معاطفهم. كان الجميع يلتهم، بلا توقف عن الكلام ولا عن الشراب، قطعاً صغيرة من سمك الرنجة المدخن، وضعت على قرص صغير من خبز أسود، وقطعاً مستطيلة من اللحم الداكن لسمك مجفف يضربون به عدة مرات على الطاولة لتسهيل استخراج الشريحة منه، ثمّ ليسرطوها من دون مضغ تقريباً. كانت رائحة ذلك السمك الكريهة ونتانة تلك الجعة الفجّة ودخان ذلك التبغ الروسي المقزز، المسمى «ماجوركا»، ورائحة العرق المنبعث من

تحت المعاطف، التي تشبه رائحة جلد العجل الرطب، تصنع جوّاً خانقاً، فترجاه الرقم (13)، على الرغم من أنّه دُرّب على التعامل مع الكثير من المنغصات، أن يخرجا للبحث عن مكان آخر. ابتسم غريغوريپيف متفهماً.

- نعم. هذا يتطلب تدريباً خاصّاً. صحيح أنّ هذا الشعب، الذي اختارته العناية التاريخيّة، يحتاج إلى الاستحمام أكثر بالماء والصابون، أليس كذلك؟

حين خرجا، كان الرجل الذي يضع إصبعيه على طيّة سترته يواصل تمرينه، لكنّه لم ينظر إليهما هذه المرّة. وبينما هما عائدان إلى جادة المسارح، كشف له غريغوريپيف عن سرّ ذلك الرجل الوحيد الذي كان يروح جيئة وذهاباً: هو سكّير يبحث عن رفيقين آخرين يشاركهما كؤوس «اليورش»، وهو مزيج من الفودكا والجعّة يشربه الجميع في القبو.

- الروس شاربون كبار، لكنّهم ذوو طبيعة تنافسيّة في الشرب. هناك أمران لا يعجبانهم: حين لا تكون الجعّة مثقلة بالفودكا، إذ يرون في ذلك تبذيراً في الوقت والمال، وحين تحدد كمية الشراب الذي يتناولونه: لذلك فهم يشربون في رفقة ويتنافسون على الشرب. وذلك الرفيق، وقد لاحظت إصبعيه، يبحث عن شخصين اثنين ليشاركاه المهمّة...

بعد أن اجتازا العديد من الشوارع، متجهين ثانية نحو الكرملين، دخلا في ميدان «مانج»، فطلب منه غريغوريپيف، بعد أن أمسك به من ذراعه، أن يلاحظ البناية الضخمة المنتصبة أمامهما. فوق المدخل الرئيس، رأى الرقم (13) لوحة تعريفيّة كتبت بالروسيّة استطاع أن يقرأها: أوتيل موسكو. تأمّل المبنى الحجري ذا الطوابق العديدة (عشرة طوابق أو اثنا عشر طابقاً، لأنّ تصميمه يجعل من الصعب معرفة ذلك)، مع عامود يسند السقف المزدوج الذي يمتدّ نحو الجبهة، وأحسّ في الحال باختلال في توازنه.

- أترى؟ - قال غريغوريپيف، ثمّ أضاف-: إنّه أوّل فندق بني بالقدرة السوفييتيّة. إنّه انتصار للعمارة الاشتراكيّة.

هزّ الرقم (13) رأسه موافقاً وبقي صامتاً، كما علّموه. لقد بدا البناء له

خرافيّاً، رأى فيه تحدياً نازلاً من السماء ومثبتاً بالقوّة في ساحة يتناقض مع روحها بطريقة مؤلمة. أمّا أغرب ما في البناء فهو أنّ نصفيه، اللذين ينفتحان بدءاً من البناء المركزي الذي يلي الواجهة، غير متناظرين. ففي أحدهما أعمدة متلاصقة يخلو الآخر منها؛ للطوابق العليا من البرج الأيسر نوافذ مقوّسة، بينما نوافذ البرج الأيمن دقيقة ومربعة؛ أفاريز هذا الطرف أو ذاك تبلغ ارتفاعات متباينة، في تعارض متنافر في الأبعاد والأسلوب، وذي تأثير مشوش ومؤكد للانطباع الأول عن قبح البناء الصارخ.

- إنّه قبيح جدّاً - همس.

- سأشرح لك ما حدث - قال له معلمه وهما يجتازان أبواب الفندق، الذي دخلاه بفضل الهوية التي أظهرها المعلّم للبوّاب. بعد أن دقق غريغورييف في المكان وعاينه، جلسا إلى منضدة في مكان خالٍ من الرواد، تنبعث منه رائحة البارات ورائحة سمك جاف قادمة من بعيد. في ذلك البار اكتشف الرقم (13) أنّ بطاقة أخرى أظهرها غريغورييف (بدا أنّ غريغورييف يحمل كلّ ما يطلب منه في موسكو) كانت كفيلة بأن يطلبا نبيذاً فرنسيّاً وشرائح السلمون النرويجي والعجل المسلوقة.

- لماذا شيدوا هذا المبنى؟ - أراد الرقم (13) أن يعرف.

- على رسلك، أيّها الفتى. سأحكي لك عن هذا في ما بعد - قال غريغورييف وتناول جرعة من الفودكا ثم عاود ملء كأسه من الزجاجة الصغيرة ذات الفم العريض التي تركها الرفيق النادل في متناول يده-. قبل ثلاثة أيام كنتُ في اجتماع سرّي جدّاً، في عزبة «كونتسيفو». وبما أنّ الأمر يخصّك فسأحكي لك جزءاً مما دار هناك من كلام. إذا كان ما كلّمتكَ عنه في برشلونه يساوي حياتك، وإذا كان ما شاهدته وتعلمته في «مالاخوفكا» يساوي حياتك وحياة أفريكا وحياة كاريداد وحياة أخوتك، فإنّ ما سأحكيه لك الآن ليس له مقابل. وأذكّرك بأنّك إن لم يكن أمامك طريق للتراجع، فإنّ خيارك الوحيد الآن هو التقدم بفم مغلق، مع الجميع وإلى الأبد.

استمع الرقم (13) إلى كلمات غريغوريف وهو يشعر بدفق من الرضا يسري في أنحاء بدنه. إنّه غير خائف، ولا يهمه ألّا يكون أمامه من مهرب غير التقدم إلى الأمام، فلا الخوف ولا الهرب يخطران له على بال.

- يمكنك الكلام - قال وهو ينحّي جانباً كأس النبيذ بعد أن تناول جرعة منها.

فضّل غريغورييف أن يشرب جرعة أخرة من الفودكا قبل أن يخوض في الموضوع: لقد منحه الرفيق ستالين شخصيّاً شرف المسؤولية عن العملية الخاصة بالمرتد تروتسكي وأعطاه الأمر بالشروع في التنفيذ. لم يكن في اجتماع «كونتسيفو» غير الرفيق ستالين ونائب المفوض بيريا [94] وهو. بدؤوا بمناقشة الوضع الداخلي لمفوضية الداخليّة، وقد أكّد له بيريا أنّ يجوف لن يتدخل في هذه العمليّة. بل أضاف إنّ أيام ذلك القزم المجنون باتت معدودة، وإنّه هو الآن من يشرف على جميع العمليات الخاصة التي كان يجوف، بعقدة الاضطهاد التي فيه، سيوقفها أو يفشلها. لكنّ عملية تروتسكي ولدت في تلك اللحظة، نظيفة ومن دون ماضٍ، وسيبنيها غريغورييف عن طريق موازٍ لطريق جميع الهيكليات المعمول بها، وبالتكتم اللازم ليس لإنجازها بنجاح فحسب، بل بالأثر الدعائي الذي يحتاجونه.

عند سماع كلمات بيريا الأخيرة، بدا على الرفيق ستالين وكأنه يستفيق من سبات، فرفع يده وطلب السكوت، روى غريغورييف. راح الأمين العام أثناء الحديث يتناول جرعات من نبيذه الجورجي الممزوج باللودزي، وهو نوع من الليموناضة المعمولة أيضاً في جورجيا: وحسب غريغورييف، فقد كان يتناول ذلك المركب بتصريح من الأطباء، فقد ثبت أنّ مزيج ذينك المشروبين القديمين يحفز الدورة الدموية ويرخي العضلات. وكما أحسن الرفيق بيريا التعبير- قال الرئيس- فقد بدأت عملية اصطياد الخائن المنحرف والفاشي. هو شخصيّاً قرر أن يكون

غريغوريف المدير الميداني للعمليّة، لكنّ على غريغوريف أن يرسل إلى الرفيق بيريا تقارير أسبوعيّة، بل يوميّة، إذا كان ضروريّاً، يَطلعُ هو عليها، إن كان ضروريّاً، وتُرفع إليه إلزامياً كلّ خمسة عشر يوماً. سيكون لغريغوريف، بوصفه الضابط التنفيذي المكلف بالمهمة، مدير أعلى داخل المفوضيّة، يرتبط بالرفيق بيريا، وعلى غريغوريف أن يناقشه في جميع المسائل اللوجستية، على الرغم من أنّه أبلغه بوضع جميع الموارد الاقتصادية والبشرية اللازمة تحت تصرفه، لأنّ القضاء على ذلك الخائن الكبير يمثّل أولوية من أولويات الدولة السوفييتيّة، بل، ضرورة لمستقبل الشيوعية العالميّة. يجب أن ترسم الخطة بعناية فائقة لتفي بجملة من الشروط المهمة: الشرط الأول هو استبعاد أيّ دليل أو أثر يثبت ارتباط أيّ جهاز سوفييتي بالعملية؛ الشرط الثاني هو أنّ العمل النهائي لن ينفذ إلّا حين يعطي «هو»، وأكد على «هو»، الأمر بتنفيذه؛ ثم تأتي شروط أخرى منها أنّ أفضل مكان لتنفيذ الخطة هو المكسيك وأنّ يكون المنفذون، إن أمكن ذلك، مكسيكيين أو إسباناً أو، في حالة تعذر ذلك، رجالاً يعملون مع المصالح السرية للكومنترن، وإن كان على بيريا وغريغوريف والضابط التنفيذي (ما زلنا لم نقرر من سيكون، همس بيريا) أن يضعوا العديد من الخيارات التي سيجيزها «هو» شخصيّاً. سيعمل غريغوريف من دون أن يلتفت إلى الآثار الجانبية المحتملة، من مثل نشوء أزمة مع حكومة الغبي كارديناس، الذي سيدفع ثمن تصرّفه الأحمق حين احتجّ هو على منح المكسيك اللجوء للمرتد. ألم تركع بلدان أشدّ قوة ورسوخاً، مثل فرنسا أو النرويج أو الدنمارك، حين تجرأت على تحديه، فما كان منه إلّا أن ضيّق عليهم الخناق.

– حينئذٍ شرح لي السبب أنّ الوقتَ هو وقت التفكير في وضع الخطة، وليس في تنفيذها. الأساس في كلّ شيء هي الحرب، بداية الحرب والطرق التي تسير عليها – قال غريغوريف وعاد إلى صبّ الفودكا في كأسه، وإن لم يشربها–. ستبدأ الحرب في أيّة لحظة...

- ولماذا عليَّ أن أعرف ذلك كلّه؟ - سأل الرقم (13)، وهو ذاهل من وطأة ما سمعه.

بدا غريغورييف أكثر استرخاءً فشرب الفودكا.

- في ظرف أسبوع يجب أن نقرر هويتك الجديدة. لدينا الكثيرون من المكسيكيين والإسبان ونحتاج إلى المزيد من الفرنسيين والأمريكان. سنشكّل عدة مجموعات تنفيذيّة مستقلة عن بعضها، ويمكنك أن تكون واثقاً بأنّ أربعة أشخاص فقط في العالم سيعلمون بوجودك: ستالين وبيريا والضابط التنفيذي وأنا.

- وهل تظنّ أنّني سأكون من سينفذ المهمّة؟

- أنتَ ستكون في خط الجبهة، وإن كنتُ لا أعرف في أيّ مكان منها... أنتَ ستعمل معي، لذلك أفضّل أن تعرف منذ الآن ما ينتظر منك أن تفعله حين يحين الوقت... بحكم خبرتي فإنّ الشخص الذي يعرف تمام المعرفة ماذا يفعل ولماذا يفعله، يعمل على نحو أفضل.

التزم الرقم (13) الصمت، بينما كان غريغورييف يتذوّق السلمون. في الخارج، صار الوقت ليلاً، فلاح جانب من شارع «أوخوتني رياد»، بإضاءته السيئة وخلوّه تقريباً من أيّة حركة.

- ستالين قال شيئاً آخر...- بدأ غريغورييف، ثمّ رفع يده ليطلب زجاجة أخرى من الفودكا. حين انصرف النادل، نظر إلى تلميذه-. هذه المهمة لا تحتمل الفشل. إن فشلتُ فسأدفعُ خصيتيّ ثمناً لذلك.

- هو قال لك هذا؟

- الرفيق ستالين مباشر في العادة. ويزعجه كثيراً ألَّا تنفذ أوامره جيداً... ولكي تفهمني: ما رأيته خارج هذا الفندق هو نصب للطاعة التي يطالب هو بها وينتظرها... استمع إلى ما أقوله لك، فهذا يعلّمك الكثير: حين قرّر هو أن يضفي على موسكو طابعاً جديداً، اختار هذا المكان لكي يبنى فندق يقيم فيه ضيوفه البارزون. وانطلاقاً من اقتراحاته طلب أن يقدم له مشروعان مختلفان. ولمّا كان يرى ضرورة أن تكون موسكو عاصمة

العمارة البروليتاريّة، فقد كانت لديه أفكاره الخاصة في هذا الصدد. شرح أفكاره تلك لمصمم المشاريع شوسيف وللمهندسين سافيلييف وستابران، وطلب منهم التصاميم بعد أن تأكّد أنّهم سيفلحون في تفسير ما كان هو يفكر فيه ويتصوّره. أصاب المهندسين الهلع حين سمعا ما طلبه ستالين منهما، وترجم كلّ منهما على حدة ما ظنّ أنّها أفكار القائد. لكنّ ستالين لم يستطع الاطلاع في الحال على المشروعين اللذين قدّمهما له شوسيف، فقد كانت لديه مشاغل أخرى، مع ذلك فلا أحد يدري كيف عادت التصاميم بعد أسبوع إلى المصمم شوسيف... بعد أن أجازهما الرفيق ستالين ورخّص بهما كليهما. كيف يمكن هذا؟ تساءلوا. هل أراد فندقين أم طلب المشروعين، أم وقّع على المشروعين بالخطأ؟ وكان الحلّ الوحيد هو أن يسألوا الرفيق ستالين إن كان أخطأ، لكن... من ذا الذي يتجرأ على إزعاجه وهو يستمتع بإجازته في سوتشي؟ وكيف للأمين العام أن يخطئ ويلتبس الأمر عليه؟ حينها نزل الوحي على العبقري شوسيف: ينفذون المشروعين في بناء واحد، نصفه بحسب تصميم سافيلييف والنصف الآخر بحسب تصميم ستابران... هكذا ولد هذا المسخ، وهكذا خرج شوسيف وسافيلييف وستابران بوجه أبيض. صحيح أنّ البناء غريب، وأنّ جماليته مرعبة، لكنّه قائم ويلبّي أفكار الرفيق ستالين وقراره. أنا تعلّمتُ الدرس، وآمل أن تكون قادراً على فهمه. في صحتك! أيها الرقم (13)! - ثمّ عبّ كأس الفودكا عبّاً.

***

«كوتوف يجب أن يموت»، قال غريغورييف. تأسف لتركه الرقم (13) في تلك اللحظة، وربّما كانت أجمل لحظات ولادته الجديدة، لكنّ عليه أن يعود إلى إسبانيا ليبدأ التحضير لجنازة شخصيته الأخرى. إنسان يولد وآخر يرحل، هذه هي جدليّة الحياة. أوضح له أنّ عليه أن ينقل مسؤولياته في إسبانيا إلى رفاق آخرين، ليتفرّغ هو إلى مهمته الجديدة؛ وهو ما لا يمكن عمله إلّا بحضوره ولوقت قد يطول بسبب

ظروف الحرب: على الرغم من أنّ الوطنيين كسبوا الحرب، فإنّ المنطقة الصناعيّة والمأهولة في البلاد ما زالت في قبضة الجمهوريين، ولذا يمكن لهؤلاء أن يتطلعوا إلى النصر ما داموا قادرين على الاحتفاظ بتلك المناطق. حين سمع الرقم (13) ذلك الكلام أحسّ بلسعة حنين، لكنّه كظم مشاعر رامون وسكت عن أيّ سؤال. مع ذلك لم يستطع أن يتفادى مدى ما أثر ذكرُ الحرب ورحيلُ كوتوف الوشيك في حنينه المؤلم إلى ما كان، حتّى وقت قريب، وطنه وحربه وحبّه. ما كان يخلّصه من ذلك التذبذب إلّا علمه بأنّ أيّ شيء من ذلك ما عاد، ولن يعود، ينتمي إليه، على الأقل بالصورة ذاتها، وما كان يعزّيه إلّا تفاخره بأنّه بات جزءاً من مجموعة منتخبة، مكانها القلبُ في كفاح من أجل مستقبل الاشتراكية. إنّه يعيش من أجل العقيدة والطاعة والكراهية: فإن لم يأمروه بها فلا وجود للبقيّة. لا وجود لأفريكا. خصوصاً أفريكا.

واصل الملازم كارمين ومجموعة الخبراء النفسيين العمل معه، وتعلّم الرقم (13) التحكّم بلهفته وهو يرى أن تكليفه بمسؤوليته الجديدة قد تأخر. كان يعلم أنّه بين يدي مختصين أكفاء، وكان مطمئنّاً لخبرة أولئك المتخصصين في تقنيات البقاء على قيد الحياة والتحوّل، لذلك واصل تمريناته بحماس أكبر.

في الأسبوع الثاني من شهر كانون الأول، وبعد يوم رتيب لم تحضر فيه سوى المرأة الصامتة المنغلقة، المكلفة بتنظيف الكابينة وجلب الطعام، حضر رجلان يختلف مظهرهما وسلوكهما عن جميع من تعامل معهم منذ وصوله إلى القاعدة. قال له أحدهما إنّ اسمه شيشرون وعرّف الآخر عن نفسه بأنّه خوسيفينو. كان الانطباع الأول الذي تولد لديه من النظر إليهما هو أنّهما ثنائي مضحك من ممثلي مسرح الفودفيل[95]: فهما يرتديان الملابس بالطريقة الخرقاء ذاتها، وفي نظرتهما قسوة عميقة

95- Vaudeville هو نوع من المسرح الشعبي الترفيهي شاع في الولايات المتحدة نهاية القرن التاسع عشر حتّى ثلاثينيات القرن العشرين.

ومتفحصة، يتكلمان فرنسيّة متقنة، لكن بلكنة لم يفلح الرقم (13) في تحديد أصلها. قالا له بصوت واحد تقريباً إنّ مهمتهما هي تحويله إلى بلجيكي اسمه جاك مورنارد. ما رأيك بالاسم؟ أحسّ الرقم (13) بالفخر والرضا يملآنه، فها هو ينتقل من مرحلة التلميذ إلى مرحلة العميل. جاك مورنارد، كرّر الاسم في ذهنه، بينما كان شيشرون يخرج من حقيبته، التي لا تفارقه، محفظة أوراق وعدداً من الكتب، ليضعها على المنضدة المحاطة بالكراسي.

- ستحفظ عن ظهر قلب حياة جاك مورنارد - قال، ثمّ حرّك المحفظة نحو الرقم (13)-. بعد ذلك اقرأ الكتب، ففيها معلومات عن بلجيكا عليك أن تضيفها أيضاً إلى معلوماتك.

وتدخل المدعو خوسيفينو، الذي ظلّ واقفاً:

- تضيف التفاصيل التي تودّ أن تضيفها على جاك مورنارد، التي تعتقد أنّها يجب أن تكون جزءاً من شخصيته أو من تاريخه. ما نعطيك إيّاه هو الهيكل، الذي ستستخدمه اعتباراً من الآن. أمّا العضلات والدم فسنضيفها إليه في ما بعد.

- ولماذا سأكون بلجيكيّاً وليس فرنسيّاً؟ - سأل الرقم (13) -. أنا عشتُ في فرنسا سنوات عدة...

- نعلم ذلك - قال خوسيفينو- لكنّ ماضيك ما عاد له وجود ولن يكون له وجود أبداً. يجب أن تكون رجلاً جديداً تماماً.

- الرجل الجديد - قال شيشرون، وبدا للرقم (13) أنّه لمس نبرة ساخرة في ما سمع-. عليك أن تفكّر منذ الآن بأنّك جاك مورنارد. فعلى مدى اقتناعك بأنّك جاك مورنارد يعتمد نجاح تحولك، بل حياتك. ولكن خذ الأمر بهدوء...- قال، وهو ينهض. ابتعد الرجلان، وقد رسما على وجهيهما ابتسامة، من دون أن يتفوّها بكلمة وداع.

استمتع جاك مورنارد، طوال أسبوع من القراءة والتأمّل، بالإحساس

الذي وصفه خوسيفينو: شعر وكأنّ بدنه، الفارغ حتى تلك الساعة، يكتسب شكله ويستكمل بنيته. كان له في عودته إلى أحضان أسرة له فيها والدان وأخ ومسقط رأس ومدرسة درس فيها وألعاب مارسها، ما شكّل دعامة بنى عليها ميوله الأساسية وأهواء شبابه البرجوازي القديمة، بل حتّى ذكرياته الأبعد غوراً. فقد حضر، شأنه شأن أيّ شخص، مع أبيه وأخيه الكثير من مباريات كرة القدم وأصبح مشجعاً لنادٍ من النوادي، لديه كافيتريته المفضلة في بروكسل، وأفكاره حول الوالونية والفلمنكية، وخطيبات، وهواية تحوّلت إلى مهنة له: التصوير. شاب لا ينتمي إلى أيّ حزب، وليست لديه آراء سياسيّة واضحة، لكنّه يرفض الفاشيّة، التي يراها منافية لمبادئ الفلسفة الجماليّة. يعرف عن أداء ليف تروتسكي وقدَره التاريخي ما يعرفه أيّ شخص مثقف، وإن كان كلّ ذلك الجدل والخلاف أموراً تخصّ الشيوعيين، وهي أمور لا تهمّه ولا تعنيه. يتكلم الفرنسية والإنكليزيّة، لكنّه لا يتقن الفلمنكية ولا الوالونية، لأنّه نشأ خارج بلجيكا، ولا الروسية، وإن كان يفهم الإسبانية، لأنّه سافر عدّة مرّات إلى إسبانيا قبل الحرب. ترسل له عائلته، وهي عائلة دبلوماسيين من أصحاب الثروة، بانتظام مبلغاً يسمح له بعيشة من دون ضنك، مع ميل للتبذير، في بعض الأحيان. لذا يمكن وصفه بأنّه ذاك البرجوازي التقليدي العادي، الذي فيه شيء من التبجح، والمستعد دائماً للاستمتاع، واللاهي، عموماً، عن مشاغل الحياة.

أدرك جاك مورنارد أهميّة ما اشتغل عليه المختصون النفسيون معه. ما كان سيعجب صديقه القديم رامون أن يتمثل بجاك: وما كان سيهتمّ بعقد صداقة معه. فبين السطحية الفكريّة التي يتصف بها الآن والحماس السياسي لذلك الكاتلان ورفضه العنيد لكلّ صيغ الحياة البرجوازية هناك هوّة عميقة ما كان له أن يجسرها من دون التنظيف الجذري الذي طرأ على وعيه، أو من دون التمرين الشاق الذي خضع له.

حين عاد خوسيفينو وشيشرون، شعر جاك مورنارد بأنّه مملوء

بالطاقة حتى نصفه. أمّا العمل الذي بدأه مدربوه معه منذ تلك اللحظة فقد كان شبيهاً بعمل خالقي الكون المادي عند أفلاطون: كانا خالقين حقيقيين. يتحدثان عن جاك وكأنهما يعرفانه طوال حياته، يغرسان فيه ذكريات وأفكاراً، ويعلمانه كيف يتصرّف حيال مواقف معينة، وكيف يردّ على أبسط الأسئلة وعلى أشدها تعقيداً. كانت عملية بطيئة، فيها تكرار وإعادة، تتوقف أحياناً لإفساح المجال أمام المعلومات لتترسّب في العقل الباطن لجاك. يخفّ مرّة للقاء أستاذ التصوير، الذي يطلعه على سرّ الكاميرات (راقت لجاك كاميرا الليكا، لكنّه تعلّم أيضاً استخدام الكاميرا الثقيلة «سبيد غرافيك»، المفضلة لدى المصورين الصحافيين)، ذات العدسات، وعلى طريقة تقدير كمية الضوء وعلى أسرار العمل في المختبر مع الكيمياويين وفرق الطبع؛ يخفّ مرّة أخرى لحضور جلسته مع معالج النطق، الذي يأتي ليزوده بالتعابير اللغوية، ويمرنه على نبرات الصوت ولفظ الراء المخففة في الفرنسية البلجيكيّة؛ أو مع فاحص البصر، الذي يصف له نظارات صار يستعملها منذ ذلك الحين؛ حتّى إذا بلغ التعب الفكري منه مبلغه، سلّم قياده إلى مدربه كارمين، ليخرج به إلى الثلج، في درجة حرارة تصل إلى اثنتي عشرة درجة أو خمس عشرة درجة تحت الصفر، ليُحرّك فيه كلّ عضلة من عضلات جسمه بقوّة ومعرفة قادرتين على إعادته إلى كابينته وهو مستهلك البدن، ولكنّه صافي الذهن، مستعدّاً لجلسة اليوم التالي.

حين عاد غريغورييف إلى «مالاخوفكا»، في حدود نهاية كانون الثاني، كان جاك مورنارد قد أصبح رجلاً كاملاً تقريباً. قال له المستشار إنّه لم يتمكن من إنهاء أعماله في إسبانيا، وحكى لجاك، من دون أن يسأله هذا شيئاً، أنّ وضع الحرب غاية في التعقيد والإحباط، وإن ما من شيء ينبئ بنهاية قريبة. مع ذلك فإنّ حكومة الجمهورية لديها ثقة بأنّ في مقدورها أن تصمد إلى أن يصبّ النزاع في الحرب الأوروبية الوشيكة وأن تتحول إسبانيا حينها إلى طرف فعّال في الكتلة الكبيرة

المعادية للفاشيّة، ليكون لها وضع شبيه بوضع الديموقراطيات الآنفة التي أدارت ظهرها لحكومة الجمهورية بحجّة عدم التدخل في الشأن الداخلي لإسبانيا. الأهم، قال له غريغورييف، هو أنّه وجد الوقت لمدّ الخيوط الأولى للعمليّة الجديدة. لذلك فإنّه سيسافر قريباً إلى نيويورك والمكسيك ليجري بعض اللقاءات المهمّة هناك. مع ذلك، فهو يريد، قبل سفره، أن يعمل شخصياً مع مخلوقه الجديد.

وجد جاك مورنارد في حضور معلمه ما خفّف عليه. كانت لحظة الخروج من رحم قاعدة التدريب تقترب، فبدؤوا، بتوجيه من المستشار، يضعون اللمسات الأخيرة على البلجيكي. اجتهد الحلّاق في قصّة شعره الجديدة، وجهّز له الخيّاط الملابس الضرورية التي سيضيف إليها غيرها عند سفره إلى الغرب، وأضافوا إلى صورته ولعه بالسيارات الرياضيّة، فراح يتعلّم ماركاتها ومواصفاتها، وتاريخ رياضة السيارات الأوروبية. ووفرت عليه معلوماته السابقة حول المطبخ الفرنسي وأتيكيت المائدة، التي تعلمها في مدرسة الفندقة في «تولوز»، تعلم تلك الفنون مجدداً، مع ذلك أضافوا إليها ولعه بأطباق بلجيكية معينة. وأضيف إلى ميوله، بناءً على اقتراح منه، عشقه للكلاب. ولمّا لم يكن شغف رامون ميركادير القديم بالكلاب، الذي يعشش في مكان غائر من وعيه، متنافراً مع طبع جاك ولا مع تربيته، فقد أجاز معلموه مقترحه. وغيّر كلبا طفولته، «سانتياغو» و«كوبا»، اسميهما ليصبحا «آدم» و «حوّاء»، ووفر له شعوره نحو الكلاب الأجواء ليكون أكثر راحة مع نفسه.

قرّر غريغورييف، قبل أن يسافر إلى أمريكا، أن يخرج مع جاك مورنارد في جولة ثانية إلى موسكو، ليختبر أداء الصحفي البلجيكي المستطلع الذي يزور عاصمة الشيوعية، وليتحقق من صلابة الشخصية الجديدة ومتانتها. ظلّ جاك، خلال الأيام التي تقاسما فيها أوقات فراغ غريغورييف، طوال الوقت تحت التجربة، يجيب عن مختلف الأسئلة ويبدي من ردود الفعل ما يلائم شخصيته الجديدة.

وفرت له حريته الفرصة لكي يتجاوز الجادات التي ترسم حدود المدينة في عهد ما قبل الثورة، وإن كان يعلم بأنّ ثمّة عيناً تراقبه من بعيد وتزن حركاته وسكناته. توغّل في الأحياء العمّالية، حيث أحدث وجوده ما يشبه الضجّة بين السكّان المتيقظين الذين أبدوا له تجهماً متضامناً وصلباً قادراً على طرده من ذلك المكان. كان يعلم أنّ أولئك الرجال، وجميعهم تقريباً ممّن هجروا حقولهم إبّان أوقات حملات الزراعة الجماعية الصعبة، يسكنون في مساحات ضيقة وسيئة التدفئة (وهي المدعوة بالشقق الجماعية)، وأحياناً من دون ماء جار. لقد بدا عليهم، وهم محشورون في معاطف متشابهة في الشكل وفي اللون، ظهر عليها أثر تعاقب فصول الشتاء، أنّهم ما كانوا يأكلون إلّا القليل ممّا تعرضه الأسواق غير المجهزة، ويقاومون الضجر والتعب بجرعات صادمة من الفودكا. لكنّ أولئك الرجال كانوا، مثلهم مثله، جنوداً في النضال من أجل المستقبل، وتضحيتهم هي الضمانة الوحيدة لكي تنعم الإنسانيّة مستقبلاً بالحرية الحقيقيّة. كانت حياة سكان موسكو أولئك (الذين لا يلقون من أهل موسكو الأصليين إلّا كلّ استهانة واحتقار) وحياته (نعم، هو الذي يرتدي ملابس من قماش ملوّن مصنوع في الغرب ويأكل الأطباق التي لم يرها أولئك البروليتاريون ولا في الأحلام) تسلكان الطريق ذاته، وتقاتلان على الجبهة ذاتها. الفارق الوحيد هو أنّ مسؤولية هؤلاء مسؤوليّة يوميّة ومتواضعة بينما مسؤوليته مستترة وعنيفة، حين تحين الساعة، وإن كان عنفها مطلوباً. ذلك هو الثمن الذي يطلبه الحاضر من رجال اليوم من أجل نور الغد.

في إحدى تلك الأمسيات، وكانا جالسين على دكّة في حديقة غوركي التي افتتحت مؤخراً، مقابل نهر «موسكفا» المتجمد، راح غريغورييف وමورنارد يتأملان الأولاد وهم يتزلجون فوق طبقة الجليد على زلاقات من صنع أيديهم، فرحين لاهين عن آلام الحياة الكبرى.

- نحن نكافح من أجلهم، جاك - قال غريغورييف، وأحسّ البلجيكي بعمق صادق في صوت معلمه-. إنّه كفاح صعبٌ وشاق.

- أعرف هذا، ولذلك أنا هنا. لكنّي أتمنّى أن يعلموا أنّني مثلهم، ولستُ رأسماليّاً قذراً.

هزّ غريغورييف رأسه موافقاً. وبعد فترة صمت قال ونظراته مثبّتة في النهر.

- تصوّر سباق الخيل - قال، وهو يحكّ ذقنه-. هكذا سنعمل... ستنطلق جميع الأحصنة مرّة واحدة، لكنّ منها ما سيبلغ الهدف قبل غيره. طبيعة الأرض، الفرص، قابلية كلّ حصان، كلّ هذه العوامل تؤثر، لكنّ الأمر الذي يتلقاه الحصان من الفارس هو الذي سيقرر من سيبلغ الهدف أولاً. فإن بلغه، يكون العمل قد أنجز، وإلّا، فسيتقدم آخر.

- وما هو تسلسلي؟

- أنتَ ستكون ورقة الآس التي أحملها في كُمّي، أيّها الفتى. ستعمل دائماً معي، مباشرة معي. حاليّاً أنتَ في نهاية الطابور، لكن ذلك لا يعني أنّك الأخير، بل يعني أنّك ستكون الورقة الأضمن، لن أغامر بك إلى أن أجد أن لا مفرَّ من ذلك.

- ولماذا لا أخرج أولاً وجاهزاً؟

- لأسباب كثيرة لا أستطيع أن أشرحها لك الآن، وربّما لن أستطيع ذلك أبداً. يكفي أن تفهم أنّ الأمور تسير هكذا.

هزّ جاك مورنارد رأسه موافقاً وأشعل سيجارة من سجائره الفرنسيّة، التي صار يدخنها والتي كانت في أيام مضت تسبب له خشونة في حلقه وسعالاً.

- أنتَ ستكون إنجازي الكبير - واصل غريغورييف-. سأخطط لك لعبة شطرنج حقيقية. سنلعب ونحن نفكر منذ البداية في الحركة العشرين، والثلاثين وفي كش الملك. سيكون تحدياً فكريّاً، شيئاً رائعاً حقّاً- بدا الرجل وكأنّه يحلم حين تحرّك ووقف قبالة جاك-. هناك شيء واحد يقلقني...

- طاعتي، صمتي؟

ابتسم غريغورييف وهو يرد بالنفي.

- يقلقني أن أعرف أنّ جاك مورنارد لن يضعف حين تحين لحظة كش الملك. أعرف أنّ رامون والرقم (13) لن يضعفا. أمّا جاك... إنّها مهمّة يمكن أن تكون صعبة جدّاً، والتفكير فيها لا يقتصر على القتل، بل ربّما يتعداه إلى التفكير في الموت أيضاً...

ألقى جاك بسيجارته وفكّر للحظات.

- هذا غريب - بدأ-. جاك مورنارد صار يحتلّني تماماً، لكنّ هناك مساحات لا يمكنه أن يبلغها منّي. كراهيتي وغضبي هما هما، وإيماني هو نفسه. هذه أشياء لن تزول ولن تتبخر. أنا أعي ما أفعل وأنا فخور بما أفعل. أعلم أيضاً أنّني لن أتمكن من التصريح بذلك الفخر، وهذا يجعلني أقوى. حين تحين اللحظة، سأكون حقيقة البروليتاريا، سأكون غيظ المظلومين. سأفعل ذلك من أجلهم - وأشار إلى الأطفال الذين كانوا يلعبون-. يمكنك أن تكون مطمئنّاً. جاك إنسان بائس. أمّا رامون فسيكون دائماً مستعدّاً لكلّ شيء. للموت أيضاً...

***

كانت لجاك مورنارد قدرة فريدة على مواجهة الوقت. لقد وضع في حسبانه أنّ كلّ فعل يجب أن ينفذ في اللحظة المناسبة، وأنّ الحرص على استعجال الأحداث أمرٌ بعيد عن طبعه وعن مهمته: لوقته أبعاد تاريخيّة، يجري من دون اعتبار للتوقيتات البشريّة، وتنبع قياساته من الضرورة الفلسفيّة. تساءل، بعد عدة سنوات، إن لم تكن تلك القابلية التي جاءت لتخليصه من وطأة الروتين والحرمان والضجر اليوميّ قد زرعت فيه عن عمد وعن معرفة بحاجته إليها مستقبلاً ليقاوم بصمت وأناة سنوات سجنه الطويلة.

انصرف جاك مورنارد، منذ أن سافر غريغورييف وعاد هو إلى نظام قاعدة «مالاخوفكا»، من دون فكرة دقيقة واضحة عن الأسابيع أو الأشهر التي سيمضيها منتظراً، إلى صقل الحافات المنظورة أو حتّى الخفيّة من

هويته الجديدة. راح يسير، برفقة شيشرون وخوسيفينو، مسافات طويلة في الغابة، وهو يردد قصصاً عن عائلته وعن حياته، ويبحث بكاميرته اللايكا عن تعابير موحية أو أضواء معبّرة أو مقاربات جريئة. وخصص ساعات طويلة لقراءة الصحف ولدراسة خرائط المدن والأدلة السياحيّة البلجيكية، إلى أن صار يشعر بأن في مقدوره التجوال، من دون أن يخشى الضياع، في بروكسل أو «ليبج». حدّث معلوماته عن الوضع السياسي المعقد في فرنسا ودرس تاريخ المكسيك الحديث. كان الوقت يمضي معه سلساً ومن دون عثرات، وهو ما كان في أوقات أخرى يثير سخطه وغضبه.

قرأ في الصحف الفرنسية، التي بدؤوا يأتون له بها، أنّ الادعاء العام السوفييتي انتهى من الإجراءات للشروع في قضيّة بحق واحد وعشرين من الأعضاء السابقين في الحزب وموظفي الدولة، متهمين بجرائم خطيرة تتراوح بين خيانة الوطن والسلوك المعادي للبلشفية مروراً بجرائم القتل. كانت الأسماء الأبرز هي أسماء نيكولاي بوخارين وألكسي ريكوف، وهما زعيمان قديمان لما عرف بالمعارضة اليمينية داخل الحزب؛ وغينريخ ياغودا، مفوض الداخلية المعزول الذي جرى، تحت مسؤوليته، التحقيق في محاكمات 1936 و 1937 السابقة؛ وكريستيان راكوفسكي، أشدّ المعارضين التروتسكيين تصلباً. سيمثل في قفص الاتهام أيضاً سفراء وأطباء، مثل الدكتور ليفين، طبيب لينين وستالين الخاص منذ قيام الثورة، المتهم بدسّ السم لغوركي وولده ماكس وغيرهما، بتعليمات من ياغودا. كان الجميع يعلم أنّ المتهمين محتجزون منذ شهور طويلة وأنّ محاكمتهم باتت وشيكة. مع ذلك، لم يستطع جاك مورنارد أن يتجنّب شعوره بالمفاجأة إزاء حقيقة الخطر الذي عرّضت جرائم أولئك الرجال، كما كان حال الخونة الذين حوكموا عامي 1936 و 1937، له وجود البلد، الذي شغلوا فيه أرفع المناصب والذي عملوا ضده، بحسب ما قرأ، منذ بدايات الثورة. لقد شكّلوا جميعهم، بالتحالف مع الأنتهازي تروتسكي، جوهر أشدّ الخيانات خسّة، وأسوأها غدراً.

لكنّ ما فاجأه أكثر من الإعلان عن المحاكمة فهو خبر قرأه في تلك الصحف، يتحدث عن وفاة ليف سيدوفا، وابن تروتسكي ومساعده الأقرب، في باريس. يتحدث الخبر أيضاً عن الظروف الغريبة التي رافقت وفاته، وأنّ التحقيقات جارية من طرف الشرطة المحليّة. أحس جاك مورنارد بأنّ تلك الميتة، المتزامنة مع الشروع بالقضاء على الخائن العجوز، لا يمكن أن تكون من عمل الصدفة أو من صنع يد الطبيعة، وحين عاد غريغورييف إلى «مالاخوفكا» طلب منه جاك تأكيداً له على شكوكه.

- هل تظنّ أنّنا نحن من فعل هذا؟ - زفر غريغورييف من التعب، وهو يجلس على واحد من كراسي الكابينة.

- من الصعب التفكير في عكس ذلك، كما أرى.

- صحيح. لكنّ الصدف موجودة، عزيزي جاك، التعقيدات التي تلي العمليات الجراحية كثيرة... فلماذا نجازف بقتل ذلك الشقي وكان نصف ميت، ويعيش كالمتسوّل في باريس، باحثاً عن أنصار لا وجود لهم؟ هل لبثّ الرعب في نفس العجوز وإفزاعه وتصعيب الأمور على أنفسنا؟...

فكر جاك للحظات ثمّ استجمع عزيمته ليسأل عن شيء لم يفلح خالقا الكون الماديان في مسحه من ذهنه.

- ولماذا قتلوا أندريس نين؟

- لأنّه كان خائناً، وأنتَ تعرف هذا - قال غريغورييف، بسرعة.

- ألم يقتلوه لأنّه لم يتكلّم؟

ابتسم الآخر، ولكن بامتعاض هذه المرة. كان يبدو مرهقاً.

- انسَ هذا. هيّا، اجمع حاجياتك. سننتقل إلى موسكو.

كانت الشقة التي نزلا فيها قريبة من ساحة المحطات الثلاث، بالقرب من شارع «غروهولسكي»، القريب من الحديقة البيئية. إنّها بيت قديم من ثلاثة طوابق يمتلكه مصدّر للشاي انتقلت أسرته، التي تشتّتت بين التهجير وقسوة الحياة الجديدة، للسكن في الطابق الأرضي منه. شغل

غريغوريف وجاك شقة تقع في الطابق الثاني وتحوي حماماً مستقلّاً. وما إن نزلا فيها حتى أبلغ المعلم تلميذه أنّهما سيسافران إلى باريس في ظرف أيام.

تابع جاك، في الثاني من آذار، عبر الراديو، أخبار افتتاح الجلسة الأولى للمحكمة العسكرية العليا في الاتحاد السوفييتي. وبحسب التقارير، فقد كان في القاعة ما يقرب من خمس مئة شخص، وكان مركز الاهتمام هو بوخارين، الذي شاخ وصار متلعثماً في كلامه. قدّم المدعي العام فيشنسكي [76] لائحة الاتهام، وكان الجميع يعرفون طبيعة التهم: فالمتهمون، ومعهم المتهم الغائب ليف دافيدوفيتش تروتسكي وولده ومعاونه المتوفى ليف سيدوفا، ليسوا قتلة وإرهابيين وجواسيس فحسب، بل هم عملاء معادون للثورة منذ بدايتها، بل حتى قبل بدايتها. ففي عام 1918 تآمر تروتسكي والمتواطئون معه لاغتيال لينين وستالين وأول رئيس سوفييتي سفيردولوف(96). وفي حوزة الادعاء العام وثائق تبيّن كيف تحوّل تروتسكي إلى عميل ألماني في عام 1921، على شاكلة بعض المتورطين معه في المؤامرة من الحاضرين هناك. أمّا آخر مراحل سقوطه الخياني فتتمثل في بيع معلومات إلى مصالح الأمن السري في بولونيا والتآمر، مع بعض المتهمين الماثلين، لتسميم جماعي لمواطنين سوفييت، حال دون وقعه، لحسن الحظ، تدخل رجال الشرطة السرية المتيقظين.

ولما كان غريغورييف يدخل إلى الشقة ويخرج منها غير ملتفت إلى جاك، فقد قرر هذا أن ينتهز الوقت للتجول مطولاً في موسكو. لقد وجد البلجيكي، في كلّ مكان ذهب إليه، مدينة مصدومة وغاضبة. ما عاد الناس، في تلك الأيام التي خيمت عليها أجواء الاعترافات الرهيبة، مشغولين برداءة الخبز أو بخلوّ المحلات من الأحذية، بل بدوا سعداء إذ يرون زعماءهم يكشفون عن مؤامرة رجعية أخرى ويعِدون بالمزيد من العقاب. ويتنامى غضب الشعب مع إقرار المتهمين بجرائمهم التي تزداد فظاعة

96- ياكوف سفيردولوف (1885-1919). بلشفي قديم ومن زعماء ثورة أكتوبر.

شيئاً فشيئاً. لكنّ الدهشة بلغت أوجها حين أقرّ بوخارين ببشاعة جرائمه واعترف بمسؤوليته السياسية والقانونيّة عن الترويج للانهزاميّة والتخطيط لنشاطات تخريبيّة (وإن أوضح أنّه لم يتدخل شخصيّاً في التحضير لأيّ عمل معيّن ونفى مشاركته في الأعمال الإرهابيّة والتخريبيّة الأشد ضرراً وأذى). كان من الواضح أنّ بوخارين أنهى دفاعه بالطريقة التي لن تؤدي إلّا إلى أن يرمى بالخيانة: «أركعُ أمام الحزب والبلد» قال «أنتظرُ حكمكم».
لاحظ جاك أنّ مداخلة بوخارين قدمت موجزاً لأفعال شريرة، من الحاضر والماضي، لا يمكن تصورها في رجل كان، حتّى سنتين من الزمان، يتحرك في أعلى مراتب الحزب. لكنّ جاك سمع من الناس المنتشرين، في تلك الليلة، في الحانات وفي الشوارع، في عربات المترو وفي الطوابير، بل سمع من السكارى القابعين في مثلث المحطات الثلاث «لينينغراد وكازان وخاروسلاف»، وهم يرددون الكلمات ذاتها:«لقد اعترف بوخارين» وسمع من الجميع الاستنتاج نفسه: «هذه المرّة سيعدمونه».

حين أبلغه غريغورييف، صباح اليوم التالي، أنّه يحمل له هديّة، ظنّ جاك أنّ ساعة السفر حانت.

- اليوم سنذهب لنحضر المحاكمة - ففوجئ الآخر بقوله، وأضاف-: ياغودا سيصعد إلى المنصّة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بقليل حين خرجا إلى أعلى محطة «أوخوتني رياد» وتوجّها إلى بيت النقابات. في جادة المسارح، وفي الساحة التي ينهض فيها مسرح البولشوي، مقابل فندق «متروبول»، نظمت مظاهرة كان الناس فيها يطالبون، صارخين ورافعين اليافطات، بالموت للخونة من أعداء البلاشفة وللتروتسكيين. كان الغضب شديداً محتدّاً، لكنّه لم يكن منفلتاً. لاحظ جاك أنّ المجموعات خرجت بتنظيم من النقابات والمصانع والمدارس، وأنّ الشعارات والهتافات مأخوذة من افتتاحيات صحيفة «البرافدا».

شقّا طريقهما عبر حاجز الميليشيات الموضوع في بداية شارع

«بوشكينسكايا»، ووصلا إلى المبنى الذي كان مكان لهو الأرستقراطية الروسية وتسليتها قبل انتصار أكتوبر. صعدا الدرج الخارجي المزدان بالمرمر والبرونز والزجاج، وبحثا عن صالة الأعمدة التاريخيّة، حيث صدحت نوتات عباقرة الموسيقى الروسيّة وحيث رقص كبار شخصيات القرن الماضي. لقد غيّرت الثورة وظيفة المكان، شأنه شأن البلد كلّه: فمنه أطلق البلاشفة الكثير من خطبهم الثوريّة، وبين أعمدته الثمانية والعشرين الرائعة المعمولة من الخشب المغلّف بالمرمر، والتي سُمّيت الصالة بها، عرض جثمان لينين قبل نقله إلى ضريحه الأول؛ وفيها عقدت محاكمات آب 1936 وشباط 1937، التي بدأت عملية تطهير مؤلمة وضرورية متواصلة في صفوف حزب ودولة وحكومة ليست مستعدة، في سعيها لخلق تاريخ جديد، أن تتوقف أمام التاريخ.

اتخذ جاك بصمت وتأثر مكانه على المقعد الذي أشار إليه به غريغورييف. كانت القاعة تغصّ بموظفين من الحزب وقادة من الكومسومول وزعماء من الكومنترن ودبلوماسيين أجانب وصحفيين معتمدين. دخل القضاة والمدعون العامون ثمّ المتهمون ومحاموهم في الساعة التاسعة بالضبط. كان التوتر المخيّم على المكان غامضاً وغير مطمئن، حينها انحنى جاك مورنارد نحو معلمه ليسأله همساً:

– هل سيحضر الرفيق ستالين؟

– لديه أمور أهمّ من إضاعة الوقت في سماع اعترافات هؤلاء الكلاب الخونة.

حين نادى فيشنسكي على غينريخ ياغودا ساد الهمس أرجاء القاعة. رأى جاك مورنارد رجلاً ينهض. كان أقرب إلى القصر منه إلى الطول، أصلع تقريباً، ذا شارب هتلري بدا به شبيهاً بابن عرس. كان من الصعب عليه أن يصدّق أنّ ذلك الشخص، العاجز عن السيطرة على حركة يديه، امتلك، ولسنوات، قرار الحكم بالحياة أو الموت على الكثيرين من المواطنين، وتستّر، لسنوات كثيرة، على خائن.

- هل أنتَ مستعد للاعتراف بالجريمة التي توجّه إليك، غينريخ ياغودا؟- سأله فيشنسكي، وهو يتوجه بوضوح نحو الجمهور.

- نعم- قال المتهم في الحال، وتوقف قليلاً قبل أن يواصل كلامه-. أعترف، لأنّني أدركتُ الضلالة التي سرنا فيها أنا وبقيّة المتهمين، ولأنّي أعتقد أنّنا يجب ألّا نغادر الدنيا وضميرنا محمل بذلك الكم من الجرائم المرعبة. آمل أن أقدّم باعترافي خدمة للأخوّة السوفييتيّة وأعلن للعالم أنّ الحزب كان دائماً على حق وأنّنا نحن، المجرمون الخارجون على القانون، كنّا على خطأ.

بدأ فيشنسكي، وقد شعر بالرضا، استجوابه بأسئلة فيها نبرة من السخرية، وصار كلّ ردّ من ياغودا يثير همساً، وربّما صرخة سخط في القاعة. أحسّ جاك مورنارد، وما زالت فيه قابلية على أن يفاجأ بمواقف روسيّة معينة، بالطابع المسرحي الذي بدا على تلك الشخصيات وعلى كلماتها وملابسها وحركاتها، بل على المشاهد: ذكّره أداء هؤلاء بمسرح الدمى والعرائس الذي استمتع به في مدن الجنوب الفرنسي، تلك العروض التي تروي، بعجرفة مطلوبة، قصص روبرت الشيطان ورولدان وفرسان المائدة المستديرة التي لا تنتهي.

اعترف ياغودا بأنّه تآمر للقيام بانقلاب، بالتواطؤ مع المخابرات الألمانيّة والإنكليزيّة واليابانيّة؛ وأقرّ بمشاركته في مؤامرة تروتسكيّة للاعتداء على حياة ستالين، وفي بعض حالات التسميم وفي اغتيال ماكسيم غوركي؛ وأكّد أنّه خطط لإعادة حكم البرجوازيّة إلى روسيا وارتكب، تنفيذاً لخطة تروتسكي، تجاوزات وحملات قمع هدفها خلق حالة من التذمّر في البلد. وحين سأله فيشنسكي، وقد استبدّ به الرضا، بعد الحصاد الباهر الذي جناه، عن دوره في اغتيال ماكس، ولد غوركي، لم يردّ عليه ياغودا. طلب منه فيشنسكي أن يردّ، لكنّ المتهم التزم الصمت. ازداد التوتر وجلجل صوت المدعي العام بين الأعمدة حين صرخ بالمتهم أن يعترف بدوره في اغتيال ماكس. لاحظ جاك، من

مقعده، أنّ يدي ياغودا كانتا ترتعشان منفلتتين حين نفى ياغودا، وهو ينظر إلى المحكمة، وبصوت غير مسموع تقريباً، أن يكون شارك في اغتيال ابن غوركي، وأضاف، بنبرة توسّل:

- أريدُ أن أعترف بأنني كذبتُ أثناء التحقيق. لم أرتكب أيّاً من الجرائم التي تنسب إليّ والتي اعترفتُ بها. أطلبُ منكم، أيّها الرفيق المدعي العام، ألّا تسألني عن دوافع كذبي. لقد كنتُ دائماً مخلصاً للاتحاد السوفييتي وللحزب وللرفيق ستالين، وبصفتي شيوعيّاً فأنا لا أستطيع أن أتهم نفسي بجرائم لم أرتكبها.

أدرك جاك مورنارد أنّ شيئاً غريباً يحدث. كانت وجوه فيشنسكي والقضاة والتعبيرات التي بدت على أعضاء المحكمة، وحتّى على المتهمين، تنمّ عن ارتباك، تحول، بين صفوف الجمهور، إلى ضجيج وأصوات ذهول ومفاجأة وغضب، حين علا صوت القاضي الأول على صوت الضجيج ليعلن عن رفع الجلسة للاستراحة حتى العصر.

- يا له من مشهد!- قال غريغورييف متحمساً-. لنذهب ونتناول الغداء، أعدكَ أنّك ستشهد هذا العصر ما لن تنساه في حياتك.

حين عادا، رأى جاك مورنارد ياغودا وهو يدخل إلى قاعة الأعمدة وقد بدا عليه أنّه شاخ عشر سنوات في خمس ساعات. حين ناداه القاضي للشهادة جاهد المتهم في النهوض من مكانه. كانت نظرته نظرة جثّة هامدة.

- هل يصرّ المتهم على شهادته التي أدلى بها هذا الصباح؟ - سأل القاضي، فحرّك ياغودا رأسه نافياً.

- أعترف بأنّي مذنب بما أتّهم به - قال، ليفتح توقفاً طويلاً، إلى أن أسكتت مطرقة القاضي موجة التصفيق والصفير والصراخ التي انطلقت من الكثيرين من الحاضرين منادية بالموت للكلب الخائن-. لا أظنّ أنّ من الضروري أن أكرر قائمة جرائمي ولا أحاول التقليل من خطورتها. ولكنّي أعلم أنّ القوانين السوفييتية لا تعرف الانتقام لذلك أكتفي بطلب

العفو. أنا أتوجّه إلى حضراتكم، أيّها القضاة؛ إلى حضراتكم أعضاء هيئة الطوارئ، وإليك، أيّها الرفيق ستالين، لأقول لكم: اصفحوا عنّي!

- لا. لا عفو ولا صفح عنك! - صاح في تلك اللحظة فيشنسكي، من دون أن يخفي رضاه وحقده-. ستموت كالكلب! جميعكم تستحقون الموت كالكلاب!

مسّ غريغورييف بمرفقه جاك الذي أصابه الخرس وأشار إليه برأسه وهو ينهض:

- ما عاد من شيء نراه - قال له وهما يغادران القاعة.

لم يستطع جاك مورنارد أن يخرج من حالة الذهول التي أصابته. كان من الصعب عليه العثور على تفسير منطقي لأفعال ياغودا المتناقضة. طلب غريغورييف من السائق، وقد أصبحا في الشارع، أن يأخذهما مباشرة إلى شقتهما. حين نزلا ودّع السائق وأمره بأن يعود إليهما بعد ساعتين. وبدلاً من الصعود على الدرج، أشار غريغورييف إلى جاك فخرجا إلى فناء البناية، ومن هناك إلى شارع سارا عبره، صامتين، نحو ساحة المحطات الثلاث المزدحمة. ومن دون توقف توجه غريغورييف إلى بناية محطة لينينغراد. دخلا بالتدافع تقريباً إلى المكان الوحيد الذي تقدم فيه المشروبات الكحوليّة وطلب المستشار لترين من الجعّة.

- كيف بدا لك ما رأيت؟

فهم جاك مورنارد على الفور أنّ سؤاله على قدر كبير من الأهميّة، وأنّ ردّه عليه يمكن أن يكون ذا قيمة بالنسبة إلى مستقبله.

- هل تريد الحقيقة؟

- هذا ما أنتظره منك - قال وصبّ كأساً ثانياً أضاف إليه دفقة من الفودكا كان يحملها في جيبه.

- ياغودا لم يعترف بإرادته. كان كلّ شيء ممسرحاً.

نظر إليه غريغورييف مطرقاً، وعبّ جرعة كبيرة من «اليورش»، ومن

دون أن يبعد نظره عن عيني جاك مورنارد، صبّ أكثر من نصف زجاجة الفودكا في كأسه الكبيرة وعبّها.

- ياغودا يعرف جميع الوسائل اللازمة لنزع الاعتراف. بل لقد اخترع هو نفسه الكثير منها، وأستطيع أن أؤكد لك أنّه كان على درجة عالية من الإبداع. طبعاً لقد أخضعوه لبعضها أثناء المحاكمة. ألم تلاحظ كيف كانت أسنانه تتحرك؟ من يدري لمن كان يعود طقم الأسنان ذاك... لكنّ الشقي، في هرائه ظنّ أنّ في مقدوره المقاومة... قبل ثلاثة أيام ظنّ كريستنسكي الشيء نفسه وانتهى به الأمر أن اعترف بكلّ شيء... كانت ثلاث ساعات كافية لكي يقتنع ياغودا بأن لا جدوى من التمنّع ما دامت التهمة الموجهة إليه من صنع يجوف. البراءة المطلقة هي الوحيدة التي يمكنها أن تنقذ حياتك، وحتى مع البراءة المطلقة، ففي مقدور الكثيرين من الأبرياء أن يعترفوا بأنّهم صلبوا المسيح مقابل أن يدعوهم بسلام ويقتلوهم في أسرع وقت ممكن.

- أتريد أن تقول لي بأنّ ياغودا مذنب في كلّ ما قال المدعي العام؟

- لا أدري إن كان مذنباً في كلّ شيء، أو في جزء، لكنّه مذنب. وهذا هو ما جعله ضعيفاً. وبهذا الضعف لا يمكنه أن يتحمّل إصرار زملائي. كان اليوم يوماً جيداً بالنسبة لك، جاك. أنا كنتُ أريد أن أريك كيف يزحف الرجل، لكنّك حزت شرف رؤيته وهو ينهار ويغرق. أتمنّى أنّك استوعبتَ الدرس: لا أحد يقاوم. ولا حتى ياغودا. ولن يقاوم يجوف حين يأتي دوره.

استجمع جاك مورنارد عزيمته وعبّ الجعّة التي في جرّته كلّها تقريباً. أحسّ وكأن رئتيه احتقنتا، وكأنّه موشك على الاختناق، إلى أن انتفخت فتحتا أنفه مثل قاطرة تتهيأ للانطلاق؛ ما زال عليه أن ينتظر ثواني ليلتقط أنفاسه. كان لتلك التجربة أن تكون أشدّ وأعنف، لكنّه اكتشف أنّ للبخار الأثيلي ميزته، فقد طرد من حاسة شمّه الرائحة النتنة التي خيّمت على المكان.

- هل ستخبرني الآن بالذي جرى مع أندريس نين؟ - سأل حين تمكن أخيراً من الكلام.

ابتسم غريغورييف وهو يهزّ رأساً رافضاً.

- ما أشدّ عنادك... ماذا تريدُ أن أقول لك؟ ذلك الكاتلان كان مجنوناً ولم يعترف. لقد أثار حفيظة الجميع و...

- أنا كنتُ أعلم أنّه لن يعترف - قال ثمّ قرب جرة الجعّة من غريغورييف. أضاف معلمُه دفقة من الفودكا عليها-. حتّى لو أغرقوه بالفودكا...

-15-

على مدى الأسبوع الأول من تشرين الثاني وطوال شهر كانون الأول من عام 1977 كان لي مع الرجل الذي يحبّ الكلاب ستّة لقاءات، تمّت جميعها بمواعيد متفق عليها. راح الشتاء يتبدد، حتّى نهاية العام، في جبهتين أو ثلاث جبهات باردة فقدت زخمها أثناء مرورها فوق خليج المكسيك، فلم تحمل إلى الجزيرة غير رذاذ ضعيف لا يقوى على تغيير المحارير، وغير أمواج عكرت هدوء البحر الذي شهد لقاءاتنا وأحاديثنا. كنتُ أسارع من عملي إلى الشاطئ، مجذوباً بكلام الرجل، حريصاً على موعدي معه. وهكذا تحوّل سماع تلك القصّة ومحاولة هضمها، بأحداثها التي تكشف عن واقع دفين وعن حقيقة لا يمكن لي ولا لأيّ شخص أعرفه أن يتصوّر وجودها، إلى وسواس. كان يضايقني ما رحتُ أكتشفه وأنا أستمع إليه، ويضايقني أيضاً ما بدأت بقراءته. وصار يحرقني لهيب خوف داخلي، مع ذلك، كنتُ عاجزاً عن كبح رغبتي في المعرفة.

منذ أن بدأ الرجلُ يرسم مسيرة صديقه رامون ميركادير، بدءاً من طفولته وشبابه في برشلونه، بدأت تتفتحُ أمامي أبواب عالم كان وجوده حتّى تلك اللحظة محفوفاً بأفكار غامضة ومثالية صارمة، تميّز بين صالحين وطالحين، بين أخيار وأشرار، عالم كنتُ أجهلُ مسالكه وثناياه: راح إيمان بعقيدة صادقة وقاتلة ممزوج بدسائس وألعاب قذرة، وراحت أكاذيب في لبوس حقائق وحقائق لا يتطرق إليها الشكّ، تنير سذاجتي وجهلي بومضاتٍ تخطف البصر. ومع تقدّم لوبيث في سرد القصّة،

كنتُ في مرات عديدة على وشك أن أطلب منه أن يسكت، أن أصرخ في وجهه بأنّ ما يقوله غير ممكن، لكنّي كنتُ أردع نفسي وأكتفي بطرح سؤال، حين أشعر بأنّ ما يقوله يتجاوز تصديقي أو فهمي، ثمّ أواصل الاستماع إلى كلام يذيب الكثير من المعتقدات ويغيّر مكان أفكار أخرى زرعوها فيّ.

عقب اللقاء الثاني، تكوّن لدي استنتاج خطير بأنّ شيئاً بالغ الأهميّة في ما يقصّه عليَّ ذلك الرجل، لا يبدو متماسكاً. ومع أنّني لم أكن قد اكتسبتُ الارتياب الفلكي (ذلك الجنوح إلى الشك الذي طالما أزعج راكيليتا وأصدقائي، لأنّه كان يدفعني إلى الردّ، آليّاً تقريباً، وعلى وصف أيّة قصّة لا يتوفر فيها الحد الأدنى من المصداقية، بأنّها غير ممكنة وبأنّها كذب فاضح) الذي اكتسبته بعد تلك اللقاءات، فما كنتُ أسمعه كان يعاني من غياب للمنطق، شائع ومثير للقلق، جعلني أفكّر، على الأقل، في أنّ خايمي لوبيث تلاعب ببعض فصول قصّة صديقه رامون. لكنّي تلمّستُ، عند نهاية اللقاء الثالث، وقد بلغنا كانون الأول، وبشيء من الوضوح، الشرخ الذي كان المنطق يتسرب منه: كيف استطاع لوبيث أن يحصل على تلك المعلومات البالغة الدقة عن حياة صديقه ومشاعره؟ فمهما بلغ وضوح رامون ومهما بلغت عنايته بسرد التفاصيل أثناء أحاديثه في موسكو من عشر سنوات مضت، حين التقيا بعد فراق طويل، حيث فتح رامون، أو يفترض أنّه فتح، لرفيقه القديم جميع المسارات المؤدية إلى أبعد عطفات وجوده وتعرجاته، فإنّ المعلومات التي يمتلكها الراوي تبدو بلا شك مبالغاً فيها، وما من تفسير لها إلّا في سببين: كان السبب الأول يدور في رأسي منذ أوّل حوار، وهو أنّ خايمي لوبيث حكواتي من الدرجة الأولى، أضاف إلى الحكاية لمسات من عندياته؛ أمّا التفسير الثاني فقد مرقَ بي مروق السهم، بينما كنتُ أسافر بالسيارة نحو هافانا بعد اللقاء الثالث، وكنتُ على وشك أن أصاب بالجنون: ألا يمكن أن يكون خايمي لوبيث هو نفسه رامون ميركادير؟ هل من الممكن أن يكون

ذلك الكائن الخيالي، المحشور في ركن عاصف والضائع في التاريخ، البطل من دون وجه لماض مرعب، ما زال موجوداً؟ ومع أنّني ما كنتُ أجدُ من أجوبة ممكنة عن تلك الأسئلة غير النفي القاطع، فقد كانت بذرة الشك قد سقطت فوق أرض نديّة رطبة، وستبقى هناك، لأنّ شكّاً مقيماً كان يمنعني من زراعتها: إذا كان الرجل الذي يحبّ الكلاب هو رامون ميركادير فما الذي جاء به إلى كوبا؟ ولماذا يروي قصته عليَّ؟ وماذا عن خايمي لوبيث ولغزه؟

لقد صدر واحد من الأسباب التي دعمت شكوكي حول دور خايمي لوبيث في تلك الحكاية من أنّني صرتُ، لحظة استماعي له، أتوفّر على مفاتيح لم أكن أمتلكها حين تعرّفتُ إليه. فقد قرّرتُ، بعد الحديث الثاني، وقد بدأتُ أتلمس مسار القصّة ووجهتها، أن أذهب لزيارة صديقي داني في مكاتب دار النشر التي يعمل فيها «متخصصاً في الترويج والنشر». ومع أنّ ذلك العمل لم يكن هو ما يحلم داني به، فقد قبل به متأملاً أن يحصل، بعد سنتين من الخدمة الاجتماعية، على وظيفة محرر، تمنحه فرصاً أكثر للدخول إلى الفريق الإداري للدار.

ولمّا كان دانييل فونسيكا قد أطلّ برأسه، وسيظهر في مراحل أخرى من هذه القصّة، فعليَّ أن أقول عن هذا الصديق إنّه كان، بشكل من الأشكال، تلميذي الأدبي الوحيد، إن كان يمكنني أن أسميه بهذا الاسم. التحق داني بكلية الآداب حين كنتُ أنا في السنة الأخيرة من كليّة الصحافة. زارني في أحد الأيام في بيتي في «بيبورا بارك»، بتوجيه من ابن عمّ لي، وكان جاراً له، طمعاً في أن أعيره بعض كتبي التي يحتاجها في دروسه. وخلافاً لكلّ منطق، أعرته إياها، وبي شك في صدق نواياه وخوف على كتبي. ولكي يضمن أن تسير الأمور مستقبلاً على نحو ما خطط، فقد ذهب بالمنطق إلى مداه بأن أعاد لي الكتب عند انتهاء السنة الدراسيّة. وهكذا بدأت زياراته، أيام السبت عصراً في العادة، وانتقلنا من الكتب المقررة إلى الروايات، التي رحتُ أقترح عليه قراءتها، والتي بدأ يملأ خواءه الموسوعيّ بها. في

تلك الفترة كان داني يستمع إليّ وينظر إليّ نظرته إلى معلّمه الروحي، لأنّه كان، على الرغم من ذكائه، جاهلاً بالمطلق، وكنتُ أكبره بخمسة أعوام، وأتقدم عليه شوطاً بعيداً في المطالعة، ناهيك عن مجموعتي القصصيّة المنشورة. لم أكن أنا ولا داني، في تلك الأوقات، لنحلم بأن يصبح ذلك الحيوان النهم، الذي أنفق، قبل أن يدخل إلى كليّة الآداب، كلّ ساعة من وقته للعب الكرة، وانكبّ على القراءة والمطالعة، كاتباً، بل كاتباً نبيهاً ومتميزاً – أيّ أكثر من مقبول وأقلّ بدرجات من متألّق- يبدو أحياناً ذا قابلية أدبيّة تفوق تلك التي تظهر في كتبه المنشورة.

ومع أنّني لم أكن، إبّان لقاءاتي مع لوبيث، ألتقي داني إلّا قليلاً، لم يستغرب زيارتي له في دار بيدادو للنشر، لكنّه فوجئ بالسبب الذي حملني إلى هناك واهتزّ لسماعه من أعلى رأسه إلى أسفل قدميه: طلبتُ منه كتاباً عن سيرة تروتسكي، فهو، من بين من أعرفهم، أحد من يمكن أن يحوز ذلك الكتاب. بادرتُ داني، قبلَ أن يخرج من الدهشة التي سبّبها له طلبي الغريب، موضحاً له أنّ المكتبة الوطنية والمكتبة المركزية في الجامعة لا يمتلكان كتباً عن تروتسكي غير تلك التي نشرتها دار التقدم الروسيّة، حيث لا شغل لمؤلفيها غير الحطّ من قدر كلّ أعمال الرجل وكلّ أفكاره، بل وكلّ واحدة من حركاته أو سكناته حتّى مماته – هم يسمونه النبي الدجال والمرتد وعدوّ الشعب. والمؤلف في تلك الكتب هو على الدوام مجموعة مؤلفين، وكأنّ واحداً بمفرده لا يستطيع حمل عبء ذلك السيل من الشتائم والتهم-، وما كان يهمني فهو الحصول على شيء يخلو من تلك الدعاية المباشرة، التي تضطرك بفظاظتها إلى الشك في نزاهتها وصحتها. أمّا من كان قادراً على أن يوفر لي المادة التي أحتاج إلى قراءتها فهو عمّ أليسا، زوج داني، ذلك الصحفي العجوز، والشيوعي النشيط منذ سنوات الأربعين، والذي اعتقل إبّان اضطرابات عقد الستينيات لأسابيع، مع مجموعة من أنصار التروتسكية، ممّن كانت له معهم علاقات شخصية، بل فلسفيّة.

من الضروري أن نتذكر أنّنا في عام 1977، أي حين كانت الإمبراطورية السوفييتية في أوج عظمتها، وفي قمّة تشددها الفلسفي والدعائي. ومن الضروري أن نتذكّر أيضاً أننا كنّا نعيش في بلد تبنّى نموذجها الاقتصادي واحتذى نهجها السياسي الصارم: من خلال هذه الإيضاحات المهمة يمكنكم تصوّر الجفاف المروّع في الكتب والمعلومات، بل وفي الفكر، الذي كنّا نعاني منه بخصوص موضوعات من هذا النوع، الحساسة، على نحو خاص، بالنسبة إلى الإخوان السوفييت الأعزاء، ولكم أن تتخيلوا الرهبة التي يمكن أن يحدثها مجرد ذكر أيّ من المواضيع الخطيرة - وقد كان تروتسكي هو الخطر السياسي مجسداً في صورة إنسان، والشر الأيديولوجي في أبشع حدوده-. لذلك كلّه أرى أنّكم ستتفهمون جواب دانييل:

- ما هذا الهراء الذي تقوله؟ - قفز حين فهم قصدي وأضاف، بصوت خفيض وبنظرة قلق مريض-: هل جننتَ، يا صديقي؟ هل عاودت الشرب؟ ما الذي جرى لك؟

في تلك السنوات، ما كان أحد في الجزيرة تقريباً، حسب علمي على الأقل، يعير أدنى اهتمام لتروتسكي وللتروتسكيّة، لأنّ ذلك الاهتمام، إذا ما ظهرَ أو عاود الظهور في أحد، وبلغ به جنونه حدَّ المجاهرة به فلن يعود عليه بغير المشاكل من كلّ نوع. فإذا كان الاستماع إلى الموسيقى الغربيّة أو الاعتقاد بأيّ ربّ أو ممارسة اليوغا أو قراءة روايات معينة «مضرة أيديولوجيّاً» أو كتابة قصّة تافهة عن رجل مسكين يشعر بالخوف، قد تثير حولك شبهة، أو تؤدي بك إلى المحكمة، فإنّ إبداء الاهتمام بالأفكار التروتسكيّة كان من قبيل ربط الحبل على العنق، خصوصاً في حالة الذين يتحركون في عالم الثقافة والتعليم والعلوم الاجتماعية. (علم في ما بعد أنّ بعض اللاجئين من الأوروغواي وتشيلي، ممن كانوا في تلك الأعوام يعيشون في الجزيرة، كانوا الوحيدين الذين يجرؤون على الكلام عن الموضوع عن معرفة ودراية بالوقائع، على الرغم من أنّ هؤلاء أنفسهم،

وبسبب خضوعهم للضغط الجوي، كانوا يتكلمون عنه بصوت واطئ.) ومن هنا جاءت ردة فعل الصديق العنيفة شيئاً ما.

- لا تأكل خراءً، داني- أجبتُه حين بدأ يهدأ-. لن أصبحَ تروتسكيّاً ولا غير تروتسكي. ما أحتاجه هو أن أعرف... أ- ع- ر- ف، هل تفهم ما أقول؟ أم إنّ المعرفة ممنوعة أيضاً؟

- لكنّك «تعرف» الآن أنّ تروتسكي نار!

- هذه هي المشكلة. ائتِ لي بكتاب من تلك التي لدى قريب أليسا ولا تزعجني. لن أخبر أحداً بالمكان الذي حصلت عليه منه...

على الرغم من احتجاجات داني فقد تمكنتُ من مسّ عصب الفضول الذكيّ فيه، فزودني، بأسرع مما كنتُ أتوقّع (آخذ في الحسبان علاقته السيئة بالتروتسكي السابق العجوز) بمعلومات عن كاتبٍ وسيرة لم أسمع بهما من قبل: إسحاق دويتشر[97] وثلاثيته حول «النبي»: مسلحاً ثمّ أعزل ثمّ منبوذاً، في طبعات نشرت في المكسيك نهاية عقد الستينيات. مررتُ صباح ذلك اليوم بمكان عملي وطلبتُ إجازة للبقية الباقية من أيّام الشهر، ثمّ عرّجتُ عليه وتسلّمتُ منه الكتاب بأجزائه الثلاثة، بعد أن أخذ منّي كلّ ما أراد من الوعود بإعادة الكتب إليه في أسرع وقت ممكن. أمّا أكثر ما أتذكّره عن تلك الأيام، باستثناء زياراتي إلى الشاطئ، فهو النهم الذي كنتُ أقرأ به تلك السيرة الطويلة للثوري المدعو ليون برونشتاين، وتحققي من جهلي الكبير بالحقائق (حقائق؟) التاريخيّة للحظات والأحداث التي عاشها ذلك الرجل، أحداث ولحظات روسية خالصة وبعيدة، بدءاً بثورة أكتوبر (لم أفهم قط ما الذي حدث في بتروغراد في السابع من تشرين الثاني، الذي كان في الواقع الخامس والعشرين من تشرين الأول، وكيف تمّ الاستيلاء على قصر الشتاء الذي لم يشأ أحد، في الواقع، أن يدافع عنه، والذي حسم عمليّاً انتصار الثورة واستيلاء البلاشفة

97- Issac Deutscher (1907-1967). كاتب وصحفي ومؤرخ وناشط شيوعي بولوني. اشتهر بكتابيه عن سيرة تروتسكي وستالين.

على السلطة) ثمّ الصراعات الداخليّة الغريبة بين الثوريين، والتي بدا فيها ستالين الوحيد المستعد لتسلّم السلطة، ثمّ بمحاكمات موسكو التي أسدل عليها ستار الصمت تقريباً (حتّى بدت لنا وكأنّها لم تقع)، والتي كان المتهمون فيها أسوأ مدعيها العامين. في نهاية ذلك العرض الطويل لمظاهر «الروح الروسيّة» (إن لم تفهم شيئاً في الروس فمردّه دائماً في ما يبدو هو روحهم)، ظهر الحديث عن اغتيال الزعيم القديم، وهو أمر لا يورد له ذكر في الكتب السوفييتية المخصصة له، فكأنّ تروتسكي (ربّما لأنّه كان أوكرانيّاً وليس روسيّاً) مات من نزلة برد أو من نوبة رعاش قضت عليه في أحد الأيام، أو كأنّه شخصية من شخصيات إيميليو سلغاري[98].

بفضل تلك السيرة، بدأ الشخص الذي ذهب إلى الشاطئ ابتداءً من اللقاء الثالث يتحوّل إلى شخص قادر، بالحد الأدنى، على هضم عناصر مختلفة من تلك القصّة ومن منظور مختلف. صار سمعي يجدّ في تفسير معلومة يحاول، عن معرفة دقيقة بالأحداث وبالممثلين، أن يضعها على لوحة صار يمتلك فكرة أوّلية مسبقة عن إحداثياتها.

بعد أيام من دخول جرثومة الشك الغريبة، والمنطقية، في أنّ لوبيث ليس هو لوبيث، وفي أنّ ميركادير لم يمت، وصلتُ إلى الشاطئ وفي نيّتي أن أحاول إجبار الرجل على أن يعترف لي بحقيقة هويته -إن كان هناك من حقيقة، وهو ما لم أكن متأكداً منه-. تحيّنتُ الفرصة المناسبة لأحشر شكّي ووجدتها حين كان لوبيث يحدثني عن الصدمة التي أحدثها الاتفاق المثير للجدل بين مولوتوف وريبنتروب[99] في صديقه رامون وفي أمّه، كاريداد دل ريو.

98- Emilio Salgari (1862-1911). كاتب وبحار وصحفي إيطالي. كتب روايات تحكي عن مغامرات اتخذت من البحار والمحيطات والصحارى والغابات في أفريقيا وأمريكا والكاريبي وأستراليا وماليزيا مسرحاً لها.

99- هي معاهدة عدم الاعتداء التي وقعها في 23 آب من عام 1939 وزيرا خارجية الاتحاد السوفييتي مولوتوف وألمانيا النازية ريبنتروب، والتي ظلّت قائمة حتّى أقدمت ألمانيا في 2 حزيران 1941 على غزو الاتحاد السوفييتي.

- أتدري؟ - سألته من دون أن أنظر إليه-، في كلّ ما قصصته عليَّ هناك شيء لا أصدقه.

أشعل لوبيث سيجارة من سجائره بولاعته الغازيّة. وأمام صمته، واصلتُ:

- لا أحد يستطيع أن يعرف كلّ شيء عن حياة شخص آخر، مهما حكوا له عنه. هذا مستحيل.

كان لوبيث يدخن من دون عجلة، وقد بدا لي أنّه لم يسمع كلماتي. أدركت بعد ذلك أنّ رجلاً مثلي لا يمكنه تحريك تلك الصخرة إلّا قليلاً: كان الرجل متخصصاً في الردّ على ما يريد هو أن يردّ عليه، وكانت استراتيجيته تتمثل في أن يأخذ منّي المقلاة، ويمسك بعروتها ويضربني بها على رأسي.

- ماذا ترى؟ هل تظنّ أنّ ما قصصته عليك كذب؟ - نزع نظاراته للحظات، نظر إليها عبر الضوء وبللها بلسانه، لينظفها ممّا علق بها من غبار.

- لا أدري- قلتُ، متردداً. صار لصوته نبرة قادرة على تبريد اندفاعي، لذلك اخترتُ كلماتي بعناية:

- كيف لك أن تعرف كلّ هذا عن رامون؟ أليس عجيباً أن تولد كاريداد ووالدتك في كوبا؟ أنا أظنّ أنّ...

- تظنّ أنّني شقيق رامون؟ أو أنني كنتُ مديره؟

قلّبتُ تلك الاحتمالات على عجل في رأسي من دون أن أتنبّه إلى أنّ الرجل لم يكن يرمي من ورائها غير إضعاف قناعتي. لم يمنحني الكثير من الوقت للتفكير، بل توجه مباشرة إلى مربط الفرس.

- أم تظنّ أنّني أنا رامون؟

نظرتُ إليه بصمت. في الأسابيع الأخيرة، فقدَ الرجل الذي يحب الكلاب من وزنه قدراً ملحوظاً، وصار جلده أكثر عتمة، مخضرّاً تماماً، وشكا دائماً من ألم في حنجرته، وكانت تعتريه نوبات من السعال، يهدئها

بجرعات من الماء المحلّى بالعسل، الذي يضعه في الزجاجة التي ترافقه دائماً. لكنّ عينيه كانت، في تلك اللحظة، تشعّ صرامة حارقة أخافتني، عليَّ أن أعترف.

- رامون مات، أيّها الفتى، ودفن. وأسوأ ما في الأمر أنّه تحوّل إلى شبح. إن بحثتَ في جميع مقابر الاتحاد السوفييتي فلن تجد له قبراً. حتّى أنا لا أعرف تحت أيّ اسم دفنوه... ثمّ، إذا كنتُ أقصّ عليك كلّ هذا فلماذا سأخدعك في البقيّة؟ وماذا يهمّ من أكون أنا؟ بل ما الذي سيتغيّر لو كنتُ أنا رامون؟

حضرتِ الأجوبة إلى ذهني: يهم. لأنّ ما تقصّه عليَّ هو قصّة الخداع، وكلّ شيء كان سيتغيّر لو كنتَ أنتَ رامون، فما كان لأحد (هذا ما أظنّه على الأقل) أن يتمنّى أن يكون رامون ميركادير. لأنّ رامون مقزز ومخيف... لا حاجة بي إلى القول إنّني لم أتجرأ على أن أقول له ذلك.

- أعلم بما تفكّر، وهذا لا يثير دهشتي - قال لي الرجل، وأحسستُ بنفسي من جديد محاصراً بالخوف-. هذه قصّة منفرة تهدم ملايين الخُطب التي ألقيت خلال ستين عاماً... وحقيقي أيضاً أنّ رامون انتهى مثيراً لتقزز أناس كثيرين - توقف، وبقي بلا حراك-. لكن حاول أن تفهم ذلك، اللعنة، وإن لم تجد له تبريراً. رامون رجل ينتمي إلى زمن آخر، زمن صعب، لم يكن يسمح حتّى بالشك. حين قصّ عليَّ قصته، وضعتها في عالمه وفي زمانه، لذلك فهمتها. مع ذلك، وهذا أكيد، لا تنظرْ إليه بعين الشفقة، لأنّ رامون كان يكره هذا الشعور.

- إن لم تكن رأيت قبره ولم تذهب إلى دفنه فكيف تقول إنّك متأكدٌ من أنّه ميت؟- سألت، منتهزاً آخر فرصة للسؤال، على الرغم من أنّني شعرتُ بأنّ لوبيث هزمني بحججه.

- أعرف أنّه ميت لأنّي رأيته قبل أسابيع من وفاته، حيث قطعوا أملهم في شفائه...- قال وابتسم بحزن ظاهر-. انظر، لكي تكون مطمئنّاً، سأعطيك دليلاً لن تستطيع أن تفنده: أو تظنّ أنّ رامون، بعد أن

أوفى بوعده، متحدياً كلّ المخاطر والصعاب، سيحكي قصته لأول... للشخص الأول الذي يصادفه؟ لو كنتُ أنا رامون، فهل تظنّ أنّني سأخاطر بفعل ذلك؟ ثمّ، لماذا؟

أحصيتُ، في ثانية، عشر صفات نعتني بها لوبيث: «آكل الخراء» أو «كذّاب»، الكوبيتين، إلى «أحمق»، التي استخدمها مرّة من المرات، وفكرتُ في الكثير من الأدلة للردّ على أسئلة لوبيث الأخيرة (ما الذي يخيف في رجل وصف نفسه بأنّه يحتضر؟ قد يكمن الجواب الوحيد في أنّ الخوف ينتقل أيضاً، كالإرث، ويشمل مصير أولئك الأولاد الذين قرّر لوبيث، أو ميركادير، ألا يحكي تلك القصّة، ربّما لحمايتهم). لكنّي انتبهتُ إلى أنّني إن أردتُ مواصلة الاستماع، فإنّ خياري الوحيد هو تصديق ما يقوله؛ وقد كنتُ، في تلك اللحظة، أصدّقه فعلاً. حملتُ نفسي على أن أنسى، أو على الأقل، أن أؤجل شكوكي، إلى أن أصل، بشكل من الأشكال، إلى قناعة مطلقة بأنّ لوبيث هو لوبيث وأنّ ميركادير هو مجرد شبح من دون قبر. أو العكس. ولكن أنّى لي أن أصل إلى أيّ من تلك القناعات إن لم أكن أعرف، حتى قبل أيام قليلة، إن كان وجد رجل يدعى رامون ميركادير أم لا؟

قطع توقّفه عن السرد حماسه، فودعني الرجل الذي كان يحب الكلاب ذلك المساء قبل غروب الشمس بكثير. ومع أنّنا اتفقنا على معاودة اللقاء يوم الاثنين، فقد بقيتُ برهة عند الشاطئ وأنا في قلق من أن تكون العلاقة بيننا قد ساءت بسبب شكوكي وغياب ثقتي. وخشيتُ أن أظلّ جاهلاً بمجريات الأحداث التي انتهى إليها تفاني رامون ميركادير الذي لا يعرف الحدود.

على أيّة حال، انصرفتُ نهاية الأسبوع تلك إلى قراءة ماراثونيّة للمجلد الأخير من السيرة التي كتبها دويتشر، «النبي المنبوذ»، محاولاً أن أضع معلوماتي في الزمن الذي وقعت فيه القصّة. أذكر أنّني، حين ظهرت شخصيّة جاك مورنارد المرعبة، في الصفحات الأخيرة من

الكتاب، شعرتُ باضطراب في صدري، فكأنّ القاتل دخل عليَّ حجرتي. راح دماغي حينها يلعب معي لعبة شريرة: فصورة جاك مورنارد التي ترد على ذهني هي صورة لوبيث، بنظاراته المرقشة الثقيلة. كنتُ أعلم أنّ ذلك هراء، فبين المورنارد الشاب الأنيق ولوبيث الشاحب والمحتضر، بحسب ما يقول، مسافة كبيرة بلا شك. لكنّ خيالي كان يصرّ على وضع صورة صاحب كلبي «البورزوي» الحيّة والواقعيّة في الجسم النافر للبلجيكي المفترض الذي ظهر في حصن كويواكان مكلفاً بمهمة قتل الرجل الذي استطاع، جنباً إلى جنب مع لينين، من فعل ما لا يخطر على بال: أن يستولي البلاشفة على السلطة في عام 1917، بل والإبقاء عليها والانتصار على جيوش الإمبراطورية وعلى الأعداء الداخليين.

بين صفحات المجلد الأخير من السيرة وجد ثلاث قصاصات ورقية مأخوذة من الصحف، تشير إلى اهتمام صاحب الكتب بالعلاقة بين تروتسكي وقاتله. كانت إحدى تلك القصاصات مأخوذة من جريدة «إنفورماثيون = الإعلام» الكوبية، حيث يعلن مالك الكتاب نفسه، تحت عنوان كبير، عن خبر الاعتداء الذي تعرّض له تروتسكي يوم 20 آب من عام 1940 وحالته الخطيرة لحظة إغلاق الجريدة (كان لذلك أن يبدو، لشيوعي من شيوعيي عام 1940، تعليقاً موالياً لتروتسكي، لمجرد أن المحرر لم يعلّق بشيء على ما حدث)؛ القصاصة الثانية تعود، ربّما، لمجلة، وفيها تعليق حول فصول تهكميّة ساخرة حول حادثة الاغتيال، رواها في ما يبدو كتاب عديدون من كوبا، وضمّها غيّرمو كابريرا إنفانته[100] في كتابه «ثلاثة نمور حزينة» (لم ينشر في كوبا، لذلك لا يمكننا العثور عليه)؛ أمّا القصاصة الأخيرة، فهي عمود طويل من دون تاريخ

100- Guillermo Cabrera Infante (1929 - 2005). كاتب كوبي بريطاني الجنسية. حائز على جائزة ثيربانتس الأدبية عام 1997. أيّد الثورة الكوبية في البداية ثمّ اختلف معها فأجبر على العيش منفيّاً في بريطانيا. في عام 1968 صدرت روايته «ثلاثة نمور حزينة» التي وصفت بأنّها مضادة للثورة. طرد من اتحاد الكتاب والفنانين الكوبيين ووصف بالخائن.

ولا مصدر، وقد بدت لي أكثر تلك القصاصات أهميّة ودلالة، لأنّها كانت تشير إلى أنّ رامون ميركادير موجود في موسكو، بعد أن خرج من السجن المكسيكي الذي أمضى فيه سنوات سجنه. يروي مؤلف العمود أنّ شخصاً مقرباً جدّاً من ميركادير - هل كان لوبيث، مسؤولاً عن خيانة أخرى للثقة- حكى له أنّ صرخة الألم التي أطلقها الضحيّة ما زالت، ومنذ يوم الحادث، تتردد في سمع القاتل.

في الاثنين اللاحق، الثاني والعشرين من كانون الأول، أجريتُ حديثي الأخير مع الرجل الذي كان يحبّ الكلاب، وأنا غير عالم بأنّه سيكون الأخير. أذكر تماماً أنّني شعرت في ذلك المساء بما لم أشعر به منذ أن بدأ لوبيث يقصّ عليَّ حكاية رامون. شعرتُ بأنّني واقع تحت ضغط أفلحتُ، حتى ذلك الوقت، في إخفائه: كنتُ سألتُ نفسي، ومن أجل مصلحتي، ألف مرّة، إن لم يكن من الواجب أن أخبر جهة مناسبة بما كان يجري لي مع خايمي لوبيث المصمم على أن يحكي «لي» قصّة مثيرة للرعب، وهي، سياسيّاً، مثيرة للريبة؟ كان الخوف الذي يلفّني، والذي عزّزه ما قرأته عن نهاية تروتسكي، يمثّل شعوراً أشدّ قذارة وأكثر انحطاطاً ممّا كنتُ أعترف به في داخلي، في تلك اللحظة، إذ لم تكن له، في الواقع، علاقة لا برواية الرعب والخيانة التي كنتُ أستمع إليها، ولا بالاحتمال الأكثر من وارد في أن يشيع أنّني تكلمت مع ذلك الرجل الغريب طوال أيام عديدة، من دون أن أقرّر أن «أبلّغ»، كما يقال، وكما يفترض أن يمليه عليَّ واجبي. لكنّ مجرد فكرة البحث عن «الرفيق المسؤول» عن مركز المعلومات الذي ينشر المجلة البيطريّة - كان «الجميع» يدعونه هكذا، «الرفيق المسؤول» و«الجميع» كانوا يعلمون من يكون، فقد كان مهمّاً أن نعرف «جميعاً» عن وجوده الغامض والحاضر في كلّ مكان- وإبلاغه بقصّة محادثة تعهدت لمحاوري فيها، بغضّ النظر عمّن يكون لوبيث، ألّا أحكي لأحد عنها، بدت لي مهينة، إلى درجة أنّني رفضتُ تلك الإمكانية. وقرّرتُ، في تلك اللحظة، أن أتحمل النتائج (وهل

هناك وظيفة أقلّ أهميّة وأدنى طموحاً من وظيفتي الحاليّة؟ نعم، بالطبع، يمكنهم أن يعيدوني، مثلاً، إلى باراكوا...) وبنيت، خلال سنوات، جداراً من الصمت على تلك الحكاية. حتى راكيليتا لم تعلم بشيء عمّا حكى لي خايمي لوبيث- وما زالت لا تعرف شيئاً عنها، ولا أظنّ أنّها تحرص على معرفة شيء من ذلك.

عصرَ يوم مخاوفي المندفعة ذاك، وما إن وصل لوبيث إلى الشاطئ حتّى صارحني بأنّه يشعر بحزن كبير: فقد بدأ داكس يعاني من مشاكل في الحركة - يدوخ، مثلي، قال-، وبات خيار قتله وشيكاً.

- أنا أعرف أنّك لستَ بيطريّاً وليس عليَّ أن أطلب منك ما سأطلبه - قال، من دون أن ينظر إليّ-، ولكن إن ساعدتني أظنّ أنّ الأمر سيكون أسهل...

- أتمنّى أن أساعدك، لكنّي في الحقيقة لا أعرف كيف السبيل إلى ذلك ولا أستطيع - قلتُ له، وأنا أتطلّع إلى الكلبين اللذين كانا يجريان على الرمل. كان من الواضح أنّ داكس فقد رشاقته في الجري، وكان يتعثّر بعد خطوات قليلة.

- لا أدري كيف سأتدبر هذا الأمر...- كان يتكلّم مع نفسه أكثر مما كان يتكلّم معي؛ وكان صوته يوشك على الانكسار-. أريد أن أطمئن إلى أنّه لن يعاني...

وضوح قرب المنية والكشف عن تلك المشاعر هدأت من شكوكي حول هوية لوبيث، والأهم من هذا هو أنّها أقنعتني بأن أواجه بالصمت العواقب التي قد تنشأ عن موقفي الذي يمكن أن يكون، أيديولوجيّاً، موضع تساؤل، من دون شك. فللموت تلك القدرة: فهو من الوضوح والقطعية أنّه لا يترك مجالاً لمخاوف أخرى. بل إنّ رجلاً، كذاك الذي جلس أمامي ذلك العصر (يعرف كلّ شيء عن الموت، حسب قوله) يقف أمامه ويضطرب في حضرته وإن اتصل الأمر بموت كلب.

تناول لوبيث قهوته ودخن سيجارته فأصابته نوبة سعال، ثمّ التفت

إلى قصّة رامون ميركادير، وحكى لي كيف صار صديقه نهائيّاً جزءاً من القصّة. كنتُ أستمع إليه بقدرة على الحكم مشتتة، وبدهشة طافحة، بل بشيء من السعادة، خصوصاً حين كانت روايته تتطابق والمعلومات التي حصلتُ عليها من قراءاتي الأخيرة. واكتشفتُ في لحظة من اللحظات أيضاً أنّ مزيجاً من الشعور بالاحتقار والشفقة راح يستولي عليَّ (نعم، «شفقة»، ولم يكن لديّ شكّ نحو هذه الكلمة ولا نحو ما تعنيه) نحو مورنارد- جاكسون- ميركادير، ذاك المستعد للإيفاء بما رأى فيه واجباً، بل ضرورة تاريخيّة يتطلّع مستقبل الإنسانيّة إليها.

بدا لوبيث مشرفاً على أن يصاب بالإنهاك حين وصل إلى ذروة القصّة. منذ برهة حلّ الظلام وما كنتُ قادراً أن أميّز وجهه إلّا بصعوبة، لكنّي كنتُ أتشبّث بكلماته، وقد أثارني ما كنتُ أسمعه منه.

- ما بقي من القصة هو هدية العام الجديد - قال في تلك اللحظة، وبدا لي رجلاً متأثراً يشعر براحة كبيرة. ما زلتُ حتّى هذا اليوم أغلق عيني فأراه في الدقائق الأخيرة من الحكاية: كان لوبيث يتكلّم وفي صوته صفير، وقد وضع يده اليسرى على الضمادة التي كانت تغطّي يده اليمنى دائماً-. زوجي هي أغرب شيوعيّة عرفتها. حتّى في موسكو كانت تصرّ على الاحتفال بليلة الميلاد وأعياد رأس السنة. فهي مناسبات مقدسة بالنسبة إليها، ولا خير من هذا الوصف... ولا شكّ أنّها لن ترغب في أن تتركني في هذه الأيام، لذلك سيكون من الصعب عليَّ المجيء حتى بعد السنة الجديدة. عليَّ أن أرضيها.

- ما سنفعل إذن؟ - شعرتُ بالتوتر والإحباط. كان حشد الدلائل الفظيعة والأسئلة المتراكمة تخنقني، لكنّي كنتُ أدركُ أنّ من الأفضل ألّا أتطرق إليها لأتجنّب تعكير العلاقة مع الرجل، فما زال أمامي أن أجتاز مرحلة حاسمة في حياة رامون ميركادير كنتُ متلهفاً لمعرفتها، بعد كلّ ما استمعت إليه-. أتريد أن أتصل بك هاتفيّاً؟

أجابني في الحال:

- لا. سنلتقي في الثامن من كانون الثاني. هل هذا ممكن؟
- أظنّ ذلك.
- أنا سآتي في اليوم الثامن، وإن لم أجدك، فسأعود في اليوم التاسع.
- بالطبع- وافقت إزاء انعدام البدائل-. وداكس؟
- لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن- قال لي لوبيث ومدّ يده لكي أساعده على النهوض-. على مهلك فذراعاي تؤلماني بشدة... داكس قوي وسيصمد. سأنتظر ما استطعتُ الانتظار، حتى بداية العام. إن عثرتُ على صديق يساعدني...
- مسكين داكس - قلتُ، حين رأيت المنحى الذي يتخذه الحديث وحين رأيت الكلبين يقتربان، راغبين في الانصراف، فقد مرّت ساعة طعامهما.

مدّ لي لوبيث يده المربوطة. ومن دون أن أفكّر ابتسمت له وشددتُ عليها. ثمّ انحنيت لحمل كيس سخّان القهوة وتسليمه له. وتجرأتُ على أن أطلق واحداً من الأسئلة التي كانت تؤرقني:
- قرأتُ في إحدى الصحف أنّ صرخة تروتسكي ظلّت تتردد في سمع رامون طوال حياته. فهل حدّثك عن تلك الصرخة؟

سعل لوبيث ومرّر يده الملفوفة على وجهه. كنتُ أتمنّى لو أنّ كمية أكبر من الضوء أنارت لي المكان لحظتها لأنظر إلى عينيه.
- كان ما يزال يسمعها حين قصّ عليَّ حكايته، قبل عشر سنوات- قال لي، وبدأ يبتعد-. أظنّ أنّه ظلّ يسمعها حتّى النهاية... أعياد ميلاد سعيدة.
- أتمنّى لك مثلها- تمكنتُ أن أتلفّظ بتلك العبارة وأنا غارق في بحر أفكاري، وأدركتُ في الحال أنّ وقتاً طويلاً مرّ من دون أن أتلفّظ بتلك العبارة أو أن أسمعها، وهي العبارة التي يستعملها الكوبيون فقط للردّ على التهنئة بأعياد الميلاد، تلك الاحتفالات التي هُجرت من أعوام طويلة ونفيت عن الجزيرة الملحدة إلحاداً علميّاً، والمحتاجة إلى كلّ

يوم عمل، حتّى إنّها لا تسمح لنفسها بترف التضحية ببعضٍ من تلك الأيام الثمينة.

توجّه لوبيث صوب الرمال، التي تماسكت بسبب مطر اليوم السابق. كان إيكس وداكس يسيران إلى جنبه بخطى وئيدة. لم يسمح لي الظلام برؤية الأسود الطويل والنحيف، لكنّي كنتُ أعلم أنّه ما زال في مكانه هناك، قابعاً بين أشجار «الكازوارينا»، يمرر حبات مسبحة صبره. اقترب لوبيث من الأشجار وامتزجت صورته بالليل حتّى اختفى. فكأنّه لم يكن. فكرتُ.

القِسْمُ الثّانِي

-16-

أيّة أحاسيس رافقته وهو يرى ارتفاع علامة استفهام مطلق فوق خط الأفق؟ نظر إلى ذلك البحر الشفاف البرّاق، الكفيل بجرح الحدقات. لا شكّ أنّه فكّر في أنّ حاله ليست كحال إيرنان كورتِس[101]، الذي جاء إلى تلك الأرض المجهولة بحثاً عن المجد وعن السلطة. إنّه يتطلّع، فحسب، إلى العثور على نقطة دعم وإسناد في أيامه الأخيرة، وعلى فرصة للمطالبة بماضٍ نال فيه نصيبه من المجد والسلطة ومن الثورة والآمال حتى استنفده.

عشرون يوماً دام كابوس السفر بحراً. منذ أن صعدوا إلى ظهر السفينة «روث»، وأطلقتْ صفارتُها أنينَ الوداع صوب الشاطئ النرويجي الوعر، تحوّلت ناقلة النفط تلك، التي كانت تنفث من صهاريجها بخار النفط الوبيل، إلى امتداد أشدّ وأقسى للحبس الذي عانى منه في الخليج المقفر. وعلى الرغم من أنّ ليف دافيدوفيتش ونتاليا وحرسهما من الشرطة كانوا المسافرين الوحيدين على ظهر السفينة، فقد تكفّل جوناس دي ورجاله بالإبقاء على المنفيين معزولين، فمنعونهما من الاتصال بالراديو، وراقبوهما حتّى وهما جالسان إلى طاولة الكابتن هاغبرت فاغ، الفخور بتلك الحمولة من التاريخ على ظهر سفينته. حُددت إقامتهما في قمرة قائد السفينة، فانصرف ليف دافيدوفيتش ونتاليا إلى قراءة الكتب القليلة

101- Hernán Cortés (1485–1547). مستكشف إسباني قاد حملة استكشاف المكسيك ضمن الحملات التي تلت حملة كولومبوس التي بدأت عام 1492.

التي أتاهما بها كونراد نودسن والتي تتحدث عن المكسيك، في محاولة لمعرفة ما ينتظرهما في ذلك العالم الجديد، العنيف والمضطرب دائماً، حيث قد يدفع الإنسان حياته بسبب نظرة بسيطة أسيء فهمها، وحيث ما من أحد بانتظارهما.

حين اكتسب الساحل وضوحه كاملاً، أطلّت مخاوف ليف دافيدوفيتش برأسها، فأبلغ جوناس دي بطلب أخير: إنّه لن يبرح ناقلة النفط إلّا إذا جاء في طلبه شخص يوحي له بالثقة. من؟ فكّر، حين فاجأه جوناس دي بأنّهم سيلبّون طلبه، وراح يركّز نظره في الساحل.

وبينما كانت السفينة تقترب من ميناء تامبيكو، صار ممكناً رؤية الحشد المتململ الذي كان يتجمّع عند أطراف الميناء، تحيط به البدلات الزرق للشرطة المكسيكيّة. ومع أنّ ليف دافيدوفيتش تجاوز منذ زمن بعيد الخوف من الموت، فقد كانت الحشود المهتاجة تجبره على أن يتذكّر تلك التي أحاطت بلينين في أيلول من عام 1918 والتي خرجت من بينها يد فاني كابلان وهي تحمل السلاح[102]. لكنّ ستاراً من الراحة غطّى على مخاوفه حين تبيّن، في طرف من الرصيف، ملامح ماكس شاختمان [68] ووجه جورج نوفاك[103] المكتنز والخفّة المشعّة لامرأة هي الرسامة فريدا كاهلو، صديقة دييغو ريبيرا[92].

ما إن ألقت السفينة مرساتها حتّى غمرت آل تروتسكي دوامة من الفرح. فقد أحاط بهما عدد من أصدقاء فريدا كاهلو، بالإضافة إلى المناصرين الأمريكان القادمين مع شاختمان ونوفاك، في موجة من

102- Fanny Kaplan (1887-1918). ناشطة فوضوية وثورية حاولت اغتيال لينين في الثلاثين من آب من عام 1918 وهو يهمّ بالصعود إلى سيارته عند خروجه من مصنع للسلاح في موسكو. أعدمت في الثالث من أيلول بعد أن أدينت بمسؤوليتها عن تلك المحاولة.

103- George Novak (1905-1992). سياسي ومثقف شيوعي أمريكي. انضمّ إلى العصبة الشيوعيّة الأمريكيّة وتولى سكرتارية اللجنة الأمريكية للدفاع عن ليون تروتسكي.

العناق والتهنئة أحدثت ما يشبه المعجزة إذ أنزلت الدموع من عيني نتاليا سيدوفا. أخذوهما إلى فندق من فنادق المدينة حيث نظّموا مأدبة ترحيبيّة، وراح الواصلان حديثاً يسمعان سيل الأخبار التي كان جوناس دي قد حجبها عنهما وهو مستاء، بلا شك، بسبب طبيعة تلك الأخبار: فالجنرال كارديناس لم يكتفِ بالموافقة على منح ليف دافيدوفيتش لجوءاً دائماً، بل اعتبره ضيفاً شخصيّاً له، وأرسل له، مع رسالة الترحيب، القطار الرئاسي لكي ينقلهما إلى العاصمة. أمّا ريبيرا، الذي تعذر عليه الحضور إلى تامبيكو، فقد عرض عليهما، وبصفة دائمة أيضاً، غرفة من غرف بيته الأزرق، البناء الذي كان يسكنه هو وفريدا في حيّ كويواكان في العاصمة.

سهّلت أصناف النبيذ الفرنسي المتعددة وشراب التكيلا المكسيكي القوي على ليف دافيدوفيتش ونتاليا مهمتهما في التنقّل من طبق اللحم والفلفل المكسيكي الريفي إلى شرائح اللحم التامبيكية، ومن سمك «بيراكروث» إلى أقراص التورتيّا، المزينة والمدعومة بلحم الدجاج وسلطة الأبوكاتو والفلفل الأحمر والطماطم واللوبياء المقليّة والبصل والخنزير المشوي على الفحم، والمرشوشة كلّها بالشطّة الناريّة التي تستدعي كأساً أخرى من النبيذ أو جرعة ثانية من التكيلا لتخفيف نار الحريق والتمهيد للاستمتاع بالفواكه (المانغو والأناناس والزعرور الأمريكي والقشطة والجوافة) المكتنزة والحلوة، التي لا شيء يعلو عليها لختام وليمة أعدّت لأذواق أوروبية أدهشتها خلطاتٌ وروائح وأطباق ومذاقات غريبة عليهم. لقد أحسّ ليف دافيدوفيتش، وقد غرق في وليمة الحواس تلك، بأنّ مخاوفه قد تبددت وبأنّ توتره قد أفسح مجالاً لشهوانيّة مداريّة فيّاضة تلفّه في خدرٍ مواتٍ تلقاه جسمه المتعب وذهنه المنهك بنهم وترحاب، كما كتب.

بعد القيلولة المعتادة، استعدّا للتجوال بالسيارة مع فريدا وشاختمان ونوفاك وأوكتافيو فرنانديث، وهو الرفيق الذي سعى في أن يُمنحا اللجوء

في المكسيك. لكنّ الضيفين سرعان ما عادا إلى الواقع حين لاحظا أنّ العربة التي يستقلانها تسير ضمن قافلة تتقدمها سيارة جيب مكشوفة يستقلها أفراد مسلحون من الحرس الرئاسي. وفكّر لييف دافيدوفيتش أنّهما لن يصبحا أحراراً حتّى لو عاشا في الجنّة.

في القطار أعلمته فريدا آخر ردود الفعل على وصوله. وكما كان متوقعاً، فقد مثّل قرارُ الجنرال كارديناس بادرة تحدٍّ واستقلال، إذ اتخذه في لحظة توترات سياسيّة كبيرة وفي خضّم عمليّة إصلاح زراعي، بينما وضع في حسبانه قراراً آخر يتصل بتأميم النفط. وكان قرار استقباله (الشرط الوحيد الذي ورد في قرار منحه اللجوء في المكسيك هو أن يمتنع عن التدخّل في الشؤون السياسيّة المحليّة، وهو شرط مفهوم ومقبول) عملاً سيادياً عبّر الرئيس من خلاله عن ولائه لخط أفكاره السياسيّة أكثر من تعاطفه مع أفكار المستفيد من القرار. لكنّ ذلك القرار حوّل كارديناس إلى هدف لأغرب الاتهامات التي تراوحت بين صرخات تنعته بخائن الثورة المكسيكية وحليف الفاشيين (رفعها الشيوعيون وقادة اتحاد العمّال، وهم السند التقليدي للرئيس)، وصولاً إلى نعته بالفوضوي الأحمر الذي يمتثل لأوامر تروتسكي (رفعته طبقة برجوازية كانت ترى في تروتسكي وفي ستالين وجهين لعملة واحدة وترى أن وصول تروتسكي يبرهن على نفوذ «الروس» على الرئيس).

كان دييغو ريبيرا المبتهج ينتظرهم في محطة للقطار قريبة من العاصمة، ومن هناك، أخذا، يرافقهما رجال شرطة آخرون وأصدقاء كثيرون، مسلحين بزجاجات الكونياك والويسكي، طريقهما نحو ذلك البيت الغريب المطليّ بلون أزرق فضّي.

كان لييف دافيدوفيتش قد اطّلعَ على أعمال دييغو ريبيرا لأوّل مرّة حين كان في باريس، إبّان سنوات الحرب العظمى، حين وصلت أصداء الثورة المكسيكية إلى أوروبا، ومع تلك الأصداء أعمال رساميها الثوريين. ثمّ تابع بعدها الاهتمام بظاهرة الجداريات الثقافية، بل لقد

بلغته أخبارها في أيام نفيه في آلماتا، حين أرسل إليه أندريس نين كتاباً رائعاً حول أعمال ريبيرا التهمته النيران أثناء الحريق الذي التهم مسكنه في بيوك آضه. أمّا عن أعمال فريدا الرمزيّة والمأساوية، فلم يكن يمتلك إلّا فكرة بسيطة، لكنّه، ما إن وجد نفسه محاطاً بأعمالها وسرياليتها المتفردة، حتّى اكتشف أنّه يتفاعل مع فن المرأة الموجوع على نحو أفضل مما يتفاعل مع ضخامة فن ريبيرا المتفجرة.

رتّب له المُضيفان الغرفة التي كانت تسكنها كريستينا كاهلو، شقيقة فريدا. وكان ريبيرا، حين عزم على استضافتهما، قد اشترى للشابة بيتاً قريباً من البيت الأزرق، لذلك نبّه تروتسكي وزوجه إلى أنّ في مقدورهما التصرّف بالمكان على هواهما. وهكذا أجبر لطفُ الرسام وزوجه، فضلاً عن حالة المنفيين المادية الحرجة، ليف دافيدوفيتش على القبول بما ظنّا أنّها استضافة مؤقتة.

صار للبيت الأزرق مظهر قلعة محاصرة. فقد بُني العديد من النوافذ وقوّي العديد من الجدران، وما إن وصل اللاجئان حتّى أقيمت مناوبات للحراسة. كلّف الشباب التروتسكيون الأمريكان بحراسة داخل البيت، بينما تكفّلت الشرطة المحليّة بحراسة خارجه. مع ذلك، فقد بدأ ليف دافيدوفيتش، بعد استقرارهما، يشعر بأنّ تفاؤلاً، كان يظنّه مفقوداً، صار يغمره، وإن ألزم نفسه، مراعاة لنتاليا المتعبة أكثر من مراعاته لتعبه هو، بأن يأخذ قسطاً من الراحة قبل أن يلبّي من جديد داعي النضال.

وكما حدث له مرّات كثيرة في حياته، فقد تكفّلت السياسة بهزّه وتذكيره بأنّ بروميثيوس والذين يتجرؤون على أن يكونوا قريبين من صخرته لن يسمح لهم بأدنى قدر من الراحة[104].

104- تذكر الأساطير الإغريقيّة أنّ بروميثيوس تكفّل ببني البشر وجدّ ليعطيهم أفضل ما يمكنه في تنافس مع أخيه أبيمثيوس، الذي تكفّل بالحيوانات وغلب أخاه في سرعة عمله وحصل للحيوانات على سرعة الجري وقوة السمع البصر والقرون والأنياب، بينما أعطى بروميثيوس البشر الفكر والصنائع والفنون وسرق النار ليتدفؤوا بها ممّا أثار حفيظة الإله زيوس عليه وتلقى عقابه.

بدأت الإذاعات والصحف بالإعلان عن أنّ المحكمة الجزائية المنعقدة في بيت النقابات في موسكو عاودت فتح أبوابها لتشهد فصلاً جديداً من المهزلة الستالينيّة الفجة. لم يكن مطلعاً في البداية على عدد المحالين إلى المحاكمة ولا على أسمائهم، ثمّ تبيّن له أنّهم ثلاثة عشر، على رأسهم راديك، الذي ظنّ أنّه، بانتهازيته المفضوحة واستسلامه المدوّي، أصبح في حرز من غضب ستالين. في اللائحة أيضاً أسماء بياتاكوف، ذي الرأس الأحمر، وموررالوف وسوكولنيكوف وسيريبرياكوف[105]، وإن عاد اسما ليف سيدوفا وليف دافيدوفيتش ليكونا المتهمين الرئيسين الغائبين.

مع بدء المحاكمات الجديدة في الثالث والعشرين من يناير من عام 1937، لزم ليف دافيدوفيتش الراديو لعلّه يخرج بنتيجة منطقية من تلك المحاكمات الغريبة، التي بدا فيها المحالون إليها يتبارون في الإدلاء باعترافات مهينة ومجنونة يوماً بعد يوم، أضيف فيها، إلى المؤامرات للإطاحة بالنظام أو اغتيال ستالين، وجود مخططات لتخريب الاقتصاد وعمليات تسميم جماعي لعمال وفلاحين، بل توقيع اتفاق سري بين هتلر وهيروهيتو وتروتسكي لتفكيك الاتحاد السوفييتي. وحمّل المخربون أنفسهم مسؤولية جميع الإخفاقات الاقتصادية والجوع، بل حوادث القطارات وحوادث العمل التي أضرّوا فيها بمصلحة البلد واعتدوا من خلالها على عماله الأبطال وخانوا بفعلها ثقة القائد. تتحدث إحدى تلك التهم عن أنّ أحد المتهمين كان موجوداً في باريس وأنّه تلقى أوامر من تروتسكي، بينما كان هذا في «باربيزون»، ممنوعاً من السفر إلى

105- نيكولاي مورالوف (1877-1937). بلشفي قديم. شارك في ثورة 1905. وصفه تروتسكي بقوله: «مورالوف عملاق كبير، متهوّر ولطيف». غريغوري سوكولنيكوف (1888-1939). رجل اقتصاد وسياسي ودبلوماسي سوفييتي. شغل منصب مفوض الاقتصاد. ليونيد سيريبرياكوف (1887-1937). شيوعي بلشفي. شغل مناصب رفيعة في النقابات العمالية وقيادة الحزب. كانوا ثلاثتهم من المعارضة اليسارية الموالية لتروتسكي. وقد أعيد إليهم الاعتبار عام 1988.

العاصمة. أمّا الحجر الأساس في المؤامرة المجهضة فكان يستند إلى اعتراف بياتاكوف، الذي أكّد أنّه سافر من برلين إلى أوسلو في عام 1935 لعقد قمّة للثورة المضادة مع المرتد تروتسكي في تلك المدينة.

ولكي تنأى حكومة النرويج الجبانة بنفسها عن الموضوع، فقد أدلت بتكذيب، مشفوع بالأدلّة، قالت فيه إنّ طائرة بياتاكوف المزعومة، القادمة من ألمانيا، لم تهبط في النرويج في الأوقات والأماكن التي أشار إليها الادعاء العام وأقرّ بها المتهم. مع ذلك فقد كان معلوماً أنّ شتائم المنشفيكي السابق أندريا فشنسكي العنيفة في حقّ أولئك الكلاب المسعورين الفاسدين النتنين، الذين كان يطالب لهم بعقوبة الإعدام، ما كان لها أن تنثني عن عزمها أمام أيّ عائق، ولا أن ترتد عن هدفها المحتوم أمام أيّ دليل... مع ذلك فقد كان ليف دافيدوفيتش يعلم أنّ تلك المحاكمات العبثية كانت تخفي وراءها هدفاً يتجاوز التطلع إلى استدراك تناقضات المحاكمات السابقة والتخلّص من مجموعة أخرى من البلاشفة القدماء: لقد صار جزء من ذلك الهدف يتضح له مع إيراد ذكر بوخارين ورفاقه من معارضة اليمين البائدة أثناء المحاكمة. مع ذلك، كان صعباً عليه وغامضاً فهمُ ورود أسماء بعض ضباط الجيش الأحمر، يفترض أنّهم مرتبطون أيضاً في المؤامرة التروتسكيّة وفي أعمال الخيانة والتخريب.

مع زلزال موسكو ذاك غاب الهدوء عن البيت الأزرق. دعا المنفي إلى مؤتمر صحفي، واستباقاً للأحكام المتوقعة، أعلن عن عزمه تفنيد التهم ودحضها بحجج ساطعة قاطعة. لم يوقف ذلك التصريح المحاكمات بالطبع، فقد أصدر قضاة موسكو، وقبل أن يفلح ليف دافيدوفيتش في الحصول على شهادة أو وثيقة واحدة، أحكاماً بالإعدام على جميع المتهمين تقريباً، وبالسجن عشر سنوات لراديك الناجي من كلّ حريق. كان الحكم عليه مفاجئاً، فقد نجا بجلده من جديد، أمّا كيف ومقابل ماذا؟ فذلك ما لا يعلمه إلّا هو وستالين. أمّا إلى متى؟ فذلك ما لا يعلمه إلّا ستالين.

شهر ليف دافيدوفيتش، وقد ساءه أنّ الكثيرين من رفاق النضال القدامى سيعدمون، السلاح الوحيد الذي كان في متناول يده، وعاد يناشد ستالين أن يستدعيه ويقدمه إلى المحاكمة. لكنّ موسكو بقيت صامتة، كعهدها، ونفذت الإعدام بالمدانين، بالسرعة والفاعلية المعتادتين. حينئذٍ ألقى هو بالحجرة التالية، وطالب بإنشاء هيئة تحقيق دوليّة، وكرر استعداده للمثول أمام لجنة الإرهاب التابعة للأمم المتحدة وتسليم نفسه إلى السلطات السوفييتيّة إن أثبتت أيّة واحدة من تلك المنظمات والهيئات تهمة واحدة من تلك التهم عليه. لكنّ العالم، الواقع تحت وطأة الخوف والابتزاز، لزم الصمتَ من جديد. فقرر المنفي، وهو يدرك أنّه يلعب آخر أوراقه، تنظيم محاكمة مضادة، يفضح فيها زيف التهم المنسوبة إليه، ويصبح، في الوقت نفسه، جهة الادعاء على جلادي موسكو.

***

كان ليف دافيدوفيتش، في قرارة نفسه، يعلم أنّ المحاكمة المضادة لن تحدث إلَّا ما يحدثه الخدش في الصخرة، مع ذلك فقد اندفع نحوها بإيمان الغريق ويأسه. نضّج الفكرة طوال ليال عبر حوارات مطوّلة مع ريبيرا وشاختمان ونوفاك ونتاليا والواصل حديثاً جان فان هاينورت [65]، بينما كانت فريدا كاهلو تدخل في تلك الحوارات وتخرج منها مثل خيال هائم. كانوا يتحلّقون حول شجرة البرتقال الوارفة في باحة البيت الأزرق، وهم يتدثرون بعباءات من دون أكمام، ويرقبون شراهة ريبيرا التي تأتي على زجاجات الويسكي وتلتهم أطباق اللحم المشتعل بالفلفل الحار، ليناقشوا جميع الاحتمالات، لكنّ أكبر همّهم كان العثور على أشخاص يحظون بسلطة معنوية واستقلال سياسي، مؤهلين لأن يضفوا شرعية قانونيّة، أو على الأقل أخلاقيّة، على محكمة مضادة قد تكون قادرة على تحريك بعض الضمائر في العالم.

كان الأمريكان هم من اقترح دعوة البروفيسور الثمانيني جون

ديوي[106]، لترؤس المحكمة. مع ذلك فقد بدا الرجلُ لليف دافيدوفيتش، على الرغم من مكانته في عالم الفلسفة وعلم التربية، بعيداً كلّ البعد عن دواخل السياسة السوفييتية. في تلك الأثناء بدأ ليوفا يحاول الحصول على كافة الأدلة الممكنة للردّ على الاتهامات: وفي أيام قليلة كانت الأوراق التي أرسلها ليوفا من باريس، مضافة إليها الأوراق التي استخرجتها نتاليا وجان فان هاينورت وليف دافيدوفيتش من الأرشيفات التي سافرت إلى المكسيك، مادة لدراسة تحليلية كبيرة.

وراح لييف دافيدوفيتش يعمل مكتوياً بنار اليأس، وطلب من مساعديه، وخصوصاً من ليوفا، أن يبذل قصارى جهده. سيطر عليه القلق وصار أيّ خطأ يثير غضبه، وبلغت به الحال أن لام ولده على بعض محاولاته الفاشلة وتلكؤاته وعدّها تقصيراً من جانبه، غير عابئ بمناشدات نتاليا ودعواتها له إلى الهدوء، مذكّرة إيّاه بسوء الظروف التي يمرّ بها ليوفا في باريس، حيث بلغ به الأمر أن اضطرّ إلى نشر تصريح ينبّه فيه إلى المراقبة التي يفرضها جهاز الجيبيو على تحركاته. لقد ساء لييف دافيدوفيتش أن يتلقى من ولده رسالة يذكرُ له فيها أنّ جهودهم الكبيرة تبدو له غير ذات جدوى: فحتّى لو أفلحوا في أن تُثبتَ أرفع شخصية في العالم براءته، فإنّ النتائج لن تعني شيئاً في نظر من يرون فيه مذنباً، ولن تدعم في شيء من يعلمون أنّه بريء. كان ليوفا، في المقابل، يرى أنّ نشر كتيّب «جرائم ستالين»، الذي بدأ والده بكتابته، يمكن أن يكون ذا فاعلية أكبر من محاكمة يطالب بها المتهم نفسه. في بداية غضبه وصف مفوضُ الحرب السابق ولده بالانهزامي، بل هدده بتنحيته عن رئاسة القسم الروسي من المعارضة، فردّ عليه ليوفا برسالة اعتذار إذ لم يستطع أن يكون على مستوى ما كان يطلبه منه.

في ذلك الوقت، تلقّى لييف دافيدوفيتش ما قرّت به بلابله: نفحة

106- John Dewey (1859-1952). فيلسوف وعالم نفس أمريكي. يعدّ من أشهر علماء التربية في العصر الحديث.

من أمل تشبّث بها هو ونتاليا بالأسنان والأظافر. فقد أبلغ عميلٌ سابق في الجيبيو القديم، رأى نفسه مهدداً بحملات التطهير التي شهدها ذلك الجهاز القمعي، ليوفا بأنّ أخاه سيرغي اعتقل في موسكو أثناء الملاحقات التي سبقت المحاكمات الأخيرة. وأكد مصدر المعلومة ذاك أنّ السلطات أرسلت بالشاب إلى أحد معسكرات العمل القسري في سيبيريا، بتهمة التخطيط لعملية تسميم جماعي للعمال. لقد وقع خبرُ إرسال الابن (طبعاً بعد أن عذّبوه) إلى جحيم أرضي، اسمه معسكر عمل، موقع البركة والنعمة على ساكني البيت الأزرق، بعد أن عدما مطولاً أيّ خبر عنه، حتّى عزيا ذلك الصمتَ إلى أنّ مكروهاً وقع له. سيروجا ما زال حيّاً! وفي خلوة غرفتهما، لعب الزوجان لعبة بثّ الحماس المؤلمة في نفسيهما، وتحدثا لليال عديدة عن استراتيجيات البقاء على قيد الحياة التي طبقها، بلا شكّ، عقل فتاهما المنطقي، وعن الأمانة التي، لا شكّ، أنّه التزم بها لكي يرفض الإقرار بأمور حاولوا، بلا شكّ، أن يجبروه على التوقيع عليها لجرّه إلى المحاكمة. مع ذلك، تجنبا تصوّر المشاهد المؤلمة لولدهما وهو يتلقّى صنوف العذاب على يد جلاوزة أقسى الأنظمة، ولم يقويا على طرح الأسئلة المثيرة للمشاعر على بعضهما أو على نفسيهما: كيف استطاع الصمود؟ كيف حافظ على معنوياته من الانهيار؟ (وما معنى الانهيار: الاعتراف بما لم يقترف؟ الوصول إلى مرحلة الجنون؟ الاستسلام للموت؟)، إلى أيّ مدى وصل سيرغي في مقاومته؟ (هل ينهار العقل أولاً أم الجسم؟)، لأيّ من أساليب التعذيب التي يمكن تصوّرها خضع؟ أو لأيّ من تلك التي لا يمكن تصوّرها، والمأخوذة من كتالوج تلك الشرطة المجرمة المشين؟ (هل كان سيروجا واحداً من القلائل الذين صمدوا وفضّلوا الموت على الذلّ والسقوط؟).

لم يتجرأ ليف دافيدوفيتش على أن يكشف لنتاليا ولا، بالطبع، لليوفا عن التشاؤم الذي بدأ يتمكّن منه حين أدرك ضعف الأثر الذي ستُحدثه

تلك المحاكمة التي عملوا الكثير من أجلها. فلا المنظمات النقابيّة ولا المثقفون التقدميّون، الذين تسيّرهم دعاية موسكو وأموالها، وافقوا على المشاركة، ولاحظ، بتشكك، أنّ هيئات وطنية مكوّنة من مناهضين للشيوعية وللستالينيّة هم الوحيدون الذين تجرؤوا على دعمه، بينما راح رجال آخرون من مثل رومان رولان[107] يتحدثون عن أمانة ستالين ويؤكدون الطابع الإنساني للأساليب التي يستخدمها جهاز الجيبيو لأخذ الاعترافات، بل لقد نفوا أيّ قمع للمثقفين في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيّة.

لكنّه كان يدرك أنّ عليه أن يخوض تلك المعركة، حتى في تلك الظروف. في الاجتماع الأخير للجنة المركزية للحزب، حين كانت جثامين المعدومين ما زالت ساخنة، اتهم نيكولاي يجوف الشرير، الذي أصبح نجم القمع الساطع، بوخارين وريكوف[108] بتحضير مجاميع من الإرهابيين مهمتهم اغتيال القائد العظيم؟ لأنّهما يشعران نحوه بـ«كراهية منحرفة». وانطلق في هذا الدرب الذي فتحه يجوف الشرير أنستاس ميكويان[109]، وهو كلبٌ آخر من كلاب الصيد التابعين للقيصر الأحمر، حين ألقى خطاباً مليئاً بالتعليقات البائسة عن الزعيمين البلشفيين التاريخيين، وصل فيه إلى التأكيد على أنّ العلاقة الوثيقة، التي طالما جرى الحديث عنها، بين بوخارين ولينين لم يكن لها وجود البتة. وفي نهاية ذلك الاجتماع (الذي تابعه ستالين، كما قيل، صامتاً وبوجه متجهم حزين، بسبب تلك «الاعترافات»)، وبينما اعتقل بوخارين وريكوف واقتيدا إلى غرف الرعب في مبنى اللوبيانكا، شكّلت لجنة

107- Romain Rolland (1866–1944). أديب فرنسي وأستاذ في السوربون. حاز على جائزة نوبل للآداب عام 1915 وكان معجباً بالتجربة السوفييتية.

108- Alexei Rykov (1881–1938). بلشفي قديم. أقام الحكومة السوفييتية بعد انتصار ثورة أكتوبر عام 1917 وترأس الحكومة بين عامي 1924 و 1930.

109- Ansatas Mikoyan (1895–1978). من زعماء الاتحاد السوفييتي. تولى رئاسة السوفييت الأعلى بين عام 64 و 65 ومنصب نائب رئيس الوزراء طوال عدة عهود.

من ستة وثلاثين عضواً، تضمّ جميع أعضاء المكتب السياسي، مهمتها إصدار قرار حزبي في حق المتهمين. قرأ ليف دافيدوفيتش بين أعضاء اللجنة اسمي ناديا كروبسكايا وماريا أوليانوفا، أرملة لينين وشقيقته. لقد شاهدت الامرأتان، اللتان بدأ ستالين بمهاجمتهما وتهميشهما في حياة الزعيم، فلاديمير إليتش مرات كثيرة وهو يتحدث مع بوخارين ويجادله، وها هما الآن توافقان صامتتين على أكاذيب ميكويان، التي فبركها ستالين. لقد سمحت تلك اللعبة القذرة لليف دافيدوفيتش برؤية شيء لم يلاحظه في المحاكمات السابقة: فلقد قرّر ستالين أيضاً أن يحوّل شخصيات الماضي القليلة، التي ما زالت ترافقه، لا إلى كومبارس يردد أكاذيبه، بل إلى شركاء مباشرين له في اندفاعه الإجرامي: من لا يكون ضحيّة فسيكون شريكاً، بل جلاداً. لقد صار الرعبُ والقمع سياسة لحكومة تتبنّى الاضطهاد والملاحقة والكذب وسائلَ للدولة وأسلوبَ حياة للمجتمع كلّه. أهكذا يُبنى المجتمع على نحو «أفضل»؟ راح يسأل نفسه، وإن كان عالماً بالجواب.

***

حين وصل جون ديوي إلى المكسيك، بعد أن تعرّض للكثير من الضغوط السياسيّة، طلب المعلومات التي عليه قراءتها، ورفض اللقاء بتروتسكي. ذكّر الصحافة أنّه، أيديولوجيّاً، لا يشارك المتهم نظرياته، وبأنّه، بصفته رئيس اللجنة، سيكتفي بإعطاء بعض الاستنتاجات انطلاقاً من الأدلة والشهادات المقدمة، وبأنّ القيمة الوحيدة لتلك النتيجة ستكون ذات طبيعة معنويّة.

في العاشر من آذار، بدا البيت الأزرق وكأنّه معسكر حربيّ. لقد اختفى من داخل البناء تناسق الأشياء والألوان بعد أن رُفعت الأصص المزهرة والأثاث الخشبي المشغول والأعمال الفنيّة، لإفساح المكان لأعضاء هيئة المحلفين والصحفيين والحراس الشخصيين. نُصبت المتاريس في الخارج وانتشر العشرات من رجال الشرطة. وبينما كان

ديغو ريبيرا، صبيحة يوم الافتتاح، ينتظر مع ضيفه وصول ديوي وأعضاء هيئة المحلفين، نظر إلى الباحة وحدّث الضيف مبتسماً عن التضحيات التي يتوجب تقديمها من أجل الثورة الدائمة.

أبدى ديوي نشاطاً تحدى سنوات عمره الثماني والسبعين. فما إن دخل إلى البيت وألقى بالتحية على دييغو وعلى لييف دافيدوفيتش، حتّى طلب الشروع في الجلسة: وظيفته ووظيفة أعضاء هيئة المحلفين، قال، تتمثل في سماع شهادة أيّ شخص يرى السيد تروتسكي تقديمه إليهم، واستجوابه، ثمّ تقديم بعض الاستنتاجات. أمّا الداعي إلى عقد تلك الجلسات، في رأيه، فهو أنّ السيد تروتسكي أدين من دون أن يمنح فرصة للدفاع عن نفسه، وهو ما يشكّل مبعثاً لقلق شديد للجنة وللضمير العالمي.

في تلك اللحظة، بدأ ما قد يكون الأسبوع الأكثر حركة وغرابة في حياة لييف دافيدوفيتش... إنّه لا يتذكّر أنّه وجد نفسه واقعاً تحت ضغط مجهود فكري وجسدي، ليقارع، على مدى ساعات وساعات، منطقاً مريضاً كذاك الذي يحكم الاتهامات التي أعدت في موسكو. ولـمّا كانت اللغة المستخدمة في المحاكمة هي الإنكليزية، فقد لازمه خوف من ألّا يكون دقيقاً أو واضحاً في تعبيره كما يحتاج أو يتمنّى. لم يصالح النوم في الليل عينيه إلّا ساعتين أو ثلاثاً، حين يتغلب تعب البدن على صحوة الذهن؛ وتحوّلت معدته، وقد تأثرت بالتوتر وبلترات القهوة التي يعبّها، إلى صخرة ملتهبة مزروعة في بطنه، بينما زرع ضغطه، المضطرب بسبب الارتفاع، في سمعه أزيزاً وفي قاعدة جمجمته ضيقاً مؤلماً. في نهاية اليوم السادس غمره شعور بأنّه يقف في مكان غريب، بين أناس لا يعرفهم، يتكلمون عن مواضيع غير مفهومة، وظنّ أنّه سيغشى عليه، لكنّه كان يعلم أنّ الكلام أمام أولئك الأشخاص هو خياره الوحيد، وربّما فرصته الأخيرة للنضال علناً، من أجل اسمه وتاريخه وأفكاره، ومن أجل ما تبقّى من رفات الثورة المغدورة.

في السابع عشر من نيسان، حانت ساعة قراءته بيان دفاعه، ووجد أعضاء اللجنة أمامهم رجلاً منهكاً يطلب من ديوي رخصة بالبقاء جالساً في مقعده. مع ذلك، فما إن شرع في خطابه حتّى عاد إليه عنفوان الأزمنة الخالية وأحسّ المجتمعون في البيت الأزرق بتطاير بعض الشرر من ذاك التروتسكي، الذي حرّك الجماهير عامي 1905 و1917، وانبعاث بعض من حماسه، الذي منحه حبّ الكثيرين وكراهية آخرين، من بليخانوف [5] إلى ستالين. كان أول استنتاجاته هو أنّ جميع أعضاء المكتب السياسي، الذين أمّنوا انتصار الثورة ورافقوا لينين في أصعب أيام الحرب والمجاعة، ووضعوا البلد على الطريق، وعانوا السجن والنفي وعمليات القمع الكثيرة، هم، وبحسب الحكومة السوفييتية الحالية، في الواقع خونة لمبادئها وأفكارها، بل عملاء يعملون لصالح القوى الخارجية الراغبة في تدمير ما بنوه هم أنفسهم. أليس من التناقض أن يكون قادة ثورة أكتوبر جميعهم خونة؟ أم إنّ الخائن واحد اسمه ستالين؟ إنّه لن يتوقف ليثبت زيف، بل غرابة الأفعال التي تنسب إليه، قال، لكنّ عليه أن يذكّر بأنّ حكومات تركيا وفرنسا والنرويج أثبتت أنّه لم يمارس على أراضيها أيّة أعمال معادية للاتحاد السوفييتي، فقد ظلّ بعيداً، بل محتجزاً تحت حراسة بوليسية. نهض متناسياً ضعفه البدني: لا شكّ أنّ وقود الأفكار فعل فعله، فكأنّه نابض حرّكه ومهّد له السبيل لمواصلة الكلام حتى النهاية: إنّ تجربته في الحياة، قال، التي عرفت النجاح والفشل، لم تقضِ على إيمانه بمستقبل الإنسانيّة، بل منحته قناعة لا تفنى. إنّه ما زال يحتفظ بإيمانه بالحق وبالحقيقة وبالتضامن الإنساني، الذي حمله معه وهو ابن ثمانية عشر إلى أحياء مدينة «نيكولاييف». يحتفظ به كاملاً. لقد نضجَت هذه المبادئ، لكنّ حرارتها لم تضعف، ولن يكون في مقدور شيء أو أحد أن يقضي عليها.

عاود الجلوس بعد أن اضطرب إيقاع تنفسه وشعر بألم في رأسه. تركزت عيناه في عيني البروفسور الأمريكي العجوز وتبادل الاثنان النظرات العميقة لثوانٍ. كان الصمت دراماتيكيّاً. كان ديوي قد وعد،

قبل أن يلقي ليف دافيدوفيتش بيان دفاعه، ببعض الاستنتاجات المؤقتة، لكنّه يبدو الآن كمن تحجر. وفكّت زفرة أطلقتها نتاليا سيدوفا السحر، فخفض ديوي نظره ودقق في ملاحظاته ليعلن بصوت مهموس عن تعليق الجلسة لحين الانتهاء من إعداد الاستنتاجات النهائية. وأضاف: كلّ ما قد يستطيع قوله يمكن أن يشكّل خيبة أمل لا تغتفر.

***

ما إن انتهت الجلسات حتى وجد ليف دافيدوفيتش نفسه مضطرّاً إلى الامتثال لأوامر نتاليا بالانتقال إلى بيت ريفي، في مدينة «تاكسكو» الرائعة. ومع أنّه طلب من مساعديه أن يحملوا بندقية للصيد، فقد كان من التعب أنّه لم يتمكن إلّا من التجوّل قليلاً في المدينة وزيارة أهرامات الشمس والقمر في «تيوتيواكان»، في نهاية الرحلة تقريباً. بدأ الصداع وارتفاع الضغط وحالات الأرق بالتراجع، لحسن الحظ، لكنّ إجراءات نتاليا المشددة فرضت عليه رقابة شملت حظر المراسلات.

حين عادوا إلى كويواكان، ألمّ بليف دافيدوفيتش إحساسٌ لم يشعر به منذ أيام بيوك آضه: لقد عاد إلى مكان يرغب فيه. فقد حلّتْ حاجته إلى مكان مناسب للعمل محل المفهوم التقليدي للبيت، وهو الذي عاش طيلة حياته في حركة وتنقّل دائمين. لقد كان البيت الأزرق، بمفاتنه وأجوائه الغريبة، يمارس عليه جذباً مواتياً تضاف إليه (لم يعترف ليف دافيدوفيتش بذلك قط في كتاباته) الحركة الرشيقة للشقيقتين كاهلو، اللتين أيقظتا، بخدمتهما ورعايتهما، غرائز أنامتها سنوات الكفاح والعزلة. راح استمتاعه بجمال كريستينا وبهالة فريدا الغامضة، وبعطر الشباب الذي يضوع من كلتيهما، وبالحوارات التي اعتاد أن يبثّ فيها ملاطفاته المتعثرة أحياناً والبدائيّة، يتحوّل إلى ضربٍ من ألعاب المراهقة، قادر على تجاوز مفهوم الحجز وعلى تحويل المطبخ والممرات وباحة الدار إلى أماكن للقاءات مرحة، وصار يشعر بتراجع الشيخوخة المتربصة به أمام ذلك المدّ من البهجة.

وفي انتظار استنتاجات ديوي، واصل لييف دافيدوفيتش التحقق من معلومات تساعده على تفنيد مشاركته المزعومة في المؤامرة المضادة للسوفييت. أسف لأنه لم يصله الكثير من تلك الوثائق قبل ذلك الوقت بأسابيع، وحملته فكرة أن ليوفا تصرّف بشيء من اللامبالاة إلى حافة الغضب. فقرّر معاقبة ليوفا على تقصيره الشديد بأن أوكل مراسلاته مع ليوفا إلى معاونيه، وهو عالم بأنّ الشاب سرعان ما سيلتقط الإشارة التي ينقلها إليه صمته.

***

في ليلة من ليالي أواخر آذار، وبعد انتهائهم من تناول العشاء، أطالت نتاليا وهاينورت ولييف دافيدوفيتش، بالإضافة إلى أصحاب البيت الأزرق، سهرة من سهراتهم اللطيفة التي اعتادوا أن يطلبوا فيها من المنفي أن يروي لهما أغرب ما مرّ به من ذكريات. كان يشعر بالحياة تدب فيه، فانطلق يحكي لهم عن قصّة علاقته بالماريشال توخاتشيفيسكي [93]، الضابط الشاب الأنيق الذي أطلق عليه أيّام الحرب الأهلية اسم «بونابرت روسيا» بسبب عقليته الاستراتيجيّة. انسحبت نتاليا أولاً، فقد سمعت منه تلك الفصول، وما كانت تفهم الإنكليزية التي كانوا يتحدثون بها إلّا قليلاً؛ ثمّ تبعها ريبيرا، الذي عبّ كميات هائلة من الويسكي. وانسحبت فريدا بعد أن غلبها النعاس، ثمّ انسحب هاينورت بهدوء.

وحدث الانفجار المتوقع حين تضافرت ابتسامة كريستينا وفعل النبيذ والرغبة المتراكمة بعد أسابيع من الحرمان. كان لييف دافيدوفيتش قد أطلق العنان، غير مرّة، أثناء جلسات العشاء أو فسح التجوال، ليده لتمسّ ساقي كريستينا أو ذراعيها، في مداعبات وملاطفات بدت وديّة بريئة. وكانت هي تبتسم دائماً بغنج ورقّة، وتحول دون وقوع أيّ تطوّر إلى المزيد، لكن من دون أن تردعه وتكفّه عنها، ربّما لتوحي بأنّ تلك الملاطفات وتلك الابتسامات هي جزءٌ من طقوس للتقرّب الذي أطلقه الرجل في تلك الليلة، بعد تردد. حينئذٍ فاجأته بأن أوقفته وطلبت منه ألّا

يخلط الإعجاب والمودّة بمشاعر أخرى. ظلّ ليف دافيدوفيتش مبهوتاً، وتجمدت رغباته، وهو لا يفهم ردة فعل امرأة بدت، حتى تلك اللحظة، وكأنّها أجازت تلميحاته.

أزعجه إخفاقه وأخجله انجراره إلى نزوة تهدد علاقته مع أصحاب البيت الذي ينزل فيه، بل متانة علاقته الزوجيّة. فدعا نفسه إلى التعقّل لدحر تلك الفورة الهرمونيّة التي غلبته. وانتهى إلى إقناع نفسه بأنّ ما حدث له مع الشابة لم يكن سوى حالة سُكر عابرة أحدثتها جاذبية بشرتها الناعمة: وهي علامة غريبة من علامات حمّى الخمسين، قال لنفسه.

حين علمت فريدا بما جرى تولّتْ دور الصديق المؤتمن وواسته مواساة مُرّة إذ أطلعته على السلوك الجنسي المنحرف لأختها، المولعة بألعاب الإثارة تلك، بل بالخداع الفاحش: لقد تجاوزت كريستينا كلّ الحدود حيث اندسّت في الفراش مع دييغو زوجها، واضطرت هي إلى السكوت عليه، وإن لم، ولن، تغفر لزوجها ولا لأختها ذلك الفعل. قاد العطفُ والتفهّم اللذين أبدتهما الرسّامة، مشفوعين بغنجها، ليف دافيدوفيتش إلى التفكير في أنّه ربّما أساء تقدير إمكانياته، فبدأ بإعادة توجيه مقاصده، التي سرعان ما اكتسبت اندفاعاً جارفاً، كفيلاً بقضّ مضجعه وتغيير ساعات نومه وصحوه وهو يتخيّل صورة المرأة التي ائتمنته على أخصّ خصوصياتها.

كان على ليف دافيدوفيتش، الذي التفّ بشبكة الرغبة السميكة، أن يلوذ بانضباطه كلّه لكي يركّز في عمله. كان حضور فريدا والأجواء التي تخيّم على البيت الأزرق تقوده إلى الارتخاء والشرود، بينما تستدعي التزاماته السياسية ومشاكله الاقتصادية حضوره وتركيزه. ربّما كان تأجيله العمل في سيرة لينين وإصراره على الكتابة أولاً عن سيرة ستالين، التي حقق فيها بعض التقدّم، قد أسهم أيضاً في تأخر عمله. كان البحث في الأرشيف والتنقيب في الذاكرة عن كلّ ما يتّصل بذلك الكائن الغامض مهمة غير محببة إلى نفسه، ومع أنّه كان يطمح إلى أن يجعل من الكتاب

قنبلة يدوية يلقي بها في وجه حفّار قبر الثورة، فقد كان يشعر في داخله بأنّه يحط من قدر نفسه حين يكرّس له كلّ ذلك التفكير والوقت.

لكنّ حدثاً غريباً ومحيّراً وقع في برشلونه في الثالث من أيّار جذب انتباهه إلى ما كان يجري في إسبانيا. فمنذ أشهر ومسرح الحرب الأهليّة يتحوّل إلى ميدان للمواجهات السياسية بين المجموعات التي تقاتل لصالح الجمهوريّة. كان ليف دافيدوفيتش قد حذّر من يد موسكو التي تقف وراء الاتهامات المتبادلة والجدل المحتدم بين الأجنحة المتصارعة. فليس من الصدفة، كتب، أن تنطلق حملة ضدّ التروتسكيين الإسبان، حقيقيين كانوا أم مفترضين، تتهمهم بما اتهم به نفسه المدانون في المحاكم البلشفية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وتنعتهم بالعبارات والكلمات ذاتها، بعد وقت قصير من بدء حملات التطهير والإعلان عن الدعم العسكري المقدم من موسكو إلى الجمهوريّة، التي تعتمد على الأسلحة والخبراء السوفييت. كان صديقه القديم أندريس نين، الذي ابتعد عنه بسبب اختلافات تكتيكيّة، واحداً من أوائل الذين طردوا من الجهاز الحكومي، بينما صار حزبه العمالي الماركسي الموحد هدفاً لهجمات إعلاميّة ودعائية أشرس من تلك التي صدرت في حق العسكريين الفاشيين.

من ذلك الكم المضطرب من المعلومات المحجوبة والمتناقضة القادمة من برشلونه، استنتج الثوري العجوز أنّ ما حدث حول السيطرة على البناية التي تتحكم بالاتصالات لم يكن سوى حركة عقابية تخفي الهدف منها، وفي الوقت نفسه، تعجّل في بلوغ ذلك الهدف: قتل ثور المعارضة وإخضاع الحكومة لإرادة السوفييت، وهو ما يسمح لستالين بأن يصبح البطل الذي لا غنى عنه في لعبة السياسة الأوروبيّة. لذلك لم يثر استغرابه أن يكون أعضاء حزب العمال الماركسي الموحد أوّل من تعرّضوا للتشهير: كان واضحاً أنّ مردّ العدوانية التي انطلق منها الشيوعيون الإسبان لتصفية هؤلاء لم تكن النزاعات القديمة أو

الحاجة إلى وجود حكومة موحدة، بل هو هوس سيّد الكرملين للتحكّم والسيطرة (وهي رغبة تفوق رغبته في إلحاق الهزيمة العسكرية بفرانكو وفاشييه من الدرجة الثانية).

في الأيام الأخيرة من ذاك الأيار المضطرب، وصلت إلى كويواكان نسخ من الطبعة الأخيرة من «الثورة المغدورة». وللاحتفال بتلك المناسبة دعت أسرة ريبيرا آل تروتسكي وأصدقاء آخرين إلى عشاء في مطعم من مطاعم وسط المدينة. كان ليف دافيدوفيتش قد استردّ معنوياته، فبدأ بالاستمتاع بحريّة الحركة التي كانت السلطات المكسيكية توفرها له، وصار ينزل إلى المدينة المزدحمة من حين لآخر، يرافقه حارسان أو ثلاثة من حرسه الشخصي، يجلس متخفياً في المقعد الخلفي من السيارة وهو يعتمر قبعة بينما يغطي منديل وجهه حتّى ذقنه. مع ذلك فقد استمتع بتلك الرحلات، بل لقد انصرف في بعض الأمسيات للطواف في شوارع مركز المدينة ليتمعّن في العمارة الباروكية الثقيلة التي شيّدت بها الكاتدرائية، وفي أجواء الحانات وموسيقى المارياتشي وأناقة القصور القديمة التي تعود إلى عصر الوصاية الإسبانيّة، تطارده رائحة كعكة البطاطا الموضوعة على النار في كلّ ركن وناحية. كانت الحركة النشيطة في المكسيك تبدو له حركة عالم قويّ، يستند إلى مصاهرة عميقة بين الثقافات، لكنّها، مع ذلك، عجزت، وعلى مدى قرون، عن أن تُسقط الحواجز التي تفصل بين الأعراق المتعايشة.

في الليلة التي احتفلوا فيها بوصول الكتاب، سار المدعوون، بعد تناول العشاء، في أزقّة مركز المدينة وشوارعها وهم يطالعون الكتابات السياسية التي كانت تغطّي الجدران، ناعتة كارديناس بالخائن والشيوعي مرّة، وداعمة له وداعية إلى أن يواصل الدرب الذي اختطّه حتى النهاية مرّة أخرى. وكما هو متوقع، فقد ظهر اسم تروتسكي في العديد من تلك الكتابات، التي كانت تتراوح أيضاً بين الـ«يعيش» والـ«يسقط»، بين الترحيب به في المكسيك والدعوة إلى طرده منها. لكنّ ليف دافيدوفيتش

لم يكن ليلتها مهتمّاً بالكتابات ولا باستكشاف المدينة: ما كان يطلبه حقيقة هو التقرب من فريدا. لقد كانت الدوّامة الحسّية التي سقط فيها تناديه وتدعوه إلى تنفيس بدأ يلاحقه بإلحاح. ومع أنّ جسم الرسامة كان يستدعي حاجزاً من تشوّه يضطرها إلى الاستعانة بمشدات تقويميّة وبعصاً لدعم ساقها الأضعف، فلعلها كانت، بسبب تلك العوائق تحديداً، تحتاج إلى الجنس والحسيّة بعدوانية أكبر واندفاع أشدّ [110]. وحين علم ليف دافيدوفيتش بأنّ طبعها المتفتح قادها إلى توظيف رغباتها الجنسية في علاقات مثليّة، انفلت عفريت الذكورية المنحرف فيه، في بحث واضح ولهفة متعجلة تفوق تلك التي أحسّ بها أيام شبابه أو أيام جبروته مفوضاً للجيش، حين منحته الكثيرات والكثيرات من رفيقات النضال فرصة التنفيس التضامني عن حالات التوتر والحدّة المتراكمة.

من قصائد الحب ورسائله، المخبأة بين صفحات الكتب التي اعتاد ليف دافيدوفيتش أن ينصح فريدا بمطالعتها، كانت نداءاته تطالبها بالارتقاء إلى ما هو محقق وواقعي. كانت النار التي تحركه تشتعل بقوة تجاوزت خوفه من أن تشكّ نتاليا بمغامرات حبّه العابرة. في تلك الليلة الصاخبة، وبينما دخل دييغو ونتاليا والأصدقاء الذين انضموا إلى المسيرة والمساعدون إلى بناية كانت تضمّ لوحة جدارية من عمل ريبيرا، تعمّد ليف دايدوفيتش التخلّف عنهم، ومن دون أن يتفوّه بكلمة واحدة أوقف فريدا عند الواجهة وقبلها من فمها وهو يردد بين الزفرة والزفرة مدى رغبته فيها. كان ليف دافيدوفيتش في تلك اللحظة، وهو في كامل وعيه، يلقي بنفسه إلى بئر الجنون ويعرّض كلّ ما قدمه في حياته إلى الخطر: مع ذلك فقد فعل ما فعل وهو يشعر بالسعادة والفخر، وشعر بالطيش، لكن من دون أدنى قدر من الشعور بالذنب، كما قد يقول في ما بعد، مقتنعاً بأنّه أنفق في حفلة الأحاسيس الماجنة تلك أفضل خراطيش احتياطي ذكوريته إنفاقاً مجزياً.

110- أصيبت فريدا كاهلو، وهي طفلة، بشلل الأطفال، وتعرضت، وهي في الثامنة عشرة من عمرها، إلى حادث مروري ألزمها الفراش عاماً كاملاً.

-17-

كان رامون ميركادير يرى أنّ باريس هي المدينة الأتفه في العالم، وأنّ الفرنسيين وحكومتهم الاشتراكية يخونون إسبانيا حين يمنعون عنها دعمهم الذي كانت الجمهورية في أمسّ الحاجة إليه. لكنّه شعر بالرضا حين فتح له توم باب شقته الواقعة في الطابق الأخير من شارع «ليوبولد روبرت» واكتشف أنّ في مقدوره أن يرى، وهو عند نوافذها الشماليّة، جادة «مونت برناس»، بينما تظهر له، وهو في الشرفة، ناظراً صوب الجنوب، جادة «راسبيل»، عند مستوى مقهى الفنون.

- إنّه مسكن جيد، أليس كذلك؟ - قال له توم وهو يسلّمه المفاتيح-. إنّه قريب من مركز المدينة وهو منزوٍ وبرجوازي جدّاً، لكنّه بوهيمي قليلاً، كما يروق لك.

- كما يروق لجاك مورنارد - قال، ونظر إلى الطاولات والرفوف الخشبيّة، الكئيبة الجامدة المجردة من أيّة زينة، وتأمّل الجدران الخالية، حيث يلزم تعليق بعض الصور-. عليه أن يبدأ بتدبير ما هو مناسب.

- لديك وقت للتكيّف. شهران أو ثلاثة أشهر في ما أظن.

أشعل جاك سيجارة وطاف في الغرفة وفي المرحاض والحمام والمطبخ الصغير، حيث وجد باباً زجاجيّاً يسمح برؤية شرفة الخدمات التي تؤدي إلى باحة البناء الداخلية. عاد إلى الصالة وهو يحمل صحن قهوة جعل منه منفضة للسجائر إلى حين شراء الحاجيات الضرورية للبيت والمناسبة لشخصيته. في تلك اللحظة غزاه إحساس غريب، فمنذ

أن بدأت كاريداد حالات هروبها، قبل ذلك الوقت بعشر سنوات، لم يحظّ بشيء شبيه بما يصرّ البرجوازيون على تسميته بالمسكن.

– أنا ذاهب إلى الفندق – قال توم، وهو يتثاءب–. هل ستستريح؟

– أحتاج إلى شراء ما آكله. حليب، قهوة...

– جيد. سنلتقي في هذه الليلة. الساعة الثامنة، أمام نافورة القديس ميشيل. عندي لك مفاجأة– ونهض، بصعوبة أكبر من المرات السابقة.

– متّى ستكلمني عمّا جرى لرجلك تلك؟

ابتسم توم وغادر الشقة.

فتح جاك حقيبته الوحيدة. أخرج قمصانه وبدلة الكشمير الإنكليزية وبسطها على كنبة لتتهوّى وتستعيد شكلها. نزل إلى الشارع وعبر جادة «مونت برناس» ليدخل في مقهى «كلوسري دي ليلاس»، الفارغ تقريباً في منتصف النهار. طلب قدحاً من الحليب الساخن وكرواسان وفنجاناً من القهوة. استخدم أفضل لكنة بلجيكيّة ممكنة، وتذكّر أنّ ليس من الضروري تكلّف ذلك، فلديه ما يكفي من الوقت لصقل نقاط الضعف البسيطة، قال في نفسه وهو يحمل منفضة السجائر التي حُفر اسم المقهى عليها من على الطاولة المجاورة ويدسها في جيب سترته.

شرح له معلمه، قبل أن يتخلّص من جلد غريغورييف، أنّه أثناء زيارته لنيويورك مهّد الطريق لجاك مورنارد. إنّه طريق متعرج، لكنّه مضمون، وسيوصله إلى المرتد ليف تروتسكي: بدت الخطة لرامون متكلفة وغير ممكنة، حتّى إنّه تساءل إنّ لم يكن ذلك كلّه ضرباً من الخيال. شرح له غريغورييف أنّه اتصل، تحت هوية المستر أندرو روبرتس، بمدير الديلي ووركر، لويس بودنز، الذي كان قد تعامل، في مناسبات أخرى، مع المخابرات السوفييتيّة، أمّا ما يحتاجه روبرتس منه الآن فهو شيء فيه من البساطة قدر ما فيه من الصعوبة: أن يبعث إلى باريس بشابة تدعى سيلفيا آجيلوف، وهي عضو نشط في دوائر التروتسكية الأمريكية، وشقيقة

فتاتين متعصبتين أخريين، بل لقد عملتا قريباً جدّاً من المنفي. هو لم يذكر له، بالطبع، لماذا يحتاجون سيلفيا في فرنسا، مع ذلك فقد أكّد عليه ضرورة أن يتمّ كلّ شيء بأقصى درجات الكتمان، وقدّر أن في تذكيره بأنهما الوحيدان العارفان بالموضوع ضمانة كافية. وعد لويس بودنز بأنّ يردّ عليه في أسرع وقت.

في تلك الليلة، حين نزل جاك مورنارد من الباص ومرّ من أمام مسرح «الأودويون» متجهاً نحو نافورة «سان ميشيل»، أحسّ وكأنّه يتوغّل في قلب مدينة تضجّ بالحركة. كان الباريسيون يرون الحرب الدائرة في الطرف الآخر من جبال «البيرينيه» والحرب الأخرى التي تلوح في الأفق الأوروبي بعيدتين بعد المرّيخ عنهم. كان الليل الباريسي على حركته ونشاطه، وأحسّ جاك، وهو ينتظر بالقرب من النافورة، بالحياة تضجّ من حوله.

ربّما كانت الغريزة أو نداء دمه الأرضي هو ما جعله يلتفت: لقد اكتشفها فجأة وسط الزحام، وقد تشابكت يدها بيد توم. شعر بهويته الجديدة تختفي بمجرد حضور ذلك الصخب الذي اسمه كاريداد دل ريّو. حين صارت المرأة قبالته، وهي تبتسم فخورة، وترتدي ثياباً أنيقة بدت غير مناسبة لها (ذلك الحذاء ذو الكعب العالي والمصنوع من جلد التمساح، يا إلهي)، وتمتمت بالكاتالانية «يا إلهي، ما أجمل هذا الرجل!»، خمّن هو الخطوة اللاحقة: أخذته من رقبته وقبلته في وجنتيه بضغطة خبيثة مكّنتها من أن تضع سخونة لعابها في شدقيه. ومع أنّ جاك مورنارد حاول أن يظلّ متماسكاً، فقد تمكنت كاريداد من فكّ القيد عن رامون القابع في أعماقه، وجرّه بطعم الأنيس القاهر.

باقتراح من توم، الذي ما كان يعرج في تلك الليلة، بحثوا عن مطعم «البالزار»، في شارع «دي إيكول»، حيث كان بانتظارهم شخص. سارت كاريداد بين الرجلين، فرحة مرتاحة، وقرر رامون ألّا يضعف مرّة أخرى، على الأقل ظاهريّاً وعلى مرأى من توم. كان يتمنى أن يسأل عن أخيه الصغير لويس، الذي يفترض أنّه ما زال في باريس، وعن أخته مونتسي،

التي حكت له مرّة عن نيتها للسفر إلى فرنسا. هل تعلم كاريداد يا ترى شيئاً عن أفريكا، وعن الصغيرة لينينا؟

حين دخلوا إلى المطعم نهض رجل حليق الرأس برّاقه فتوجّهوا، يتقدمهم توم، نحو المائدة التي كان يشغلها. بعد أن صافح توم الرجل قدمهما له بالفرنسيّة:

- رفيقتنا كاريداد. هذا هو جورج مينك - ثمّ التفت إلى تلميذه-: جاك، جورج سيكون حلقة اتصالك في باريس.

- أهلاً بك مسيو مورنارد. أتمنى لحضرتك إقامة طيبة في المدينة.

وبينما كانوا يتناولون المقبلات، تكلّمت كاريداد، بطلب من توم، عن مجريات الأمور في إسبانيا، حتّى قبل أيام قليلة. قالت إنّ الجيش الشعبي ما زال يعاني من ضعف سببه حالة محددة: عمليات التخريب التي ينفذها العدوّ. قال مينك إنّه لا يفهم أيّ عدوٍّ تقصده بعد أن قُضي على التروتسكيين والفوضويين. فقالت: أقصد العاجزين الذين يحكموننا.

- السوفييت يسلحون الجيش الآن، وثمانون بالمئة من قادته هم من الضباط الشيوعيين - أكّدت كاريداد وهي تنظر إلى توم-، لكنّا ما زلنا نخسر المعارك، ووصل الفاشيون إلى البحر المتوسط؛ قسموا شبه الجزيرة قسمين. التفسير الوحيد هو أنّ قلب الجمهورية يحتاج إلى نقاء أيديولوجي ضروري لكسب الحرب. هناك حاجة إلى المزيد من عمليات التطهير في إسبانيا.

- مسكينة إسبانيا - قال توم، وما كان جاك يفهم وقتها مراده وتلميحه-. هناك مستشارون سوفييت حتّى في الحمامات العامة، والشيوعيون الإسبان هم الآن من يسحب سلسلة السيفون. إن كنّا نسيطر الآن على الجيش والمخابرات والشرطة والدعاية ففي حقّ من ستجري عمليات التطهير؟

- الخونة. لقد أطحنا بإنداليثيو بريبتو[87] من رأس السلطة. كان يشنّ علينا الحرب طوال الوقت ويمضي يومه قائلاً بأنّ الشيوعيين كالآلات،

لا نفعل شيئاً غير الامتثال لأوامر اللجنة الحزبية. كان أسوأ من أيّ طابور خامس.

- بريتو كان يبدو لي أحياناً ملهماً - قال توم، وأطلق زفرة-. لم أرّ قط وزيراً للحرب على ذلك القدر من الثقة بكسب الحرب... لكنّ المشكلة الحقيقيّة هي أنّ حضراتكم، الشيوعيين الإسبان، لا تحسنون الفوز. هل رأيتِ كاريداد كيف تتكلمين؟ تبدين وكأنّك تقرئين افتتاحية صحيفة من تلك الصحف اللعينة. الآن الجميع يتكلمون بهذه الطريقة... ومن سيدفع ثمن الكارثة التي تحلّ بإسبانيا؟ نحن: بيدرو وأورلوف وأنا وبقيّة كبار المستشارين. لقد تعبنا من سماعكم تتكلمون وتتكلمون، وتعبنا من اضطرارنا كلّ يوم إلى دفعكم.

شعر جاك مورنارد بسوط ينهال على ظهر رامون. فالضربات لا تقع إلّا على رأس الإسبان، حقّاً أو باطلاً، فكّر. لكنّه ظلّ ساكتاً.

- لا أدري أيّ نوع من الشيوعيين حضراتكم - واصل توم الكلام، وكأنّه ينفّس عن حقد قديم-. تتركون الآخرين ليقولوا ما عليكم أن تفعلوه، وليعاملوكم كما يعامل الأطفال. ذئاب الكومنترن ما زالوا يقتسمون الكعكة. فلماذا يفعلون ذلك؟ لأنّ حضراتكم لم تتخذوا القرار بإرسالهم إلى الجحيم وترتيب الأمور كما يجب.

- وإن أرسلناهم وأرسلناكم إلى الجحيم - انفجر رامون، بعد أن لم يفلح في الإمساك بنفسه في تلك اللحظة-، فبمن سنواجه الوحدات الإيطالية والطيران الألماني؟ أنت تعرف أننا نعتمد عليكم وأن لا خيار أمامنا...

نظر توم مباشرة إلى عيني تلميذه. كانت نظرة نافذة غير عسيرة على الفهم.

- ماذا دهاك جاك؟ أراك مستاءً... رجل مثلك...

أحسّ جاك مورنارد بالنبرة الواخزة وشعر بالعجز يلفّه، لكنّه بذل جهداً أخيراً لإنقاذ كرامته.

- المشكلة هي أنّ اللوم يقع علينا دائماً...

- لم يقل أحد ذلك - تغيّرت نبرة توم-. لقد تقدمتم من اللاشيء تقريباً إلى حيث أنتم الآن. أنتم الآن الحزب الأكثر تأثيراً في المعسكر الجمهوري، وستحظون بدعمنا دائماً. لكن عليكم أن تنضجوا مرّة واحدة وإلى الأبد.

- متى ستعود إلى إسبانيا؟ - سأل مينك، منتهزاً لحظة الهدوء، وأطلق توم زفرة.

- خلال يومين. أحضّر الأمور هنا ثمّ أعاود السفر. يجوف يصرّ على أن أواصل العمل مع أورلوف. لكنّ من الصعب عليَّ أن أوزّع تفكيري في موضوعين... عندي رأس واحد وهو الآن موزع على طرفين.

نظرت إليه كاريداد وقالت بحذر ليس هو في العادة من طبعها:

- يشاع بين الناس أنّ المستشارين سيتركوننا لنواجه مصيرنا. بل يتكلمون عن سوء النية لدى بعضهم...

- مَن يقولون هذا ناس جاحدون... أودّ الانصراف الآن لأنّ لديّ مهمة أخرى. لقد تصبّبتُ في إسبانيا بدل العرق دماً، وعرّضتُ حياتي للموت أمام دبابات الإيطاليين في مدريد حين لم يكن أحد يدفع بيزتة واحدة من أجل المدينة...- تناول توم كأساً من النبيذ قدموها له ونظر إلى الشرشف الأبيض الناصع نظرة من يبحث عن بقعة غير موجودة-. ليس لأحد أن يقول إنّه يريد أن يتخلى عنكم...

خيّم الصمتُ على الطاولة لكنّ مينك كسره بينما كان يملأ كأسه.

- أنا أعرف أنّ موضوع إسبانيا مؤلم، لكنّ لدينا مشاكل صغيرة أخرى، كاختيار الأطباق، أليس كذلك؟ أقترح عليكم الشوكروت[111]، أمّا النقانق التي يعملونها هنا فهي من النوع الفاخر. وإن كنتُ مغرماً بلحم ذكر البط والكاسوليه...

***

111- Choucrote طبق فرنسي من الملفوف والنقانق تشتهر به منطقة ألزاس. أمّا الـ Cassoulet فهو طبق الفاصوليا البيضاء مع اللحم.

قبل أن يعاود توم لبس جلد كوتوف ويعود إلى إسبانيا، تلقّى منه جاك نصيحة كانت، في الواقع، أمراً: عليه أن يمحو إسبانيا وحرب إسبانيا من رأسه. ما يجري جنوب «البيرينيه» يجب ألّا يمثّل بالنسبة إلى جاك مورنارد أكثر من أخبار يقرؤها في الصحف. ليس على رامون أن يدع حماسه يطفو على السطح ويفسد عليه هويته، حتّى في أضيق أوساطه وحلقاته. وكإجراء احترازي فقد منعه توم من رؤية كاريداد أو الحديث معها إلى أن يسمح له هو بذلك. وهكذا فإنّ الآلية الدقيقة التي وضعها له تجعل حدوث ذلك النوع من الزلات العاطفية والوطنيّة أمراً غير مقبول: لقد أثبت رامون ميركادير قدرته على تجاوز نقاط الضعف تلك، فليس لعواطفه أن تخرج من الظلمة حتّى تستدعى لقضيّة أكبر، قد تكون هي «القضيّة».

وتكفّل جورج مينك، بوجه سليل الأوكرانيين المهاجرين إلى فرنسا أيام الحرب الأهلية الروسية، منذ ذلك الحين بوضع جاك في العالم الباريسي الذي يناسبه. ترددا طيلة أسابيع كاملة على أماكن البوهيميّة في «لاريف گوش»، وهو مضمار سباقات الخيل، حيث طبّق جاك مورنارد معلوماته النظريّة في المراهنات، طاف في شوارع «لوماريه» التاريخيّة، التي تردّت حالها الآن، وصادق مغنيات «المولين روج»، ودعاهنّ لتناول الشمبانيا معه، وطاف بالسيارة شوارع باريس التي تعلّمها على الخرائط في «مالاخوفكا». وأخذه جورج، وكأنّه ذاهب لزيارة معبد، إلى ملهى «الجيرنيز»، حيث كان لويس ليبليه[112] يقدّم اكتشافه العظيم: لاموم بياف، تلك المرأة الصغيرة الخفيفة الشعثاء، التي كانت تشدو بصوتها الفخم أغاني مليئة بالعبارات المبتذلة والاستعارات الجريئة التي تترك، مع ذلك، البلجيكي رابط الجأش ضجراً. زارا بالسيارة التي يقودها جاك بروكسل

112- Louis Leplée (1883-1936) رجل أعمال فرنسي ومالك نادٍ ليلي. اكتشف موهبة الفتاة الفقيرة إديت بياف (1915-1963) وتبناها وأطلق عليها لقب La Môme Piaf (العصفورة الصغيرة). ذاعت شهرة بياف وصارت تعدّ بين كبريات المغنيات في فرنسا.

و«لييج»، وقلاع حوض اللوار الخرافيّة وتذوّق الشاب أنواع الشوكولا البلجيكية والنبيذ والجبن الفرنسيين، والأطباق النورماندية الشهيرة وروائح المطبخ البروفنسي. واتخذت شقة شارع «ليوبولد روبرتس» طابعاً برجوازيّاً غير رسمي، وارتدى جاك ملابس من تصميم خياطين يهود ألمان مقيمين حديثاً في «لوماريه»، وصار لديه في خزانة ملابسه اثنتا عشرة قبعة. مع ذلك فقد ظلّا طوال الوقت بعيدين عن الدوائر السياسية الفرنسية وعن عالم المهاجرين الروس وعن حلقات الجمهوريين الإسبان، حيث ينتشر الجواسيس من جميع أجهزة المخابرات في العالم، وكأنّهم تنادوا لحضور مؤتمر عام لعالم الظلمات.

حين عاد توم، بداية حزيران، لاحظ بارتياح اقتراب مخلوقه من درجة الكمال، وشعر بالرضا لأنّه اكتشف في شيوعيٍّ كاتالوني فظ تلك الماسة التي صقلها كما تصقل جوهرة ثمينة. حين انتهت إقامة توم في إسبانيا، عاد إلى نيويورك، حيث علم أنّ خط سيلفيا آجيلوف جرى تفعيله وسيبدأ التحرّك خلال شهر تموز، حين ستتمتع الفتاة، وهي معلّمة في مدرسة عليا، بإجازتها الصيفية وستبدأ، مدفوعة بحماسها، وبكرم صديقتها القديمة روبي ويل[113]، سفرة أحلامها إلى باريس. سلّم المستشار جاك صورة لروبي ويل من دون أن يفصح له عن هويتها، فلاحظ بريقاً في عيني الشاب.

- لا بأس بها - قال.

ابتسم توم ثمّ سلّم له، من دون تعليق، صورة ثانية تظهر وجه امرأة تناهز الثلاثين، ترتدي نظارة مدورة الإطار سميكة العدسات، ويغطي النمش وجهها النحيف، ويسقط شعرها السرح من دون أناقة فيطل من بينه طرفا أذنيها.

- ليس كلّ النبيذ كنبيذ بوردو، جاك... - قال توم من دون أن يتوقف

113- Ruby Weil. شيوعية أمريكية. كلّفها الزعيم الشيوعي الأمريكي لويس بودنز بمصادقة سيلفيا آجيلوف وإقناعها بالسفر معها إلى باريس وتدبير لقائها بجاك مورنارد.

عن التبسّم-. هذه هي سيلفيا آجيلوف، أرنبك. إنّها مطبوخة جيداً وتلائمك وطعمها لذيذ.

وتخفيفاً له من صدمته، أخبره توم بأنّه زار المكسيك أيضاً، حيث بدأت خيوط أخرى من خيوط العملية تتحرك. فبينما أسند رجال الكومنترن إلى الحزب الشيوعي مهمة تأجيج الأنفس ضد وجود المرتد في البلاد، زُرع أربعة عملاء، جميعهم من الإسبان، في العاصمة لتنفيذ العمليّة حين وصول الأمر بذلك وحين تكون احتمالات نجاحها واقعيّة.

- أظنّ أنّ هذه هي أفضل إجازاتك في باريس، فأنتَ بعيدٌ عن الحرب، ومعك نقود كثيرة تنفق منها ببذخ. فإن توجب عليك أن تقضم هذا العظم - ضرب بظفره وجه سيلفيا آخيلوف وابتسم-، وإن لم يقع عليك الخيار في تنفيذ العملية، فسنعمل لك خصماً جيداً على ديونك.

شعر جاك بأنّ تضحيات أسوأ تنتظره، وراح، مع تلك المواساة، يتهيأ لانتظار وصول المرأة التي ستكون، إن حالفه الحظ، سبيله للوصول إلى كويواكان البعيدة، وربّما إلى التاريخ.

***

اختفى توم واختفى مينك منذ بداية تمّوز، وتوالت أيام انتظار لحظة الصفر الصيفية الهادئة على جاك مورنارد بطيئة، تخيّم عليها أجواء الأزمة السريعة التي كانت تشهدها حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا، وحالة التوتر التي تشيعها الأخبار الواردة من إسبانيا، متواترة من سيئة إلى أسوأ. فقد بدأ إجلاء متطوعي الألوية الدوليّة ولمّا يتمكّن الجيش الشعبي، حتى بعد حملة الإيبرو[114] المجيدة، من ردّ قوات فرانكو وطردها من الشريط الذي فتحته إلى البحر المتوسط. لم تستطع بقايا رامون، التي ما زالت تنبض في جاك، التستّر والاختفاء حيال تلك الهزائم، لكنّ انضباطه أبقى عليه بعيداً عن الأماكن التي كان يُجمع فيها أولئك المتطوعون تمهيداً

114- جرت معركة الإيبرو بين تموز وتشرين الثاني من عام 1938 ومثّلت نقطة فاصلة في مسار الحرب الأهلية الإسبانية.

لتسفيرهم إلى بلدانهم الأصلية. كان رامون يتمنّى لو أنّه استمع إلى قصصهم وتنشّق أجواءهم.

في الخامس عشر من تموز، وعلى غير انتظار من جاك، وصل توم إلى شقته في شارع «ليوبولد روبرت» شاحباً مضطرباً. لم يلقِ عليه التحية، بل بادره بأنّ أمراً خطيراً قد يكون وقع: كلّ الدلائل تشير إلى أنّ أورلوف، رئيس مستشاري المخابرات السوفييتية في إسبانيا قد فرّ. في تلك اللحظة، رأى جاك، ولأوّل مرّة، علامة ضعف في ذلك الرجل، الذي كانت رباطة جأشه وتماسكه أمام أيّ ظرف أساس إعجابه به. وسرعان ما أدرك جاك أبعاد الكارثة التي تعذّب معلمه.

– نحن جميعاً نسير خلفه، لكنّ السافل يعرف كلّ الطرق ويعرف كيف يتصرّف. نعلم أنّه في فرنسا، ربّما هنا، في باريس، وأظنّ أنّه سيفلت منّا.

– هل أنتم متأكدون من أنّه فرّ؟

– لم يكن أمامه خيار آخر.

– ألم يكن رجلاً موثوقاً؟

– بلى، إلى حدّ أنّه يعرف شبكة التجسس في أوروبا كاملة.

أحسّ جاك بصدمة هزّته.

– يعرف أيضاً بموضوعي؟

– كلّا – طمأنه توم–. أنتَ خارج مسؤوليته. لكن الرفاق في المكسيك، لا. لا يمكنك أن تتصور مقدار ما يعرف. لقد تركنا الحقير، كما يقال في إسبانيا، مكشوفي المؤخرة... إنّها مصيبة كبيرة.

– أقسم لك إنّني لا أفهم: هل كان أورلوف خائناً؟

أشعل توم سيجارة، وكأنّه كان بحاجة إلى تلك المهلة.

– لا. لا أظنّ ذلك، وهذه هي المصيبة. لقد أجبروه على الفرار. لقد أرسل له المجنون يجوف برقية يطلب منه فيها الحضور إلى باريس ليأخذ سيارة من السفارة ويذهب بها إلى أنتويرب حيث يجتمع مع مبعوث من

طرفه على ظهر سفينة. أورلوف بالطبع لا يحتاج إلى ذكاء كبير لكي يشمّ رائحة ترتيب ينتهي به معدوماً رمياً بالرصاص إن هو ذهب إلى ذلك اللقاء، على غرار ما حدث لأنتونوف- أوفزينكو[115] وبقية المستشارين الذين طلب يجوف إحضارهم. وفي اليوم الحادي عشر خرج من إسبانيا وانقطع أثره.

شعر جاك مورنارد برأسه يدور. فهناك شيء خطير وخارج عن السيطرة يحدث، واستناداً إلى ما قاله توم فإنّ العواقب قد لا يمكن حسبانها.

- إن لم يوقف بيريا والرفيق ستالين يجوف فسيذهب كلّ شيء إلى الخراء!

- ولماذا لا يوقفانه نهائيّاً؟ عجباً! - ثار جاك.

- لأنّ ستالين لا يريد ذلك، يا للجحيم!- صاح توم، ورمى بالسيجارة إلى الأرض-. لأنّه لا يريد!

نهض توم. كان الهياج الذي استبد به غير مسبوق، أمّا جاك فقد ظلّ صامتاً، إلى أن عاود الآخر الكلام، بعد أن استردّ السيطرة على أعصابه.

- مهمتك ما زالت قائمة. أورلـوف لا يعرف حتّى بوجودك، وهذه هي ضمانتنا. ما يهمّ الآن هو أن تؤدي كلّ شيء بإتقان، وأكثر من أيّ وقت مضى. سنظلّ معلقين في الهواء ما دمنا لا نعرف مكان أورلوف ولا المعلومات التي سيكشف عنها. قلّصنا مؤقتاً عدد الرفاق الموجودين في المكسيك إلى ثلاثة وأربعين، وأخرجنا الآخر منها نهائيّاً... أورلوف يعرف ذلك العميل، وهو من نصح به لتنفيذ عمل بالغ المسؤوليّة.

واصل جاك صمته. كان يعلم أنّ توم يحتاج إلى إفراغ كلّ شحنات

115- أنتونوف أوفزينكو (1883-1939). كان يشغل منصب القنصل العام السوفييتي في برشلونه وقد أعدم ضمن التصفيات التي جرت أواخر الثلاثينيات.

التوتر فيه، وما حديثه له عنها إلَّا لأنّه يثق بتكتمه ويحتاج إلى ذكائه أكثر من أيّ وقت مضى.

- سأخبرك بشيء ستعرفه في وقت من الأوقات، وليس هناك ما يمنع أن تطلع عليه الآن. ذلك العميل الذي أخرجناه من المكسيك هو امرأة كانت تعمل باسم «باتريا». وكان مخططاً أن تعملا معاً إذا استدعت الحاجة وقت التنفيذ...

شعر رامون بالضيق. كيف لحماقة من حماقات يجوف أن تحرمه من شيء جميل ما كان له أن يصادفه حتّى في الحلم؟

- أنتَ تتكلم عن...؟

- أفريكا دي لاس هيراس. حين وصلتَ أنتَ إلى «مالاخوفكا» كانت هي في الكابينة رقم (9). وخرجتْ من هناك قبلك بشهرين. لم يكن أورلوف يعلم بمكانها، لكنّه يعرفها ولا يمكننا المغامرة بها. إنّها ثمينة جدّاً.

نهض رامون ميركادير واتجه إلى النافذة الكبيرة التي ترى منها جادة «مونت بارناس». إنّه وقت الغروب، ولا شكّ أنّ المقاهي وطاولاتها في الشمس تمتلئ بالزبائن، لاهين هادئين، يتكلمون، ربّما، عن أشياء كبيرة أو صغيرة من حياتهم، تافهة، ربّما، لكنّها تمسّهم وتمسّ حياتهم. لم يكن خبراً طيباً مريحاً أن يعلم بأنّ أفريكا كانت تسكن، ولأسابيع، على بعد ثلاثين متراً منه، من دون أن يسمحوا له بلقائها. إنّها واحدة من عمليات بتر كثيرة خضع لها ليصل إلى النقطة المعتمة من حياته التي هو فيها الآن: بلا ماضٍ ولا حاضر، وبمستقبل يعتمد على إرادات الآخرين، على اتجاهات التاريخ غير المحسوبة. التفت رامون ونظر إلى توم، الذي خفض رأسه وعاود التدخين.

- اطمئن. سأعملُ على أن تسير الأمور معي كما هو مخطط لها. لن أخيّب أملكَ... وهل هي بخير؟

***

خلف المَشرَب، رأى رامون ميركادير أطول مرآة رأتها عيناه وأصفاها وأدقّها. كانت مرآة تصلح لأن يقارن بها جميع المرايا في العالم، المرآة التي طالما تمنّى أن يرى نفسه فيها، ولا سيّما في صبيحة موسكو المتجمدة عام 1968 حين، أحسّ، وهو يشعر بألم شديد في يده اليمنى، ويراقب صورته المنعكسة في زجاج ضريح إله البروليتاريا في العالم، بالخواء الذي يترصد حياته المظلمة: لو أنّه يقف الآن قبالة مرآة فندق «الريتز» السحرية، لرأى نفسه كعهده في أمسيات عام 1938، حين كان جاك مورنارد، الذي يحتفظ بإيمانه كاملاً وبصحته غير منقوصة، ببدلة الموسلين أو الدرل المنشّى، منتفخاً من خيلاء مصدره علمه بأنّه يقف في أتون معركة من أجل مستقبل الإنسان.

قبل أن ينصرف توم، شرح له، بتدقيقه المعهود في التخطيط للمستقبل، كيف سيجري لقاؤه الأول مع سيلفيا آجيلوف وروبي ويل: عصر التاسع عشر من تموز، سيلتقي جاك صدفة بالمرأتين في بار الريتز، حيث ستدخل روبي وسيلفيا برفقة جيرترود آليسون، صاحبة المكتبة التي هو زبونها، فتقدمه هذه إلى السائحتين فيدعوهنّ هو لتناول الشراب. في تلك اللحظة ستقع سيلفيا في مرمى البلجيكي؛ واعتباراً من تلك اللحظة، سيعتمد اصطياد الفريسة على مهارات جاك مورنارد وثبات يده.

لكنّه، في تلك الأمسية، فكّر، وأمامه كأس من مزيج الجنّ والتونيك، مرّة أخرى في أنّ التغيير المفاجئ الذي طرأ على موقف أفريكا، حين افترقا في برشلونه، لم يكن بسبب رجال آخرين، بل بسبب أوامر صدرت لها بقطع علاقاتها القديمة قبل انخراطها في مهمّتها الجديدة. رصد عبر المرآة، وقد شعر بالراحة بعد تلك الأفكار، دخول أربع نسوة صاخبات مبتسمات. تعرّف إلى آليسون وإلى الشقراء روبي ويل وخمّن أنّ الطويلة بينهنّ هي ماري كرابو، الفرنسية صديقة صاحبة المكتبة. ثمّ ركّز نظره في الرابعة منهنّ: فتاة منمشة الوجه، لبنيّة البشرة، تلبس نظارات سميكة وتخفي نحافتها المفرطة تحت بلوزة عريضة وتنورة فضفاضة ذات

طيّات وثنايا. كم شعر بالقلق وهو يتأمّل قبح سيلفيا آجيلوف منعكساً على الزجاج بوضوح. رآهنّ يجلسن عند إحدى الطاولات، فقرّر أن يتحرّك للتطلّع، كما فعل سواه من الرواد، إلى أولئك النسوة، اللائي وصلن ضاجات صاخبات. لقد أدرك أنّ جاك مورنارد سيبلغ في تلك اللحظة سنّ بلوغه.

أطلقت جيرترود صرخة مفاجأة حقيقية:

- انظرن من هناك!... مرحباً، جاك!

اقترب منهنّ مبتسماً، وهو يحمل كأسه بيده، ومفسحاً المجال لسحره الشخصي وأناقته وعطره أن تشيع ليبدأ عمله. تولت جيرترود تقديمه لهنّ، وحين صافح سيلفيا خامره إحساس من يلمس عصفوراً صغيراً ضعيفاً. عرّفته جيرترود آليسون إلى صديقتيها الأمريكيتين، اللتين تزوران باريس، وطلبت منه الجلوس معهنّ. إنّه لا يريد أن يقطع عليهم حفلتهن، لكنّه أمام الإلحاح الشديد.. شرطَ أن يقبلن دعوته لتناول الشراب.

- جاك مصوّر- أوضحت جيرترود-. أما زلت تعمل في «سي سوار»؟

- حين يطلبون مني شيئاً- قال من دون أن يبدي اهتماماً.

التفت جيرترود إلى صاحباتها وقالت:

- إنّه من المحظوظين، فهو لا يحتاج إلى العمل من أجل أن يعيش.

- لا تبالغي!- أضاف هو بتواضع.

- دعني أقول لك إنّ صديقاتنا هنا - أشارت إلى سيلفيا وروبي- يفضلن الرجال العاملين، الذين يعرقون، الرجال المشعرين... إنّهنّ ماركسيات لينينيات والعديد من «الإيّات» الأخرى...

- تروتسكيات - ابتسمت سيلفيا، لكنّها لم تستطع السيطرة على نفسها-. أنا تروتسكيّة- كررت، وتلقّى سمع جاك صوتَ المرأة دافئاً قاطعاً.

- في الحمام تغنّي نشيد «الأممية» - أنهت جيرترود آليسون كلامها وضحك الجميع مسترخين، حتّى سيلفيا.

- أهنئكنّ - قال وهو يبدي لامبالاة واضحة-. أنا معجب بالأشخاص الذين يؤمنون بشيء. لكنّ السياسة بالنسبة لي...- ودعم كلامه بحركة من كتفيه-. يهمني أكثر الغناء في الحمام...

كان الشرشف جاهزاً، فتكفل جاك بترتيب الصحون وتوزيع عدّة الطعام عليه. بعد نصف ساعة، حين غادرت جيرترود وماري، قرّر هو أن يمضي مع السائحتين وقتاً أطول، ثمّ ودعهما، بعد أن تواعد معهما للذهاب إلى مضمار السباق، فعليه أن يصوّر هناك سباقات اليوم التالي. وعرض عليهما، إن لم تكونا ملتزمتين بمواعيد أخرى، أن يقوم ثلاثتهم، بعد انتهائه من عمله، بجولة للتعرّف على الحياة في الليل الباريسي.

وجدت سيلفيا آجيلوف في لطف جاك وكرمه وسيارته ومعرفته بليل باريس وتلك الشقّة البوهيميّة في جادة «مونت بارناس»، حيث أنهوا ليلتهم بكأس من نبيذ «البورت»، شيئاً لا يمكنها مقاومته، ثمّ إنّها لم تفهم لماذا خصّها ذلك الشاب (الذي لا يتجاوز الثامنة والعشرين حسب قوله)، بنصيب أكبر من لطفه وملاطفاته، وقدّمها على روبي ويل.

في صباح اليوم التالي أيقظت جاك مكالمة هاتفية من توم. اتفق الاثنان على اللقاء للغداء في لاكوبول. حكى له جاك، وهما يشربان «الأبريتيف»، أنّ كلّ شيء يسير حسب ما هو مخطط ومرسوم، وأنّه لم يبقَ أمامه غير أن يطلب من سيلفيا آجيلوف أن تنزع سروالها. أمّا المطلوب الآن، لكي تواصل الأمور مسيرتها الطيبة، فهو إبعاد روبي عن باريس. وعد توم بأنّه سيتكفّل بالأمر.

- لنذهب الآن لتناول الطعام، لا أدري متى سأستطيع أن أعاود الجلوس إلى طاولة - وضع توم سيجارته بالقرب من منفضة السجائر-. لقد ظهر أورلوف.

انتظر جاك. إنّه يعلم أنّ توم لن يحكي له أكثر مما يستطيع أن يبوح به.

- إنّه في مونتريال، طلب فيزا للدخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية. حين مرّ بباريس اكتشف أنّنا نراقب السفارة الأمريكيّة فذهب إلى الكندية. إنّه يحمل جوازات سفر تفوق بعددها ما تحويه أيّة قنصلية، وهي جميعها صالحة...، أنا الذي وفّرتُها له.

- وكيف عرفوا أنّه في كندا؟

جاء النادل وطلبوا الأطباق.

- أورلوف هو أكبر ابن قحبة في العالم- كان صوت توم مزيجاً من الغضب والإعجاب-. ما إن وصل حتّى بعث برسالة إلى الرفيق ستالين، ومنها نسخة إلى يجوف، يعرض عليهما فيها صفقة: إن لم يتخذوا إجراءات انتقامية في حق والدته وحماته، اللتين تعيشان في الاتحاد السوفييتي، فلن يسلّم المخابرات الأمريكيّة إلّا قطعة صغيرة من اللحمة، وسيحتفظ باللحمة السمينة معه، وما أسمنها من لحمة! إنّ في مقدوره أن يفسد عمل سنين طويلة. أمّا إذا وقع مكروه لأيّة واحدة من هاتين المرأتين أو لزوجه أو لأولاده أو له شخصيّاً، فسيتكفل محام من طرفه بنشر كلّ ما يعرف، وهو مودع في مصرف من مصارف نيويورك.

- وماذا قالوا في موسكو؟ هل يعتقدون أنّه سيلتزم بالاتفاق؟

- لا أدري ماذا قالوا، لكنّي أظنّ أنّه سيلتزم به. هو يعلم أنّنا نستطيع أن نجعل حياة أمّه وحماته جحيماً، ونستطيع أن نجده أينما ذهب. عليك أن تعرف أنّنا، بسبب يجوف، فقدنا أكثر شياطيننا ذكاءً وحيلة. أظنّ أن بيريا سيبرم معه صفقة.

- وعمليات المكسيك؟

- العملية في الانتظار إلى أن تستقرّ الأمور. لقد طلب منّي الرفيق ستالين، في هذه الأثناء، أن أقيم في إسبانيا وأن أحاول إصلاح الفوضى التي خلّفها أورلوف.

- ماذا أفعل أنا إذن؟

- أنتَ ما زلت أملنا الأبيض الكبير. لعبة الشطرنج بدأت،

والافتتاحيات عادة ما تكون حاسمة... ولا تتكرر. أنتَ تحظى بكل ثقتي، جاك. اهتمّ بأمر سيلفيا. وسنتكفّل نحن بالبقيّة.

***

تطلّعت سيلفيا إلى جاك العاري، فحسبت أنّها تعيش قصّة من قصص الساحرات. إنّها تعلم أنّ تفكيرها سخيف وغير واقعي، مع ذلك، فليس لها أن ترى الأمر إلّا على ذلك النحو. فإن لم يكن ذلك الشاب، ابن أسرة الدبلوماسيين، المهذّب والمثقف والجميل والعاشق للحياة فارسها الأزرق وفتى أحلامها، فماذا عساه يكون؟ لقد حملتها العاطفة، التي أيقظ جاك بها نوابض شهوتها الصدئة، إلى مديات أبعد من كلّ حالات النشوة التي يمكن تصورها، بل لقد رضيت بشروطه في أن تمتنع عن الحديث معه في السياسة، ذلك الموضوع الوحيد الذي كان يشغل حياتها الحزبية الخالية من الحب.

إلى أيام التجوال في باريس والتنزه في شارتر وعلى ضفاف اللوار؛ وإلى نهاية الأسبوع في بروكسل، حيث أطلعها جاك على معاهد طفولته، وإن امتنع (بسبب وعكة عابرة ألمّت بسيلفيا) عن أخذها إلى منزل والديه؛ وإلى تفهم العاشق المطلق، الذي وافق على أخذها إلى «باربيزون» لتعاين، عند حافة غابة «فونتين بلو»، بيت «كير مونيك، الذي أقام فيه، قبل ثلاث سنوات مضت، مثلها الأعلى لييف دافيدوفيتش، أضيفت ليالٍ ذهبا فيها إلى أفخم المطاعم وأشهر المقاهي، حيث يلتئم شمل البوهيميين المثقفين الباريسيين (في مقهى فلور، أطلع جاك سيلفيا الشاردة على الطاولة التي كان يتحلق حولها للشرب والنقاش جان بول سارتر وألبير كامو وسيمون دي بوفوار وسواهم من الشباب الذين سموا أنفسهم بالوجوديين؛ وفي ملهي «الجيرنيز» أخذها للاستماع إلى إديت بياف على مسافة طاولتين من موريس شيفالييه)، أمّا في ساعات فجر فقد احتلت رجولة جاك مورنارد مركز حياتها، وحولتها، في أسابيع قليلة، إلى دمية تولد وتموت بإشارة من أصابع الرجل.

لكنّ أمراً واحداً ظلّ يشغل تفكير سيلفيا في تلك الأيام المجيدة. فمع وصولها إلى باريس منتصف تمّوز، حدث هرج ومرج في صفوف التروتسكيين بسبب اختفاء رودولف كليمنت، أحد مساعدي تروتسكي المقربين والسكرتير التنفيذي للأممية الشيوعية الرابعة التي خطط لعقدها. وبعث المنفي من المكسيك بخطاب احتجاج إلى الشرطة الفرنسيّة، ذكر فيها أنّ الرسالة التي أعلن فيها كليمنت تخلّيه عن الأممية وعن التروتسكية هي كذبة مكشوفة صنعتها المخابرات السوفييتية. ثمّ عثر، في السادس والعشرين من آب، على جثة كليمنت عند ضفة نهر «السين» مقطعة، فسقطت سيلفيا آجيلوف في حالة من الكآبة لم تخرج منها إلّا لحضور اجتماع مؤسسة الأممية التروتسكية، الذي عقد في «بيرنييه»، في ضواحي باريس، بصفة مترجمة.

نصح توم جاك، في واحدة من زياراته الخاطفة له، بأن يدعم سيلفيا عاطفيّاً وسياسيّاً، ليحكم سيطرته عليها.

- هناك مشكلة- قال جاك، وهو ينظر إلى مياه السين التي غسلت جثة كليمنت-. على سيلفيا أن تعود إلى مدرستها في تشرين الأول. هل أدعها تذهب أم أبقي عليها؟

- أورلوف في الولايات المتحدة، ويبدو أنّه سينفذ ما التزم به في الاتفاق. لكنّ بيريا أوقف العمليات الخاصة إلى حين التخلّص من يجوف. أظنّ أنّ من الأفضل أن تبقي عليها هنا وأن تعزّز موقعك. هل هذا صعب؟- ابتسم جاك وهو يهزّ رأسه بالنفي ويلقي بسيجارته إلى النهر-. ولكي تكون سيلفيا مطمئنة فسنحصل لها على عمل هنا. من الأفضل أن تظلّ مشغولة وأن تكسب بعض الفرنكات.

- لا تقلق، سيلفيا لن تسبب لنا أيّة مشاكل.

نظر توم إلى جاك مورنارد وابتسم.

- أنتَ بطلي... وتستحق قصّة أنا مدين لك بسردها منذ وقت. هل تريد كأساً من الفودكا؟

اخترقا ميدان «شاتليه» متجهين إلى شارع «ريفولي»، حيث أقام يهود بولونيون مطعماً متخصصاً في أطباق الكوشر الأوكرانية والبلروسيّة، يقدمها بكرم كفيل ببث الرعب في قلوب منافسيهم الفرنسيين. اقترح توم على جاك، وهو يشرب كأسه من الفودكا، أن يطلب له شراباً فوافق الشاب. وبعد أن تناول جرعتين قاتلتين، أشعل توم سجارة.

- ستحكي لي عن قصة عرجك؟

- وعن شيئين أو ثلاثة أشياء أخرى... العرج سببه أنّ جنديّاً قوزاقياً من جيش دينيكين الأبيض[116] ضربني بالسيف على بطة ساقي وقطّع أوتارها. حدث ذلك في عام 1920، حين كنتُ رئيساً للتشيكا [4] في باشكينا. قال الأطباء إنني لن أتمكن من المشي بعد الحادث، لكنّي شُفيت بعد ستة أشهر ولم يبقَ إلّا هذا العرج المتقطع الذي تراه... كنت قبل ذلك بعام قد تركت الحزب الاشتراكي الثوري وأصبحتُ عضواً في الحزب البلشفي، على الرغم من أنّني انخرطت منذ بداية الحرب الأهلية في الجيش الأحمر، دائماً على أمل أن ينقلوني إلى التشيكا. هل تدري لماذا؟ لأنّ أحد الأصدقاء الذين دخلوا إلى التشيكا أثار دهشتي بما رواه لي: فأعضاؤها كانوا سوط الربّ، لم يكن يحكمهم قانون، يعطونهم زوجين من الأحذية في السنة وسجائر وكيساً من المعلبات. بل كانت لديهم سيارات مخصصة لعملهم. حين بدأتُ العمل هناك رأيت أنّ ذلك كان حقيقة: كانوا يعطوننا صلاحيات مطلقة وأحذية جيدة! لكن لا تظنّ أن الارتقاء سهل هناك، ولا تنتظر منّي أنّ أحكي لك عن الأشياء التي فعلتها للحصول على ترقيتي الأولى والوصول بعد عام إلى تولّي رئاسة التشيكا في مدينة... حين انتهت الحرب نقلوني إلى موسكو لكي أدخل في المدرسة الحربية، وحين

116- دارت الحرب الأهلية الروسيّة (1917-1923) بين الجيش الأحمر، وهو جيش الثوّار البلاشفة، والجيش الأبيض المساند للحكم القيصري بقيادة أنطون دينيكين. وقد انتهت الحرب بانتصار الجيش الأحمر وتشتت المنهزمين في أنحاء أوروبا.

انتهيت منها استدعوني من قسم الأجانب. في عام 1926 عملتُ في الصين، مع شانج كاي شيك[117]. وحين وقع الانقلاب على الشيوعيين في شنغهاي، نكّلوا بالمستشارين السوفييت، وبدؤوا يقتلوننا كما تقتل الكلاب المسعورة. سجنوا رئيسي ميخائيل بورودين ورفاقاً آخرين، بتهمة «العداء للشعب الصيني»، وعذبوهم ليقتلوهم لاحقاً. لكنّي تمكنتُ من إنقاذهم وإخراجهم من البلد، ثمّ عدتُ إلى شنغهاي للحيلولة دون أن يقضي أولاد القحبة أولئك على جميع أعضاء القنصلية السوفييتية... وقد كلفني ذلك كثيراً. فقد ضربني رجال شانج كاي شيك حتى تركوني شبه ميت. تبّاً لهم!... وكان من حسن حظي أن انتشلني صديق صيني: سافرتُ على مدى اثنين وعشرين يوماً في عربة نقل، مغطى بالقش، إلى أن تركوني عند الحدود وأنا بين الحياة والموت... ومنحتُ ميدالية الراية الحمراء تقديراً لعملي في إنقاذ بورودين والآخرين... بالمناسبة، عليَّ أن أعيد الميدالية لأنّهم أعدموا بورودين للتوّ بعد أن اتهموه بأنّه «عدوّ للشعب السوفييتي»- ابتسم توم بحزن وعبّ كأس الفودكا-. وما إن تعافيتُ حتّى أرسلوني إلى هنا، لأبدأ مشواري في ما يبدو أنّه سيكون مكان عملي: الغرب. حينئذٍ وقع ما يمكنك أن تخمّنه...

- تعرّفتَ على كاريداد - قال رامون، الذي أضاع، في لحظة من لحظات الحوار، أثر جاك مورنارد.

- وجدتُها امرأة مختلفة. هي تكبرني بسبعة أعوام، وكان بادياً عليها أنّها ابنة ناس، مع أنّها تنفي ذلك وترفضه وتعيش عيشة البسطاء. راقت لي وبدأنا علاقتنا.

- التي ما زالت قائمة.

117- شانج كاي شيك (1887-1975). عسكري وسياسي صيني. قاتل الشيوعيين بقيادة ماو وهزم على الرغم من الدعم الأمريكي له مما اضطره إلى الانتقال إلى جزيرة تايوان وتأسيس ما عرف بالصين الوطنيّة.

- نعم. في ذلك الوقت كانت ضائعة، وإن كانت تتعاطف مع الشيوعيين من أتباع موريس توريز[118]. أنا كنتُ أعمل معهم...

- وبسببك انضمتْ إلى الحزب؟

- كانت ستنضمّ على أيّة حال. كاريداد كانت تحتاج إلى تغيير حياتها، وكانت تبحث بحماس عن أيديولوجيّة تستقطبها.

- وهل هي متعاونة أم إنّها تعمل معكم؟

- هي تتعاون معنا منذ عام 1930 لكنّها دخلت في الكادر عام 1934، كانت أول مهمة قامت بها في أستورياس، حين وقعت ثورة عمّال المناجم... هذا يوضّح لك الكثير من الأشياء التي قد لا تفهمها عنها.

هزّ الشاب رأسه موافقاً، وهو يحاول أن يراجع ذكريات معينة في تصرفات كاريداد.

- لذلك عادت إلى إسبانيا حين فازت الجبهة الشعبية. ولذلك هي هنا، في باريس... أم لأنّها عشيقتك؟

- في إسبانيا كانت تعمل لصالحنا وهي الآن هنا، لأنّها ستكون مفيدة لنا في هذه العملية ولأنّ الأمور هناك تسير من سيّئ إلى أسوأ... الجمهورية تسقط وتتفتت. في ظرف أيّام سيعرض نغرين على الألوية الدولية الخروج ليحدث بذلك صدمة. ما زال هو يعتقد أنّ بريطانيا العظمى وفرنسا تستطيعان دعمهم، وبأنّهم مع هذا الدعم يستطيعون كسب الحرب. لكنّ بريطانيا العظمى وفرنسا مرعوبتان وهما تتوددان لهتلر ولن تراهنا بقرش من أجلكم. اعذرني أنّني تطرقتُ إلى هذا الموضوع، لكن عليَّ أن أصارحك لكي لا تعلّق آمالاً وتتوهم أشياءً: هذه حرب خاسرة. لن تتمكنوا من المقاومة إلى أن تبدأ حرب أوروبيّة، كما يريد نغرين.

118- Maurice Thorez (1900-1964). سياسي فرنسي وسكرتير الحزب الشيوعي بين عامي 1930 و 1964.

- وأنتم؟ ألن تقدموا له المزيد من المساعدة؟

- ما عادت المشكلة مشكلة سلاح، وما عدنا قادرين على مواصلة التفريط بالسلاح. ستقطع أوروبا عنكم كلّ شيء، حتى الماء والملح. المعنويات داخل الجمهورية منهارة. وسينتهي كلّ شيء ما إن يقرر فرانكو الزحف على برشلونه...

أحسّ رامون بالصدق في كلمات توم. لكنّه لم يشأ أن يوفر له فرصة لزجره إذ جادله حول مستقبل بلاده. شعر بالثورة المعهودة فيه تعذبه، لكنّه فضّل أن يهاجمه من نقطة ضعيفة فيه.

- أنتَ لديكَ زوجة في موسكو، أليس كذلك؟

ابتسم توم.

- ليست واحدة بل اثنتين...

- وقد اخترتني لأنّي ابن كاريداد؟

صمت المستشار لثوانٍ.

- هل ستصدقني إن قلتُ لك إنّ مخطئ في ظنّك؟... منذ أن رأيتك لأوّل مرّة علمتُ أنّك شخص متميّز. منذ سنوات وأنا أرقبك... وقد توسمتُ فيك الخير على الدوام. لذلك حين تلقى أورلوف الأمر بالبحث عن إسبان مناسبين للعمل في عمليات سريّة، فكّرتُ في أنّك أفضل قطعة يمكن أن أقدمها. لكنّ شيئاً ما منعني من أن أكلّم أورلوف أو غيره عنك. وها أنا ذا أعرف السبب: لأنكَ أثمن من أن أسلّمك إلى أيّ كان...

ظلّ رامون حائراً بين أن يشعر بالفخر أم بالإهانة إذ اختير فحلَ استيلاد. ثمّ، وعلى الرغم مما قاله الرجل، إنّ شبح كاريداد ما زال يلقي بظلاله على تلك القصّة. مع ذلك فقد خفّف عنه معرفته بأنّه بات، بفضل ميزاته الشخصيّة، قريباً من مركز حدث كبير.

- زودني، إن استطعت، بمعلومات أخرى. فقط من باب العلم...

- كلما قلّ علمك كان أفضل.

- هل ستخبرني يوماً ما باسمك الحقيقي؟

ابتسم توم وانتهى من تناول واحدة من الشطائر التي قدموها له كمقبلات وشرب المزيد من الفودكا، وهو ينظر بتمعن إلى الشاب.

- ما هو الاسم، جاك؟ أم إنّك الآن رامون؟... تلك الكلاب التي تعجبك كثيراً لها أسماء، ثمّ ماذا؟ هي تظلّ كلاباً. أمس كان اسمي غريغورييف، وقبله كان اسمي كوتوف وأنا الآن أمامك توم وفي نيويورك روبريس. هل تدري كيف ينادونني في اللوبيانكا؟... ليونيدا أليكساندروفيتش. أطلقتُ على نفسي ذلك الاسم لكي لا يعرفوا اسمي الحقيقي، لأنّهم سيكتشفون أنّني يهودي، ونحن اليهود لا نصادف هوى في نفوس الكثيرين في روسيا... أنا نفسي وأنا غيري في كلّ لحظة. أنا الجميع وأنا لا أحد، لأنّي واحد، ضئيل، من بين كثيرين يمضون في النضال من أجل حلم. الشخص والاسم لا تعني شيئاً... انظر، هناك شيء مهم علّموني إياه حال دخولي في التشيكا: الرجل كائن قابل للتعويض والاستبدال. ليس الفرد وحدة وحيدة، غير متكررة، بل هو مفهوم يُضاف ليشكّل الكتلة. الكتلة نعم واقعيّة، أمّا الرجل، بصفته الفرديّة، فليس مقدساً، لذلك يمكن الاستغناء عنه. لذلك هاجمنا الأديان، وخصوصاً المسيحيّة، التي تردد تلك السخافة القائلة بأنّ الإنسان خلق على صورة الربّ. وذلك هو ما يسمح لنا بأن نكون قساة، وبأن ننزع من قلوبنا الشفقة التي هي مصدر كلّ رحمة: لا وجود للخطيئة. هل تعرف ما معنى ذلك؟... من الأفضل ألّا يكون لك ولا لي اسم حقيقي وأن ننسى أنّنا كان لنا اسم في وقت من الأوقات. إيفان، فيودور، ليونيد؟ إنّه الخراء نفسه، إنّه لا شيء. Nomina odiosa sunt[119]. ما يهمّ هو الحلم، لا الرجل، ولا الاسم، بالطبع. لا أحد مهم، كلنا يمكن الاستغناء عنّا... وإن استطعتَ أنتَ أن تلمس المجد الثوري، فستفعل ذلك من دون أن يكون لك اسم

119- عبارة لاتينيّة معناها: الأسماء مكروهة.

حقيقي. ربّما لن يكون لك اسم أبداً. لكنّك ستكون جزءاً رائعاً من أعظم حلم تطلعت إليه الإنسانيّة- ورفع كأس الفودكا وتناول نخباً-: في صحّة من لا يملكون اسماً!

***

ما إن فتح الباب حتّى تملكه إحساس بأنّ مصيبة قد وقعت. فكّر في مكروه وقع للشاب لويس؛ وظنّ أنّ أمراً ربّما صدر بإلغاء العمليّة، أو ربّما بإلغاء جاك مورنارد. منذ ستة أشهر وهو لا يرى كاريداد، وقد استمتع ببعدها عنه. لم يشعر بالاطمئنان إلّا حين ابتسمت له كاريداد ابتسامة من تناول العشاء معه في الليلة البارحة. وضعت السيجارة في زاوية فمها، بينما راحت تتطلع إلى صدره العاري الذي استحمّ قبل قليل.

- ما أقلّ ما تعتني بجمالك!- قالت بالكاتلان، وهي تداعب ثدي ولدها، المتدثر بمنشفة الحمام، ثمّ دخلت إلى الشقّة.

سرت قشعريرة في بدن رامون فأبعد يدها الدافئة، بكلّ التهذيب الذي سمح له به غضبه وضعفه.

- ما الذي أتى بكِ؟ ألم نتفق على ألّا...؟- تكلّم هو أيضاً بالكاتلان من دون تفكّر.

- هو أرسلني. أنا أعلم خيراً منك ما يمكن وما لا يمكن فعله.

كانت كاريداد قد تغيّرت في الأشهر التي مرّت منذ لقائهما اليتيم في باريس. بدت وكأنها أدارت ظهرها للماضي ودفنت صورة المحاربة الجمهوريّة، المرأة المسترجلة التي كانت تطوف برشلونه وهي تحمل السلاح، والتي كانت ما تزال تحمل تلك الصورة حين وصلت إلى باريس، على الرغم من الملابس الضيقة وحذاء جلد التمساح. وها هي الآن تلبس ملابس أنيقة غير رسمية مما تلبسه إحدى النساء البرجوازيات البوهيميات. صار شعرها فاتح اللون، وصار لتموجاته أشكال دقيقة؛ وصارت تضع المكياج على وجهها، وتطيل أظافرها، وتنبعث منها

رائحة عطور غالية الثمن. عادت إلى انتعال الحذاء ذي الكعب العالي، بل صارت تدخّن بحركات مختلفة. كان يمكن لجاك أن يرى في كاريداد هذه آخر بريق من كاريداد التي عرفها رامون من سنوات طويلة، قبل السقوط الذي أدّى بها إلى الكآبة ومحاولة الانتحار.

- كيف تسير أمورك مع سحليتك التروتسكيّة؟ - واصلت كلامها بالكاتلان، وهي تنزع شال الحرير الذي يغطي رقبتها وكتفيها. جلست بحركات موزونة على إحدى الكنبات الجلديّة، مقابل النافذة التي تشاهد عبر زجاجها كؤوس الأشجار الحمر في جادة «راسبيل».

- كما يرام - قال ودخل في الغرفة يبحث عن روبه الساتان.

- اعملْ قهوة، من فضلك.

لم يردّ عليها، بل توجه إلى المطبخ ليحضّرها.

- ماذا يريد توم؟- سأل وهو في المطبخ.

- توم سيبقى في إسبانيا وقد طلب منّي...

- وماذا عن جورج؟

- جورج في موسكو.

- هل أرسل يجوف في طلبه؟ - أطلّ رامون على الصالون ورأى كاريداد تضع سيجارة في يد والولاعة في يد أخرى، وتركز نظرها في النافذة وكأنّها تتكلم مع زجاجها.

- لن يرسل يجوف في طلب أحد بعد الآن. لقد أزاحوه عن اللعبة. من يأمر الآن هو بيريا.

- متى حدث هذا؟ - تقدم رامون باتجاه الصالون، وكان انتباهه موزعاً بين القهوة التي على النار والأخبار التي جاءت بها كاريداد.

- من أسبوع. طلب منّي توم أن آتيك لأخبرك بذلك، لأنّ الأمور قد تتحرك في أيّة لحظة. ما إن ينتهي بيريا من تنظيف قذارة يجوف ويصل أمر الرفيق ستالين، سنتحرك. وحين يعود مينك سنعرف المزيد...

أحسّ رامون بعضلاته تشتدّ وتتصلّب. إنّه أفضل خبر يمكن أن يسمعه.

- هل أخبروك بشيء عن أورلوف؟

- هو في واشنطن يغنّي كمغنيات الكاباريه. ما زال يشكل خطراً على الكثير من الخطط، لكن ليس على خطتنا. المهم أننا لم نُخرج الرفاق الآخرين من المكسيك بسببه.

- الإسبان؟

أشعلت كاريداد السيجارة قبل أن تردّ.

- نعم. فمع يجوف سقط جميع من كانوا مكلفين بشبكة نيويورك والمكسيك. كارثة...

حاول رامون ميركادير أن يجد له مكاناً في أحجية الخيانات وعمليات الهروب والصراعات والأخطار الحقيقية أو الموهومة الجديدة، لكنّه شعر، كالعادة، بأنّه ضائع. لقد كانت الأسباب الأخيرة التي تقف وراء قرارات موسكو كثيرة التشابك والتعقيد، بل قد لا يستطيع حتى توم معرفة كلّ خبايا مطاردات الصيد تلك، فهو يكتفي بالتأكيد على أنّ خير علاج للخيانة وأفضل سبيل للبقاء بعيداً عنها هو التكتم. لكنّه رأى، في خليط التوترات ذلك، وبوضوح أكبر، ما وصفه معلمه بارتفاع قيمة الأسهم. كان إحساساً متناقضاً: خوف من المسؤولية مع فرح بقرب موعد المهمة العظيمة. رفع القهوة عن النار واستعد لتقديمها.

- وتوم؟ هل سيظلّ في إسبانيا؟ - سأل بالفرنسيّة.

- في الوقت الحاضر نعم- واصلت الكلام هي بالكاتلانية-. ليس هناك الكثير مما يفعله، لكنّ عليه أن يبقى حتّى النهاية. نغرين مستاء منه، لكنّه لا يستطيع أن يعيش من دونه... الجيش الجمهوري يواصل تقهقره. لقد ضاعت إسبانيا، رامون.

- لا تقولي ذلك، تبّاً!- صرخ، مرة ثانية بالفرنسيّة، وانسكبت القهوة على أحد الصحون-. ولا تتحدثي بالكاتلانية!

لم تتفوّه كاريداد بشيء وانتظر هو أن يهدأ. إنّه لا يعرف إن كان سبب ما به هي أخبار إسبانيا والقلق الذي تضيفه حول مصير لويس، الذي عبر الحدود من أسابيع ليلتحق بالجيش الجمهوري، أم هو إلحاح الأم الشرير في نبش الماضي وطمس صورة جاك مورنارد. انتهى من صبّ القهوة ودخل إلى الصالون وهو يحمل الفناجين في صينية. جلس قبالتها، وهو يحرص على ألّا تنفتح عرى رداء الحمام الذي يرتديه.

- وما هو رأي توم في ما سيحدث؟

- أنصار فرانكو يتجهون إلى كتالونيا- أجابت، هذه المرّة بالإسبانية-، وهو يرى أن ليس في الإمكان إيقافهم. حين وقّع هؤلاء الفرنسيون المخنثون وأولئك الإنكليز القذرون ذلك الاتفاق مع هتلر وموسوليني، لم يخوزقوا جيكوسلوفاكيا فحسب، بل خوزقونا نحن أيضاً؛ ما عاد في مقدور أحد أن يساعدنا... لقد وضعنا على الخازوق! أؤكّد لك أنّنا وضعنا على الخازوق...

- وماذا سيفعل السوفييت؟

- لا يمكنهم فعل شيء. إن هم حشروا أنفسهم في إسبانيا فستندلع حرب ستكون فيها نهاية الاتحاد السوفييتي...

استمع رامون إلى كاريداد. كان، بصورة من الصور، متفقاً معها، لكنّه كان متألماً من رؤية السوفييت وهم ينكصون، بينما يبتلع هتلر جيكوسلوفاكيا ويزيد من دعمه لفرانكو. ربّما كان تكتيك السوفييت بالتضحية بالجمهوريّة هو الوحيد الممكن، لكنّه مع ذلك قاسٍ. لقد سلّم الحزب، على الأقل، به، بل إنّ لاباسيوناريا [46] قالت إنّ الجمهورية ستضيع إن كان لها أن تضيع: أمّا ما لا يمكن التضحية به فهو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيّة، وطن الشيوعيين العظيم... لكن، ما سيكون مصير أولئك الرجال، الشيوعيين أو الجمهوريين، الذين قاتلوا وأطاعوا واعتقدوا، طوال سنتين ونصف، من أجل لاشيء؟ هل سيُتركون لرحمة أتباع فرانكو؟ ما الذي سيحدث للكاتلان حين يستولي

فرانكو على برشلونه؟ أين يقاتل الآن لويس؟ فضّل رامون ألّا يسأل بصوت عالٍ. لاحظ أنّ كاريداد انتهت من قهوتها وأعادت الفنجان إلى الصينية، فتناول فنجانه وشرب قهوته باردة.

- توم لا يريد أن أتكلّم عن إسبانيا. فجاك لا تهمه إسبانيا - حاول أن يثوب إلى نفسه.

- جاك يقرأ الصحف، أليس كذلك؟ وماذا سيقول لخطيبته التروتسكية حين تخبره بأنّ ستالين سيتحالف مع هتلر، كما فعل الفرنسيون والإنكليز؟ لأنّ هذا هو ما تكتبه تلك السحلية المرتدة في جريدتها القذرة.

- سيقول لها الشيء نفسه: أن تغيّر الموضوع، فتلك ليست مشكلته.

نظرت إليه كاريداد تلك النظرة الخضراء الواخزة التي طالما كان يخشاها.

- انتبه. هذه المرأة متعصبة، وتروتسكي هو معبودها.

ابتسم جاك. فلديه ورقة تكسبه لعبته مع كاريداد.

- أنتِ على خطأ. أنا معبودها، أمّا تروتسكي فربما هو نبيّها.

- صرتَ ساخراً ودقيقاً، أيها الولد- قالت وهي مبتسمة.

نهضت كاريداد وراحت تضع الشال على كتفيها. شعر رامون بالرغبة في أن تبقى قدر رغبته في أن تنصرف. كان الكلام بالكاتالان عنده بمثابة الدخول إلى ناحية مغلقة منه، ما كان راغباً في دخولها، على الرغم من أنّ تلك الناحية، وقد دخلها، ولّدت فيه شعوراً مريحاً بالانتماء. ثمّ إنّه كان يعلم أنّها على اتصال بمونتسي ومع الصغير لويس، وربّما تعرف شيئاً عن أفريكا. لكنّه الآن لا يستطيع أن ينحني أمامها ليظهر ضعفه: كانت تلك هي المرة الأولى التي يحسّ بنفسه متفوقاً عليها، وما كان له أن يهدر ذلك الإحساس.

تركته زيارة كاريداد مسكوناً بالترقب للأوامر التي قد ترد من موسكو، لكنّها تركته أيضاً وفي فمه طعم المرارة أمام المصير المحتوم الذي ينتظر

الحلم الجمهوري، وهو ما لا يستطيع جاك مورنارد، مهما فعل، أن يبعده عن ذهن رامون ميركادير. لذلك تحتّم عليه، في ذلك العصر من بدايات كانون الأول، أن يلوذ بأقصى درجات الانضباط ليُغرق، في أعماق أعماقه، مشاعر رامون حين طلبت منه سيلفيا أن يرافقها لزيارة بعض الرفاق الأمريكان الذين قاتلوا في إسبانيا ضمن قوات الألوية الدوليّة التي أجلتها حكومة الجمهورية، وكانوا موجودين في باريس.

- وما علاقتي أنا بهؤلاء الناس؟ - قال، وقد أظهر انزعاجه من الاقتراح.

حاولت سيلفيا، وهي بين شعور بالاستغراب والإهانة، إقناعه.

- هؤلاء الناس كانوا يقاتلون فرانكو، جاك. صحيح أنّ كثيراً من الأفكار لا تجمعني ببعضهم، لكنّني أكنّ لهم كلّ تقدير وإعجاب. أكثرهم ما كانوا يجيدون حتّى قواعد المسير حين ذهبوا إلى إسبانيا، مع ذلك فقد قاتلوا نيابة عنّا جميعاً.

- أنا لم أطلب منهم أن يقاتلوا نيابة عنّي- قال.

- وهم أيضاً لم يطلبوا منك شيئاً. لكنّهم يعلمون أنّ أموراً كثيرة يتقرر مصيرها في إسبانيا، وأنّ ظهور الفاشيّة هي مشكلة بالنسبة إلى الجميع، وبالنسبة لك أيضاً.

حلّ الشتاء قبل موعده، وكانت الريح باردة. أخذها جاك من ذراعها وأدخلها إلى مقهى. جلسا عند طاولة مركونة، وقبل أن يقترب النادل منهما، صرخ جاك:

- فنجانا قهوة! - ونظر إلى سيلفيا-. على ماذا اتفقنا؟

نزعت الفتاة نظارتها، التي غبشها تغيّر درجة الحرارة، ومسحت زجاجها بحافة ردائها. في تلك اللحظة اكتشف جاك أنّه يشعر بالخوف من نفسه: كيف لها أن تكون قبيحة وغبية وبلهاء إلى حدّ أن تقول له هو علامَ يقاتل كلّ واحد وبالنيابة عن من؟ كم سيقوى على الصمود إلى جانب كائن كان يثير تقززه في تلك اللحظة؟

– أنا متأسفة، حبيبي. لم أرد...
– لا يبدو ذلك.
– حقيقة إنّ الأمر مهم. في إسبانيا يتقرر الكثير، وستالين يترك هتلر والفاشيين يظفرون ببغيتهم ثانية. ستالين لم يرد قط ولم يسمح بأن يحقق الإسبان الثورة التي كانت ستنقذهم و...
– عمّ تتكلمين؟ – سأل جاك، واكتشف في الحال أنّه ارتكب خطأ.
جاك لا يمكن أن يكون مهتمّاً بما تقوله سيلفيا. عليه أن يستردّ السيطرة على نفسه. لن تنال منه لا تلك التهم الباطلة ولا دمامة سيلفيا. قدموا لهما القهوة وساعده التوقف على أن يستردّ رباطة جأشه.
– سيلفيا، إن شئتِ، يمكنك الذهاب وحدك لزيارة منقذي الإنسانية هؤلاء والحديث معهم عن ستالين وعن حبيبك تروتسكي. أنتِ حرّة وهذا من حقك. لكن لا تحشريني في الموضوع. الأمر لا يعنيني. هل لك أن تفهمي ما أقوله ولمرة واحدة؟
انطوت المرأة على نفسها وغرقت في صمت طويل؛ أخذ هو رشفة من قهوته. قبل شهرين، وقع أوّل جدل حاد بين الشريكين بسبب رغبة سيلفيا المنفلتة وإصرارها على الحديث عن السياسة. كان جاك في ذلك المساء قد رافقها إلى بيت ألفريد روسمر، في بيرنييه، لتشارك بصفة سكرتيرة في الاجتماع الذي شهد، حسب ما قالت هي، إجهاض الأممية التروتسكيّة أكثر ممّا شهد ولادتها. وبينما كانا عائدين إلى باريس، بعد أن أجبرها على أن تعده بألّا تتطرق مرة أخرى إلى تلك المواضيع، انتهز جاك المناسبة ليقنعها بالعدول عن فكرة العودة إلى نيويورك بداية السنة الدراسية الجديدة، وليوحي لها – كان ذلك من قبل وضع حبل على عنقها– بإمكانية أن يرتبط بها رسمياً. لكنّ شغفها السياسي عاد فخانها فقالت له، وهي تخشى ردّة فعل حبيبها:
– نعم، حبيبي. أشكر لك أن تسمح لي بالسفر. لكن إن لم تشأ ذلك فسأبقى.

ابتسم جاك. فقد عادت المياه إلى مستواها. لقد تعزّزت سيطرته وأدرك أنّ في مقدوره أن يكون قاسياً صارماً مع تلك المخلوقة الضعيفة. وكان ذلك مبعث راحة له ورضا. في تلك العلاقة تبيّن له عنصر من عناصره الخبيثة، واكتشف اللذة التي يولّدها فيه إخضاع الإرادات وإثارة الخوف وممارسة السلطة على أشخاص آخرين إلى حدّ إجبارهم على أن يزحفوا أمامه. هل سيرى اليوم الذي يمارس فيه تلك القدرة على كاريداد؟ فكّر وقال لنفسه، مع أنّه لا يحمل اسماً ولا يعرف له وطناً، فهو رجل يمتلك الكراهية والإيمان والسلطة، وسيستخدمها كلّما وجد ذلك ضروريّاً.

- بالطبع أريد أن تسافري، إن كان ذلك يرضيك- قال راضياً كريماً-. عليَّ أن أشتري لوالديّ بعض الهدايا بمناسبة أعياد الميلاد. ماذا تريدين أن أهديك؟

زال التوتر عن سيلفيا. نظرت إليه وفي عينيها الحاسرتي البصر مزيج من الشكر والحب.

- لا تقلق بشأني، عزيزي.

- سأرى بماذا سأفاجئك - قال وأخذ يدها الموضوعة على الطاولة وأجبرها على الاقتراب منه ليطبع على شفتيها قبلة.

شعر جاك بها تهتزّ من التأثر، فحدّث نفسه بأنّ عليه أن يترفّق بها: فقد يقتلها ذات يوم بجرعة زائدة.

***

بعد أقل من سنتين أدرك رامون ميركادير أنّ اختبارات القوة النفسيّة التي خضع لها خلال الأسابيع المُرّة الأخيرة من عام 1938 والأولى من عام 1939 لم تكن غير تمرين أولي للتجارب التي مرّ بها في أصعب لحظات حياته، والتي بذل فيها آخر جزيئة من قدرته على المقاومة للحيلولة دون أن يضعف وينهار.

ومع أنّ الأخبار التي كانت ترد من إسبانيا، على امتداد شهر كانون

الأول، كانت ترسم حدود الكارثة وحجمها، فقد تمكن جاك مورنارد من الحفاظ على صورة الشخص المبتعد عن السياسة الزاهد فيها. رفض بعنف أكبر أن يجري أمامه أيّ نقاش في السياسة، بل لقد غادر مرّة اجتماعاً أصرّ المشاركون فيه على الخوض في تلك المواضيع الممجوجة الغبيّة حول الحرب والفاشية والسياسة الفرنسيّة.

أمّا في وحدة شقته، فقد كان يقرأ كلّ المقالات الصحفيّة التي تلقي بشيء من الضوء على الوضع في إسبانيا، ويستمع إلى نشرات الأخبار في الراديو وكأنّه يبحث عن بصيص من الأمل وسط العتمة. كان كلّ خبر من تلك الأخبار بمثابة طعنة سكين في قلب أحلامه. لذلك كان يطلق العنان لغضبه الكظيم ولشعوره بالعجز، يلعن ويركل الأثاث ويقسم على الانتقام. كان فيض المشاعر ذاك يتركه متعباً منهكاً، ويكشف له عن ضعف جاك مورنارد أمام أهواء رامون وعواطفه، لكنّه كان يعزّز احتقاره لكلّ ما تنبعث منه رائحة الفاشية والبرجوازيّة وخيانة أفكار البروليتاريا. وتحوّلت رغباته الدفينة في أن يتقمّص جلد أخيه لويس، الذي يواصل القتال مع فلول الجيش الشعبي، وسط الفوضى ووسط حقارة الساسة الإسبان، إلى هوس في نفسه، وأقسم أنّه سيكون شديداً على الأعداء، حين تحين ساعة الانتقام منهم، وسينزع عن قلبه كلّ رحمة، تماماً كما يفعل أعداء حلمه الآن، وهم يحاولون وأد الأمل في تأسيس عالم أكثر عدلاً وإنصافاً.

كان غياب الأخبار عن توم يضيف إلى شكوكه شكوكاً. إنّه يخشى على المستشار، الميّال إلى المغامرة والوصول بالأمور إلى مدياتها. فهم إن قتلوه أو أسروه في إسبانيا فكلّ جهد قاموا به وكلّ تخطيط خططوه سيصبح هباءً منثوراً، كما حدث لخطوط عمليات أخرى. وكان يثير قلقه أيضاً قرب انتهاء الموعد المقرر لعودة سيلفيا، فعلى الفتاة أن تلتحق بعملها في الأسبوع الثاني من شباط، وقد حددت اليوم الأول منه تاريخاً لسفرها. ومع علم جاك بأنّ قليلاً من الضغط كفيل بجعلها تعدل عمّا خططت، فقد

شعر بأنّ بقاءها معه لوقت أطول سيكلفه جهداً لم يكن مستعدّاً له، وكان يخشى أن الليونة المفرطة في تلك المرأة قد تجعله ينفجر في أيّة لحظة.

حمل ظهور جورج مينك في الأسبوع الثاني من يناير شيئاً من الارتياح لجاك مورنارد. ضرب له موعداً للقاء في مقبرة «مونت بارناس» ففكّر جاك أنّه لن يفهم السوفييت فهماً كاملاً: لقد سقط الثلج في الليلة الماضية بلا توقف ولا شكّ أنّ يوم اللقاء سيكون أشدّ أيام ذلك الشتاء برداً.

تذكر أنّ مينك ينتظره عند قبر الأمير «آشيري»، دوق «سان دونينو»، ومدام «فييز»، في القسم السابع من شارع الغرب. شكّل الثلج طبقة من الجليد المتراكم التي يجب السير عليها بحذر. المقبرة فارغة، كما هو متوقع. حين شخّص جاك صورة مينك المظلمة وسط المنظر الأبيض، محاطاً بالأسدين اللذين يميزان ضريح الأمير، فكّر أن لا شيء يمكن أن يكون أكثر إثارة للريبة من لقاء في المقبرة ساعة سقوط الثلج.

- صباح الخير، صديقي جاك

- خير؟ ألا تتمنّى أن تشرب قهوة في مكان دافئ؟

- أنا مفتون بالمقابر، أتدري؟ منذ سنوات وأنا أعيش في عالم لا تعرف فيه هوية أحد، ولا ماهية الحقيقة، ولا ماهية الكذب، بل لا تعرف فيه متى ستكون حيّاً... أمّا هنا فأنت، على الأقل، تشعر بأنّك محاط بحقيقة عظيمة، بالحقيقة الأعظم، ثمّ إنّ البرد هذا اليوم ليس برداً، أقصد ليس برداً حقيقيّاً...

- من فضلك، جورج. هل من الضروري أن يكون اللقاء هنا؟

- هل تعلم أنّ تروتسكي ونتاليا سيدوفا، بعد أن تعارفا، كانا يأتيان إلى هنا ليقرآ شعر بودلير أمام قبره؟

- مع هذا البرد؟

- قبر بودلير هناك. أتريد أن تشاهده؟

غادرا المقبرة المتجمدة وسارا حتّى ميدان «دنفير روشيرو»، حيث

تناول جاك القهوة ذات مرّة. ظلّ جاك مرتدياً معطفه حتى وهو داخل المحل الذي اختاروه، فالبرد الذي يشعر به الآن ينطلق من داخله.

كان مينك قد عاد قبل أربعة أيام، محمّلاً بالأوامر التي سلّمها إليه بيريا شخصيّاً. في السفارة بباريس لديهم أيضاً توجيهات أرسلها توم من إسبانيا.

– ماذا تعرف عن توم. الفرنسيون يهددون بإغلاق الحدود.

– هذه ليست مشكلة بالنسبة إلى توم. هو دائماً يخرج.

– وما هي الأوامر؟ وماذا عليَّ أن أفعل؟ هل على سيلفيا أن تسافر؟

– دعها ترحل. ولكن بحلقة في أنفها. عِدها بالزواج.

تنفس جاك الصعداء وهو يسمع ذلك التفويض.

– وماذا أقول لها؟ سأذهب أنا لزيارتها أم ستأتي هي في الصيف...؟

– لا تقل لها شيئاً. قل لها إنّك ستبلغها بقرارك في رسالة. فأوامر موسكو قد تصل غداً أو بعد ستة أشهر، ويجب الاستعداد لتلك اللحظة. حين يعود توم سينظم الأمور. بيريا يريد أن يتفرغ لهذه المهمّة منذ هذه اللحظة. إنّها أوامر ستالين. على فكرة، لقد وضع ستالين بنفسه اسماً للعمليّة: أوتكا.

– أوتكا؟

– معناها «ذكر البط»... وأيّ أسلوب لصيده سيكون جيداً: دسّ السم في طعامه أو في شرابه، نسف البيت أو تفجير السيارة، خنق، طعنة في الظهر، ضربة على الرأس، رصاصة في العنق – أخذ مينك نفساً واختتم كلامه–: بل لم يستبعد حتى هجوم مجموعة مسلحة أو إلقاء قنبلة.

سأل جاك نفسه عن المربع الذي سيشغله هو في تلك اللوحة. كان واضحاً أنّ شيئاً ما بدأ أخيراً بالتشكّل، وإن لم يكن يدرك أسباب البطء الذي تسير عليه العملية.

– ماذا قال الناس في موسكو حين أطيح بيجوف؟

ابتسم مينك وتناول شايه.

- لا شيء. في موسكو لا أحد يتكلم عن هذه الأمور. فالناس يخافون من يجوف ولن يتعافوا منه إلّا بعد وقت طويل.

نظر جاك صوب الميدان. إنّه يتكاسل عن الخوض في البرد ليعود إلى شقته، حيث تنتظره سيلفيا. شعر بأنّه في حاجة إلى فعل ما. أين عسى أفريكا تكون في تلك اللحظة؟ وماذا عسى أخوه لويس يفعل؟ وفي أيّة مغامرة انغمس توم؟ ليس لديه من خيار غير الانتظار، ولعب لعبة العاشق الذي لا يريد لمحبوبته أن تفارقه.

- متى نلتقي ثانية؟

- إن لم يجدّ جديد فسنلتقي حين يعود توم. إن عنّ لك سؤال تسألنيه، فاذهب إلى المقبرة وستجدني هناك. أنا دائماً أذهب إلى المقبرة.

في الأيام التي سبقت رحيل سيلفيا، تصرّف جاك تصرفاً كان سيثير إعجاب شيشرون وخوسيفينو، أستاذيه في «مالاخوفكا». لقد تغلّب على فتور همته ورغبته في الابتعاد عن تلك التمثيلية، واستثمر على خير وجه شعوره بالراحة من قرب تخلّصه من تلك المرأة، فانغمس في إظهار اهتمامه بها: أغرقها بالهدايا لها ولأخواتها، وأكرمها إذ ضاجعها كلّ ليلة، لتعود إلى نيويورك منتشية راضية. لقد أنجز جاك عمله وأدّى واجبه وشعر بالسعادة إذ استردّ حريته.

مع ذلك، فما كانت تصله من إسبانيا غير حشرجات الحرب المؤلمة. بدا أنّ فصل الحرب الأخير سيكون سقوط برشلونه، وملأته التقارير التي تحدثت عن دخول فرانكو إلى المدينة دخول المنتصر قلبه بالمرارة. في نهاية كانون الأول صارت الصحف الفرنسية تشير، بدرجات متفاوتة من التحذير، إلى خبر تسابق مجاميع المقاتلين والضباط والسياسيين والناس اليائسين والخائفين من الأعمال الانتقاميّة لعبور الحدود. صار الحديث يدور عن مئات الآلاف من الأشخاص الجائعين والمعدمين، الذين يتجاوزون قدرات قوات حفظ الأمن اللوجستيّة وقدرة الفرنسيين

على استيعابهم. وراهن بعض السياسيين الفرنسيين، في قمّة استخفافهم واستهتارهم، على أنّ مساعدة الإسبان على كسب الحرب ربّما تكون أجدى من استقبالهم وإطعامهم وإكسائهم، الله أعلم إلى متى. وأطلقت صحف اليمين، في تلك الأثناء، صرخة الحلّ: أرسلوهم إلى المستعمرات. ما يحتاجه هؤلاء وأمثالهم هو أن يرسلوا إلى غوايانا وإلى الكونغو وإلى السنغال.

شعر جاك مورنارد، وقد اهتزّت فيه عاطفة رامون، بالحاجة إلى كسر جموده، وإن كان الثمن خروجَه عن الانضباط. كان يعلم مدى خطورة عصيانه الأوامر الصارمة في أن يبقى بعيداً عن كلّ ما تشمّ منه رائحة إسبانيا، لكنّ احتدام مشاعره ويأسه تمكنا منه. ثمّ إنّ توم غائب، وحتّى لو كان موجوداً، فأنّى له أن يعرف: في السادس من شباط أخذ سيارته وحمل آلات تصويره وأوراقه التعريفية الخاصة بالصحفي واتجه نحو لوبرتوو، النقطة الحدودية التي تجمّع فيها أكبر حشد من اللاجئين.

عند انتصاف نهار الثامن من شباط، تمكن الصحفي البلجيكي جاك مورنارد من الوصول إلى أقرب نقطة من الحدود، بعد أن سمح له ضباط الجيش والشرطة الفرنسية بالوصول إليها، فتلقته هناك رائحة الهزيمة القاتلة. تحقق، وهو على التلّة التي صعدها المراسلون الصحفيون، من أنّ أيّاً من الأشخاص الذين دخلوا الأراضي الفرنسية، يقودهم، كما يقاد القطيع، الجنود السنغاليون، المكلفون بمراقبة اللاجئين والسيطرة عليهم، لن يستطيع التعرّف عليه. كان المشهد أشدّ هولاً ممّا كانت مخيلته تسمح له بتصوره. طوفان بشري، تكسوه أغطية بالية، يسافر بسيارات قليلة، أو معلّق بعربات تجرها الخيول الجائعة، أو على الأقدام، يجرون وراءهم حقائب وأكداس يحفظون فيها كلّ ما اقتنوه طوال حياتهم، يقبلون بصمت أوامر لا يفهمونها، تصدر صراخاً بالفرنسيّة مشفوعة بإشارات آمرة وهراوات مهددة. إنّهم ناس أجبروا على نزوح حجمه من حجم سفر النزوح، مدفوعين ببحثهم عن البقاء على قيد الحياة، كائنات محملة

بقائمة طويلة من خيبات الأمل والخسارات البادية على نظراتهم التي اختفت منها حتّى الكرامة. كان جاك يعلم أنّ الكثير من أولئك الرجال والنساء همّ من رقص وغنّى لانتصارات الجمهوريين، وهم من وقفوا، لسبب أو لآخر، خلف المتاريس التي أقيمت في برشلونه، هم أنفسهم الذين حلموا بالنصر وبالثورة وبالديموقراطية وبالعدالة، ومارسوا، في مناسبات كثيرة، العنف الثوري بلا رحمة. وها هي الهزيمة تنزلهم منزلة المنبوذين، من دون حلم يتشبثون به. كان الكثيرون منهم يرتدون ملابس الجيش الشعبي ويمتثلون بصمت، بعد تسليم سلاحهم، لأوامر السنغاليين «تراجعوا إلى الخلف! إلى الخلف! يردد الأفارقة، بالسلطة القليلة التي يتمتعون بها»، دونما حرص على أدنى قدر من التماسك حيال الكارثة. أخبر مراسل بريطاني، كان قد وصل مؤخراً من فيغيريس، جاك بأنّ أغلب الأطفال الذين يفرّون من إسبانيا مصابون بالتهاب الرئة، وأن الكثيرين منهم سيموتون إن لم يتلقّوا رعاية طبية عاجلة. لكنّ الفرنسيين لم يكونوا معنيين إلَّا بمصادرة السلاح واقتياد اللاجئين، كباراً وصغاراً، إلى معسكرات، محاطة بأسلاك شائكة، حيث يتركونهم إلى أن يتقرر مصير كلّ واحد منهم. راح شعوره بالاختناق يسيطر عليه، ولم تفاجئه دموعه وهي تضبب نظره. استدار وابتعد محاولاً استعادة هدوئه. فكّر، حاول التفكير، أجبر نفسه على التفكير في أنّ تلك الهزيمة كانت متوقعة، لكنّها ليست نهاية المطاف. الثورات يجب أن تتقبل الهزيمة وتستوعب الانكسار وتستعد للهجوم القادم. إنّ تضحية أولئك الناس المستضعفين، وتضحية من ماتوا- كما هو أخوه بابلو- أثناء تلك السنوات الثلاث تقريباً من الحرب، ما هي إلَّا قربان بسيط على مذبح تاريخ سينصفهم في النهاية بنصر مجيد تحوزه البروليتاريا العالمية. فالمستقبل والنضال هما الأمل الوحيد في لحظة الإحباط تلك. لكنّه اكتشف أنّ الشعارات لم تخفف عنه، وأنّ جاك مورنارد قد انزوى، منذ لحظة لا يمكنه تحديدها من تلك الأمسية المؤلمة، في ركن من وعيه، ليعود هو، بكماله وعمقه، رامون ميركادير دل ريّو، الشيوعي الإسباني. روّحت عنه معرفته بأنّ رامون

هذا مكلّف بمهمة نبيلة عليه تنفيذها في ذلك العالم الظالم، الموزّع بين ثوريين وفاشيين، بين مستغَلين ومستغِلين، وبأن مشاهد كتلك، ما كانت لتفتّ في عضده، بل يجب أن تمدّه بأسباب القوة: راحت كراهيته تشتدّ وتتسع. أنا رامون ميركادير، وأنا مسكون بالكراهية!، صرخ في داخله. وحين التفت، لينظر، وللمرة الأخيرة، إلى الوجه البشع لكارثة تدعم قناعاته، شعر بكامراته تتحرك، وتذكر أنّ جاك مورنارد الأحمق نسي أن يلتقط صورة واحدة للسفينة الغارقة. في تلك اللحظة صدرت كلمات تفوّه بها، باشمئزاز تقريباً، صحفي فرنسي. كلمات ستغيّر له طريقته في الابتسام:

- يا للعار! لم يستطيعوا كسب الحرب فجاؤوا للاختباء هنا!

كانت الضربة التي سددها رامون إلى الفرنسي من القوّة أنّه أطاح بأربع من أسنانه، سقطت اثنتان منها على الأرض الرطبة، بينما ابتلع المسكين الاثنتين الأخريين. سيظلّ ذلك الصحفي طوال حياته يسأل نفسه عن الشيء الفظيع الذي تفوّه به ليثير حفيظة ذلك الثور الهائج الذي سرعان ما تبخّر واختفى مثل نفخة ريح.

-18-

أيّة معركة من المعارك الكثيرة التي خاضها كانت، على ما يذكر، هي الأشرس؟ أهي تلك التي خاضها كتفاً إلى كتف مع لينين أيام الانشقاق بين البلاشفة والمناشفة؟ أم هي المعارك الشديدة المأساوية التي وقعت عام 1917، حين كانت الثورة تتأرجح بين أن تولد وأن توأد؟ أم هي معارك الحرب الأهليّة الحامية، التي كانت تنذر بقتال بين الإخوة؟ أم تلك المعارك الدنيئة على الخلافة في قيادة الحزب؟ أم هي معارك البقاء على قيد الحياة جسديّاً وسياسيّاً في سنوات النفي والهجرة تلك؟ ومن كان خصمه الأخطر والأدعى إلى الخوف في تلك المعارك؟ لينين أم بليخانوف أم ستالين؟ نظر ليف دافيدوفيتش إلى الورقة البيضاء التي لم يجرؤ على وضع قلمه عليها، وفكّر: كلا، لم تكن أيّ من معاركه على ذلك القدر من الصعوبة، ولا أيّ من منافسيه على ذلك المقدار من الوحشية والخسّة. فهو لم يجد نفسه، يوماً من الأيام، مضطرّاً إلى النضال من أجل شيء بهذا القدر من الضرورة.

منذ أن تركت نتاليا سيدوفا البيت الأزرق، لجأ هو، مع حراسه الشخصيين، إلى كوخ في تلال سان ميغيل ريغلا، بدعوى حاجته إلى ممارسة تمارين بدنيّة، مستعجلاً الابتعاد عن البيت الأزرق قدر استعجاله في إنهاء وحدته التي يعيشها في خيبة وخجل، ومفكراً في الطريقة الأنسب لمصالحة زوجه، عالما بأنّ كرامته ستكون أول ما سيضحي به في سبيل بلوغ هدفه الأسمى.

لقد انفلت الشعور بالذنب، الذي كان غائباً عنه حتى تلك اللحظة، من عقاله، وما كان ذلك بسبب الجرح الذي سببه لنتاليا فحسب: لقد انطفأت، خلال ذلك الشهر المشؤوم من عام 1937، شعلة الحياة في اثنين من أعز أصدقائه وأقربهما إليه، ضحيّة حقد ستالين، بينما كان هو غارقاً في فورةٍ شهوانية استردّت اخضرارها وزهوها، يكرّس زبدة نبوغه لابتداع طرق للتملّص من دييغو ونتاليا، والجري وراء فريدا نحو بيت كرستينا كاهلو القريب، في شارع «لينارس»، الذي اتخذاه وكراً لمواعيدهما الجنسيّة. وكان على جان فان هاينورت وحراسه الشخصيين الشباب أن يسهلوا تلك اللقاءات ويغطوا عليها بتنفيذ الخطط التي تجود بها قريحة ليف دافيدوفيتش المحموم. استخدم جميع الحجج: فمن رحلات قنص في الغابات إلى رحلات صيد في البحر إلى جولات في الجبال إلى بحث عن وثائق عليه أن يعثر عليها شخصيّاً. كانت مهمة بالغة الصعوبة على مساعديه، فهم يدركون المخاطر التي تنطوي عليها كلّ مغامرة، ويدركون خطورة القيل والقال في مسألة قد تدمّر العلاقة الزوجية للمنفي وتؤثر على سمعته باعتباره ثوريّاً لقي كلّ ترحاب في البيت الأزرق، وربّما أحدثت ردة فعل عنيفة من طرف ريبيرا... مع ذلك قرر ألَّا ينظر إلى ما حوله، بل ما عاد يشغل باله غير إشباع رغباته والاستمتاع بنشاط فريدا الجنسي المعطّل، وهي القادرة على أن تكشف له، وهو في السادسة والخمسين من عمره، عن مفاتيح وممارسات لا يعرف عنها إلَّا القليل. لم يحدث أن أطلّ الجنون على رأس ليف دافيدوفيتش بمثل تلك القوة، حتّى صار ينكر صورته وهو يتأمّل وجهه في المرآة، صار يرى رجلاً ما كان يعرفه إلَّا قليلاً، وإن كان هو نفسه.

في عصر الحادي عشر من حزيران، وبعد مغامرة صباحية مع فريدا، انكبّ على كتابة واحد من أكثر فصول علاقته مع ستالين غموضاً: إعادة بناء ما حدث في يوم من أيام عام 1907، أيّ قبل ثلاثين سنة من ذلك الوقت، حين التقيا في لندن، وحيث كتبت، ربّما، مقدمة تلك الحرب.

دخلت نتاليا، وكانت تحسّ بحجم الخديعة من حولها، إلى الغرفة ووضعت، من دون أن تتفوّه بكلمة، الجريدة فوق الورقة التي كان يكتب عليها. ومن دون أن يرفع بصره، قرأ ليف دافيدوفيتش العنوان الرئيس فشعر بالضيق ينمو داخل صدره وهو يلتهم الخبر الذي نشرته البرافدا: بدأت في موسكو محاكمة ثمانية من كبار ضباط الجيش الأحمر، على رأسهم الماريشال توخاتشيفسكي [93]، الرجل الثاني في هرم المؤسسة العسكرية، وإنّ الأحكام توشك على الصدور في حقهم. المحكمة التي حاكمتهم، بحسب الخبر، هي محكمة خاصة متفرعة عن المحكمة العليا وإنّ أعضاءها هم من «خيرة رجال الجيش الأحمر المجيد».

سرعان ما لاحظ مفوض الحرب السابق أنّ التهم الموجهة إلى الماريشال توخاتشيفسكي وبقية الجنرالات لا تتصل، هذه المرّة، بالتعاطف مع التروتسكية، بل إنّهم متهمون بتشكيل منظمة تعمل في خدمة الرايخ الثالث. ومع أنّ ليف دافيدوفيتش كان يعلم أنّ ستالين كان يتحيّن الفرص للإيقاع بضباط الجيش الأحمر القدماء، فهو لم يكن يتصور أنّ في مقدور حفار قبر الثورة أن يتجرأ على الإطاحة برأس القيادة العسكرية والحرب قاب قوسين أو أدنى، ما لم تكن لديه أدلة قاطعة على وجود مؤامرة. إنّه يعلم أنّ اعتقالات كثيرة حدثت، بلا شك، في حق كبار الضباط، منذ أن عزل توخاتشيفسكي عن منصبه نائباً لمفوض الدفاع، قبل ذلك الوقت بشهرين؛ بل إنّه متأكد من أنّ مصير هؤلاء الضباط تقرر حين أعلن عن أنّ المسؤول الإداري والسياسي للجيش، البلشفي القديم جامارنيك[120] قد انتحر وأن أربعة من معاونيه قد اختفوا في ظروف غامضة.

في صباح اليوم التالي وصلت أخبار من موسكو عن إعدامات سريعة

120- يان جامارنيك (1894-1937). شيوعي أوكراني. ارتقى أعلى المناصب الحزبية والعسكرية في الدولة. كان مؤمناً ببراءة الماريشال توخاتشيفسكي ورفاقه من تهمة التآمر على ستالين بدفع من الألمان، ورفض تعيينه عضواً في المحكمة التي شكلت لمحاكمتهم، فضمّ إلى قائمة المتهمين. مات منتحراً في أيار من عام 1937.

للمتهمين، الذين، يقول الخبر، اعترفوا بتهمة الخيانة الموجهة إليهم. شلّ الذهول والألم ليبف دافيدوفيتش: هو يعرف أنّ ستالين ربّما يكون محقّاً في مخاوفه من أن يدبّر قادة الجيش مؤامرة للإطاحة به، لكنّ من غير المقبول أن يتهم أولئك الرجال (وكانوا عماد الثورة العسكري في أحلك الأيام) بالعمالة لقوة فاشية، وخصوصاً حين تتصدر قائمة المتهمين أسماء شيوعيين ويهود، مثل الجنرالات ياكير وأيدمان وفلدمان. ثمّ، إن كان الجنرالات قد تآمروا حقّاً، فلماذا لم ينفذوا مؤامرتهم؟ لماذا أخروا الانقلاب حين علموا أنّهم مطلوبون؟

لم يشعر ليبف دافيدوفيتش من قبل بخوف على مستقبل الثورة والبلاد كالذي بدأ يشعر به، أو بالقناعة من أنّ ستالين لم يتجرأ على تلك القفزة القاتلة إلّا بعد أن حصل على وعد من هتلر بعدم المساس بحدود اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتيّة في حالة نشوب الحرب، وإلّا فلا شكّ أن الزعماء الفاشيين سيظنّون أنّ ستالين فقد عقله حين صدّق قصّة لا تنطلي على عاقل، لأنّ مجرد وجود ثلاثة من كبار الضباط اليهود على رأس مؤامرة هو شيء لا يصدقه حتّى النازيون، الذين يفترض أنّهم شاركوا الخونة في مؤامرتهم. أمّا الاستنتاج النهائي الواضح من تلك المحاكمات فهو أنّ ستالين تقدم خطوة أخرى نحو هتلر، وهو الذي طالما أدانه وندد به منذ صعود الفاشية في الانتخابات بألمانيا.

كفّ ليبف دافيدوفيتش أياماً عن التردد على فريدا ليلوذ بمواساة حقيقيّة صادقة من لدن زوجه ناتاشا، التي شكّل لها موت توخاتشيفسكي، ومصائب مشابهة أخرى، تختزنها في ذاكرتها، خسارة لمشاعرها. كم سيقتل ستالين من الرجال؟ سألته نتاليا ذات ليلة، وهما يشربان القهوة في الغرفة، وردّ عليها هو: ما دام هناك بلشفي واحد يحمل ذكرى الماضي، فالجلادون لديهم ما يفعلون... لم تكن الحرب حتّى الموت موجهة إلى المعارضة، بل إلى التاريخ. ولكي يتمّ كلّ شيء على ما يرام فإنّ على ستالين أن يقتل كلّ الذين عرفوا لينين والذين عرفوا ليبف دافيدوفيتش

والذين عرفوا ستالين، بالطبع... عليه أن يُسكت كلّ الذين كانوا شهوداً على إخفاقاته، وعلى حملات الإبادة في المزارع الجماعية، وعلى الجنون القاتل لأعماله ومعسكرات العمل... وما زال أمامه أن يزيح من ساعدوه على تصفية المعارضة والماضي والتاريخ، والشهود المزعجين أيضاً... وسيرغي؟ وليوفا؟ ولماذا لم يأتِ بعدُ في طلبنا؟ سألت حينئذٍ الزوج. نظر إلى عيني نتاليا سيدوفا ولاحظ فيهما بريقاً ذابلاً من ألم، وأحس في صدره بضغط الخجل المتولّد عن جريه وراء نزواته، ولم يقل لها بأنّ ولديهما محكومان بالموت كما هما. في تلك اللحظة، ارتكب، ربّما من وطأة الألم، زلته التي لا تغتفر، حين سأل نتاليا إن كانت تخشى الموت. تحول لون عينيها من الأزرق الذابل إلى لون فولاذي، لون خنجر نديّ، فأحسّ هو بخوف لم يعرفه في حياته: كلا، إنّها لا تخشى الموت، قالت. ما تخشاه هو أن يموت الاحترام والثقة.

شعر لييف دافيدوفيتش بأنّه يغرق في مدٍّ عالٍ من الخجل، وأدرك أنّ الوقت قد حان ليضع حدّاً لعلاقته بفريدا.

***

قد يقول لييف دافيدوفيتش، بعد أيام، إنّ خبراً آخر، وصله هذه المرة من إسبانيا، هو الذي حمله على أن يؤجّل تنفيذ قراره بإنهاء مغامرته العاطفية السريّة. فلقد حال شعوره بالكآبة بعد أن شاع خبر اعتقال صديقه القديم أندريس نين، بتهم مشابهة لتلك التي تدّعيها موسكو، ثم اختفائه، دون أن يتغلّب على الشهوانيّة التي أبقت عليه مربوطاً إلى جنس شره يمارسه مع زوج دييغو ريبيرا.

كانت قصة اعتقال «نين» واختفائه مليئة بالتناقضات والأكاذيب المفضوحة، كالعادة. علم المنفي، بالاعتماد على معلومات استقاها من مصادر متعددة، أنّ الشرطة اقتادت الشيوعي الكاتولوني، في السادس عشر من حزيران، من برشلونه إلى بلنسية. آخر الأخبار المؤكدة تتحدث عن أنّه، ليلة الثاني والعشرين، كان في سجن خاص في «الكالا دي

إينارس»، وأنّ فرقة من القوات الخاصة الألمانية، بحسب الصحافة الرسمية، حررته في عملية استعراضية جريئة ونقلته إلى أراضٍ تقع تحت سيطرة الفاشيين، ومن ثمّ أرسلته إلى برلين.

القول بأنّ «نين» كان جاسوساً يعمل لصالح فرانكو هو اتهام سخيف ولا يقوم على أساس: لم يهتمّ رجال ستالين في إسبانيا كثيراً بصحة التهم الموجهة إليه. وما كان ليف دافيدوفيتش، الذي تعرّف إلى «نين» قبل أكثر من عشر سنوات في موسكو، قبل أن ينضمّ هذا إلى المعارضة، من دون أن يتخلّى عن مبادئه بصفته شيوعيّاً مؤمناً وفوضويّاً، يمتلك تفسيراً لاختفاء ذلك الصديق وموته المحقق تقريباً إلّا في قدرة «نين» العجيبة على مقاومة تعذيب رجال الجيبيو، الذين وضعوا أمامه، بكلّ تأكيد، اعترافات وأرادوا إجباره على التوقيع عليها... لأنّ مناضلاً مثله يعرف منذ بداية اعتقاله بأنّ مصيره تقرر وبأنّ سمعة حزبه وحياة رفاقه، المتهمين بالتدبير لانقلاب، معلقتان بما يتفوّه به. ولا شكّ أنّ الانتصار على ستالين كانت آخر فكرة متسلطة على عقله وهو يعذّب ويرفض أن يوقّع على إدانة بحق اليسار الإسباني وبحق تاريخه الشخصي.

كانت صورة الشاب توخاتشيفسكي، العسكري دائماً، الذي تحوّل إبّان الحرب الأهلية إلى واحد من ركائز الجيش الأحمر الفتي، وصورة أندريس نين، الأخرق العاطفي، المبهور بالواقع السوفييتي، والذي ما كان يكفّ عن استجوابه، ترافقان ليف دافيدوفيتش وهو يدفن آخر نفثات شبابه. ومع أنّ فريدا بدأت، بعد اللقاءات الجنسية الأولى، ترسل له بإشارات يمكن أن تفهم على أنّها تحفّظ، فإنّ الرجل، المنتشي باللذة، رفض فهمها، أو لم يقدر على فهمها، حتى حين بدأ يلاحظ أنّها، بعد اللقاءات الأولى، حاولت تجنّبه (ربّما بعد أن أرضت فضولها السياسي- الجنسي، وأخذت بثأرها من خيانات ريبيرا لها)، بل لقد جعله ذلك يلاحقها باندفاع أكبر. وصارت هي، حين يضطجعان في الخلوة، تحاول أن تنتهي بسرعة، بينما كان هو يردد على مسمعها أنّه يحبها، أنّه يشتهيها، أنّه يحلم بها.

ارتفع التوتر في البيت الأزرق ليشكّل حاجزاً جديداً، وكانت نتاليا سيدوفا هي من أشعلت، في بداية تمّوز، النار في الفتيل، حين قررت، ومن دون أن تشاور أحداً، الانتقال للسكن في شقة تقع في مركز المدينة، بعد أن تحججت لريبيرا بأنّها تفضل العيش بمفردها، لأنّها تخضع، -قالت له-، لعلاج طبي يتصل بـ «مشاكل نسائية». وكان على فريدا أن تفهم حينها بأنّ تلك الحماقة بدأت تخرج عن نطاق السيطرة. دخلت في تلك الأمسية ذاتها إلى غرفة الضيفين لتهاجم عشيقها في الجانب الذي لم يكن يتوقعه: عليهما، هو وهي، أن يضعا النقاط على الحروف، وعليه هو أن يتخذ قراراً حاسماً: فإمّا أن يذهب مع امرأته أو أن يبقى معها؟ أصابته كلماتها تلك بالصدمة، لكنّه ردّ على سؤالها من دون تردد: ذلك الخيار لم يكن مطروحاً قط. اقتربت فريدا، حينها، بخطواتها البطيئة الصعبة، وداعبت وجه عشيقها، وقالت له، وهي تدعوه «بيوجيتاس» – وهو الاسم الذي يطلقه المكسيكيون على لحية العثنون الصغيرة–، بأنّ اللعبة قد انتهت... وما عادت مسلية، فقد يُجرح أناس آخرون لا يستحقون الأذى. إنّها لا تقول ما تقول من أجل دييغو، وهو الخنزير الثمل، ولا من أجلها، وهي التي حوّلها دييغو إلى خنزيرة منفلتة، بل من أجل نتاليا، الملكة.

أدرك ليف دافيدوفيتش، في تلك اللحظة، صعوبة أن يعرف ماهيّة التفاعل الكيمياوي الذي اشتعل في داخل فريدا ليجبرها على أن ترمي بنفسها إلى تلك المغامرة. ولربّما سأل نفسه إن كانت قد استعملته أداة للانتقام من ريبيرا «هل من المعقول أنّ الرسام لم يشكّ في شيء؟»؛ أم إن هالته التاريخيّة هي التي كانت وراء احتدام الفضول لدى الفتاة الشابة؛ أم إن إشفاقها من أن تراه يعاني بعد أن صدّته أختها، هو ما أقنع فريدا، الليبرالية المتحررة، بأنّ إشباع رغبات رجل يكبرها مرتين هو ضرب من الصدقة المسليّة التي لا يثلم في شيء فضيلتها المنفتحة. وما إن خفّت حدّة عطر فريدا في أجواء الغرفة حتى استطاع ليف دافيدوفيتش

أن يبتسم: هل صحيح أنّ اللعبة انتهت؟ نعم، انتهت بالنسبة إلى فريدا فقط، أمّا هو، فعليه أن يشرع الآن بإزالة الوساخة المتراكمة في روحه وأن يحاول أن يستردّ، بأقل ضرر ممكن، ثقة نتاليا سيدوفا وحبها. لكنّ صُحبة ثلاثين سنة نبهته إلى أن عليه أن يصارع حيواناً لا يقبل الترويض، حيواناً يبدي تضامنه وكرهه بالاندفاع نفسه، ويظهر حبّه وصدّه بالقوة ذاتها. أنا خائف، فكّر.

عقب أيام، وبينما كان ينظر من النافذة إلى جبال «سان ميغيل» المقفرة، تناول ليف دافيدوفيتش، وقد قرر أن يضحّي بكبريائه ويتجاوز مخاوفه، ورقة وبدأ بكتابة أكثر مراسلاته وفرة وغرابة. كانت رسائل، قد تصل إلى اثنتين في اليوم، يعترف فيها بتعلّقه عاطفيّاً وبايولوجيّاً بزوجه. حين رحلت نتاليا من البيت الأزرق تركت له رسالة سبّبت له جرحاً لا يسبّبه إلّا الخنجر: لقد تأمّلت وجهها في المرآة، -تقول-، ورأت جمالها ومفاتنها تموت صريعة الشيخوخة. إنّها لا تلومه على شيء، إنّما تضع نفسها وتضعه أمام حدث لا رجعة فيه. لكنّ ليف دافيدوفيتش فهم معنى الرسالة: فهم أنّ تلك الشيخوخة وصلت بعد ثلاثين سنة جمعتهما، ثلاثين سنة عاشتها ناتاشا له ومن أجله. بدأ يسطّر توسلات، غالباً ما كان يختمها بتوقيع «كلبك العجوز الوفي»، في طرقٍ، يزداد ألماً وشكوى، على أبواب قلب يحاول فتحه بقوة ذكريات الماضي ومتطلبات الحاضر، العاطفية والجسدية، المستعجلة، وبلغة فيها من المباشرة ما كان يثير دهشته هو ذاته... ولمّا تلقّى، أخيراً، رسالة منها، تبدي فيها قلقها من حالة الحزن التي تمنع زوجها من التركيز في عمله، أدرك أن المعركة قد انتهت وأنّ من كسبها هي مشاعر الطيبة التي تسكن قلب حبيبته ناتاشا: «ستواصلين حملي على كتفيك، ناتا، كما حملتني طوال حياتك»، كتب لها. وفي اليوم التالي، صحب حاشيته، التي لا بدّ منها، وسلك الطريق المؤدي إلى العاصمة، باحثاً عن امرأة حياته.

***

بعد أن رجع الزوجان إلى البيت الأزرق، شدّ انتباه ليف دافيدوفيتش حادث وقع في باريس وأبلغه به ليوفا. فقد اقترب إجناس ريس، وهو الاسم الحركي لأحد مسؤولي المخابرات السوفييتية في أوروبا، من ليف سيدوفا ليبلغه عزمه على الانشقاق والهروب. اجتمع الشاب مرتين مع العميل، بعد أن اتخذ الاحتياطات اللازمة. حدّثه هذا عن الكثير من الفظائع، وأخبره بأنّ يجوف، ومعه عدد من العسكريين عينهم ستالين، هم من لفّقوا، بالاتفاق مع الألمان، التهم التي وجهت إلى قادة الجيش الذين حوكموا. وبحسب ريس، فإنّ عملية التطهير، التي كانت ما تزال جارية بين العسكرين، لم تكن مجرد عملية تنظيف يتطلبها أمن ستالين السياسي، بل هي جزء من التعاون القائم بين النظام الستاليني والنازية، تحت غطاء كراهية كلّ منهما، وبهدف التفاوض على إقامة التحالف الذي سيصلان به إلى الحرب. ذكر له أنّ المصالح السرّيّة تتولى مبدئيّاً الجزء الأكثر نشاطاً من ذلك التعاون وأنّ أكثر ما يثير رعب العميل السوفييتي هو ما يعنيه ذلك الاتفاق بالنسبة إلى ثوريي العالم، الذين تضامنوا مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية في نضاله ضد الفاشية، من خيانة للشيوعين الذين ما زالوا يدينون لهم بالطاعة والولاء، على الرغم ممّا حدث في موسكو.

لم يكفّ المنفي، وهو يقرأ التقارير عن ريس، عن شعوره بالتقزز من تلك الخيانة التي تستهدف أقدس المبادئ. لكنّه شعر بالإعجاب نحو ذلك الرجل الذي وضع رقبته، بكلّ تأكيد، تحت فأس جلاده، على الرغم من الأفعال الشائنة التي لا شكّ أنّه ارتكبها بسبب طبيعة عمله. لكنّ ما خشيه حقّاً هو أنّ يؤثر انشقاق ريس على ليوفا وعلى الأممية الرابعة، فهو يعلم أنّ غضب ستالين وأعوانه إذا ما نزل على أحد فلا بدّ أنّ ينزل أيضاً، ومن جديد، على رؤوس التروتسكيين، ضحاياه المناسبين.

وسرعان ما عرف ليف دافيدوفيتش أنّ تلك القصّة ستنتهي بالوصول إلى مركز حياته: في السادس من أيلول، أعلمه ليوفا بأنّ ريس قد اغتيل

قبل أيام في طريق بالقرب من لوزان. اتجهت شكوك الشرطة إلى لجنة إعادة المواطنين الروس إلى بلادهم، وهي واحدة من الواجهات التي تتخفّى وراءها الشرطة السريّة السوفييتيّة، وكانت أنشئت في باريس. وتلقّى في ذلك اليوم نفسه، وعن طريق آخر، رسالة من مساعده رودولف كليمنت، يخبره فيها أنّ ريس أكّد له، قبل اغتياله، أنّ من بين خطط شرطة ستالين تصفية التروتسكيين خارج اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وأنّ اسم ليوفا سيدوفا موجود على رأس القائمة. لذلك فهو ينصح بإجلاء الشاب، الذي قال إنّه على حافة الانهيار الجسدي والنفسي بسبب المشاكل المادية والسياسية التي تحيط بظروف عمله، فضلاً عن الإشكالات العائلية التي ازدادت منذ أن أعلنت زوجه «جين» ميلها إلى أفكار الجناح السياسي الذي يتزعمه زوجها السابق ريمون مولينيه. تحادث لييف دافيدوفيتش مع نتاليا وناقش الاثنان احتمالات مستقبل ولدهما الشاب، ثمّ كتب رسالة إلى ليوفا طالباً منه أن يوافيه برأيه حول مخاوف كليمنت، قبل أن يقترح عليه البديل لحماية حياته.

وبينما كان الزوجان ينتظران ردّ ليوفا على رسالة أبيه، وصل قرار لجنة ديوي المنتظر. وكما توقّع لييف دافيدوفيتش، فقد توصل ديوي وأعضاء هيئة المحلفين إلى أنّ محاكمات موسكو في آب 1936 وكانون الثاني 1937 غير قانونيّة، لذلك، فهم يرون أنّه هو وولده بريئان. بعث لييف دافيدوفيتش، وهو في فورة حماسه، ببرقية إلى ليوفا طالباً منه أن ينشر نتائج المحاكمة المضادة على أوسع نطاق، وأن يدعو الصحفيين والمناصرين للشروع في حملة دعائية، بينما سينصرف هو إلى تحضير المقالات التي ستنشر مع نص قرار الحكم في عدد خاص من «الوقائع».

سيجد لييف دافيدوفيتش، بعد أشهر قليلة، نفسه وهو يحاول أن يتبيّن الطريقة التي ارتبطت فيها الحياة، في تلك اللحظات، بالتاريخ لتقود إلى مأساة كبرى. ففي غمرة شعورهما بالتفاؤل الذي أحدثه قرار المحكمة المضادة، تلقّيا ردّ ليوفا على مخاوف كليمنت: يرى الشاب (كما والده)

أنّ الفرصة في باريس لا تعوّض، وأنّه لا يستطيع أن يوكل بمهامه إلى كليمنت، المكلف بتنسيق المقترحات الخاصة بتأسيس الأممية الرابعة، ولا إلى إيتان، أكثر مساعديه حماسة وشعوراً بالمسؤولية، وإن كان صحيحاً، اعترف لهما، أنّه يمرّ بأزمة مادية ويسكن في علّية باردة، وأنّ علاقاته مع «جين» تعقدت وأنّ ما وقع في موسكو أثّر فيه أكثر مما ظنّ في البداية، فجميع الرجال الذين نشأ بينهم، وكانوا مثله الأعلى وقدوته، سقطوا بعد أن اعترفوا بخيانات كبيرة ارتكبوها. وبينما كانت نتاليا وليف دافيدوفيتش يقرآن الرسالة، عادا يتناقشان حول مصير ليوفا، وبدا لهما أنّ من الظلم أن يطلبا منه السفر إلى المكسيك، بالتأكيد من دون زوجه، ليصبح منفيّاً مثلهما، فهو إن لم يختبئ فلن يفعل شيئاً غير استبدال خطر بآخر مثله. عبّر ليف دافيدوفيتش حينها لزوجه عن ثقته بقدرة ليوفا على حماية نفسه، ولربّما فكّر ستالين في أنّ قتله إجراء مبالغ فيه. ما من إجراء مبالغ فيه عند ستالين، -قالت نتاليا- على الرغم من أنّها تتفق مع زوجها، فإنّها تتمنّى أن يكون فتاهما أقرب إليهما.

في تلك الأيام حضر إلى كويواكان شخص يدعى جوزيف نادال. قال الرجل إنّه كاتلاني، وإنّه عضو في حزب العمال الماركسي الموحد، ومقرب من أندريس نين. لقد فضّل نادال، إزاء حملة القمع التي بدأت في إسبانيا على حزبه، أن يغادر البلاد. طلب مقابلة الرفيق تروتسكي فعقد جان فان هاينورت معه لقاءً أوليّاً، وحين عاد هذا إلى كويواكان اعترف لليف دافيدوفيتش بأنّه أحسّ بوخز في ظهره وهو يحاور ذلك الرجل في مطعم من مطاعم العاصمة. نبّه موت «نين» واغتيال «ريّس»، فضلاً عن هواجس كليمنت ومخاوفه، ليف دافيدوفيتش والدائرة المحيطة به إلى الهجمة الجديدة التي يشنّها ستالين خارج اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وكان الجميع يدركون أنّ أيّ عامل إسباني بسيط، أو أيّ لاجئ ألماني، أو أيّ مثقف فرنسي، يمكن أن يكون الملاك الأسود المرسل من طرف موسكو. لكنّ ليف دافيدوفيتش قرر أن يستقبل الزائر

الذي يمتلك معلومات وتفاصيل عن اختفاء «نين»، وقبلَ بأن يكون جان فان هاينورت حاضراً معهما في اللقاء.

كان الكاتلاني كثير الكلام، دقيق الملاحظات، إلى حدّ أنّه أثار إعجاب ليف دافيدوفيتش، على الرغم من شغفه بالتدخين. قال إنّ «نين»، من دون شك، قتل، وإنّ قتلته كانوا يعملون بتوجيه من رجال موسكو الذين يفرضون قوانينهم على الجمهوريين. أتى في تعليقاته على ذكر المستشار السوفييتي المدعو كوتوف والشيوعي الفرنسي أندريه مارتي، المعروف بقسوته، باعتبارهما من رتّب عملية اختطاف «نين» وتصفيته حين رفض هذا توقيع اعترافات عن تعاونه مع أنصار فرانكو.

لقد أزاح نادال، بسبب قربه من أندريس نين واطلاعه على الكثير من خفايا السياسة، الكثير من شكوك ليف دافيدوفيتش حول استراتيجية موسكو في إسبانيا. وصار واضحاً لديه أنّ ستالين لعب لعبة السيطرة على الثورة والتضحية النهائية بها عن طريق عدة أوراق، ومنها الورقة الماليّة. بعد أن نجح في أن يسمح نغرين، وكان حينها وزيراً للمالية (كوفئ بعد ذلك برئاسة الحكومة، قال نادال) بخروج الخزانة الإسبانية إلى الاتحاد السوفييتي، بدا أن تلك الكمية الكبيرة من الأموال تبخرت، وهو الآن يطلب من حكومة الجمهورية دفعات جديدة من المال عن المساعدات العسكرية التي تتضمّن الطائرات والمدفعية والعتاد، وحتى الدعم اليومي لفريق المستشارين الروس في إسبانيا. كانت الأسلحة التي تلقوها، قال له «نين»، كافية لكي تقاوم الجمهورية فترة من الوقت، لكنّها لم تكن كافية لمواجهة الفاشيين المدعومين من هتلر وموسوليني، أمّا السبب الخفي وراء قطع المساعدات الحربية للحكومة فهو أنّ ستالين ما كان مهتمّاً بوجود جيش جمهوري لديه من التجهيز ما يتطلّع به إلى الانتصار، لأنّه إن بلغ هذه الدرجة فقد يخرج عن نطاق السيطرة... ولما لم يكن النير المالي يقدم ضمانة كافية تغطي كلّ شيء، فقد أمر ستالين أيضاً بفرض السيطرة السياسية على الجمهورية.

كانت الهجمة على أنصار حزب العمال الماركسي التروتسكيين وعلى الفوضويين والمجاميع النقابية، بل على الاشتراكيين الذين لا يخضعون لسياسات موسكو، قد بدأت منذ عام 1936، لكنّ حملة القمع الكبرى وقعت اعتباراً من أحداث أيار في برشلونه. بحسب نادال، فإنّ نتائج تلك العملية يمكن لمسها؛ الشيوعيون الآن يتحكمون بالقطاعات الثلاثة التي تهمّ ستالين أكثر من سواها: الأمن الداخلي والجيش والدعاية. لذلك فإنّ مستشاري الكومنترن ورجال الجيبيو يعملون جهاراً ويقرّرون خطوط السياسة ويقودون حملات القمع. أمّا الرأسان البارزان للشيوعية الدولية فهما، حتى قبل أسابيع، الفرنسي أندريه مارتي، المكلّف بالألوية الدوليّة، والأرجنتيني فيتوريو كودوفيّا، المكلّف بأعمال سكرتارية الحزب الشيوعي. وكان الرفض الذي يواجه به هذان الرجلان من الوضوح أنّهم كانوا يطلقون على مارتي لقب «جزّار الباثيته»[121]، بسبب قسوته في معاملة المتطوعين الدوليين، أمّا كودوفيّا، الذي أصبح دكتاتوراً، فقد عزلته الألوية ونصّبت مكانه المعتدل بالميرو توغلياتي[122].

اكتفى ليف دافيدوفيتش بالاستماع إلى حديث عضو حزب العمال الماركسي ولم يطرح عليه أيّ سؤال. كان نادال يدخن باستمتاع غير مألوف، وكأن امتناعه عن التدخين الذي أجبر عليه في إسبانيا وجد له متنفساً وتعويضاً. حينئذٍ سأله، وهو يخاطبه بالرفيق تروتسكي، عمّا سيبقى من الحلم بمجتمع سوفييتي يقود إلى انتصار العدالة وإلى الديموقراطية والمساواة إذا كان رجال موسكو هم الذين أمروا بقتل «نين» وسواه

121- أطلق هذا اللقب على أندريه مارتي لأمره بإعدام الكثير من المدنيين ومن متطوعي الألوية الدولية بتهمة التخاذل. يقال إنّه لم يشارك إلّا قليلًا في المعارك وإنّه صرّح في تقريره الذي رفعه للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في تشرين الثاني 1937 بأنّ من أمر بإعدامهم رمياً بالرصاص لم يتجاوز الخمس مئة.

122- Palmiro Togliatti (1893-1964). سكرتير الحزب الشيوعي الإيطالي بين عامي 1927 و 1964.

من الثوريين؟ وما الذي سيبقى منه إذا كان رجال اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية يحركون الشيوعيين ويكلفونهم بتصفية من يعارضهم، سياسيّاً وجسديّاً، بينما يطالبون بالمزيد من الأموال مقابل السلاح والمستشارين؟ وما الذي سيبقى من ذلك الحلم حين يعرف أنّهم كانوا يحولون دون قيام الثورة البروليتاريّة التي كان الكثير من الرجال من مثل أندريس يعتقدون أنّها ستنقذ إسبانيا؟... ودّع ليف دافيدوفيتش نادال وهو مقتنع تقريباً بأنّ ذلك الرجل لا يمكن أن يكون، على الأقل، القاتل الذي يمكن لستالين أن يرسله لقتله. لا، قال له وهو يصافحه: هو لا يعرف ما الذي سيبقى من الحلم الشيوعي المسكين.

***

في شهر تشرين الثاني ذاك أتمّت الثورة ذكراها العشرين وأتمّ ليف دافيدوفيتش عامه الثامن والخمسين. ولمّا كان التاريخ يتوافق مع يوم الموتى، الذي يحييه المكسيكيون باحتفال يقصد منه استحضار الموتى إلى الحياة ودعوة الأحياء إلى أن يطلّوا من بوّابة الحياة الآخرة، فقد ملأ دييغو وفريدا البيت الأزرق بجماجم كسوها بأغرب الملابس ونصبوا مذبحاً فيه شموع وطعام، في ذكرى أمواتهم. وجد ليف دافيدوفيتش في ذلك التقرب المكسيكي من الموت أمراً صحيّاً لأنّه يؤالفهم مع النهاية الوحيدة التي تشترك فيها جميع الحيوات، النهاية الوحيدة التي لا مفرّ منها، وعلى الرغم من إرادة ستالين.

لكنّ مزاج ليف دافيدوفيتش لم يكن مواتياً للاحتفالات. فقبل أيام بلغه أنّ يجوف نكّل بعائلة الماريشال توخاتشيفسكي بعد سقوطه، فبعد أن أعدم اثنين من أخوته وأمّه وزوجه، انتحرت ابنته ذات الثلاثة عشر عاماً، التي كان ليف دافيدوفيتش قد حملها بين ذراعيه وهي بعد طفلة وليدة. لم تفاجئه تلك الإبادة العائليّة كثيراً، فقد كانت تبدو ممارسة اعتيادية: ألم تعتقل أخته أولغا، لأنّها كانت زوجة كامينيف، الذي رأس مجلس السوفييت في أكتوبر عام 1917؟ ألم يعدم ابنها الأكبر، لأنّه كان

ابنه؟ ألم يعدم ثلاثة من أخوة زينوفييف، الذي حمى لينين في أحلك أيام الثورة، وأعدم أخته وابنه الأكبر، بينما أرسل ثلاثة أخوة آخرين له وأربعة من أبناء أخوة ذلك البلشفي الكبير ومن يدري كم من أقربائه إلى معسكرات الموت الحقيقية المعروفة بالغولاغ[123]؟ وماذا عن ابنه المسكين سيروجا؟ أين هو الآن؟

لقد بلغت موجة الرعب، التي بدأت منذ عشر سنوات مضت مع حملات الزراعة الجماعية القسرية ومكافحة الفلاحين من ملاك الأراضي، مستويات من الجنون، منذ أن عُيّن يجوف خلفا لياغودا، وبدت مقبلة على التهام بلد راكع أمام الخوف والوشاية. يقال إنّ واحداً من كلّ خمسة أشخاص في دوائر الدولة والمدارس والمصانع يعمل مخبراً لصالح جهاز الجيبيو. يعرف عن يجوف مفاخرته بعدائه لليهود واستمتاعه بالمشاركة في عمليات الاستجواب، بل كان يبلغ قمّة سعادته حين يقرّ المعتقل بجرمه، بعد أن ينهار أمام التعذيب والابتزاز: كان هو والمكلفون بالاستجواب ينبّهون الضحية إلى أنّهم سيرسلون بأفراد أسرته، إن لم يعترف، إلى معسكرات لن يخرجوا منها أحياء (أو أنّهم سيعدمون): «فلا أنت تستطيع أن تخلّص نفسك، وفوق ذلك ستحكم عليهم أيضاً»، كانت الصيغة الأكثر فاعلية للحصول على الاعتراف عن جرائم لم ترتكب. فهل قاوم ولده سيرغي تلك التهديدات؟ وهل تحمّل تلك الآلام الجسدية والنفسية؟ اعتاد أن يسأل الأشخاص الذين يحادثهم. أما زال عليَّ أن أشدّ من عزيمته ليقاوم ويظلّ على قيد الحياة في معسكر في القطب الشمالي، من دون طعام تقريباً، وبأيام عمل لن يطيقها إلَّا الأشداء وإلا لثلاثة أشهر قبل أن ينهاروا جثثاً حيّة؟

مع ذلك لم يكن مصدر آخر آلامه في الحسبان: قبل أسابيع، تصدّت مجموعة من الكتّاب والناشطين السياسيين، ممّن يدّعون القرب من

123- هي معتقلات العمل القسري التي أنشئت بعد عام واحد من ثورة أكتوبر 1917 وتحولت في عهد ستالين إلى معسكرات اعتقال وموت قضى فيها الملايين.

أفكار الثوري القديم، مدفوعين بحرارة الذكرى العشرين لثورة أكتوبر، للبحث عن نقاط الخلل التي عانى منها النظام البلشفي والتي أدت إلى صعود الستالينيّة. فاتجهوا، من أجل ذلك، إلى نبش تفاصيل حملة القمع الدموية التي جوبهت بها ثورة البحارة في قاعدة «كرونشتادت»، وقرروا، سعياً وراء الحقيقة التاريخية، بحث دور المنفي في تلك الأحداث. كانت الحجّة الأبرز تتحدث عن إمكانية أن تكون حملة القمع تلك أولى مظاهر «الإرهاب الستاليني» الملاصق للبلشفيّة في السلطة، وقارنوا الرد العسكري وإعدام الرهائن الذي صاحبها بحملات التطهير التي يمارسها ستالين. وانتهوا إلى أنّ مفوض الحرب آنذاك، وهو المسؤول آنذاك على رأس الجيش، هو من أوجد تلك الأساليب التي تعتمد القمع والرعب.

آلم ليف دافيدوفيتش أن يعرف أنّ رجالاً مثل إيستمان أو فيكتور سيرج أو سوفارين[124] يدعمون تلك الآراء التي تلاحقه من سنوات بشأن مسؤوليته في تلك الأحداث. كان يزعجه على نحو خاص أنّهم أخرجوا تمرداً عسكريّاً، وقع أثناء حرب أهلية، من سياقه، وقارنوه بمحاكمات صورية وإعدامات من دون محاكمة لمدنيين في زمن سلم. آلمه على نحو أكبر أنّهم لم يفكّروا في أنّ ذلك الجدل لا يصبّ إلّا في مصلحة ستالين، في وقت كان ليف دافيدوفيتش يتوجه بكليته إلى فضح الإرهاب الذي يعيشه ويموت بسببه ليس معارضو الدب الجبلي فحسب، بل رجال ونساء كثيرون لم يعارضوه حتّى في الأحلام.

ظلّ ليف دافيدوفيتش، طوال أسابيع، أسير ذلك الجدل التاريخي. ولكي يبدأ بالردّ عليهم، تحتّم عليه أن يقرّ بالمسؤوليّة التي تقع على عاتقه

124- ماكس إيستمان (1883-1969) كاتب وشاعر وناشر أمريكي. سافر إلى موسكو عام 1922 والتقى لينين وتروتسكي وانحاز إلى هذا الأخير. وفضح سياسات ستالين، لكنّه حاد عن مواقف تروتسكي ومال إلى اليمين المحافظ. فيكتور سيرج (1890-1947) ماركسي لينيني، عمل في الكومنترن صحفيّاً. وانتقد علناً سياسة ستالين. هرب من الاتحاد السوفييتي إلى المكسيك وفيها توفي. بوريس سوفارين (1895-1984) مؤرخ وصحفي شيوعي فرنسي. فضح الطغيان الستاليني وكتب سيرة مشهورة لستالين.

إذ أجاز، بصفته عضواً في المكتب السياسي، قمع تلك الثورة الغريبة، لكنّه رفض قبول اتهامه بأنّه شجّع على القمع وحثّ على القسوة التي استخدمت في مواجهة ذلك التمرّد. «أنا مستعد للاعتراف بأنّ الحرب الأهليّة ليست مدرسة للسلوك الإنساني، وأنّ تجاوزات لا تغتفر تقع من هذا الطرف أو ذاك»، كتب. «صحيح أنّ ثمّة ضحايا بريئين سقطوا في (كرونشتادت)، وأنّ أسوأ ما حدث هو إعدام مجموعة من الرهائن. لكن، على الرغم من سقوط ناس أبرياء، وهو أمر غير مقبول في كلّ زمان ومكان، وعلى الرغم من أنّني المسؤول الأخير عمّا حدث، باعتباري قائد الجيش، فأنا أرفض المقارنة المعقودة بين إخماد ثورة مسلحة ضد حكومة ضعيفة تخوض حرباً ضد واحد وعشرين جيشاً عدوّاً، واغتيال بدم بارد وعن سابق إصرار وترصد لرفاق كانت تهمتهم الوحيدة هي التفكير، أو ربّما لأنّهم قالوا إنّ ستالين ليس هو الخيار الوحيد والأفضل للثورة البروليتاريّة.»

لكنّ ليف دافيدوفيتش كان يعلم أن «كرونشتادت» ستظلّ، وإلى الأبد، فصلاً أسود في تاريخ الثورة، وأنّه هو، يملؤه الخجل والألم، من سيتحمل ذنب ما وقع فيها. وكان يعلم أيضاً أنّ البلاشفة (وبضمنهم لينين) لو لم يقمعوا الثورة بشدّة، لفتحت الباب أمام عودة القيصريّة: هكذا هي الثورة، ببساطة وفظاعة وقسوة، وهكذا هي خياراتها، فكّر وسيفكر حتى النهاية، من دون أن يستطيع شيء أن يغيّر رأيه.

***

حين وصلت، نهاية تشرين الثاني، رسالة ليوفا التي تخبر بصدور «الوقائع»، وفيها نتائج لجنة ديوي، متأخرة عن موعد صدورها، فضّل ليف دافيدوفيتش عدم الردّ. كان الوالد وولده، في الرسائل الأخيرة التي تبادلاها، على حافة القطيعة: ببساطة لأنّ فهمه لا يستوعب أن يتأخر ليوفا أربعة أشهر في تحضير أهمّ إصدار لتلك الصحيفة. جميع التبريرات غير مقبولة عنده، بل لقد وصل به الأمر أن صار يفكّر في تقصير من طرف

ولده، أو عجز. تساءل في واحدة من تلك الرسائل إن لم يكن من الأفضل نقل مقرّ «الوقائع» إلى نيويورك وتكليف رفاق آخرين بإصدارها. قالت له نتاليا، التي كانت تتلقى رسائل أخرى من ولدها، إنّ ليوفا يشعر بالإهانة، فهو لا يفهم أن يكون والده قاسياً ومجرداً من الإحساس إلى هذا الحدّ وهو العارف بالمشاكل التي تلاحقه. -مجرّداً من الإحساس!- احتجّ حين سمع هذه الكلمات: كيف لا يدرك رجل له خبرة ليوفا ما نغامر به؟ ليوفا جندي ممتاز ونحن في حرب، أضاف، وهو لا يعرف كم سيشعر بالندم على ما صدر منه من عبارات فظة وبدر منه من علامات غياب الإحساس.

في بداية العام، قرروا أن يمضي المنفي فترة بعيداً عن البيت الأزرق. فقد أكّد ريبيرا أنّه رأى عدداً من الرجال يتحركون بالقرب من المنزل مما أثار الشكوك في نفسه، ولكي يتجنبوا المخاطر، فقد قرروا نقله إلى بيت أنطونيو إيدالغو، وهو أحد أصدقاء أسرة ريبيرا المقربين، وكان يسكن عند غابة «تشابولتيبيك». استحسن لييف دافيدوفيتش الفكرة، فقد كان يحتاج إلى العزلة لمواصلة كتابة سيرة ستالين: كان في حاجة إلى إخراج تلك السحابة السوداء من رأسه. وبقيت نتاليا في كويواكان، واتفقوا على ألّا تزوره إلّا في حال طالت إقامته. حتّى متى سنعيش هاربين، مختبئين، متسببين في هلع رجال من مثل دييغو ريبيرا؟ فكّر وهو يتوغل في أعماق غابة أشجار الحور.

سرعان ما فقدت الأيام التي أمضاها في بيت أنطونيو إيدالغو حدودها. لن يتذكّر من تلك الإقامة إلّا نهاية عصر السادس عشر من كانون الثاني من عام 1938. من نافذة الغرفة التي حُددت لإقامته لمح ريبيرا يجتاز الحديقة وهو يحمل قبعته في يده. كان لييف دافيدوفيتش في تلك اللحظة يكتب مقالاً استخدم فيه الجدل الدائر حول «كرونشتادت» للدفاع عن أخلاقيات الشيوعي. حين وصل دييغو إلى الغرفة، قرأ لييف دافيدوفيتش على وجهه علامة خطب جليل. سأله، من دون أن يفكّر، بل وهو يرفض أن يفكر تقريباً.

لقد مات ليوفا في باريس. حين بلغت تلك الكلمات سمع ليف دافيدوفيتش أحسّ وكأنّ الأرض انشقّت من تحت قدميه ليبقى هو كالدمية معلّقاً في الهواء. لا يتذكر إن كان ضرب دييغو، لكنّه صرخ في وجهه واصفاً إياه بأنّه كذّاب حقير... ثمّ سقط على كرسيه. حين بدأ يسترد وعيه، حكى له ريبيرا أنّه، بعد أن قرأ الخبر في صحف العصر، بعث ببرقية إلى باريس طالباً تأكيد للخبر. ولم يتجرأ على الحضور لإبلاغه بالخبر إلّا بعد أن حصل على التأكيد. اقترح عليه إيدالغو حينئذٍ أن يتصل بباريس ليستطلع الخبر، لكنّه رفض: لا شيء سيغيّر مصير ولده الفقيد، وما كان يتمنى في تلك اللحظة إلّا أن يكون بالقرب من نتاليا.

قبل أن يشرع في السفر طلب من دييغو كلّ التفاصيل. فما حدث كان وما زال مشوشاً: في الثامن من شباط، أصيب ليوفا بوعكة سرعان ما تحوّلت إلى نوبة، وشخّص الأطباء الحالة بأنها التهاب في الزائدة الدودية، وقرروا إجراء عملية جراحية مستعجلة له. وللحيلولة دون أن يعرف القتلة من جهاز الجيبيو بمكانه، فقد اختار ليوفا أن ينقل إلى عيادة خاصة في ضواحي باريس، يديرها مهاجرون روس. لم يكن يعرف بمكانه غير «جين» ومعاونه إيتان، ولمزيد من الاحتياط، سجّل ليوفا نفسه باسم المسيو مارتين. نجحت العملية، لكن الشاب تعرّض، بعد أربعة أيام، ولأسباب ما زالت مجهولة، لانتكاسة غريبة. فقد صار، بحسب الشهود، يهذي ويسير في ممرات العيادة صارخاً من الألم. عاد الأطباء لإجراء عملية أخرى له، لكنّ جسمه المنهك لم يتحمّل تدخلاً جراحيّاً ثانياً.

في الطريق إلى كويواكان، أحسّ ليف دافيدوفيتش بصدغيه يدقان وبجسمه يرتعش. ما كان في مقدوره التوقف عن التفكير في أنّ ولده مات وحيداً وبعيداً عن أمّه، من دون أن يرى بناته، الضائعات في الاتحاد السوفييتي، وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين. حين دخل إلى الغرفة رأى نتاليا سيدوفا جالسة على السرير، كانت تتطلع إلى صور عائلية قديمة. لم

يتمنّ يوماً الموت كما تمناه في تلك اللحظة، تمنّى أن يزول من الوجود قبل أن يرى نفسه مضطرّاً إلى إبلاغ امرأته بالخبر. حين نظرت إليه (لم تره قط مكسوراً وشائخاً، لا شكّ أنّها قالت له ذلك بعد أسابيع) نهضت يدفعها السؤالان الوحيدان اللذان كان في مقدورها أن تطرحهما: ليوفا؟ سيروجا؟ إنّ العقل البشري لغز كبير، لكنّه في الوقت نفسه عالمٌ ومتنبئ. كان المنفي، في تلك اللحظة، ليفضّل أن يقول سيروجا لا ليوفا: حياة سيرغي، إن كان ما زال على قيد الحياة، هي ملك ستالين؛ أمّا حياة ليوفا فقد كانت تبدو له أقرب إلى حياته هو، أكثر واقعاً. كان الألم الذي سيحدثه في نتاليا من الشدّة أنّه ما كان يجرؤ على أن يتلفظ بعبارة «مات»، فتمتم بأنّ ليوفا الصغير مريض جدّاً. لم تكن نتاليا سيدوفا تحتاج إلى المزيد من الكلمات لتعرف الحقيقة.

ظلّ الزوجان ثمانية أيام معتكفين في غرفتهما، لا يتلقيان زيارة ولا تعزية، بل لا يذوقان الطعام تقريباً، وحيدين، نتاليا وليف دافيدوفيتش: هي تقرأ رسائل ابنها الفقيد وتعيد قراءتها وتبكي؛ وهو، مستلقياً على جنبه، يبكي معها، ويتألم لما وقع لولده الشاب، ويقلّب فكره حول ما كان عليه أن يفعله لحمايته، وحول ما كان عليه أن يفعل ليحسن معاملته والتعامل معه، ويؤنب نفسه على أنّه لم يعترف بمجهوده الكبير اليومي، وعلى أنّه لم يجبره على الخروج من فرنسا. لكنّه قرر أنّ الواجب يحتّم عليه ألّا ينسى الألم: إنّه ثالث من فقد من أولاده، وهو لا يعرف متى سيبكي سيروجا، الذي ربّما لقي حتفه، ضحية أخرى من ضحايا كراهية المجرم.

بدؤوا شيئاً فشيئاً يحلّون عقدة الخيوط القذرة التي لفّت نهاية ليوفا، وفهموا أنّ شيئاً غامضاً ما يكتنف موته، وأنّ تلك النقاط السود لا يمكن أن تصدر إلّا عن مكان واحد: الكرملين. ظلّ أطباء العيادة الخاصة لا يفهمون سبب الانتكاسة، لكنّ واحداً منهم اعترف لجين بأنّه يشكّ في أنّ أحداً ما سممه بمادة مجهولة لديه. وبدا غريباً لجين وإيتان أن يغطّي

ليوفا على هويته في عيادة يديرها روس، وغريب أيضاً أن يقولا إنّهما لا يعرفان من اقترح عليه الذهاب إلى تلك العيادة. وفوق ذلك فهما لا يمتلكان أيّة فكرة عمّن يمكن أن يعرف بمكانه، غير كليمنت وهما.

كان ليف دافيدويتش واثقاً من أنّ ضميره لن ينفكّ يؤنبه. فموت الفتى، وبغضّ النظر عن أسبابه، كان مرتبطاً بمصير الأب أكثر من ارتباطه بمصير الفقيد؛ وكان موته نتيجة مباشرة لحياة والده وأفعاله. لقد تركهما غياب ليوفا، هو وزوجه، في وحشة لا قرار لها، أشعرتهما بأنّه كان الأقرب إليهما من جميع أبنائهما. «كان الجزء الشاب منّا. لن أغفر لنفسي أنّنا لم نكن قادرين على إنقاذه»، كتب، في ما يشبه تكريم الوداع. «الجيل القديم الذي بدأنا معه طريق الثورة أزيل من المشهد. ما لم يفعله النفي وسجون القيصر، وما لم تفعله المنافي والحروب والأمراض، تمكّن من فعله ستالين، السوط الأسوأ من بين سياط الثورة...»، كتب في الأسطر الأخيرة من سجل التعزية بوفاة ليوفا، وهو واثق من أنّ العالم، آجلاً أم عاجلاً، سيتحقق من أنّ ستالين هو من قتل الشاب الذي كان في صباحات باريس الباردة والفقيرة يوصل إلى المطبعة دعوات السلام والثورة البروليتارية التي من أجلها عاش وفي سبيلها مات... ليتحوّل الألم إلى غضب، وليمنحْني القوة على مواصلة الدرب! كتب، وأجهش بالبكاء.

-19-

ربّما كان الثامن من يناير من عام 1978 أبرد يوم من أيام شتاء ذلك العام. لقد عزوتُ غياب الرجل الذي كان يحبّ الكلاب إلى برودة الطقس وإلى المطر المتقطع الذي كان يجرف الساحل والرمال. وربّما مرض فلم يحضر إلى الموعد الذي اتفقنا عليه. في المساء التالي، وبعد أن سلّمتُ المسوّدات إلى المطبعة ركضتُ صوب طابور باص «لااستريّا» وعدتُ إلى شاطئ البحر. ومع أنّ الطقس كان ما يزال بارداً، كانت السماء صافية، وبدا البحر هادئاً على غير عادته في ذلك الوقت من السنة. انتظرتُ سدى، بين مسير على الشاطئ، واتكاء على أشجار «الكازوارينا»، حتى حلول الظلام. تكرر ذلك الروتين على مدى الأيام العشرة التالية، على الرغم من احتجاج راكيليتا: أقطع المدينة، وأعود إلى تلك القطعة من الشاطئ وأبتهل من أجل أن يظهر الرجل والكلبان لأنتهي من تلك القصّة التي شدّتني.

رحتُ أقلّب جميع الظروف الممكنة التي تبرر غياب لوبيث، وأنا أسلّي نفسي استحضاراً لعودته – أرمي بقطعة نقود إلى الهواء، أغمض عينيّ لعشر دقائق وأحسب الثواني وأشياء أخرى مماثلة–، ووجدتُ أنّ قتل داكس المعلن ومشاكل الرجل الصحيّة هي أكثر الأسباب احتمالاً. مع رحلتي العقيمة السادسة أو السابعة بدأتُ أتساءل إن كان من الأفضل أن أتحرى عن طريقة للوصول إلى لوبيث– وبدا لي خيط كلبي «البورزوي» الفريدين، اللذين شاركا في أحد الأفلام، الأقرب

إلى التحقيق-، لكنّي وجدتُ أنّ ليس من حقي أن أفعل ذلك وأنّ من الأفضل ألّا أحاول التحري عن مكانه: فإذا كان اللعب بالنار خطيراً، فما بالك بمحاولة القفز إليها والاكتواء بها؟ في شهر شباط، بدأتُ، بعد أن أوشكتُ على أن أدخل في أزمة مع راكيليتا، أباعد بين رحلاتي إلى الشاطئ، وبحثت، كمن يتعافى من حالة إدمان أخرى، عن السبل التي تعينني على تجاوز القلق الذي خلّفه فيّ ذلك الفراغ المرتقب والمليء بعلامات الاستفهام.

عقب سنوات طويلة اعترفتُ لصديقي داني بأنّني، يوم ذهبتُ لأعيد إليه كتبه عن تروتسكي، كنتُ على وشك أن أتغلّب على مخاوفي وأحكي له قصّة لقاءاتي مع الرجل الذي كان يحبّ الكلاب. كان مجرد تفردي بمعرفة قصّة، قادرة، في حدّ ذاتها، على هدم أسس الكثير من الأحلام، يلحّ عليَّ بأن أفرّغ الرعبَ الذي زرعوه فيّ، والذي صار يسبّبُ لي دواراً عقليّاً أسوأ من ذاك الذي كان لوبيث يعاني منه. كان ذلك التعامل الغامض الذي تنتهجه المبادئ السامية، ذلك التلاعب بالحقائق وإخفائها، تلك الجريمة التي تختطها الدولة سياسة لها، تلك الكذبة الكبرى التي لفقت بوقاحة، تولّد فيّ ما هو أكثر من السخط، وتبعث في كياني مخاوف متجددة.

أمّا أكثر ما كان يثير قلقي فهو، في الواقع، جهلي بمصير ميركادير، الذي لم أعرف عنه إلّا ما قرأته في القصاصة المحشورة في سيرة تروتسكي بأنّه أدخل إلى السجن في المكسيك واستقبل، بعد ذلك، بشيء من الجفوة نحوه ونحو أفعاله، في موسكو، حيث مات، كما قال لوبيث، مجهول الهوية، بل مجهول القبر.

ولما كنتُ عاجزاً عن إخراج الرجل الذي كان يحبّ الكلاب من تفكيري، فقد بدأتُ أتساءل إن كان من المناسب أن أتحرى عن أفكار رامون ميركادير ومشاعره وظنونه إبّان سنوات العقاب والحبس تلك، ثمّ حين عاد، بعد ذلك، إلى عالم لا يشبه - وإن ظلّ هو نفسه- العالم الذي

بدأ منه قبل عشرين سنة من ذلك الوقت، مملوءاً بالإيمان والقناعات، ومكلّفاً بمهمة قتل.

ما لم يخطر حينها ببالي، ولن يخطر، إلّا بعد سنوات، هو أن أضع بالأسود والأبيض الاعترافات التي أدلى لي بها لوبيث. لم يخطر ببالي أيضاً، بالطبع، أن أؤلّف كتاباً عن جريمة ميركادير وعن التاريخ وعن مصالح خالقي الكون المادي. ربّما لأنّ القصّة ظلت ناقصة، ولأنّ كثيراً من تفاصيل ما أعرف ظلّت عصيّة على فهمي وعلى قدرتي على ربطها ووضعها في سياق تاريخي، أو ربّما لأني ما كنت أدري إن كان لوبيث، كائناً من يكون هو، سيعاود الظهور في أيّة لحظة، وقد وعدته ألّا أقصّ الحكاية ولا أكتبها. ربّما لم أفكر في ذلك لأنّي نسيت أنني كنتُ أتمنى أن أصبح، في وقت من الأوقات، كاتباً، إلى درجة أنّني ما عدتُ أفكّر كما يفكر الكاتب. المشكلة أنّ فكرة كتابة تلك القصّة المنقوصة لم تخطر ببالي، وإن خطرت، فبطريقة خجولة – سترون في الحال أنّني لا أختار الوصف اعتباطاً–. لكن بعد عدة سنوات، حين بدأتُ أعصرُ ذاكرتي محاولاً استعادة تفاصيل ما قصّ عليَّ لوبيث، علمتُ أنّ سبب ذلك التأجيل الطويل، السبب الوحيد والحقيقي، هو الخوف. خوف ربّما أكبر منّي.

في الأشهر التي تلت اختفاء الرجل، وبأغرب الطرق وأكثرها تعرّجاً، وبصوت خفيض دائماً تقريباً، رحت أبحثُ عن الكتب القليلة الموجودة في كوبا، التي قد تساعدني على فهم العلاقة المأساويّة بين ستالين وتروتسكي، وما مثلته تلك المواجهة الوبيلة والنصر المتوقع لستالين ونهجه بالنسبة إلى مصير الفكرة الطوباويّة. نقّبتُ في جبل الأدبيات ذات الميول الستالينيّة، التي كانت ترد من موسكو، ونفضتُ الغبار عن منشورات الخمسينيات، التي تتراوح بين التروتكسية الأوليّة ومعاداة الشيوعية في الحرب الباردة، ورحتُ أقرأ، وأنا أبتلع ريقي،

«يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش» لسولجينتسين[125]، الذي نشر في كوبا قبل سنوات من ذلك الوقت، وأرتّب معرفة مجزأة وغامضة أحدثت فيّ، على الرغم من غموضها (كان ما زال أمامنا عشر سنوات تقريباً لحدوث الغلاسنوست[126] ووقوع أوّل فصل من فصول الكشف عن مستور الرعب)، شعوراً بالدهشة والشك (سرعان ما ستطفو القذارة على السطح)، وخصوصاً بسبب التلاعب الفظّ بالحقيقة الذي أخضع إليه الكثير من الرجال.

وفي تلك الأثناء، كنتُ أطلّ على الشاطئ، كلما استطعت، وأنا مقتنع بضرورة أن أغوي الحظ؛ ولطالما حسبتُ، وأنا أسمع جرس التلفون، أنّ لوبيث يطلبني.

كان حدثاً مؤلماً، وإن لم يفاجئني كثيراً، ذاك الذي انتشلني فجأة من شلل الترقّب والتفكير والقراءات الذي تركني فيه الرجل الذي كان يحبّ الكلاب. كان أخي وليام كافح طوال سنتين لكي تعدل الجامعة عن قرارها بفصله نهائيّاً من المدرسة الطبيّة. كان وليام، في معركة الرسائل تلك، التي لم تحظَ بأيّ ردّ، ومن خلال مقابلاته مع موظفين صغار، قد سلك طريقاً محفوفاً بالخطر والتحدي: طلب أن يقبلوه في الجامعة من دون أن يضطر إلى إخفاء صفته المثليّة التامة التي لا معدل عنها. خشيتُ أن يقع له مكروه (ما الذي يمكن أن يقع أكثر مما وقع، إيبان؟) سألني؛ فأجبته: «دائماً هناك ما هو أكثر»، حاولتُ أن أقنعه بأنّ المثليّة القديمة الوطنية، بكلّ انحطاطاتها الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، غير مهيأة لتقبّل ذلك التحدي، لكنها متهيئة لسحق كلّ من يبدأه. ربّما

125- ألكسندر سولجينتسين (1918-2008). روائي وكاتب ومؤرخ روسي معارض. حاز جائزة نوبل للأدب عام 1970. طرد من الاتحاد السوفييتي عام 1974 لكنّه عاد إليه عام 1994 بعد انهيار النظام الشيوعي هناك.

126- هي سياسة الانفتاح والشفافية التي انتهجها ميخائيل غورباتشوف، آخر رؤساء الاتحاد السوفييتي في نهاية الثمانينيات، وأدت إلى تفكك الاتحاد السوفييتي وانحلال عرى المنظومة الاشتراكية برمتها.

لم يحسن أخي وأستاذه السابق في علم التشريح، وهو المنخرط معه في المعركة، حساب قدرتهما على تجاوز نظرات الاحتقار ومختلف ضروب التحقير فحسب، بل لم يحسنا حساب إمكانيات النجاح لديهما أيضاً. لقد انتهت المضايقات والتهميش والإهانات التي تعرضا إليها في كلّ مكان ذهبا إليه طلباً للعدالة التي كانا يؤمنان بها، بتدميرهما، وأعلنا، بعد سنتين من المعارك الدامية، عن هزيمتهما بأشنع ما تكون عليه الهزيمة: حاولا الهرب عن الطريق الذي سيأخذهما إلى الخلاص المحتمل أو إلى الهلاك المؤكد.

اكتسب اختفاء وليام بعده المأساوي حين حضر رجلا شرطة إلى منزلنا ليبلغا والديّ بأنّ التحقيقات التي جرت حتى تلك اللحظة تشير إلى أنّ ابنهما، وليام كارديناس ماتوريل، والمواطن، فيليبي آرتياغا مارتينيث، وهو مدرس سابق للتشريح في كلية الطب، هما من سرق، استناداً إلى شهادة الحارس البحري في نهر «المنداريس»، مركباً بخاريّاً ليسافرا به عبر مضيق فلوريدا صوب الولايات المتحدة. وقبل يومين عثر صيادون على القارب من دون محركه، على بعد أربعين كيلومتراً تقريباً إلى الشمال من ماتانثاس، وبحسب مصلحة حرس السواحل الأمريكيّة، لم ينقذ، خلال الساعات الست والتسعين الأخيرة، أيّ شخص له مواصفات وليام كارديناس أو فيليبي آرتياغا. فهل لديهم أخبار عن ولدهم؟ هل يعرفان شيئاً عن خططه؟

تعلّق والداي - سارة وأنطونيو- بأمل أن يكون وليام في إحدى الجزر الرملية الصغيرة في الشمال الكوبي، أو في شاطئ منعزل من شواطئ الباهاما أو على متن سفينة لم تبلّغ، لأيّ سبب من الأسباب، عن عملية الإنقاذ. لكنّ الآمال بدأت، مع مرور الأيام، تنوء بثقل وزنها وتسقط، وتملّكهما شعور بالذنب لأنّهما منعا عنه دعمهما، مما ضاعف وطأة الإحساس بالرفض عليه، وسرعان ما تحوّل شعورهما ذاك إلى اكتئاب. وشعرتُ أنا بالندم، إذ لم أتضامن معه بالقدر الكافي، بل تركته

وحيداً في تلك المعركة غير المتكافئة التي ما كان أخي يتطلع فيها إلَّا إلى الاعتراف بحريته في اختيار جنسه، وبحقه، وهو المثلي، في إكمال الدراسة في اختصاصه الذي يحبه.

انقلبت أجواء التوتر في البيت إلى أجواء حزن. وفي شهور قليلة شاخ والداي وما عادا يخرجان تقريباً من غرفتهما. صار للبيت رائحة القبر والشعور بالذنب، واخترتُ، للتخلّص من تلك الأجواء، أن أهرب، فصرتُ أمضي ما أمكنني من الساعات في عملي، ثمّ، عند انتهائي منه، صرتُ أذهب إلى المكتبة الوطنية لأقرأ عن حياة الكتّاب المنتحرين وأعمالهم (أدمنتُ ذلك، وما زلت إلى الآن أجهل مصدر هذه الحاجة الشبيهة بالرغبة في جِماع الأموات). لقد قادت أجواء البيت الوبيلة، وقاد الابتعاد الجسدي والذهني، الذي كنتُ أحاول به الهروب، علاقتي براكيليتا إلى مرحلة أولى من مراحل أزمة - يبدو أنّ لديّ قوّة جذب مغناطيسي للأزمات- وصلت ذروتها حين قررنا الانفصال عن بعضنا لفسحة من الوقت. وخشيت أن تعيدني وحدتي ويأسي وحاجتي إلى الهروب من الواقع إلى معاقرة الخمر، والسقوط في هاوية الإدمان، وأنا الذي لم أفكر في ذلك طوال السنوات الخمس الأخيرة.

لكنّ المصائب توالت بعد سنة ونصف من اختفاء وليام، وبعد أكثر من سنتين من آخر لقاء لي بالرجل الذي كان يحبّ الكلاب- أتذكر دائماً أنّ عبارة «أتمنى لك الشيء نفسه» المطروقة كانت آخر ما قلته له، وأنا أتمنى له أعيادَ ميلاد سعيدة...-. في آذار من عام 1981 توفي والدي، وبعد أربعة أشهر، توفيت العجوز. لم أبلغ أحداً من أصدقائي الباقين، ولم أتصل بأغلب الأقارب ولا بزملاء العمل، لذلك لم يحضر المراسم التي سبقت دفنهما إلَّا القليل من الجيران والأقارب، الذين علموا بما حدث بطريقة من الطرق.

مع حالات الألم والفراق تلك تبدّى لي الحجم الحقيقي لوحدتي، ورأيتُ شاهداً على صروف الدهر والتاريخ التي تدخل عليك من نوافذ

الحياة لتدمرها من الداخل. وتحوّل بيتنا، الذي شيده أبي وأنا بعدُ طفل، ولمّا يولد وليام، إلى ما يشبه الأطلال التي تهيم فيها الأشباح والذكريات وأصداء ضحكات وبكاء وتحيات وأحاديث جرت بين جنباته على مدى خمس وعشرين سنة، حين كان بيت أسرة عادية على الأقل، إن لم أقل سعيدة، وقبيلة كان في إمكانها أن تنمو نموّاً منطقيّاً بانضمام راكيليتا وقدوم الأحفاد المتوقعين- طالما رغب أبي في البداية في الأحفاد- الذين يعيدون النضارة إلى تلك الجدران التي رفعها بجهده وحبه وساعديه.

كان داني أحد من حضر المراسم التي سبقت دفن أمي. كانت راكيليتا قد اتصلت به فجاء ليكون إلى جنبي وليعتذر عن عدم معرفته، حتى تلك اللحظة، بوفاة أبي. أذكر أنّ داني كان في ذلك الوقت مبتهجاً ومنزوياً، فقد كانت مجموعته القصصية الأولى قد ظهرت للتوّ منشورة بعد أن حظيت بالتقدير في المسابقة نفسها التي حصلتُ أنا فيها على تنويه... قبل عشر سنوات أو عشرة قرون. عقب يومين من دفن أمي عاد داني لزيارتي في البيت وطلب العذر عن عدم وفائه الذي تراكم، كما قال، معي: فلم يكن معي حين اختفى وليام، ولا حين مات أبي، ولا حين انفصلتُ عن راكيليتا، واعتذر، على وجه الخصوص، عن أنّني لم أكن أوّل من تلقى نسخة من كتابه المنشور، فكل ما سيفعله، قال، وما سيبلغه بوصفه كاتباً يعود الفضل فيه لي، ولنصائحي، وللكتب التي وجهته إلى قراءتها.

قلت له، ونحن نتكلم ونشرب القهوة في الشرفة المطلة على باحة المنزل، أن ليس عليَّ أن أعذر له شيئاً: فالحياة دوّامة وعلى كلّ منّا أن يوجّه دوامته. ولمّا كنتُ أشعر بالحاجة إلى الكلام مع أحد، فقد اعترفتُ له بأنّ شعوراً كبيراً بالذنب يطاردني، وحاول هو أن يقنعني بأنّني لستُ مسؤولاً عن أيّ شيء مما حدث وقال لي شيئاً لم يخطر ببالي حتى تلك اللحظة.

- إيبان، مشكلتك أنّك أمضيتَ حياتك وأنتَ ترمي بالذنوب على أسهل هدف أمامك. وقد اخترت دائماً تقريباً نفسك هدفاً، لأنّ ذلك أسهل ولأنّك هكذا تستطيع أن تتمرّد وتثور، وإن كان ما تفعل هو الاختباء. راجع نفسك وسترى ما فعلت: تخليت عن الكتابة وأدمنت الكحول وأغرقت نفسك في تلك المجلة الخراء ولم تحاول حتّى القيام بعمل تستحقه. حين تعرفتُ إليك كنتَ إنساناً طموحاً، وكان الناس يرون فيك شخصاً واعداً، وضعوا قصصك في كلّ المجاميع القصصية التي ألفها كتّاب شبان لهم منشورات...

- أنا كنتُ سراباً، داني. لم أكن كاتباً ولم أعد بشيء. لقد استخدموني حين كنتُ نافعاً لأنّهم لم يجيزوا جميع الكتاب الحقيقيين تقريباً. ثمّ وجهوا لي تلك العقوبة حين وجدوا الفرصة مواتية لذلك.

- كان عليك أن تواصل الكتابة، يا رجل!

- لقد تلاشت فيّ الرغبة، يا أخي.

أنا متأكد من أنّ داني في تلك اللحظة كان يقارن نفسه بي. فنجم التلميذ بدأ بالصعود، بينما خبا نجم المعلّم، وكان متلألئاً في زمنه، وانطفأ، وما عاد ممكناً حتّى تحديد المكان الذي شوهد فيه يبرق للمرة الأخيرة. أنا متأكد من أنّه شعر بالشفقة عليَّ. ولم يهمّني أن يكون ذاك هو شعوره.

أظنّ أن حضور داني أنقذني من السقوط في الاكتئاب، أو في ما هو أسوأ من الاكتئاب، ربّما. لقد دعاني صديقي، وقد قرر أن ينتشلني من تلك الحالة، إلى حلقات لقراءة قصصه، والتقيتُ هناك عدداً من أصدقائي الكتّاب القدماء، وكان بعضهم ما يزال مصمماً على أن يصبح كاتباً، لكنّي على وجه الخصوص اكتشفتُ وجود كتيبة جديدة من «كتّاب الرواية الشباب» كما كان يطلق عليهم آنذاك، بدؤوا يستخدمون أسلوباً مختلفاً في الكتابة، يؤلفون حكايات مختلفة، فيها عدد أقلّ من الأبطال وأكثر من الشخصيات البائسة الشقيّة، كما يحدث في الحياة الحقيقية؛

بدأ يعيرني كتباً لم يسبق لها أن نشرت في الجزيرة، وكان يحصل عليها عن طريق أصدقائه الذين يسافرون إلى الخارج؛ وذهب مرات عديدة ليلعب السكواش معي في ساحات الشاطئ، وأنا أعلم أنّه لم يكن مفتوناً بتلك اللعبة. ولم يكن يتصوّر أنّ هدفي الثاني، أو بالأحرى الأول، هو التطلّع إلى الرمال علّي أظفر برؤية كلبي الصيد الروسيين يتبعهما رجل يضع على عينيه نظارات مرقشة الإطار وعلى يده ضمادة. بعد أشهر انجرفتُ معه إلى حفلات أدبية فيها الكثير من الشراب، الذي شهد وفرته الخادعة في أعوام الثمانينيات، لمّا لم أكن أشرب، لقبوني بـ «المائي»، اجتماعات شبه مثقفة حيث يشعر المرء بأن الناس بدأت تتحرر من بعض القيود، وحيث يمكنك (وكان ذلك أهم شيء بالنسبة إليّ) أن تعثر على شاعرات أثيريات، يرتدين فساتين من القصب (هنّ يقلن إنّها هنديّة)، ويرفضن ارتداء حمالات الصدر، متحمسات لنسيان الشعر الرصين وتلقّي ما كنّا حينها نسميه مجازاً، وعلى طريقة ليثاما [127]، بـ «هديّة الفحولة»، أو بلهجة الهافانيين الأقحاح، بـ «القضيب الكامل المكتمل».

كنتُ أسير وراء داني إلى تلك الأماكن من دون حماس كبير، مع ذلك، فقد رحت أشعر، لا عن رغبة حقيقية، بل بسبب العدوى، بنبض يتصاعد حدّة ويوقظ الوحش المدفون في داخلي: الرغبة في معاودة الكتابة. بدأت حينها بالكتابة، بعد أن اقتنعتُ بأنّ لوبيث لن يظهر أبداً. بدأتُ أكتب القصة التي حكاها لي الرجل الذي كان يحب الكلاب، في بلوكات من الورق الأصفر كنتُ قد أخذتها من المجلة. بدأتُ أكتبُ وأنا لا أملك أدنى فكرة عن النهاية التي سأضعها لتلك الملاحظات التي سطرتها نقلاً عن حكاية طالما قطع الجهل وقلّة الحيلة مسالكها أمامي، ثمّ إنّني كنتُ أكتب وفي داخلي إحساس متنام بأنّني ألعب بالنار.

***

127- José Lezama Lima (1910-1976). كاتب وروائي وشاعر كوبي كان مغرماً بالاستعارات والصور المجازية.

كان من حسن حظي ومن أجل سلام روحي أنّ الحرارة الأدبية التي أحدثها فيّ قرب داني غادرتني حين عادت راكيليتا إلى العيش معي بداية عام 1982. في تلك السنة ولد لنا باولو، وفي عام 1983 ولدت فرانثيسكا، وعزمتُ على أن أستردّ حلمي في قدرتي على خلق كيان طبيعي: عائلة وضحكات أطفال وبكاؤهم من دون خطر أو عواقب.

كانت تلك فسحة من الهدوء. بدأت الحياة في البلد تتحسّن شيئاً فشيئاً، واستطعتُ أن أتفرّغ لرؤية أولادي يكبرون وأحلامي تتبلور في ذهني عن مستقبل قد يكون مشرقاً ينتظرهم. أمّا في موسكو فقد بدأ الحديث يدور عن تغييرات، عن تحسّن، عن شفافيّة، وفكر الكثيرون منّا في احتمال أن تسير الأمور على نحو أفضل، أن تكون الحياة أفضل، فحتى الصين اعترفت، بعد أن اجتازت ثورة ثقافيّة لا نعرف عنها إلّا القليل القليل، بأنّ ليس للاشتراكيين أن يعيشوا عيشة ضنك وعسر. من كان يصدّق!

وحدث أوّل شرخ في مركب هدوئي حين طلبت مني راكيليتا الطلاق، في عام 1988. لقد فعلت كلّ ما في وسعها، ولسنوات، من أجل الحفاظ على الزواج، مع ذلك كان واضحاً لكل ذي نظر أنّ علاقتنا لا تسير على نحو مُرضٍ، فما تسميه هي خمود الهمّة (الخراء)، التي أجابه به كلّ شيء، وما تعتبره هي غياب روحي (الخراء أيضاً) المكافحة من أجل الدفاع عن أبسط شيء في حياتي، انتهيا إلى شعور بخيبة الأمل والهزيمة. كانت راكيليتا تتطلع دائماً إلى أن الحصول على أشياء في الحياة: الترقيات، المكافآت، السيارات، وسائل الراحة، التي بدأت تصبح ممكنة التحقق للجميع في نظام اشتراكي يكتمل بنيانه وتنضج ظروفه. لكنّي، بحسبها،- وهي محقّة في ما تقول-، أكتفي بمداعبة منظورات مستقبليّة (للآخرين) من زاوية الحاضر التي قبعتُ فيها على أمل واحد ووحيد وهو أن يتركوني أعيش في سلام.

- أنت شقي وخاسر وآكل خراء - قالت لي (مراراً) في تلك الأيام-. لستَ كاتباً ولا أيّ شيء. خدعتني وما عدتُ أقوى على التحمّل.

وقد اعتادت أن تضيف لتختم كلامها:

- إن كنتَ أنتَ لا تريد أن تحيا حياتك، فعلّق نفسك في شجرة وانتحر، لأنّني سأفعل ما في وسعي لكي أعيش حياتي وسأفعل المستحيل لكي يعيش أولادي حياتهم.

ومع أنّ راكيليتا كانت محقّة في جانب (في أنّني رجل شقي: رجل غير سعيد)، فقد خانتها الكلمات وهي تصبّ جام كراهيتها وسخطها: أنا كنتُ مهزوماً أكثر مما كنتُ خاسراً، وبين هذه الحالة وتلك، هناك هوّة من الإشارات والدلالات، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وعلى الرغم من ذلك، فقد دفعت هي أيضاً بهروبها نتيجة سوء اختيارها: لم أكن أنا الرجل الذي كانت تبحث عنه، وما زلتُ لا أفهم كيف يقع شخص بارع في الحساب في مثل ذلك الخطأ الجسيم في التقدير.

لكنّ الضربة القوية التي تلقيتُها كانت بُعدي عن الأولاد، واشتدت معاناتي حين طال ذلك البُعد وامتد. وأظنّ أنّ داني، حتّى داني، كان سيوافقني، في هذه المرة، على اختياري، إذ لم أضع الذنب في ما حدث إلّا على نفسي، على الرغم من أنّني لم أكن، كالعادة، المسؤول الوحيد بالطبع. واكتمل ذلك السقوط الجديد - لا أدري كم مرّة سقطت؟ ربّما اثنتا عشرة مرّة- في الوحدة وفي الفراغ، حين وافقتُ، وأنا عاجز عن أيّة مقاومة أو صراع - ضمن دعوى الطلاق، على مقايضة بيتنا في «بيبورا بارك» ببيتين صغيرين هما شقة صغيرة مع حديقة وغرفتي نوم في حيّ سيفيانو السكني لراكيليتا والأولاد، وشقّة أخرى رطبة وداخلية ومتصدعة الجدران في «لاوتون» لتكون سكني. أعترف، مع ذلك، بأنّني شعرتُ بنوع من الحرية وأنا أغادر بيت الأسرة، المليء بالذكريات. وبدأتُ حياة راهب ديري جاءت لإخراجي منها، بعد عامين، تلك الفتاة التي لها مظهر العصفور الضعيف التي جاءت إليّ، والدموع تملأ عينيها، متوسلة أن أنقذ حياة كلبها البودل، المصاب بانسداد في الأمعاء.

***

على غير انتظار ولا توقّع وقع اتصال جديد ومقلق وتوضيحي مع الرجل الذي كان يحب الكلاب. كان العام 1983، قبل أشهر من ولادة فرانثيسكا. إنّما أحدد التاريخ لأنّني أتذكر جيداً حين جاءتني راكيليتا لتقول لي بأنّ هناك من يسأل عنّي، وكان ارتفاع بطنها يختلف عمّا كانت عليه حين حملت بابننا الأول باولو. ولئن عانيتُ، قبل ذلك بسنتين، وأنا أسأل نفسي عن الاقتران الفلكي الذي حملني إلى حيث لوبيث وحوّلني، بحسب ما قال هو، إلى الأمين على قصّة صديقه المرحوم رامون ميركادير، فقد عذبتني في تلك اللحظة قناعتي بأنّ الرجل الذي كان يحب الكلاب لم يدخل إلى حياتي بالصدفة، بل لاحقني عن نيّة وقصد، وما يزال، حتّى بعد أن ظننتُ، منطلقاً من منطق بسيط، أنّه مات ودفن، وحتّى بعد أن فرضتُ على نفسي وأفلحتُ، لمصلحتي ولمصلحة خمولي، في أن أنساه وأنسى ردود الفعل السلبية التي كانت تلك القصّة تولدها فيّ: كراهيّة وخوف وفضول وتقزز ورغبة في الكتابة تزداد مع الوقت خموداً، لكنّها، مع ذلك، ما انفكت نابضة وخطيرة.

وصلتني الرسالة - هذا إذا كان لنا أن نسميها رسالة، وهي لفافة تضمّ أكثر من خمسين ورقة مكتوبة بخط متصل، طفولي تقريباً، لكنّها جيدة التحرير صحيحته - على يد امرأة سوداء نحيفة. كانت، حسب ما قالت لي، إحدى الممرضات اللاتي اعتنين بلوبيث وقتَ تدهور صحته وتفاقم علّته: لم تتجرأ المرأة، بعد أن دخلت إلى الصالة، على أن تخترع لها اسماً أناديها به، وبدأتْ طالبة منّي أقصى درجات التكتم. حكت لي أنّها تحتفظ بتلك الأوراق منذ منتصف عام 1978، حين سلّمها إياها الرفيق لوبيث، كما دعته، قبل أن يغادر كوبا. لقد بلغ الرجل آنذاك حالة صحيّة حرجة وكان عليه أن يسافر ليخضع لعلاج بالصدمة. قالت إنّها لا تعرف طبيعة مرضه ولا وجهة سفره، كما لا تعرف إن كان ما يزال حيّاً أم لا، وإن كانت متأكدة من أنّ احتمال موته هو الأرجح، فقد كانت حالته بالغة السوء. قالت لي إنّ المريض طلب منها، قبل سفره، وبتكتم شديد، أن

تسدي له معروفاً وتسلّم ظرف المانيلا ذاك إلى شاب تربطه به صداقة، وأعطاها اسمي وعنواني الذي أسكن فيه. وعدتْه الممرضة بتنفيذ ما طلبه، لكنّها تأخرت قريباً من خمس سنوات لأنّها خشيت أن تُلحق بي أو بنفسها ضرراً. ولماذا تلحق ضرراً بي، لماذا؟ ألم يكن لوبيث جمهوريّاً إسبانيّاً بسيطاً يعمل ويعيش في كوبا ومعه جميع التراخيص اللازمة؟ أم إنّ الممرضة قرأت تلك الأوراق (واطلعت على الحقيقة)؟ لم تجب المرأة، التي كانت تتهرّب تارة وترد بحذر تارة أخرى، إلّا على سؤالي الثالث، وأضافت تعليقاً ذا دلالة: لا، هي لم تقرأ الرسالة، ولم تحدّث أحداً بوجودها، وهي تنتظر منّي قدراً مساوياً من التكتم، خصوصاً بشأنها هي وبشأن دورها في تلك القصّة. قبل أن تنصرف رجتني في ما بدا تحذيراً: إن سألني أحدٌ عن مصدر هذه الأوراق، فإنّها لا تعرف شيئاً عن ذلك ولم تكن قط في بيت المرسل إليه. واختفت.

من قراءة المخطوطة استنتجت أمرين أهمهما أنّ الممرضة الغريبة قد اطلعت على الرسالة، ولذلك كلّفها قرارُ حملها إليّ خمس سنوات. لم أفهم، بعد أن انتهيت من القراءة، كيف تغلبت تلك المرأة على مخاوفها وقررت الحضور إليّ. مع ذلك، شكرت لها أنّها لم تتلف الرسالة، كما كنتُ سأفعل ربّما لو كنتُ في مكانها.

في الملاحظة التي قدّم بها خايمي لوبيث للوثيقة، هو يعتذر منّي لأنّه لم يعد إلى الشاطئ، فقد منعه من ذلك مزاجه ومنعته صحته: لقد أثّر فيه تدهور حالة داكس واضطراره إلى قتله أيّما تأثير، واشتدّت عليه نوبات الدوار حتّى ما عاد يستطيع المشي، بل صارت تحول دون أن يركّز، لذلك أجروا له تخطيطات أخرى للرأس وغيّروا له العلاج فأعطوه حبوباً كانت تتركه شبه نائم طوال اليوم تقريباً. لكنّه لم ينسَ أنّه مدين «للفتى» بذلك الجزء من القصة. دخل، بعد الاعتذار عن خطه- تمنّى لو أنّي رأيتُ كيف كان خطه واضحاً وجميلاً - وعن الاستطراد الذي من المؤكد أنّه ارتكبه هنا أو هناك، في سرد ما يعرفه عن السنوات الأخيرة

من حياة صديقه القديم رامون ميركادير، بعد لقاء غير منتظر مع شبح الماضي ذاك، وتحديداً، في اليوم الذي سقط الثلج في موسكو للمرة الأولى في عام 1968.

بينما كنتُ أطالع الأوراق أحسستُ بالخوف قريباً منّي. فقد راح رامون ميركادير، بحسب الرجل الذي كان يحب الكلاب، بعد ذلك اللقاء العرضي المتجدد، يحكي له التفاصيل التي كنتُ أعرفها عن دخوله إلى عالم الظلمات، وتحوله الروحي، وحتّى الجسدي، وأعماله تحت جلد جاك مورنارد ومع اسم فرانك جاكسون. لكنّه حدّثه أيضاً بكلّ ما استطاع معرفته، مع مرور السنين، عن نفسه، وعن المكائد والمقاصد الرهيبة للذين قادوه إلى كويواكان ووضعوا في يده فأس متسلقي الجبال. ولئن ظننتُ أنّ لوبيث تجاوز مرات ومرات حدود الصدق، فإنّ ما رواه في تلك الرسالة الطويلة كان يتجاوز حدود الخيال، على الرغم من كلّ ما قرأته، منذ لقائنا الأخير، عن عالم الستالينيّة المظلم والمحكم الغلق.

ليس صعباً الاستنتاج بأنّ تلك القصّة (تلقيتها قبل سنوات ممّا كشفت عنه سياسة الغلاسنوست) كانت بمثابة انفجار ضوئي لم ينوّرني حول مصير ميركادير الكئيب فحسب، بل حول مصير ملايين الرجال. إنّها وقائع انهيار حلم، وهي شهادة على واحدة من أكثر الجرائم خسّة، لأنّها لا تتصل بمصير تروتسكي، الذي هو، في النهاية، طرف في لعبة السلطة تلك، وبطلٌ في العديد من فصول التاريخ المرعب، بل بمصائر الملايين الكثيرة من الرجال الذين جرّهم- من دون إرادة منهم، ومن دون أن يسألوا في معظم الأحيان عن رغباتهم- تيّار التاريخ وفورة الأسياد- المقنعين بمسوح المحسنين والمخلّصين والمختارين وأبناء الضرورة التاريخيّة والجدليّة المحتومة لصراع الطبقات-، جرّاً.

مع ذلك، لم أشكّ، حين قرأتُ رسالة خايمي لوبيث، في ضرورة أن تمرّ عشر سنوات أخرى - تقريباً ست عشرة سنة منذ آخر لقاء لي به- لأقع على المفاتيح التي سمحت لي في النهاية بوضع جميع أجزاء

لعبة «البازل» تلك، المصنوعة من قطع التعاسة وأطنان التلفيق والتعتيم، في مكانها الصحيح: على العناصر التي شكّلت الزمن ووضعت فعل رامون ميركادير في قالبه وسياقه. لقد شهدت تلك السنوات العشر أيضاً ولادة الآمال في البرسترويكا ثمّ موتها، وأحدثت في الكثيرين الذهول الذي نتج عمّا كشف عنه الغلاسنوست السوفييتي، وعن معرفة الوجوه الحقيقية لأشخاص مثل تشاوتشيسكو، والتوجه الاقتصادي الجديد للصين، مع ما تلا ذلك من كشف لفظائع ثورتها الثقافية والإبادة التي رافقتها، والتي جرت باسم النقاء الماركسي. سنوات من القطيعة التاريخية التي لن تتوقف عند قلب التوازن السياسي للعالم، بل ستؤثر حتّى على ألوان الخرائط، والحقائق الفلسفية، بل ستغيّر الرجال. في تلك السنوات تحقق اجتياز الجسر الرابط بين التطلع إلى ما يمكن تحسينه وخيبة الأمل بعد التحقق من أنّ الحلم الكبير كان مريضاً مرض موت وأنّ مجازر فظيعة، كالتي حدثت في كمبوديا في زمن بول بوت، قد ارتكبت باسمه. لذلك انهار ما بدا صلباً متيناً وتفتت، وصار ما كنّا نظنه غير معقول أو مزيفاً قمةَ جبل الثلج الذي يخفي في أعماقه أفظع الحقائق عما جرى في العالم الذي كافح من أجله رامون ميركادير. تلك كانت هي الاعترافات التي ساعدتنا على توجيه عنايتنا إلى الكتل الضبابية التي لم نرها طوال سنوات إلّا قليلاً وفي العتمة، وعلى إعطائها شكلاً نهائيّاً، يسهل تصوّر ما فيه من الفظاعة. تلك كانت هي الأزمنة التي تحددت فيها صورة الخيبة العظيمة.

-20-

شعر جاك بالزمن يعود به إلى الوراء: حين رأى كوتوف تذكر لقاءه به قبل سنتين في ميدان «كاتالونيا» الذي ما زال هادئاً. كان توم يتلقّى خيوط شمس آذار الواهنة كما الدبّ الذي فاق للتوّ من سباته الشتوي، فتح ياقة سترته الجلدية القصيرة وحمل في يده منديله المطبوع الذي اعتاد أن يلفّه على عنقه. لكنّ كلّ شيء كان قد تغيّر في حياة رامون وآماله خلال تينك السنتين. كان ذلك اللقاء، على دكّة في حدائق لكسمبورغ، اختباراً لتحوّلات كثيرة، كان من بينها تبخّرُ الحلم الإسباني والكيلوغرامات التي فقدها المستشار منذ آخر مرّة التقيا فيها.

- ما أروع هذا! أليس كذلك؟ - قال توم من دون أن يتحرك من مكانه.

- من حسن الحظ أنّك تفضل الحدائق على المقابر - قال جاك قبل أن يجلس إلى جنب مسؤوله. امتدت أمام عينيه البركة الواسعة والقصر والحدائق، حيث تتدافع الزهور الصفر، بقلبها الأرجواني، المولودة في آخر جُزُر الثلج، معلنة نهاية الشتاء. ومع هدية الشمس الربيعية الأولى، احتل المسنون والأمهات المرضعات الدكّات وبدا توم نشيطاً وسعيداً.

- كانت موسكو غطاءً من الجليد.

- هل كنتَ في موسكو؟

ردّ السوفييتي موافقاً. أشعلَ جاك سيجارة وانتظر. كان يعرف تلك الطقوس في معلمه.

- أردتُ أن أذهب إلى مدريد بالذي بقي من الجمهوريّة، لكنّهم أمروني بالخروج. ما عاد هناك الكثير لأفعله. النهاية مسألة أيام... تبّاً!

شعر جاك بسُخط رامون يحيط به من جديد، لكنّه أمسك نفسه، فقد يكون غضبه غير مناسب. منذ أيام وهو يشعر بالمرارة بعد أن علم أنّ بريطانيا العظمى وفرنسا بلغتا نهاية الاستهتار حين اعترفتا بالقائد الفاشي حاكماً شرعيّاً على إسبانيا. والآن يأتي الفرنسيون، الذين طالما تغنّوا بديموقراطيتهم الجمهورية، لا ليرسلوا باللاجئين إلى معسكرات الاعتقال فحسب، بل ليعيّنوا بيتان[128] سفيراً لدى حكومة فرانكو، بينما الجمهورية ما زالت قائمة. أمّا أكثر ما آلمه فهو أن يقرأ في الصحف الباريسية أنّ السوفييت تخلوا أيضاً عن إسبانيا حين أحسوا بدنو الكارثة.

- ماذا يقولون في موسكو؟ - تجرأ على سؤاله.

- ما نعرفه أنا وأنت: أن النصر على العدو غير ممكن من دون اتحاد. وهذه حقيقة: الجمهوريون يتقاتلون الآن في ما بينهم في مدريد، بينما يأمر فرانكو بتنظيف حذائه العسكري لحضور الاستعراض في جادة «غران بيّا». مسكينة إسبانيا، ما ينتظرها ليس سهلاً...

ندم جاك على أن سأل. عند الهزيمة هناك دائماً حجة ثابتة ومسؤول جاهز، هو دائماً نفسه.

ظلّ توم ساكتاً، ساكناً، وكأنّ الشيء الوحيد الذي كان يهمه هو تلقّي خيوط الشمس الباهتة تلك.

- في موسكو التقيت بيريا وسودوبلاتوف، وهو الضابط التنفيذي الذي سيقوم بمهمة الربط. طلب ستالين منّا أن نحرّك الماكنة.

- هل سنسافر إلى المكسيك؟ - وندم جاك مورنارد على أنّ لهفته تخونه.

- لن تذهب إلى أيّ مكان. لم يحن الوقت بعد. أنا سأسافر خلال

128- عيّن فيليب بيتان (1856-1951)، وهو عسكري فرنسي بارز، سفيراً في إسبانيا عند انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية عام 1939 ثم عاد في السنة التالية ليتولى رئاسة الوزراء قبل أن يعلن عن قيام الجمهورية الفيشية على جزء من الأراضي الفرنسية بمباركة من الاحتلال النازي.

أيام. ذكر البط اشترى بيتاً وسينتقل إليه. عليَّ أن أتعرّف على المسرح وأن أدخل بعض الترتيبات وأنظم بعض الأشياء... لعبة الشطرنج.

- وأنا ماذا أفعل؟

- تنتظر، عزيزي جاك، تنتظر، من دون أن تفكر، في هذه الأثناء، في عمل مجنون آخر... تستعرض نفسك في لوبيرتو وتوزع اللكمات...- خفض توم رأسه وبعد أن مرر منديله على وجهه، وكأنّه يريد أن يمسحه من الشمس، وركّز نظرة باردة وقاسية في جاك مورنارد، الذي شعر وكأنّه تجمّد من داخله-. أنا مُطلعٌ على كلّ شيء، أحمق... لا تلعب معي. إطلاقاً. فقد أنزع خصيتك يوماً ما و...

ظلّ الشاب ساكتاً. فأيّة محاججة قد تعقد وضعه.

- أنا أعرف أنّ من الصعب على رجل مثلك- واصل توم كلامه، وهو يعقد المنديل حول رقبته-، لكن الضبط والطاعة مقدمان على سواهما. ظننتُ أنّك تعلمتَ...- عاود النظر إلى تلميذه-. أيّهما أهمّ عندك: تهوّر شخصي أم المهمّة؟

كان جاك يعلم أنّ السؤال هو من باب الاستفهام البلاغي الذي لا يحتاج إلى ردّ، لكنّ صمت توم أجبره على الردّ.

- المهمّة. لكنّي لستُ من جليد...

- هل الأهم - واصل الآخر الكلام، وقد رفع نبرة صوته-، هو أن نحافظ على الأرض التي كسبناها، أم أن نفقد شخصاً ننتظر منه الكثير؟ لا تردّ عليَّ، لا تردّ عليَّ، فكّرْ فحسب...- منحه توم وقتاً للتفكير، وكأنّ ذلك كان ضروريّاً حقيقة، وأضاف-: سنفتح خطوطاً أخرى في المكسيك. علينا أن نشرع من البداية تقريباً، نزرع المنفذين المحتملين وننتظر أشهراً لنرى من منهم سنستعمل. أمّا أنتَ فستسير في اتجاهك الخاص، أنت ستظل سلاحي السرّي. أنا لا أستطيع أن أسمح بفقدانك. أعرف أنّك لستَ من جليد... كلّمتُ الرفيق ستالين عنكَ وهو موافق على أن نحتفظ بك باعتبارك ورقتنا الرابحة.

لم يصدّق رامون ما قاله توم: الرفيق ستالين يعرفه؟ ويعرف بوجوده؟ وهل يشغل هو حيزاً بين اهتماماته التي لا عدّ لها ولا حصر؟ لكنّه جاهد للسيطرة على شعوره بالزهو، ولكي يكون في مستوى الظروف، واعترف بما يعتبره هو أكبر نقاط ضعفه:

– عذراً، توم. لكنّي في بعض الأوقات لا أستطيع أن أتخلى عن كوني رامون ميركادير.

– أعرف ذلك، ومن الطبيعي أن تشعر بهذا. لكنّ جاك مورنارد عليه أن يتعلم كيف يتحكم برامون ميركادير ويسيطر عليه. هذه هي المسألة وهذا هو المطلوب. فهل في مقدورك أن تطلق رامون ميركادير وتحجزه بإرادتك ومتى شئت؟

– لا أدري...

حرّك توم جذعه وردفيه لأوّل مرّة. بحث عن أفضل وضعيّة لينظر إلى الشاب وابتسم له.

– أمامك الآن فرصة سانحة: ستكون في الوقت نفسه رامون ميركادير وجاك مورنارد. عليك أن تتعلّم كيف تفصل أحدهما عن الآخر في اللحظة المناسبة، ففي لحظة من اللحظات سيتحتّم عليك أن تخرج من جاك لتدخل في رامون ومن دون تفكير تقريباً. بالنسبة إلى الذين يعرفونك في باريس ستظلّ جاك مورنارد، بينما سيتصل رامون من جديد بكاريداد وبإخوته، وستكون في ذلك المحيط الحميم شيوعيّاً إسبانيّاً تملؤه الكراهية للفاشيين والتروتسكيين والطابور الخامس والخونة البرجوازيين الذين قضوا على الجمهورية والذين يهبون أيّ شيء مقابل زوال الاتحاد السوفييتي.

– لا تقلق. فهذه الكراهية مزروعة هنا – وأشار إلى صدره، حيث أحسّ بنبضات الكره قريبة جدّاً من مكان نبض الكبرياء.

– من الآن ستشارك كاريداد في العملية. أنا وأنتَ وهي سنكوّن فريقاً

واحداً. وما نقوم به لا يعلم به أحدٌ غيرنا. جورج مينك أصبح خارج الدائرة... استمع إلي، أيّها الفتى: نحن الآن في وضع بالغ الأهمية والدقّة، إنّه وضع تاريخي، وقد تمنحك الحياة الفرصة لكي تقدم خدمة لا تقدر بثمن للنضال من أجل الثورة والشيوعية. هل أنتَ مستعد لعمل ما يمكن أن تنال به أكبر مجد يحلم به أيّ شيوعي وتكون موضع حسد ملايين الثوريين في العالم؟

نظر رامون للحظات إلى عيني توم: كانتا شفافتين إلى حدّ أنّه لا يستطيع تقريباً أن ينظر من خلالهما. تذكر حينها جثمان لينين والزجاج الذي رأي فيه نفسه، وقد علا وجهه وجه القائد العظيم. ورأى في نفسه صاحب حظوة وامتياز.

- لا تشكنّ في ذلك لحظة واحدة - قال-. أنا مستعد.

***

بدا رامون أكثر راحة وهو يتعايش مع جاك مورنارد وكأنّه بدلة يرتديها في بعض المناسبات.

أجبره، في أسابيع الانتظار، التي تحولت إلى أشهر، على الكتابة باستمرار إلى سيلفيا واعداً إيّاها دائماً بلقاء قريب. وطاف معه أرجاء باريس، وتردد على صديقات صديقته، ولا سيّما صاحبة المكتبة جيرترود آليسون والشابة ماري كرابو، التي ذهب معها غير مرّة إلى السينما للتفرج على أفلام الأخوان ماركس الكوميديّة، واستمتع معها بما شاهداه حتّى بكيا من الضحك. أمّا جاك فقد ذهب إلى مضمار سباق الخيل، الذي تحوّل إلى مركز للقاء مئات الجواسيس، ومن كلّ جنسية، الذين كانوا يملؤون المدينة، وذهب إلى مقهى «لي دوماغو» الشهير وإلى أماكن أخرى مفضلة لدى البوهيمية الباريسية اللاهية لهواً عجيباً عمّا يلوح في الأفق من الأخطار.

وفي تلك الأثناء، سافر رامون، صحبة كاريداد والشاب لويس، العائد مؤخراً من إسبانيا، ولينا إمبرت المتوارية، إلى أنتويرب، من حيث يسافر

الشباب بحراً إلى الاتحاد السوفييتي، لكي يواصل لويس دراسته وينشأ ثوريّاً في بلاد البروليتاريا وبين الشيوعيين الإسبان الذين لجؤوا إلى هناك. زاروا في مرّات عديدة شقيقته مونتسي، المقيمة في باريس مع زوجها، الذي ما من شيء يميزه، بحسب كاريداد، غير مهارته في الطبخ.

راح رامون وكاريداد يبحثان عن علامات ومؤشرات العهد الجديد عن طريق متابعة الأخبار الواردة من موسكو، حيث تزعّم الرفيق ستالين مؤتمراً جديداً للحزب انتقد فيه، بشجاعته المعهودة، تجاوزات بعض المسؤولين أثناء حملات التطهير والمحاكمات التي جرت في السنوات الماضية. ووقع اللوم الأكبر، كما كانا ينتظران، على رأس يجوف فتوقعا له نهاية شبيهة بنهاية سلفه، ياغودا. أمّا ما كان مهمّاً بالنسبة إلى بلد السوفييت في حقبة رسم المواقف تلك إزاء تهديدات الحروب الإمبريالية، فهو بلوغ التلاحم الشعبي التام حول حزب مصبوب من حجر واحد، كذاك الذي نتج عن مؤتمر عزل فيه الأمين العام أكثر من ثلاثة أرباع أعضاء اللجنة المركزية المنتخبين قبل أربع سنوات، وأتى بدلهم برجال يتمتعون بإيمان ثوري صلب متين. فمتطلبات المرحلة تفرض نفسها والرفيق ستالين يهيئ البلاد لأشد ضروب المقاومة الأيديولوجيّة منعة وتحصيناً.

في ذلك الوقت، اكتشف رامون أنّ علاقته بكاريداد صارت تكتسي وجهاً مختلفاً. فهو الآن مركز مهمّة لم تكن هي تقدّر مداها حين ذهبت إليه ذات فجر وهو في جبال «غواداراما»، وفي ذلك ما يجعله في مستوى لا تستطيع أمّه بلوغه: لقد اضطرت نزعتها إلى التحكم بالمصائر إلى التراجع إزاء سلطات فاقت قدرتها. وربّما أسهم نفوذ توم وتأثيره في ذلك التغيير بأن طلب منها أن تظلّ في المكان الذي تشغله الآن، في علاقة مثلثة تعتمد كثيراً على توازن أطرافها. وبدا مرتاحاً وهو يلاحظ انكماش حضور كاريداد المستبد، وكان له في ذلك ما ساعد على ألّا تتعقد حالة خموله القسري بخلافات غير ضروريّة.

كان توم، الوفي لحركته الدؤوب، قد سافر إلى نيويورك والمكسيك في بداية نيسان، عقب وقت قصير من دخول قوات فرانكو مدريد. وحين عاد، في نهاية تمّوز، كان يحمل معه مزيجاً من الرضا والقلق على سير عمليّة ما زالت تسير على إيقاع متأنّ.

باقتراح من توم ذهبوا إلى آكس أون بروفانس. أمضوا هناك أسبوعاً كاملاً. تجوّلوا في طريق سيزان واستمتعوا بتناول الأطباق البروفنسالية، التي كان المستشار يعشقها. هناك أطلع توم رامون وكاريداد على تفاصيل الآلية التي انطلقت. شرح لهما أنّ الرفيق غريغوليفيتش (تساءل رامون منذ البداية إن كان الاسم هو الاسم الجديد لجورج مينك)، وعن طريق موازٍ لطريقه، استقرّ في المكسيك وبدأ العمل مع المجموعة المحلية التي ستنفذ الخطة الموضوعة بشأن ذكر البط. لقد اعتمد على مبعوث من الكومنترن وبدأ بكسب الدعم من الحزب، لكنّه اكتشف (ولم يفاجأ كثيراً) أنّ اثنين من قادته، وهما إيرنان لابوردي وفالنتين كامبا، لا يريدان الانضمام إلى العملية المحتملة، بحجة أن تروتسكي ما هو إلّا جثة سياسية وأنّ أيّ عمل عنيف ضدّه قد يعقد علاقات الحزب بالرئيس كارديناس. ذلك التردد من طرف القادة لم يمنعه من تأسيس هدفين آخرين: البحث عن مجموعة من الشيوعيين المستعدين للقيام بعمل مسلح ضد المرتد، والتحضير لحملة جماهيريّة رافضة لوجود تروتسكي في المكسيك، بهدف خلق حالة من الرأي المعاكس، أو العدواني، ضده.

في تلك الأثناء، كان رفاق توم في الولايات المتحدة قد تمكنوا من دسّ عدد من الشبان الشيوعيين بين صفوف التروتسكيين أملاً في أن يُرسل أحدهم بصفة حارس شخصي إلى جحر ذكر البط. فإن استطاع ذلك العنصر الوصول إلى عقر داره، فسيتكفل بالتبليغ عن تحركاته، بل وسيسهّل، بحسب إحدى الخطط المرسومة، دخول مجموعة كوماندوز أو عميل منفرد مكلّف بتنفيذ الاعتداء. وكما رأى توم بنفسه، فإنّ بيت تروتسكي الجديد حصين ولا يمكن اختراقه: فقد أضيفت، إلى

مواصفات البيت (أسوار عالية وأبواب مصفحة ونهر يجري إلى جانبه ويحول دون أيّ اقتحام من تلك الناحية)، منظومة مراقبة مؤلفة من سبعة رجال مسلحين، يضاف إليهم رجال شرطة مكسيكيون يحرسون الإقامة، ومنظومة إنذار كهربائية تصدر أضواءً وتطلق صفارات.

- وإلى أن نضمن تغلغل ذلك العنصر إلى داخل البيت، فإنّ الطباخة التي تعمل في بيت ذكر البط ستوافينا بالأخبار. إنّها إحدى عميلات الحزب.

- وأين مكان جاك من هذه الخطط؟ - أراد رامون أن يعرف مكانه على الرقعة القاتلة تلك، التي رسمت عليها كلّ التفاصيل، والتي تبدو شخصية المرتد عليها مسوّرة مطوّقة، دونما إمكانية للهرب.

- لكلّ مكانه. جاك سيواصل تقدمه، لا تقلق- قال المستشار وتناول رشفة من نبيذه.

احتل توم وكاريداد ورامون واحدة من تلك الطاولات التي وضعها أصحاب المطعم، منتهزين فصل الصيف، على رصيف الجادة الرئيسة في المدينة. طلبوا أطباق الطعام - اختار رامون بالصدفة طبق ذكر البط - وطلبوا نبيذاً خفيفاً ومرطباً يوقظ شهيتهم. بدوا لمن ينظر إليهم ثلاثة سيّاح برجوازيين وادعين، وكانت جلسة كاريداد ورامون على الطاولة وقبعة توم البنميّة، والأطباق الموضوعة أمام كلّ واحد منهم توحي بأنّهم من البرجوازيين المتنورين، العارفين بمتع دنيويّة يشترونها بالمال.

- حين تصلني التعليمات سنسافر ثلاثتنا إلى المكسيك - قال توم وهو ينظر إلى رامون-. دور جاك مورنارد في مطاردة الصيد تلك يعتمد على أمور كثيرة ما زالت بعيدة. لكنّ قدرة سيلفيا على إدخاله إلى البيت ستكون عاملاً حاسماً. ما زلنا لا نعرف إن كنّا سنستطيع أن نحشر الجاسوس الأمريكي بينهم، لذلك فمن المهم أن يكون جاك قريباً. فإن أخفقنا في كلّ ما خططنا له، أو لم تكن النتيجة مضمونة، لسبب أو لآخر، فسيتحرك جاك.

- ولماذا لا يستعملون الطباخة؟- سألت كاريداد-. يمكنها أن تدسّ له السم...

- هذا سيكون آخر الدواء. ستالين طلب عملاً له وقع، طلب أن يكون العقاب نموذجيّاً.

- ولا يستطيع أن يفعل الأمريكي ذلك؟ - سألت المرأة ثانية.

نظر إليها توم وصبّ المزيد من النبيذ في كأسه.

- مبدئيّاً، بلى. يمكن أن يكون تروتسكيّاً مستاءً اختلف مع زعيمه... لكن، ماذا إن أخطأ وأمسكوا به؟ من يضمن سكوت ذلك الرجل؟ - فتح توم توقفاً فيه ترقب، ليردّ بنفسه على نفسه-. هذا هو الخطر الذي لا نريد أن نواجهه... الاتحاد السوفييتي والرفيق ستالين لا يمكن أن يكونا موضع شبهة أو اتهام في العمليّة. هل سمعتَ ما قلتُ، رامون؟ - غيّر الرجل نبرة صوته الرتيبة-. ولذلك نعمل مع مكسيكيين، لكي يبدو الأمر وكأنّه شأنٌ يخصّ السياسة الداخليّة ويتصل بخلافات محليّة. لن يحصل المكسيكيون على أيّة معلومات حول ارتباط غريغولييفيتش بي هنا، بل عن اتصالاته بي في موسكو. إنّنا نفكّر في أنّ رجلاً من رجالنا، جمهوري إسباني مزعوم، تعرّف إليهم أثناء الحرب، سيساعد غريغولييفيتش ويتابعهم من الداخل. فإن قاموا بالمطلوب كما يجب، فمبارك لنا ذلك. ستكون المهمة قد أنجزت وسنكون نحن قد استمتعنا بإجازة مداريّة.

- مدينة المكسيك ليست مدارية جدّاً - تجرأت كاريداد على تصحيح كلامه وضحك توم مقهقهاً.

- عزيزتي، المدار هو أيّ مكان لا يلزمنا فيه قضاء نصف السنة ميتين من البرد وسائرين بين الثلوج.

***

كانت باريس تبدو وكأنّها توشك على الانصهار تحت أشعّة الشمس وأجواء الخوف: لقد أطاحت درجات الحرارة المشحونة بأجواء

الحرب، والمرتفعة في آب اللهاب ذاك، بفتور السياسيين وخدرهم، وأفسحت المجال أمام قلق متوتر سببته النبرة العدوانية في الخطاب النازي، التي قادت إلى تعبئة الجيش وقوات الاحتياط. سرت أنباء مقلقة عن تحشدات كبيرة للقوات الألمانية، وانطلق جدل حول الأهداف القادمة لتلك الإمبراطورية العدوانية التي التهمت النمسا وجزءاً من تشيكوسلوفاكيا وباتت مسنودة بحليف منهك، لكنّه وفيّ مخلص، يقبع جنوب جبال «البيرينيه». لقد استقرّ مشهد دنوّ الحرب، بعد مماطلة ومحايلة، في روع الباريسيين.

عاد توم إلى الاختفاء، من دون أن يبلغ بوجهته. أمّا رامون فراح، وهو يتقمّص أكثر فأكثر شخصيّة جاك مورنارد، يتحرّك بوتيرة أكبر في العالم الذي تقاسمه مع سيلفيا، بعد أن وجد، في حلقات التروتسكيين، مستويات من الحذر تبلغ درجة هستيريّة. أطلق المنفيّ من المكسيك حملة تحذيريّة تنبئ بقرب وقوع كارثة عسكرية، وراح يعبّر في كلّ مناسبة عن مخاوفه إزاء ضعف الدفاعات السوفييتية الناتج عن حملات التطهير التي جرت في صفوف الجيش الأحمر خلال السنتين الماضيتين. وكان جاك مورنارد، البعيد عن المشاعر السياسية، يستمع إلى تلك الحجج ويقرأ فيها حثّاً خفياً لأعداء الاتحاد السوفييتي لانتهاز ذلك الظرف الذي طالما أكّد المرتد عليه.

في صباح الثالث والعشرين من آب وصلت كاريداد مضطربة متوترة، فكأنها قدمت من ماضيها المضطرب، إلى بيت جاك. تنبّه الشاب، وكان يشرب قهوته محاولاً إزالة تأثير الشمبانيا التي عبّها ليلة البارحة، إلى خطورة الأحداث التي فاجأته وأيقظته من شدّة وقعها.

- الاتحاد السوفييتي والنازيون وقعوا معاهدة - همست كاريداد بالإسبانية. ومع أنّ الشاب لم يفهم معنى تلك الكلمات، وإلى أيّ جنون تشير، فقد أحسّ بأنّ رامون، الذي استيقظ وصحا، هو من يستمع إلى أمّه-. جميع الإذاعات تتحدث عن ذلك. ستصدر الصحف طبعات

لها منتصف النهار. وقعها مولوتوف وريبنتروب. معاهدة صداقة وعدم اعتداء. ولكن، ما الذي يجري؟

حاول رامون أن يقوّم المعلومة، لكنّه أحسّ بأن هناك ما ينقصه. كيف يتفق الرفيق ستالين مع هتلر؟ هل حدث ما كان ذكر البط يتوقعه؟

- وماذا يقولون أيضاً، كاريداد؟ ماذا يقولون؟ - صرخ، وقد صار أمامها.

- هذا ما يقولون. هراء! معاهدة مع الفاشيين!

انتظر رامون لثوانٍ، فكأنّه يحتاج إلى أن تذوب الصدمة في زحمة المبررات التي راح يبحث عنها بيأس، كتلك الخنازير التي كانت تبحث عن الكمأة في داكس إبّان مراهقته. وتشبث بالعمود الأكثر ثباتاً مما وقع في متناوله:

- ستالين يعرف ماذا يفعل، دائماً يعرف ماذا يفعل. لا تقلقي، هو وقّع معاهدة مع هتلر لأنّ لديه من الأسباب ما يجعله يفعل ذلك. لا بدّ أنّه فعل ذلك لسبب...

- في ميدان «الكونكورد» وفي «الريفولي» أحرقوا أعلاماً سوفييتية. الكثيرون يقولون إنّهم سيتركون الحزب لأنّهم يشعرون بأنّه خانهم...- نكأت كاريداد في الجرح أكثر.

- الفرنسيون الأنذال هم آخر من يتحدث عن الخيانة، تبّاً! كان ريبنتروب يدردش معهم هنا في باريس بينما كان فرانكو يذبح الجمهوريين.

انهارت كاريداد على الكنبة، وهي عاجزة عن تفنيد كلام رامون أو تأييده، أمّا هو، فعلى الرغم من قناعته التي عبّر عنها، فلم يكن قادراً على التغلب على الدوار الذي سيطر عليه. أين هو توم؟ لماذا لا يأتي بحججه؟ كيف له أن يغيب في تلك الساعة بالتحديد، في وقت الحاجة إليه؟

- أين ذهب توم؟ متى يأتي؟ - صرخ أخيراً، وهو لا يعي مقدار اعتماده على أفكار معلمه وكلماته.

سيتذكر رامون لسنوات ذلك اليوم المشؤوم. يوم واجه ما لا يمكن تصوّره بعد أن كُسرت كلّ القوالب التي تدعم معتقداته، فقد أصبح التقارب بين ستالين وهتلر، الذي حذّر تروتسكي منه طوال سنوات، حقيقة. وسيجد بعد أشهر أنّ خيبة الأمل كانت من الحجم أنّ العديدين من الشيوعيين الإسبان، المسجونين في معتقلات فرانكو، انتحروا بسبب شعورهم بالعار والاستياء وهم يسمعون بخبر التوقيع على الاتفاقية: كانت تلك آخر هزيمة يمكن لقناعاتهم أن تتحملها.

في اليوم التالي، حين فتح رامون المرتاب، الغارق بين صوت الراديو وكومة الصحف التي تحيط به، الباب، وهو ينتظر أنّه سيرى كاريداد مجدداً ماثلة أمامه، التقى وجهه بوجه مبتسم كان له أثر فوري في استعادة الطمأنينة التي بارحته طوال يوم ونصف يوم.

- ضربة معلّم- قال توم وهو يربّت على كتف رامون، حين صار هذا إلى جانبه-. لعبة لا تصدّق...

- هل كنتَ في موسكو؟ - كانت اللهفة ما تزال مسيطرة عليه.

- هل تحضّر القهوة؟ - كنس بيده الصحف التي كانت تحتل الكنبة، من دون أن يبدي اهتماماً في ما يفعل: نظّف لنفسه، بزفرة المتعب، مكاناً تجمعت فيه الأوساخ ليستريح عليه-. منذ يومين تقريباً وأنا لا أذوق طعم النوم- قال. فهم رامون الأمر. ذهب إلى المطبخ ليعدّ القهوة ومن هناك أعار توم سمعه-. قل لي الحقيقة، ماذا ظننتَ؟ سيظلّ هذا الأمر بيني وبينك.

لاحظ رامون، على الرغم من الحرّ، أنّ يديه بردتا.

- إنّ ستالين يعرف ما يفعل.

- حقّاً؟ أهنئك إذن. لأنّ الرفيق ستالين لم يكن في يوم من الأيام أكثر ثقة ممّا هو عليه الآن. بل إنّه واثق من شكوك الشيوعيين الأوروبيين.

- أنا شيوعي إسباني- قال هو، وسمع قهقهة توم.

- نعم. طبعاً. لا بدّ أنّك تذكر أنّ الديموقراطيات الأوروبية قبل عام سكتت على أن يقضم هتلر قطعة من تشيكوسلوفاكيا. فهل يريدون الآن ألّا يحمي ستالين الاتحاد السوفييتي؟

خرج رامون من المطبخ يحمل فنجانين كبيرين من القهوة، وبدأ توم بتناول قهوته على عجل.

- اسمع، أيها الفتى، لأنّ عليك أن تفهم ما الذي وقع ولماذا وقع. الرفيق ستالين يحتاج إلى وقت لإعادة تنظيم الجيش الأحمر. كان عليه أن يصفّي أكثر من ستة وثلاثين ألفاً من ضباط الجيش الأحمر بين جواسيس وخونة ومرتدين، وأربعة آلاف من البحرية. ما كان هناك بدّ من إعدام ثلاثة عشر من القادة الخمسة عشر، وإخراج ستين بالمئة من القيادات. وهل تدري لماذا فعل ذلك؟ لأنّ ستالين عظيم. لقد تعلّم الدرس ولا يمكنه أن يسمح بأن يقع عندنا ما وقع عندكم في إسبانيا... والآن قل لي، هل تظنّ أنّ في الإمكان والحال هذه قتال الجيش الألماني؟

بدأ رامون يتذوق قهوته. بدأ شيء من المنطق يجلي ضباب الشكوك. انحنى توم نحوه وواصل كلامه.

- لا يمكن لستالين أن يسمح بأن تغزو ألمانيا بولونيا وأن تصل حتى الحدود السوفييتية. أولاً هناك العامل المعنوي، لأنّ ذلك سيعني أنّنا نتنازل لهم عن قطعة من أرضنا. ثمّ هناك العامل العسكري: فمن بولونيا سيكون الفاشيون على بعد خطوة من كييف ومينسك ولينينغراد.

- وماذا تضمن لنا المعاهدة؟

- أولاً أن تكون بولونيا الشرقية لنا. وهذه هي أفضل طريقة للإبقاء عليهم بعيدين عن كييف ولينينغراد. وقد يتراجع الألمان، وهم على تلك المسافة منّا، وبعد أن نكون قد أخذنا وقتنا لتهيئة الجيش الأحمر جيداً، عن قرارهم بمهاجمة الاتحاد السوفييتي. وهذا هو ما يبتغيه ستالين من هذه المعاهدة. هل بدأت تفهم؟ - هزّ رامون رأسه موافقاً، بينما واصل هو كلامه-: الحسابات واضحة. الجيش الألماني يمتلك ثمانين وحدة،

وبها يمكنهم الانطلاق صوب الغرب أو صوب الاتحاد السوفييتي، لكن ليس صوب الجبهتين في وقت واحد. هتلر يعرف ذلك، لذلك وافق على التوقيع. لكنّ قطعة الورق تلك لا تعني شيئاً، لا تعني أنّنا نتنازل عن شيء. انظر إلى المعاهدة على أنّها حلّ تكتيكي، لأنّ لها هدفاً واحداً وهو كسب الوقت والمسافة.

- فهمت - قال رامون وقد أحسّ بأنّ توتره بات أخفّ-. على أيّة حال...- بدأ، لكنّ توم قاطعه.

- يسعدني أنّك فهمت، لأنّك ستضطر إلى القبول بكثير من الأمور التي قد تبدو للآخرين غريبة. الحرب على مرمى حجر منا، وحين تبدأ فعلينا أن نتخذ قرارات خطيرة وستنصبّ على رؤوسنا تهم فظيعة. لكن تذكر أنّ الاتحاد السوفييتي لديه الحق والواجب للدفاع عن نفسه، وإن كان ذلك على حساب بولونيا أو كائناً من يكون... من حسن حظنا أنّ من يقودنا هو الرفيق ستالين، الذي يرى أبعد مما يراه جميع السياسيين البرجوازيين... نظره بعيد إلى درجة أنّه أعطى الأمر بتحركك.

شعر رامون بهزّة. ومسح التغيير المفاجئ في موضوع الكلام، الذي أدخله فجأة في مناورة سياسية كبيرة، آخر بقايا الشك، وملأه بالفخر.

- هل أعطى الأمر؟

- بدأنا نقترب... كلّ شيء يعتمد على ما سيقع في الأشهر القادمة. إن اجتاح الألمان أوروبا فسنتحرك. لا نستطيع أن نغامر بأنّ يبقى ذكر البط على قيد الحياة. فقد يستخدمه الألمان زعيماً لثورة مضادة. ولا شكّ أنّه، بتطلعه إلى السلطة، وكراهية للاتحاد السوفييتي، لن يتردد لحظة واحدة في أن يعرض نفسه ليكون دمية هتلر في عدوان يشنّه علينا.

- وماذا سنفعل؟

بحث توم في جيب قميصه وأخرج جواز سفر.

- لا يمكننا أن نغامر بأنّ تغلق الحدود عليك هنا فجأة... ستسافر

إلى نيويورك... جاك مورنارد سيسافر، لأنّ الحرب ستبدأ، وهو ليس مستعداً للقتال من أجل آخرين. اشتريت هذا الباسبورت الكندي بثلاثة آلاف دولار وستقابل سيلفيا قبل أن تذهب إلى المكسيك، حيث ستعمل وكيلاً لتاجر يستورد المواد الأوليّة، اسمه بيتر لوبيك...

- هل أعود إذن إلى شخصيّة جاك مورنارد؟

- بيوم عمل كامل، لكن باسمين. فأنتَ في هذا الجواز فرانك جاكسون... لا تقلق، سأكون أنا وكاريداد قريبين منك طوال الوقت.

نظر رامون إلى الباسبورت وقرأ اسمه الجديد تحت الصورة فشعر بالسعادة لأنّه بات قريباً من قيادة معركة قد يتحدد فيها مستقبل الثورة الاشتراكيّة. حين رفع نظره رأى توم وقد غطَّ في النوم، ومال رأسه على كتفه بينما بدأ شخير عميق يصدر من فمه. تركه ليستردّ قوته، فبداية الحرب صارت قريبة منهما.

***

في الأيام التالية المثخنة بالشكوك، وفي السنوات الصعبة التي ستتبعها، كرّس رامون ميركادير الكثير من ساعات يومه لاستذكار حياة جاك مورنارد، واكتشف أنّه يشعر نحوه بجرعتين متساويتين من الإعجاب والشفقة. فما فعل جاك في تلك المناسبة، على سبيل المثال، كان شيئاً آليّاً، ميكانيكيّاً؛ كان قراراً بدا في تلك اللحظة الوحيد الممكن من شخص مثله: ما إن وصل إلى نيويورك حتى صعد إلى تاكسي وذهب للقاء سيلفيا. لم يفكّر حتّى في قضاء يومين للتمتع بالطواف في المدينة من دون أن يضطر إلى أن ينوء بعبء تلك المرأة الثقيل. ففي جاك قدر من البلادة، وعليه أن يطيع تشدد رامون وأوامر توم، فكر حين أصبح في وضع يسمح له بتفحص جاك من مسافة ناقدة وأن يرى بدائل أخرى لتصرفات مشابهة.

حين فتحت سيلفيا الباب ورأته، كانت على وشك أن يغشى عليها. كانت تلك المرأة المنبهرة، حتى اليوم الذي طردت فيه بقسوة من حلمه،

وعلى الرغم من الرسائل التي كان يؤكد لها فيها حبّه ووعده لها بالزواج واقتراب موعد اللقاء، تهتزّ في كلّ يوم من أيام الفراق، وبها خوف من أن تتبخر تلك الهبة السماوية وتعيدها إلى وحدة المرأة الثلاثينيّة القبيحة التي لا تنتظر شيئاً. لقد عانت خلال أشهر البعد تلك في كلّ لحظة وهي تفكّر في إمكانية أن يقع جاك في غرام امرأة أخرى، أو في أنّه لن يجد مكانه في حياتها التي تحياها، بين اجتماعات وعمل سياسي، أو في أنّه أكبر من أن تناسبه... أمّا الآن، فقد جعلتها سعادة وجوده بالقرب منها تذرف الدمع، وهي تقبله، فكأنّها تريد بحرارة شفتيها أن ترى فيه حقيقة واقعة ونهائيّة.

- حبيبي، حبيبي، حبيبي- كررت، كالممسوسة، بينما راحت تجرّه جرّاً نحو الغرفة في شقة بروكلين الصغيرة.

في تلك الليلة، وبعد أن أشبعا رغبتيهما، علمت سيلفيا بأنّ عشيقها هارب من الخدمة العسكرية. شرح لها أنّ قراره الثابت بعدم الانخراط في الجيش حمله على شراء جواز سفر من السوق السوداء، وقد استطاع بفضل ذلك الجواز الخروج من فرنسا. لقد كانت أمّه كريمة معه إذ منحته النقود لشراء الجواز (صارت الجوازات غالية جدّاً بسبب الحرب، قال)، والسفر، وزودته بعدة آلاف من الدولارات ليتمكّن من أن يعيش بها في نيويورك إلى أن يجد عملاً يغطّي نفقاته على نحو مُرضٍ. شعرت سيلفيا بالذهول من فرط سعادتها، وهي تستمع إلى قرار رجلها، الذي جاء في طلبها بعد أن أحرق سفن عودته.

أصرّ جاك على أن يخرجا لتناول العشاء. فاقترحت عليه أن يذهبا إلى مطعم قريب، وراحت تخطط للجولات التي سيقومان بها لكي يتعرف حبيبها على معالم نيويورك. خفّ جاك لشراء صحيفة مسائية من الكشك الذي كان صاحبه يوشك على إغلاقه. وما إن وصل إلى الكشك حتى صدم عنوان المسائيات الرئيس جميعها شبكية عينيه: ألمانيا تغزو بولونيا فجراً.

دخلا ومعهما عدة صحف إلى المطعم المتواضع، المفروش بطاولات من الفورميكا، وجلسا وعلّقا على ذلك الخبر بأنّه، بلا شك، بداية الحرب. كان في ردود الفعل البريطانية والفرنسيّة على الغزو الألماني نبرة لا يمكن أن تقود إلى غير إعلان الحرب، وهناك توقعات حول دخول الولايات المتحدة الحرب. أدرك جاك، وهو يقرأ الأخبار، أنّ توم حلل، ومن جديد، الاستراتيجيّة السوفييتية تحليلاً دقيقاً، وشعر بأنّه بات أقرب بخطوات إلى تنفيذ مهمته.

كشفت سيلفيا عن مهارتها في السياحة حين طافت به أرجاء المدينة الكبيرة. فقد كانت تعرفها شبراً شبراً بسبب عملها السياسي ونشاطها المجتمعي. استطاع جاك أن يرى بأمّ عينيه، في تلك المساحة المحدودة، التعايش بين الترف الباذخ والفقر المدقع اللذين تقوم عليهما مرآة الرأسماليّة. ومع وجود توم في أوروبا، خصص وقته كلّه لسيلفيا وشعر بالرضا لتمكنه من أشباع حاجات المرأة الجائعة المتعطشة دائماً.

وتنفيذاً للاتفاق مع توم، فقد صار جاك، بدءاً من الخامس والعشرين من أيلول، يتردد، في أيام متناوبة، على بار كائن في برودواي للالتقاء بمعلمه لكي يطلعه هذا على آخر التعليمات. أمّا الحجة التي كان يعطيها لسيلفيا فهي حاجته للبحث عن زميل دراسة قديم، مقيم منذ سنوات في المدينة، قد يساعده، عن طريق علاقاته، في العثور على عمل جيد.

في عصر الأول من تشرين الأول، حين رأى رامون أندرو روبرتس داخلاً بأناقة لافتة وحركات مدروسة راقية، شعر بالحسد يغزوه. فكم من الجلود يستطيع ذلك الرجل أن يستبدل؟ وأيّة قصّة ممّا رواه من القصص هي الحقيقية؟ وأيّ وجه منظور منه، غير إخلاصه للقضيّة، هو وجهه الحقيقي؟ إنّه يبدو واحداً من الممثلين الذين يظهرون في أفلام القتلة في شيكاغو التي تروق للأمريكان. حتّى ضحكته تنسجم مع مظهره السينمائي والإجرامي.

– ما أكثر المشاغل؟ – سأل بالإنكليزية حين جلس بالقرب من جاك.

- بل أكثر من الكثير، مستر روبرتس. تلك المرأة دائماً تطلب أكثر.

- استخدم حدّتك الإسبانية. لو كنتَ سويديّاً لابتلعتَ الخازوق - وضحك بصوت مسموع، بينما توجه بالكلام إلى النادل-: المعتاد، جيمي. ولصديقي أيضاً.

- وكاريداد؟- سأل جاك، وهو يخفي مفاجأته من البساطة التي يعامل بها روبرتس النادل.

- انسها الآن. أريدك أن تعيش طوال الوقت وتفكر كما يفعل جاك مورنارد.

- لماذا تأخرك كلّ هذا الوقت؟

- في زمن الحرب كلّ شيء يتعقد. كان عليَّ أن أبحث عن جواز سفر جديد، إذ لم أكن قادراً على الخروج بصفتي بولوني.

- وماذا علمتَ عن المكسيك؟

- كلّ شيء يسير على ما يرام. سأحتاجك هناك في ظرف أسبوعين.

- لعمل شيء؟

- عليك أن تتآلف مع المكان. منذ أن دخل الجيش الأحمر إلى بولونيا، بدأت الأمور تتحرك كما خطط لها الرفيق ستالين. أتوقّع أن يكون الأمر على وشك الصدور.

تناول مستر روبرتس الفودكا الباردة من النادل ثمّ أعاد الكأس إليه فارغة ولمّا يضع هذه الكأس الصغيرة أمام جاك.

- حضرتك اليوم عطشان، مستر روبرتس - قال جيمي، الذي ملأ الكأس وانسحب.

- في ظرف أيام ستتحول أوروبا إلى جحيم - زفر روبرتس.

- هل أصطحبُ سيلفيا معي؟

- مبدئيّاً يُفضل أن تتركها هنا. لديك عمل في المكسيك في شركة مصدرة. صديقك البلجيكي أوصلك بالسيد لوبيك، الذي يحتاج إلى

شخص يتكلم عدة لغات ويكون موضع ثقته أكثر من المكسيكيين. إنّه عمل سهل وجيد المرتّب... أمّا سيلفيا فسنحتاجها في المكسيك في ما بعد، حين تتمكن أنت من المكان.

- والجاسوس الأمريكي؟

عاد النادل بفودكا أخرى فأهدى له روبرتس ابتسامة رجل واثق وناجح.

- لا شيء لحدّ الآن. هذا أفضل. فلو جاء الآن فسيكون مبكراً جدّاً. غريغوليفيتش يعاني كثيراً مع المكسيكيين. كلّ واحد منهم يريد أن يسيّر الأمور على هواه وبسرعة.

ذاق جاك كأس الفودكا وعبّ روبرتس كأسه.

- منذ الآن أنت جاكسون في جميع المسائل القانونية؛ أمّا مع سيلفيا ومع الناس الذين تتعرف إليهم عن طريقها فأنت جاك. لاحظ طريقة كلامك. الفكرة هي أن تحسن إسبانيتك شيئاً فشيئاً.

رفع النادل الكأس الفارغة وأعادها ملأى. ابتسم له روبرتس. أمّا جاك فانتهى من كأسه ببطء.

- أراك قلقاً، يا فتى - قال روبرتس.

- أحياناً أشعر بالخوف من أن يكون كلّ هذا - فتح جاك مورنارد يديه، نحو البار، نحو المدينة - للتسلية فحسب. منذ سنتين وأنا أتهيأ لشيء ربّما لن أقوم به. تركتُ رفاقي في إسبانيا، ما عاد لديّ صديق واحد، تحوّلت إلى شخص آخر، وقد يذهب كلّ ذلك سدى.

انتظر مستر روبرتس أن ينتهي جاك من كلامه، وبقي صامتاً للحظات.

- طبيعة هذا العمل هي هكذا، أيّها الفتى. ترمي بالكثير من الخيوط، التي تنتهي بسنارات، وإن لم يكن هناك أكثر من سمكة. كلّ واحد منّا خيط بسنّارة. بعضها يصيب وبعضها يخيب، لكنّها جميعها تنجز مهمتها داخل الماء. من المهم جدّاً أن تتمكن من إصابة ذكر البط بدقة. كلّ ما نتمكن من معرفته عن الحركة داخل ذلك البيت سيساعدنا كثيراً. لكن،

في هذه الأثناء، ستظلّ خيطاً بسنارة. وأؤكد لك بأنّك ستكون السنارة الأقرب إلى تلك السمكة، السنارة التي تحمل أفضل طعم. في اللحظة النهائية، ربّما لن تخرج بالمجد كلّه، لكنّك ستكون قد أدّيت عملك بانضباط وصمت، وإن لم ينتبه أحد إلى أنّك كنتَ قريباً جدّاً من موقع المسؤولية العظيمة، في تلك اللحظة سيحظى رجال المستقبل بعالم أكثر أماناً وأفضل، بفضل تضحيات أناس مثلك.

- أشكر لك عزاءك ومواساتك. ها أنت تتكلم مثل كاريداد.

- أبداً. أنا لا أواسيك ولا ألقي عليك خطاباً: هذه هي الحقيقة. اذهب إلى المكسيك واستعدّ... وتذكر أنّني منذ أن رأيتك للمرة الأولى في برشلونه توسمتُ فيك الخير، وأنا لستُ ممن يخطئون بسهولة. لذلك وصلنا إلى هنا. هل تعلم كم من الموجودين في المكسيك يعلمون بوجودي؟ لا أحد. ولن يعلموه. إن كانوا هم المكلفين بإخراج ذكر البط من الطريق، فلن يعلم أحد أبداً بوجود من يدعى روبرتس، لا، توم، لا، لا، كان اسمه غريغورييف، أم كان كوتوف؟ المهم، كان لا بدّ من شخص يوقفهم أمام التاريخ. من كان؟... أنا جندي أقاتل في الظلام ولا أتطلع إلّا إلى تنفيذ واجبي.- أخرج مستر روبرتس عدة أوراق نقدية ووضعها تحت الكأس-. هيّا، قريب من هنا يُعرض آخر إفلام الإخوة ماركس.

ابتسم جاك ونظر إلى معلمه.

- أنا آسف، مستر روبرتس، عندي موعد على العشاء مع خطيبتي. أرجو أن نلتقي قريباً. وشكراً على الكأس.

- لا داعي للأسف مستر جاكسون. حظّاً سعيداً مع خطيبتك وفي عملك.

تصافح الرجلان ورأى روبرتس جاك وهو يبتعد نحو باب الخروج. عاد حينها إلى كرسيه واستند على المشرب.

- جيمي، أظنّ أنّ كأسي فارغة.

***

وقّع جاك مورنارد على الورقة وطواها بعناية. حين حاول حشرها في الظرف الذي يحمل اسم فندق «مونتيخو» وشعاره، فكّر رامون من جديد في أنّ صانعي الأوراق والظروف البريدية يجب أن يتفقوا: فإمّا أن يقصّر الأولون طول الورق وإما أن يضيف الآخرون بضع ملمترات إلى الظروف. ما كان شيء يزعجه أكثر من أن يتعرض شيء يرغب فيه تامّاً كاملاً إلى الأذى من دون ضرورة، لذلك جاهد ليحشر الورقة في الظرف بكلّ عناية، ثمّ بلل بلسانه طرف الظرف وأغلقه، قبل أن يضع فوقه المصباح لكي يكون اللصق محكماً.

انتهى من ارتداء ملابسه، وقبل أن يلبس قبعته كتب اسمه تحت شعار الفندق، ووضع عنوان سيلفيا آجيلوف في وسط الظرف. نزل، سلّم الرسالة في الاستقبال ثمّ خرج إلى جادة «لاريفورما = الإصلاح». وتحرك وسط الزحمة المعتادة على الرصيف بحثاً عن المرآب الذي اعتاد أن يترك فيه سيارته «البيوك» اللماعة ونظر من بعيد إلى الهندية التي كانت تبيع «التورتيّا» المسخنة على الصاج عند الناصية. رافقته رائحة دقيق الذرة الحلوة حتّى حافة سيارته السوداء البرّاقة. ومن دون أن ينظر إلى خارطة المدينة انطلق متجهاً إلى كويواكان.

لم يمضِ على وجود جاك مورنارد، الذي يحمل جواز سفر صادراً باسم المواطن الكندي فرانك جاكسون (لماذا لم يكتبوه Jackson بدلاً من Jacson؟ من الذي أسقط حرف الـK، ممّا أجبره على أن يشرح ويبرر)، في مدينة المكسيك إلّا أسبوع، لذلك لم يشعر بالملل بعد. بدأ بالتحضيرات الفنيّة اللازمة لتنفيذ مهمته ودعم شخصيته، بالإضافة إلى كتابة الرسائل إلى سيلفيا. وبعد أن اشترى سيارة مستعملة، لكنّها في حالة جيدة، فتح عنواناً بريديّاً في بناية للمكاتب في شارع «بوكاريلي»، وأعطى الموظف المسؤول سبباً لذلك، فهو ما زال يبحث عن مكان، لكنّه يحتاج إلى عنوان غير الفندق يتلقى عليه بريده. تجوّل في المكاتب والمطاعم ومتاجر وسط العاصمة، وهو يتكلّم بإسبانيته المتفرنسة، وخصّص

ساعات لقراءة الصحف الرئيسة ليطلع على تطورات السياسة الداخلية وليكوّن له رأياً تقريبيّاً عن الطريقة التي سيتكلم بها عن كلّ موضوع حين تحين المناسبة لذلك وأمام محاورين مختلفين. ووجد أنّ لدى أحزاب اليمين، كما هي العادة، نظرة بالغة الوضوح عن أهدافها، بينما الأحزاب اليسارية تمضي في تشتت وخلاف. وعاود الاطلاع على خرائط مدينة المكسيك، التي اشتراها هناك (كان قد مزّق الخرائط التي استعملها في باريس قبل سفره لكي لا تراها سيلفيا في حقيبته) واستردّ صورة المدينة، التي صارت بعض شوارعها وساحاتها وحدائقها مألوفة في عينيه.

على الرغم من غياب الإشارات المرورية المزمن، فقد قاد سيارته على نحو صحيح حتى تقاطع شارعي «لندن» و«أينديي»، في كويواكان. أوقف السيارة وأغلق أبوابها. راقب، وهو يحمي عينيه من أشعة الشمس بنظارة غامقة مؤطرة بإطار ذهبي اشتراها من نيويورك، البيت الأزرق، بيت دييغو ريبيرا وفريدا كاهلو، حيث عاش المنفي وقتاً جاوز السنتين. كان البيت بناءً محاطاً بسور عالٍ مطليّ بألوان زاهية، ولاحظ في أحد الجدران الجانبية فرقاً واضحاً بين قياسات بعض النوافذ التي يبدو أنّها أغلقت بالبناء عقب وقت طويل من بناء السور: إنّها بصمة الخوف. ابتعد وهو يدخن سيجارته باحثاً عن شارع «موريلوس»، ليدخل منه إلى جادة «فيينا»، وهي في الواقع شارع صغير مرصوف بالحجر يسير في موازاة نهر «جوروبوسكو». قبل أن يصل إلى الحصن بمنطقتين، اقترب من حانوت صغير وطلب من البائع الأدرد المقذى قنينة مرطبات. مسح، بلا تردد، فم القنينة قبل أن يعبّ ما فيها. كان البيت، المطلي بالأصفر المائل إلى البنّي، والمسوّر، يسيطر على المنطقة. أبراج المراقبة، المزروعة فوق الأسوار، تمنح الرجال، الذين كانوا في تلك اللحظة يتكلمون بحرارة وينظرون من حين لآخر نحو داخل البيت فكأنّهم ينتظرون شيئاً، ميزة وسيطرة. في الناصية أقيم بيت خشبي صغير يقف شرطي قبالته، وهناك شرطيان آخران

يحومان ببزتهما الرسمية بالقرب من البوابة المكسية بصفائح فولاذية، والمخصصة للسيارات. على يمينها باب أصغر منها مخصص لدخول سكّان البيت والزوار. أمّا الأجواء المحيطة بالمسكن فتخيّم عليها رائحة فقر مقيم، مما ذكّر جاك مورنارد بصورة القلعة القديمة الوسيطة المحاطة بأكواخ العبيد.

عبّ نصف ما في قنينة المرطبات ثمّ تقدم نحو البيت المحصّن. حاول أن يثبّت في ذهنه كلّ جزئية يراها، كلّ شجرة وحجرة محشورة في أرض تلك الجادة. ومرّ من أمام جحر ذكر البط، من دون أن يتوقف، وهو يضع القبعة على رأسه والنظارات على عينيه. لئن كان لاحظ على البيت الأزرق بصمة من الخوف فلديه الآن نصب من الرعب والهلع، فالرجل الذي ينزوي خلف تلك الجدران يعلم علم اليقين أنّ حياته عُلّمت بصليب محتوم، وهو يعلم أنّ ساعته حين تحين فلا الفولاذ ولا الحجر ولا الحراسة بقادرة على إنقاذه، لأنّ التاريخ قد أصدر حكمه عليه.

بينما كان يلف الناصية ويكتشف شرطيين آخرين في ذلك القاطع من السور، سمع صريراً معدنيّاً، فخفف من خطوه لينظر خلفه. فتحت البوابة وأطلت سيارة- دودج، تعرّف إليها في الحال- على الشارع المرصوف بالحجر. كان السائق رجلاً أشقر جسيماً، بينما جلس في المقعد المجاور رجل آخر قاسي النظرة يضع بندقية بين ساقيه. وصل من أحد الأبراج صوت يبلّغ، بالإنكليزية، عن أنّ الطريق نظيف سالك. خرجت السيارة إلى الشارع وعادت البوابة إلى الانغلاق. تحرك جاك صوب البناية الأقرب والتفت لمعاينة مرور السيارة، مخالفاً إحدى القواعد الأساسيّة. رأى عبر نافذة السيارة الخلفيّة امرأة، فاتحة لون الشعر، تطابق صورتها صورة نتاليا إيفانوفا سيدوفا التي درسها، وإلى جانبها، خلف السائق، رأس يعلوه الشيب، ووجه دقيق ومستطيل ينتهي بلحية صغيرة مستدقة. إنّه وجه الخائن الأكبر. أسرعت السيارة مثيرة غبار الطريق متجهة نحو خارج المدينة، فاستأنف جاك مسيره بسرعة عابر سبيل غير مهتمّ ولا معني بشيء مما يدور حوله.

عاد إلى سيارته وحاول، وهو يقودها على الطريق المؤدي إلى المدينة، أن يتخيّل شعوره وهو يلتقي في يوم ذلك الرجل الشرير الذي طال في وقت من الأوقات المجد الثوري، والذي يعيش الآن مطروداً ومطارداً من جرّاء خياناته التي ارتكبها بسبب تعطشه إلى الزعامة ونفاقه الذي هو طبع فيه. هل سيكون قادراً، إن قدّر له الاقتراب منه، على ضبط نفسه والامتناع عن الإمساك برقبة تلك السحلية الذي حرّض الطابور الخامس من أنصار حزب العمال الماركسي الموحد والذي يتكلم اليوم عن الضعف العسكري المزعوم للاتحاد السوفييتي؟ لقد نبع رامون ميركادير من مسامات جلد جاك مورنارد كما ينبع الطفح من الجلد. وتمنى من كلّ قلبه لو أنّ الحياة تمنحه الفرصة الكبرى لكي يكون ذراع أقدس صور الكراهية وأكثرها عدالة. ذراع بتّارة لا تعرف الرحمة. كان مستعدّاً لدفع الثمن المطلوب، بصمت وبلا مقابل. لقد بات مقتنعاً بجهوزيته لتلبية داعي التاريخ.

***

قدّم توم وكاريداد نفسيهما على أنّهما شريكان من مارسيليا، يعيشان في بحبوبة مادية، من دون أن يكونا ثريين، قرّرا الابتعاد عمّا يحدث في أوروبا وانتظار تطوّرات الحرب التي يزمع الفاشيون شنّها، بين لحظة وأخرى، على فرنسا. كانت الحياة في المكسيك من الرخص أنّ مواردهما المالية تستطيع المقاومة (من حين لآخر يعملان مع شقيق توم المقيم في نيويورك) وإلى أن يعثرا على بيت مناسب فهما يقيمان في شقق «شارلي كورت»، في شارع «سوليفان»، القريب بالصدفة من فندق «مونتيخو». يتكلمان الإسبانية السليمة، لكنهما متحفظان، غير منفتحين على الحياة الاجتماعية، وإن كانا يحبان الرحلات، التي قد تدوم أحياناً أياماً عدّة.

في بداية تشرين الثاني ردّ جاكسون على مكالمة هاتفية من صديقه القديم توم، يدعوه لزيارته في شقته في «شارلي كورت». حين وصل

في الساعة المتفق عليها كانت كاريداد بانتظاره عند باب الشقة. حين دخل كان توم في الداخل يراجع، وهو يجلس عند طاولة غرفة، بعض الأوراق. كان توم يرتدي ملابس غير رسمية: جاكيت رياضي من نسيج مختلط الألوان، منديل مربوط إلى عنقه وحذاء بسيط. حتى الابتسامة التي استقبل بها الشاب كانت مختلفة عن تلك التي كانت تملأ وجه ذلك الرجل الذي كان يدعى مستر روبرتس قبل شهر من ذلك.

- صديقي جاكسون! - نهض وأشار إليه بالجلوس على كنبة في الصالة-. كيف أنتَ والمدينة؟

اتخذ جاك مكانه ولاحظ أنّ كاريداد مختفية خلف حاجز يفترض أنّه المطبخ.

- القهوة مقززة.

- هذا ما نحاول إصلاحه، أليس كذلك، عزيزتي «بالفرنسيّة»؟- قالت كاريداد: «طبعاً»، من دون أن تخرج من المطبخ، وأضاف توم-: القهوة الكوبية، سترى.

- هل من جديد؟ - أراد جاك أن يعرف، بينما أخرج سيجارته.

- كلّ شيء يسير على ما يرام والطوق بدأ يتكامل.

- وماذا عليَّ أن أفعل في هذه الأثناء؟

- الشيء نفسه: تتعرف على المدينة، إن كان ذلك ممكناً لكي تفهم أسلوب تفكير المكسيكيين. ابقِ على سيلفيا أسبوعاً آخر في نيويورك. قل لها إنّ لديك عملاً كثيراً مكدساً في المكتب، لأنّ مديرك سيسافر من المكسيك في ظرف أسابيع.

دخلت كاريداد تحمل الصينية وفيها أقداح صغيرة. كانت الرائحة المنبعثة تدل على قهوة حقيقية. تناول الرجلان فنجانيهما وجلست كاريداد لتناول قهوتها. صنع دخان السجائر سحابة في الغرفة. نبّه سكوت كاريداد إلى أنّ شيئاً ما حدث، ولم يضطر إلى الانتظار طويلاً ليعرف السبب.

- رامون - قال توم وفتح فترة من الصمت-، لماذا تصرّ على معصية أوامري؟

فوجئ رامون بالسؤال وفوجئ بأن يسمع اسمه، وسجّل في دماغه نوع المعصية الممكنة وعثر عليها فوراً.

- أردتُ أن أكوّن انطباعاً أوليّاً عن المكان.

- أيّ انطباع وأيّ خراء! - صرخ توم صرخة قفزت لها كاريداد من كرسيها-. اللعنة على أمّك! أنتَ لا تفعل إلّا ما أقوله لك، ولا شيء غير ما أقوله لك! اللعنة! هذه هي المرة الثانية التي تخرج فيها من حدودك، وهي الأخيرة. إن حاولتَ مرّة أخرى أن تفعل ما يبدو لك، فستنتهي قصتك، ولا أظنّك، أيها الفتى، ستحرص حينها على أن تكون في أيّ من جلودك.

شعر رامون بالألم والاضطراب. من يكون هذا الذي وشى بذهابه إلى كويواكان؟ هل هو صاحب الحانوت الأدرد الذي باعه المرطبات؟ هل هو الرجل ذو العكازين الذي كان ينام في الشارع؟ كائناً من كان، فقد بدا له أنّ لتوم عيوناً مزروعة في كلّ مكان.

- كان خطأً- أعترف.

- أيها الفتى، أنا أنتظر أخطاءً من أيّ أحد: أستطيع أن أتحمّل تفاهات عصابة المجانين المكسيكيين هذه التي ننشئها، وأن أتساهل مع تفاهات حمقى الكومنترن، الذين يعتقدون أنّهم أصحاب الثورة وليسوا مجرد ممثلين نستطيع بنفخة واحدة أن نتركهم مكشوفي المؤخرة، لكنّي لن أتحمّل تفاهاتك، ولن أتساهل مع أخطائك... ضع هذا في رأسك مرّة واحدة وإلى الأبد: أنتَ لا تفكّر، أنت تطيع فقط؛ أنتَ لا تتصرف، أنتَ تنفذ فقط؛ أنتَ لا تقرر، أنت تنفذ فقط؛ أنت ستكون يدي التي ستطبق على رقبة ابن القحبة ذاك، وصوتي سيكون صوت الرفيق ستالين، وستالين يفكر من أجلنا جميعاً ونيابة عنّا جميعاً... تبّاً!

- ما حدث لن يتكرر. أعدكَ بذلك.

نظر إليه المستشار مطولاً وبعمق، وبدأ وجهه يرتخي.

- كيف بدت لك هذه القهوة؟ - سأل حينها، بصوت ألطف، بل ابتسم.

منذ عصر ذلك اليوم بدأ جاك مورنارد يشعر أكثر من أيّ وقت مضى بثقل أيام الخمول وبطئها. كان كمن يحمل في يده ورقة يانصيب بدأت أرقامها تنكشف، ومع الأرقام، مستقبله. فضعف التركيز لديه لا يسمح له بقراءة ما هو أكثر من الصحف، وطبعه يبقي عليه بعيداً عن الحانات والمواخير، لذلك اختار أن ينام أكبر عدد من الساعات. بل لقد شعر بالرغبة في أن يأمروه باستدعاء سيلفيا: سيكون لديه هكذا على الأقل ما يهتمّ به، شخص يشغل به دماغ جاك مورنارد، ويجد فيه تنفيساً مقبولاً، لكنّه مضمون، عن رغباته الجنسية المتضائلة. رافق توم وكاريداد في رحلات إلى أهرامات «تيوتيهواكان» وإلى بحيرة «توشيميلكو» وإلى مدينة «بويبلا»، التي ذكرته كثيراً ببعض البلدات القشتالية، لما فيها من كنائس تفوق في عددها المدارس؛ خرج مرتين مع توم إلى منطقة سان آنخل لممارسة إطلاق النار بالمسدس ومهاراته بالسلاح الأبيض. كانا يخرجان ليلة في الأسبوع برفقة كاريداد إلى أحد مطاعم المركز، حيث يتناول توم بنهم الأطباق الحرّيفة الكفيلة بإخراج الدموع من عيني رامون وكاريداد. كانوا يتحدثون عن الحرب - شنّ الجيش السوفييتي في ما بدا حملة سريعة على فنلندا-، وعن زحف فريق غريغولييفيتش، وعن تصاعد الحملة التي يقودها فيتوريو فيدالي، رجل الكومنترن، ضدّ وجود المرتد في المكسيك وعن حملات التطهير في صفوف الحزب الشيوعي المكسيكي التي ستبدأ حالاً. كان رامون ميركادير، وكما يقتضي دوره، لا يتكلم ولا يتصرّف إلّا بصفته جاك مورنارد، لكنّ الأحداث كانت تبدو وكأنها تتحرك بكاميرا بطيئة، فراحت اللهفة تتمكن من رامون المدفون فيه والنابض، مع ذلك، في عروقه. فصار، حين يكون بمفرده، غير مضطر إلى أن يبدو بلاي بوي مسرفاً ومسلياً، ينفق الكثير من لياليه بالذهاب

إلى دور السينما التي تعرض أفلام الغرب الأمريكي الجديدة، ويعاود مشاهدة أفلام الإخوة ماركس المفضلة لديه. كانت نكات غروتشو ومُزحُه، التي كان مفتوناً بتقليدها أمام المرآة، تبدو له نتاج موهبة لفظيّة لم يعرف لها مثيلاً وكانت مبعث إعجابه بمن يمتلكها.

حين قال له توم، في منتصف كانون الأول، إنّ في مقدوره استدعاء سيلفيا، علم رامون ميركادير أنّ شيئاً بدأ بالتحرك. سحبة اليانصيب قد تقع في أيّة لحظة ورائحة الخطر أزالت عن ذهنه ضباب خموله القسري. لقد بدأت المطاردة لاصطياد ذكر البط.

-21-

بيت النقابات في موسكو هو واحد من تحف الهندسة المعماريّة الروسية في القرن التاسع عشر. لقد قلب المهندس كازاكوف البناء، الذي شيّد في القرن الثامن عشر، إلى نادٍ للأرستقراطية الموسكوفيّة، ففي صالته الفخمة، المسمّاة بصالة الأعمدة، رقص بوشكين وليرمنتوف وتولستوي، من بين كثيرين آخرين، وصدح بموسيقاه جيكوفسكي وريمسكي كورساكوف وليست وراحمانينوف. لكنّ الصالة، ذات المواصفات السمعية الرائعة، استخدمت عقب الثورة قاعة لاجتماعات الحزب والندوات الدعائية: فيها تردد صوت لينين عشرات المرات، وفيها سجّي نعشه قبل أن يُحمل إلى ضريحه في الساحة الحمراء. لكنّ لييف دافيدوفيتش كان مقتنعاً بأنّ اسم القاعة سيُذكر على الدوام باعتبارها المكان الذي جرت فيه أفظع مهازل القضاء في القرن العشرين، وكان يعلم أيضاً أنّ الموت سيعود إلى ذلك البناء التاريخي ليقطف رؤوساً يانعة أخرى، بعد أن فتحت أبواب صالته الشهيرة مجدداً، في الثاني من آذار من عام 1938 المشؤوم.

منذ أن بدأت نتاليا ولييف دافيدوفيتش يبكيان ما حلّ بولدهما ليوفا، صارا يعرفان الشعور المؤلم الذي يعنيه التشبّث بالأمل الأخير، فقد تشبثا بأمل واحد هو أن يكون سيروجا على قيد الحياة. ومع أنهما لم يتلقّيا جديداً عن أخباره منذ أشهر، فقد سمح لهما جهلهما بموته بالتشبث بأمل ضئيل في أن يكون ولدهما حيّاً. أمّا حلمهما الآخر فكان سييفا: العضو الوحيد من العائلة، عداهما، الذي يعيش خارج الاتحاد

السوفييتي. لقد رجيا «جين» أن تأتي به إلى المكسيك، لعدة أشهر على الأقل، وتعينهما بوجودهما كليهما معهما على التخفيف من الألم الذي يشعران به بعد خسارة ولدهما.

لكن «جين» كانت قد قررت أن تطالب بتحقيق أوسع عن أسباب وفاة ليوفا، وكانت تستعد لتكليف محامٍ من أصدقاء عائلة مولينيه، على الرغم من أنّ روزنتال، ممثل تروتسكي القانوني في فرنسا، كان يرى ألَّا تحشر مجموعة مولينيه في القضيّة. طلب ليف دافيدوفيتش بأكثر الطرق دبلوماسيّة من «جين» أن تترك له موضوع طلب التحقيق، لكنّها أصرّت على المضي قدماً وقررت أن يظلّ سييفا معها في باريس لأنّه أصبح، كما قالت، خير سند لها. وكانت نتاليا سيدوفا، كما هي دائماً تقريباً، أوّل من توقع حدوث خلافات مؤلمة من تلك الجهة.

في تلك الأثناء كان إيتان النشيط قد تعهد بمواصلة العمل في «الوقائع» بباريس. في الأشهر الأخيرة كان ليوفا قد أكّد لوالده أنّ الفضل في تداول الجريدة يعود في كثير من الأحيان إلى جهود إيتان. وكانت ثقة الشاب في إيتان من القدر أنّه سلّمه، للحالات المستعجلة، مفتاح صندوق بريده الخاص. لقد تطوع إيتان أن يواصل المهمة التي بدأها ليوفا، جنباً إلى جنب مع كليمنت، في تأسيس الأممية الرابعة التي خطط لها. ليت إيتان يمتلك نصف ما كان للمسكين ليوفا من الفاعلية، قال ليف دافيدوفيتش، وهو يعلم كم يخدع نفسه بكلامه ذاك.

لم يفاجئه، في غمرة ذلك القلق والاضطراب، انعقاد المحكمة العسكرية العليا مجدداً في صالة الأعمدة. كان المنفي ينتظر أن تدور ماكنة الرعب في أيّة لحظة، لأنّ ستالين كان في حاجة إلى إتمام عمله في مسح الذاكرة، ذلك العمل الذي بدأه باغتيال كيروف، وشيّده بكلّ عناية وفاعليّة على امتداد السنوات الثلاث الأخيرة. حاول، وهو مبتئس، أن يركز همّه في ظروف المسرحية الجديدة، وأن يبعد عن ذهنه الشعور الوسواسي بالذنب والألم الذي يعصف به منذ موت ولده.

حين كشف النقاب عن القائمة التي تضمّ أسماء واحد وعشرين متهماً، وجد ليف دافيدوفيتش الكثير من الأسماء المتوقعة: ريكوف وبوخارين وراكوفسكي وياغودا واسمه هو، غيابيّاً. سيحاكمون أيضاً ذكرى ليف سيدوفا، مساعده الأبدي، وأشخاصاً أقلّ شهرة، بينهم أطباء وسفراء وموظفون. ثلاثة عشر من المتهمين كانوا من أصل يهودي. لقد رأى في هذا الإصرار على الزجّ بالعبرانيين في تلك المحاكمات على أنّه إشارة أخرى للتعاطف مع هتلر وشهادة على العداء المترسخ الذي يضمره ستالين للسامية. لم يكن في التهم الكثير من الجدّة، فهي التهم ذاتها التي ترددت في المحاكمات السابقة وإن أضافوا إليها المزيد، فدائماً هناك المزيد الجديد: ممارسة الإرهاب بحق الشعب وقادة الحزب، عمليات التسميم... أمّا الجديد المستجد الأكبر فكان أنّ العديد من المذكورين سقطوا سقوطاً مهيناً في أسواق الجاسوسية والجريمة فاتهموا بالعمل للمخابرات، لا الألمانية واليابانية فحسب، بل البولونية، وليس بمحاولة اغتيال الرفيق ستالين فحسب، بل بدسّ السم لغوركي وحتى لابنه ماكس. ولمّا بدا وكأنّهم ليسوا مجرمين بما يكفي، سُحبت جرائمهم لتشمل حقبة الثورة، بل وتواريخ سابقة، حين لم تكن هناك دولة تحاكمهم وتحكم عليهم. أمّا اللعبة الكبرى التي ابتدعها المدعي العام فكانت اتهامه ياغودا بأنّه كان الأداة المنفذة للأفعال التروتسكيّة، فكل ما قام به طوال عشر سنوات، من ملاحقات وسجن وتعذيب لرفاق ليف دافيدوفيتش، ومن زج بالآلاف من الأشخاص في معسكرات العمل، إنّما تمَّ بأوامر مضادة للثورة مصدرها تروتسكي وليست بقرارات من ستالين...

أحسّ المنفيّ بأنّ ذلك التطاول على الحقيقة أعاد له بعض قوته فكتب أنّ حفّار قبر الثورة يتخطّى حدود خبرته الماضية ويجعل إناء الثقة الأكثر انضباطاً وولاءً يفيض بما فيه. كانت غرابة التهم من الحجم أنّ من المستحيل ألّا يردّ عليها، مع أنّه قرر في البداية أن يكون ردّه ساخراً: فقد كانت سلطته، -كتب-، من الحجم أنّه، بأوامر منه أصدرها من فرنسا أو

النرويج أو المكسيك، جعل من عشرات الموظفين والسفراء، ممن لم يلقهم قط ولم يتكلّم معهم قط، عملاء لقوى أجنبية، وصاروا يرسلون له أموالاً، أموالاً كثيرة، لدعم منظمته الإرهابية؛ وأنّه جعل من كبار الصناعيين مخربين؛ وأجبر أطباءً محترمين على أن ينصرفوا إلى تسميم مرضاهم. المشكلة الوحيدة، -علّق-، هي أنّ أولئك الرجال هم قادة اختارهم وعيّنهم ستالين، أمّا هو فلم يعيّن، ومنذ سنوات طويلة، أحداً في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية.

الاعترافات الغريبة في أيام المحاكمة العشرة، والطريقة التي أجبر فيها رجال يحملون التاريخ على ظهورهم، من قدر بوخارين وريكوف، على الخنوع والاستسلام، لم تفاجئ ليف دافيدوفيتش. على العكس، فقد سبب له الاطلاع على اعتراف مناضل كبير كالراديكالي راكوفسكي[129] (وكان من الضعف أن سمحوا له بالإدلاء بشهادته وهو جالس) بالتهم الموجهة إليه، حزناً شديداً. فقد اعترف بأنّه سمح لنفسة بالانجرار وراء نظريات تروتسكية مغامرة، على الرغم من أنّ تروتسكي كان قد اعترف في عام 1929 بأنّه عميل بريطاني. فكم من الضغوط مورست لكسر كرامة رجل عانى من النفي والحبس لسنوات من دون أن يتخلّى عن قناعاته، وهو عالم بأنّه يعيش أواخر أيام حياته؟ هل كان أحدهم يؤمن حقّاً بأنّه باعترافه يقدم خدمة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، كما كان يطلب منهم أن يقولوا؟ لا شكّ أن ليف دافيدوفيتش يعترف في قرارة نفسه بعجزه عن فهم استعراضات الذلّ والجُبن تلك.

وقعت في بداية المحاكمة حادثة أظهرت هشاشة هيكلها. كان بطل الحادثة كريستنسكي[130]، الذي تجرأ وردد طوال جلسة مسائية أن

129- كرستيان راكوفسكي (1873-1941). زعيم شيوعي بارز من أصل روماني-بلغاري. في محاكمة الواحد والعشرين هذه حكم عليه بالحبس عشرين سنة ثمّ أعدم ضمن تصفيات أخرى.

130- نيكولاي كريستنسكي (1883-1938). من الزعماء البلاشفة. انحاز إلى طروحات تروتسكي منذ عهد لينين.

اعترافاته أمام جهاز الجيبيو كاذبة، وأصرّ على براءته من جميع التهم. لكنّه صعد في اليوم التالي إلى المنصة ليقرّ بأنّ اعترافاته السابقة صحيحة، وأضاف إليها غيرها، لا شكّ أنّها لفقت له على عجل. فبأيّة حجج كسروا إرادة رجلٍ يعلم أنّه سيعدم؟ كانت مصلحة أمن الدولة الجديدة تطوّر أساليب بثّت الفزع في القلوب حين كشف النقاب عنها، أساليب سبَّب الكشف عنها الحدث الأعظم الأكبر في مجرى المحاكمة، حين اعترف ياغودا، بعد أن صرح ببراءته أولاً ثمّ عدل عن ذلك، حين أصابه ما أصاب كريستنسكي، بأنّه أعدّ لاغتيال كيروف بأوامر من ريكوف، الذي كان ينفس على الأول صعوده الخاطف.

أمّا نجم المحاكمة فقد كان نيكولاي بوخارين الذي بدا، بعد سنة من الحبس في أقبية اللوبيانكا، مستعدّاً لأداء آخر مشاهد سقوطه السياسي والإنساني. مع أنّ بوخارين نفى مسؤوليته عن النشاطات الإرهابية والتجسسية الأشد وقعاً، فقد اكتشف ليف دافيدوفيتش أنّ تكتيك بوخارين يسير على مبدأ القبول بما لا يقبل، بقناعة وتأكيد يحاول من خلالهما أن يثبت للمراقبين الفطنين زيف لائحة الاتهام. مع ذلك، فقد لاحظ الثوري المحنّك خطل فكرة بوخارين وخطأ توقعاته، لأنّه يحاول أن يطلق صرخة تحذير إلى أناس منتبهين واعين، يعرفون (على الرغم من سكوتهم) أنّ كلّ تلك التهم غير جديرة بالتصديق، حالها حال التهم التي سمعت في المحاكمات السابقة. أمّا الجمهور العريض، الأكبر، أمّا الذين يتابعون من موسكو والعالم مجريات المحاكمات، فقد استخلصوا من كلماته استنتاجاً واحداً يثبّت عليه التهم ويهدّ استراتيجيته: لقد اعترف بوخارين، قالوا، وهذا هو المهم. هل فضّل بوخارين العودة إلى موسكو لينتهي راكعاً باكياً ومقرّاً بجرائم مختلقة؟ تساءل ليف دافيدوفيتش، وهو يتذكر الرسالة الدراميّة التي وصلت إليه من فيدور دان [74].

كان واضحاً لليف دافيدوفيتش أنّ ما كان ستالين يبحث عنه من

وراء المحاكمات لم تكن الحقيقة، بل تدمير المتهمين إنسانيّاً وسياسيّاً. حين أعدم المدانين في المحاكمات السابقة، أجبرهم على أن يموتوا وفي وعيهم أنّهم لم يلحقوا الإهانة بأنفسهم فحسب، بل حكموا على الكثيرين من الأبرياء. لذلك تفاجأ من أن يتشبّث بوخارين، الذي تعلم بلا شك درس البلاشفة الذين سبقوه في تلك المحنة، بأمل وهمي في إنقاذ حياته. في واحدة من الرسائل الكثيرة التي وجهها بوخارين، وهو قابع في أقبية اللوبيانكا، إلى ستالين، والتي تعمّد حفار قبر الثورة أن يعممها على أوساط معينة، وصل الأمر ببوخارين أن قال له إنّه لا يشعر بالحب العظيم واللامحدود إلّا نحوه ونحو الحزب ونحو القضية، وإنّه يودعه بعناقه في أفكاره... إنّ ليف دافيدوفيتش ليتصوّر مدى الرضا والراحة التي يشعر بهما ستالين وهو يتلقى رسائل كتلك، رسائل تجعل منه واحداً من جلادين قلائل في التاريخ يتلقون التعظيم من ضحاياهم بينما يدفعون بهم نحو هاوية الموت... في الحادي عشر من آذار رُفعت جلسات المحكمة بانتظار صدور قرارات الحكم. وعقب أربعة أيام نفذ حكم الإعدام بالمدانين، كما أكدت صحيفة «البرافدا»...

منذ أن بدأت ترتيبات تلك المسرحية اعتكف ليف دافيدوفيتش في غرفته، فقد كان من المؤلم أن يحاول الردّ على الأسئلة التي يطرحها عليه الصحفيون ومحازبوه ومعاونوه وحراسه وهم يبحثون عن منطق يتجاوز منطق الكراهية والوسواس التآمري والجنون الإجرامي لدى الرجل الذي يتحكم بسدس الكرة الأرضية وبعقول ملايين البشر في جميع أنحاء العالم. كان ليف دافيدوفيتش يعلم أنّ هدف ستالين الوحيد الممكن من تلك المحاكمات هو تشويه سمعة خصومه الحقيقيين والمحتملين وإزاحتهم وتحميلهم مسؤولية كلّ واحد من إخفاقاته. مع ذلك كان يفوته أنّ عملية التشويه تلك كانت موجهة إلى المجتمع السوفييتي، الذي صدقت نسبة معتبرة منه كلّ ما نشر وأشيع، على الرغم من صعوبة هضمه وتصديقه. أمّا الهدف الكبير الآخر فقد كان بثّ الخوف

وإشاعته، وخصوصاً بين من كان لديهم شيء يخشون فقدانه. لذلك كان المعنيون الأولون بتلك العمليات التطهيرية هم البيروقراطيين: لقد ضرب ستالين بتلك الاستراتيجية عشرات من رفاقه، وبضمنهم العديد من أعضاء المكتب السياسي وأمناء الحزب في الجمهوريات، وهم جميعاً ستالينيون وصفوا، بين عشيّة وضحاها، بالخونة أو الجواسيس أو عديمي الأهليّة. ولئن كان المعارضون في أوقات أخرى عرضة للتشهير والفضح العلني، فقد كان الستالينيون يُدمرون بصمت ومن دون محاكمات مفتوحة، بالطريقة ذاتها التي كان يقتل فيها شيوعيو البلدان الأخرى اللاجئون إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، الذين يبدو أنّ ستالين كان يتغذّى بهم بعد انتفاء الحاجة إليهم.

الأدهى والأمرّ هو أن تلك العمليات التطهيريّة أثّرت على المجتمع السوفييتي كلّه. وساعدت مساهمة الجماهير فيها، كما هو طبيعي في دولة مؤسسة على رعب عمودي وأفقي، على انتشارها هندسيّاً: إذ لم يكن ممكناً الشروع في حملات ملاحقة كالتي شهدها اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية من دون إثارة الغرائز الأدنى للناس، ومن دون أن يشعر كلّ شخص بالخوف من السقوط في شباكها، لأيّ سبب، بل من دون سبب. لقد أسهم الرعب في توليد بيئة مواتية لإثارة مشاعر الحسد والانتقام، وخلق جوّ من الهستريا الجماعية، بل وما هو أسوأ من ذلك: الاستهانة بمصائر الآخرين. كان التطهير يتغذى على التطهير، وما إن تندلع حملة من حملاته حتى تنطلق قوى جهنمية تجبرها على المضي قدماً والنمو...

كان ليف دافيدوفيتش، قبل ذلك بأسابيع، قد تلقّى شهادة مأساوية على الرعب الذي يعيشه مواطنوه حين كتبت له صديقة قديمة تمكنت من الفرار إلى فنلندا بأعجوبة: «من المرعب أن ترى نظاماً قام لحماية كرامة الإنسان ينجرف إلى مكافأة الوشاية وتمجيدها والحثّ عليها، ويستند إلى كلّ سافل ومنحط من وجهة النظر الإنسانيّة. إنّ الغثيان

ليبلغ حنجرتي حين أسمع الناس يرددون: أعدموا فلاناً وأعدموا علاناً، وأعدموا وأعدموا وأعدموا. لقد فقدت الكلمات من كثرة ما ترددت معناها. الناس يتفوهون بها بهدوء تامّ وكأنهم يقولون: لنذهب إلى المسرح. أنا التي عشتُ تلك السنوات في الخوف وأحسستُ بأني مجبرة على الوشاية، أعترف عن رهبة، ولكن من دون شعور بالذنب، فقدت من رأسي القسوة المعنوية للفعل (أعدم)... أشعر بأننا وصلنا إلى نهاية العدالة في الأرض، إلى حدود فقدان الكرامة الإنسانيّة. لقد مات الكثير الكثير من الناس باسم ما وعدونا بأنّه سيكون مجتمعاً أفضل»...

***

وصل أندريه برتون[131] فأخرج ليف دافيدوفيتش من بئر آلامه الشخصيّة والتاريخية. تلقاه دييغو وفريدا بالحرارة المنطقيّة التي تناسب لقاء أبي السرياليّة، المتمرد الأبدي الذي تحدى أقدس القواعد إذ رأى أنّه ورفاقه انضموا إلى الحزب الشيوعي الفرنسي امتثالاً للانضباط الحزبي باعتبارهم مواطنين... وليس باعتبارهم سرياليين.

عقب اللقاء الأول، الذي خيّمت عليه أجواء التعزية، طلب ليف دافيدوفيتش من الشاعر أن يمهله عدة أيام ليرتب أفكاره قبل البدء في المشروع الذي جاء به إلى المكسيك: إنشاء اتحاد عالمي للفنانين الثوريين. كان يعلم أنّه سيعمل بكل حبّ وسيبذل الكثير الجهد: ليس من السهل على أحد، حتى على من كان مثله، تحمل عبء ذلك الموت والألم. ثمّ إنّ الوضع المشتعل في المكسيك يبقي على المنفي قلقاً مضطرباً. لقد هاجت المشاعر وبلغت حدود الانفجار حين أعلن الرئيس كارديناس عن تأميم النفط وردّ وزير الخزانة الأمريكية مهدداً بالامتناع عن شراء الفضة المكسيكية: احتشد مليون من الناس في ميدان «ثوكالو» للتعبير عن دعمهم للرئيس كارديناس، لكنّ الحديث كان يدور

131- André Breton (1896-1966). كاتب فرنسي وشاعر ومنظر الحركة السرياليّة ومؤسسها وأحد رموزها.

في الوقت نفسه عن تمرد محتمل ضد الحكومة. كان ليف دافيدوفيتش يعلم أنّ ذلك الوضع يجعلهما، هو ونتاليا، في حالة حرجة: فقد يستغلّ مأجورو الشرطة السريّة السوفييتيّة حالة الهرج والمرج ليقفزوا عليهما، فما عاد وجوده، بعد المحاكمات الأخيرة، وبعد تصفية القيادة البلشفية القديمة، مهمّاً لستالين.

قبل وصول برتون وزوجه جاكلين، بدأ الشيوعيون في فرنسا وفي المكسيك حملة مناهضة للشاعر الفرنسي. كان الفرنسيون، الذين انفصل برتون عنهم عام 1935، يصفونه بيهوذا، وبما هو أسوأ بالطبع: بالمتعاطف مع تروتسكي؛ أمّا في المكسيك فإنّ الستالينيين المحليين، وعلى رأسهم لومباردو توليدانو وإيرنان لابوردي، أطلقوا حملة دعائية أكثر شراسة ضد الشاعر وضد ليف دافيدوفيتش، بينما قرر جان فان هاينورت أن يخصص بعض الحراس الشخصيين لحماية برتون أثناء المحاضرات التي كان هذا يعتزم إلقاءها في أنحاء البلاد.

كان الكلام عن الأدب والفن، عن السريالية والطليعية، عن الالتزام السياسي والحرية الإبداعية، بلسماً لجراح المنفي. لقد ذكّره وجود برتون وروحه الأدبية بأنّ حلم حياته، منذ أن كان طفلاً، ثمّ حين صار شابّاً طالباً، كان أن يصبح كاتباً، وإن أخضع بعد وقت قصير ذلك الهوى وكلّ أهوائه للعمل الثوري الذي رسم حدود وجوده.

كان دييغو هو الدليل في الجولة التي أخذ فيها آل برتون وتروتسكي إلى الآثار القديمة السابقة لعهد كولومبس. زاروا المتاحف والفنانين المحليين الذين قبلوا بحضور المنفي. اعترف الحبر الأعظم للسريالية بشعوره بالذهول إزاء الأسواق المبرقشة والمقابر ومظاهر التدين الشعبي، التي عادة ما يرى فيها «السرياليّة في حالة نقيّة»، سرياليّة أكثر دلالة من تصادم المظلة ومن ماكنة الخياطة على طاولة التشريح، ولذلك عدّ المكسيك «أرض السريالية المختارة».

حين بدأ ليف دافيدوفيتش وبرتون العمل في إعلان الكتّاب

والفنانين الثوريين، الذي سيدعوان فيه إلى إنشاء اتحاد عالمي، شعرا، بلا شك، بالتوتر المتفجر الذي كانت روحاهما العنيدتان تولده، وشعرا، في الوقت نفسه، بإمكانية التفاهم المتولدة من الحاجة المشتركة. لقد أوضح دييغو ريبيرا، منذ البداية، أنّهما سيتكفلان بالدراسات النظرية، وإن كان لا يمانع في اشتراكه هو بالتوقيع عليها، فالثلاثة ينطلقون من اتفاق أساس: الحاجة الملحّة إلى طرح بديل سياسي لمثقفي اليسار، وهي حجّة تسمح لهم بالتصالح مع الفكر الماركسي في وقت بدأ فيه الكثير من المبدعين، المستائين من موجات القمع المنطلقة في موسكو، بالابتعاد عن الفكر الاشتراكي.

في تلك الحوارات كان برتون يرى ضرورة وجود تمييز مهم: إنّ مثقفي اليسار الذين ربطوا فكرهم بالتجربة السوفييتية يرتكبون خطأً فادحاً في المفهوم، فليس سواءً السير إلى جانب طبقة ثورية والسير في مؤخرة ثورة منتصرة، وخصوصاً حين كانت تلك الثورة ممثلة بطبقة جديدة عازمة على خنق الإبداع الفنّي بيد شموليّة... لكن، وعلى الرغم من التهم الصادرة من أتباع ستالين، فإنّ ابتعادهم عن الحزب لا يعني قطيعة مع الثورة، ولا طبعاً مع العمال ونضالهم، قال. كان خلافه الأكبر مع لييف دافيدوفيتش يدور حينئذٍ حول مفهوم يريان كلاهما أنّ من الضروري تقريره بوضوح. كان موقف المنفي من تلك المسألة قاطعاً لا يقبل الأخذ والردّ: «كلّ شيء جائز في الفن». حين سمع برتون ذلك ابتسم وأبدى موافقته، لكن بعد إضافة أمر عدّه جوهريّاً: «كلّ شيء»، شرط ألّا يكون مضرّاً بالثورة البروليتاريّة. تذكر برتون أنّ لييف دافيدوفيتش نفسه كان قد قاله هكذا، فأوضح له المنفي أنّه حين كتب «الثورة المغدورة» كان التشويه الجمالي في الاتحاد السوفييتي قد بلغ مستويات مخيفة، لكنّ أحداث السنوات الثلاث الأخيرة حطّمت الحاجز. إن كان على الثورة البروليتاريّة أن تمرّ بعهد من الإرهاب، بل بإرهاب ينسف جوهرها، فليس هناك ما يبرر فرض شروط على الحرية

الفنيّة: كلّ شيء يجب أن يكون جائزاً ومسموحاً به في الفن، أكّد، وعاد الفرنسي إلى إضافة: ما لم يكن مضرّاً بالثورة البروليتاريّة؛ ذلك هو المبدأ المقدس الوحيد.

كان برتون هو ذلك المجادل الفطن الذي طالما راق للمنفي وأرضاه. فقد كان إقناعه بشيء لا يوافق قناعته يمثّل تحدياً ذكّره بصديق شبابه بارفوس[132]، أيام تحوّلت الماركسية إلى فكرة متسلطة على تفكيره. حينئذٍ ذكّر ليف دافيدوفيتش السريالي، وهو يبحث عمّا يدعم به حججه، بما انتهى إليه ماياكوفسكي وغوركي، وصمت آخماتوفا وأوسيب ماندلشتام وبابيل القسري[133]، وانحدار رومان رولان والعديد من السرياليين السابقين المخلصين للستالينيّة، وشدّد على أنّ ليس من الواجب القبول بأيّ تحديد، بأي شيء يمكن أن يقود إلى القبول بتحريفات تريد الدكتاتوريّة أن تفرضها على المبدع بحجّة الضرورة التاريخية أو السياسية: على الفن أن يهتمّ بمتطلباته الخاصة به ولا شيء غيرها. ما عاد ممكناً في الوقت الحاضر، وبسبب القبول بشروط سياسية كان هو نفسه قد دافع عنها (صار يندم على الكثير مما فعله)، قراءة الأشعار والروايات السوفييتية من دون الشعور بالتقزز والهلع، ولا التطلّع إلى لوحات التوفيقيين المنقادين: لقد تحوّل الفنّ في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية إلى تمثيل صامت وتقليد بالإشارات: هناك موظفون متسلحون بالقلم أو بالريشة، يعملون تحت رقابة موظفين آخرين مسلحين بالمسدسات، وليس أمامهم إلّا تمجيد القادة الملهمين العظام. أمّا ما حملهم على ذلك فهو شعار الإجماع الأيديولوجي، الحجة

132- ألكساندر بارفوس (1867-1924). اشتراكي ثوري ولد في روسيا البيضاء. سجن مع تروتسكي إثر مشاركتهما في ثورة 1905.

133- أنا آخماتوفا (1889-1966) من أبرز الشاعرات الروسيات في القرن العشرين. إسحاق بابيل (1894-1940) صحفي وكاتب ومسرحي سوفييتي. أعدم في حملة التطهير الكبرى. أوسيب ماندلشتام (1891-1938) شاعر من أصل يهودي- بولوني. اعتقل بتهمة كتابة قصيدة يشير فيها إلى ستالين بأنّه (دب الكرملين الجبلي).

القائلة بأنّهم مطوقون من قبل أعداء الطبقة، والمبرر الأبدي القائل بأنّ الوقت ليس مناسباً للحديث عن المشاكل وعن الحقيقة، أو لمنح الحرية للشعر. سيظل الإبداع خلال عهد ستالين، فكّر، هو التعبير عن أعمق درجات الانحطاط الذي أصاب الثورة البروليتارية وليس لأحد الحق في أن يعرّض الفن في مجتمع جديد لخطر تكرار تلك التجربة المحبطة... «الحرية مقدسة للفن، فيها يكمن خلاصه الوحيد. وكلّ شيء فن، يجب أن يكون كلّ شيء»، خلص إلى القول.

في تلك الحوارات التي كانا يحاولان من خلالها إصلاح العالم، اكتشف ليف دافيدوفيتش، بشيء من المفاجأة، أنّ برتون مبهور بدراما الحياة، أكثر من انبهاره بأيّة نظرية أخرى، وأنّه طالما تناول موضوع الصدفة والحظ ودوره في الأحداث التي ترسم المصير. لقد اعترف ليف دافيدوفيتش، أثناء أحد تلك الحوارات، السطحيّة في ما يبدو، والتي تفرض نفسها من دون أن يُعرف لها مصدر على وجه الدقة، وهو يتحدث له عن سييفا وتأخر سفره إلى المكسيك، بمبلغ حبّه للكلاب. وأسف أمام برتون على أنّ حياة التشرد التي عاشها حالت دون أن يمتلك كلباً منذ أن ودّع كلبه السلوقي الروسي في جدار مقبرة بيوك آضه، وتحدث له عن طيبة كلبته مايا وعن الودّ الذي تشعر به تلك الفصيلة من الكلاب تجاه أصحابها. تبيّن له حينئذٍ أنّ أكثر السرياليين سريالية رجل على درجة عالية من المنطق حين دحض تلك الفكرة ونبّهه إلى أنّه ينساق وراء عواطفه. أوضح له أنّه حين يتكلّم عن الحب الذي تحمله الكلاب، فهو يحاول أن ينسب إلى الحيوانات مشاعر تقتصر على البشر.

حاول ليف دافيدوفيتش، بحجج عاطفية ربّما أكثر منها عقلانية، أن يردّ على الفرنسي ويقنعه: هل نستطيع أن ننكر مشاعر الودّ التي يبديها الكلب تجاه صاحبه؟ فكم من القصص تروى عن ذلك الودّ وتلك الصداقة؟ لو أنّ برتون عرف مايا ورأى علاقتها به لكان غيّر رأيه. قال له الشاعر إنّه يفهم ما يقول وأوضح له أنّه أيضاً يحبّ الكلاب، لكنّ

المشاعر تصدر منه هو، لأنّه الإنسان. قد يعبّر الكلب بطريقة بدائية عن معرفته بالتمييز بين تأثيرات علاقته بالبشر: الخوف من الإنسان الذي يمكن أن يتسبب له في ألم، مثلاً. لكن إن أقرّوا بأن الكلب يحب، فعليهم أن يقرّوا أيضاً بأنّ البعوضة تعي أنّ لسعتها قاسية، وأنّ السرطان يتعمد أن يسير بطريقته العكسية المعروفة... ومع أنّ ليف دافيدوفيتش لم يقتنع بما قاله صاحبه، فقد راقت لهذا الصورة السريالية للسرطان الذي يسير بالمعكوس متعمداً.

عقب أيام دخلا في جدال أقلّ ظُرفاً وكانت له نتائج غريبة. حدث الجدال حين كان ليف دافيدوفيتش ينتظر أن يقدم له برتون مسودة «البيان» فقال له الشاعر إنّ الأفكار تمتنع عليه ولم يستطع الانتهاء منه. ربّما كان التوتر العظيم المتراكم هو ما أدخل المنفي في نوبة من الغضب، الشديد بلا شك: لامه على تقصيره (ندم في ما بعد على ذلك بعد أن تذكّر ما كان يفعله مع ليوفا) وعجزه عن فهم ضرورة أن تكون تلك الوثيقة معممة في أقرب وقت على أوروبا، التي تقترب يوماً بعد يوم من الحرب. دافع برتون عن نفسه وذكّره بأنّ ليس في مقدور الجميع أن يعيشوا بفكرة واحدة فقط في رؤوسهم: إنّه يرى أنّ اندفاع ليف دافيدوفيتش لا يُجارى. وكان في وصفه اندفاع ليف دافيدوفيتش بأنّه «لا يجارى» ما أزعج هذا أكثر، حتى كانا على وشك قطيعة حالت نتاليا، التي اصطفت إلى جنب الشاعر، دون وقوعها.

في اليوم التالي تلقّى ليف دافيدوفيتش خبراً مفاده أنّ برتون تعرّض لظاهرة مرضيّة غير مألوفة: لقد أصابه نوع من الشلل العام. شخّص الأطباء حالته بأنه إجهاد عاطفي ونصحوه بالراحة التامة. لكنّ جان فان هاينورت قال إنّ ليف دافيدوفيتش هو المذنب الوحيد عمّا حصل لبرتون: لقد أسماه السكرتير «نفخة تروتسكي في القفا»، وقال إنّها قادرة على شلّ كلّ من ارتبط بعلاقة معه، فقد كان العمل معه، بحسب هاينورت، صعباً جدّاً: فأسلوب حياته وتفكيره يحرران توتراً معنويّاً لا

قِبَلَ لأحد به. لم يكن ليبف دافيدوفيتش ينتبه إلى ذلك، لأنّه كان يطلبه من نفسه منذ سنوات كثيرة، ولكن ليس في إمكان الجميع أن يعيشوا ليل نهار في مواجهة مجموع القوى العالمية من فاشية ورأسمالية وستالينية وإصلاحية وإمبريالية، ويصارعوا جميع الأديان بما فيها العقلانية والبراغماتية. إن كان رجل من قدر برتون قد اعترف له بأنّه خارج حدود مقدرته وأصيب بالشلل، فعلى ليبف دافيدوفيتش أن يفهم ذلك: الذنب لم يكن ذنب برتون، بل ذنب الرفيق تروتسكي، الذي لم يقاوم ما قاوم طوال تلك السنين إلّا لأنّه حيوان من فصيلة أخرى... إنّه لا يريد، قال ليبف دافيدوفيتش لسكرتيره ومعاونه، أن يكون بعوضة قاسية أو سرطاناً يسير بالمعكوس.

على الرغم من المساجلات (أو ربّما بفضلها) فقد ظلّ حضور برتون يؤثر إيجاباً في المنفي، الذي أضيف إلى همومه - وكما توقعت نتاليا- رفض «جين» التخلّي عن سييفا. كان واضحاً أنّ المرأة مصابة بعُصاب، وربّما كانت تتبع نصيحة أحدهم بمعارضة والدي ليوفا، لكنّها كانت فوق ذلك عدوانية في موقفها، حتّى إنّها لم تسمح لمارغريت روسمر بالحديث مع الطفل. لم يبق أمامهما، والحال هذه، إلّا أن يرفعا دعوى قضائية للحصول على الوصاية على الحفيد.

في العاشر من تموز خرج آل تروتسكي وآل برتون ودييغو ريبيرا صوب «باتزكوارو»[134]. كان الشاعر، وقد تعافى تماماً تقريباً، قد انتهى من كتابة «البيان» ولم يبقَ أمامه سوى وضع اللمسات الأخيرة عليه. أهداهم صيادون من أصدقاء دييغو حصّة رائعة من صيدهم، فقد كان الرسام يعرف مدى غرام ليبف دافيدوفيتش بسمك بحيرة «باتزكوارو»، وانكفأت جاكلين وبرتون أيضاً على ذلك الطبق، الذي أطلق عليه

134- Pátzcuaro. بلدة مكسيكية تقع في ولاية ميتشوكان. تصنّف ضمن قائمة (البلدات السحرية) لما تضمّه من معالم ثقافية وسياحية تتصل بالسكان الأصليين والحضارات القديمة التي سبقت مرحلة الاكتشاف.

الشاعر اسم «أسماك أندريه ماسون». أثار منظر الصيادين المنهمكين في عملهم حنين المنفيّ إلى أيّام بيوك آضه، حين كان إيمانه بمستقبل المعارضة داخل الاتحاد السوفييتي ما يزال قائماً، وحماسه للخروج إلى الصيد مع كارالامبوس الطيب مواتياً. إلامَ تمضي حياته؟ سأل نفسه. هل سيعود في كلّ مساء في قاربه متابعاً الخط الأحمر الذي ترسمه الشمس في بحر مرمرة؟

ولمّا كان «البيان» ما زال في مرحلة اللمسات الأخيرة، فقد تناقش السياسي والشاعر كثيراً حول أثر الستالينية على الإبداع الفنّي داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وخارجها. ذكّره لييف دافيدوفيتش بحجم الاحتقار الذي يولّده فيه المطبلون لستالين، ولا سيما كتّاب من قدر رولان، أو مالرو، الذي سرّ بقراءة أولى رواياته أيّما سرور، وهو الآن حامل لواء هؤلاء الكتّاب الذين يعيشون في باريس ولندن ونيويورك ويوقعون إعلانات الدعم لستالين من دون أن تكون لديهم أدنى فكرة (أو بالأحرى هم لا يريدون أن تكون لديهم أدنى فكرة) عمّا يحدث حقيقة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. إن لييف دافيدوفيتش ليتمنّى أن يُختبر هؤلاء، المقتنعون بحسن سلوك النظام، بأن يُسكنوا مع أسرهم في شقق مساحتها ستة أمتار مربعة، سيئة التدفئة، ومن دون سيارة، ليعملوا عشر ساعات يوميّاً في منافسة لا يؤدي الفوز فيها إلى أيّ شيء، يكسبون منها روبلات قليلة فقدت قيمتها، آكلين ولابسين مما يتقرر لهم في البطاقة التموينية ومن دون أدنى إمكانية للسفر إلى الخارج، بل لرفع أصواتهم. فإن ظلوا بعد عام من هذا على مواقفهم في الدفاع عن المشروع وإطلاق أصواتهم بمبادئ فلسفية عظيمة، فسيرسل بهم لسنة أخرى في مستعمرة تابعة لمصلحة السجون من تلك التي وصفها غوركي بمصانع الرجال الجدد... ذلك هو اختبار الحقيقة (أو بالأحرى، التعسّف، قال)، حينئذٍ سيرون كم رولان أو آراغون سيرفع راية ستالين على واجهة مطعم من مطاعم باريس.

لدى عودتهم من «باتزكوارو» صُدم ليف دافيدوفيتش بنبأ خطير: في الرابع عشر من تمّوز اختفى في باريس معاونه رودولف كليمنت، من دون أثر يدلّ عليه. شعر، تأسيساً على تجاربه السابقة، بخوف عميق على مصير معاونه الشاب، الذي كانت تربطه به علاقة مودّة. ومع أنّ البُعد كان يلزمه النظر إلى الأحداث من منظور يعتمد تقارير تصل رديئة ومتأخرة، فقد أحسّ منذ البداية بأن ذلك الاختفاء مرتبط بموت ليوفا، وهذا هو ما أبلغ الشرطة الفرنسية به في رسالة احتجاج على تقصيرها في التحقيق في الحادث.

في الخامس والعشرين من تمّوز، وبعد طول انتظار، أصبح «البيان من أجل فن ثوري مستقل» جاهزاً، ومن دون قيود من أيّ نوع أمام الفن. وحين رأى ليف دافيدوفيتش أنّ اسمه قد يضفي طابعاً سياسيّاً على الوثيقة قرر الامتناع عن التوقيع عليها، وطلب من ريبيرا أن يوقع هو وبرتون عليها، ووافقه الرسام على رأيه. كان المنفي واثقاً من أنّ النداء سيكون خطوة أولى نحو إنشاء اتحاد للفنانين الثوريين المستقلين، يستمدّ ضرورته من وقوع العالم تحت سيطرة قوتين شموليتين شرستين لم يشهد التاريخ لهما مثيلاً.

رتّب دييغو وفريدا في وداع برتون حفلة سريالية. ومع أنّ مزاج آل تروتسكي كان بعيداً عن الأجواء الاحتفالية فقد حاولا ألّا يعكرا فرحة الآخرين. صممت فريدا لبرتون قفطان الحبر الأعظم للسريالية، المزيّن بساعات دالي وأسماك ماسون وألوان ميرو، وغطته بقبعة ماغريت. وقرأ العديد من المدعوين قصائد سريالية، وشرب دييغو نخباً من شراب البيّوت، الذي قال عنه إنّه أكثر أنواع الشراب سريالية.

***

حاول ليف دافيدوفيتش أن يملأ الفراغ الذي خلّفه محاوره الاستثنائي بأن ركّز اهتمامه على كتابة قرارات الأممية الرابعة ومشروع برنامجها. في تلك الأثناء وصلت إليه من جنوب فرنسا رسالة خطيرة.

الرسالة مذيّلة بتوقيع كليمنت، وهو يبلغه فيها بقطيعته السياسية معه مستخدماً أشدّ العبارات عدوانيّة وإهانة. تملك المنفي هاجس رهيب، فقد كان واثقاً من أنّ تلك الكلمات لا يمكن أن تصدر عن معاونه، ما لم يكن واقعاً تحت ضغط قاهر. بعد أسبوع تحققت الكارثة التي كان يتوقعها، وبطريقة مروعة، حين عثر على جثة كليمنت مقطعة على ضفة نهر «السين».

عقدت الجمعية التأسيسية للأممية الرابعة في فيللا آل روسمر في «بيرنييه»، في أجواء خيّم عليها ما خلّفه اغتيال كليمنت من أثر نفسي. وعلى الرغم من أنّ الاجتماع لم يبلغ ما كان ليف دافيدوفيتش يتطلع إليه، فقد كان المهم آنذاك هو قيام الأممية. ترأس الجمعيّة التأسيسيّة، بعد غياب ليوفا وكليمنت، المعاون القديم ماكس شاختمان، لكنّه لم يستطع أن يجمع أكثر من أربعين مندوباً. أمّا القسم الروسي فقد مثله إيتان المجهول تقريباً.

مع علم ليف بأنّ ذلك العمل قد لا يمثّل أكثر من صرخة في الظلام، لم يكن قادراً على الاعتراف بذلك، حتّى لنتاليا. لم يكن ذلك الوقت مناسباً إطلاقاً لقيام جمعيات عمالية وماركسية لا تدور في فلك الستالينيّة. كان يكفي، لتبين تلك الحقيقة، إلقاء نظرة على العالم: ففي داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية لم يتبقّ له أتباع، بعد أن زجّ بهم جميعاً في السجون؛ وفي أوروبا كان السائد هو الارتدادات والانشقاقات على شاكلة مولينيه، أو عمليات السحق الجماعي للاشتراكيين والشيوعيين، كما حدث في ألمانيا وإيطاليا؛ وفي آسيا كان العمال يسيرون من فشل إلى فشل. إلّا في الولايات المتحدة الأمريكية فقد نمت الحركة التروتسكية مع الحزب الاشتراكي العمالي، بفضل قادة من مثل شاختمان وجيمس كانون وجيمس بورنهام[135]. في تلك الأثناء،

135- جيمس بورنهام (1905-1987). من زعماء الشيوعية التروتسكية الأمريكيّة. له كتاب بعنوان (الثورة الإدارية).

كممت سياسات الجبهات الشعبية أفواه الأحزاب الشيوعيّة، في واحدة من حالات ركوعها المألوفة أمام طلبات موسكو، وأذعنت في الولايات المتحدة الأمريكية لسياسة روزفلت المعروفة بالصفقة الجديدة[136]. لكن، كتب، إن وقعت حرب، فلا بدّ من هزّة ثوريّة. وهنا ستنبري الأممية الرابعة للبرهنة على أنّها شيء يتجاوز خيال عنيد يرفض أن يقرّ بهزيمته، حلم وكتب أيضاً.

بدت له تنبؤاته بشأن قرب وقوع الحرب أشد قرباً حين أظهر هتلر للعالم طول سكاكينه. فبعد أن اجتمع الفوهرر مع تشامبرلين[137] دعا إلى انعقاد مؤتمر في ميونخ في الثاني والعشرين من أيلول، فرض فيه شروطه على القوى الكبرى الأوروبية: فإمّا أن يعطوه قطعة من تشيكوسلوفاكيا أو إنّه سيذهب إلى الحرب. وضحّت «القوى الكبرى»، كما كان متوقعاً، بتشيكوسلوفاكيا، واستطاع ليف دافيدوفيتش أن يشاهد في الأفق، بوضوح أكبر، ولادة الاتفاق المنتظر بين هتلر وستالين، الذي عمل عليه الدكتاتوران سرّاً (ليس كثيراً) في السنوات الأخيرة. كتب: لا شكّ أنّهما اتفقا مؤقتاً على تقاسم أوروبا: فهتلر يتطلع إلى تفوق العنصر الآري وإلى تحويل شرق القارة إلى حقل لعبيده؛ بينما يحلم ستالين بإمبراطورية أكبر من تلك التي امتلكها أيّ من قياصرة روسيا. كان اصطدام ذينك الطموحين يعني قيام الحرب.

في تلك الأوقات تلقّى المنفي رسالة مختومة، هذه المرة، في نيويورك، سببت له قلقاً دائماً. عرّف كاتبها بنفسه على أنّه يهودي أمريكي عجوز من أصل بولوني، وقال إنّه اطّلع على تاريخه، وهو ثوري وهو مهمش، وإن لم يتبنّ عقيدته السياسية. شرح له أنّه علم بالأخبار التي ينقلها له عن طريق قريب أوكراني عمل سابقاً في جهاز الجيبيو، فرّ

136- New Deal أو الصفقة الجديدة هي مجموعة البرامج الاقتصادية التي جرت بين عامي 1933 و 1936 في عهد الرئيس الأمريكي روزفلت بهدف إنعاش الاقتصاد ومكافحة البطالة والحيلولة دون تكرار الكساد في الولايات المتحدة الأمريكية.

137- آرثر تشامبرلين (1869-1940). رئيس وزراء بريطانيا. كان ميالًا إلى استرضاء هتلر.

قبل أسابيع قليلة وطلب اللجوء في اليابان، وقد طلب منه أن يتصل بتروتسكي. ذكر له أنّ الرسالة ستكون وحيدة، مراعاةً لسلامته وأمنه، وهو يتمنّى أن تكون مفيدة له.

ومع أنّ تلك المقدمة بدت له غير موثوقة، فإنّ ما جاء في الرسالة كان له نصيب كبير من الحقيقة. تتحدث الرسالة عن عميل سوفييتي، مزروع في باريس، اسمه لدى مصلحة المخابرات هو كيوبد. لقد تمكن ذلك الرجل من أن يلعب دوراً هامّاً داخل الدوائر التروتسكية الفرنسية بفضل سذاجة أتباعه، الذين سمحوا له بالوصول إلى وثائق سريّة. وفي تلك الأثناء كان كيوبد يتصل طوال الوقت بعميل تنفيذي في السفارة السوفييتية ويتعاون مع جمعية إعادة المهاجرين المزعومة، وهي واجهة من تلك التي تختفي وراءها الشرطة السريّة السوفييتية، المرتبطة بقضية مقتل ريس وربّما كليمنت. لا يعلم العميل السابق اللاجئ في اليابان يقيناً إن كان كيوبد هذا على صلة مباشرة قليلاً أو كثيراً بموت ليف سيدوفا، لكنّ قربه من قيادة التروتسكيين يجعله يظنّ ذلك. ما يعرفه بالتأكيد هو أنّ مهمة كيوبد، بالإضافة إلى التجسس، تتمثل بالتقرب من تروتسكي، إذا ما سمحت الظروف بذلك، وتنفيذ الأمر بقتله، وهو الأمر الذي يؤكد صدوره من الكرملين عقب محاكمات آذار ضد بوخارين وياغودا وراكوفسكي. مع ذلك فإنّ العميل السابق علمَ أنّ كيوبد هو واحد من المرشحين للاقتراب منه، وأنّ هناك قتلة آخرين محتملين غيره.

ختم اليهودي العجوز رسالته بقصة ذات دلالة حكاها له قريبه، قال فيها إنّه حضر استجواب ياكوف بلومكين، بعد مروره بجزيرة بيوك آضه. أمّا حقيقة اعتقال بلومكين فتتلخص في أنّ زوجه، وهي أيضاً عميلة في جهاز الجيبيو، هي من وشى به لدى السلطات، واتهمته، ليس بالاتصال بالمنفي فحسب، بل بتسليمه مبلغاً من النقود أخذه من صفقة بيع المخطوطات القديمة التي نفذها بلومكين في تركيا. أمّا الإشاعة التي سرت عن أنّ الواشي هو راديك فقد كانت مناورة من اللوبيانكا لتحطيم

سمعته وإظهاره بمظهر المخبر السرّي. على مدى تلك التحقيقات، أكّد العميل السابق، تصرّف بلومكين برباطة جأش وكرامة لم يرَ هو مثيلاً لها إلَّا في قلّة من الرجال الذين مرّوا بظروف مشابهة. وعلى الرغم من جلسات التعذيب الوحشي، فقد رفض بلومكين التوقيع على أيّ نوع من الاعتراف، ورفض يوم إعدامه الركوع.

بعد قراءة الرسالة مرّة واثنتين، وبعد التشاور مع نتاليا ومع معاونيه، أجمع الكلّ على أنّ هناك وجهين لتفسير تلك الوثيقة: فإمّا أنّهم أمام استفزاز من طرف الجيبيو، لم يتمكنوا من رؤية هدف واضح فيه، أو أنّ من أرسلها شخص يعرف حقّ المعرفة أهداف الشرطة السريّة، وهو حين يكشف لهم عن وجود عميل في باريس، فهو يؤشر بإصبعه على شخصيّة إيتان بالتحديد. ومع صعوبة الإقرار بأنّ عدوّاً تمكن من دسّ نفسه في فراش ليوفا (تذكّر لييف دافيدوفيتش أنّهم دسّوا له الشقيقين سوبوليفيسيوس)، فإنّ مجرد تصوّر أنّ إيتان هو من رجال ستالين لهو كفيل بإصابته بالغثيان. لذلك تمنّى لييف دافيدوفيتش، في قرارة نفسه، ألَّا تعدو الرسالة عن أن تكون دسيسة من دسائس جهاز الشرطة السريّة السوفييتيّة الجديد. مع ذلك، فقد شمّ من خلف ستارة الدخان التي رفعها المرسل رائحة حقيقة، وكان أكثر ما جعله يميل إلى تصديق المعلومة هي رواية اعتقال بلومكين، فحتى وصول الرسالة لم يكن أحد يعرف، ولا حتى نتاليا، بموضوع النقود التي سلمها الشاب له: لكنّ أكثر ما حمله على تصديق ما قالته الرسالة هو أن ستالين، بعد المحاكمة الاستعراضية الأخيرة، ما عاد يحتاجه إلَّا قليلاً لدعم تهمه، وبالتالي، فإنّ العد التنازلي الأخير لبقائه على وجه الأرض قد بدأ.

لذلك لم يستغرب المنفي أن تشتد الحملة التي نظمها الحزب الشيوعي المكسيكي بعد الإعلان عن الأممية الرابعة. أمّا الأسوأ فكان تحققه من أنّ الحرارة السياسية التي أثارها تأسيس تجمع الأحزاب الجديد، قد وصلت إلى البيت الأزرق، فقد أثار شيء ما إزعاج ريبيرا:

لقد استاء الرسام لأنّ ليف دافيدوفيتش لم يدعم تطلعاته في أن يصبح السكرتير العام للقسم المكسيكي من الأممية الرابعة. لكنّ السبب الذي يقف وراء امتناع المنفي عن تقديم ذلك الدعم كان واضحاً وشفافاً: هو لا يعتقد بأنّ من المفيد للرسام أن يضحي بإبداعه من أجل عمل بيروقراطي يمنحه بروزاً سياسيّاً لكنّه يمتص وقته في اجتماعات وتحرير تقارير وبيانات. أمّا السبب الثاني، والذي لا يمكن التصريح به، فهو لأنّه لا يرى أنّ لدى ريبيرا الحنكة السياسية اللازمة. مع ذلك فقد كان ريبيرا يتطلع إلى الظهور سياسيّاً، وقد شعر بأنّ الرجل الذي استضافه واحتفى بمقدمه قد خانه.

تلقّى ليف دافيدوفيتش، قبل أيام من عيد ميلاده، تقريراً من مراسله القديم V.V، الذي ظهر بعد أن ظنّ أنّه اختفى نهائيّاً. يخبرهV.V بأنّ رئيس الشرطة السريّة السوفييتيّة، القزم يجوف، قد عزل عن منصبه ثمّ سجن بعد وقت قصير بتهمة سوء استغلال السلطة والخيانة. وكما جرى لياغودا، فإنّ يجوف سيموت، والسبب الحقيقي، كالعادة، هو أنّ ستالين يحتاج إلى كبش فداء يحمله وزر أخطائه، لتبقى براءته هو بهذه الطريقة جلية ساطعة.

فصّل له V.V كيف أنّ معسكرات المبعدين تحت مسؤولية يجوف ما عادت هي سجون ياغودا، التي كانت تدار بقسوة وانضباط، وحيث يموت الناس جوعاً وقهراً على يد العناصر. في زمن يجوف اختفى الكلام عن محاسن إعادة التأهيل السوفييتية للمجرمين، وتحولت معسكرات الغولاغ إلى معسكرات إبادة ممنهجة، حين كان السجناء يجبرون على العمل حتى الموت، أو يغتالون، بأعداد لم يشهد لها مثيل في الماضي. لكنّ رعب يجوف لم يكن عبثيّاً أو وبيلاً على القدر الذي يصوّر الآن للناس: مثلاً، في شباط من عام 1937 قال ستالين لبيدقه جورجي ديميترف، السكرتير العام للكومنترن، إنّ الشيوعيين الأجانب الموجودين في موسكو «يلعبون لعبة العدو»، وأمر يجوف فوراً بحلّ

المشكلة. بعد مضي سنة، لم يبقَ على قيد الحياة من الثلاث مئة وأربعة وتسعين من أعضاء اللجنة المركزية للشيوعية الدولية، الذين كانوا يقيمون في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، غير مئة وسبعين: أمّا الآخرون فقد أعدم منهم من أعدم وأرسل إلى معسكرات الموت من أرسل. كان فيهم ألمان ونمساويون ويوغسلاف وإيطاليون وبلغار وفنلنديون وبلطيق وإنكليز وفرنسيون وبولونيون، بينما برزت من جديد نسبة اليهود المرتفعة بين المحكومين. في تلك الحملات صفّى ستالين من قادة الحزب الشيوعي الألماني للفترة التي سبقت عام 1933 أكثر مما صفّى هتلر منهم: فمن الثمانية والستين زعيماً الذين هربوا طالبين اللجوء في وطن الشيوعية، بعد أن امتثلوا لسياسة هتلر وغضّوا الطرف عن صعود الفاشية، مات أكثر من أربعين إعداماً أو في المعسكرات؛ أمّا البولنديون الذين صفاهم فقد كانوا من الكثرة أنّ الحزب في ذلك البلد انحلّ.

وبينما كان لييف دافيدوفيتش يقرأ رسالة V.V ويؤشر عليها، شعر بأنّ ثقل تلك المعلومات يغرقه. هل هناك أمل في أن تعرف الإنسانية يوماً ما كم مئات من الآلاف من الأشخاص أعدموا على أيدي زبانية ستالين؟ وكم شيوعيّاً حقيقيّاً أزيح عن الطريق؟ هو كان واثقاً من أنّ الأرقام في هذا الجانب أو ذاك مذهلة مرعبة، يضاف إليها ملايين الفلاحين الذين ماتوا جوعاً في أوكرانيا وأقاليم أخرى من جرّاء كارثة الزراعة الجماعية، والملايين الذين ماتوا في حملات نقل القرى الكاملة التي أمر بها مفوض القوميات القديم... إنّها، بكل تأكيد، فكّر، من أكبر مذابح التاريخ في زمن السلم، والأدهى من ذلك هو أننا لن نطلع على الحجم الحقيقي والمرعب الذي بلغته حملات الإبادة، إذ لا توجد، في حالة الكثيرين من أولئك المحكومين، لائحة اتهام ولا محاكمة ولا عقوبة. الأغلبية ماتوا في زنزانات، في قطارات الموت خنقاً، متجمدين في حقول سبيريا أو إعداماً على ضفة الأنهر والوهاد، لكي تجرف المياه جثثهم أو لكي تدفنها انجرافات التربة والثلج...

تعزز فيه الشعور بأنّه نفسه واقع تحت رحمة ذلك الرعب حين أكّد له فيكتور سيرج [124] وأصدقاء باريسيون آخرون أنّ إيتان هو العميل كيوبد، المتورط في موت ليوفا وريس وكليمنت. اتهموه أيضاً بتحريض «جين» لكي يحدث قطيعة انتهت بدعوى طلب الوصاية على سييفا (انتهت المحاكمة بالحكم لصالح الجدين) والتدخل في التحقيق حول موت ليوفا، لعرقلة جهود الشرطة لا لمساعدتها. لكنّ آل روسمر ورفاقاً آخرين حاولوا، في الوقت نفسه، العثور على شرخ في تصرفات إيتان، من دون طائل، وظلّ لييف دافيدوفيتش يرفض القبول بالحكم الذي أصدره عليه أصدقاء آخرون. كان نشاط إيتان طوال كلّ تلك الأشهر رائعاً، فجريدة «الوقائع» لم تصدر في وقت من الأوقات بذلك الانتظام، وكانت جديته، في الأعمال التي سبقت تأسيس الأممية والتي تلتها، مثالية. كان يعرف، مع ذلك، أنّ كلّ تلك السرعة والكفاءة في التنفيذ يمكن أن تكون قناعاً يخفي تحته عميلاً عدوّاً. وكان الحل الوحيد هو مواجهة إيتان بالتهم التي توجّه إليه والطلب إليه أن يثبت براءته، قرر.

أمّا «جين» فقد رفضت الحكم الصادر من المحكمة وهربت من باريس بالطفل وبالجزء الذي كان ليوفا يحتفظ به من الأرشيف، بحجة أنّه يعود إليها، لأنّه كان زوجها. والتزمت مارغريت روسمر، عن تطوع وطيبة قلب والتزام، بالبحث عن مكان الطفل، وتعهدت لنتاليا بأن تأتي لها بالطفل إلى المكسيك. يا لسييفا المسكين! قالت المرأة حينها: فقد والده في معسكر للاعتقال وانتحرت أمّه في برلين، أمامه تقريباً؛ ومات أبوه بالتبني في ظروف غريبة غامضة بطلها ستالين؛ أمّا وليّة أمره فقد جُنّت، في ما يبدو، ورمت عليه بثقل كلّ إحباطاتها؛ جدان في المنفى، وجدة أخرى محبوسة في معسكر للأسرى؛ وخالات ميتات، وأخوال مفقودون، وإخوان وأبناء عمّ لا يعلم عنهم شيئاً... فهل هناك ضحيّة أشدّ براءة، وهل هناك نموذج لكراهية ستالين أوضح من هذا الصغير فزيفولود فولكوف؟

***

قررت نتاليا سيدوفا، على الرغم ممّا فقدته وعلى الرغم من الجوّ المشحون الذي كان يخيّم على البيت الأزرق- وخصوصاً بعد سفر فريدا إلى نيويورك-، أن تحتفل بالذكرى التاسعة والخمسين لميلاد زوجها. حضر الحفلة عدد قليل من الأصدقاء المقربين (أوتو روهله[138]، الذي استقرّ في المكسيك، وماكس شاختمان وأوكتابيو فيرنانديث وجوزيف نادال وسواهم)، الذين انضم إليهم المعاونون والحراس الشخصيون. وأعدّت هي العديد من الأطباق، مكسيكية في أغلبها، بالإضافة إلى أطباق روسية وفرنسيّة وتركية. وكشف ريبيرا عن سوء ذوقه حين أهداه جمجمة السكّر التي تهدى في عيد الموتى وعلى جبهتها كلمة «ستالين». أمّا شاختمان فقد راح في خطبة، مازحة في نصفها، جادة في نصفها، يرسم صورة للمحتفى به: «شعره منفوش، وجهه برونزي، عيناه زرقاوان نافذتان كما هي دائماً. ليف دافيدوفيتش ما زال رجلاً جميلاً. بالغ الأناقة، كما يقول فيكتور سيرج، الذي أهداني هذه الفطنة، التي حاول لينين أن يشرح بها من كان ومن يكون عزيزنا تروتسكي.» هل تعلمون ماذا سيكون ردّ ليف دافيدوفيتش حين سيسأله الضابط القبيح المسؤول عن فرقة إعدامه عن آخر أمنياته؟»، سأل لينين. «سينظر إليه رفيقنا وسيقترب منه باحترام وسيسأله: هل أجد عند حضرتك مشطاً لأعدّل به تصفيفة شعري؟».

لكنّ صورته الحقيقية آنذاك رسمتها له نتاليا سيدوفا، وهي التي تعرفه حق المعرفة، إذ كتبت: «ليف دافيدوفيتش وحيد. نسير في الحديقة الصغيرة في كويواكان، تحفّ بنا أشباح بدت الثقوب على جبهتها... أحياناً أسمعه، حين يعمل، ويطلق زفرات ويتكلم مع نفسه بصوت عالٍ: ما أشدّ التعب... ما عدتُ أقوى على المزيد! كثيراً ما يفاجئه الأصدقاء

138- Otto Rühle (1874-1943). أحد أبرز الشيوعيين الألمان. ترك بلده واستقرّ في المكسيك عام 1935 وشارك في اللجنة التي ناقشت التهم التي أدانت موسكو بموجبها تروتسكي.

وهو يكلّم تلك الأشباح، الجماجم المهشمة برصاص الجلاد، أصدقاء الأمس الذين صاروا توّابين، بعد أن تعبوا من الأكاذيب والحقارات، وهم يتهمون لييف دافيدوفيتش، رفيق لينين... إنّه يرى راكوفسكي، الأخ العزيز الذي قدم للحركة بكرم الأمراء ثروته الكبيرة. ويرى سميرنوف، اللامع الفرح؛ وموارلوف، الجنرال ذا الشاربين العظيمين، بطل الجيش الأحمر... يرى أبناءه نينا وزينا وليوفا، يرى الأعزاء عليه بلومكين ويوفي وتوخاتشيفسكي وأندريس نين وكليمنت وولف. كلّهم رحلوا. كلّهم. وظلّ لييف دافيدوفيتش وحيداً...».

-22-

شعر جاك مورنارد بفرحة حقيقية حين استدلّ على هيئة سيلفيا آجيلوف الحمراء في صالة المطار. كانت ترتدي فستاناً أسود من تلك الفساتين التي بدأت بارتدائها، بتوجيه من جيرترود آليسون، منذ أن زارت باريس، فاللون الأسود، بحسب صاحبة المكتبة، يبرز بياض بشرتها. منذ ذلك الوقت التزمت بالنصيحة، وهي التي تعي قبح صورتها، على أمل أن تقدم شيئاً مختلفاً لمعشوقها جاك، الذي رمت بنفسها على صدره وبها هزّة من تأثر وعاطفة.

في الأسبوع المنصرم، ومع بداية عام 1940، أبلغ توم جاك وصول العميل الإسباني فيليب، وهو واحد ممّن جُمّدت حركته عقب فرار أورلوف. كان فيليب قد عاد من موسكو ليتولّى، بصفته الضابط التنفيذي، مجموعة المكسيكيين، ممّن قاتلوا في إسبانيا، التي تتهيأ للعمل ضد المرتد. سيكون الإسباني، الذي تحوّل إلى يهودي فرنسي (أم بولوني؟)، في نظر جنوده المحليين شخصية من دون اسم: سيعرفونه باسم «الرفيق اليهودي» فحسب. سيسلّم غريغوليفيتش، الذي بقي دائماً في الظلّ، مسؤوليّة تلك الحبكة إلى فيليب، بينما يبدأ توم بالنظر في إمكانية أعمال أخرى والتحضير لها. الخبر الجيد الثاني هو أنّ الجاسوس الأمريكي سيصل، إذا سارت الأمور كما هو مخطط لها، في ظرف شهرين أو ثلاثة أشهر على الأكثر، ليحلّ محل حارس شخصي في بيت المنفي شارفت خدمته على الانتهاء. لقد أكّد له توم إنّ الضابط التنفيذي دخل في مرحلة

التكيّف، لكنّه توخّى الحذر حين قال له إنّ جاك مورنارد انتقل في تلك اللحظة إلى خط ثانٍ أو ثالث من الخطة: لقد عادت أسهمه إلى الهبوط.

أمضى جاك وسيلفيا أياماً لها طعم شهر العسل في غرفة فندق «المونتيخو». وأخّرت الفتاة، بناء على طلب من جاك نفسه، زيارتها إلى كويواكان للسلام على نجمها ليف دافيدوفيتش، وكانت جلبت له بريداً وعزمت على أن تؤكد له استعدادها لمساعدته في ما يحتاج مدة بقائها في المكسيك. حين اتفقت سيلفيا على موعد لزيارة بيت جادة «فيينا»، تطوّع جاك لأخذها إلى هناك بسيارته شرط ألّا يختلط هو بأصدقائها وتحت أيّة صورة. إنّ ذلك لا يعنيه. وهو يحترم ميولها واندفاعها السياسي ويريد منها، في المقابل، أن تتفهّم لامبالاته بقصة الشيوعيين الذين يخاصمون شيوعيين آخرين.

- أنتَ لا تفهم شيئاً - قالت سيلفيا، مبتسمة، وهي تستمتع بالتفوق الذي كانت تتمتع به، على الأقل، في ذلك المجال.

- أكثر مما تتصورين - ردّ عليها جاك-. هل قرأتِ في الصحف ما يجري بين الشيوعيين المكسيكيين؟

- هذه عملية تطهير ستالينيّة. أخرجوا الأمين العام، لابوردي، ولا يريدون أن يمتثلوا لأيّ أمر من موسكو. هذا أمر مألوف...

ضحك جاك كثيراً حتّى دمعت عيناه.

- الكلّ سواء، يا إلهي. أولئك يقولون إنّ كلّ ما يقع من شر سببه عملاء وأفعال تروتسكيّة، وأنتم ترون شبح ستالين وأجهزة شرطته حتى في طبق الحساء.

- مع فارق أنّنا نمتلك الحقيقة.

- يا سيلفيا!... العالم لا يمكنه أن يستمر بين مؤامرات ستالينية وتروتسكيّة.

- هلّا امتنعتَ عن المقارنة: ستالين مجرم، قتل ملايين السوفييت من الجوع وأعدم الآلاف من الشيوعيين من شتّى أنحاء العالم. اجتاح

بولونيا، وهو الآن يجتاح فنلندا بالاتفاق مع هتلر، وهو مهووس باغتيال ليف دافيدوفيتش و...

استدار جاك ودخل إلى الحمام.

- دعني أكمل! استمع إليّ ولو لمرّة واحدة!

عاد جاك إلى الغرفة ونظر إليها بتمعن. اقترب منها وضربها بطرف إصبعه مرتين أو ثلاثاً على صدغها بقوّة. أحسّ برغبة شديدة في إيذائها، ولم تدرِ سيلفيا كيف تتصرف إزاء ذلك الموقف.

- ضعي جيداً في رأسك أنّ جميع هذه القصص لا تهمني إطلاقاً. هل تذهبين إلى كويواكان أم لا؟

في السيارة أكّد لها جاك أنّ لديه فكرة تقريبية عن الطريق الموصل إلى الحيّ الذي يقطنه المنفي، مع ذلك فقد اضطر للسؤال مرتين ليكون متأكداً من أنّه يسير في الطريق الصحيح. حين بلغا أخيراً جادة «فيينا»، التي تحولت إلى أرض موحلة بسبب المطر الذي سقط مؤخراً، لم يستطع إخفاء دهشته:

- يا إلهي، في أيّ مكان حشر هذا الرجل نفسه؟

- المكان الوحيد الذي توفّر له فيه اللجوء. هو يعيش هكذا، لأنّه، بحسب رأيكَ، مسكون بفكرة المؤامرة الستالينيّة.

أوقف جاك السيارة قبالة البناء فاقترب شرطي مكسيكي. حين نزلت المرأة من السيارة، صدر أمرٌ من أعلى برج المراقبة بالسماح بالمرور. عندها حرّك جاك السيارة نحو الطرف المعاكس للشارع وأبعدها عن البوّابة المصفحة. انتظرت سيلفيا أمام باب الزوّار ليفتحوا لها، وما إن دخلت حتّى انغلقت دفة الباب السميكة خلفها.

على الرغم من انخفاض درجة الحرارة، فقد خرج جاك من سيارته وسار، وقد حشر سيجارته بين شفتيه، قفزاً على الأحجار ليتجنّب الوحل، واستند على غطاء محرّك السيارة وراح ينتظر.

حين خرجت سيلفيا، بعد ثلاثة أرباع الساعة، وصلت إلى السيارة

بصحبة رجل له طول جاك، وإن كان أضخم جسماً منه. قدمته سيلفيا باسم أوتو شوسلر، أحد معاوني الرفيق تروتسكي. صافحه جاك مقدماً نفسه على أنّه فرانك جاكسون، وتبادل مع أوتو عبارات المجاملة المعتادة. تملكه شعور بأنّه في موضع اختبار، واختار أن يتراوح طبعه بين الخجل والتكبّر، وأن يكون في شخصيته شيء من البلادة والميل إلى الثرثرة، وهو ما وجده الأنسب للتعبير عن جهله بالسياسة وعدم اهتمامه بكل ما يعنيه ذلك المكان.

- أخبرتنا سيلفيا بأنّ حضرتك ستبقى هنا لبعض الوقت - قال أوتو، متصنعاً اللامبالاة.

- لا أعرف تماماً. هذا يعتمد على الأعمال. مبدئيّاً الأمور تسير سيراً حسناً. وإذا وجدتُ مكسباً سهلاً فسأبقى.

- جاك...- قالت سيلفيا ثمّ توقفت عن الكلام، بعد أن انتبهت إلى خطئها، وخجلت قليلاً من كلام محبوبها- أقصد فرانك، جاء لافتتاح مكتب في المكسيك.

تقوّس حاجبا أوتو شوسلر. لكنّ جاك لم يمهله وقتاً طويلاً للتفكير.

- اسمي جاك مورنارد، لكنّي أسافر تحت اسم فرانك جاكسون. أنا هارب من الجيش البلجيكي ولا أدري متى سأستطيع العودة إلى بلادي. لستُ مستعدّاً للقتال من أجل ما لم يستطع السياسيون من حلّه في وقته.

- هذه وجهة نظر...- توقف أوتو عن الكلام-. مورنارد، جاكسون؟

- إن لم تكن حضرتك شرطيّاً في دائرة الهجرة، فلك أن تختار ما يعجبك منهما.

- جاكسون إذن - ابتسم أوتو ومدّ له يده-. اعتنِ بالصغيرة سيلفيا. نحن هنا نحبها كثيراً هي وأخواتها.

- لا تشغلوا بالكم من هذه الناحية- قال، وبعد أن فتح الباب لسيلفيا، التفّ حول السيارة، متجنباً الوحل واحتل مكانه خلف المقود.

- سيارة جميلة - قال أوتو، من نافذة سيلفيا.

- وأمينة جدّاً. فأنا أسافر فيها إلى شتى أرجاء البلاد...

ضرب شوسلر برفق على سقف السيارة وانطلق جاك بها.

- هل سيمنحونني درجة النجاح لكي أكون خطيبك؟

نظرت سيلفيا إلى الأمام وقد احمرّ خداها من الخجل.

- لم أستطع تجنب ذلك، حبيبي. ليس هو هوس من جانبهم، بل لأنّهم يتوقعون حدوث شيء. لقد اشتعل الجوّ كثيراً. افهمني، رجاءً.

- أفهم ذلك. مؤامرة ستالينية. - قال وابتسم-. وكيف هو حال رئيسك؟

- هو ليس رئيسي... إنه على ما يرام، يعمل كثيراً. يريد أن ينتهي من كتابة سيرة ستالين في أقرب وقت.

- تروتسكي يكتب سيرة ستالين؟ - خفف جاك من سرعة مسيره وقد ملأه الاستغراب.

- إنّه الوحيد القادر على قول الحقيقة عن ذلك الوحش. فالآخرون بين ميت ومشارك له في جرائمه.

حرّك جاك رأسه وكأنّه ينفي شيئاً منزوياً، وأسرع الخطى.

- أنا ميت من الجوع. ماذا تشتهين؟

- سمك «باتزكوارو» الأبيض- قالت، وكأنّ الردّ كان جاهزاً لديها.

- أين أكلتِه؟

- علمتُ للتوّ بأنّه أحد أطباق ليف دافيدوفيتش المفضلة.

- أعرف مكاناً يعدّه إعداداً جيداً... لنرَ إن كان رئيسك ذوّاقاً.

- أنتَ ملاكٌ - قالت سيلفيا وحركت يدها اليسار نحو ساق جاك مورنارد. يبدو أنّ قربها من معشوقها ليف دافيدوفيتش أيقظ فيها كلّ شهيّة.

***

عاد توم وكاريداد إلى الاختفاء. قبل أيام، في شقة «شارلي كورت»، كان توم قد أبلغ جاك أنّه قد يخرج من المكسيك في أيّ وقت لتلقي أوامر جديدة، وربّما نهائية. ليس على الشاب، أثناء غيابه، إلّا أن يقوم بمهمة واحدة: الاقتراب من بيت ذكر البط بطريقة طبيعية وعفويّة، والتعرّف إلى حراسها. ليس عليه أن يطلب من سيلفيا أن تدخله إلى الحصن، لكن إن هي دعته إلى ذلك فعليه ألّا يرفض. وإن سنحت له فرصة للقاء المنفي فليبدِ احتراماً وإعجاباً، ولكن بجرعات خفيفة، وليظهرْ شيئاً من الخجل. عليه أن يصوّر في عقله الميدان، وأن يفكّر في السبيل إلى الخروج من البيت في حال وقع الاختيار عليه أو على سواه لتنفيذ المهمة: فلطريقة الهرب أهمية تعدل أهمية التنفيذ، كما قال له توم. عليه أن يؤسس دخوله المحتمل على أساس الثقة في أنّ شخصاً مثله لا يمكن أن يشكل تهديداً لأحد.

لاحت لجاك بارقة على ارتباط مصيره بمصير المرتد حين طلب هذا من سيلفيا أن تساعده في عمله لأسبوعين أو ثلاثة. فقد مرضت المادموزيل يانوفيتش، المكلفة بنقل تسجيلات المقالات التي يسجلها المنفي بالصوت بالروسية، وكان وجود سيلفيا في المكسيك وتوفرها على الوقت من قبيل البركة. أمّا جاك، الذي كان حينها قليل النشاط بسبب سفر السيد لوبيك إلى الولايات المتحدة لعقد صفقات مهمة، فقد تطوّع لحملها صباح كلّ يوم إلى بيت جادة «فيينا» والعودة بها مساءً من هناك، على أن يمضي وقته متابعاً الأوراق والمراسلات في المكتب المستأجر في بناية «إيرميتا»، بينما تساعد هي «رئيسها». أمّا إذا انتهت سيلفيا من عملها مبكراً، فإنّ عليها أن تنتظره، لأنّ كسل المكسيكيين حال دون أن يحصل على خط التلفون الذي طلبه من شهرين.

ظلّ الشريكان، طوال شهر شباط، يصلان إلى بيت المنفي، ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع: يدق جاك، من دون أن يترجل، بوق السيارة مرتين معلناً وصول سيلفيا، فيفتحون لها الباب في الحال. في المساء، حين يعود جاك، نادراً ما كانت سيلفيا تنتظره في الخارج، لذلك كان عليه

أن يركن السيارة ويشعل سيجارة بينما تنتهي هي من عملها. ولئن كان جاك مورنارد في الأيام الأولى يدخن من دون أن يتأمّل البيت المحصّن، فقد راح حضوره اللامبالي والمألوف يزيل المسافة بين الحرس وبين ذلك الشاب الأنيق في ملبسه دائماً، والذي صاروا يدعونه «زوج سيلفيا» أو جاكسون. كان أوتو شوسلر، المغرم بالسيارات، هو من عاود كسر الجليد، فكان يخرج إلى الشارع ويتحدّث معه، كلما سنحت له الفرصة، بعد أن صار البلجيكي تقريباً خبيراً في سيارات السباق. وكم من مرة اضطرت سيلفيا، وهي جالسة في «البيوك»، إلى انتظار أن ينتهي جاك وأوتو، وحتى بعض الحراس المكلفين بحماية البرج، من حديثهم عن المحركات وتروس التعشيق ومنظومات الفرامل.

في إحدى الأمسيات الأولى، التفت جاك، بينما كان الجميع منخرطين في أحاديثهم تلك، إذ سمع نباحاً مبتهجاً. لقد اكتشف المراهق (تعرّف في الحال على حفيد المرتد، سييفا فولكوف)، وهو يخرج إلى الشارع، يرافقه كلب من نوع مجهول، يدور حوله. بعثت صورة الكلب والصبي فيه الاضطراب للحظة، انشغل عن حواره مع شوسلر، وخطا نحو البيت وصفّر للكلب، انتبه الحيوان إليه وانتصبت أذناه. طقطق جاك أصابعه فنظر الكلبُ إلى الصبيّ المراهق متردداً. ربّت عندها سيفا على عنقه، وخطا نحو زوج سيلفيا، الذي جلس القرفصاء ليداعب الحيوان.

تحسس جاك مورنارد بأطراف أصابعه شعر الكلب المسترسل الأحمر. ترك له أن يلحس يديه وقال له، بصوت لم يسمعه الآخرون، بضع كلمات ودودة بالفرنسية. انقطع اتصاله للحظات بالعالم، وانزوى في عطفة من الزمان والمكان لم يكن فيها إلّا هو والكلب وحنين ظنّه ميتاً. حين عاد إلى نفسه، وكان ما يزال جالساً القرفصاء، رفع بصره نحو سيفا وسأله عن اسم كلبه.

- آثيكا - قال الصبي.

- إنّه رائع - قال مورنارد-. إنّه كلبك، أليس كذلك؟

- نعم. جلبته وهو بعد جرو.

- حين كنتُ طفلاً كان لديّ اثنان. آدم وحواء. كلبا لابرادور.

- آثتيكا كلب هجين. لكنّ جدي كانت عنده كلاب صيد روسية.

- كان عنده «بورزوي»؟ - كان السؤال مشحوناً بالإعجاب-. إنّها أجمل كلاب صيد الأرانب في العالم. إنّي لأهب أيّ شيء مقابل الحصول على واحد منها.

- الأخير الذي امتلكه كان اسمه مايا وقد رأيته.

- وهل أنتَ ذاهب للتنزّه مع آثتيكا؟ - سأله، وهو يداعب أذني الحيوان المنتشي.

- نذهب إلى النهر...

نهض جاك وابتسم.

- عذراً، لم أقدم لك نفسي. أنا جاكسون، خطيب سيلفيا.

- أنا سييفا - قال الفتى.

- استمتع، سييفا، وتسلّ... وداعاً، آثتيكا - قال وهزّ الكلب ذيله.

- لقد استلطفكَ - قال سييفا مبتسماً، ثمّ توجه نحو فتحة الشارع القريب. في تلك اللحظة أحسّ جاك مورنارد وكأنّ بوابة الحصن المدرعة تنصهر أمامه، فأصدقاؤه وراء تلك الأسوار في ازدياد.

حين استدار، في مساء، في نهاية شباط، من «موريلوس» متجهاً إلى جادة «فيينا»، رأى سيلفيا تنتظره عند باب البيت، يرافقها شخص تعرّف عليه في الحال، إذ تذكّر الصور التي كان قد شاهدها ودرسها. وكالعادة فقد أوقف السيارة في الطرف الآخر من الشارع وترجل. قبّل سيلفيا، التي قدمت له ألفريد ومارغريت روسمر، وذكّرته ببيتهما في «بيرنييه»، الذي أخذها إليه قبل عام ونصف لحضور اجتماع الأممية الرابعة.

- طبعاً. بالتأكيد أذكره... بيت جميل - قال جاك، بردة فعله السريعة المعهودة-. هل تمضيان إجازة في المكسيك؟

شرح له ألفريد روسمر أنّهما جاءا من باريس بسييفا فولكوف، «تعرفتُ إليه وإلى آتيكا»، قال البلجيكي مبتسماً. تحدثوا عن الوضع في باريس وعن التعبئة بين صفوف الشباب الفرنسي، وحين توادعا، بعد خمس عشرة دقيقة، اتفق الزوجان روسمر ومورنارد على تناول العشاء في أحد المطاعم التي يعرفها الشاب في المدينة. وبنبرة مباهاة برجوازية أوحى جاك لمحاوره أنّه هو صاحب الدعوة.

حين التحقت المادموزيل يانوفيتش بعملها، ما عادت الحاجة تستدعي خدمة سيلفيا، لكنّ جاك وسيارة «البيوك» ترددا بكثرة على حصن جادة «فيينا»، حيث ما عاد أحد يستغرب وجوده. كان يذهب مرة في الأسبوع لأخذ آل روسمر واصطحابهما إلى العشاء أو إلى مدينة «كويرناباكا» القريبة، إن كانا مستعدين لذلك. وذهب بهما في يوم أحد إلى «بويبلا» البعيدة جدّاً. كانوا أثناء تلك الجولات يتحدثون عمّا هو إنساني وعمّا هو ربّاني، وكان على جاك أن يستمع، بانتباه مثير للإعجاب، حكايات الصداقة الطويلة التي تربط آل روسمر بآل تروتسكي، التي بدأت قبل الحرب العظمى - «أف، حين كنتُ أتعلّم القراءة»، قال مرّة جاك، الذي كان قد درس في الواقع تفاصيل تلك العلاقة- ويصغي، بملل واضح، إلى أحاديث آل روسمر وسيلفيا حول الغزو السوفييتي المشؤوم لفنلندا والهجوم الوشيك للنازيين على غرب أوروبا وتصاعد النبرة العدوانية في حملات الدعاية الشيوعية المكسيكية ضد ليف دافيدوفيتش، وحتى عن مسائل سياسية داخلية تتصل بالأممية الرابعة غير المتعافية. أبدى اهتماماً أكبر حين علم أنّ تروتسكي يمتلك مجموعة كبيرة من شجيرات الصبّار وأنّه يخصص ساعتين من وقته يوميّاً للعناية بصغار الأرانب التي يمتلكها. أمّا موضوع مورنارد المفضل فهو حياة باريس البوهيمية التي أدخل سيلفيا فيها أثناء أشهر إقامتهما في فرنسا، والتي أثبت أنّ معرفته بها تفوق ما يعرف آل روسمر عنها.

حين عاد جاك ذات ليلة إلى غرفته في الفندق، وكان ذهب لشراء

السجائر، قالت له سيلفيا إنّ شخصاً يدعى مستر روبرتس قد اتصل به، وإنّه يستعجل لقاءه لأمور تتصل بالعمل. في الصباح التالي، حين وصل إلى شقة «شارلي كورت»، فتح له توم الباب. أبلغه معلمه بأنّ كاريداد في هافانا وأنّها ستعود خلال أيام. وقال له إنّه حضر اجتماعات مهمة، وقدم له القهوة، وعيناه مسمرتان في البلجيكي.

- لقد حانت ساعة اصطياد ذكر البط - قال.

أحسّ رامون بردة الفعل في معدته. منحه توم وقتاً ليستوعب الخبر، ثمّ حكى له عن لقائه الجديد مع الرفيق ستالين، هذه المرة في بيت ريفي يقع على بعد مئة كيلومتر من موسكو، حيث اعتاد أن يعقد اجتماعاته البالغة السرية. حضر الاجتماع، بالإضافة إلى توم، بيريا وسودوبلاتوف. ليس على رامون أن يعرف مما جرى الحديث عنه -لاحظ أنّه سمّاه رامون من دون أن يتوقف عن الكلام بالفرنسية- غير ما يتصل به مباشرة، فالمواضيع الأخرى مواضيع حيوية تخصّ الدولة السوفييتية. أومأ الشاب موافقاً وأشعل سيجارته، ينهشه التلهف والفضول.

- المرتد يعدّ العدة لأعظم خياناته - بدأ توم، وهو ينظر إلى يديه-. مرّر لنا أحد عملائنا معلومة تقول إنّ الألمان والخائن على وشك اتفاق لاستخدامه على رأس حكومة تدخّل حين يقرر النازيون غزو الاتحاد السوفييتي. هم يحتاجون إلى دمية، وليس أفضل من تروتسكي للقيام بهذا الدور. علمنا من مصدر آخر أنّه مستعد للتعاون مع الأمريكان إن قرر هؤلاء، إذا ما وقع تحول في مسار الحرب، غزو الاتحاد السوفييتي. إنّه مستعد للتحالف حتّى مع الشيطان.

- يا بن الـ! - قال رامون وهو غير قادر على السيطرة على نفسه.

- هناك ما هو أكثر...- أضاف توم-. لقد ألقينا القبض في الاتحاد السوفييتي على عميلين من أتباع تروتسكي ومعهم أمر باغتيال الرفيق ستالين. لقد اعترف الاثنان، لكنّنا قررنا عدم الإعلان عن الخبر، لأنّ ظروف الحرب تستدعي التحرك بحيطة أكبر.

- وما هو الأمر؟ - سأل، وهو راغب في سماع جواب واحد.

- يجب إخراجه من اللعبة قبل نهاية الصيف. سيزحف هتلر الآن على الغرب ولن يحاول شيئاً ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، لكنّه إن تقدم في أوروبا بسرعة، كما نتصور، فلن يلبث أن ينقلب علينا خلال أشهر.

- على الرغم من المعاهدة؟

- هل تثق بكلمة ذلك المجنون المدافع عن نقاء العنصر الآري؟

هزّ رامون رأسه بالنفي هزّاً خفيفاً ومطولاً. لم يكن هتلر من يقلقه، وقد وجد مصداق ذلك في كلمات معلمه التالية.

- سيصل جاسوسنا الأمريكي إلى المكسيك في ظرف أسابيع. اعتباراً من هذه اللحظة سيتحرك كلّ شيء بخطى حثيثة. سنلعب أولاً ورقة المجموعة المكسيكية. البارحة كنتُ مع فيليب وهو يرى أنّ الأمريكي إن أدّى عمله فسيمكنهم هم أن يقوموا بعملهم.

- وماذا عنّي أنا؟ - بدت عليه خيبة الأمل.

- أنتَ تواصل عملك وكأن شيئاً لم يحدث. أعلمُ أنّك صادقتَ آل روسمر، وبأنّهم وحبيبتك سيلفيا سيفتحون لك باب البيت.

- ستعود سيلفيا إلى نيويورك في ظرف أيام...

- دعها تسافر. أنتَ تستمر كما أنتَ، وحين يقع هجوم المكسيكيين، ستواصل أنتَ روتين حياتك، مهما كانت نتيجة الهجوم. إن تمّت الأمور حسب ما نتمنى فسنغادر جميعاً في ظرف أيام. وإن فشلت المحاولة فستستدعي سيلفيا ونبدأ الخطة الأخرى.

نظر رامون إلى المستشار وقال وهو على ثقة وقناعة تامتين:

- في استطاعتي أن أقوم بالمهمة على نحو أفضل من المكسيكيين.

بدت عينا توم الزرقاوان حجرين كريمين: كانت السعادة تمنحهما بريقاً وصفاءً شفافاً وحادّاً.

- نحن جنود ننفذ أوامر. ولكن لا تأسف، هذه معركة طويلة وأنتَ

لك وزن كبير... الرفيق ستالين يعلم أنّك أفضل ما لدينا، لذلك نريدك في مقعد الاحتياط، حتّى إذا استدعت الحاجة ظهورك فستظهر وتسجل الهدف. وتذكر، من الآن فصاعداً، وفي كلّ ثانية من حياتك، أنّ ما يهمّ هي الثورة، وهي تستحق أيّ تضحية. أنتَ الجندي رقم (13)، ولا مكان للرحمة في قلبك، وأنتَ لا تعرف الخوف، وأنتَ مجرّد من العاطفة. أنتَ شيوعي من قدميك حتّى رأسك، رامون ميركادير.

***

أمضى جاك مورنارد أياماً وهو يراجع نفسه: إنّه يريد أن يعرف أين أخطأ لكي يأمر ستالين، ويسمح توم بذلك، أن يتولّى آخرون تنفيذ العملية. لقد كان قريباً جدّاً! كان في عودة سيلفيا إلى نيويورك ما خفف عنه، فقد استطاع أن ينصرف إلى كآبته وإلى أفكاره المكبوتة. أسف لهروب أولوف، فقد كان في ذلك ما منع أفريكا من أن تكون في المكسيك في تلك اللحظة. لو كانت أفريكا قريبة منه لظفر على الأقل بسلوى حقيقية ولتضاعفت إمكانياته في أن يكون هو من يقع عليه الاختيار. إنّ في مقدورهما، هو وأفريكا، مجتمعين، أن يهدّا أسوار بيت الخائن ويخلّصا العالم من تلك السحلية التي باعت نفسها للفاشيين.

طلبت منه سيلفيا، قبل أن تسافر، أن يعدها بألّا يعود إلى بيت المنفي حتى تعود هي. فإنّ عدوانيّة أنصار ستالين من المكسيكيين تجبر الحرس والشرطة على أن يكونوا في حالة إنذار قصوى، وقد يؤدي وجوده، بجواز سفره المزور ومن دون أسباب محددة للذهاب إلى البيت، إلى مشاكل مع العدالة المكسيكية تفضّل هي تجنبها. أعطاها هو وعداً بعدم الذهاب إلى كويواكان، لأنّه يفكر في انتهاز غيابها للسفر إلى الجنوب، حيث ينوي السيد لوبيك فتح تجارة جديدة له.

ما إن سافرت سيلفيا حتى أمر توم جاك بترك الفندق والانتقال إلى مجمّع للسيّاح يقع بالقرب من محطة «بوينابيستا» للقطار. سيحمل له توم، في ظرف أسابيع، بعض الأسلحة التي يمكن أن تستخدم في

الهجوم على بيت ذكر البط. وشرح له أنّ ذلك المكان، بحدائقه الواسعة المشجرة وطرقه الداخلية وكابيناته المستقلة، حيث يدخل ناس ويخرج ناس كلّ يوم، مناسب لإخفاء شنطة سفر ثمّ إخرجها في وقت لاحق. أكّد له توم أنّ أحداً من المشاركين في تلك العملية لا يعلم بوجوده، وبأنّه سيتكفل شخصيّاً بإدخال السلاح وإخراجه.

لم يبرح رامون لعدة أيام كابينته، وظلّ من دون أكل تقريباً، يدخن وينام. فقد فترت معنوياته من شعور بالإحباط ومن حالة كسل وقع فريسة لها. كان يشعر بأنّه خدع: بدا له أنّ من الظلم أن ينفق سنتين من العمل والحركة المرسومة والمؤمنة لتقتصر خدمته في النهاية على حراسة سلاح سيستخدمه آخرون. مع ذلك، فقد حملته ثقته في أنّ قليلاً من الانتظار سيكون كفيلاً بنقله إلى ظروف مواتية لتنفيذ الأوامر، بل بالخروج من العملية سالماً ومن دون ضرر، على أن يرى في نفسه الخيار الأفضل. بل لقد داخله الشك في أنّ حكاية الاستعانة بالمكسيكيين، لكي تبدو المسألة مسألة صراعات داخلية، ليست إلّا تبريراً يصعب هضمه. هل يمكن أن تكون كاريداد وراء ذلك القرار؟ هل تشكّ هي في قدراته أم إنّها حاولت أن تبقيه بعيداً عن الخطر بميلها القاتل إلى التسلط على مقدرات أبنائها واتخاذ القرارات التي تمسّ حياتهم؟ بعد عدة أيام من الاعتكاف، قرأ صباحاً في الجرائد أنّ الجيوش الألمانيّة بدأت زحفها غرباً لتغزو النرويج والدنمارك، فأحسّ بضيق، وقرر أنّ عليه أن يتحرك هو أيضاً وأن يضايق العدوّ.

ذهب مساءً إلى كويواكان، فخرج له هارولد روبنس، رئيس حرس المرتد، ليلقي عليه التحية من برج المراقبة. شرح له جاك مبتسماً أنّه عاد إلى المدينة في اليوم السابق وهو يريد رؤية آل روسمر. أرسل روبنس بلاغاً إلى ألفريد ومارغريت وسأله إن كان يريد الدخول ليتحدث معهما على راحته. أحسّ جاك بفرح غامر، لكنّه ردّ عليه مباشرة بأن لا داعي لذلك فالمسألة لا تستدعي أكثر من دقيقتين.

استقبله ألفريد ومارغريت قرب الباب. حدثهما عن سفرته وعن رسائل سيلفيا التي تبعث لهما فيها بالسلام وسلّم المرأة تمثالاً صغيراً لإلهة هندية لها وجه سنّور وجسد امرأة، اشتراه ذلك الصباح من سوق بالمدينة وأكّد لها أنّه رآه في «واكساكا» وفكّر في الحال بأنّ التمثال سيعجبها. في تلك الأثناء حدثت عملية تبديل حراس البرج، فودّعه روبنس، قبل أن ينزل ويسلّم مكانه إلى شاب ذي شعر فاتح اللون وبشرة بيضاء، كان البلجيكي يراه للمرة الأولى.

- هل هو جديد؟ - سأل آل روسمر، وهو يحيّي الشاب المجهول بإشارة من يده.

- وصل قبل أيام. اسمه بوب شيلدون[139]، جاء من نيويورك - قال له ألفريد روسمر. فكّر جاك في أنّه قد يكون الرجل الذي كان توم ينتظره ليطلق مجموعة كلابه المكسيكية.

اقترح جاك، وقد عادت إليه أوقات فراغه، على آل روسمر أن يلتقي بهم في ظرف يومين للخروج إلى العشاء. لقد حدثوه عن مطعم فرنسي افتتح مؤخراً في وسط المدينة وبه فضول ليجرب طعامه، لكنّه لا يريد أن يذهب بمفرده. قبل آل روسمر دعوته واتفقوا على أن يمرّ هو بهما الساعة السابعة من مساء الجمعة لاصطحابهما.

في يوم الجمعة ذاك، الثامن عشر من نيسان، أكّد حادثان، منفصلان ظاهريّاً، لرامون ميركادير أنّ قَدَره هو الدخول إلى التاريخ خدمة لقضيّة البروليتاريا في العالم. في الصباح، وبينما كان يتمشى في مجمّع السيّاح وجد فأساً لتسلق المرتفعات الجليدية مثبتة في شجرة كابولي. كان ابن مالك الحقل، وهو فتى تمتام تحدث معه مرتين، قد حكى له أنّه يمارس

139- Robert Sheldon Harte (1915-1940). شيوعي أمريكي تروتسكي. عمل في حرسه الخاص. اختطف أثناء الهجوم الذي تعرض له بيت تروتسكي ثم وجد مقتولاً. يقال إنّ جهاز الجيبيو جنّده للمشاركة في الهجوم، لكنّه ضلل المهاجمين متعمداً وصارحهم بذلك فقرروا قتله بعد أن ثبتت لهم خيانته.

رياضة التسلق، بل لقد ألحّ عليه أن يريه عدّة رياضته. الفأس، بلا شكّ، هي من عدّة الفتى، الذي اتخذ من جذع الشجرة المتين والمنتصب ميداناً لتمريناته، وهو ما كان ظاهراً في الشقوق الكثيرة على القشرة. كان على رامون أن يستخدم كلّ قوته لسحب الفأس ونزع رأسها المدبب المغروس في الشجرة. حين أصبحت الفأس في يده وتفحصها، أحسّ بتيار من المشاعر يسري في بدنه: إنّ تلك الشوكة سلاح قاتل، بلا شك. اختار رامون نقطة في الجذع، ارتفعت عليها القشرة ملمترات قليلة. ابتعد وسدد لها ضربة بالفأس، فانغرست سنتمترات فوق النقطة المحددة. وعاد ليحاول نزع فولاذها من قلب الشجرة، وحين تفحص الفأس بين يديه ثانية، فكّر في أنّ تلك الفأس أداة قتل مثالية. عاد إلى كابينته ولفّ الفأس بمنشفة وحشرها في الحقيبة التي اعتاد أن يقفل عليها بالمفتاح.

أمّا علامة القدر الثانية فقد تبدّت له حين أخبره أوتو شوسلر، بعد وصوله مباشرة إلى حصن جادة «فيينا» لمصاحبة آل روسمر، بأنّ ألفريد أصيب بنوبة إسهال حادة وإنّ لييف دافيدوفيتش يصرّ على نقله إلى المستشفى، فقد يكون التهاباً في الزائدة الدودية. لم يتردد، بل عرض على أوتو أن يأخذ المريض بنفسه إلى المستشفى، وهكذا لا يتحتّم على الآخرين الخروج من البيت.

أمضى جاك الليلة كلها تقريباً مع آل روسمر مظهراً كرمه ولطفه. وشخّص أطباء المستشفى الفرنسي، بعد تحليل بدني وسريري، حالة التهاب جرثومي شديد، ناتج عن نقص المناعة لدى الأوروبيين إزاء تلك الآفات المداريّة. إنّه لعنة موكتيزوما، كما يقولون[140]. بعد أن سدد جاك الفواتير والأدوية عاد إلى كويواكان بالمريض وقد خفّت أعراض

140- Moctezuma الإمبراطور المكسيكي الذي قتله الإسبان إبّان غزوهم لبلاده بداية القرن السادس عشر. أمّا لعنة موكتيزوما فهو إسهال شديد يصيب السياح الأوروبيين بسبب عدم تكيف جهازهم الهضمي على الأطباق المكسيكية التقليدية.

ألمه بعد الأمصال التي حقنوه بها. وجرياً على عادته، حين كان يأتي لاصطحاب سيلفيا، فقد ضرب زمور سيارته «البيوك» مرتين فصدر الصوت من برج المراقبة بأنّ جاكسون عاد بالمريض وزوجه. فتح روبنس وشوسلر الباب المدرع وخرجا إلى الشارع فعلما أنّ كلّ شيء على ما يرام. أعان الحارسان ألفريد على الدخول إلى البيت، بينما ظلّت مارغريت، وقد توزع اهتمامها بين زوجها المريض وجاك اللطيف، مترددة أمام الباب المفتوح، الذي شاهد الشاب من خلاله نتاليا سيدوفا ومن خلفها رأس تبيّنه هو رأس المرتد، الذي اقترب، بثياب منزلية، من روسمر وتحدث معه، في وسط الباحة. اقتربت نتاليا سيدوفا في تلك اللحظة من الباب لتهنئة مارغريت بسلامة زوجها وتقديم الشكر للسيد جاكسون على نجدته. وهنا سألته نتاليا إن كان يرغب في الدخول لشرب القهوة أو تناول الطعام.

- لا، شكراً، مدام. الوقت متأخر وألفريد يحتاج إلى الراحة.

- جاك من فضلك - ألحت مارغريت روسمر-، كنتَ كريما جدّاً...

- لا عليكم، كان واجبي - رمى سريعاً بسنارته في الماء-. في يوم آخر. حين تعود سيلفيا - وبدأ بالانسحاب، مبتسماً، بينما راحت مارغريت وألفريد يغدقان عليه من عبارات الشكر والامتنان.

في اليوم التالي، كتب جاك إلى سيلفيا أنّه اضطر إلى إخلاف الوعد الذي قطعه لها، وشرح لها تفاصيل ما حدث، وانتهى إلى التعبير عن مدى تلهفه لعودتها إلى المكسيك. كان رأسه، في تلك الأثناء، يغلي من الرضا: فقد صارت أبواب حصن جادة «فيينا» المدرعة، في نظره، ستائر يمكن إزاحتها بظاهر يده، وبكلّ لطف ورقّة.

***

ذات ليلة من ليالي نهاية نيسان، ظهر توم وكاريداد في صورة سادة القوى الأرضيّة وأحدثا الزلزال الذي غيّر مجرى حياة رامون ميركادير. اتصلا به منتصف العصر ليبلغاه بأنّهما سيزورانه الساعة التاسعة والنصف

من تلك الليلة. وطلبا منه أن ينتظر وصولهما في سيارة «كرايسلر» خضراء غامقة. توقع أنّ لذلك الظهور معنى حاسماً في حياته، فتناول عشاءً خفيفاً ودخن السيجارة وهو جالس عند سور حوض من أحواض الزرع. كم هو راغب في أن يكون عنده كلب، أو كلبان، يستطيع معهما الجري والتدحرج على رمل الشاطئ ومداعبة شعرهما! وبينما أسكرته الكراهية، وهو يتذكر أنّ آخر من ارتبط به هو جورّو، الذي خرج من مكان لا يعلم أحد قراره وتطوّع في الجيش الجمهوري، فاجأته أنوار سيارة تستدير نحو كابينته وتتقدم حتى توقفت بالقرب منه.

نزل توم وهو يجلجل بمفاتيح السيارة، وأشار إلى رامون بأن يتبعه. نزلت كاريداد من الجهة الأخرى، وبعد أن حاولت عبثاً أن تقبل ولدها، اتجهت إلى الكابينة. فتح توم حقيبة السيارة فشاهد هو الصندوق. نبّهه توم إلى أن الصندوق ثقيل، فحملاه كلاهما إلى الكابينة، حيث كانت كاريداد تمسك بالباب لتسهل عليهما الدخول. توجه توم إلى الغرفة، وكأنه فكر بكل شيء، ووضعا الصندوق المستطيل عند أحد أطراف الخزانة.

انتظرتهم كاريداد في الصالة وهي جالسة على الكنبة. وبدا لرامون أنّها سمنت في الأسابيع الأخيرة: كانت تبدو قوية ونشيطة، كعهده بها في الأيام الخالية، حين كان تجول في سيارة الفورد المصادرة في شوارع برشلونه وتستعرض قسوتها وهي تطلق النار على كلب. لعن رامون غموض مشاعره التي تثيرها فيه أمّه. في تلك الأثناء، قال له توم، وهو جالس قبالته، إنّ الصندوق لن يبقى معه أكثر من أسبوعين.

- العجلة بدأت تدور - قال.

- هل الجاسوس هو بوب شيلدون؟ - سأل رامون.

- نعم. وكما أتصوّر فلن نستطيع أن ننتظر منه الكثير. الرفيق اليهودي يتابعه وهو واثق من أنّه ينفع على الأقل في فتح الباب.

لزم الشاب الصمت. كان في وضعه ذاك إهانة له.

- ما بك، رامون؟ - سألته كاريداد وهي تنحني صوبه-. حين يعنّ لك أن تتصنع الغرابة...

- أنتِ وهو تعرفان ذلك. ولكن لا تقلقا، المهم...

- هل ستدخل في نوبة غضب؟- كان صوت توم ينمّ عن سخرية-. لن أكرر عليك ما تعرفه. أنتَ وأنا ننفذ أوامر. هكذا ببساطة. كلّ منّا يخدم الثورة في المكان والزمان الذي تقرره الثورة.

- وماذا أفعل أنا في هذه الأثناء؟

- تنتظر - قال توم-. حين تقع الضربة سأخبرك بما تفعل. تردّدْ من حين لآخر على كويواكان وسلّم على أصدقائك. إن سمعت شيئاً يمكن أن يكون مفيداً، يمكنك الاتصال بي، وإلّا فسنظل بعيدين عن بعضنا.

- هكذا أفضل، رامون - قالت كاريداد-. توم يعرف أنّك تستطيع القيام بذلك، لكنّها مشكلة سياسية معقدة جدّاً. فقتل ابن القحبة هذا سيثير الكثير من ردود الفعل، والاتحاد السوفييتي ليس مستعدّاً لأن يتهم بالتورط في الموضوع... هذا كلّ ما في الأمر.

- أفهم ذلك، كاريداد، أفهم ذلك - قال ونهض-. قهوة؟

منذ تلك الليلة عاش رامون بشعور من هزم في داخله. أحسّ بأنّ جلد جاك مورنارد، من كثرة ما ظلّ هو فيه، انقلب عليه وحبس أناه الحقيقية المهملة في داخله: فجاك هو من يتجوّل في المدينة وهو من ينطلق بسرعة جنونيّة في «البيوك» السوداء وهو من يمرّ بحصن جادة «فيينا» للاطمئنان على صحة ألفريد روسمر وللحديث عن ترهات مع روبنس وأوتو شوسلر وجوزيف هانسن وجاك كوبر، وحتى مع الحارس الجديد بوب شيلدون هارت، الذي دعاه أكثر من مرّة لتناول الجعّة في الحانة المتهالكة التي اختفى منها الرجل الأدرد وباتت تعمل فيها فتاة شابة؛ إنّ جاك هو من يبتسم وهو من يكتب رسائل الحب لسيلفيا آجيلوف ويتطلّع إلى واجهات محلات بيع الأحذية والخياطين في مدينة متلألئة لكنّها

موبوءة بفقر غير مرئي لشخص مثله. أمّا رامون فلم يكن أكثر من شبح يصرّف الفعل «انتظر» في جميع أزمنته وصيغه الممكنة ويشعر بمرور الحياة من جانبه من دون أن تكلّف نفسها بالتطلّع إليه.

توجّه صباحَ الأول من أيار إلى جادة «لاريفورما»، حيث كان عمّال ونقابيون ينظمون مسيرة. شاهد لافتات ورقية وأخرى من قماش، لا تطالب بطرد المرتد، بل بالموت للخائن الفاشي، وشعر بأنّ تلك المطالب ليست موجهة إليه. بدأ يحسّ بأنّه فقد بوصلته وما عاد ينتظر شيئاً، فصار يمضي ساعات في سريره ونظراته موجهة إلى السقف، يكرر على نفسه الأسئلة المؤلمة ذاتها: وماذا، بعد أن يمرّ كلّ شيء؟ لأجل ماذا التضحية ونكران الذات؟ والمجد الذي تصوّره في متناول يده، في أيّ مكبّ للنفايات ألقي به؟ لقد قدّم رامون نفسه من أجل تلك المهمة لأنّه يريد أن يكون بطلها، ما كان يهمه أن يضطر إلى القتل، أو حتى إلى أن يقتل، إن هو حقق هدفه. إنّه مستعد للاختباء في الظلام طيلة حياته، من دون اسم ومن دون هوية، مكتفياً بزهو الشيوعي الذي أقدم على فعل عظيم من أجل الآخرين. كان يريد أن يكون هو من تختاره العناية الماركسية، لكنّه يرى أنّه، في تلك اللحظة، لن يكون شيئاً، ولن يورد له ذكرٌ. بعد أسبوعين، حين عاد توم لاسترداد الصندوق، شعر رامون بأنّ تأجيله صار أمراً مفروغاً منه.

- متى سيكون؟

وضعا السلاح في صندوق «الكرايسلر» ونظرا إلى بعضهما وهما جالسين على الكنبة في الكابينة.

- قريباً - بدا توم منزعجاً.

- هل من خطب؟

ابتسم توم بحزن ونظر إلى الأرض، حيث راح يضرب على البلاط بمقدمة حذائه ضرباً خفيفاً.

- أنا خائف، رامون.

فاجأه جواب معلّمه. لم يفته أنّه دعاه مرة أخرى برامون بينما كان يعترف له بما لم ينتظر سماعه من ذلك الرجل. هل عليه أن يصدقه؟

- لقد أعدّ غريغوليفيتش وفيليب لكلّ شيء عدته، وعلى أفضل ما يمكن، لكنّهما لا يثقان بالرجال الذين يعملون معهما. قد يؤدي شيلدون ما يخصّه، لكنّ الآخرين...

- من سيكون على رأسهم؟

- الرفيق اليهودي.

- ألا يثق بنفسه؟

- سيشارك في هذه العملية كثيرون، وسيطلق فيها رصاص كثير. سيكون استعراضاً على الطريقة المكسيكية... هم رجال ذوو خبرة بالحرب، لكنّ عملية من هذا النوع هي شيء آخر.

- ولماذا لا يوقفون العملية؟

- هل تتذكر فنادق موسكو؟ من يستطيع أن يقول لستالين إن العملية يمكن أن توقف؟

انحنى رامون نحو الأمام. كان في مقدوره أن يسمع أنفاس توم.

- وماذا ستقولون له إن فشلت العملية؟... دعني أذهب معهم، تبّاً!

نظر إليه توم، فشعر رامون بضيق في صدره.

- قد يكون ذلك حلّاً، لكنّه غير ممكن. فإن تعرّفوا عليك فسيكتشفون أنّ العمل ليس من تخطيط المكسيكيين، بل هي مؤامرة خُطط لها في مكان آخر.

- وإن تعرّفوا على فيليب؟

- سيقال إنّه إسباني كان مع المكسيكيين في الحرب الأهليّة، وتلك الجبهة قائمة أساساً.

- وأنا أيضاً إسباني... وبلجيكي و...

- هذا غير ممكن، رامون! اسمعني جيداً: العملية جيدة الإعداد، لكن

هناك دائماً إمكانية لوقوع ما لا ينتظر، فقد يصيبون ذكر البط ويبقى على قيد الحياة، لا أدري. أنا قلتُ للرفيق ستالين إننا يجب أن نضع احتمال فشل العملية في بالنا. وقلتُ له أيضاً بأن هذا لو حدث فستدخل أنتَ في اللعبة. لكن من غير الممكن إلغاء العملية ولا أن أرسل بك...- نهض توم وأشعل سيجارة ونظر صوب الحديقة-. عليك أن تكون مسروراً لعدم مشاركتك في هذا. أنتَ تعرف أنّ حياة من سيدخل هذا البيت يمكن أن تكون صعبة منذ هذه اللحظة. فإن أمسكوا بواحد منهم فقط، فسيسقط الآخرون كما تسقط قطع الدومينو. وسيلقون القبض عليهم، بالتأكيد... ثمّ إنني قلتُ لك منذ البداية بأنّك أفضل خياراتي، وإن لم تكن أولاها. إن هم أتمّوا واجبهم كما يجب، فهذا هو ما خططنا له. هل رأيت ما حدث في الأول من أيار، كيف اصطدم أنصار الحزب والتروتسكيون في الشارع؟ من سيشك فينا إن قامت مجموعة من الشيوعيين المكسيكيين بقتل خائن بلغ به الأمر أنّه يتعاون مع الأمريكان لتنفيذ انقلاب في المكسيك؟ وعلى أيّه حال، حتّى لو أبلغوا الشرطة روايتهم، فما من أدلّة على أنّ هؤلاء الرجال من أتباعنا...

- أفهم كلّ ما تقول. لكنك لا تستطيع أن تطلب منّي أن أكون سعيداً بعد أن عملت ثلاث سنوات من دون طائل.

ابتسم توم أخيراً. سحق عقب السيجارة في المنفضة وسار نحو الباب.

- ليتك لا تفقد هذا الإيمان أبداً، رامون ميركادير. لن تتصور كم ستحتاجه إن قُدر لك أن تشترك في المشهد. أؤكد لك أنّه ليس من السهل قتلُ رجل كابن القحبة هذا تروتسكي.

***

وضع جاك مورنارد الماء على الطبّاخ ليعدّ القهوة، وشدّ حزام رداء الملاكم الذي يلبسه في البيت. حين خرج إلى الرواق الصغير شعر بالسخط إذ تبيّن له أنّ صحف الصباح لم تصل بعد. كان في الأسبوع

الماضي قد ضاعف بقشيش الصبي الذي يأتي له بالصحف شرط أن يتركها له أمام باب بيته قبل السابعة صباحاً. عاد إلى المطبخ، صفّى القهوة وتناول فنجاناً صغيراً. أشعل سيجارته وتوجه نحو مكتب المشرف على المجمّع. كان شهر أيار يشرف على نهايته، لكنّ الصباح كان بارداً بسبب المطر الذي هطل في الليلة البارحة. سار في الطريق الحجري وتمتم لاعناً حين أحسّ بأنّ خفّيه صارا رطبين. في باب الكابينة التي خصصت للبواب وضع المشرف الصباحي عدة البستنة في حقيبة.

- صباح الخير، سيد جاكون، هل تأمر بشيء؟- كان الرجل يبتسم ويثني ركبته ثنيات قصيرة.

- صبي الصحف، ماذا دهاه اليوم؟

ازدادت ابتسامة المشرف اتساعاً. كانت أسنانه بيضاً ومكتملة العدد.

- لم يصدر العديد من الصحف اليوم، وهو ينتظر صدورها.

- ولماذا لم تصدر الصحف؟

- بسبب ما جرى الليلة الماضية- عاد المشرف إلى الابتسام-. لقد حاولوا قتل تروتسكي، صاحب العثنون. هذا ما قالوه في الراديو.

استدار رامون عائداً إلى كوخه من دون أن يودّع المشرف. إن كان فهم جيداً فإنّ الرجل تحدث عن محاولة وليس عن تنفيذ. فتح الراديو وحرّك المؤشر إلى أن عثر على محطة تتحدث عمّا حدث: اقتحمت مجموعة مسلحة ذلك الفجر بيت ليون تروتسكي، وعلى الرغم من الطلقات الكثيرة التي أطلقت، لم يتمكن المهاجمون من تحقيق هدفهم في قتل الثوري المنفي. لقد تمكّن المهاجمون (يقال إنّ دييغو ريبيرا كان بينهم يحمل مسدسه) من الهرب، وإنّ الرئيس كارديناس أمر بإجراء تحقيق دقيق للتعرف على مرتكبي الاعتداء الفاشلة. شعر رامون، وهو يهضم تلك الكلمات ويخمّن النتائج (دييغو ريبيرا في الهجوم؟)، بمزيج غريب من اللهفة والفرحة تسيطران عليه. وبينما راح يرتدي ثيابه بكل سرعة،

سمع تفاصيل أخرى عن الخبر: هناك كلام عن جريح، عن مهاجمين يرتدون ملابس عسكرية وملابس شرطة، وعن اختطاف أحد حراس تروتسكي الشخصيين.

دوّر رقم هاتف شقة توم في «شارلي كورت» من دون طائل. ماذا عساه يفعل؟ أخذ جاك مورنارد وقتاً للتفكير. لقد رتّب توم خطة وعرة لا يفهمها. فهل تمكنوا من استخدام الخلافات السياسية بين المرتد والبدين ريبيرا لكي يكون هذا على رأس الكوماندو القاتل، أم إنّهم هددوا بالكشف عن عثرات زوجه، الرسامة العرجاء؟ هناك حديث عن عشرين مسلحاً وعن مئات الطلقات وما من قتيل. كيف يمكن هذا؟ إذا كان محترف مثل فيليب داخل البيت فهل يمكن أن يظل ذكر البط حيّاً؟ لا شكّ أنّ ما وقع شيء غامض يتحدى أبسط قواعد المنطق. على أيّة حال، فكّر، إنّ فشل المحاولة يضعه بضربة واحدة في الخط الأول من خطوط المعركة التي طالما كافح من أجل بلوغها. لقد اكتسبت شكوك توم حول نجاح العملية وضوحاً جليّاً، وبلغ به الأمر أن تساءل إن كان وراء ذلك الفشل قصدٌ. ولكن، أيّ قصد؟ الدخول إلى بيت ذكر البط ووضعه تحت رحمة عشر بنادق من دون اصطياده، ولكن لماذا؟ وهل كان هو المكلّف بالعملية منذ البداية؟ إنّ رأسه ليوشك على الانفجار. بدا واضحاً له أنّه أصبح البديل الحقيقي، وكان في ذلك مبعث فرحة ثورية خفيّة، لكنّ شبح خوف غير متوقع بدأ بالنهوض معها، خوف مكتوم إزاء المسؤولية التي يعنيها كلّ هذا. تناول المزيد من القهوة ودخن سيجارتين أخريين، وحين شعر بأنه في وضع يسمح له بالحركة، وضع القبعة على رأسه وصعد في «البيوك».

شعر، وهو يقود سيارته صوب «شارلي كورت»، بصدره يضيق حتّى يوشك على الانفجار. لم يشعر قط بانقباض على تلك الدرجة من الوضوح، وتساءل إن كان ما به ذبحة صدرية كتلك التي تعتاد كاريداد. حين سأل المشرف على الشقق عن وجود السيد والسيدة روبرتس، أخبره الرجل بأنهما سافرا في الليلة البارحة.

ترك رامون ميركادير سيارته في ساحة البناية وخرج صوب جادة «لاريفورما»، التي كانت تغصّ بالمارة والباعة والسيارات والمتسولين، وحتى بالبغايا اللائي لا يخضعن لساعات عمل محددة: إنسانية ضاجّة صاخبة، ملفوفة في عوادم المحركات وصيحات باعة الصحف الذين يعلنون عن معجزة نجاة الرجل «ذي العثنون» تروتسكي. بدت المدينة وكأنها أصيبت بمسّ من الجنون، بدت وكأنّها توشك على الانفجار، ووجد الشاب نفسه في دوّامة، وسط الناس، وسط الصخب. استند إلى جدار من الجدران، ورفع بصره نحو السماء الصافية، التي طهرتها أمطار ليلة البارحة، وتملكته قناعة بأنّ مصيره سيتقرر تحت تلك السماء الشفيفة النقيّة.

-23-

في الثاني من شهر أيار من عام 1939، حوّل آل تروتسكي مكان الأسرّة ومنضدة العمل وألقما المدفأة فحماً. لقد صار البيت الكائن في الرقم 19 من جادة «فيينا» بيتهم. ومع أنّ ذلك لم يكن إلّا من قبيل تبديل السجن بسجن، فقد شعر ليف دافيدوفيتش بأنه نال بذلك التغيير هامشاً واسعاً من الحرية. هل يمكنني أن أشعر بالسعادة؟ هل من حقي أن أنال ذلك الشعور الإنساني؟ لا بدّ أنّه سأل نفسه وهو يجلس إلى «مكتبه» وينظر إلى ما حوله: الباحة التي يراها من الشباك كانت خربة، وأعمال البناء الأولية التي بدأت لم تنتهِ بعد، فعلى الرغم من إدارة نتاليا سيدوفا الحازمة وعمل المساعدين «الستيكونوفايتي»[141]، فقد وجدوا أنفسهم من دون موارد. لكنّه لن يعيش يوماً واحداً إضافيّاً تحت سقف واحد مع ريبيرا. بل إنّهما لم يتبادلا الكلام في الأشهر الأخيرة، وقد أسف على أن تنتهي علاقتهما بتلك الطريقة، فهو لن ينسى المساعدة التي قدمها له ريبيرا من أجل أن يسافر إلى المكسيك، ولن ينسى كرم ضيافته ولا مساهمته في أن يستردّ نفسه وقوته بعد تجربة الأشهر الأخيرة الفظيعة التي أمضاها في منفاه النرويجي.

لقد آمن، منذ أيام شبابه، بأنّ أسوأ اعتداء على الصفة الإنسانية هو

141– حركة عمالية اشتراكية ولدت في الاتحاد السوفييتي عام 1935 على يد عامل المناجم ألكسي ستاكانوف وكانت تدعو إلى زيادة الإنتاج استناداً إلى مبادرات شخصية من العامل مقابل مكافأته بزيادة في الأجر.

الإهانة، لأنّ الإهانة تجرد الفرد من قوته، وتضربه في صميم كرامته. لقد عانى طيلة حياته من كلّ أنواع الطعن والافتراء، لكنّه لم يشعر قط باقترابه من الإهانة كما شعر بها حين منعته نتاليا وجان فان هاينورت، بعد عيد ميلاده الأخير، من مغادرة البيت الأزرق ومن زجر ريبيرا على الاشمئزاز الذي يثيره فيه ميله للاستعراض وحركات الفحل المكسيكي التي يؤديها وتقلبه وتهريجه في السياسة. منذ وقت وهو يعلم أنّ ريبيرا لم يستقبله في بيته، ولم يسمح، ربّما، بأن تضطجع امرأته في سريره، إلّا لأنّه أراد أن يستخدمه حجّة على خلافه المزعوم، ومنصة للقفز إلى صفحات الجرائد، حتّى إذا بلغت الأمور مستواها المطلوب، انهارت طيبته المشروطة وكشف عن وجهه الحقيقي.

ساءت الحال حين وقع التصادم المحتّم بين طموح ريبيرا والحسّ بالمسؤولية الذي كان يميّز ليف دافيدوفيتش، إذ عارض هذا الأخير أن يشغل الرسام منصب أمانة سرّ المكسيك في الأممية الرابعة. لكنّ الحالة خرجت عن حدودها وطفح بها الكيل حين أعلن ريبيرا قطيعته مع الجنرال كارديناس وعزمه على دعم ترشيح اليميني خوان ألماثان لرئاسة الجمهورية. وعلى الرغم من أنّ المنفي كان يعي أنّ مردّ كلّ ذلك هو عجرفة الرسام، فقد حاول أن ينبهه إلى مبلغ الضرر الذي يلحقه تركه الحزب بالنسبة إلى مشروع كارديناس التقدمي، لكنّ الردّ الذي تلقاه كان من العدوانية أنّه قرر في ذلك اليوم نفسه أن يضع حدّاً لإقامته في البيت الأزرق: ليس في مقدور تروتسكي أن يعطي دروساً في السياسة لأحد، قال له مضيفه، وليس في مقدور أحد، لديه فضلة من العقل، أن يفكّر في تأسيس أممية هي، في الواقع، جهد استعراضي هدفه أن يكون به زعيماً لشيء.

إن كان رحل في أوقات أخرى عن الكرملين، فلمَ لا يرحل الآن عن البيت الأزرق؟ إن هو رحل وذهب إلى مكان آخر لا يوفر له الحماية فسيعرّض حياته للخطر، ولئن لم يكن لحياته أهمية كبيرة، فقد ذكّره جان

فان هاينورت بأنّ قراره سيعرّض حياة نتاليا أيضاً إلى الخطر. اضطر ليف دافيدوفيتش إلى أن يطأطئ رأسه، وإن أعلن على الملأ القطيعة مع ريبيرا واختلافه مع تحوّله السياسي، ودعا إلى ضرورة ألّا يرتبط اسمه بذلك الهراء الموجه إلى الجنرال كارديناس، الذي يشعر بالالتزام القوي نحوه.

كتب ليف دافيدوفيتش بداية العام رسالة إلى فريدا، وكانت ما زالت في نيويورك، آملاً أن تحاول تهدئة الأزمة، لكنّه لم يتلقّ جواباً منها. في تلك الأثناء، أعلن ريبيرا، وهو يجاهر بانضوائه تحت راية ألماثان، عن قطيعته مع التروتسكية، لأنّه يعتبرها أيديولوجية مغامرة - هل كان في حاجة إلى أن يردد شعارات موسكو إن كان يقول بمعاداته للستالينيّة؟- تسهل الأمور للفاشيين ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية.

كثّف هاينورت وبقية المعاونين جهودهم للبحث عن مكان آمن، واستقرّ رأيهم على استئجار بيت مبني بالطابوق، يضمّ باحة كبيرة مظللة، قريب من جادة «فيينا» الترابية، ومحاط بعدد قليل من الأكواخ. أمّا ميزة البيت فهي أنّ له أسواراً عالية وأنّ من الصعب اقتحامه من جهة الخلف، حيث يجري النهر «جوروبوسكو». لكنّ البناء متروك من عشر سنوات ويستدعي تأهيله الكثير من العمل. بعد أن قرر استئجار البيت حاول أن يعرض على دييغو إيجاراً عن الأشهر التي سيبقى فيها لحين انتهاء ترميم البيت، لكنّ الرسّام رفض استقباله، في محاولة واضحة لإهانته. حينئذٍ بلغ التوتر حدّاً جعل هاينورت يعترف لليف دافيدوفيتش بخشيته من أن يقدم ريبيرا على عمل عنيف ومتهوّر.

لم تسمح له تلك الأزمة بمتابعة الأحداث التي كانت تجري خارج البيت الأزرق إلّا قليلاً. وبصعوبة بالغة تمكن من تركيز ذهنه لإعادة تنظيم القسم الأمريكي، المبتلى بالنزعة القيادية، أو الحديث مع جوزيف نادال حول خطورة الأحداث الإسبانية عقب بدء هجوم قوات فرانكو على كاتالونيا، آخر معاقل الجمهوريين، فضلاً عن مدريد. وفي المكسيك دخلت الحملات الموجهة إليه منعطفاً خطيراً، فقد كان إيرنان لابوريد،

الأمين العام للحزب الشيوعي يطالب فيها بطرده، مهدداً الحكومة بالقطيعة السياسية، بينما أضفى اليمين على احتجاجاته طابعاً معادياً للسامية قاتماً وفاشيّاً. عاش ليف دافيدوفيتش يلفّه شعور بأن الخناق يضيق عليه: كانت الخناجر والمسدسات تقترب شيئاً فشيئاً من رأسه الذي صبغه الشيب بالبياض.

وكان ترميم البيت أعقد مما قدّرا وتصوّرا: لقد أمرت نتاليا برفع الأسوار، وإقامة أبراج للمراقبة وتعزيز المداخل بالحديد ونصب منظومة إنذار، حتّى إنّه سألها ذات مرّة إن كانت تعدّ له بيتاً أم ضريحاً.

ولما كان ليف دافيدوفيتش يمضي يومه كلّه معتكفاً في غرفته في البيت الأزرق، فقد استغلّ وقته ليكتب تحليلاً حول النهاية المتوقعة للحرب الأهليّة الإسبانية وهزيمة الحركة الثوريّة التي، ربّما كان في مقدورها أن تؤخر المواجهة الأوروبيّة، بل أن تحول دون وقوعها. حكى له نادال أنّ الحكومة الإسبانية طلبت، في الأشهر الأخيرة من السنة المنصرمة، المزيد من السلاح من حلفائها، في محاولة يائسة لإنقاذ الجمهورية. وقد أرسل السوفييت السلاح بالفعل عن طريق فرنسا، لكنّ باريس رفضت السماح بمروره عبر حدودها، وكان في ذلك الفشل النهائي: تخلّى السوفييت، بين تعبٍ من حرب لا مستقبل لها وقرارٍ بالتنصّل من تعهدهم، عن المحاولة، ومنذ تلك اللحظة صارت إسبانيا تسير على غير هدى، وبينما راح الفاشيون يكدسون قدراتهم العسكرية في إسبانيا، كان ستالين يشيح بنظره وينصرف إلى ما كان على الدوام شغله الشاغل: جيرانه في أوروبا الشرقية.

عقب شهور كثيرة، انقطعت أثناءها الأخبار عن سيروجا، كتب لهم صحفي أمريكي، قدم مؤخراً من نيويورك، بعد إقامة في موسكو، بأنّ زميلاً له تمكن من مقابلة سجين أطلق رئيس جهاز الشرطة السريّة السوفييتيّة الجديد، بيريا، سراحه مؤخراً. لقد حكى له السجين السابق أنّه رأى سيرغي سيدوف حيّاً يرزق قبل أشهر، وأنّ معتقلاً آخر قال

له إنّ سيروجا كان في عام 1936موجوداً في معسكر «فوركوتا»، أثناء الإضراب الذي نظمه التروتسكيون، وكان حينها على وشك أن يموت جوعاً؛ لكنّهم بعثوا به في عام 1937 إلى سجن «بوتيركي» الرهيب في موسكو، حيث عذبوه ليوقع اعترافاً يدين فيه أباه، لكنّه كان من السجناء القليلين الذين صمدوا أمام التعذيب. وقال السجين المجهول إنّه تعرف إليه في معسكر سيبيري، حيث كان السجناء الآخرون يصفون سيرغي سيدوف بأنّه صلب عنيد.

صدّقت نتاليا وليبف دافيدوفيتش الخبر بلا تردد، وإن خشيا أكثر من مرّة أن يكون هناك سوء فهم، فمن الصعب جدّاً أن يكون ولدهما قد خرج حيّاً من «فوركوتا» أو من «بوتيركي»، وهما أسوأ من دائرة جهنم السادسة[142]. لكنّ نفسيهما امتلأتا بالفخر وهما يريان أنّ الروايات تجمع على صلابة ابنهما، وهو ما لا يتطرق إليه أدنى شك: لقد قاوم جلسات الاستجواب ولم يوقع على أيّ اعتراف يدين أباه. كانا يعزّيان نفسيهما مفكرين في أنّ ستالين ربّما فكّر في القضاء على حياة بريئة، لكنّ سيروجا انتصر عليه بصمته.

ولّد المؤتمر الجديد للحزب الشيوعي السوفييتي، الذي عقد بداية العام، لدى ليبف دافيدوفيتش عدة قناعات. لقد بدا واضحاً لديه، في المجال الدولي، أنّ ستالين يبحث عن تحالف مع هتلر؛ أمّا على الصعيد الداخلي فقد كان همّ ستالين هو إجراء عمليّة محو تاريخيّ آخر والإلقاء بوزر عمليات التطهير السابقة على رؤساء جهاز الجيبيو الذين أطاح بهم. لقد انتقد الربّان العظيم منفذي حملات التطهير، التي كان فيها، بحسب كلماته، «من الأخطاء ما فاق التوقعات». أثارت كلماته حفيظة القليلين وألهبت حماس الكثيرين، بعد أن وجدوا فيها تأكيداً لحسن نواياه. فكلّ

142- بحسب التقسيم الذي يقدمه دانتي في الكوميديا الإلهية فإنّ لجهنم تسع دوائر تبدأ بالدائرة الأولى المخصصة للحدّ Limbo وهي الأقرب إلى الجنة وتقابل ما نسميه نحن بالأعراف، وتنتهي بالحلقة التاسعة المخصصة لعقوبة الخيانة قبل الوصول إلى وسط الجحيم. أمّا الدائرة السادسة فهي المخصصة لعقوبة الهرطقة والإلحاد.

ما جرى، إذن، كان جيداً سوى أنّ الأخطاء فاقت التوقعات؟ فما هو عدد الذين يمكن إعدامهم بالخطأ؟ الخطير في الأمر هو أنّ لا أحد في العالم، من الذين يعترفون بنزاهة ستالين، يتذكر أنّ الدب الجبلي أرسل، قبل أشهر، بتهانيه الحارة إلى يجوف ورؤساء الشرطة السريّة السوفييتيّة: ما كان يهمهم سوى أنّ «العبقري» نبّه إلى وجود «هنات» في العمليّة، مثل «إجراءات التحقيق المبسطة» وغياب الشهود والأدلة. وأين كان ستالين حين جرى كلّ ذلك؟ ها هو المنفي يوجّه سؤاله إلى عالم لم يردّ عليه هذه المرة أيضاً.

لكنّ أكثر القناعات التاريخية مأساوية من بين تلك التي كشف عنها ذلك المؤتمر هي أنّ الأمين العام وصل أخيراً إلى حيث أراد في صعوده نحو سماء السلطة. لقد سمح له رعب تلك السنين الأخيرة بأن يُزيح عن المشهد، بطريقة أو بأخرى، ثمانية عشر من الأعضاء السبعة والعشرين الذين كانوا يؤلفون المكتب السياسي، والذين انتخبوا في المؤتمر الأخير الذي ترأسه لينين، ولم يبقِ إلّا على رؤوس العشرين بالمئة من أعضاء اللجنة المركزية المنتخبين عام 1934، حين أوشك الوضعُ على أن يخرج من يديه. لقد برهن ستالين على أنّه عبقري حقيقي في تسوية الأوضاع وعقد الصفقات: تحوّلت التصفية الناجحة لأيّة معارضة داخل صفوف الحزب (استناداً إلى الاتفاق حول بطلان الأجنحة التي أنشأها لينين) إلى سلاحه السياسي الأكثر مضاءً لتشتيت الديموقراطية ثم إعادة الرعب وتنفيذ حملات التطهير التي منحته السلطة المطلقة. ربّما كان أول أخطاء البلاشفة، فكّر لييف دافيدوفيتش، هو تصفية الاتجاهات السياسية المعارضة تصفية جذرية. ثم انتقلت سياسة التصفية تلك من خارج المجتمع إلى داخل الحزب، وهكذا بدأت نهاية الحلم. ولو أنّهم سمحوا بحرية التعبير في المجتمع وداخل الحزب، لما استطاع الإرهاب أن يتجذر. ولذلك بدأ ستالين التصفيات السياسية والفكرية، لكي يكون كلّ شيء تحت سيطرة دولة محكومة بحزب محكوم بأمينه العام: لقد حدث تماماً ما تنبأ لييف دافيدوفيتش، قبل ثورة عام 1905، بحدوثه وقصّه على لينين.

في آذار، وتتويجاً لسلسلة الهزائم تلك، وصل إلى البيت الأزرق، في عصر يوم، جوزيف نادال، وهو يحمل عدداً من الصحف، وعلى وجهه أمارات الإحباط. لقد استسلم جيش الجمهورية وقوات فرانكو تتجول في مدريد. كان لييف دافيدوفيتش يعلم أنّ حملات الانتقام ستكون مروعة، وأشفق على أنصار الجمهورية، الذين لم يستطيعوا أو لم يريدوا الهروب من إسبانيا التي هزمتها الفاشية المستهترة المتوحشة. كان من المحزن رؤية بلد شجاع، كانت الثورة في متناوله، يذهب ضحيّة سادة الثورة والاشتراكية، تماماً كما فعلوا قبل سنوات مع الشيوعيين الصينيين أو مع العمال الألمان. هل كان صعباً فهم كلّ تلك السلسلة من الخيانات؟ سأل، وهو ينظر إلى وجه نادال.

***

حملت الحياة الجديدة في بيت جادة «فيينا» العائلة على أن تدبر نفسها بنفسها وتعتمد على مواردها. كانت حقوق التأليف التي يتقاضاها ليف دافيدوفيتش في تناقص، لكنّ المقدمة التي تقاضاها عن الطبعة الإنكليزية لكتابه عن سيرة ستالين ومساهماته في الصحف مكنته من السير قدماً. كان يؤلم المنفي أنّ ينفق جزءاً من تلك الأموال في تحويل البيت الريفي إلى خندق: فمهما علت الأسوار، ومهما أحكم غلق الأبواب، فستجد يد جهاز الجيبيو، حين تتلقى الأوامر، شرخاً في الأرض تصل إليه منه. كان قلبه يحدثه، بل كان يدرك بأنّ الأمر قد صدر: فكلما اقترب موعد نشوب الحرب اقتربت ساعة موته.

حاولت نتاليا والحراس الشخصيون أن يشددوا إجراءات المراقبة والحراسة على كلّ من يزورهم، لكنّه رفض أن يتجاوز حدود الارتياب ليسقط في الهوس المجنون. أمّا الميزة الكبرى للسكن في بيت خاص به فهو قدرته على الاتصال بحرية مع الأشخاص الذين يهمه الاتصال بهم. لقد بدأ، منذ أن انتقل إلى ذلك البيت، باستقبال العديد من السياسيين والفلاسفة والأساتذة الجامعيين والمتعاطفين معه من مكسيكيين وغير

مكسيكيين، واستقبل جمهوريين إسباناً قادمين حديثاً، كان الكثيرون منهم سيشعرون بعدم الارتياح قرب ريبيرا، أو كانوا، ربّما، سيفضلون عدم زيارته في البيت الأزرق. كانت تلك اللقاءات وأولئك الأصدقاء صلته بالعالم، وكانت آراؤهم تنفعه للاطلاع أو لتأكيد آرائه أو للتخفيف من حدّتها.

صار هو ونتاليا يخرجان، من حين لآخر، بالسيارة التي اشترياها. كان قرار الخروج عشوائيّاً، فجائيّاً تقريباً، حتى الحراس الشخصيون ما كانوا يعرفون متى يخرجان، بل كان هاينورت يبلغهم بخروجهما قبل وقت قصير من ذلك. ولما كان الوضع في المكسيك يسير حثيثاً نحو الانفجار (منذ أن دخلت البلاد في الحملة الانتخابية صاروا يستخدمون وجود المنفي ضمن برامجهم ووعودهم السياسية)، ما كانا يزوران المدينة إلّا قليلاً، وكان هو، حين يزورانها، يختبئ في المقعد الخلفي. لكنّ ليف دافيدوفيتش كان يجد متعته الحقيقية في الخروج إلى الحقول: كان يسير مسافات طويلة فيشكر له جسمه، الذي ضاق بساعات العمل المكتبي الطويلة، ذلك. وانكبّ على ما صارت إحدى هواياته المفضلة: جمع شجيرات الصبّار الغريبة وغرسها في باحة بيته. كانت التنوعية الرائعة التي توفرها أرض المكسيك من تلك النبتة تجعل البحث عنها ضرباً من المغامرة، إذ تقودهما أحياناً إلى أراضٍ وعرة وتكلّفهما ساعات كثيرة من الجهد، بين الحفر بالمعول بحثاً عن جذور الشجيرة، ورفعها بالمجرفة، ثمّ نقلها إلى السيارة. كانت نتاليا تسمّي تلك الأيام «أيام الأعمال الشاقة»، لكنّ العودة إلى البيت بتلك النماذج، وإعادة زراعتها بعناية وحرص، كانت بمثابة جائزة كبيرة على المجهود. في عصر يوم من الأيام، وبينما كان ليف دافيدوفيتش يغرس واحدة من تلك الصبّارات الفريدة، تذكّر الأمر الذي بلغهم وهم في بيت بيوك آضه والقاضي بالامتناع عن زرع أيّ شيء، ولو كان شجرة ورد. فهل كانت تلك الصبّارات صورة هزيمته؟

***

حين توفرت في البيت أدنى الشروط المواتية للعمل، قرر ليف دافيدوفيتش أن يعطي الدفعة الأخيرة من عمله في سيرة ستالين. كانت نتاليا، المتطرفة في مواقفها، تؤكّد له أنّه، حين يركّز على تحليل الجيورجي، إنّما يحط من قدره هو، وأنّ الكثيرين سيشككون في آرائه وأحكامه بسبب المواجهة القائمة بين الاثنين منذ سنوات طويلة. حثّه الناشرون أيضاً على أن يكتب سيرة للينين، وعرضوا عليه مقدمات مالية ممتازة. لكنّ ليف دافيدوفيتش كان يريد أن يكشف للعالم الوجه الحقيقي للقيصر الأحمر. هو يدرك أنّ الأهواء تعمي بصيرته، لكنّه لن يبلغ حدّ تشويه الحقيقة: فقد كانت فظائع عبادة ستالين وجرائمه تثير اشمئزازه وتقززه، ولا بدّ للكتاب من أن يتشبّع بذلك الشعور. فإن بدأت صورة مشؤومة تظهر من بين سطور كتابه، صورة زاحف من الزواحف في طريقه إلى السلطة، فتلك هي صورة ستالين، لأنّ ستالين هو هكذا دائماً. لقد منحته سنوات نضاله السري الطويلة القدرة على السعي في الظلام والاستيلاء على السلطة في يوم من الأيام (ساعده تهاون لينين، وخوف زينوفييف وكامينيف وبوخارين الجيني، وساعده أيضاً كبرياؤه الملعون، قال: أم إنّ الدكتاتورية ضرورة تاريخية حتمية، وخيار النظام الوحيد؟). لكنّ أكثر ما كان يدفعه إلى وضع ذلك الكتاب اللاذع هو اقتناعه بأنّ ما حدث لنيرون سيحدث لتماثيل ستالين بعد موته: ستحطّم وسيزال اسمه من كلّ مكان: لأنّ انتقام التاريخ أقوى من انتقام أقوى أباطرة التاريخ. كان ليف دافيدوفيتش متأكداً من أنّ لويس الرابع عشر حين قال: «الدولة أنا» كان يعلن عن صيغة ليبرالية تقريباً بالمقارنة مع واقع نظام ستالين. فالنظام الشمولي الذي فرضه هذا تجاوز بكثير حدود القيصرية البابوية، فحقيق بالسكرتير العام إذن أن يقول وبكل عدالة: «المجتمع أنا». لكنّ على العالم أن يتذكر أنّ ستالين والمجتمع الذي بناه على مقاسه كانا كائنين مريضين جدّاً. لم يكن إرهاب تلك السنوات أداة سياسية فحسب، بل كان أيضاً متعة شخصيّة، حفلة للشعور المنحرف لحفار قبر الثورة ولحثالة المجتمع الروسي. ليس لأحد أن يستغرب أن

يبلغ ذلك الإرهاب عائلة ستالين وأقرب المقربين إليه (لماذا انتحرت ناديا أليليوفا؟ [54]: ليعطني أحدكم جواباً يقنعني بأنّ ستالين لم يكن موجوداً على الطرف الآخر من الرصاصة، فكّر). أمّا الأدهى من ذلك فقد كان اليقين من أنّ الإرهاب وصل إلى لينين، الذي يرى لييف دافيدوفيتش أنّ ستالين دسّ له السم: كان ستالين يعلم أنّ فلاديمير إليتش سيحرّك قطعته الأولى لإزاحته من الأمانة العامة بمجرد أن يسمح له بدنه وعقله المسحوقين بذلك[143].

مع تقدم صيف عام 1939 تعززت قناعة لييف دافيدوفيتش بأنّ الحرب في أوروبا باتت قاب قوسين. سخنت أيضاً الأجواء في حلقته المقربة، فوافق على اقتراح معاونيه وأصدقائه في اتخاذ أقصى درجات الاحتياط أثناء تحركاته: فنشاط أتباع ستالين المحليين في ازدياد، ولا شكّ في أنّ تلك الأجواء كانت تهيّئ لأحداث كبرى. في السنة الأخيرة، تحولت المظاهرات المطالبة بطرده من المكسيك إلى حملة صارت تطالب برأسه. بل لقد ظهر في الاجتماعات الخطابية الأخيرة، التي شهدتها «آرينا مكسيكو»، خطباء غير مكسيكيين، وصار لكرة النار حجم مخيف. كان يعلم أنّ الحرب إن قامت فإنّ ستالين سيفعل كلّ شيء من أجل تصفيته، لأنّه، حتى وهو في منفاه البعيد، يمثل الراية القادرة على تحديه، لذلك فلن يسمح بأن يعود لييف دافيدوفيتش إلى الأراضي السوفييتية لينظم معارضة تقف في وجه نظامه.

لذلك فرضت نتاليا رأيها على الآخرين وواصلت تحصين البيت، وقررت تقليص زيارات الصحفيين والأساتذة والمتعاطفين الذين طالما طلبوا لقاءه. زاد عدد الرجال الذين يحمونه، لكنّ المشكلة التي واجهتهم في هذا الخصوص تمثلت في أنّ أولئك الشباب كانوا يأتون إلى المكسيك لعدة أشهر، وحين يكونون جاهزين لمهمتهم، مدربين

143- تقلّد ستالين الأمانة العامة للحزب عام 1922 أي في حياة لينين، الذي توفي في كانون الثاني من عام 1924.

عليها، يضطرون إلى العودة إلى أوطانهم. وكانت نتيجة ذلك الجنون أنّه عاد إلى حياة السجين، وتضاعف ألم ذلك الحجز، وخصوصاً في الصيف، المواتي للتنزه والصيد. وقرر، في محاولة للترفيه عن نفسه من ساعات عمله الطويلة، أن يربي صغار الأرانب والدجاج، وبدأ بطلب الكتب الخاصة بالموضوع: فإن بدأ المحاولة فسيبدؤها على نحو علمي.

لكنّ أكثر ما كان يقلق نتاليا سيدوفا هي صحة زوجها، التي اعتلَّت في السنوات الأخيرة، فقد كان الارتفاع الشديد عن سطح البحر يسبب له حالة دائمة من ارتفاع ضغط الدم. وظلّت عملية الهضم عنده مضطربة، فكان يتناول وجبات خفيفة في ساعات محددة لتجنب ما هو أسوأ. والخلاصة فإنّ حياة المنبوذ الهائم المشرد التي عاشها لسنوات بدأت تطالبه بتسديد الفاتورة وصار على ليف دافيدوفيتش، وهو على حافة السبعين، أن يقتنع بأنّه شاخ وصار عجوزاً، حتى صار الكثيرون يدعونه هكذا، تروتسكي العجوز، أو «العجوز» فحسب...

***

حين كتب ليف دافيدوفيتش متنبئاً باقتراب وقوع الحرب، لم يستطع أن يتجاهل التحذير من أنّ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، في وضعه ذاك، قد يقع لقمة سائغة للطيران وللدروع الألمانية. لقد أضعف ستالين (الذي يتهمه بالانتهازية والخيانة وهو يكتب تلك التحليلات) القوة العسكرية السوفييتيّة إلى درجة أنّ خلاص البلاد بات يتطلّب معجزة، وهو ما يعرفه الجميع. أمّا ماهية المعجزة فلا أحدَ يستطيع أن يتحدث عنها خيراً من ليف دافيدوفيتش: إنّها الجندي السوفييتي، الذي لا نظير لقدرته على التضحية في العالم. لكنّ الثمن سيكون حياة الكثيرين ممّن كان في الإمكان إنقاذهم. وما الذي يلزم ستالين لمقاومة الهجوم الألماني؟ قبل كلّ شيء، الوقت، -كتب-. وقت لتقوية الحدود وإعادة بناء جيش فقد قيادته. يلزمه أيضاً أن تصمد أوروبا في وجه الهجوم الفاشي وتقاومه، على الأقل للوقت الذي يحتاجه ستالين.

لذلك، حين أذيع خبر الاتفاق، في الثالث والعشرين من شهر آب من عام 1939، لم يتفاجأ ليف دافيدوفيتش، وإن شعر باشمئزاز عميق. لقد تصدر الخبر نشرات الإذاعات وعناوين صحف العالم، يسارية ويمينية، شيوعية وفاشية، كبيرة وصغيرة: الاتحاد السوفييتي وألمانيا النازية يوقعان معاهدة عدم اعتداء، اتفاق تفاهم...

كانت ردة الفعل على توصل وزيرا الخارجية، فون ريبنتروب ومولوتوف، إلى اتفاق، لم يعلن بالطبع إلَّا عن جانب منه، أنّ عدداً من الناس، فاق توقعات ليف دافيدوفيتش، أصيب بالذهول. لأنّ توقيع اتفاق يطلق يد هتلر في الغرب كان ممّا لا تستوعبه عقول أصحاب النوايا الحسنة، بل حتّى السيئة، الذين واصلوا الدفاع عن ستالين ووصفه بربّان الطبقة العاملة العظيم، على الرغم من الإرهاب والمحاكمات الإجرامية. لذلك غامر المنفي وتنبأ بأنّ ذلك التاريخ سيبقى في الذاكرة لقرون على أنّه واحدة من أكبر الخيانات التي ارتكبت بحق ثقة الإنسان ونقاء سريرته.

كان ليف دافيدوفيتش يعلم أنّ ستالين سرعان ما سيردّ قائلاً بأنّ الدفاع عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية أولوية مطلقة، وبأنّ الغرب هو من أفسح الطريق للتوسع الألماني مع معاهدة ميونيخ وبأن للبلد الحق في تفادي الحرب مع ألمانيا. وسيكون معه الحق في جانب. لكنّ وجه الإهانة الملطّخ لا يمكن محوه، كتب؛ فإن تبيّن للعالم أنّ معاداة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية للفاشيّة لم تكن على القدر الذي نعرفه، فستشيع خيبة الأمل بين الجماهير، وربّما سيضيع، وإلى الأبد، نقاء الملايين من المؤمنين، الذي صمد أمام جميع الامتحانات. لكنّ العمال والحزبيين المنهارين معنوياً قد يجدون قريباً الفرصة لتحويل الشعور بالعار إلى دافع لبلوغ الثورة المؤجلة. أيام من الألم تقترب، ربّما أوقات من المجد، لجيل جديد من البلاشفة، مسلحين بالتجربة المُرة التي عاشوها، داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه. -أنهى كلامه-.

قبل أقلّ من عشرة أيام، حين غزا الفيرماخت[144] بولونيا، لاحظ لييف دافيدوفيتش أنّ الألمان توغلوا في الأراضي البولونية بحذر شديد، فكأنّ دباباتهم تتقدم بعجلات مكبوحة. لكنّه فهم أبعاد المعاهدة بين الطرفين حين دخلت القوات السوفييتية في بولونيا، بعد ذلك بأسبوعين. لقد اتفق الدكتاتوران، كما كان يتوقع، على بسط نفوذهما على بولونيا، الضحيّة مرّة أخرى. أمّا الغريب في الأمر فهو أن توافق القوى الأوروبية التي أعلنت الحرب على النازية، من دون احتجاجات كثيرة، على أن يفعل ستالين ما فعل هتلر. يا للنفاق السياسي الذي يمكنه أن يجعل أعمق الآبار تطفح! فكّر.

كان لييف دافيدوفيتش، في تلك الأوقات، رجلاً مقسّمَ الروح مثقلها. قال لنفسه في يوم من الأيام: لن يلبثوا أن يعترفوا بأنّ أخطاء الثوريين عرقلت التحولات الكبرى في المجتمع الإنساني أكثر ممّا عرقلها الإمبرياليون. لكنّه، حتّى مع تلك القناعة، وبعد كلّ الافتراءات والانحطاط السياسي والجرائم من كلّ نوع، واصل اعتقاده بأنّ الدفاع عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وحمايته من الإمبريالية هو الواجب الأعظم بالنسبة إلى عمّال العالم. لأنّ ستالين ليس هو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، ولا هو ممثل الحلم السوفييتي الحقيقي.

شعر بالعار إذ علم أنّ ستالين، بعد أن غزا بولونيا، فرض النظام السوفييتي بالضراوة نفسها التي صدّر بها هتلر أيديولوجيته الفاشيّة. فما أفظع ذلك من منظور المثل العليا الاشتراكية! سيؤدي ذلك التصدير الممجوج للنموذج السوفييتي إلى بولونيا وإلى أوكرانيا الغربية إلى تثبيط همّة العمال الأوروبيين، الذين سيلمسون انتهازية ستالين. أمّا سكان تلك المناطق المحتلة، الضحية التاريخية للإمبراطورية الروسية والجرمانية،

144- Wehrmacht أو قوة الدفاع وهو الاسم الذي أطلق على الجيش الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية (1939-1945).

فلا شكّ أنّهم تساءلوا عن الفرق بين غازٍ وآخر، ولن يستغرب ليف دافيدوفيتش أن الكثير من تلك الشعوب سرعان ما سترى في النازيين محررين لهم من النير الستاليني.

مع ذلك فقد كان ليف دافيدوفيتش يشعر بوطأة التناقض الذي يعنيه غياب الحد الفاصل بين معارضة الستالينية والتخلي عن الدفاع عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. كان يعذبه ألَّا يستطيع أن يدرك تماماً إن كانت البيروقراطية طبقة جديدة، حاضنتها الثورة، أم إنّها فقط الزائدة التي تصور وجودها دائماً. كان في حاجة إلى أن يقنع نفسه بأنّ الإمكانية ما زالت قائمة لوضع مسافة نوعية بين الفاشية والستالينية للبرهنة لجميع الرجال الصادقين، الذين حطمتهم ضربات البيروقراطية الترميدوريّة، الموجهة تحت الحزام، أنّ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية يحتفظ بجوهر الثورة، وأنّ «ذلك» الجوهر هو ما يجب الدفاع عنه وصيانته. ولكن، إذا كانت الطبقة العمالية، كما يقول آخرون، قهرتهم الأدلة، قد أظهرت، بالتجربة الروسية، عجزها عن التحكم بنفسها، فيجب أن نعترف إذن بأن الفكرة الماركسية عن المجتمع وعن الاشتراكية كانت خاطئة. لقد وضعه ذلك الاحتمال في مواجهة لبّ المسألة المرعب: هل كانت الماركسية مجرد «أيديولوجية» من الأيديولوجيات، صيغة بوعي مزيف، حملت الطبقات المسحوقة وأحزابها على الاعتقاد بأنّهم يناضلون من أجل أهدافهم بينما كانوا في الواقع يخدمون مصالح طبقة حاكمة جديدة؟... إنّ مجرد التفكير بهذا يسبب له ألماً شديداً: إنّ انتصار ستالين ونظامه سيمثّل انتصاراً للواقع على الحلم الفلسفي، وسيكون فصلاً من فصول الركود التاريخي المحتوم. الكثيرون... هو نفسه، سيجدون أنفسهم مضطرين إلى الاعتراف بأنّ الستالينية لا تجد جذورها في تخلّف روسيا ولا في الأجواء الإمبريالية العدوانية، كما قيل، بل في عجز البروليتاريا عن التحول إلى طبقة حاكمة. يجب الإقرار أيضاً بأنّ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية لم يكن أكثر من مبشّر بمنظومة

جديدة من الاستغلال وبأنّ تركيبته السياسية لا بُدّ وأن تنتج دكتاتورية جديدة، مزينة، ربّما، بألفاظ بلاغية أخرى...

لكنّ المنفي كان يعلم أنّ في غير مقدوره أن يغيّر طريقته في رؤية العالم وفي فهم نضاله. لذلك فهو لن يكفّ عن حثّ الرجال الشرفاء على البقاء إلى جانب المستغَلين، حتّى وإن بدا وكأنّ التاريخ والضرورات العلمية تقف في وجههم. ليسقط العلم! ليسقط التاريخ! يجب إعادة تأسيسهما إن كان لا بدَّ من ذلك، كتب: على أيّة حال، سأظلّ إلى جانب إسبارتاكوس، لن أكون إطلاقاً في صف قيصر، وسأظلّ على ثقتي، وإن ناقضت العلم، في قدرة الجماهير العاملة على التخلص من نير الرأسمالية. فمن شاهد تلك الجماهير وهي تتحرك يعلم أنّ ذلك ممكن. لا يمكن أن تعزى أخطاء لينين، أخطاؤه هو، أخطاء الحزب البلشفي التي سمحت بتشويه الطوباوية، إلى العمال، إطلاقاً، إطلاقاً. واصل التفكير.

***

على الرغم من تعاظم الهموم، أحسّ ليف دافيدوفيتش بأنّ الحياة الصعبة ما زالت قادرة على أن تكافئه بفرحة: لقد وصل سيفا أخيراً إلى المكسيك. لو لم يكن الجدان قد شاهدا الصبيّ في بعض صوره الحديثة لما تعرّفوا عليه. فبين الطفل الذي تركاه في فرنسا والشاب الصغير ذي الثلاث عشرة سنة، المرتبك المشوّش الخجول، الذي وصل إلى كويواكان، جرت أحداث قصّة مروّعة ومؤثرة تمزّق القلب، تجعلهما يخشيان حتّى على توازنه النفسي. لكنّه ونتاليا كانا مقتنعين أنّ في مقدور الحب أن يشفي أعمق الجراح، والحب هو ما كان يفيض منهما كليهما، فما كانا يشبعان من عناق الطفل وتقبيله، ولا من التطلع بإعجاب إلى شبابه في زهرته، على الرغم من أنّهما كانا يعرفان أنّ حياة الفتى لن تكون سهلة في بلد يتكلم بلغة لا يفهمها، وحيث يعدم الأصدقاء، وحيث، وهذا هو الأدهى، يقيم في حصن حصين.

بعد أن أخرج ألفريد ومارغاريتا روسمر الصبي من المدرسة الدينية

الداخلية التي أرسلته إليها «جين» في الجنوب الفرنسي، سافرا به إلى المكسيك خشية تعرضه لاعتداءات أخرى ممكنة. كان ذانك الصديقان، وهما الوحيدان الباقيان من أصدقاء الأيام الصعبة التي سبقت الثورة، من النّعم التي عرفتها حياة ليف دافيدوفيتش، الذي ما زال يسأل نفسه كيف استطاع، ذات مرّة، أن يكون على ذلك القدر من البلادة حين سمح للانتهازي مولينيه بأن يدق إسفيناً بين صراحة آل روسمر ويأسه السياسي.

أخذت نتاليا وآل روسمر سييفا إلى جولة في المدينة، وأصرّ الجدّ على أن يكون هو دليله في الرحلة إلى «تيوتيهواكان» التي لا بدّ منها. طلب ألّا يذهب معهما غير الحراس الشخصيين، فقد كان يريد أن يكون الصغير له طوال الوقت. ومع أنّه لم يستطع، في تلك المرة، من الصعود حتّى قمة هرم الشمس، فقد قام، بفضل الحفيد، برحلة عميقة إلى الماضي. تحدث له عن أبيه، أفلاطون فولكوف، الذي لا يعرف الصبي عنه ذكريات دقيقة، فقد نفي حين كان سييفا ابن ثلاث؛ حكى له عن أمّه، زينا، ضحية انتقام مروّع؛ عن خاله ليوفا، الذي رآه الصبي في منامه مرات كثيرة، كما قال؛ حدثه عن أيام بيوك آضه واسطنبول، التي ما كان يتذكرها إلّا ضبابية، وما كان ذهنه يحتفظ منها إلّا بومضات بارزة: الحرائق، رحلات الصيد، وخصوصاً، مايا، التي يحتفظ لها بصورة يظهر فيها سييفا وعمره خمس سنوات، والجد بشعره ولحيته ما تزالان غامقتين، و«البورزوي» الجميلة، التي تبدو وكأنها تنظر إلى الكاميرا لتخلّد طيبة عينيها. لقد تمنّى سييفا، طوال السنوات التي أمضاها في برلين وباريس، أن يكون له كلب آخر، لكنّ حياة التنقل التي عاشها لم تسمح له حتى بهذه المتعة. وعده ليف دافيدوفيتش بأنّه سيحصل له على واحد: كان الجد يعلم أنّ ذلك الكلب سيساعده، أكثر من أيّ شيء آخر، على الشعور بأن شيئاً ما ينتمي إليه وبأنّه ينتمي إلى مكان ما. يا للطفل المسكين! كم من الكراهية استعذبت أجمل ما في حياته! ربما قال في تلك الليلة لنتاليا سيدوفا.

في تلك الأثناء غزا الجيش الأحمر فنلندا وصار المجتمع الدولي يقارن ستالين بهتلر... في المقال الذي كتبه ليف دافيدوفيتش إثر ذلك، وزن أحكامه بعناية ليقينه من أنّها ستحدث بلبلة وخلافات بين أتباعه، الذين قد يصموه بالستالينيّة لأنّه يدافع عن فكرة لا تقبل الأخذ والردّ، حتّى بعد ذلك الغزو: فما زال الدفاع عن وحدة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، -كتب-، هو الأولوية بالنسبة إلى البروليتارية العالمية.

طلب سييفا، عقب أسبوعين من وصوله، من هارولد روبنس، الرئيس الجديد للحرس الشخصي، أن يرافقه في جولة قريبة في الجوار. وعلى الرغم من أنّ نتاليا ومارغريت لم تكونا موافقتين تماماً، فقد كان ألفريد وليف دافيدوفيتش يريان أن من الواجب أن يمنح الطفلُ قليلاً من الحرية: لقد أثبت سييفا أنّه طفل قوي وأنّ المصائب التي مرّ بها لم تفتّ في عضده. بعد ساعة من انطلاقهما عاد سييفا وروبنس... ومعهما كلب. كان الطفل، في إحدى جولاته في السيارة، قد شاهد كلبة مع مجموعة من الجراء، مقابل أحد الأكواخ. فرح أصحاب الكلبة، بالطبع، إذ أخذ أحدهم واحداً من الجراء. وما إن وصل الطفل بالجرو إلى البيت، حتّى اختار اسما له: كان آثيكا كلباً من سلالة هجينة ورثت الذكاء، جيلاً بعد جيل، من جرّاء صراعها الطويل من أجل البقاء.

عكّرت القطيعة التي حدثت بين ليف دافيدوفيتش وصديقه القديم ماكس شاختمان فرحة الجدّ بلقاء الحفيد. فشاختمان هو معاونه الذي أبدى له من الحب وعلامات الولاء الكثير، منذ أول زيارة له إلى بيوك آضه عام 1929. أمّا الارتداد فقد كان نتيجة للحمى الانفصالية التي عصفت بالتروتسكيين الأمريكان، وهي نفسها التي أثرت على الفرنسيين قبل عشر سنوات وحالت دون نشوء معارضة موحدة تتزامن مع بداية صعود الفاشيّة. أمّا الآن فقد أجّجت نارُ الحرب والمواقف الأكثر راديكالية من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية روح الزعامة

من جديد، فبدأت تظهر أحزاب أخرى، على هذا الجانب أو ذاك من أحزاب أخرى، في استراتيجيات معينة يعتبرونها هم «مبدئية». لقد أصبح ماكس شاختمان وجيمس بورنهام زعيمي حزبهما، وهو فرع من الحزب الاشتراكي العمالي، الذي أصبح، بعد عملية البتر تلك، حفنة قليلة من الأتباع المخلصين.

طلب ليف دافيدوفيتش من شاختمان أن يلتقيه في المكسيك لمناقشة موقفه، لكن المنشق لم يحضر. كان المنفي يعرف السبب: فشاختمان لا يستطيع أن يتحمّل «نفخة تروتسكي في القفا». وأقرّ المنفي: صحيح أنّ شاختمان لطالما ضايقه بقدر من سطحيته، لكنّه يقرّ بأنّه أحبّه، وأنّ عليه، على الأقل، أن يشكر له الصراحة والوضوح اللذين أعلن بهما عن قطيعته، البعيدتين جدّاً عن الأسلوب الغامض الخفيّ الذي اتبعه مولينيه أو آل باث قبله.

***

انتهى العام 1939 ولم تنتهِ الحرب. أتمّ ليف دافيدوفيتش عامه السبعين. كانت نهاية تلك السنة، على الرغم من كلّ شيء، الأهدأ والأمتع منذ خروجه إلى منفاه: فسيفا إلى جواره، وآتيكا يتبعه مسرعاً حين يتوجه لإطعام الأرانب والدجاج. صديقاه العزيزان ألفريد ومارغاريتا ما زالا معهما، وهما، مع أصدقاء آخرين وحرسه الشخصي والمعاونون، يعينونهم على إمضاء ساعات الليل بالأحاديث الذكيّة، أو حتّى المسترخية، التي تمسّ إليها حاجة الروح. ومع أنّ البيت صار يتحوّل، شيئاً فشيئاً، إلى قلعة حصينة، ومع أنّ مناسبات خروجه باتت متفرقة، فقد كان يتمتع بحرية الكتابة وإبداء الرأي، وهو ما كان يفعله بلا توقف، على الرغم من رقابة بعض الناشرين، من مثل أصحاب مجلة «لايف»، الذين خشوا وقوع المشاكل التي قد تنشأ عن نشر فقرة من كتابه عن ستالين، وهي الفقرة التي يشير فيها إلى احتمال أن يكون لينين قد مات مسموماً. وكانت الأجواء الاحتفالية التي تعيشها المكسيك، على

الرغم من الحرب، تصل حتّى أسوار كويواكان. لم يكن لتلك الأجواء أن تطفئ جمرات الحزن المتقدة في نفوس آل تروتسكي، لكنّها كانت تنبههم إلى أنّ الحياة مدعوّة دائماً، حتّى في أصعب الظروف وأحلكها، إلى أن تستعيد عافيتها وأن تكون مقبولة...

من بين الزيارات التي تلقاها ليف دافيدوفيتش في ذلك الوقت زيارة سيلفيا آجيلوف، شقيقة النشيطتين روث وهيلدا، اللتين عملتا معه أحياناً مترجمتين أو سكرتيرتين للعلاقات مع تروتسكيي الولايات المتحدة الأمريكية. وكشأن أختيها، فقد أثبتت سيلفيا أنّها نصيرة قوية، وقد قدمت له خدمة كبيرة، على وجه الخصوص، حين وصلت إلى المكسيك وساعدته طيلة أيام مرض فاني يانوفيتش. كانت الفتاة تتكلم، فضلاً عن الإنكليزيّة، الفرنسية والإسبانية والروسية بإتقان. وكانت كاتبة سريعة على الآلة الطابعة... لكنّها كانت واحدة من أقلّ النساء جمالاً من بين مَن عرف ليف دافيدوفيتش: كانت أطول بقليل من متر ونصف، ونحيفة إلى درجة النحول (ذراعاها تبدوان كالخيوط وكان هو يتصوّر أن فخذيها بسمك قبضتها)، يملأ وجهها نمش أحمر. وكانت فوق ذلك كلّه، ترتدي نظارات سميكة، ومع أن صوتها كان له دفء مغرٍ، فقد كانت، بلا شك، الكائن الأنثوي الأقل ذوقاً في اللبس ممّن عرف. كانت عيوبها الجسمانية من الوضوح أنّ نتاليا وزوجها تكلما غيرَ مرةٍ عنها، وكانت أيضاً موضوعاً للحديث بين الحراس الشخصيين، حين بلغ ليف دافيدوفيتش الصدمة التي أصابتهم وهم يسمعون بأنّ سيلفيا صار عندها خطيب... وأيّ خطيب! قالوا له. خطيب يبدو في حالة مادية جيدة، ابن عائلة من الدبلوماسيين، وربّما -أضافت نتاليا-، جميل جدّاً ويصغرها بخمس سنوات: وفي ذلك الدليل على أنّ ما من شيء مكتوب في الحب، وإنّ أيّة تنورة يمكن أن يختبئ تحتها وحش. وكانت الضجة التي ثارت حول الموضوع من الحجم أنّ ليف دافيدوفيتش أحسّ بالفضول لرؤية الطريدة التي وقعت في شراك الشابة.

في الثاني عشر من آذار وقّع الاتحاد السوفييتي مع فنلندا معاهدة سلام باهظة الثمن لم يحصل بموجبها إلّا على أشرطة من الأرض التي كان يطمع في الحصول عليها. لقد تحوّل إخفاق الجيش الأحمر في مشروعه لاحتلال البلد الصغير إلى دليل على ضعف ذلك الجيش. لكنّ ليف دافيدوفيتش رأى في ذلك الفصل ما هو أكثر من مجرد دليل تحذيريّ، فبينما أخفق ستالين في فنلندا اندفع هتلر ووحداته في الدنمارك ليحتلها في أقلّ من أربع وعشرين ساعة.

وحين احتل النازيون النرويج عقب ذلك، وهزموا النرويجيين في بضعة أيام، رأى ليف دافيدوفيتش أنّ النبوءة التي تحدّث بها للوزير تريغفه قبل ثلاثة أعوام توشك أن تتحقق: سيصبح ظالموه لاجئين سياسيين وسيعانون من ذل الطارئين ومهانتهم وستفرض عليهم الشروط. بكل تأكيد لن يكون مضيفوهم قساة معهم كما كانوا هم معه، لكنّ الملك النرويجي ووزراؤه ربما سيتذكرونه ويتذكرون الطريقة التي عاملوه بها.

في الأشهر الأولى تلك من عام 1940، رفعت حرب أنصار ستالين المكسيكيين على المنفيّ من وتيرتها. فبعد أن طرد لابوردي وكامبا، أطيح بقادة آخرين، وبالجرم نفسه: فهم غير مناهضين للتروتسكية بما يكفي. كانت حاسة شمّه تدلّه على أنّ شيئاً ما يطبخ، شيئاً رديئاً. في غمرة حملة التطهير جرى الاحتفال بيوم العمّال، وأقيم استعراض شبيه بذلك الذي نظمه الفاشيون في برلين وروما: عشرون ألفاً من الشيوعيين، الثائرين المهتاجين، المحتشدين بدعوة من الحزب الشيوعي ونقابة العمال المركزية، راحوا يرددون هتافات تطالب بطرد تروتسكي! تروتسكي الفاشي! تروتسكي الخائن! بدلاً من الهتاف ضد الحرب. وربّما منعهم حياءٌ بعيد من أن يكتبوا ما رددوه بحماس أكبر: الموت لتروتسكي!... وضعت تلك العدوانية سكان البيت الحصين وحراسه في حالة إنذار، فالناس لا تكتب وتصرخ هكذا إلّا حين تكون مستعدة

لإشهار السلاح. اتخذ الحراس إجراءات أخرى (وضعوا رشاشات في فتحات الأبراج)، واستدعوا متطوعين آخرين من الولايات المتحدة، ورفعوا عدد أفراد الشرطة خارج البيت إلى عشرة. فهل تنفع في شيء كلّ تلك الإجراءات؟ هل ستستطيع إيقاف اليد الخفيّة التي ستتسلل من فتحة يصعب كشفها بالنظرة البسيطة؟ تساءل ليف دافيدوفيتش، وهو يراقب ذلك الحشد المسلح الذي يحفّ به ويضايقه، وهو يعلم مقدماً بالإجابة: إنّه رجل صدر الحكم عليه، وسينفذون فيه الحكم متى يشاؤون.

مرض ألفريد روسمر، في أحد الأيام. في ذاك اليوم رأى ليف دافيدوفيتش خطيب سيلفيا، لأنّ هذا هو من أخذ ألفريد إلى العيادة وأصرّ على دفع مصاريف العلاج. ذكرت مارغريت إنّ سيلفيا لم تكن تريد أن تقدم خطيبها له لأنّ لديه مشكلة تتصل بأوراقه، ولأنّ إقامته في المكسيك لم تكن قانونيّة: أمّا نتاليا، وهي الحديّة دائماً، فقد عزت خوف الفتاة إلى أنّ الخطيب كان متورطاً في أعمال تجارية مشبوهة يجني منها المال الذي ينفقه ببذخ. ليت سيلفيا المسكينة لا تفقده، قال المنفي لزوجه.

كان يوم الثالث والعشرين من شهر أيار يوماً روتينيّاً في البيت. عمل ليف دافيدوفيتش كثيراً، وكان يشعر بالإرهاق، حين خرج مساءً ليطعم أرانبه، يساعده سيفا وتتبعهما آتيكا. تحدث قليلاً مع هارولد روبنس وطلب منه ألّا يدعو في تلك الليلة إلى الجلسة التعليمية المعتادة التي يعقدها مع شباب الحراسة، فهو مرهق ونومه مضطرب منذ عدة ليال. بعد العشاء تكلم برهة مع زوجه ومع آل روسمر، وعاد إلى مكتبه لينظم الأوراق التي سيعمل بها صباح اليوم التالي. تناول الحبة المنومة قبل الوقت المعتاد لينعم بالنوم الذي يحتاجه كثيراً واندسّ في فراشه.

على الرغم من أنّه، ومنذ اثني عشر عاماً، يعيش منتظراً مترقباً، فقد كان في بعض الأحيان قادراً على نسيان أنّ الموت قد يدقّ على بابه بين يوم وآخر، وربّما في أهدأ لحظة من هزيع الليل. لقد تعلّم، على الطريقة

السوفييتيّة المثاليّة، أن يعيش مع ذلك الترقب، وأن يلمس قرب حدوثه كما القميص الملتصق بالجسم. لكنّه، مع ذلك، قرر أنّ عليه أن يسير، في تلك الأثناء، قُدُماً. إنّه لا يخشى الموت، بل لقد تمناه في بعض الأحيان، لكنّ إحساساً وبيلاً بالواجب كان يلزمه باتباع كلّ الوسائل لتجنبه. ربّما كانت تلك الآلية من الدفاع عن النفس هي ما جعلته، حين استيقظ على وقع انفجارات، يظنّ أنّها ألعاب نارية تنفجر وصواريخ تطلق في أحد الاحتفالات التي كانت كويواكان تشهدها في تلك الأيام. لكنّه سرعان ما أدرك أنّها عيارات نارية وأنّها صادرة من مكان قريب، حين دفعته نتاليا من السرير ورمت به إلى الأرض. حينئذٍ فكّر: هل حانت ساعة الرحيل، هكذا، بهذه السهولة، بثوب النوم وملتصقاً بالجدار؟ بل لقد وجد ليف دافيدوفيتش وقتاً للتفكير في أنّها ليست الطريقة اللائقة للموت. هل سيظلّ مطروحاً على الأرض بردائه المرفوع وعورته المكشوفة؟ أطبق المُدانُ ساقيه وحضّر نفسه للموت.

-24-

بعد ظهيرة يوم روتيني شاق ورطب من عام 1993 دارت مجدداً الصامولة التي تشدّني إلى قصّة رامون ميركادير. ما إن تركتُ الكيس المعبأ بالموز والتفاح الأرضي والمانجو على الأرض، وركنتُ الدراجة التي حملتني إلى «ملينا دل السور» وعادت بي منها، بعد أن قصدتها طلباً لذلك القوت الضروري للحياة، حتى استقبلتني «آنا» بنبأ غريب: وصلني طرد بريدي. لا أدري كم من السنين مضت من دون أن أتلقّى طرداً ولا رسالة: فكلّ الأصدقاء الذين رحلوا كانوا يبعثون لي برسالة أو اثنتين على الأكثر، ثم ينقطعون عن الكتابة، فكأنّهم يستعجلون الانفصال عن الماضي المؤلم الذي نذكّرهم به. تفحّصتُ الظرف الذي يحمل ختم «المسجّل» وأنا أعبّ لتراً من الماء المحلّى بالسكر. وقرأتُ اسم المرسل مكتوباً في إحدى الزوايا: خيرمان سانجيث، وعنوان مكتب بريد: مارياناو، في الطرف الآخر من المدينة.

لم أُضع الوقت في صنع القهوة، بل بادرتُ، والسيجارة في فمي، إلى فتح الظرف، واكتشفتُ في الحال أنّ المرسل مزيّف. كان الطرد عبارة عن كتاب منشور في إسبانيا، كتبه شخص اسمه خيرمان سانجيث وآخر اسمه لويس ميركادير: إنّه كتاب يروي فيه لويس، بحسب ما يذكر العنوان، بمساعدة الصّحفي خيرمان سانجيث، حياة شقيقه رامون. تصفّحتُ الكتاب على عجل، وحين اكتشفتُ أنّه يحتوي صوراً، توقفتُ

عند تلك الصور إلى أن عثرتُ على صورة حرّكت مشاعري. ذلك الرجل ذو الرأس الكبير، المربع تقريباً، والملامح الهرمة التي بدت من خلف نظارات الكاري المرقشة، ذلك الرجل، الذي كانت عيناه تنظران إليّ من كتاب خيرمان سانجيث ولويس ميركادير، رجل قاتل، من دون شك. إنّه الرجل الذي كان يحبّ الكلاب.

أظنّ أنّ أكبر شكّ راودني في أنّ خايمي لوبيث لم يكن خايمي لوبيث كان لحظة قال لي إنّ صرخة تروتسكي لم تفارق سمع رامون: كانت نبرة صوته وعيناه، اللتان علاهما الندى، تشي بأنه كان يتكلّم عن شيء حميم ومؤلم. عقب بضع سنوات، قربتني الرسالة التي حملتها لي الممرضة، والقناعة بأنّ الحنين إلى عالم ضائع قد رافق رامون على الدوام، من قناعتي في أنّ ذلك الرجل لا يمكن إلّا أن يكون رامون ميركادير، مهما بدا رائعاً، في شاطئ البحر بكوبا، حضور تلك الشخصيّة التي بدت، وقتها، غير معقولة، فالمنطق كان ينبئني بأنّ التاريخ قد أتى عليه قبل ذلك الوقت بسنوات كثيرة. هل يمكن أن يكون تروتسكي وحياته وموته إشارات قديمة مأخوذة من الكتب فحسب؟ كيف يمكن لأحد أن يهرب من التاريخ ليتمشّى مع كلبين وفي فمه سيجارة على شاطئ من شواطئ الواقع الذي أحياه؟ بتلك الأسئلة وتلك الظنون حاولتُ أن أبقيَ على هامش من الشك، ربّما بقصد حماية نفسي. فلن يكون لطيفاً أن تعلم بأنّك كنتَ على علاقة وثيقة وقريبة من قاتل، شددتَ على يده التي بها قتل، وشاركته القهوة والسجائر، بل قاسمته ظروفاً شخصيّة حميمة... وأقلّ من ذلك لطفاً علمُك بأن ذلك القاتل هو من ارتكب واحدة من أشدّ الجرائم قسوة وتخطيطاً وعبثية في التاريخ. مع ذلك فقد منحني ذلك الهامش من الشك، الذي أبقيت عليه، شيئاً من السلام الروحي الذي كنتُ في حاجة إليه حين قررتُ التنقير في تلك القصة، التي كنت أبحث من خلالها عن الأسباب التي حركت رامون ميركادير: عن الحقائق الأخيرة التي ربّما لم يعترف لي بها صديقه اللصيق به، خايمي لوبيث.

لكن، ومع سقوط الستار الأخير، بعد رؤيتي لتلك الصورة، فسأكون واثقاً على الدوام من أنّني لم أتحدث مع خايمي لوبيث، بل مع ذلك الرجل الذي كان، ذات مرة، رامون ميركادير دل ريو، ومن أنّ رامون حكى لي، أنا بالذات (لكن لماذا لي أنا؟)، حقيقة حياته، على الأقل بالطريقة التي كان يراها هو عليها: حقيقته وحياته.

في تلك الليلة، بعد أن تعشينا، بدأتُ بقراءة الكتاب حتّى انتهيتُ منه. استنتجت وأنا أقرؤه بأنّ من أرسل لي الكتاب، الذي يضع بين يديّ التفاصيل الأخيرة من قصّة – تدخل فيها تبريرات لويس ورياؤه وصمته وانتقامه–، وتفاصيل موت رامون ميركادير المؤلمة، التي لا علم لي بها، لا يمكن إلّا أن يكون تلك الممرضة المزعومة، السوداء المجهولة الاسم النحيفة التي تعرف، بلا شك، عن «مريضها» أكثر بكثير مما حدثتني به، قبل عشر سنوات، في زيارتها الوحيدة المختصرة. فلئن تكفّلت تلك المرأة الآن (ربما ما زالت على علاقة مع العائلة، ربّما مع أولاد الرجل الذي كان، لا شك– وبالنسبة إليها أيضاً– قاتلاً) بذلك العمل، فليس لمجرد رغبتها في إلقاء الضوء على الزوايا الأخيرة من جهل «الصبي» الذي تحادث عدة أمسيات مع خايمي لوبيث، الذي يسمّى في حياة أخرى رامون ميركادير، وفي أخرى جاك مورنارد، وفي أخرى فرانك جاكسون، وفي أخرى رامون بابلفوفيتش...

حين قرأتُ السيرة تبين لي أنّ جزءاً من معلوماتي تأكّدت بالمعلومات التي استقاها لويس ميركادير، بلا شكّ، من مصدر مباشر، إذ كان شاهداً على الفصول التي يتكلّم عنها. لكنّ هناك قصصاً أخرى تتناقض مع تلك التي كنتُ أعرفها، وتبيّن لي، ولسبب كنتُ أجهله في ذلك الوقت، أنني كنتُ مطلعاً على مواقف وفصول عاشها رامون لكنّ أخاه أهملها أو تجاهلها. أمّا أهمّ ما في الموضوع فهو أنّني، بعد أن تبينت هوية خايمي لوبيث وعرفت مصير رامون ميركادير وتحققت من سقوط العالم الذي نشأ فيه كالزهرة السامّة، شعرتُ بأنني في حِل من أيّ تعهد في البقاء

صامتاً. خصوصاً لأنّي، مع ذلك الكتاب الذي جاءني من شبح، وصلتُ إلى حقيقة أنّ الحصار الذي فرضه عليَّ الرجل الذي كان يحب الكلاب في حياته - وحتى بعد مماته-، لا يمكن أن يجد تبريره المحسوب إلَّا في ذهن لاعب شطرنج: الدفع بي دفعاً، بصمت وبإصرار، إلى أن أكتب الحكاية التي حكاها لي، على الرغم من أنّه أخذ منّي تعهداً بألّا أكتبها.

***

لم يحررني الكتاب الذي أملاه لويس ميركادير من تعهدي بالصمت فحسب، بل سمح لي بأن أضع الحروف الأخيرة في لوحة الكلمات المتقاطعة المشتتة للسيرة الذاتيّة لقاتل. مع ذلك، فقد كانت ردّة فعلي، قبل شعوري بالتحرر أو إدراكي لفائدة المعرفة، أنني شعرتُ بالحزن على نفسي وعلى كلّ من صدّق ذات مرّة، مخدوعاً وموجّهاً، بصحة الطوباوية، التي أنشئت في بلد تفككت عراه وصار سابقاً؛ بل لقد أحدث فيّ شعوراً واضحاً، لا برفض ميركادير، بل بالشفقة عليه، وأظنّ أنني أدركتُ للمرة الأولى أبعاد إيمانه ومخاوفه وهوسه بالصمت المطلق الذي التزمه، بلا شكّ، حتى لفظ آخر أنفاسه.

أمّا ردة الفعل الثانية فهي أن أروي الحكاية لـ «آنا»، فقد شعرتُ أنّني قد أنفجر إن لم أعصر مرّة أخرى القيح الذي تجمّع في دمّلة خوفي. قلتُ لها، إن كان لويس ميركادير قد روى جزءاً من حياة شقيقه، فأنا أشعر الآن بأنني مستعد، وفي وضعيّة فكرية وبدنية تسمح لي بكتابة تلك القصة، وليحدث ما يحدث.

- لا أفهم ذلك، إيبان، لا أفهم، يا إلهي لا - ستقول لي «آنا»، مشددة ومهتاجة، ومليئة بالحقد (أعرفُ هذا) بسبب الجزء الذي عاشته هي أيضاً من الخداع-. كيف لكاتب ألَّا يشعر بأنّه كاتب؟ الأسوأ من هذا: كيف له أن يتوقف عن التفكير بصفته كاتباً؟ كيف لم تتجرأ طوال هذا الوقت على أن تكتب أيّ شيء؟ ألم يخطر ببالك أنّ الربّ وضع بين يدك، وأنت ابن ثمانية وعشرين عاماً، قصّة يمكن أن تصبح روايتك، روايتك الكبيرة؟...

تركتها تتكلم، وأنا أومئ بالموافقة على كلّ واحدة من تأكيداتها وأسئلتها (كان للأسئلة أن تتحول إلى جمل إعجاب - بمجرد تغيير علامات الاستفهام إلى علامات تعجب- أو إلى اتهامات في الواقع)، وعندها رددتُ عليها:

- لم يخطر ببالي لأنّه ما كان من إمكانية لأن يخطر ذلك ببالي، لأني لم أكن أريد أن يخطر ببالي، ولقد بحثتُ عن كلّ الحجج والمعاذير لأنساه كلّما حاول أن يخطر ببالي. أم إنّك لا تعرفين في أيّ بلد كنّا نعيش في تلك الأوقات؟ هل لديك فكرة عن عدد الكتّاب الذين تخلوا عن الكتابة وتحولوا إلى عدم، أو، إلى ما هو أسوأ من العدم: إلى كتّاب مضادين، ولم يستطيعوا قط أن يحلّقوا من جديد؟ من كان يستطيع أن يراهن على أن الأمور ستتغيّر ذات يوم؟ هل تدركين ما هو معنى أن تشعري بأنّك مهمشة ممنوعة، مدفونة في الحياة وأنت ابنة ثلاثين، خمسة وثلاثين، بينما أنتِ في الواقع قادرة على أن تكوني كاتبة جادّة، أو أن تعتقدي بأنّ ذلك التهميش دائم، حتى نهاية الأزمنة، أو، على الأقل، حتّى نهاية هذه الحياة القذرة؟

- لكن. ماذا في إمكانهم أن يفعلوا لك؟ - قالت- يقتلونكَ؟

- لا. لا يقتلونكِ

- إذن، إذن... أيّ شيء فظيع يمكنهم أن يفعلوا بكَ؟ يمنعون كتابك؟ وماذا أكثر؟

- لا شيء.

- لا شيء؟ - قفزتْ، أظنّ لأنّها شعرت بالإهانة.

- لا يفعلون لكِ «شيئاً». هل تعرفين ماذا يعنيه أن تصبحي «لا شيء». ولأني أعرف ماذا يعني، ولأني نفسي أصبحتُ «لا شيء»، وأعرفُ أيضاً ماذا يعني الشعور بالخوف.

حكيتُ لها عن جميع أولئك الكتّاب الذين ما عادوا يتذكرون أنفسهم،

أولئك الذين كتبوا أدب السبعينيات والثمانينيات الخاوي، أدب المتعة والانبساط، الأدب الوحيد الذي في مقدور الواحد أن يتصوّره ويعدّه تحت الدثار الرائج، دثار الريبة والتشدد والتجانس الوطني المتوفر في كلّ مكان. وحدثتها عن أولئك، الذين هم مثلي، الأبرياء والسذّج، ممن تلقينا «تأديباً» لمجرد أننا أخرجنا طارف قدمنا، وأولئك الذين حاولوا، بعد إقامة في جحيم العدم، أن يعودوا، وعادوا بكتبٍ تثير الشفقة، كتب خاوية، كتب متعة وانبساط، نالوا بها العفو المشروط والإحساس المبتور بأنّهم كتّاب من جديد لأنّهم سيرون أسماءهم من جديد مطبوعة على الأغلفة.

وعلى شاكلة رامبو في أيامه في «هرار»، فقد فضّلت أن أنسى وجود الأدب. أكثر من ذلك: مثل إزاك بابيل [133] – ولست بصدد أن أقارن نفسي به أو بالآخرين–، فقد اخترتُ أن «أكتب الصمت». فبالفم المغلق أستطيع، على الأقل، أن أشعر بالسلام مع نفسي وأن أبقي على مخاوفي محاصرة.

***

حين اشتدت الأزمة في التسعينيات، كنتُ أنا و«آنا» والبودل «تاتو» على وشك أن نموت من الجوع، شأن الكثيرين من الناس في بلد مظلم ومشلول وعلى طريق الانهيار. مع ذلك، أظنّ أنّنا، طوال السنوات الست أو السبع الأصعب والأقسى من تلك الأزمة الشاملة الدائمة، كنّا سعيدين على طريقتنا الرواقية المتقشفة. كان ذلك التكامل الإنساني، الذي أنقذني وقتها من الانهيار، درساً حقيقيّاً من دروس الحياة. في سنوات زواجي الأخيرة مع راكيليتا، حين صارت الوفرة في الثمانينيات مألوفة، وحين كثرت الدلائل على أنّ المستقبل المشرق بدأ يضيء أنواره– توفر الطعام واللباس (صحيح أنّه اشتراكي وقبيح، لكنّه طعام ولباس)، سيارات، أحياناً حتّى سيارات تكسي، وبيوت على شاطئ البحر، يمكن استئجارها بما نتقاضى من الراتب–، منعني عجزي عن أن أكون سعيداً

من الاستمتاع، مع زوجي وأولادي، بما كانت الحياة تقدمه لي. ولكن، حين تلاشى ذلك التوازن الكاذب مع زوال السوفييت، وظهرت الأزمة، أعاد لي حضور «آنا» وحبّها شيئاً من الرغبة في الحياة وفي الكتابة وفي الكفاح من أجل شيء كان موجوداً في داخلي وخارجي، كما في السنوات البعيدة التي قطعتُ فيها، بكل الحماس الذي في داخلي، القصبَ وزرعتُ القهوة وكتبتُ قصصاً قليلة، مدفوعاً بالإيمان وبالثقة الكبيرة بالمستقبل - لا بمستقبلي بل بمستقبل الجميع...

حين اختفت وسائط النقل العام عمليّاً أوائل التسعينيات، صرتُ أقطع المسافة التي تفصل بيتي عن مدرسة البيطرة، وهي عشرة كيلومترات ذهاباً ومثلها إياباً، بدراجتي الصينية، طيلة خمسة أيام في الأسبوع. بعد أشهر قليلة نحفتُ حتّى صرتُ أسأل نفسي، وأنا أتطلّع إلى صورتي الجانبية في المرآة، إن كنتُ مصاباً بسرطان قاتل. أمّا «آنا»، فلا شكّ أنّها عانت، بسبب ركوب الدراجة اليومي ونقص السعرات الحرارية اللازمة وسوء طالع جيني، من أسوأ عواقب تلك السنوات الفظيعة، فقد تبيّن أنّها، كما هو حال الكثير من الناس، مصابة بالتهاب في المفاصل، ناشئ عن نقص في الفيتامينات (وهو المرض نفسه الذي انتشر في معسكرات الاعتقال الألمانية)، سيؤدي، في حالتها، إلى هشاشة عظام دائمة، هي مقدمة لسرطان سيودي بحياتها.

بعد أن انصرفتُ إلى رعاية «آنا» في تلك الحلقة من أمراضها (ظلت عمياء تقريباً بضعة أشهر) قررتُ في عام 1993 أن أترك العمل في مدرسة البيطرة، إذ سنحت لي فرصة لفتح عيادة للإسعافات الأوليّة في قطعة أرض شاغرة تقع قريباً من بيتنا. منذ ذلك الوقت، وبموافقة السلطة المحلية (من دون دعم طبعاً)، أصبحتُ بيطري الحارة، المكلف بحملات التلقيح من داء الكلب. ومع أنّ العمل لم يكن يدرّ مالاً كثيراً، فقد كنتُ أكسب منه ثلاثة أمثال ما كنتُ أكسبه من راتبي، وقد خصصتُ كلّ بيزو أكسبه لشراء الطعام لزوجي. كنتُ أركبُ دراجتي، مرّة في

الأسبوع وأذهب إلى «ميلينا دل السور»، على بعد ثلاثين كيلومتراً من المدينة، لأشتري لها الطعام مباشرة من المزارعين لأقايض معرفتي في إخصاء الخنازير وتخليصها من الطفيليات بالقليل من اللحم وبعض البيض من أجل «آنا». ولئن بدوت قبل أشهر مريضاً بالسرطان، فقد صيّرني المجهود الجديد شبحاً صغيراً يضرب على دواسة الدراجة، وما زلتُ إلى اليوم لا أفهم كيف خرجتُ حيّاً وصاحياً من حرب البقاء تلك، التي تراوحت بين عمليات أجريتها للحبال الصوتية لمئات من الخنازير المنزلية لمنع ضجيجها وخوض معركة باللكمات (برقت فيها أنصال السكاكين) مع بيطري حاول أن يأخذ مني زبائني في «ملينا دل سور»: ففي قاع الهاوية، حين تكون محاصراً من جميع الجوانب، تفعل الغرائز ما لا تفعله القناعات.

بالإضافة إلى التمرين البطيء والمتعثر على الكتابة الذي عدتُ لممارسته بعد أن تلقيت كتاب لويس ميركادير - لم تكن لديّ فكرة عن صعوبة الكتابة الحقيقية، حين تكون مشفوعة بمسؤولية ورؤية للعواقب، وحين تحاول، فوق ذلك، أن تدخل في رأس فرد آخر عاش في واقعك أنتَ، وأن تفرض على نفسك أن تفكر وتشعر كما يفكر ويشعر-، في تلك الحقبة القاتمة والعدائية كافأتُ نفسي بأن سمحتُ لها بأن تُخرج من داخلي ما يفترض أن يكون هواي الحقيقي: في العيادة البسيطة البدائية التي أقمتها في الحارة، لم ألقّح كلاباً وأخصي خنازير، ستؤكل لاحقاً، أو أخرسها فحسب، بل انصرفتُ إلى مساعدة كلّ من كان يحبّ الحيوانات مثلي، وخصوصاً الكلاب. لم أكن أعرف أحياناً من أين آتي بالأدوية والأجهزة للإبقاء على باب العيادة مفتوحة، في وقت اختفت فيه حتى حبوب الأسبرين من الجزيرة، وصار العاملون في مدرسة البيطرة يوصون بمعالجة أمراض الجلد بكمادات البابونج أو بالكينين البرّي، ومشاكل الأمعاء بتدليك القديس لويس بيلتران وصلواته. وما كانت المبالغ الرمزية التي أتقاضاها من أصحاب الحيوانات - باستثناء الذين يتاجرون

بها، ومنهم مربو الخنازير، مضروبة بعدد سكان المدينة التي تحوّلت إلى إسطبل كبير ومنتن الرائحة بحثاً عن قليل من الزبد واللحم - تغطّي إلّا بالكاد النفقات، ولم تكن كافية لإقامة أودنا أنا و«آنا». اشتهرتُ في كافة أنحاء المنطقة بكوني شخصاً طيباً أكثر من كوني بيطريّاً ناجحاً، وصار الناس يترددون عليَّ ومعهم حيوانات هزيلة مثلهم (هل تتصورون الحيّة الهزيلة؟) وهم يحملون أدوية وخيوطاً وضمادات تفيض عن حاجتهم، في ممارسة دافئة ومندفعة تناقض كل منطق في تلك الأيام الكالحة، ممارسة للتضامن الحقيقي الوحيد: تضامن المسحوقين. ومع مساهمتي في حملة التضامن تلك، التي كانت «آنا» تنخرط فيها كلما استطاعت ذلك - طالما كانت تساعدني في حملات التلقيح والتعقيم ومكافحة الطفيليات الجماعية التي نظمتها-، بعيداً عن أيّ مسعى للحصول على اعتراف أو شكر أو مكسب شخصي، ومنزهاً عن كلّ دوائر الخوف والريبة، كنتُ، أساساً وواقعاً، الشخص الأقرب إلى ما كنتُ أتمنى أن أكونه دائماً، إلى الشخص الذي ما زال يعجبني أن أكونه.

ومع أنّني لم أكن قد بدأتُ آنذاك مرافقة «آنا» إلى الكنيسة، فقد كان داني وفرانك والأصدقاء القلائل الذين أراهم يقولون لي إنّني أبدو وكأنني أعمل لكي أرشّح نفسي للتطويب والصعود الروحي إلى السماء. الواقع هو أنني، وأنا أقرأ وأكتب حول الطريقة التي جرى فيها تحريف أكبر طوباوية وجدها الإنسان في متناوله، مختبئاً في أقبية تاريخ يبدو أقرب إلى عقاب سماويّ منه إلى عمل رجال أسكرتهم السلطة والحرص على السيطرة والطمع في بروز تاريخي، تعلّمتُ أنّ العظمة الإنسانية الحقيقية هي أن نفعل المعروف من دون شروط، وأن نعطي المحرومين، وألّا نمنحهم ممّا يفيض عن حاجتنا، بل من القليل الذي نمتلكه. هي أن نعطي حتى يؤلمنا العطاء، لا سياسة، ولا حبّاً في الظهور، ولا، بالطبع، تطبيقاً لفلسفة خداعة تقوم على إجبار الآخرين على القبول بمفاهيمنا عن الخير والحقيقة لأنّها «نعتقد» الوحيدة الممكنة ولأنّهم يجب أن

يشكروا لنا ما أعطيناهم، حتّى إن لم يطلبوه. ومع إدراكي بأنّ علم أصول الكون عندي لا يمكن تطبيقه (ماذا سنفعل بالاقتصاد والمال والملكية، لكي يعمل كلّ ذلك؟ وماذا نفعل مع الأرواح المختارة ومع أولاد القحبة بالولادة؟)، فقد كان يريحني التفكير في أنّ الكائن البشري قد يستطيع، في يوم ما، أن يمارس هذه الفلسفة، التي تبدو لي أوليّة، من دون أن يعاني من آلام مخاض ولا صدمات القسر: بل عن اختيار حرّ صرف، وعن حاجة أخلاقية نابعة من كون الأفراد متضامنين وديموقراطيين. ترهات من عنديات ذهني...

لذلك رحتُ، بصمت وألم، أترك نفسي تنجرف نحو الكتابة، وإن لم أكن أعلم إن كنتُ سأتجرأ في يوم ما على أن أعرض المكتوب، أو أن أبحث له عن مكان أوسع، فتلك الخيارات ما كانت تهمني كثيراً. ما كان يهمّني هو أنّ تمرين الانتشال ذاك من ذاكرة خفيّة له علاقة كبيرة بمسؤوليتي أمام الحياة، أو بالأحرى، أمام حياتي: إن كان القدر قد اختارني لأكون مستودع قصة قاسية وفريدة، فإنّ واجبي الإنساني يلزمني بالحفاظ عليها، وإخراجها من تسونامي النسيان.

***

كانت حاجتي المتراكمة لتقاسم عبء تلك القصة التي تطاردني، فضلاً عن قرف الذكريات والذنوب الذي أحدثته فيّ زيارتنا إلى «كوخيمار»، هي الأسباب التي دفعتني إلى أن أقرر أن أحكي لصديقي دانييل أيضاً تفاصيل علاقتي مع ذلك الشخص المراوغ الذي أسميتُه بـ «الرجل الذي كان يحب الكلاب».

تسارعت الأمور عصر يوم من أيام صيف عام 1994، حين بلغ كلّ شيء حدّه، وبدا وكأنّ الأزمة لم يبقَ أمامها غير أن تمضغنا مضغتين أخريين قبل أن تبتلعنا بلعاً. لم يكن ذلك سهلاً، لكنّي في ذلك اليوم أخرجت داني من بئر الكسل وذهبنا على دراجتينا إلى «كوخيمار»، مستعدين لمشاهدة استعراض اللحظة، ما لم تره عين ولم تسمع به آذان:

الخروج الجماعي لمئات، لآلاف من الرجال والنساء والأطفال الذين انتهزوا فرصة فتح الحدود التي أعلنتها الحكومة لينطلقوا، وفي رابعة النهار، إلى البحر، على متن أيّ شيء عائم، في قوارب لا يمكن أن تخطر على بال أحد، وهم يحملون يأسهم وتعبهم وجوعهم، بحثاً عن آفاق جديدة.

كان لنظام القطع الكهربائي، منذ ثلاث أو أربع سنوات، بين ثمان ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة يوميّاً فائدته: لقد قرّب بيني وبين داني مجدداً. كانت منطقة قطع الكهرباء عنده «لويانو I» تقع على حدود المنطقة التي أسكنها أنا «لاوتون II»، واكتشفنا أنّ الكهرباء حين تكون مقطوعة عن منطقته، فإنّها في العادة تكون غير مقطوعة عن بيتي، وبالعكس. لذلك اعتدنا أن ننتقل بدراجتينا، في معظم الأحيان، مع زوجينا، من الظلمات إلى النور، لنشاهد فلماً من تلك التي يعرضها التلفزيون، أو لعبة كرة تافهة (المعلقون واللاعبون هزيلون، والملاعب فارغة تقريباً) أو للتحادث ونحن ننظر إلى وجوه بعضنا.

داني، وكان في ذلك الوقت ما زال يعمل في دار النشر، رئيساً لقسم الترويج والنشر، كان هو من ترك الكتابة. المجموعتان القصصيتان والروايتان التي نشرها في سنوات الثمانين جعلت منه واحداً ممن يعقد الأدب الكوبي الآمال عليهم، ولطالما عقد الأدب الكوبي الآمال و... المشكلة هي أنّك حين تقرأ تلك الكتب تشعر بأنّ في قصصه قوة دراميّة، قدرة على التغلغل، قابليّة على السرد: لكنّ من يمتلك خبرتي يستطيع أن يلاحظ أيضاً أنّ الكاتب تنقصه الجرأة اللازمة للقفز من شاهق والمغامرة بنفسه. في أدبه ثمّة شيء غير مفهوم: اندفاع للبحث يقطعه فجأة ظهور هاوية، عجز عن اتخاذ القرار النهائي في اجتياز النار ولمس الجوانب المؤلمة من الواقع. ولأني أعرفه جيداً، فقد كنتُ أعلم أنّ كتاباته هي مرآة مواقفه من الحياة. لكنّه الآن، بعد أن أرهقته الأزمة والعجز شبه المؤكد عن النشر في كوبا، سقط في حالة كآبة أدبية، كنتُ أنا (بالذات أنا) أحاول

أن أخرجه منها في ليالي السمر تلك. كانت حجتي التي أرددها هي أنّ عليه أن يستغلّ أيام الفراغ تلك للتفكّر والكتابة، ولو على ضوء الشمعة: فذلك هو ديدن كبار كتّاب كوبا في القرن التاسع عشر؛ ثمّ إنّ حالته لا تشبه حالتي: هو كاتب بالفعل ولا يمكنه أن يتخلى عن صفته تلك (تنظر إليّ زوجه بصمت حين أفتح هذا الموضوع) والكتّاب يكتبون. لكنّ ما يؤلم هو أنّ كلماتي ما كانت، في ما يبدو، تأتي بنتيجة (بل ما كانت تأتي بنتيجة): يبدو أنّ الرغبة التي تحرّك الصنعة الأدبية الطاغية قد فارقته وما عاد يشغله، وهو الملتزم بصنعته، غير تحسين استراتيجياته للبقاء على قيد الحياة والبحث عن وجبة الطعام التالية، حاله حال جميع سكان الجزيرة تقريباً. في إحدى تلك الأماسي، وبينما كنّا نتحدّث عن هذا الموضوع، تلك المرة كانت في شقتنا في «لاوتون»، اقترحتُ عليه أن نقوم في اليوم التالي برحلة إلى «كوخيمار»، لنرى ما يحدث هناك رأي العين.

كان المشهد الذي رأيناه كارثيّاً. فبينما كانت مجاميع الرجال والنساء منهمكة في صنع ما سينطلقون به إلى البحر، مستعملين الألواح والصفائح المعدنية والإطارات والمسامير والحبال، كانت مجاميع أخرى تصل بالشاحنات لحمل القوارب التي انتهى الآخرون من بنائها. وكلما وصل واحد من تلك القوارب كان الناس يهرعون نحو الشاحنة، وبعد أن يصفقوا للواصلين حديثاً، وكأنّهم أبطال فائزون في مأثرة رياضيّة، كان بعضهم يخفّ للمساعدة في إنزال القارب الثمين، بينما يحاول آخرون، ربّما حملوا صرراً من الدولارات، شراء أماكن لهم للعبور.

في غمرة تلك الفوضى تُنشل مَحافظ وتسرق مَجاذيف. وازدهرت تجارة بيع قــارورات ماء الشرب والبوصلات والطعام والقبعات والنظارات الشمسية والسجائر وعلب الكبريت والمصابيح وتماثيل شفيعة كوبا عذراء محبّة الكوبري، المعمولة من الجبصين، وتماثيل عذراء «لا ريغلا»، ملكة البحار، بل كانوا يستأجرون غرفاً لوداع المحبين ومرافق صحية لقضاء الحاجات الكبرى، أما الحاجات الصغرى فكانت

تتمّ في العادة على صخور الساحل، ومن دون خجل. كان رجال الشرطة المكلفون بحفظ النظام يراقبون بلاط المعجزات ذاك بعيون تغشاها الحيرة والطاعة. كانوا يتدخلون، ولكن من دون حماس، لتهدئة النفوس فحسب، حين ينشب عنف بين الأفراد. في تلك الأثناء، راح جمع من الناس يغنّي بالقرب من بعض الصبية الذين وصلوا وهم يحملون غيتارين، وكأنّهم في مخيّم سياحي؛ آخرون كانوا يتجادلون حول عدد الراكبين الذين يتسع لهم قارب من هذا الحجم أو ذاك، ويتحدثون عن أوّل طعام سيتناولونه حين وصولهم إلى ميامي، أو عن الأعمال المليونية التي سيقومون بها هناك؛ أمّا البقية فقد وقفوا، بالقرب من الرصيف، يساعدون من يلقون بالمراكب إلى البحر ويودعونهم بالتصفيق والدموع والوعود باللقاء قريباً، هناك، بل حتى أبعد من هناك: هنالك. لن أنس ذلك الأسود الكبير والجسيم، بصوته الجهير، الذي صرخ نحو الساحل من قاربه المبحر: «أيّها الشاب، ليطفئ آخر الخارجين أنوار المورّو[145]» ثمّ بدأ يغني، بصوت بول روبسون: «أشعر بقرع طبول يناديني، أمّاه...».

– ما ظننتُ على الإطلاق أنّني سأرى شيئاً كهذا – قلتُ لدانييل، يغمرني حزن عميق–. بعد كلّ ما حصل لنصل إلى هذا الوضع؟

– الجوع يحكم – قال.

– الأمر أعقد من موضوع الجوع، داني. لقد فقدوا إيمانهم، لذلك فهم يهربون. إنّه سِفر من أسفار الكتاب المقدس، سفر النزوح...، إنّها فاجعة.

– هذا مشهد كوبي بامتياز. لا نزوح ولا خروج: هذا يسمى «هروباً»، يسمى «السير على الأقدام»، «الاختناق»، «الفرار» فما عاد من يطيق هذا...

وترددتُ قليلاً ثم سألته:

– ولماذا لا ترحل أنتَ؟

145– Castillo del Morro وهي قلعة تقوم عند خليج هافانا.

نظر إليّ، وليس في عينيه قطرة من السخرية أو التهكّم اللذين كان يحاول بهما الدفاع عن نفسه من العالم، واللذين لم ينفعاه إلّا قليلاً حين كان عليه أن يحمي نفسه من نفسه ومن حقائقه.

- لأني أشعر بالخوف. لأني لا أدري إن كنتُ أستطيع أن أبدأ من جديد. لأنّي في الأربعين من عمري. لا أدري، حقّاً. وأنت؟

- لأنّي لا أرغب في الرحيل.

- لا تتفلسف، هذا ليس جواباً.

- لكنها الحقيقة: لا أريد أن أرحل، لا أكثر - ألححت، غير راغب في إعطاء حجج أخرى.

- إيبان، هل أنتَ غريب الأطوار هكذا دائماً؟

رحتُ أنظر إلى البحر بصمت. مع تلك الأجواء والحديث المزعج الذي دار بيننا، طفا على السطح شعور قديم بالذنب آلم حنجرتي وندّى عينيّ. لماذا يظهر الخوف دائماً؟ إلى متى يطاردني؟

- أسوأ ما مرّ بي حين اختفى وليام - قلتُ، بعد أن تمكنت أخيراً من الكلام- هو حين شعرتُ بانقباض صدري وما عدت قادراً على نفث ألمي. اضطررت إلى أن أداري مع والديّ وأقول لهم إنّ هناك أملاً، ربّما هو حيّ وموجود في مكان ما. وحين اقتنعنا جميعاً بأنّه انتهى في قاع البحر، لم أستطع حينها البكاء على أخي... لكنّ الأصعب كان التفكير في مبلغ سفالة الحظ. لو أنّ وليام قرر الهرب عقب شهرين أو ثلاثة من موعد هربه، لذهب مع من ذهب في «الماريل»[146]. مع وثيقة الطرد من الجامعة، حيث وصفوه بأنّه مخنّث مضاد للمجتمع، كانوا سيفسحون له في قارب وكان سيسافر من دون مشاكل.

- ما كان في مقدور أحد أن يتصوّر حدوث ما حدث. وهذا الذي

146- Mariel بلدة وميناء في كوبا انطلقت منه موجات الهجرة الجماعية من الكوبيين صوب شواطئ ميامي الأمريكية في ما عرف بـ (هروب ماريل الجماعي) في نيسان من عام 1980.

يحدث الآن، هل تصوّرت مرّة أنّنا سنشهد شيئاً مشابهاً؟ الناس يفرون ورجال الشرطة يتطلعون إلى المنظر وكأنّ شيئاً لا يحدث؟

- فكأنّ وليام كان مكتوباً عليه أن يفجع. لمجرد كونه مثليّاً أو لكونه أخي... لا أدري، ليس ذلك عدلاً.

قبل أن يحل المساء قررنا العودة. كنتُ أشعر بتأثر كبير لرؤية ذلك الحشد البشري الذي رسم في حدقتي صورة مقرّبة لآخر قرار اتخذه أخي، وحرّك المياه القذرة لحادث لم أعرف له تفسيراً، ولم يدفن، كما لم يدفن جثمان وليام.

حين وصلنا إلى بيت داني كان الليل قد حلّ. وكان من حسن الحظ أنّ الكهرباء متوفرة في ذلك اليوم. تناولنا ماءً وشربنا قهوة من حبوب مخلوطة وأكلنا بعض الخبز مع لحم السمك المفروم الذي أضيف إليه مغلي قشور الموز. كان دانييل يعرف أنّني سمحت لنفسي، منذ سنتين أو ثلاث سنين، بتناول الكحول، وإن كان ذلك في مناسبات معينة وبكميات قليلة. ولأنّي أعرف نفسي فقد لاحظتُ أنّني في تلك اللحظة كنتُ أحتاج إلى جرعة منه. فتح خزانة احتياطه الاستراتيجي وأخرج زجاجة رون معتّق، من تلك التي كانت إليسا تسرقها من عملها، كلما سنحت لها الفرصة. شربنا ونحن جالسين على الكراسي في الصالون، والمروحتان تدوران بكل سرعتهما، من دون أن ننظر إلى بعضنا تقريباً، وشعرتُ بأنّ ما حدث في ذلك النهار حضّرني بطريقة ما لما كنتُ أفكر في عمله وعملته أخيراً.

- أحاول أن أؤلف كتاباً- دخلتُ في الموضوع بتلك الطريقة، وفجأة ظهر أمامي أشدّ الطرق قسوة: فأن تقول لكاتب إنّك تكتب فهو من قبيل أن تذكر أمّه بسوء. أنا أعرف ذلك جيداً جدّاً. لكنّي لم أتوقف، وشرحتُ له أنّني أحاول منذ حين أن أضع قصة وقعت لي قبل ستة عشر عاماً في شكلها النهائي.

- ولماذا لم تكتبها حتّى الآن؟

- لم أرد، لم أستطع، لم أكن أعرف... الآن أظنّ أنّني أريد وأستطيع وتقريباً أعرف.

حكيت له ما هو جوهري من لقاءاتي في عام 1977 مع الرجل الذي كان يحب الكلاب وبعض تفاصيل القصّة التي راح يزودني بها ذلك الرجل، منذ ذلك الوقت، بالتقسيط وبالطرق الأكثر غرابة. لا أدري بالضبط لماذا وضعتُ أمامه، قبل الشروع بالحديث، شرطاً وطلبت منه مترجياً أن يحترم ما سأقصّه عليه: ليس عليه أن يحدثني عن ذلك الموضوع إلّا إذا تطرقت أنا إليه. أعلم الآن أنّني فعلت ما فعلت حماية لنفسي، كما هي عادتي.

حين انتهيت من سرد القصة عليه، بما فيها بحثي عن سيرة تروتسكي الذي أشركتُه فيه، شعرتُ، لأوّل مرة، بأنّني كنتُ في الواقع أكتب كتاباً. كان شعوراً يتراوح بين الفرح والألم، شعوراً فقدته منذ سنوات طويلة، لكنّه لم يفارقني، فكأنّه مرض مزمن. المروّع، مع ذلك، هو أنّني، في تلك اللحظة، صار لديَّ وعي تام بأنّ رامون ميركادير هو من يستفزّ فيّ، أكثر من سواه، ذلك الشعور غير المناسب الذي كان هو يرفضه، والذي كان مجرد الشعور به يثير رعبي: الشفقة.

***

ساعدني الحديث مع داني والتأثيرات المباشرة التي نتجت عنه على نفض الغبار عمّا كنتُ قد كتبته حتى تلك اللحظة ومراجعته. وجدتُ أنّ الضرورة الداخليّة لتلك القصّة تتطلّب وجود صوت آخر، منظور آخر، قادر على تكميل ما رواه لي الرجل الذي كان يحب الكلاب ومقابلة ما رواه. وسرعان ما اكتشفتُ أنّ سعيي في فهم حياة رامون ميركادير يعني محاولة فهم حياة ضحيته أيضاً، فذلك القاتل لن يكتمل، باعتباره جلاداً وباعتباره كائناً بشريّاً، إلّا ومعه المستهدف من فعله، مُستودَع كراهيته وكراهية من حرضوه وسلّحوه.

أنفقتُ سنوات في تتبع المعلومات القليلة المتوفرة في الجزيرة

عن المؤامرة المدبرة حول تروتسكي وعن الفترة المرعبة والمضطربة والمثيرة للإحباط التي ارتكبت فيها الجريمة. أذكر التوتر المسلّي الذي كان يلفنا ونحن نبحث عن مجلات الغلاسنوست القليلة التي دخلت في سنوات الكشف عن الحقائق والأمال تلك، إلى أن سُحبت من الأكشاك- لكي لا نصاب بالعدوى الأيديولوجيّة نتيجة بعض الحقائق التي ظلّت مدفونة لسنوات كثيرة، كما قال الرقباء الطيبون-. لكنّ حاجتي إلى معرفة المزيد، على الأقل أكثر قليلاً، حملتني على بحث دؤوب وخفيّ عن معلومات أخذتني من كتاب إلى آخر (كلّفني الحصول عليها مشقة أكبر ممّا كلفني الحصول على سابقاتها) ولمقابلة الجهل المبرمج الذي عشنا فيه لعقود، والطريقة الممنهجة التي استغلّت فيها سذاجتنا ومعرفتنا. في البداية- أكد لي ذلك حديثان مع دانييل ومع «آنا»- لم يكن يمتلك فكرة عن تروتسكي والأسباب التي أدّت إلى سقوطه السياسي والملاحقة التي تعرض لها والميتة التي مات بها إلّا قلّة قليلة من الناس؛ وأقّل منهم هم من كانوا يعرفون كيف رُتّب اغتيال الثوري وعلى يد من نفذ؛ وما من أحد يعرف مدى القسوة البلشفيّة التي مارسها تروتسكي نفسه أيام سلطته ومجده، ولا أحد تقريباً لديه فكرة تامة عن الخيانة والمذبحة الستالينية اللاحقة، تلك الأعمال البربرية التي جرت تحت ذريعة النضال من أجل عالم أفضل. أمّا الذين كانوا يعرفون شيئاً فقد كانوا يلزمون الصمت.

استنتجتُ، بفضل الكتب التي تحدثتْ عن فظائع كثيرة محفوظة لعقود في موسكو، وبفضل قدرة المختصين على الحكم بالاعتماد على الحقائق التي كشف النقاب عنها، أنّنا الآن نعرف، أو على الأقل نستطيع أن نعرف، عن عالم رامون ميركادير وتفاصيل جريمته أكثر من كلّ ما استطاع ميركادير نفسه أن يعرفه منهما. يكفي الغلاسنوست أولاً، واختفاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية المحتّم، بعد ذلك، والكشف عن الكثير من تفاصيل تاريخه المُحرّف المدفون المخفي المكتوب المرة تلو المرّة، للحصول على صورة متجانسة وواقعية تقريباً

عن الوجود الكالح لبلد عاش ما يعيشه بالضبط رجل طبيعي: أربعة وسبعون عاماً. لكنّ كلّ تلك السنين، بحسب ما راح يتضح ممّا أقرؤه، متنقلاً من دهشة إلى دهشة (مع أن برتون قال لتروتسكي إنّ العالم فقد وإلى الأبد القدرة على إثارة الدهشة)، كل تلك السنين، أقول، مضت سدى منذ أن غُدر بالحلم، ومنذ أن صارت، وهذا هو الأسوأ، كذبة وخداعاً لأفضل تطلعات البشر. لقد أجهض الحلم النظري المحض والجذاب في المساواة على يد أعظم كابوس شمولي في التاريخ، حين طُبّق على الواقع، باعتباره، وبحق «أكثر في هذه الحالة»، المعيار الوحيد للحقيقة. قال ماركس.

وحين ظننتُ أنّني بدأتُ أمتلك فهماً تقريباً شاملاً عن الكارثة الكونية تلك وما عنته جريمة ميركادير في زحمة المؤامرات، طرق باب بيتي، ذات ليلة مظلمة ومرعبة - كما هو منتظر من قصة غامضة وعاصفة- الرجل الأسود الطويل النحيف الذي كان في عام 1977 يحرس رامون ميركادير وكلبيه الروسيين، وهم يحشرون أنفسهم في حياتي حشراً.

-25-

أحسّ جاك مورنارد برعشة برد تسري في ظهره: سمح له هارولد روبنس، وهو يبتسم، بالمرور بعد أن صافحه. اجتاز عتبة الحصن وهو يحمل كيساً ورقيّاً ويلبس لباسَ من يذهب في رحلة. لم يشغل الحارس نفسه بمعرفة ما يحمله في الكيس. حين انغلق الباب المعدني، أحسّ رامون ميركادير بالتاريخ وهو يركع جاثياً عند قدميه.

عقب هجوم المكسيكيين، زار منزل كويواكان مرتين للاطمئنان على حال ساكنيه. في الزيارة الثانية أكدوا له أنّ آل روسمر سيسافران إلى فرنسا عصر يوم الثامن والعشرين من أيار، منطلقين من ميناء «بيراكروث»، وصادف أنّه كان عازماً على السفر إلى تلك المدينة في ذلك التاريخ لأمر يتصل بالعمل فاقترح على ألفريد روسمر، بعد إذن روبنس وشوسلر، أن يتكفّل هو بأخذهما، وهكذا لن يضطر أيّ حارس «كان اثنان من الحرس ما زالا محتجزين لدى الشرطة» إلى الابتعاد عن البيت، وهو أمر خطير بعد ما حصل فجر الرابع والعشرين.

استبعد المحققون المكسيكيون المشاركة المزعومة لديغو ريبيرا في الهجوم، وعلى الرغم من أنّهم أصرّوا على نظرية المؤامرة، فإنّ إصرار المنفي على أنّ الشرطة السرية السوفييتية هي من نفذ المحاولة أبقى على السلطات المكسيكية في شغل وقلق. انتظر جاك متلهفاً عودة توم ومعه التوضيحات والأوامر واللمسات الأخيرة لبدء التنفيذ.

على الرغم من أنّ العديد من الأشخاص حدثوه عمّا يوجد خلف

الأسوار، فقد فوجئ جاك مورنارد في ذلك العصر حين رأى باحة الحصن المركزية. كان انطباعه الأول أنّه دخل في رواق ديري. على يساره، بالقرب من الجدار، صفّ من أقفاص الأرانب. الجزء غير المعبّد تغطيه نباتات، شجيرات صبّار في أغلبها، ما زالت تحمل آثار الغزوة التي وقعت قبل أيام. أمّا المسكن، على اليمين، فكان أصغر وأبسط مما كان يتصور. كانت شبابيكه مغلقة، وقد ترك رصاص العدوان آثاره على الجدران. إلى جوار بناء صغير، خمّن أنّه مخدع الحرس، ارتفعت شجرة خمّن أنّ المهاجم حامل المدفع الرشاش اتخذها مربضاً ليطلق منها النار على الباحة التي تقع تحته. كيف يمكن لذلك الهجوم أن يفشل؟

أشار عليه روبنس بالجلوس على دكّة خشبية ريثما يبلّغ آل روسمر بوصوله. في برج المراقبة الرئيس، المطل على الشارع وعلى باحة البيت، راح أوتو شوسلر وجاك كوبر يتحادثان، من دون أن يعيراه اهتماماً كبيراً، بينما راح جاك يسأل نفسه لماذا لم يحيّد المدفع الرشاش المنصوب في البرج المهاجمين. أشعل سيجارة وراح يدرس، من دون أن يبدي اهتماماً واضحاً، توزيع البيت، الأمتار التي تفصل الغرفة التي اتخذها المرتد مكاناً لعمله عن باب الخروج، ممرات الحديقة التي يمكن للشخص أن يتحرك فيها بأقل قدر من التعرّض لنيران البرج. وسار، كمن ينتظر، بحثاً عن أفضل مكان لمراقبة المجمّع، والتفت حين سمع صوتاً يسأله من وراء ظهره.

- ماذا تريد حضرتك؟

على الرغم من أنّه رآه في مئات الصور، ورآه حين مرّ بالسيارة المسرعة من جنبه، فقد حرّك حضور المنفيّ الملموس، على بعد أربعة أمتار أو ستة، أحاسيس جاك مورنارد: ها هو يقف هناك، يحمل مقص العشب. إنّه الرجل الذي يهدد مستقبل الثورة العالمية، وهو العدو الذي يستعد هو لقتله منذ ما يقرب من ثلاث سنوات. وأخيراً قاده الحوار المشوش الغامض على سفح من سفوح جبال «غوادا راما» إلى لقاء رجل

حكم عليه، منذ وقت طويل، بالموت، وسيكون هو، رامون ميركادير، من سينفّذ فيه ذلك الحكم.

- صباح الخير، سيدي - ردّ عليه، وهو يحاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة-. أنا فرانك جاكسون، صديق سيلفيا و...

- نعم، طبعاً - قال العجوز-. هل أبلغوا آل روسمر؟

- نعم، روبنس...

لم يعره المنفي بالاً وانصرف، كالمتضايق، ليفتح واحداً من الأقفاص ويضع العشب الطري في السلة لتأكل منه الأرانب.

نظر جاك، وقد بدأ اضطرابه يخف، إلى قفاه، الهشّ المجرّد من كلّ ما يحميه، شأنه شأن أيّ قفا، وإن بدا له الرجل، من قريب، أقلّ شيخوخة مما يبدو عليه في الصور، ولا يمت بصلة إلى رسوم الكاريكتير التي تظهره عجوزاً يهوديّاً ضعيفاً. كان المرتد يتدفق صلابة، على الرغم من أعوامه السبعين، وعلى الرغم ممّا يعانيه من توترات ومعاناة جسدية. وكان، على الرغم من خياناته العديدة للطبقة العاملة، يفيض كرامة. كانت لحيته المدببة والمزروعة بالشيب، وشعره الأكرث وأنفه اليهودي الحاد وعيناه، خصوصاً عينيه، النافذتان من وراء النظارات، تشعّ قوة كهربائية. كان صحيحاً ما يردده الكثيرون: إنّه أقرب إلى النسر منه إلى الرجل، فكّر جاك، وهو مسمر في مكانه، والكيس الورقي في يده. لو أنّه حمل معه مسدساً؟

- لا شكّ أنّ العشب طري - قال المرتد في تلك اللحظة، من دون أن يلتفت-. الأرانب حيوانات قوية ورقيقة في الوقت نفسه. إذا كان العشب يابساً فإنّه يؤذي معدتها، وإذا كان مبلولاً فإنّه يسبب لها الجرب.

هزّ جاك رأسه موافقاً، وعندها فقط تنبّه إلى أنّ الكلام بات صعباً عليه. بدأ العجوز بخلع قفازات العمل التي يحمي بهما كفّيه ووضعهما فوق سقف أقفاص الأرانب.

- سيفوتهم الوقت - قال وهو يتقدم نحو البيت.

حين مرّ، على بعد متر منه، شعر جاك برائحة الصابون يضوع من شعره، الذي خمّن أنّه في حاجة إلى حلاقة. لو أنّه مدّ يده لاستطاع أن يمسك برقبته. لكنّه شعر بالشلل وتنفس الصعداء حين ابتعد الرجل عنه وقال-: ها هما.

خرجت مارغريت روسمر ونتاليا سيدوفا إلى الباحة من الباب الذي، بحسب ما حكت له سيلفيا، يؤدي إلى غرفة الطعام، التي توجه إليها المنفي. ألقت السيدتان بالتحية على جاك وسألته نتاليا إن كان يرغب في فنجان من الشاي، فوافق. حين استدارت نتاليا أوقفها جاك وهو يبحث في الكيس الورقي.

- مدام تروتسكي...، هذا لحضرتك- قال ومدّ يده لها بعلبة مربوطة بشريط بنفسجي على هيئة زهرة.

نظرت إليه نتاليا وابتسمت. أخذت العلبة وبدأت تفتحها.

- كرات الشوكولا...، ولكن...

- من دواعي سروري، مدام تروتسكي.

- رجاءً جاكسون يمكنك أن تدعوني باسمي، نتاليا.

ابتسم جاك أيضاً موافقاً.

- سأدعوك «مدام نتاليا»؟

- إن أصررتَ...- وافقت هي.

- هل سييفا موجود...؟ لقد جلبتُ له شيئاً أيضاً - قال، وهو يرفع الكيس.

- في الحال سأرسله لك - قالت وتوجهت نحو غرفة الطعام.

لم يتأخر الفتى أكثر من دقيقتين، فخرج وهو يمسح فمه. لم يمهله جاك وقتاً ليسلم عليه، بل مدّ له الكيس. مزّق سييفا الكيس الورقي ووجد فيه علبة كارتونية أخرج منها طائرة مجسمة.

- فقد قلتَ لي إنّك تحبّ الطائرات...

تلألأ وجه سييفا فرحاً وابتسمت مارغريت، التي كانت تقف إلى جانبه وهي تتأمل فرحة الصبي.

- شكراً سنيور جاكسون. ما كان ضرورياً أن تكلّف نفسك.

- ليس من تكليف، سييفا... اسمع، أين آثتيكا؟

- في غرفة الطعام. لقد عوّده جدي على أكل الخبز المبلول بالحليب وهو الآن يطعمه.

استأذنت مارغريت بالانصراف، فعليها أن تجمع بعض الحاجيات والوقت بات ضيقاً. طاف الزائر مع سييفا وآثتيكا بين أقفاص الأرانب، إلى أن شاهد ألفريد روسمر وهو يخرج من البيت ومن خلفه المرتد. بدأت أعصابه تهدأ وبدأ يقينه من قدرته على أن يدخل في ذلك الهيكل وينفذ مهمته ويخرج مودعاً حراس البرج، يطمئن بلابله. صافح جاك روسمر وطمأنه: فلديهم من الوقت ما يكفي للوصول إلى «بيراكروث» في الوقت المناسب. خرجت نتاليا تحمل كوب الشاي فشكر لها جاك ذلك. كان المرتد ينظر إلى الجميع، لكنّه لم يعاود الكلام إلّا حين جلس على الدكّة الخشبية.

- قالت لي سيلفيا إنّ حضرتك بلجيكي- قال، وهو مركّز على جاك.

- صحيح، لكنّي عشتُ طويلاً في فرنسا.

- وتفضّل الشاي على القهوة؟

ابتسم جاك وحرك رأسه.

- في الواقع أنا أفضّل القهوة، لكن بما أنّهم عرضوا عليَّ الشاي...

ابتسم المرتد.

- وكيف أنّ اسمك الآن هو جاكسون؟ سيلفيا أخبرتني بشيء عن هذا، لكنّي مع الأشياء الكثيرة التي في رأسي...

لاحظ جاك أنّ آثتيكا يعود من أقفاص الأرانب، فطقطق له بأصابعه ليجلب انتباهه، لكنّ الكلب لم يعره بالاً وبحث عن مكان مريح له بين ساقي العجوز، الذي بدأ، لاإرادياً، يحك له رأسه وما خلف أذنيه.

- لديَّ جواز سفر مزوّر باسم فرانك جاكسون، مهندس كندي. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للخروج من أوروبا بعد إعلان التعبئة العامة. لستُ مستعدّاً لأن أموت في حرب هي ليست حربي.

وافقه العجوز وتابع هو الكلام:

- ما كانت سيلفيا تريدني أن آتي إلى هنا بسبب ذلك الباسبورت. في الواقع، إقامتي في المكسيك غير قانونية وهي تفكر أنّ ذلك يمكن أن يلحق الضرر بحضرتك.

- ما عاد هناك ما يضرني - قال المنفي-. بعد كلّ ما حدث قبل أيام، صرتُ، كلّما نهضتُ من الفراش صباحاً، أرى أنّني أعيش يوماً إضافيّاً. في المرة القادمة لن يفشل ستالين.

- لا تقل هذا، ليف دافيدوفيتش - تدخل روسمر.

- كل هذه الأسوار وهؤلاء الحرس مجرّد مشاهد، صديقي ألفريد. إن لم يقتلونا قبل أيام فلمعجزة حدثت، ويعلم ستالين لماذا. لكنّ ما حدث كان الفصل قبل الأخير من هذه المطاردة، أنا متأكد من ذلك.

امتنع جاك عن التدخل. حرك بمقدمة حذائه حجيرات كانت تبرز من الرصف الحجري. إنّه يعلم أنّ المرتد على حق، مع ذلك فقد كان يقلقه هدوؤه وهو يعبّر عن تلك القناعة.

تحدث الرجلان عن الوضع في فرنسا وتوقعا سقوطها الوشيك في أيدي الجيش الألماني، وحاول المرتد أن يقنع الآخر بالبقاء، لكنّ روسمر أكّد أنّه راغب في العودة أكثر من أيّ وقت مضى.

- لقد صرتُ أنانيّاً قديماً- قال المنفي، وكأنّه يركز على المداعبات التي يمنحها للكلب-. لا أريد أن تذهبوا. فأنا أعيش وحدة تزداد يوماً بعد يوم، من دون أصدقاء ومن دون رفاق ومن دون أهل... لقد أخذهم ستالين جميعاً.

رفض رامون الاستماع إلى كلامه وحاول أن يركز انتباهه في كراهيته للعجوز وفي قفاه، لكنّه فوجئ إذ اكتشف أنّ شعوراً غامضاً من التفهم

يجول في ذهنه. وخمّن أنّ من الخطورة أن يتخفّى بجلد جاك مورنارد لشهور طويلة، ويتقنّع بقناعه لوقت أطول.

***

صار صمت توم غطاءً كثيفاً يجثم على إرادة رامون. منذ أسبوعين وهو لا يتلقى أيّ خبر منه ولا أيّ توجيه. ومع مرور أيام الخمول، بدأت خشيته من أن تكون العمليّة، عقب فشل هجوم المكسيكيين، قد أجّلت أو ألغيت تزداد شيئاً فشيئاً. ظلّ في كابينته بمُجمّع السيّاح مشغولَ الفكر، محاولاً أن يقنع نفسه بأنّه في وضع يؤهله لإنجاز مهمته، وأن ما من شيء يقف الآن في طريقه بعد أن أنجز المرحلة الأكثر تعقيداً من عمله، وهي الدخول إلى معبد تروتسكي. كان يعلم أنّ في إمكانه، بل من واجبه، أن يسيطر على أعصابه، وقد أفلح في الواقع في السيطرة عليها حين كان بالقرب من المرتد، وإن خانته حين خرج من حصن كويواكان وخفّت حدّة التوتر: فقد أخطأ مرتين الطريق إلى «بيراكروث»، مما دعا نتاليا سيدوفا إلى سؤاله إن كان سافر إلى تلك المدينة من قبل.

- يبدو أنّني شارد بعض الشيء - قال، بكل صراحة تقريباً-. أنا لا أهتمّ كثيراً بالسياسة، لكنّ السيد تروتسكي فيه شيء... لقد حكت لي سيلفيا عن ذلك.

- لقد أصابتك نفخة تروتسكي في قفاك - علّق ألفريد روسمر، وحدثه، مبتسماً، عن أعراض تلك التعويذة التي تسبب الشلل، وكيف أثّرت، على سبيل المثال، في شخص صلب وواثق من نفسه مثل أندريه برتون.

في العاشر من حزيران، حين رفع سماعة التلفون وسمع صوت معلمه، أحسّ رامون بيديه ترتعشان وهو يتلقّى الأمر بالسفر في ظرف يومين إلى نيويورك. ما الذي يجري؟

- أحمل معي كلّ أشيائي؟ - سأل.

- ما هو ضروري منها. أبقِ على الكابينة. ستذهب مدام روبرتس لأخذك إلى المطار - قال توم ووضع السماعة من دون وداع.

إنّهم يأمرونه بترك حاجياته، فهذا معناه أنّ العملية ما زالت قائمة: تغيّرت حالته المعنوية في الحال، وبينما كان يعزل الملابس التي سيرسل بها إلى المصبغة، أخرج من الحقيبة، التي أبقى عليها مقفولة بالمفتاح، فأس متسلقي المرتفعات. أخذها بين يديه، عاد إلى التأكد من وزنها، جرّب الضرب بها ثلاث مرات أو أربعاً في الهواء، وتحقق من أنّ تلك الفأس يمكن أن تكون سلاحاً مثالياً. لم يكن يعيق حركته نحو الأسفل إلّا طول المقبض، الذي كان يمنعه من ثني معصمه بحرية لحظة تنفيذ الضربة، لكنّ قطع جزء من تلك الخشبة سيكون كفيلاً بحل تلك المشكلة. لكن، ماذا سيفعل بالفأس أثناء غيابه في نيويورك؟ إنّ من الخطورة تركها في الكابينة، عرضة لفضول عاملات التنظيف. قرر البحث لها عن مخبأ. في مقدوره الحصول على فأس مثلها من أيّ محل لبيع الأدوات الرياضيّة، لكنّه يشعر بأنّ تلك الفأس هي فأسه.

في صباح اليوم الثاني عشر، وبعد الاتفاق مع هارولد روبنس، أخذ «البيوك» وتوجّه إلى كويواكان. كانت إحدى سيارات البيت قد تعرضت للكثير من الصدمات حين فرّ المهاجمون بتلك السيارات، لذلك قرر أن يترك لهم سيارته مدة غيابه في نيويورك، ليتمكنوا من استخدامها لأيّ طارئ يطرأ. حمل حقيبته في صندوق السيارة ومرّ بمكتب المُجمّع السياحي فسلّم المفاتيح وسدد بقية إيجار شهر حزيران مقدماً. قطع بسيارته مسافة كيلومترين عن المجمّع ثمّ انحرف إلى طريق ترابي كان سار فيه في مرات سابقة، وبين عدد من الأحجار المساميّة الموضوعة على أحد جانبي الطريق أخفى الفأس.

كان جاك كوبر في انتظاره لأخذه إلى المطار والعودة بالسيارة إلى كويواكان، كما جرى الاتفاق. خرج جميع الحراس، باستثناء هانسن،

الذي كان في تلك اللحظة في البرج الرئيس، إلى الشارع لوداعه: جاكسون يأمل أن يعود في أقرب وقت، فكلّ شيء يدل على أنّ السيد لوبيك ينتظر أعمالاً واعدة في البلاد، والفضل في ذلك يعود إلى الحرب. في تلك الليلة، حين بدأ الظلام يحلّ، هبطت الطائرة التي كان الكندي فرانك جاكسون يستقلّها في مطار نيويورك.

لا يذكر رامون المرة الأخيرة التي أصيب فيها بحساسية بسبب لقائه بكاريداد. استقبلته أمّه، وهي ترتدي ملابس أنيقة تليق بالسيدة روبرتس، بالقبلة المقلقة المعتادة، وعلم رامون أنّها كانت تشرب كونياك. روبرتس ينتظره الساعة التاسعة في مطعم من مطاعم «مانهاتن»، قريباً جدّاً من «السنترال بارك»، قالت كاريداد، وأبلغته في الحال أنّ كلّ شيء يوشك أن يبدأ.

- أنا خائفة، رامون - قالت المرأة، باللغة الكاتلانية، التي يصعب على سائق التكسي ذي الملامح الإيرلندية أن يفهمها.

- الخوف من ماذا، كاريداد؟

- خوف عليك.

- كم لديَّ من احتمالات الخروج بحسب توم؟

- سيقول لك إنّه يعطيك ثمانين بالمئة. لكنّ توم يعلم أنّ ليس لديك أكثر من ثلاثين بالمئة. هو يريد أن يقنعك بالعكس، لكنّه لن يستطيع خداعي. سيقتلونك...

- وهل أدركتِ ذلك للتوّ؟

فكّر رامون في كلمات أمّه. كان يعلم أنّها قادرة على أن تقول له الحقيقة قدر ما هي قادرة على أن تكذب عليه لتجعله يتراجع لتحميه، على طريقتها الغريبة، وتتحكم فيه. لكنّها هي من دفعته في ذلك الاتجاه، فلماذا تحاول ثنيه الآن، وهي تعلم أنّ التراجع ما عاد ممكناً؟ اقتنع رامون بأنّه لن يفهم تناقضات أمّه أبداً.

- أعلمُ أنني سأتمكّن من الخروج - قال رامون-. لقد كنتُ هناك

وسأستطيع الخروج إن حصلتُ على دعم. احرصي على أن تضمني لي ذلك، أمّا الباقي فاتركيه لي.

– لن أتحمّل أن يقتلوك – قالت كاريداد، وحوّلت بصرها نحو نوافذ الجادة الخامسة المزجججة المضاءة، التي طالما رفرفت فيها الأعلام الأمريكية. كانت تلك الأعلام وذوو اللباس العسكري، الذين يشاهدون من حين لآخر، هم الإشارات الوحيدة الواضحة على الحرب، البعيدة جدّاً عن سكّان نيويورك.

– أحقّاً إنّ واحداً منّا يهمكِ إلى هذا الحد؟ – كان رامون، ربّما من تيقنه بأنه قد يموت قريباً جدّاً، يشعر بالتفاهة والقوة–. لم أكن لأتخيّل هذا أبداً. أما عدتِ تفكرين في أنّ القضية فوق كلّ شيء، بل فوق الأسرة؟ هل أصابكِ الضعف؟

تركا الحقيبة في فندق جادة «لكسنغتون» ودعته كاريداد إلى الذهاب سيراً إلى المطعم، على مسافة سبع بنايات أو ثمانٍ. كان برد ليل حزيران لطيفاً منعشاً، لذلك حمل هو معطفه على ذراعه. كانت كاريداد تسير قريبة منه حتّى إنّ كتفيهما طالما تلامسا، فصار من الصعب عليهما أن ينظرا إلى بعضهما وهما يتكلمان.

– أفكّر أحياناً أنّ ما كان عليَّ أن أحشرك في هذا – قالت.

– هل لك أن تخبريني أيّ شيطان يركبك الآن؟

– لقد قلتُ لك السبب، اللعنة! أنا خائفة.

– من يتصوّر هذا! – قال رامون بسخرية، ولزم الصمت للحظات.

– لا تكن غبيّاً، رامـون. فكّر قليلاً. ألا تستغرب ألَّا يستطيع المكسيكيون أن يقتلوا أحداً مع كلّ الرصاص الذي أطلقوه؟

ظنّ رامون أنّ لتلك الكلمات معنى ظلّ يقلقه منذ اليوم الذي وقع فيه الهجوم، لكنّه فضّل ألَّا يشرك كاريداد بشكوكه حول ما حدث في ذلك الفجر.

كانت أجواء المطعم أجواءً حقيقية ذكّرت رامون بالمكان الذي التقى فيه، قبل عامين، مع جورج مينك في باريس. استقبله روبرتس بالعناق، كما يستقبل الصديق القديم والعزيز. وجرياً على عادته فقد حثّ كاريداد ورامون على تناول الأطباق التي يعتبرها الأطيب، واختار نبيذ «شاتو لافيت- روتشيلد 1936» الشهي، ذا العطر الرقيق الذي يترك في الحلق مذاقاً خفيفاً له طعم البنفسج، الذي أعاد رامون إلى ذكريات عن حياة باتت دفينة. نبّه روبرتس إلى أنّهم لن يتحدثوا عن العمل أثناء ذلك العشاء، لكن صعب عليهم التهرّب من الموضوع الذي جمعهم. بحسب آخر الأخبار فإنّ الألمان يقفون على أبواب باريس، وإنّهم سيختمون مسير دباباتهم وقواتهم ببلوغ الحقول الفرنسيّة الشاسعة. السوفييت، كما قال روبرتس، لن يقفوا مكتوفي الأيدي، وهم يستعدون لاستكمال تحصين حدودهم باحتلال جمهوريات البلطيق. تلك هي الحرب، قال.

في صباح اليوم التالي، مرّ روبرتس بالفندق الذي يقيم فيه فرانك جاكسون ليسافرا إلى «كوني آيسلند». لقد فضّل الرجل ألّا تكون كاريداد معهما وشكر له رامون ذلك. أمام البحر، الذي حلّقت طيور النورس فوقه، فتح روبرتس قبة قميصه وحرّك مؤخرته على خشب الدكّة. بدا وكأنّ هدف الرحلة لم يكن غير رغبته الدائمة في التعرّض للشمس.

- لماذا لم تتصل بي قبل سفرك ولم تقل لي شيئاً؟

- يا فتى، ليست لديك فكرة عمّا جرى لي في هذه الأيام.

لقد اضطره فشل هجوم المكسيكيين إلى إجلاء أشخاص عديدين ممن شاركوا في التحضير للضربة، ومن بينهم غريغوليفيتش وفيليب. ثمّ كان عليه أن يعدّ تقريراً مفصلاً وإرساله إلى موسكو وانتظار تعليمات جديدة.

- هل تتصوّر ستالين حين يكون منزعجاً جدّاً، جدّاً؟ هل تتصوره وهو يطلب دماء وقلوباً ورؤوساً وخصى، بما فيها خصيتاك، أقصد

خصيتيّ؟ - قال ومدّ يده بين ساقيه وكأنّه يريد أن يتحقق من وجود خصيتيه في مكانهما-. كان عليَّ أن أقنعه بأن الفشل لم يكن ذنبنا وبأنّ الفوضى السياسية لن تضرنا على أيّة حال.

- ولماذا أخفق الأغبياء؟

أبعد روبرتس نظره عن الشمس وحدق في رامون.

- لأنّهم مجموعة من الأغبياء والجبناء أيضاً. لقد تصرفوا وهم خائفون. سكروا قبل الدخول إلى البيت. ظنّوا أنّهم ذاهبون إلى فيلم من أفلام الفرسان المكسيكيين، وبأنّ الأمر ينتهي بإطلاق الكثير من الرصاص. حاول فيليب أن يرتب الأمر، ولكن ماذا عساه يفعل وحده مع أولئك الحيوانات المخمورين الخائفين؟ ما جرى كان كارثة. لم يستطيعوا حتّى حرق أوراق العجوز. من كان يفترض أنّه قائد العملية قال إنّه كان ينتظرهم في الخارج، أمّا من كان لديه الأمر بالدخول إلى البيت وقتل ذكر البط فكان من أوائل الذين خرجوا راكضين ما إن سمعوا محرك إحدى السيارات يدور. حين أراد فيليب أن يتكفل بالأمر كان أعوانه أنفسهم على وشك أن يقتلوه. جرى تبادلٌ لإطلاق النار وما كان في مقدور أحد أن يقترب من البيت.

- وشيلدون؟

- فعل ما كان عليه أن يفعل، هو لا يتحمل ذنب خطأ الآخرين... سنخرجه من المكسيك حين يمكننا ذلك. إنّه الوحيد الذي يعرف أكثر من اللازم ولا نستطيع المغامرة بأن تلقي الشرطة القبض عليه. - صمت روبرتس مطولاً. أشعل سيجارة-. جاء دورك الآن، رامون. إن لم تنجح فلن نجد، لا أنا ولا أنتَ، في الأرض مكاناً نختبئ فيه. هل أستطيع أن أثق بك؟

تذكّر رامون حواره في ليلة البارحة مع كاريداد والشعور بالتفوق الذي رافقه طوال الوقت.

- كم نسبة من احتمال النجاح تعطيني؟

فكّر روبرتس وهو ينظر إلى البحر ويدخن.

- ثلاثين بالمئة - قال-. وإن قُمتَ بكلّ شيء كما يجب، أظنّ خمسين بالمئة. سأكون صريحاً معك، لأنّك تستحق ذلك وأحتاج أن تعرف ما ستفعله وما ستخاطر به. إن نفذت الأشياء كما يجب فلديك خمسون بالمئة من احتمال الخروج من البيت على قدميك. وإلّا، فقد يقع واحد من أمرين: فإمّا أن يقتلوك في عين المكان، وإمّا أن يسلموك إلى الشرطة. إن سلموك، فستذهب إلى السجن، لكنّك ستحظى بدعمنا حتى النهاية. سنوكل لك أفضل المحامين وسنعمل على إخراجك من السجن بأيّة طريقة. أعطيك كلمتي. أسألك مرة أخرى: هل أستطيع أن أثق بك؟

بحر «كوني آيسلند» يختلف عن بحر «إمبوردا». الأوّل أطلسي مفتوح، تشقّه تيارات عظيمة، والثاني متوسطي دافئ هادئ، فكّر رامون واستنتج أنّه يفضّل شواطئ «إمبوردا». قال، وهو ينظر إلى الساحل وإلى النوارس المضطربة:

- هذه الرمال تبدو وسخة - وأضاف-: نعم. طبعاً سننجز المهمة.

***

تنبّه جاك مورنارد، وهو يحمل باقة من الورد بين يديه، إلى أنّ رامون لم يشتر في حياته ورداً لأيّة امرأة. شعر بالحزن على نفسه، فقد سرقت الالتزامات والصراعات، التي دفعه زمانه إليها دفعاً، منه خفّة الشباب والكثير من ألعاب المهارة في الحب. كان محزناً، في أقلّ وصف، أن يسافر جاك في سيارة أجرة مع تلك الباقة الرائعة من الزهور ليهديها إلى امرأة يستخدمها دمية ويمارس معها الحب وهو مغلق العينين، بينما تكمن مهمة الموت وراء كلّ مداعبة له معها. تذكّر النساء اللائي صادقهنّ رامون في شبابه المبكر: كنّ مثله، بعيدات كلّ البعد عن تفاصيل الرومانسيّة وحركاتها، فقد كنّ جميعهنّ تقريباً منخرطات في العمل الحزبي، ثائرات

مجنونات. وما كان لحبّه الكبير، أفريكا، أن تسمح له بتلك اللفتة، كانت ستصفها بالبالية، وكانت ستجعله يبدو أكثر ليناً وضعفاً في نظرها. ربّما «لينا»، صاحبة العينين الحزينتين... إنّ جاك مورنارد، العارف بتقاطعات القدر التي بات رامون قريباً منها، ليشعر بالحسرة إذ لم يردّ رامون يوماً على إهانات أفريكا، لمجرد حرصه على ذكرى لطيفة، لكنّها مضحكة، إذ اشترى لها وردة أو زهرة داليا أو زهرة قرنفل، من تلك التي يضوع عطرها في أكشاك الزهور في ميدان صار يبتعد شيئاً فشيئاً عن ذاكرته.

أنفقا يومين في مناقشة مختلف الخطط التي راح هو وتوم يفكران بها. تيقن رامون من أنّ الاحتمالات المختلفة تتعقد مع إصرار توم على زيادة فرص تلميذه في الهرب. اتفقا منذ البداية على أنّ إخراج مسدس وإطلاق النار على جبهة المرتد يمثل حلّاً سهلاً، لكنّه مستبعد. وكذا الحال مع سيناريو ذبحه أمام أقفاص الأرانب حيث يشرد ذهن ذكر البط. كان رامون يسأل نفسه، وهما يستبعدان خيارات أو يتناقشان حول أخرى ويراجعانها بتروٍّ وهدوء، عمّا يدفع توم، الذي لا يستطيع أن يضمن مقاصده، إلى تعقيد العملية في سبيل أن يخرج هو حيّاً من المحاولة؟ هل يريده حيّاً لإسكاته بعد إنجاز المهمة؟ هل من الممكن تصوّر قيام رابطة مودة بينهما؟ أم إنّه يخشى أن يضعف ويعترف بالجهة العليا التي أصدرت الأمر بالقتل، ولذلك فهو يبحث له عن وسيلة للهرب؟ ستظلّ أوراق اللعب المطروحة على الطاولة، بكل تأكيد، مقلوبة، تتزاحم في رأسه، بينما يناقش توم معه السبيل إلى بلورة العمل. بات واضحاً أنّ استخدام السم يضمن الهرب لكنّه غير ممكن، على الأقل، بسبب الوقت القصير وضعف العلاقة الحميمة بين جاك والمدان. بقيت الاحتمالات العنيفة الصامتة هي المطروحة: الخنق أو الطعن بسلاح أبيض. من بين هذين الاحتمالين كان توم يميل إلى الثاني، بسبب سرعة تنفيذه. لكنّ الطعن بالخنجر يتطلب أن يتحقق ظرف بالغ الصعوبة: فلا بدّ لجاك مورنارد من أن ينفرد بالمرتد. وعلى فاعلية الطعنة يعتمد صعود نسبة

الثلاثين بالمئة من احتمال الهرب إلى خمسين بالمئة، وحتى إلى ستين بالمئة، قدّرا، وكأنّهما يلعبان البوكر. وماذا عن فأس متسلقي المرتفعات؟ اقترح رامون. حرّك توم رأسه، من دون أن يوافق ولا أن يرفض الخيار: وإن أقرّ بأنّ الفكرة تعجبه بسبب الرمزية التي ينطوي عليها استعمال الفأس. الفأس قاسية وعنيفة ومنتقمة: مزيج قاتل من المنجل والمطرقة، قال. وهل من الممكن أن يدخل إلى البيت مسلحاً بفأس؟ مهما يكن من الأمر، فإن استطاع رامون، بعد تنفيذ العملية، من الوصول إلى الشارع، فإنّ احتمالات النجاة ترتفع إلى ثمانين بالمئة؛ وإن تمكن من الوصول إلى السيارة وتشغيلها، فإنّ توم يضمن له الهروب، ولديهم من أجل ذلك العديد من الطرق والجهات: جوّاً وبحراً وبرّاً؛ نحو غواتيمالا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو كوبا، حيث الأماكن الآمنة. سيتحرك توم الآن لترتيب بعض التفاصيل بينما يعود جاك إلى المكسيك، في ظرف أسبوع، متأبطاً ذراع سيلفيا، وسيقيمان في فندق «مونتيخو» مجدداً.

***

في السابع والعشرين من حزيران، حين وصل جاك وسيلفيا بالطائرة إلى المكسيك، فوجئا بخبر العثور، قبل وصولهما بيومين، على جثة بوب شيلدون في مكان مهجور من صحراء «لوس ليونِس». يقول كاتبو الخبر، وهم ينقلون عن رئيس الشرطة السرية سانجيث سالازار، أنّ الأمريكي مات نتيجة عيارين ناريين أطلقا على رأسه، وقد عثر على جثته مدفونة بالجير الحيّ تحت أرضيّة الكوخ نفسه الذي يظنّ أنّ مهاجمي بيت المنفي الثوري كانوا يختبئون فيه. ما إن قرأ جاك الخبر حتى شعر بتأثر كبير. هل صدر أمر القتل من توم أم من أحد رجاله، أم كان بمبادرة من المكسيكيين؟ هل كان صمت شيلدون أهمّ من حياته؟ هل كان توم يخدعه حين قال له إنّهم سيخرجون شيلدون، وهو عالم بأنّ أحداً لن يعثر على جثته؟

في تلك الليلة، بينما كانت سيلفيا نائمة، نزل جاك إلى الشارع وسار

في جادة «لاريفورما». كانت المدينة في تلك الساعة المبكرة تتحرك بوقع هادئ، لكنّ الشكوك في داخله كانت تغلي. موت شيلدون يحتمل الكثير من القراءات، لكنّ أوضحها هي أنّ معرفة الكثير يمكن أن يشكّل خطراً. وهو، هو بالذات، يعرف الكثير. فماذا لو ذهب في تلك الليلة إلى كويواكان لأخذ سيارته ثمّ توجه صباحاً وسحب النقود المودعة في البنك باسمه؟ لربّما استطاع أن يختفي إلى الأبد في قرية من قرى السلفادور أو في بلدة صغيرة للصيادين في هندوراس ومعه وثائق ثبوتية قانونية لن يكلفه الحصول عليها إلّا القليل من المال. ربّما يستطيع هكذا أن ينقذ حياته، ولكن، هل تستحق تلك الحياة أن يتطلع إليها بينما أبواب التاريخ مشرعة أمامه؟ لا يمكن أن يكون توم قد كذب عليه، ولا شكّ في أنّ توم سيشرح له ما حدث، فلقد درّبه طوال سنوات على تلك المهمة ولا معنى لأن يغامر الآن بمجده، بل وبحياته، بقرار يمكن أن يهدد ورقته الرابحة. لكنّ أيّاً من تلك الاستنتاجات، الواضحة الجليّة، لم تفلح في طرد شبح الشك الذي استقرّ في ذهن رامون ميركادير.

***

كافح جاك مورنارد من أجل أن يستردّ إيقاع حياته المعتاد ويستعيد القوة التي يمدّه رامون بها. صار يودع سيلفيا كلّ صباح بدعوى ذهابه إلى المكاتب التي يدعي أنّه فتحها في بناية «إيرميتا»، وما كان، في الواقع، يراجع غير صندوق البريد الذي يتلقى عليه آخر التعليمات من توم. كان يذهب لمعاينة ذلك الصندوق مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ليعود في كلّ مرّة خائباً ومن دون أيّة رسالة جديدة. أمّا بقية النهار فيكرسه للتجوال في المدينة، وإن كان يميل إلى الاختلاء بنفسه بين أشجار غابة «تشابولتيبيك».

رافق سيلفيا في مناسبات عديدة إلى بيت المرتد، من دون أن يبدي في أيّة مرّة رغبة في تخطي عتبة الباب المصفّح. واعتاد أن يتحادث في الشارع مطولاً مع بعض رجال الحرس، وهو متكئ على سيارته

«البيوك». كان الشاب جاك كوبر هو أكثر من يخرج منهم لرؤيته، فقد كان مهتمّاً بأسرار عمليات البورصة التي كان الخبير بالحياة جاك مورنارد يعمل فيها. وراحت مواضيع من مثل الحرب الأوروبية وضمّ الاتحاد السوفييتي لجمهوريات البلطيق والحاجة إلى دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جنب حلفائها البريطانيين تدخل إلى أحاديثهم من دون شعور تقريباً. كان ذلك الإيمان الذي يوليه أولئك الشباب لخطابات قدوتهم المعكتف يبدو لجاك مؤثراً، بل كان يعجبه أن يسمعهم وهم يتحدثون حول ضرورة تقوية الأممية الرابعة لتعبئة الوعي العمالي حول خيارات الثورة العالمية. ولكي يبدي تعاطفاً أوليّاً نحو قضيّة أصدقائه السياسية، فقد اقترح عليهم أن ينقلوا لزعيمهم استعداده للقيام ببعض العمليات في البورصة التي يمكن، بالمعلومات والخبرة التي يملكها، أن تدرّ أرباحاً مهمة يمكن أن تساعد الأممية التروتسكية ماديّاً.

حين أعلن في الثامن عشر من تموز عن اعتقال ثلاثين من أعضاء الحزب الشيوعي المكسيكي للاشتباه بمشاركتهم في الاعتداء على المنفي، أدرك جاك أنّ تواريخ حظه ستتقرر في الأيام القادمة. لذلك استغرب، في اليوم التالي، أن يجد في صندوق بريده ورقة، غفلاً من التوقيع، تقول: «بما أنّك تحب الغابات كثيراً، فهل يمكننا أن نتجول اليوم عند الساعة الرابعة عصراً؟».

جلس جاك منذ الساعة الثالثة تحت واحدة من أشجار السرو في «تشابوليبيك»، وهي الغابة التي أمرت الإمبراطورة الراحلة كارلوتا بإنشائها قبل ثمانين سنة. كان يمكنه من تلك النقطة مشاهدة الطريق الذي يؤدي إلى القصر الصيفي المنيف للإمبراطور ماكسمليانو، والطريق النازل إلى جادة «لاريفورما». لقد تحوّل الشك المقيم في ذهنه إلى تلهّف واضطر إلى أن يلجأ إلى ما تعلمه جدّه الرقم (13) في «مالاخوفكا»، لاستعادة السيطرة على نفسه والتهيؤ للمحادثة.

عند الساعة الرابعة بالضبط لمح توم. كان يرتدي قميصاً أبيض ذا

عنق ضيّق، يطلّ منه منديل منقط يثير الضحك. أشار إليه من عند الطريق فتحرّك جاك.

- كان عليهم قتله- قال، من دون مقدمات ولا تحيات، وهو ينظر إلى منعطف الطريق. ظلّ رامون صامتاً واستنفر ذهنه كلّه-. لقد خانته أعصابه وأصبح عدوانياً. طلب أن يخرجوه من المكسيك، وهدد بإبلاغ الشرطة واتهامهم بأنّه تعرض للاختطاف... المكسيكيون كانوا يائسين، فلم يفكروا في الأمر طويلاً. في مقدوري أن أؤكّد لك بأنّنا لم نكن على أيّة صلة بالموضوع. لقد قلتُ لك منذ البداية إنّ الأمريكي يمكن أن يكون فعّالاً وإن لم يكن موثوقاً، أمّا أن يستخدموه ثمّ يقتلوه...

فكّر رامون لحظات.

- ليس عليك أن تعطيني كلمتك، أنا أصدقك- قال، ولمس كم كان يتمنّى أن يتلفظ بتلك العبارة، فنطقه بها يمنحه راحة واضحة.

- ليس في مقدورنا أن ننتظر أكثر. بينما المكسيكيون يتبادلون الاتهامات والشرطة تبحث عن اليهودي الفرنسي، سنزيل نحن هذه القذارة.

- متى؟

- موسكو تريد أن يتمّ ذلك في أقرب وقت. كانت حملة هتلر في أوروبا نزهة ريفية، وهو الآن يشعر بقوته ويرى أنّه لا يقهر.

نظر رامون إلى أشجار السرو. صارت كلمات توم تهتزّ في أحشائه. لقد انتهى وقت الانتظار ورسم الخطط وبدأت ساعة الحقيقة: وأحسّ فوراً بأنّ عليه أن ينوء بحمل صعب وباهظ. فهل سيتمكن من تحريكه، بعد كلّ ما عمل عليه لحيازة ذلك الشرف؟

- ما هي الخطة؟ - سأل.

- عليك أن تقابل ذكر البط مرّة أو مرتين. أنت تعرف كيف تفعل ذلك. في تلك اللقاءات ستبدأ بالتودد إليه. الفكرة هي أن تجعله يفكّر في أنّه يستطيع أن يكسبك للتروتسكيّة. اجعله يشعر، من دون مبالغة،

بأنّك معجب به. سنستثمر غروره وهوسه بجمع مناصرين وأتباع. حين تحين الفرصة، قل له إنّك تريد أن تكتب شيئاً حول الوضع العالمي، عن شيء خطر ببالك وأنت تحادثه. سنحضّر مقالاً يلزمه أن يعمل فيه معك. الفكرة هي أن تستطيع أن تكون معه وحدك في مكتبه. إن استطعت أن تحقق ذلك فالبقية سهلة.

- هل تعتقد أنّه سيوافق على استقبالي بمفردي؟

- عليك أن تصل إلى ذلك. فرصك في الهرب ستكون أكثر كثيراً. في ذلك اليوم ستجهز نفسك لعملين: تصفيته واستعمال السلاح للهرب إن كان ذلك ضرورياً.

- بكم قطعة سلاح عليَّ أن أدخل؟

- بالمسدس فربما احتجتَه. الخنجر له.

فكّر رامون للحظات.

- الخنجر سيضطرني لغلق فمه، للإمساك به من شعره... أفضّل الفأس. ضربة واحدة وأخرج...

- لا تريد أن تلمسه؟ - ابتسم توم.

- أفضّل الفأس - ردّ رامون، متهرباً.

- حسناً، حسناً...- قبِلَ الآخر-. في ذلك اليوم سنكون أنا وكاريداد معك. حين تضع قدميك على الشارع وتخرج في سيارتك، سأتكفل أنا بالبقيّة. هل تثق بي؟

لم يردّ. فكّ توم المنديل من على رقبته ومسح به على خديّه.

- سنعدّ لك رسالة لكي تسقطها وأنت تخرج. ستظهر فيها تروتسكيّاً مستاءً أدرك أنّ مثله الأعلى ليس أكثر من دمية مستعد لوضع نفسه تحت أوامر هتلر من أجل العودة إلى السلطة...

شعر رامون بالاضطراب، ولاحظ توم أنّ شيئاً ما لا يسير على ما يرام. أمسك به من ذقنه ليديره نحوه وينظر إلى عينيه: رأى رامون بريقاً متهيجاً في عيني توم.

- أيّها الفتى، نحن نقترب من الهدف... سنكون أنا وأنتَ سادة المجد. علينا أن نحول دون أن يتآمر هذا الكلب ابن الكلبة مع النازيين. فكّر دائماً في أنّك تعمل من أجل التاريخ، ستنفذ حكم الإعدام بأسوأ الخونة، وتذكّر أنّ الكثيرين في هذا العالم يحتاجون إلى تضحيتك. شجاعة رامون ميركادير وكراهيته وإيمانه يجب أن تدعمك. وإن لم تستطع الهروب فأنا أثق بطاعتك وبصمتك. ما عادت حياتك وحياتي على المحك، بل هو مستقبل الثورة ومستقبل الاتحاد السوفييتي.

من عين معلمه، لا من شفتيه، تلقّى رامون الرسالة التي يحتاج إلى سماعها. وبدأت الشكوك والمخاوف التي ساورته في الأيام الأخيرة تتلاشى، وكأنّها تبخّرت بحرارة تلك النظرة، بينما أحسّ بأنّ حياته باتت قريبة من ذروة مجلجلة.

***

فُتح بابُ القدر بفكرة مصدرها نتاليا سيدوفا: فآل تروتسكي يريدون تقديم الشكر لجاكسون على لطفه مع آل روسمر وهداياه المتكررة لسيفا، لذلك فهم يدعونه مع سيلفيا لتناول الشاي معهم. اقترحا التاسع والعشرين من تمّوز، الساعة الرابعة عصراً، موعداً للدعوة، إن لم يكن خطيب سيلفيا مشغولاً جدّاً بعمله. في غرفة فندق «مونتيخو»، راجع جاك دفتره مواعيده الصغير وطلب من سيلفيا أن تتصل بنتاليا: سيكونان مسرورين لتلبية الدعوة. أضاء وجه الفتاة من الفرحة وركضت في الحال إلى التلفون لتؤكّد الموعد.

في التاسع والعشرين من تمّوز، عند الساعة الرابعة عصراً بالضبط، توقفت سيارة «البيوك» أمام حصن كويواكان. ارتدى جاك بدلة صيفيّة، لونها كريم فاتح، بينما أصرّت سيلفيا، على الرغم من الشمس والحر، على ارتداء ثوب أسود: كانت متوترة وسعيدة، بل لقد أنفقت ساعة كاملة أمام المرآة، مجاهدة لتجميل وجهها.

حياهما جاك كوبر من برج المراقبة ومزح جاكسون معه. قال له إنّه

سيعطيه بقشيشاً إن انتبه إلى السيارة. وابتسم رجال الشرطة المكسيكية لهما، بل لقد حياهما العريف ثاكارياس أوسوريا، وهو الأقدم بين المكلفين بالحراسة الخارجية، تحية رسمية تقريباً. فتح لهما هارولد روبنس الباب وقادهما، وهو يتحادث معهما، حتّى الأثاث الحديدي الذي أمرت نتاليا بوضعه في الباحة، عند ظلال الأشجار.

حين خرجت سيدة البيت رحبت بهما بحرارة وقدّم لها الشاب علبة من الشوكولا كان قد اشتراها لها. علم أنّ سيفا، عندما عاد من المدرسة، ذهب لصيد السمك في النهر وأنّ آثيكا ذهب معه كالعادة.

- ليف دافيدوفيتش يطلب عذركم- قالت نتاليا سيدوفا-. فقد طرأ طارئ وهو الآن يكتب عملاً يجب أن يرسله غداً. بعد قليل سيأتي لتحيتكما.

ابتسم جاك مورنارد وشعر بالارتياح. لا يزعجه أن يكون إيقاع التقدم بطيئاً حتّى وإن كان توم يحتاج منه أن يتحرّك للتنفيذ في أقرب وقت ممكن.

بعد أن قدمت الخادمة المكسيكية (هل هي الرفيقة الحزبية المزروعة في البيت؟) الشاي والبسكويت على الطاولة، حكت لهما نتاليا أنّهما كانا قلقين بسبب انقطاع الأخبار عن آل روسمر. فمع النازيين في باريس فإن وضع الأصدقاء بات خطيراً، وكثيراً ما خشيت أن يقع لهما مكروه. هزّ جاك، بخجله المعهود، رأسه موافقاً، وبعد صمت هدد بالبقاء إلى الأبد، قال شيئاً حول الطقس.

- يبدو أنّ هذا الصيف سيكون حارّاً جدّاً، أليس كذلك؟ أتصوّر أنّ حضرتكِ- قال لنتاليا- والسيد تروتسكي تفضلان الطقس البارد.

- حين يشيخ الإنسان فإنّه يجد في الحرّ نعمة. لقد عانينا في حياتنا من البرد حتّى إنّنا نجد في هذا الطقس نوعاً من الهدية.

- إذن أنتما لا تتمنيان العودة إلى روسيا؟

- ما عاد ما نتمناه وما لا نتمناه هو ما يقرر الأشياء منذ وقت طويل. منذ إحدى عشرة سنة ونحن نلفّ في العالم، من دون أن نعرف كم من الوقت نستطيع البقاء في مكان، بل من دون أن نعلم إن كنّا سنستيقظ في اليوم التالي- أشارت إلى الجدران حيث حفرت آثار الطلقات-. من المحزن أن يضطر رجل مثل لييف دافيدوفيتش، كرّس حياته للنضال من أجل المعدمين، إلى العيش هارباً ومتخفياً كالمجرم...

أدّى جاك إيماءة إيجاب، وحين رفع نظره أحسّ بتيار يسري في بدنه: غادر ذكر البط البيت، وها هو ظلّه يظهر أولاً ثمّ بعده شخصه.

- شكراً لك على الحضور، جاكسون. مرحباً سيلفيا الصغيرة.

نهض جاك وبيده قبعته، لا يدري إن كان عليه أن يتقدم خطوة ويمدّ يده اليمنى. أمّا المنفي، الذي بدا شارداً فقد توجّه نحو المكان الذي جلست فيه نتاليا لينتهي الإحراج هكذا.

- أطلب منكم العذر ألف مرّة، وآسف أنّني لا أستطيع البقاء معكم. فعليَّ اليوم أن أنتهي من مقال... هل لك أن تصبّي لي الشاي، ناتوشكا؟

وبينما راحت نتاليا تقدم له الشاي، نظر الرجل إلى حديقته وابتسم.

- لقد تمكنتُ من إنقاذ جميع شجيرات الصبّار. لديَّ بعض الأنواع الغريبة جدّاً. كان أولئك المتوحشون على وشك إتلافها.

- هل قررتما أخيراً أن تقوما بأعمال بناء جديدة؟ - تدخلت سيلفيا، بينما راح المضيف يتناول أولى الرشفات من كوب الشاي.

- ناتاشا تصرّ على ذلك، لكنّي لم أحسم أمري بعد. إن هم أرادوا الدخول ثانية، فهم قادرون على نسف جدار...

- أنا لا أفكّر في احتمال وقوع هجوم آخر مشابه - قال جاك ونظر إليه الجميع.

- ماذا ترى حضرتك، جاكسون؟ - كسر العجوز الصمت.

- لا أدري... رجل واحد. حضرتك نفسك كتبتَ ذلك، الشرطة السوفييتية السرية لديها قتلة محترفون...

نظر إليه المرتد بحدّة، وتوقفت يده بالكوب الذي تحمله على مستوى ذقنه، وسأل رامون نفسه عمّا دعاه إلى قول ما قال. هل هو الخوف؟ هل أراد أن يوقفه شيء؟ فكّر، وجاءه الردّ المعهود نفسه: كلا. لقد قال ما قال لأنّه يحبّ أن يستخدم تلك القدرة على اللعب بالأقدار المكتوبة.

بعد أن أخذ المرتد رشفة من كوبه، تركه على الطاولة وردّ موافقاً.

- معك حق، جاكسون. رجل كهذا لا يمكن إيقافه.

- رجاءً ليوفنوتشيك- تدخلت نتاليا، محاولة تغيير موضوع الحوار المخيف.

- عزيزتي، لا نستطيع أن نفعل كما تفعل النعامة - قال، وهو يبتسم وينظر إلى زائره-. لا تدخن كثيراً، جاكسون. اعتنِ بشبابك الرائع- ولوّح بإشارة الوداع ثمّ أخذ الطريق المؤدي إلى غرفة الطعام وأضاف من هناك-: لا تدعيه يدخن، سيلفيا، فالرجل الشاب المتعافي ليس متوفراً دائماً. هل تسمحون لي؟ طاب مساؤكم...

احمرّ وجه سيلفيا وابتسم جاك، خجِلاً أيضاً. أطفأ سيجارته ونظر إلى نتاليا، التي بدت لطيفة.

حكى جاك مورنارد لهم، وقد خفّت حدّة توتره، قصصاً عديدة عن عائلته البلجيكيّة، إثر تذكره والده، الذي كان يدخن السيكار الكوبي. كلمتهم نتاليا عن المنفى الأول للييف دافيدوفيتش إلى باريس وكيف تعرّفت إليه، وابتسم الثلاثة عندما استذكرت ملاحظة المنفي وهو يعترف لها بأنّ باريس جميلة، لكن أوديسا أجمل بكثير.

- على السيد تروتسكي أن يريح نفسه - قال جاك حين فتر الحديث-. إنّه يعمل كثيراً.

- هو ليس إنساناً طبيعيّاً...- نظرت نتاليا إلى البيت قبل أن تواصل الكلام-. ثمّ إنّنا نعيش ممّا تدفعه له الصحف. لقد وصل بنا الأمر إلى هذا الحد- انتهت، وكان في صوتها حنين وحزن.

حين حلّ المساء ودّع جاكسون وسيلفيا نتاليا، التي كررت اعتذار زوجها ووعدت أن تبحث عن وقت مناسب للقاء آخر. فما عاد لديهم أصدقاء كثيرون. وما عادوا يستقبلون الكثيرين، وستكون هي مسرورة لمعاودة اللقاء بهم في بيتها، بالطبع مع ليف دافيدوفيتش مربوطاً إلى كرسيه، قالت، وصافحت جاكسون وقبّلت سيلفيا مرتين في خدها.

حين وصلا إلى الفندق وجد جاك أنّ المستر روبرتس كان قد اتصل به وهو يترجاه أن يتصل به عاجلاً. طلب من الغرفة رقماً في نيويورك وردّ عليه روبرتس بنفسه.

- أنا جاك، مستر روبرتس.

- هل أنتَ بمفردك؟

- لا. أمرني.

- تعال غداً. أنتظرك عند الساعة الثامنة في بار الفندق «بنسيلفانيا».

- حاضر. قل للسيد لوبيك إنّني سأطير غداً... شكراً جزيلاً، مستر روبرتس.

عاد إلى حيث سيلفيا مبتسماً وقال لها:

- سنسافر لبضعة أيام إلى نيويورك. لوبيك هو من سيدفع.

***

كانت الإقامة في نيويورك قصيرة وأهدافها محددة: لقد انتهى وقت الترتيبات وموسكو تطلب أن تتم العملية في أقرب وقت، مع مراعاة اتجاه الحرب التي سمحت لهتلر بالسيطرة على أوروبا من دون قتال تقريباً. أمّا الجديد الجديد فكان أنّ السيد روبرتس أهدى له معطفاً جديداً غريب التصميم وله ثلاثة جيوب داخليّة.

في السابع من آب عاد جاك وسيلفيا إلى فندق «مونتيخو»، وفي صباح اليوم التالي خرج الشاب، بحجة مقابلة متعهدي بناء مكلفين بإعادة تقسيم المكاتب. توجّه بسيارته نحو المجمع السياحي وبحث عن الطريق غير

المعبد الذي سار عليه قبل أسابيع. كانت كومة الأحجار المسامية التي ترك فأس متسلقي المرتفعات تحتها تقع على يمين الطريق، وبينما كان يتوغل في الطريق سأل نفسه إن لم يكن التبس عليه المكان: كانت الأحجار، وفق حساباته، على بُعد دقيقتين أو ثلاث دقائق من الطريق العام، وها قد سار أكثر من خمس دقائق ولا دليل على مكانها. فكّر في العودة والتحقق من صحة الطريق، على الرغم من أنّه كان متأكداً من الطريق. بدأ القلق يسيطر عليه، لكنّه هدّأ من روعه بأن قال لنفسه إنّ في إمكانه أن يشتري فأساً مشابهة من أيّ محل في المدينة. لكنّ عدم عثوره على تلك الفأس بدا له نذير شؤم. أين عساها تكون تلك الأحجار اللعينة؟ واصل تقدمه، وحين قرر التوقف عن البحث والعودة أدراجه اكتشف الكومة فتنفس الصعداء. صعد فوق الأحجار ورأى بريق المعدن. حين تمكن من إخراج الفأس وأخذها بين يديه، شعر بعلاقة حميمة تربطه بذلك المنخس الفولاذي: كان مجرد حملها يمنحه الثقة والأمان.

أوقف سيارته، وهو عائد إلى المدينة، أمام محل نجارة في كولونيا روما، وطلب من العامل أن ينشرَ ست بوصات من المقبض الخشبي للفأس. نظر إليه الرجل مستغرباً، فشرح له هو أنّه يشعر بثقة أكبر وهو يتسلق بمقبض أقصر. حدد الرجل البوصات الست بالمقياس الشريطي ورسم العلامة بالقلم وأعاداها إليه ليتأكد من أنّ القياس يناسبه. تناول رامون الفأس وحرّكها وكأنّه يغرسها في صخرة فوق رأسه.

- كلا. ما زال المقبض طويلاً. اقطع من هنا - ودلّه على المكان.

هزّ عامل النجارة كتفيه ثمّ توجّه إلى المنشار ونشر الخشبة. صقل الحافات بورق الزجاج وأعادها إلى رامون.

- كم؟

- لا عليك، سيدي.

حشر رامون يده في جيبه وأخرج قطعتي بيزو.

- هذا كثير، سيدي.

– رئيسي هو من يدفع. وشكراً – ودّع.

– لكن التسلق بمقبض قصير كهذا خطير، سيدي. فإن زلّت قدمك...

– لا تشغل بالك، رفيقي – قال وهو يرفع الفأس إلى مستوى عينيه–. تبدو الآن كالصليب، أليس كذلك؟ – ومن دون أن ينتظر جواباً سار حتى الناصية التي ترك فيها سيارته، بعيداً عن نظر النجار.

أخذ طريق «تشابولتيبيك» وتوغل في الغابة. أخرج الكيس الذي وضع فيه المعطف الخاكي، الذي أعطاه توم إياه في نيويورك، من صندوق السيارة ووضع الفأس فيه. سار بين الأشجار، إلى أن وجد مكاناً خمّن أنّه آمن وارتدى المعطف. في الجانب الأيسر، إلى الأسفل من الخصر، كيس طويل وضيّق، على هيئة خنجر تقريباً. على مستوى البطن في الجانب الأيسر أيضاً، جيب أصغر يفصح عن الهدف منه: مسدس متوسط الحجم. في الجانب الأيمن، عند خط الإبط، يقع الجيب الثالث، على شكل مثلث، تتجه زاويته الأضيق نحو الأسفل. وضع رامون الفأس في ذلك الجيب وتأكد من أنّ الفأس، بمقبضها المقطوع، تنزل أكثر من اللازم لسحبها بسرعة. مع ذلك وجد أنّه إن عقد ذراعيه فوق بطنه، فإنّ ذراعه اليمنى ستخفي ارتفاع الآلة، وكان هذا هو المهم. علّق المعطف على ساعده ولاحظ أنّ عمق الكيس يحول دون أيّة حركة. أجرى عدة تجارب ووصل إلى أنّ المرتد إن أدار له ظهره ففي مقدوره هو أن يخرج الفأس من المعطف في ظرف عشر ثوان من دون أن يغيب هدفه عن نظره.

طوى رامون المعطف على ذراعه حيث اقترب من السيارة. لقد غاب جاك مورنارد عن فكره طوال النهار تقريباً، وقد أقلقه ذلك النسيان. فهو سيحتاج إلى وجود البلجيكي وإلى تعليقاته المتعثرة وإلى خجله وإلى ابتسامته الباهتة ليستطيع اجتيار الحواجز التي تقوم ما بين لحظة دخوله أبواب حصن كويواكان ولحظة إخراجه الفأس. لأنّ جاك هو الوحيد القادر على الأخذ بيد رامون في اللحظات المجيدة من حياته.

***

حين التقيا في موسكو، بعد ثلاثين سنة تقريباً، وتكلما عمّا جرى في تلك الأيام وعمّا جرى بعدها، سأل رامون معلمه إن كان تخيّل اجتماع ذلك الحشد من الحوادث أم إنّ ذلك كان من تضافر الصدف لمصلحته. وأكّد له الرجل، بكلّ جدّية، إنّه خطط لذلك كلّه، لكنّ الشيطان تدخل أيضاً لمعاونتهم: فلقد تبيّنت ملامح كلّ ما خطط له قبل سنتين أو ثلاث سنوات، وجرى التنفيذ بطريقة ما كان لأحد أن ينفذها ما لم يكن بتدبير جهنمي، لأنّ الأحداث جرت في النهاية وكأنّ تلك الفأس وذراع رامون وحياة تروتسكي كانت تتجاذب في ما بينها كما تتجاذب قطع المغناطيس...

في يوم الثلاثاء الثالث عشر من آب قررت سيلفيا أن تواجه حرج الذهاب إلى كويواكان لتبلّغ ليف دافيدوفيتش بعدد من الرسائل المهمة التي تلقتها أثناء وجودها في نيويورك. عقب ساعتين، خرجت المرأة من البيت وعلى شفتها ابتسامة. أمّا جاك، الذي كان ينتظرها في الشارع، فقد تحدث برهة مع جميع الحراس تقريباً، مُظهراً قدرة على الثرثرة لم يفهم أولئك الرجال، الذين كان حضور فرانك جاكسون في نظرهم حضوراً أميناً، دلالتها إلّا بعد ذلك الوقت بأيام. بل لقد اتفق مع جاك كوبر على العشاء يوم الثلاثاء التالي، حين تكون زوجه، جيني، قد وصلت من نيويورك. كان جاكسون بالطبع هو من وجّه الدعوة وهو من سيتكفّل باختيار مطعم يوافق هوى جيني.

كانت سيلفيا محقة في شعورها بالسعادة. فعلاقتها بالمرتد كانت تمرّ بمرحلة من التوتر، سببها ميلها نحو المجموعة السياسية الجديدة التي شكّلها برونهام وشاختمان، رفاق ليف دافيدوفيتش القدامى في الولايات المتحدة الأمريكية. مع ذلك، لم يبدُ العجوز مستاءً منها، على الرغم من تحسسه من الانشقاقات، ولا سيّما في وقت مفصلي يحتاج فيه إلى جميع مؤيديه والمتعاطفين معه. بل لقد طلب منها، بعد أن حدثته عن الكلام الذي دار بينها وبين شاختمان في نيويورك، أن تعود بعد

يومين، مع خطيبها، لتناول الشاي، فهو يريد أن يعتذر منه لأنّه لم يستطع في المرة السابقة أن يتفرّغ له.

- أعتقدُ أنّه ارتاح إليك - قالت، وهما يخرجان من جادة «فيينا» المرصوفة بالحجر ويستديران من «موريلوس».

- أتريدين أن أقول لك شيئاً؟ - ابتسم جاك-. كنتُ أحسب أنّ العجوز رجل متكبر ومتعجرف. لكنّي منذ أن تعرّفتُ إليه أرى أنّه شخص عظيم. والواقع لا أفهم كيف خطر ببالك أن تنحازي إلى برونهام وشاختمان.

- أنتَ لا تفهم في هذه الأمور، عزيزي. السياسة معقدة...

- لكنّ الولاءات بسيطة جدّاً، سيلفيا - قال وضغط على دواسة البنزين-. وأرجوك ألّا تحدثيني عمّا أفهم فيه ولا أفهم.

في صباح اليوم التالي انتقل جاك إلى «شارلي كورت»، حيث أقام توم وكاريداد ثانية. استقبلته أمّه بقبلة، ودعته لتناول القهوة التي أعدتها حديثاً، لكنّه اعتذر. كان يشعر بالقلق، وقد حضر فقط لسؤال معلّمه حول الاستراتيجيّة التي سيسيران عليها في اليوم التالي. حين خرج توم من الحمام، ملفوفاً برداء البيت، جلس الثلاثة على كنبات الصالة الصغيرة. أحسّ رامون، وهو ينظر إلى الطريقة التي كان توم وكاريداد يتناولان بها القهوة، بأنّ مسافة بدأت تنشأ بين الاثنين، مسافة غير منظورة، وإن كانت في نظره ملموسة: إنّها المسافة التي تفصل الخط الأول عن أمن مقرّ القيادة.

- ستصطنع جدلاً حول موضوع بورنهام وشاختمان - قال توم حين انتهى من سماع تلميذه-. أنتَ الزم جانب ذكر البط، وقف على طرف النقيض من سيلفيا. ما يتمنّى هو سماعه أنّ هؤلاء المنشقين خونة وأنتَ سترضي رغبته. قل له في لحظة من اللحظات إنّك تريد أن تكتب حول ذلك الانشقاق وحول ما يحدث في فرنسا مع الاحتلال النازي.

- لكنّه يعلم أنّ جاكسون غير معنيّ بالسياسة.

- لكنّه هو معنيّ بها إلى درجة أنّه سيفتح لك باب بيته ثانية. ثمّ إنّه من

العزلة أنّك إن كتبتَ شيئاً في صالحه فسيعاود استقبالك. وعندها تحين فرصتنا. عليك أن تحتاط، ولكن عليك في الوقت نفسه أن تبدو حازماً.

- قد تستغرب سيلفيا ذلك...

- هذه الغبيّة لا ترى شيئاً - أكّد له توم-. إذا سارت الأمور على ما يرام، فيمكنك أن تعود بالمقال إلى كويواكان خلال يومين أو ثلاثة...

تابعت كاريداد الحوار بصمت، لكنّ انتباهها كان يتركز في رامون. كان واضحاً لديها أنّ حماس توم وثقته يصطدمان بفتور ولدها الجليّ.

- سأرتدي ملابسي- قال توم-. أريد أن تتمرّن على المسدس الذي ستحمله يوم الاحتفال.

صبّت كاريداد القهوة لنفسها وقرر رامون أن يتناول فنجاناً. حينئذٍ مالت المرأة نحو الأمام وهمست، وهي تصبّ القهوة له:

- أريد أن أتكلّم معك. هذه الليلة. في فندق «غيللو»، عند الثامنة.

نظر إليها، لكن عيني كاريداد كانتا مثبتتين في صبّ القهوة وفي تقديم الفنجان له.

تأكّد لتوم أنّ مهارات الجندي رقم (13) ما زالت على حالها. أدّيا التمارين في الغابة الصغيرة في «سان آنخل»، وأطلق الشاب على أهداف صعبة وأصاب الهدف ثلاث مرّات من كلّ أربع إطلاقات أطلقها، على الرغم من توتره. كان توم يكلمه من دون توقف عمّا سيحدث بعد انتهائه من الهجوم. طريقة الهروب الأسهل ستكون عن طريق كوبا، حيث سيكون في مقدور رامون أن يضيع بين آلاف الإسبان الذين يكثرون في هافانا وسانتياغو. سينتظره في الجزيرة عميلان، معهما نقود واتصالات لتأمين احتياجاته وحمايته. وقد يكون هو وكاريداد، التي تعشق البلد الذي ولد فيه، هناك وسيجتازون ثلاثتهم الأطلسي. طردت الثقة التي تكلم بها توم، الذي طالما تحققت توقعاته ونجحت خططه، شكوك رامون ومخاوفه، بل لقد اقتنع بأنّ هروبه بات أكثر من ممكن.

***

كان فندق «غيللو»، القريب من ميدان «ثوكالو»، بناءً يعود إلى الحقبة الكولونياليّة، استخدم في الأصل ملجأً للراهبات المبعوثات إلى كنيسة «بروفيسا» القريبة. وقد اعتاد الكثير من الموظفين الذين يعملون في الدوائر الحكومية أن يتناولوا غداءهم في مطعمه. أمّا في الليل فقد كان مكاناً يملأ فيه المقبلون على الحياة والمومسات الراقيات بطونهم قبل أن يخرجوا إلى عملهم الليلي. كان في الفندق صالة واسعة وإضاءة محتشمة والكثير من الطاولات التي غطّيت بالشراشف المربعة. ما إن دخل رامون إلى المطعم حتّى تذكّر أمسية الفرح والانتصار حين دخل، تقوده أفريكا، في مقهى مدريدي قديم للقاء كاريداد بعد حين. إنّه يستطيع الآن أن يتبيّن المرأة عند طاولة منزوية، تدخن وقد أمالت رأسها. حرّك رامون الكرسي فتحركت كاريداد وكأنها استيقظت من سبات.

- لحسن الحظ أنّك وصلت. لقد قلت لكوتوف إنّني ذاهبة إلى السينما، فليس لدينا وقت كثير وأمامنا الكثير مما علينا أن نتحدث فيه... نادت على النادل.

حين اقترب النادل، طلبت منه كاريداد زجاجة كونياك وكأسين وزجاجتين من صودا «تيواكان» وأن يتركهما بهدوء.

- وماذا ستطلبان للطعام؟ - استغرب النادل.

- اتركنا الآن...- كررت المرأة ونظرت إليه بحدّة.

انتظر رامون بصمت أن يأتي النادل بما طلبا وينصرف.

- ما الداعي إلى كلّ هذه السريّة؟

- أنتَ مُقدم على عمل كبير وخطير. ومع أنّك لا تهتمّ بما أفكرُ فيه، فأنا أشعر بأني مسؤولة عمّا ستفعله وعمّا يمكن أن يقع لك، وأريد أن أقول لك بعض الأمور.

صبّت كاريداد كأسين من الصودا وكأسين آخرين من الكونياك. رفعت قليلاً مشروبها وشمّته لثوانٍ وتناولت جرعة طويلة منه.

- اشرب هذا على الأقل- دفعت نحوه بكأس الكونياك-، سيناسبك.

نظر رامون إلى الكأس لكنّه لم يمسّها.

- سأبدأ من الأخير - قالت، وهي تشعل سيجارة-. إن سجنوك فسأقلبُ السماء والأرض من أجل إخراجك، وإن اضطررتُ إلى تفجير السجن. ضع هذا في بالك. كلّ ما أطلبه منك بالمقابل هو ألَّا تخطئ الضربة حين يكون العجوز أمامك، وإن أمسكوا بك، ألّا تقول لماذا فعلتَ ما فعلت ولا تكشف عن اسم من أمرك بذلك. إن ضعفت، فلن أستطيع أن أساعدك، ولن يستطيع كوتوف أن يفعل شيئاً، فعلى صمتك تعتمد حياته وأعتقد حياتي أيضاً، ولا داعي للكلام عن حياتك أنت.

- هل هذا هو ما يقلقكِ؟ ألا أعقّد عليك وجودك؟ - استمتع رامون بفرصته لجرحها.

- لن أنفي أنّك تهمّني، ولكن، صدّقني، ليس هذا هو الأهم. ما لديك إمكانية على فعله يمكن أن يغيّر التاريخ، وهذا نعم مهم - شربت كاريداد جرعة أخرى-. وهذا العالم القذر يحتاج إلى تغييرات كثيرة، وأنت تعلم بهذا - نظرت لثوانٍ إلى كأس رامون التي لم يمسّها-. على سكوتك تعتمد حياتك. انظر ماذا جرى لشيلدون...

- لقد قتله المكسيكيون- قال رامون.

- هذا ما يقوله كوتوف... وليس لنا إلَّا أن نصدق ما يقول.

- أنا أصدقه، كاريداد.

- ما أسعدني بك!- قالت وصبّت مزيداً من الكونياك في كأسها، لكنها لم تعبّه-. استمع إلى ما سأقوله لك. ربّما ستفهم من بعد لماذا نحن في هذا المطعم، نعدّ الساعات التي أمامك قبل أن تقتل رجلاً.

في لحظة من لحظات الحديث، عبّ رامون كأس الكونياك في جرعة واحدة، ومن دون أن يعي كم صبّ فيه عاود الشرب برشفات صغيرة، بينما شعر بأحشائه تموج. ما لم ينتظر سماعه كان قصة الإهانات

والإذلال الذي تعرضت لها كاريداد من طرف زوجها البرجوازي الأنيق باو ميركادير. ومع أنّ رامون كان يعرف شذرات من تلك القصّة، فقد دخلت أمّه هذه المرة في تفاصيل بالغة الفحش، وحدثته كيف كان يجبرها على مرافقته إلى بيوت الدعارة لتتفرج على المشاهد الجنسيّة الفاضحة، وكيف حملها على أن تجرّب المخدرات لأجل أن يلقي بها لاحقاً على السرير ليواقعها صبي مستأجر بينما يواقع هو الصبي، وكيف كان يضربها إن هي رفضت الجماع من الدبر، ويهددها بتفريقها عن أولادها وعن الحياة المتحضرة، وهو ما فعله لاحقاً، بإيداعها في مصحة عقلية، حيث أوشكوا على حملها إلى حافة الجنون وحيث اضطرت عدة مرات أن تشرب بولها كي لا تموت من العطش. كانت تلك هي التجارب التي اضطرت إلى خوضها في زواجها البرجوازي المقدس، وكانت الكراهية هي البذرة التي زرعوها في مركز روحها، مثل خنجر ساخن، والتي ما كانت حرارتها تفتر إلَّا قليلاً، وإلَّا حين تستطيع هي أن توجّه تلك الكراهية نحو أولئك الذين، لدناءة أخلاقهم، يرون في كلّ منحط ومريض، مثل باو ميركادير، رجلاً محترماً موقراً. منذ ذلك الحين انتقمت كاريداد بالأسلحة التي وجدتها في متناول يدها، ولطالما أمضت، حين عادت إلى برشلونه بعد انتصار اليسار الجمهوري في الانتخابات، الليالي، مؤرقة، أمام الشقة المظلمة في شارع «آمبلي»، حيث كان الزوج يسكن آنذاك. لقد تحوّلت فكرة صعود الدرج وتفجير دماغ زوجها بالرصاصات الست التي يحملها البراوننغ الذي كانت تحمله دائماً في حزامها إلى وسواس، ولئن لم تقدم على ذلك، فلم يكن ذلك عن خوف ولا عن شعور بالرحمة: لم تقدم على ذلك إلَّا لأنّها أدركت أنّ افتقاره وتحوله إلى موظف يعمل في خدمة رجال آخرين يمكنهم أن يهينوه ويستغلوه هو العقاب الأشد الذي يمكن لباو ميركادير أن يتلقاه، وسيكون أفضل لو أن عقابه ذاك امتد سنوات كثيرة.

شعر رامون، وهو يسمع كلامها، باختفاء تعاليه البشري والسياسي

على أمّه، الذي بدأ يشعر به منذ وقت طويل. تذكر فصل التسمم الغامض في مطعم «تولوز» ومحاولة الانتحار التي أنقذوها منه هو وأخوه خورخي. لقد بدأ ذلك الكائن الممزق والمعبأ بالكراهية، الذي كانت أمّه، يتشكّل مثل أحجية من «البازل»، بل بدت وكأنّ فيها قطعاً فائضة.

- لو كنتُ شيوعية معيبة منقوصة، رامـون، فذلك هو السبب- واصلت كاريداد الكلام، بعد أن صبّت لولدها جرعة ثالثة وشربت هي رابعة، وخامسة. وسادسة؟-. كراهيتي لن تسمح لي أبداً ببناء المجتمع الجديد. لكنّها أمضى سلاح لهدم هذا المجتمع الآخر، ولذلك جعلتُ من أولادي كلّكم ما أنتم الآن عليه: أولاد الكراهية. غداً أو بعد غدٍ أو بعد يومين، حين تكون قبالة الرجل الذي عليك أن تقتله، تذكّر أنّه عدوّي وعدوّك أيضاً. إنّ كلّ ما يقوله عن المساواة والبروليتارية هو كذب محض وإنّ الشيء الوحيد الذي يطلبه هو السلطة، ليحط من قدر الأشخاص، ليسيطر عليهم، ليجعلهم يزحفون ويشعرون بالخوف، ليدخل فيهم من الدبر، وهو ما يثير أكثر من غيره متعة أصحاب السلطة. وحين تنسف رأس ابن القحبة هذا، فكّر في أنّ ذراعك هي ذراعي: سأكون أنا هناك، أدعمك، ونحن أقوياء لأن الكراهية لا تقهر. اشرب هذه الجرعة، يا فتى! أمسك بالعالم من خصيتيه واجعله يركع. وضع هذا في رأسك: لا تأخذنّك بأحد رحمة، لأنّ أحداً لن يرحمك. أبداً. وحين تكون في ضيق، فلا تقبل أن يشفق عليك أحد: ليس على أحد أن يشفق عليك! أنت أقوى، أنت لا تقهر، أنت ابني، تبّاً!

-26-

في فجر الرابع والعشرين من أيار، وبينما كان الرصاص يتطاير من فوق رأسه، ألهم ليف دافيدوفيتش فكرة: لن يقدرَ الموت على أن يمسّه لأنّ نتاليا تحميه.

في لحظة الإلهام تلك سمع صوت سييفا، وصرخ بخوف مجهول لا مكان فيه لخوفه على حياته: «تحت السرير، سييفا!»، بينما راحت نتاليا تشلّ حركته وتدفع به دفعاً نحو زاوية من زوايا الغرفة. كانت الإطلاقات التي تستهدفه، والتي أنارت الليل بأضوية خاطفة، تصدر من حجرة سييفا، من باب المكتب وعبر نافذة الحمّام. من الزاوية، تمكن من رؤية قنبلة حارقة تُرمى صوب مخدع الحفيد، لكنّه لم يحاول الحركة، فرشقات الرصاص ما زالت تمرّ من فوقهم وتنفش حشو المرتبة. في الجدار، وراء ظهره تقريباً، شعر المدان طوال الوقت بطرق الرصاص الذي يبحث عنه. وأخيراً سمعا أصواتاً، محركات سيارات، الإطلاقات التي تنهمر. نسي في تلك اللحظة قناعته السابقة تقريباً، وراح يفكّر: سيدخلون؛ سيقتلوننا الآن كلينا. ولمّا كان يعرف أن لا خيار أمامه، فقد أغلق عينيه وأطبق ساقيه واستعد لانتظارهم. كم من الوقت؟ دقيقتان؟ ثلاث دقائق؟ سيسأل نفسه من بعد، لأنّها كانت أطول دقائق مرّت عليه في حياته. كان سييفا هو أكبر همّه، وطبعاً نتاليا، التي كانت ستموت بسببه.

لم يستعد ليف دافيدوفيتش إحساسه بالواقع إلّا حين كسر صوت سييفا الصمت. ما إن تأكد أن نتاليا لم تصب بأذى حتى خفّ إلى حجرة

الحفيد فلم يجده، لكنّه رأى على الأرضية بقعاً من الدماء فتوقف قلبه عن النبض. دخل روبنس، في هذه الأثناء، إلى البيت لإخراج القنبلة الحارقة والحيلولة دون وصول النيران إلى غرفة المكتب، فسأل المنفي عن حاله وطمأنه على أنّ سييفا في الخارج، مع آل روسمر. يبدو أنّ الصبي هو الوحيد الذي أصيب، وإن كانت إصابته طفيفة.

في الباحة، وبينما كان الحرس، الذين طاردوا المهاجمين، يعودون، كان قاطنو البيت قد بدؤوا يكونون فكرة عمّا حدث. كانوا بين عشرة وخمسة عشر رجلاً، يرتدون زي الجيش والشرطة: بدؤوا بتحييد العناصر الذين كانوا يحرسون خارج البيت، قطعوا أسلاك منظومة الإنذار المربوطة بأضوية قوية داخل البيت وخارجه، اقتلعوا خطوط التلفون وقطعوا الدورات الكهربائية التي تربطها بشرطة كويواكان. حين دخلت المجموعة المهاجمة إلى الحديقة، قفز أحدهم، وكان يحمل مدفعاً رشاشاً، إلى شجرة، حيث اتخذ موضعاً له وأطلق رشقة من الرصاص على الحجرة التي ينام فيها المعاونون. أمّا بقية المهاجمين فقد توجهوا نحو البيت وفتحوا النار على النوافذ والأبواب المغلقة. وقد حرفت الأبواب المصفحة جزءاً من الإطلاقات عن مسارها، وما زالت آثارها بادية عليها. أكدّ رجال الشرطة والحراس الشخصيون الذين كانوا أقرب إلى المهاجمين أنّ العديدين من هؤلاء كانوا في حالة سكر شديد، لكنّهم كانوا بلا شك يعرفون ما كانوا يفعلون وكيف ينفذون المطلوب منهم: لأنّ تلك الكمية الكبيرة من الرصاص الذي انهمر على السرير لا يمكن أن تكون من عمل الصدفة.

لم يصب المهاجمون أيّاً من الحراس الشخصيين، بل اكتفوا بتصويب السلاح نحوهم، وكان لذلك دلالته في نظر ليف دافيدوفيتش. وجهوا نيرانهم إلى غرفته فحسب وهم يرمون بالقنبلة الحارقة (وكانت انفجارية لكنّها لم تنفجر لحسن الحظ) نحوها، مما يدلّ على أنّ أوراقه وشخصه كانا الهدفين الوحيدين لهم. لكن لماذا لم يدخل أولئك الرجال العشرة

أو الاثنا عشر، ليتأكدوا من أنّهم أنجزوا المهمة، قبل إصدار الأمر بالانسحاب؟ لماذا لم يدخلوا وكانوا يجيدون استخدام السلاح ولم يكن هدفهم إلَّا حياة رجل واحد، وكانوا يسيطرون على الوضع في داخل البيت وخارجه؟ وأيّ نوع من القنابل استعملوا؟ قنابل لا تنفجر؟... بدا له غير منطقي أن تطلق أكثر من مئتي رصاصة، ثلاث وستون منها على سريره، من دون أن تقع إلَّا إصابة طفيفة لحفيده نتيجة رصاصة مرتدة. هل يمكن أن يعود فشل العملية إلى سوء تخطيطها أم إلى حالة السكر التي كان عليها العديد من المهاجمين أم إلى الخوف؟ أم إنّ وراء ذلك شيئاً غامضاً لا يمكن الآن تفسيره وشرحه؟ واصل وسيواصل طرح السؤال تلو السؤال على نفسه، كانت ثمّة روح شريرة، يشمّ رائحتها، تطفو على ذلك الاعتداء الغريب.

فتح المهاجمون البوابات ليهربوا، وصعدوا إلى السيارتين الموجودتين في البيت، وكانت مفاتيحهما فيهما دائماً توقعاً لأيّ طارئ. في وسط الاضطراب عاد أوتو شوسلر، وهو أحد المعاونين، من الشارع ليبلّغ بأنّ المهاجمين أخذوا معهم الشاب بوب شيلدون، وهو أحد الحراس الشخصيين الجدد. تبادل الجميع النظرات وتساءلوا في دواخلهم: اختطفوه أم ذهب معهم؟ وأكّد أحد رجال الشرطة المكسيكية أنّ الشاب جلس خلف مقود إحدى السيارات (تركوا سيارة الفورد على مسافة قصيرة لأنها غطست في وحل النهر وعثر على سيارة الدودج في كولونيا روما)، لكن ليف دافيدوفيتش فكّر في أنّ من الصعب على رجل الشرطة، في تلك الظلمة وفي تلك الحالة من الخوف، أن يتعرف على هوية شخص كان ينطلق في السيارة بأقصى سرعة.

أمّا الغموض الأكبر فيكمن في الوسيلة التي استخدمها المهاجمون لدخول البيت. كان المختفي بوب شيلدون هارت هو المكلف بحراسة الباب الرئيس، وهناك سببان يجعلانه يسمح بدخول المهاجمين من دون التشاور مع رئيس الحرس: إمّا لأنّ شيلدون زرع مسبقاً وكان جزءاً من

قوة الكوماندو، أو لأنّه فتح لشخص مألوف معروف ووجد أن من غير الضروري التشاور وطلب الإذن.

حين وصلت الشرطة، كان لييف دافيدوفيتش ما يزال في رداء نومه. قبل أن يتحدث مع الضابط لياندرو سانجيث سالازار، الذي يعرفه منذ وقت بعيد، والذي كان يشغل منصب مدير الشرطة السرية في العاصمة، طلب أن يسمح له بتغيير ملابسه، وإن نبهه إلى أنّه يعرف هوية المسؤول عمّا حدث، ودخل إلى البيت، حيث رائحة البارود ما زالت تشيع في المكان...

أكّد الجنرال خوسيه مانويل نونيث، مدير الشرطة الوطنية، للييف دافيدوفيتش أنّ الجنرال كارديناس كلّفه بأن يتابع التحقيقات بنفسه، وقد أكّد المسؤول للرئيس أنّهم سيعثرون على المهاجمين وسيعتقلونهم. كرر المنفي على مسامع مدير الشرطة الوطنية ما قاله لمدير الشرطة السرية للعاصمة: فاعل الاعتداء الفكري هو جوزيف ستالين، أمّا المنفذون الماديون فهم عملاء الشرطة السرية السوفييتية وأعضاء في الحزب الشيوعي المكسيكي. إن هم اعتقلوا مسؤولي الحزب، فسيعثرون على منفذي الاعتداء.

لم تعجب تلك الكلمات الجنرال نونيث (وهي ذاتها التي رددها المنفي أمام الصحافة)، كما لم تعجب الكولونيل سانجيث سالازار، الذي تحادث معه لييف دافيدوفيتش عدة مرات منذ وصوله إلى المكسيك والذي بدا له دائماً ذلك النوع من الرجال الذي يدّعي الذكاء، والذي تجد عنده آراءً حول كلّ شيء لأنّه أذكى من الجميع. لقد وجد في ما فكّر فيه سانجيث سالازار هذه المرة ما اعتبره مهيناً، أو موجّهاً لإخفاء قصد ما، فالشرطة تعتقد أنّ الهجوم لم يكن أكثر من هجوم دبّره تروتسكي نفسه لجذب الانتباه واتهام ستالين بمحاولة قتله... لو لم تجبر التجربة المنفي على البحث عن مقاصد أخرى من كل ذلك لاستطاع أن يفهم سبب تفكير سالازار على ذلك النحو: ما حدث ترك هامشاً للشك،

وكان اختفاء شيلدون هي كرزة كعكة الشك. وعلاوة على كلّ ذلك، قال الكولونيل، فهو لا يفهم كيف يمكن أن يبدو العجوز، بعد هجوم على ذلك القدر من العنف، هادئاً ومسيطراً على أفعاله وأفكاره. إنّ من الواضح أنّ الكولونيل لا يعرفه حقّ المعرفة.

كان سالازار، في بحثه عمّا يدعم فرضيته، قد اعتقل المعاونين أوتو شوسلر وشارل كورنيل، بدعوى حاجته إلى استجوابهما لجمع كل المعلومات الممكنة. كما أخذوا الخدم: الطباخة كارمن بالما، التي كانت تبكي حين اقتادوها، وبلين إسترادا، النادلة، وملكيادس بنيتث، صبي الخدمة.

قرأ ليف دافيدوفيتش في الصحف، بين مندهش ومذهول، أنّ الشكوك الأولية تحوم حول دييغو ريبيرا، الذي وصف بأنّه كان قائد الهجوم. أمّا أصل هذه الشكوك فيعود إلى أن من بدا أنّه قائد المجموعة أطلق، بينما كانوا يحيدون الشرطة التي تحرس البيت، هتافات معادية للرئيس كارديناس وأخرى مؤيدة لمعارضه ألماثان. لكنّ تصريحات سانجيث سالازار، التي ألمحت إلى احتمال أنّ الهجوم هجوم ذاتي، أبعدت الكلام عن ريبيرا، واستعملت الصحافة الشيوعية نظرية المؤامرة هذه لتتهم المنفي بمحاولة زعزعة الحكومة وخلق أزمة مع الاتحاد السوفييتي، وهي حجة تناسبهم لكي يؤكدوا على مطلبهم بطرده من المكسيك. لكنّ ما أثار سخط ليف دافيدوفيتش هو إدراكه أنّ سالازار، بروايته تلك للأحداث، كان يحمي نفسه من التقصير الذي يعنيه أن يُحضّر هجوم وينفذ وشرطته السريّة لاهية عمّا يجري ويخطط له.

واصل ليف دافيدوفيتش، على الرغم من الرصاصات الثلاث والستين التي انصبّت على سريره، شكوكه حول أهداف ذلك الهجوم، ووصل به التفكير إلى أنّ الأمر لم يكن أكثر من خدعة، كما حدث في حرائق تركيا، وأنّ الهدف هذه المرة هو تهيئة الأجواء لعمل أخير حاسم. حين حدّث نتاليا بما يفكّر، بدأت هي في الحال باتخاذ تدابير

أمن إضافيّة، ولامها هو على إنفاق المال بهذه الطريقة، فهو يرى بوضوح أنّهم إن أرادوا الدخول فسيدخلون متى أرادوا ذلك. ثمّ إنّه واثق من أنّ الهجوم القادم لن يكون شبيهاً بذاك: فكما حذّره اليهودي الأمريكي في رسالته، فإنّ الهجوم التالي سيكون عن طريق رجل مفرد، محترف، يخرج من تحت الأرض، كفأر الخُلد، من دون أن يستطيعوا هم أن يفعلوا شيئاً لتجنبه.

لم يمضِ سوى أسبوع على الهجوم حين ودّع ليف دافيدوفيتش آل روسمر. وإذا كان له أن يتأسف في وقت آخر على ذلك الفراق الذي يحرمه من قرب أصدقاء طيبين قدامى، فقد شعر في تلك اللحظة بشيء قريب من الفرح والراحة، فقد كان يشعر بالمسؤولية عن حياتيهما وهما معه. لقد انتهى الأمر بالصداقة، وهي من دواعي الرضا الضروري البسيط الذي يحتاجه الإنسان، أن صارت همّاً يثقل عليه، وهو الذي صار يجول بين ذكرى من كانوا أصدقاءه، أكثر من تجواله بين أشخاص قادرين على تحمّل الضغوط والهجمات وعناده السياسي. كم هو مؤلم خط العواطف الذي خلّفه وراءه: لقد مات الكثيرون ميتة عنيفة؛ وتنكّر آخرون له، وبأحط الأساليب؛ وابتعد آخرون عن أفكاره وعن ماضيه وعن حاضره، صراحة أو مواربة. لذلك تساءل إن كان مصير جميع الذين ينذرون أنفسهم لقضايا سياسية هو الموت في عزلة. ذلك هو، في العادة، ثمن التضحية والإيثار، وثمن السلطة أيضاً، وثمن الهزيمة، على وجه الخصوص. لكن، ليس لذلك أن ينسيه ألمه العميق على أصدقائه الذين كان مسؤولاً عن فقدهم بسبب مواقفه المتشددة، حتّى لم يستطع، وقد أعمته أنوار السياسة، أن يدرك الفرق بين ما هو عرضيّ طارئ وما هو دائم مقيم. أمّا أكثر الفخاخ غدراً فقد كان، قال لنفسه، تحويل السياسة إلى هوى قاهر، كما فعل هو، والسماح لمتطلبات ذلك الهوى بأن تعميه حتّى وضعته فوق أكثر القيم والظروف إنسانية. وها هو الآن يعترف، بعد تلك الحياة، وحين لم يبقَ من تلك الفكرة الطوباويّة السامية التي ناضل

من أجلها إلّا القليل، بأنّه خاسر الحاضر الذي ما زال يحلم ويعزّي نفسه بإصلاح ما قد يأتي مستقبلاً.

علم لييف دافيدوفيتش عشية سفر آل روسمر، أنّ الزوجين عقدا صداقة مع خطيب سيلفيا، منذ يوم مرض ألفريد، وأنّ الشاب تبرّع لأخذهما إلى «بيراكروث»، من حيث سيصعدان إلى السفينة التي ستحملهما إلى نيويورك، في طريقهما إلى فرنسا. لقد بدا له جاكسون، كما كان يسمّى ذلك البلجيكي، فتى طيباً بالفعل، وإن بدا له بطيء الفهم. كان صباح يوم السفر يطعم الأرانب أولى وجبات طعامها حين اقترب الشاب منه يسأله عن فصيلة الحيوانات. أحسّ لييف دافيدوفيتش حينها بالانزعاج من وجود غريب في البيت، لكنّه تذكّر أنّ آل روسمر كانا اتفقا معه، ثمّ إنّه استدل من مظهره على هويته. ردّ عليه، وهو ما يزال منزعجاً، وقد أظهر امتعاضه، فابتعد جاكسون بهدوء. بعد ذلك رآه يتحدث مع سييفا، الذي جاء له بهدية، فأحسّ بالندم على ما بدر منه. كان حينها عندما طلب من نتاليا أن تدعوه لتناول الفطور معهم، لكن الشاب لم يوافق إلّا على تناول كوب من الشاي.

بدا له قرار ألفريد روسمر بالعودة إلى فرنسا، بينما النازيون يطرقون على أبواب باريس، موقفاً يتفق وعظمة ذلك الشخص. وكما اعتاد أن يفعل، فقد صافح في ذلك الصباح صديقه وقبّل مارغريت وطلب منهما أن يعتنيا بنفسيهما وانصرف إلى مكتبه، إذ لم يشأ أن يراهما يرحلان: فبعد ما بلغ من العمر، ومع جهاز الجيبيو ذاته يطارده، صار يرى في كل وداع وداعاً أخيراً... أمّا في البيت، الذي ازداد حراساً وازداد توتراً، فقد بدا غياب الزوجين واضحاً.

حين رأى لييف دافيدوفيتش شجيرات الصبار وقد انصبّ عليها جام غضب العدوان، شعر باستياء حقيقي؛ لقد ديس العديد منها بالأقدام، وفقد عدد آخر منها بعضاً من أطرافه، لذلك راح يعمل طوال أيام لإنقاذها وهو عالم بأنّه ما كان ينشد من ذلك غير إعادة شيء من الحياة الطبيعية

للبيت الذي لم يعرف تلك الحياة، والذي سيعيش في حالة حرب دائمة حتى النهاية.

مع ذلك فقد كان في تلك الحوادث ما ترك أثراً إيجابيّاً في نفس المنفي: طبع سيفا. كان عمر الفتى لا يتجاوز الرابعة عشرة، مع ذلك فقد تصرّف برباطة جأش تثير الإعجاب. ما كان يبدو عليه أنّه متوتر، بل كان يقول إنّه ليس قلقاً على نفسه بل على جديه. كان ليف دافيدوفيتش يمرض لمجرد التفكير في أنّ أمراً خطيراً يمكن أن يقع لحفيده. وأنّى له أن يتحمّل وزر إحضاره من باريس لكي يقتلوه في المكسيك. لذلك كان، حين يراه يلعب مع آتيكا، يشعر بحزن شديد أن منحه ذلك المصير، وإن لم يكن عن قصد منه. إن من السخرية أن يكون ناضل من أجل عالم أفضل، بينما لم يمنح المحيطين به غير الألم والموت والمذلّة. أمّا خير شاهد على إخفاقه فهو هذا الطفل المحبوس بين أربعة جدران مصفحة، وهو الذي من حقه أن يلعب كرة القدم في حقل فسيح من حقول موسكو أو أوديسا.

أثمر إلحاح ليف دافيدوفيتش في إطلاق سراح معاونيه عن أمر صدر من الرئيس كارديناس بهذا المعنى فكتب المنفي تصريحاً في محاولة لوضع الأمور في نصابها. إنّه يتّهم ستالين وجهاز الجيبيو - كما اعتاد أن يسمي شرطة الكرملين السريّة- بمسؤوليتهما عن تدبير الهجوم على بيته وعن موت ليوفا وكليمنت في باريس، وإيرون وولف في برشلونه، وإغناس ريّس في لوزان، ويطالب باستجواب الزعماء الشيوعيين المكسيكيين، وخصوصاً لومباردو توليدانو والرسام ألفارو سيكيروس، اللذين اختفيا منذ يوم الهجوم (صار الرسام يدعى «الكولونيل الكبير»، وواصل، منذ عودته من إسبانيا، حيث عمل ناشطاً ستالينيّاً أكثر منه محارباً، المطالبة بطرد المنفي من المكسيك). فهل لدى القضاة المكسيكيين الشجاعة ليفعلوا ما لم يفعله الفرنسيون أو النرويجيون؟ هل سيمسك المحققون ثور الحقيقة من قرنيه؟

وكما كان منتظراً، فقد أثارت الإفادة حفيظة الستالينيين وغضبهم. فنشرت صحيفة «بوبولار= الشعبي»، وهي لسان حال اتحاد العمال، نصّاً وقّعه شخص يدعى إنريكه راميريث، يؤكد فيه أنّ تروتسكي رتّب تمثيليّة الهجوم ليلقي بالتهمة على الشيوعيين، بينما أطلق سيكيروس من مخبئه تصريحاً مفعماً بالسخرية يتهم فيه المنفي بأنّه هاجم نفسه بنفسه. وكان في الطريقة التي تمرّغ بها أولئك الرجال، الذين يسمون أنفسهم شيوعيين، في الكذب واستخدموه للدفاع عن الجرائم، ما أثار اشمئزازه العميق وقرفه.

لكنّ إفادة ليف دافيدوفيتش بلغت الأثر المطلوب حين وجد سانجيث سالازار نفسه مضطراً إلى القبول بوجود دلائل «جديدة» تحمله على نقض فرضيّة الاعتداء الذاتي. لكنّ تلك الأدلة أدخلت من ناحية أخرى فيروس الشك الملعون في المنفي: فمسؤول الشرطة أصرّ على أنّ دخول المهاجمين وإبطال عمل جهاز الإنذار لم يكن ممكناً إلّا بمعونة من داخل البيت، وأنّ الشكّ يحوم حول بوب شيلدون هارت أيضاً.

كان ذلك الشاب قد وصل إلى البيت قبل سبعة أسابيع من وقوع الهجوم. وقد جاء، كما جاء سواه من الحراس الشخصيين الذين خدموا ليف دافيدوفيتش في المكسيك، «مضموناً» من طرف رفاقه في نيويورك، لكنّ سالازار كان يردد أنّ من المستحيل على تروتسكي أن يؤكد أنّ الشرطة السريّة السوفييتيّة لم تعدّ شيلدون ثمّ تدسه بين الحراس. ومع أنّ من غير الممكن دحض منطق رجل الشرطة، فقد ردّ عليه ليف دافيدوفيتش بأنّ من الغريب اعتبار شيلدون مدسوساً. فما لم يقله له، ولن يقوله، هو أنّه لا يستطيع القبول بتلك النظرية، لأنّه بقبولها سيثبت أنّ أقرب مساعديه إليه ليسوا موثوقين، وسيجيز للشرطة السرية السوفييتية أن تنصب الفخ الذي تتمنى نصبه: وهو أن تصوّر موته وكأنّه فعل قام به شخص ذو ميول تروتسكيّة اعتدى عليه بسبب خلاف سياسي.

في خضمّ تلك الاتهامات والادعـاءات والشتائم، اقترح بعض المناصرين الأمريكان على ليف دافيدوفيتش أن يسافر سرّاً إلى الولايات المتحدة حيث يتكفلون هم بإخفائه. لكنّه رفض العرض من دون تفكير: فزمن النضال السري انتهى منذ سنوات وليس من حقه الآن أن يتوارى ليحافظ على حياته، وخصوصاً في وقت يتقرر فيه مصير الحضارة الإنسانيّة: «على رأسي العاري أن يتحمّل حتى النهاية الليل الجهنمي الأسود: إنّه قدري وعليَّ أن أتقبّله»، -كتب لهم-، وهو مصمم على الرجوع إلى وضعه الطبيعي، على الرغم من أنّ مجرد محاولة ذلك كان يبدو له ضرباً من العبث: إنّه يسكن في بيت يذكره بأول سجن دخله قبل أربعين سنة، فالأبواب المدرعة تصدر الأصوات ذاتها. لكنّه يشعر في الوقت نفسه بالقوة والاندفاع، لذلك، حين شعر بالضيق في محبسه، تغلّب على إجراءات حراسه واستأنف سفراته إلى الحقل.

بذلك الدافع، الذي كان يعرف أنّه لن يطول، جلس ليصيغ وصيته. «طيلة ثلاثة وأربعين عاماً من حياتي الواعية كنتُ ثوريّاً»، -كتب-، «وخلال اثنين وأربعين عاماً ناضلتُ تحت راية الماركسيّة. لو تطلّب الأمر أن أبدأ من جديد، فسأعمل على تفادي هذا الخطأ أو ذاك، لكنّ مسار حياتي العام سيظلّ كما هو. سأموتُ ثوريّاً بروليتاريّاً، ماركسيّاً، ماديّاً جدليّاً وملحداً لا يساوم. ليس إيماني بالمستقبل الشيوعي للإنسانيّة أقلّ تأججاً، بل صار اليوم أصلب مما كان عليه أيام شبابي.»

لا شكّ أنّه، في تلك النقطة من الكتابة، رفع بصره عن الورقة، إذ بدا له أنّ تلخيص حياة رجل، بلغ القمّة في زمانه، بتلك الكلمات القليلة، من الغرابة أنّه أوشك أن يضحك، للمرة الأولى منذ أيام كثيرة. هل يمكن التعبير عن كلّ النضالات والمعاناة والنجاحات والمفاخر بتلك البساطة؟ كم تستطيع تماثيل السلطة وألقابها وحماسها ومجدها أن تقاوم ذلك الواقع الذي لا يقبل رشوة ولا محاباة، الواقع الأقوى من أيّة إرادة بشريّة؟ فكّر، وهو يرى زوجه تقترب عبر الباحة لتومئ له بتحية

ولتفتح دفّة الشباك وتسمح للهواء بالدخول إلى غرفة العمل. من مكان جلوسه استطاع أن يرى بقعة العشب التي عند أسفل السور، شجرة جهنمية مزهرة، وصورة جانبية لصبّارات قديمة قدم أرض المكسيك وسمائها، ذات الزرقة الصافية. وضوء الشمس في كلّ مكان. «الحياة جميلة والحواس تحيي حفلتها... لتنظف الأجيالُ القادمة الحياةَ من كلّ الشرور، من كلّ ظلم وعنف، ولتستمتع بالحياة طولاً وعرضاً»، أضاف إلى ما كتبه، داعياً إلى انبعاث حيوي لتلك اللحظة.

لم يتصوّر ليف دافيدوفيتش في حياته أنّ الاستعداد لنهايته عن طريق كتابة وصيّة يمكن أن يمدّه بتلك الراحة الكليّة. حلّ بكلمات قليلة الأمور المادية في حياته: ترك لزوجه، نتاليا إيفانوفا سيدوفا، ما ينتج عن حقوق المؤلف، فالمال الذي قد تدرّه مستقبلاً كتبه هو كلّ المادة التي يستطيع أن ينقلها إليها، وهي المستفيدة الوحيدة الممكنة بعد التصفية الشاملة التي ألمّت بالعائلة. أمّا البيت، الذي استطاعوا في النهاية شراءه، فقد سجّله باسم نتاليا. أمّا وثائقه فقد كانوا باعوها لحمايتها من سطو الجيبيو عليها. لا أكثر. حين فكّر في ما يملك وفي ما ضاع، كانت الخسائر من الكثرة أنّه شعر وكأنّه في الواقع مات منذ سنوات عديدة مضت وما حياته التي يحياها الآن إلّا وقت إضافي، شيء من قبيل المقطع الختامي لقصّة حياته التي ما عاد لإرادته دخل فيها: إنّه يشعر بأنّه يتمتع بجلاء فكر لا يناسب وقته، ولم يحظَ به إلّا ليطلّ على أحداث لم تغلق دورتها مع نهاية البطل.

«عمري ستون سنة وجسمي يريد أن يجازيني على ما فرّطتُ في حقّه. ليته يمنحني نهاية سريعة لا تجبرني على أن أعاني احتضاراً طويلاً، كالذي عانى منه لينين. لكن إن كانت تلك هي الحال، ووجدت نفسي غير قادر على أن أحيا حياة طبيعيّة بقدر مقبول، فأريد أن أحتفظ لنفسي بحق وضع نهاية لحياتي: طالما فكرت في أنّ انتحاراً نظيفاً خير من موت قذر.» لكنّ ليف دافيدوفيتش سيرفض، بلا شك، أن يذكر أن أصل ذلك الإحساس بالنهاية المتربصة بعيد، زمانيّاً ومكانيّاً. فموته، الذي خُطط له منذ سنوات

كثيرة في مكتب من مكاتب الكرملين، هو الآن بين أولويات ستالين، ولكن لا، كما يقول البعض، خوفاً من الآراء التي سيصرّح بها ليف دافيدوفيتش عن شخصيّة ستالين في سيرته التي هي قيد الكتابة: ستالين يشعر بأنّه فوق الكلمات. «لماذا إذن؟» لقد انشغل الدب الجبلي سنواتٍ في تصفية أتباعه ليضمن، وهو الذي كان على الدوام رجل عصابات، ألّا تطلّ من بين الظلام يد منتقمة؛ ثمّ إنّه عزل ليف دافيدوفيتش وهو يعلم جيداً أنّ المنفي سيجد صعوبة أكبر في كلّ محاولة لتزعّم حركة شيوعية جديدة، كما أثبت له الجناح الفقير الذي تمثّل في الأممية الرابعة. لقد بدأ الخطر الأكبر الذي يهدد حياة المنفيّ بالضبط حين أصبحت لدى ستالين قناعة بأنّه استنفد منه كلّ ما يحتاجه لتغذية حملات قمعه داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه. وقرر، شأنه شأن أيّة ماكنة قديمة، أن يرسله إلى مكب الخردة تفادياً لمخاطر أيّ نشاط جديد.

«بعد انتهائي من إرثي المادي البسيط»، عاد إلى الورقة، «أريد أن أنتهز هذه الوصيّة لأذكّر بأنّني، فضلاً عن سعادتي بأني كنت مناضلاً من أجل قضيّة الاشتراكية، فقد حالفني الحظ في أن أتقاسم حياتي مع امرأة من قدر نتاليا سيدوفا، القادرة على أن تمنحني أولاداً مثل ليوفا وسيروجا. لقد كانت، طيلة ما يقرب من أربعين سنة من العيش المشترك، نبعاً متدفقاً من الحنان وكرم الأخلاق. وقد عانت كثيراً. لكنّي أجد بعض العزاء في أنّها عاشت أيضاً أياماً من السعادة. آسف أنّني لم أستطع أن أمنحها أكثر من تلك الأيام السعيدة: يخفف عنّي معرفتي أنّني لم أخدعها، في ما هو جوهري. منذ أن عرفتُها، عرفت هي أنّها ترتبط برجل تقوده فكرة الثورة، ولم أشعر بها خصماً قط، بل كانت دائماً رفيقة درب ورحلة في هذه الحياة، رحلة الكفاح من أجل عالم أفضل»، كتب وانطلقت منه زفرة.

وضع توقيعه على كلّ واحدة من الأوراق، ختمها بالشمع وحاول أن ينسى أنّه كتبها.

***

كان له في دفع زوجه ما يبعث فيه الهمّة لمواصلة دربه. إنّه يعلم أنّها تعاني، لكنّها كانت تعاني بصمت، لأنّ طبعها يمنعها من أن تضعف وتخور: واصلت إدارة الحصن (رفعت الأسوار وصفحت الأبواب والشبابيك بستائر من الفولاذ)، وتنظيم حياة البيت ومساعدة سيفا في استعادة لغته الروسيّة، بينما كانت تواصل انتظار أيّ خبر يطمئنها على أنّ سيروجا ما زال على قيد الحياة، متسلحة بكلّ عناد ورافضة أيّ دليل. حين كان ينظر إلى ناتاشا، في اجتهادها ومثابرتها، ويتذكر مغامراته السابقة، كان يشعر بخجل بارد يسري في جسمه، ثمّ ينتهي باستنتاج مفاده أنّه لم يكن ليرتكب ما ارتكب إلّا بسبب حالة جنون عابر.

وبعيداً عن شخصه فقد كان العالم ينهار هو الآخر: ففي ذلك الرابع عشر من تمّوز لم تصدح موسيقى لامارسييز[147] في ميدان «الباستيل»، فقد كان النازيون يحتلون باريس. كان الحملة من السرعة أنّ الألمان لم يحتاجوا إلّا إلى تسعة وثلاثين يوماً ليحطموا كبرياء فرنسا. لم يكفّ ليف دافيدوفيتش عن التفكير في ألفريد ومارغريت، إذ لم تكن لديه فكرة عمّا يمكن أن يقع لهم مع بقية أتباعه الفرنسيين (لم يتلقّ من إيتان، الذي ما زال ولاؤه علامة استفهام، أيّ خبر في الأسابيع الأخيرة وهو يظنّ أنّه غادر باريس، مثل آلاف الأشخاص). لكنّ أكثر ما آلمه كان سماعه البيان الذي أصدره وزير الخارجية السوفييتي، السيّئ السمعة مولوتوف، في دعم الرايخ الثالث، وتحققه من الاتفاق الموقع قبل عام من الزمان بين هتلر وستالين لتقاسم أوروبا، كما أثبت ذلك «ضمّ» جمهوريات البلطيق إلى الإمبراطورية السوفييتيّة.

وكانت عاقبة تلك الغزوات الإمبراطورية أنّ أوروبا العجوز سحقت تحت وطأة الصليب المعقوف الهتلري والمنجل والمطرقة السوفييتيّة. لكن، من منهما سيبادر الآخر بضربة من مخلبه حين تحين الساعة؟ سأل ليف دافيدوفيتش نفسه: ومع أنّه لا يستطيع أن يبدي تشاؤمه علناً،

147- La Marsiellaise النشيد الوطني الفرنسي وهو نشيد الثورة الفرنسية.

فقد كان يتوقّع أنّ أوقاتاً من المعاناة والشدة تقترب من شعبه. ووصل به الأمر، مستعيناً بالتفاؤل القليل الذي بقي لديه، إلى حدّ التفكير في ضرورة تسديد هذا القسط الجديد من الألم لكي يستيقظ البلد ويعود الحلم الثوري إلى سابق عهده.

فوجئ لييف دافيدوفيتش بزيارة الجنرال نونيث والكولونيل سانجيث سالازار، اللذين حضرا ليبلغاه أنّ ثلاثين شخصاً، جميعهم تقريباً أعضاء في الحزب الشيوعي المكسيكي، اعتقلوا بتهمة المشاركة في هجوم الرابع والعشرين من أيار. قدّم سالازار له الاعتذار لأنّه لم يقدم له الأدلة التي استأنف التحقيق على أساسها، فردّ عليه المنفيّ بأنّه إن وجد النتائج تستحق ذلك، فهو لن يعذره فحسب بل سيهنئه أيضاً... على حسن حظّه.

بحسب سالازار، فبُعيد التصريح العلني الذي قدمه المنفي، كان من حسن حظ الشرطة الاستماع إلى شهادة رجل سكير قادتهم إلى مكان من تكفّل بالحصول على البدلات العسكرية وبدلات رجال الشرطة التي استعملت في الهجوم. وحين تتبعوا ذلك الخيط بدؤوا بالعثور على متواطئين، حتّى وصلوا إلى واحد من المشاركين في الهجوم، واسمه دافيد سيرّانو، قادهم إلى امرأتين كانتا مكلفتين بمراقبة البيت ومشاغلة شرطة الحراسة، وإلى رجل يدعى الكابتن نيستور سانجيث، أدلى، عند اعتقاله، بمعلومات مهمة: مَن قاد الهجوم هو الرسام سيكيروس ويهودي فرنسي يبدو أن جميع المعتقلين يجهلون هويته. إنّهم يعلمون أنّ صهري سيكيروس ومساعده أنطونيو بوجول والشيوعي الإسباني روسيندو غوميث، وجميعهم ممن اشتركوا في الحرب الأهلية الإسبانية، متورطون أيضاً في الهجوم. ومع أنّ الإفادات كانت مضطربة فإنّ سالازار يعتقد أنّ اليهودي الفرنسي وبوجول كانا المسؤولين المباشرين عن الهجوم، لأنّ سيكيروس ظلّ خارج البيت، بالقرب من كابينة الشرطة. لقد صدر أمر باعتقال الرسام، لكن ليست لديهم فكرة عن مكان وجوده ويخشون أنّه هرب خارج البلاد. أمّا بالنسبة إلى اليهودي الفرنسي، وربّما يكون

هو من دبّر المؤامرة، فلم يكن على اتصال به غير سيكيروس وبوجول. أقوال المعتقلين متناقضة بشأنه ويؤكد بعضهم أنّه بولوني.

كان ليبف دافيدوفيتش، وهو يستمع إلى سالازار، يفكّر في حجم الدناءة التي حقنتها سطوة ستالين في نفوس رجال كأولئك، ما زالوا مخلصين لأوامر موسكو بعد أن اعتنقوا الفكر الماركسي وارتكبوا خيانات واقترفوا ما اقترفوه في إسبانيا، بل لهم القدرة على إلحاق الأذى بأناس آخرين. أثار ضحكه، في المقابل، جرأة «الكولونيل الكبير» سيكيروس، الذي لم يجرؤ على دخول البيت وقيادة الهجوم وهو الذي رتّب أمر الاعتداء. من المحزن أن يتحول فنان من قامته إلى رجل عصابات من الدرجة الثالثة وإرهابي وكذّاب.

بعد أيام تأكدت أسوأ الفرضيات بخصوص بوب شيلدون حين عثرت الشرطة على جثته مدفونة في مطبخ كوخ في نواحي «سانتا روسا»، في صحراء «لوس ليونِس». في الساعة الرابعة فجراً، وصل مبعوثون من سالازار إلى ليبف دافيدوفيتش يطلب حضوره للتعرف على صاحب الجثة، لكنّ روبنس رفض إيقاظه، وأرسل معهم أوتو شوسلر. عند الصبح، حين حكت له نتاليا ما حدث، طلب الذهاب إلى سانتا روسا، حيث التقى هناك سالازار والجنرال نونيث.

كانت جثة بوب شيلدون مطرحة على منضدة عادية، في باحة البيت. ومع أنّهم غسلوا الجثة فقد كانت بقايا من التراب والكلس، اللذين كانا يغطيانه، عالقة بها. كانت الجثة صحيحة كاملة، وعلى الجانب الأيمن من الرأس ثقبان يدلان على مدخل إطلاقتين. حين رأى ليبف دافيدوفيتش جثة القتيل شعر بحزن شديد، فقد كان على يقين بأنّ بوب شيلدون، بتواطؤ من جهاز الجيبيو أو من دونه، كان ضحية أخرى من ضحايا جنون ستالين وحقده عليه، وأنّ تلك الجثة كان يمكن أن تكون جثة ليوفا، الذي لم يتمكن من وداعه الوداع الأخير، أو جثّة ياكوف بلومكين، أو كليمنت النشيط، أو سيرموكس أو بوسنانسكي، معاونيه القدامى الأعزاء منذ أيام

الحرب الأهليّة، أو ربّما جثة أندريس نين العنيد أو أيرون وولف الظريف، وقد أهلكهم كلهم الإرهاب واغتالهم جنون ستالين الإجرامي. احترم رجال الشرطة صمته وظلوا ساكتين لدقائق. طلب منه سالازار الانتظار قليلاً لإنهاء التحقيق: إنّ موت شيلدون يوكّد مشاركته في الهجوم. لكنّ ليف دافيدوفيتش رفض من جديد القبول بتلك النظرية وطلب العودة إلى البيت. كان يريد أن يكون وحده، مع ذنوبه ومع أفكاره.

ما عاد يشك في أنّ الحظ، أو مقاصد ستالين الخفيّة، قد منحه وقتاً إضافيّاً، وإن كان على قناعة بأنّ ذلك الوقت الإضافي لن يطول. كان مزاجه يتراوح بين العجلة في الانتهاء من المسائل المعلّقة والكآبة الناتجة عن يقينه من أنّ كلّ شيء سينتهي بسرعة وسيبقى عمله وأحلامه في يد المصير المجهول الذي سيأتي مستقبلاً. منذ سنوات كثيرة كان منبوذاً، ضيفاً، عليه أن يتصرّف بما لا يزعج مضيفيه؛ لقد حوّلوه إلى دمية يتمرنون بها على إصابة الهدف من بنادق أكاذيبهم، وجعلوا منه رجلاً وحيداً منفرداً، يتمشّى في باحة مسوّرة في بلد بعيد من دون صحبة غير صحبة امرأة وطفل وكلب، محاطاً بالعشرات من جثث الأهل والأصدقاء والرفاق. ليست لديه سلطة، ليس لديه ملايين من الأتباع، وليس لديه حزب؛ كتبه ما عاد أحد يقرؤها تقريباً: لكنّ ستالين يريده ميتاً، وقريباً جدّاً سيضاف اسمه إلى قائمة شهداء الستالينيّة. سيموت تاركاً خلفه فشلاً عظيماً: ليس فشل وجوده، الذي يعتبره ظرفاً ليس له معنى كبير بالنسبة إلى التاريخ، بل فشل حلم في المساواة والحرية للأغلبية، الذي قدّم له حبّه وهواه... كان ليف دافيدوفيتش، مع ذلك، يثق في أنّ الأجيال القادمة ستنصف ذلك الحلم، بعد أن تتحرر من نير النظام الشمولي، وربّما ستنصف عناده هو في دعمه. لأنّ النضال الأكبر، نضال التاريخ، لا ينتهي بموته ولا بالانتصار الشخصي لستالين: سيبدأ عقب بضع سنوات، حين تتهاوى تماثيل القائد العظيم من على قواعدها، -كتب-.

مع أنّ ليف دافيدوفيتش كان يعلم أنّ عليه أن ينسى ذلك الاعتداء

المكدّر، فقد كان الكشف عن كلّ معلومة تجذبه كما يفعل المغناطيس. بدا أنّ حكاية اليهودي البولوني أو الفرنسي المزعومة قادت الشرطة المكسيكيّة والأمريكية إلى ضابط في الشرطة السوفييتية السريّة له خبرة طويلة ومهام نفذت في فرنسا وإسبانيا واليابان. كان سالازار قد تأكد من أنّ بيتين في كويواكان قد استؤجرا بأوامر من اليهودي ليستخدما قاعدتين في دعم الهجوم. لكن على الرغم من ذلك التقدم في المعلومات فقد كان ليف دافيدوفيتش مقتنعاً بأنّ اليهودي الغامض سيظل لغزاً أبديّاً، وسيظل لغزاً أيضاً ألَّا يتقدم قاتل محترف مثله خطوتين ليدخل إلى الغرفة وينفذ الحكم.

صار التوتر المخيّم على حصن كويواكان كالوحل الذي تغطس فيه عجلة الأيام. فما عاد ليف دافيدوفيتش قادراً على استعادة إيقاع حياته السابق، غير المنتظم أساساً، وإن اعتاد عليه. مع ذلك، فقد صار يهرب كلما سنحت له الفرصة إلى خارج ذلك السجن، بحثاً عن أفق. ووصل إحساسه بالخطر إلى غايته حين أرسل له بعض الأصدقاء الأمريكان صدرية واقية من الرصاص، لكنّه رفض ارتداءها، كما رفض أن يُخضع الأشخاص الذين يزورونه للتفتيش أو أن يكون أحد معاونيه حاضراً أثناء مقابلاته، سواء أكانوا صحفيين أم أصدقاء من مثل نادال، رهله [138] أو آخرين، كانوا يزورونه من حين لحين.

في ذلك الوقت عادت سيلفيا آجيلوف من نيويورك، وبطلب من ليف دافيدوفيتش دعيت لزيارة حصن كويواكان عصر أحد الأيام، مع جاكسون، لشرب الشاي: كان يريد هو أن يشكر لجاكسون اهتمامه بآل روسمر وأن يعتذر عن أنّه لم يستطع الجلوس لشرب الشاي معه قبل أيام بسبب مشاغله. كان اللقاء لطيفاً في تلك المرة، فقد كانوا أكثر استرخاءً. بدت سيلفيا، وهي التي تكنّ احتراماً كبيراً لليف دافيدوفيتش، سعيدة من التفاتته نحوها ونحو صاحبها، بينما حمل جاكسون، الوفي لتهذيبه البرجوازي، علبة من الشوكولا هدية لنتاليا وهدية لسييفا.

بعد ذلك اللقاء، حدّث ليف دافيدوفيتش نتاليا عن جاكسون، الذي بدا له شخصاً مميزاً. قبل كل شيء كان من المستغرب أن يقول، وبلا حرج، إنّ السياسة لا تعنيه البتة، ثمّ حين ناقش سيلفيا حول تعاطفها مع مجموعة شاختمان انحاز إلى ليف دافيدوفيتش ولامها، بشيء من الحدّة، على موقفها اليانكي حين قالت بأن الأمريكان دائماً على حق. قبل أن ينصرفا بقليل، وحين كانوا يتحدثون عن الكلاب، تطرق هو إلى موضوع الحاجة إلى جمع المال لأعمال الأممية الرابعة، فعرض عليه جاكسون خبرته في شؤون البورصة، بل حدثه عن موضوع الاعتماد وعن علاقات رئيسه الثري. في تلك اللحظة، تذكر ليف دافيدوفيتش أنّ أحد معاونيه حدثه عن عرض جاكسون ذاك، وأنه رفضه، لقناعته بأنّه لا يريد الدخول في مضاربات مالية، حتى ولا لدعم أسمى المشاريع السياسية أهدافاً. إزاء ردة فعل المنفي، اعتذر جاكسون، قائلاً بأنه يفهم موقفه. شعر ليف دافيدوفيتش في تلك اللحظة بأنّ في ذلك الرجل شيئاً غير مترابط: قصّة الباسبورت الذي اشتراه في فرنسا لكي لا يشارك في الحرب، استعداده لاستخدام رأسمال رئيس عمله لجعله يكسب مالاً، عدم اهتمامه بالسياسة على الرغم من عمله صحفيّاً وكونه ابن دبلوماسي، استعراضه لإمكاناته المادية... لا، هناك شيء غير مترابط. وعلى الرغم من أنّ المنفي كان يرى أنّ أصل عدم الترابط ذاك يصدر ربّما عن ثرثرته بوصفه برجوازيّاً صغيراً، فقد قال لنتاليا إنّ من المستحسن أن يعرفوا شيئاً أكثر عن جاكسون. الأفضل، أضاف، هو ألّا يعود، مؤقتاً، لاستقباله بعد أن قدم له الشكر على لفتته نحو آل روسمر.

حضر سانجيث سالازار ليخبره بأنهم اعتقلوا سيكيروس في إحدى بلدات الداخل. بحسب مسؤول الشرطة، فقد أبعد المعتقل، الشكس دائماً (والواثق، ربّما علّق ليف دافيدوفيتش، من أنّ أحداً سيخلصه من أيدي العدالة)، ومنذ جلسات الاستجواب الأولى، نفى عن الشرطة السريّة السوفييتية التورط في الهجوم، ونفى مشاركة أيّ فرنسي أو بولوني

في المحاولة. أكّد أن الفكرة صدرت منه ومن أصدقائه عندما علموا، وهم في إسبانيا، بالخيانة التي ارتكبتها حكومة المكسيك في حق البروليتاريا العالمية حين منحت اللجوء لتروتسكي، الطاغية القادر على أن يأمر أتباعه بالانقلاب على الجمهورية وهي منشغلة بالحرب الأهليّة. لكنّهم قرروا تنفيذ الخطة حين بدأت الحرب الأوروبية، لأنّهم اعتقدوا أنّهم بهذه الطريقة سيحولون دون أن يعود الخائن إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية في حال احتله حلفاؤه النازيون. في تلك النقطة وصل ليبف دافيدوفيتش إلى حدّ الابتسام وسأل مسؤول الشرطة إن كان سيكيروس يعلم بأنّه يهودي وشيوعي. أقرّ سانجيث سالازار بأنّ التناقضات واضحة، فقد كان الرسام قد أضاف أنّ هدف الهجوم لم يكن قتله (كنا سنقتله لو أردنا ذلك، كان يردد)، بل الضغط على كارديناس ليطرده من البلد. أكّد أيضاً أنّهم خططوا للعملية من دون علم الحزب، وفي ذلك ما يدعو إلى عدم التصديق بقدر أكبر لأنّ جميع المشاركين في العملية كانوا شيوعيين. الشيء الوحيد الذي بعث الرضا في نفس ليبف دافيدوفيتش من موضوع اعتقال سيكيروس أنّه ظنّ أنّ من المحتمل أن تعقد محاكمة، وسيجد في تلك المحاكمة الفرصة التي حرمه منها النرويجيون في إدانة إجرام نظام ستالين وأكاذيبه في محفل عام.

في عصر السابع عشر من آب، وبينما كان ليبف دافيدوفيتش يتهيأ للتفرّغ للأرانب ولآتيكا، حضر خطيب سيلفيا. كانت مناسبة الزيارة أنّه، بعد الحديث الذي دار بين الفتاة والمنفي، كتب مقالاً حول خروج شاختمان وبورنهام، الزعيمين التروتسكيين الأمريكيين، من الحزب. وذكّره بأنّه أبدى له اهتمامه بالكتابة حول تلك الموضوعات ورغبته في سماع رأي الثوري العجوز في ما يكتب. قال له ليبف دافيدوفيتش، قبل أن يودعه، بأنّه سيراجع مقاله، على الرغم من أنّه لا يتذكر ذلك الوعد.

لا شكّ في أنّ ليبف دافيدوفيتش قد سأل نفسه، في الأيام الأربعة التالية، عن سبب موافقته على استقبال جاكسون إن كان قرر ألّا يراه ثانية.

وربّما قال لنتاليا إنّه شعر بالأسى للبساطة السياسية للشاب ولطريقته هو العنيفة في ردّ عرضه المالي. ومهما كان السبب، فقد سمح للبلجيكي بالدخول إلى مكتبه ليبدأ بقراءة المقال وليقتنع نهائياً بأنّ ذلك الشخص غبيّ: إنّه يكرر أربع أفكار قالها في حديثه مع سيلفيا، ثمّ يقفز للحديث عن الوضع في فرنسا تحت الاحتلال، بلا رابط بين موضوع بموضوع، فأيّ صحفي هذا؟

ظلّ جاكسون طوال الوقت واقفاً وراء ظهر لييف دافيدوفيتش، مستنداً على حافة منضدته، متلهفاً لسماع رأيه ومتطلعاً من فوق كتفه إلى ما كان المنفي يؤشره على النص. وسرعان ما تسبب ذلك الضغط الساخن المسلّط على القفا في فزع المنفي. راح يطوي الأوراق، ثمّ نادى على نتاليا لكي ترافق جاكسون وهو ينصرف. شرح للشاب أنّ عليه أن يعيد كتابة المقال إن كان غرضه نشره. أخذ الشاب الأوراق وبدا وجهه للمنفي وجه كلب مضروب، فعاود لييف دافيدوفيتش الشعور بالشفقة عليه. ربّما كان ذلك هو السبب في أنّه ردّ بالإيجاب حين سأله البلجيكي إن كان يستطيع أن يعود إليه بالمقال بعد إعادة كتابته، على الرغم من أنّه كان يتمنّى أن يردّ عليه بالرفض. مع ذلك فقد أخبر نتاليا، وهما يتناولان العشاء، أنّه لا يريد استقبال ذلك الرجل ثانية: إنّه لا يروق له، ثمّ إنّه لا يمكن أن يكون بلجيكيّاً: فليس لبلجيكي، ذي حدّ أدنى من التهذيب «وهذا ابن دبلوماسيين»، أن ينفخ في قفا شخص لا يعرفه بالكاد.

***

استيقظ لييف دافيدوفيتش، في ما سيكون فجر اليوم قبل الأخير من حياته والأخير الذي أمضاه واعياً، يغمره إحساس من نام كالطفل. فقد كان للحبوب المنومة التي وصفوها له مفعول يمنح الشعور بالاسترخاء، ممّا سمح له بالاستراحة والاستيقاظ بنشاط، على العكس من تلك التي تناولها قبل أشهر، والتي سببت له كسلاً ثقيلاً. أمضى في الصباح وقتاً أطول من المعتاد مع الأرانب، فما إن رآها حتى أحسّ بالوقت الذي مرّ

من دون أن يعتني بها، بعد أن غيّر له الطبيب العلاج ونصحه بالراحة نظراً لارتفاع ضغطه. حاول أن يشرح للطبيب أنّ وجوده مع الأرانب ومع آثتيكا لا يسبب له تعباً، بل يريحه، لكنّ الطبيب أصرّ على ألَّا يقوم بأيّ جهد جسماني، بل لقد منعه من الكتابة. لا شكّ أنّ هذا التيس عضو في جهاز الجيبيو، -قال في نفسه-.

امتد صباح العمل لوقت أطول من المعتاد. فجلس لكتابة مقالة كان قد وعد به رفاقه الأمريكان حول نظريات الانهزامية الثوريّة وطريقة تقبلها في وضعية تختلف عن تلك التي كانت قائمة في عام 1917، مع اعتبار أنّ الحرب الإمبريالية الراهنة، كما صرّح في أكثر من مناسبة، هي تطوّر للحرب التي سبقتها، هي نتيجة لتعمّق الخلافات الرأسمالية، وهو ما يستدعي تأمّل الواقع من منظور جديد.

أمّا الخبر المفرح الذي وصله في ذلك اليوم فقد جاء في برقية حملها له محاميه المكسيكي، ريغوالت، وفيها تأكيد على أنّ أرشيفه أصبح في حرز أمين في مكتبة «هوتون»، التابعة لجامعة هارفرد. جلب له المحامي المذكور أيضاً هدية: علبتين من الكافيار الأحمر. عند الغداء، طلب ليف دافيدوفيتش من نتاليا أن تفتح العلبتين وتولّى هو تقديمها. ما إن مسّ الكافيار حليمات لسانه حتّى شعر بهزّة حملته إلى الأوقات الأولى من الحكم البلشفي، حين انتقل للسكن في الكرملين. لقد أقام هو وعائلته في «بيت الفرسان»، حيث كان يقيم موظفو القيصر قبل الثورة. كان البيت مقسّماً إلى غرف، أقام آل تروتسكي في واحدة منها، بينما أقام لينين وزوجه وشقيقته في غرف يفصلها عن غرفته ممر. أمّا غرفة الطعام فكانت مشتركة بينهم، وكان الطعام الذي يقدم إليهم في العادة رديئاً. لم يكونوا يأكلون غير اللحم المملح، وكان الطحين والشعير المبرغل، المناسبان لعمل الحساء، مليئين بالرمل. كان الشيء الوحيد اللذيذ والموفور، لأنّهم لم يكونوا قادرين على تصديره، هو الكافيار الأحمر. لقد صبغت ذكرى ذلك الكافيار في ذهنه دائماً صورة تلك السنوات

الأولى للثورة، حين كانت المهام السياسية التي تواجههم من الجسامة، وكانوا هم من الجهل بها، أنّهم كانوا يعيشون في دوامة مقيمة، مع ذلك، فقد كان فلاديمير إليتش يخصص، كلما كان ذلك ممكناً، دقائق من وقته للعب مع أولاد ليف دافيدوفيتش. عاد المنفي، منتصف النهار الأخير ذاك، وهو يلتهم الكافيار، إلى سؤال نفسه إن كانت جميع الأحلام الكبيرة محكوم عليها بالفساد والفشل.

بعد قيلولة قصيرة عاد إلى مكتبه، عازماً على الانتهاء من عدة أعمال، لينصرف بعدها إلى مراجعة سيرة ستالين. يبدو أنّه يريد الآن أن يضمّ إلى السيرة الرسالة الأخيرة التي أرسلها بوخارين إلى حفار قبر الثورة، بينما كان ينتظر قرار النقض الذي قدمه. كانت سطوراً قليلة، دراميّة، بل مروعة، أوصلتها له يد صديقة، وما عاد، منذ ذلك الوقت، يستطيع إخراجها من رأسه. ما عاد بوخارين، المحكوم بالإعدام، يطلب منه أن يرأف به، بل يطلب منه توضيحاً: «كوبا[148]، لماذا تريدني أن أموت؟». ألا يعرف بوخارين السبب؟ بلى. لأنّه يعرف لماذا يريدهم ستالين أمواتاً، جميعهم.

استأنف عمله، فسجل بعض الأفكار لمقال يحاول فيه الردّ على الهجمات الشفوية الجديدة التي يوجهها إليه الستالينيون المكسيكيون، لكنّه أضاع للحظة تركيزه وتذكر أنّ جاكسون، خطيب سيلفيا، كان قد أبلغه بأنّه عائد في ذلك العصر ومعه المقال الذي أعاد كتابته. أزعجه التفكير في أنّ عليه أن يقابل ذلك الرجل ويقرأ شريط بديهياته التافه. سأصرفه في دقيقتين ثمّ أضع الترتيب النهائي: لن أستقبله ثانية، وتحت أيّ ظرف، فكّر.

بينما كان ينتظر جاكسون، لاحظ جمال الظهيرة خارج مكتبه. قد يكون الصيف المكسيكي شديداً، لكن لا يمكن أن يكون قاسياً. حتّى في آب، في كويواكان على الأقل، تهبّ نسمات الهواء. أسف ليف دافيدوفيتش

148- Koba هو اللقب الذي كان يناديه به رفاقه المقربون.

أن الشبابيك المطلّة على الشارع مبنيّة، ممّا يقطع عليه تيار الهواء البارد ويحرمه من التطلع إلى الناس وهم يمرّون، وإلى باعة الفاكهة والزهور، بعطورها وألوانها. كان يعلم أنّ خلف الأسوار التي تحيط به حياة طبيعية وصغيرة، تسير متعرّجة، على الرغم من الفقر والحرب والموت، حياة تحاول أن تنظم أمورها شيئاً فشيئاً، حياة طالما رآها امتيازاً كبيراً انتزع منه.

ولما لم يكن سيفا قد عاد بعد من المدرسة، فقد رقد آثيكا عند باب مكتبه. لقد تحوّل الكلب الهجين إلى كلب رائع له جمال مختلف عن جمال مايا الأرستقراطي، لكنّه جمال أخّاذ. من يحبّ آثيكا أكثر، يا تُرى، أنا أم سيفا؟ سأل نفسه: ليتني أستطيع أن أطرح عليه هذا السؤال وأن أقول له إنّني أيضاً أحبّه، وابتسم. تذكر وهو ينظر إلى الكلب أنّ عليه أن يطعم الأرانب. خرج إلى الباحة، لبس القفاز المعمول من نسيج سميك وانشغل فكره لدقائق في النشاط الذي كان ينجزه: أرانبه جميلة أيضاً، فكّر، وشعر للحظات بابتعاده عن آلام العالم. في تلك اللحظة سمع صرير الباب الشبيه بصرير باب السجن: جاكسون، تأكد، بينما راح يلعن اللحظة التي وافق فيها على رؤيته ثانية. سأصرفه في أسرع وقت ممكن، لا شكّ أنّه فكر، وللمرة الأخيرة في حياته داعب ليف دافيدوفيتش الجلد الناعم لأحد أرانبه ووجه بضع كلمات حبّ للكلب الذي كان يرافقه.

-27-

حين اجتاز عتبة حصن كويواكان المصفحة ورأى الطاولة المغطاة بشرشف ذي ألوانَ مكسيكية زاهية في وسط الباحة، شعر بأنّه يستعيد قياد نفسه. لقد تبخّر الغضب الذي صاحبه طوال النهار مثل غبار كنسته الرياح.

عاد رامون ليلة البارحة إلى الفندق وقد استقرّ في معدته مذاق كونياك لزج ومرارة غضب متفجر يدفعانه إلى التقيؤ دفعاً. لقد شعر وكأنّ إرادته وقدرته على اتخاذ القرار بنفسه تبخرتا، وبدأ ذلك الشعور يحاصره ويحمله على أن يرى في نفسه مجرد أداة لتنفيذ مقاصد قاهرة حشرته في آليتها، وسدّت عليه كلّ إمكانية للتراجع. كانت قناعته بأنّه، بعد ثلاثة أيام أو أربعة أو خمسة، سيدخل في تيّار موحل من تيارات التاريخ في صورة قاتل، تحدث فيه مزيجاً وبيلاً من زهو الحزبي الذي يؤدي واجباً كلّف به والاشمئزاز من الطريقة التي سينفّذ بها ذلك الواجب. لقد سأل نفسه غير مرّة إن لم يكن من الأفضل له وللقضيّة لو أنّه قضى تحت سُرفة دبابة إيطالية على أبواب مدريد، كما حدث لأخيه بابلو، قبل أن يرى في مهمته تصفية لكراهية جمعها آخرون وحشرت روحه فيها حشراً.

حين استيقظ في ذلك الصباح كانت سيلفيا قد طلبت الفطور، لكنّه لم يتذوّق غير القهوة، ثمّ دخل إلى الحمّام، من دون أن يتفوّه بكلمة. كانت المرأة قد لاحظت، منذ سفرها الأخير إلى نيويورك، أنّ طبع حبيبها اللطيف بدأ يتراجع، وصار خوفها من تصدّع تلك العلاقة الرائعة يبعث

فيها الرعب. شرح لها أنّ العمل لا يسير على ما يرام، وأنّ ترميم المكاتب يتأخر ويكلف كثيراً، لكنّ غريزة الأنثى كانت تحدّثها بأنّ مشاكل أخرى تثقل روح حبيبها جاك.

ارتدى ملابسه من دون أن يتفوّه بشيء، واستعد للخروج. وراحت هي، بتنورتها التحتانية السوداء، تنظر إليه بصمت، حتّى تجرأت وسألته:

- متى ستخبرني بما يجري لك، عزيزي؟

نظر إليها، بشيء من الدهشة، وكأنّه لم يشعر بوجودها إلّا في تلك اللحظة.

- لقد قلتُ لك إنّه العمل؟

- فقط؟

توقف عن شدّ رباط عنقه.

- هلّا تركتني بسلام؟ هلا سكتِ لحظة؟

بدا لسيلفيا أنّ جاك لم يخاطبها، طوال سنتين من علاقتهما تقريباً، بتلك النبرة العدائية، المليئة بالكراهية، لكنّها فضلت التزام الصمت. حين فتح الباب، قررت أن تعود لتقول له:

- تذكر أنّهم ينتظروننا اليوم في كويواكان.

- طبعاً أذكر - قال هو، وضرب بقوة على صدغيه وخرج.

هام رامون على وجهه في شوارع مركز المدينة. شرب القهوة مرتين، وعند منتصف النهار تقريباً شعر بحاجته إلى جرعة من شراب، فدخل إلى نادي الكيت كات، وتناول، على الرغم من إرادته، كأساً من كونياك «هنسي» الذي انعكست صورة إعلانه من المرآة المعلقة خلف المشرب. عند الساعة الثانية فتح علبة ثانية من السكائر في ذلك اليوم. لم يكن يشعر بالجوع، ولم يكن يريد الكلام مع أحد، كان يريد فحسب أن يمرّ الوقت ويصل الكابوس الذي يلفّه إلى نهايته.

بعد الثالثة بقليل عاد إلى الفندق ليأخذ سيلفيا. وفي الرابعة بالضبط رأى الشرشف الملوّن على الطاولة الحديدية التي سيقدم لهما عليها

الشاي. أحسّ في تلك اللحظة بأنّه يستردّ قدرته على حشر رامون تحت جلد جاك مورنارد.

كان جاك كوبر قد رافقهما حتى الطاولة، حكى لهما نكتتين وأكّد موعد العشاء معهما يوم الثلاثاء، العشرين من آب، وهو يوم استراحته. واتفقوا على اللقاء في المقهى المركزي، عند السابعة، لأنّ كوبر كان يريد أن يستغلّ النهار للتجول مع جيني في منطقة «الثوكالو» والأسواق. وبدا وكأنّ الصمت الذي التزمه جاك حتى تلك لحظة قد زال، ولا شكّ أنّ سيلفيا علّقت في ذلك العصر قائلة بأنّ زيارة البيت المحصن في كويواكان بلسم أزال عنه همومه.

بعد خمس دقائق، خرج المرتد وزوجه من البيت. لاحظ مورنارد أنّ العجوز بدا مرهقاً ونهض لمصافحته، وأدرك وهو يشدّ على يده أنّه يلمس للمرة الأولى البشرة الرقيقة الناعمة للرجل الذي عليه أن يقتله.

- وأخيراً...، جاكسون أم مورنارد؟ - سأله المنفي، وعلى شفتيه المكتنزتين ابتسامة ساخرة وفي عينيه النسريّة بريق قلق.

- لا تكن جارحاً، ليوفنوتشيك- وبخته نتاليا.

- الأسهل إلى حضرتك، سيدي. جاكسون هو اسم عرضي سيرافقني لا أدري إلى متى.

- لوقت طويل - قال العجوز-. فهذه الحرب أمامها عدة سنوات. هل تعلم؟ كلما طالت أكثر، وكانت أشدّ تدميراً وهولاً، ظهرت إمكانيات أكبر في أن يدرك العمال أنّ العمل الثوري هو الفعل الوحيد القادر على إنقاذهم بصفتهم طبقة- قال وكأنّ منصة للخطابة وضعت تحت قدميه.

- وأيّ دور يمكن للاتحاد السوفييتي أن يلعبه في هذا الفعل؟ - تجرأ جاك على سؤاله.

- الاتحاد السوفييتي يحتاج إلى ثورة أخرى، إلى انقلاب كبير اجتماعي وسياسي، وليس اقتصاديّاً - بدأ المرتد-. ومع أنّ البيروقراطية

استولت على السلطة، فإنّ القاعدة الاقتصادية للمجتمع ما زالت اشتراكية. وهذا هو المكسب الذي لا سبيل إلى فقدانه.

سعلت سيلفيا وكأنها تطلب دوراً لها للحديث.

- ليف دافيدوفيتش...، أنا أعتقد، كما يعتقد الكثيرون، أنّ الاتحاد السوفييتي، منذ أن وقّع ستالين معاهدة الصداقة مع هتلر، لا يمكن أن يعتبر بلداً اشتراكيّاً، بل هو حليف للإمبريالية. لذلك فهو يغزو الآن كلّ الشرق الأوروبي.

أوقف وصول الخادمة، التي أتت بالصينية والأكواب وإبريق الشاي وصحن الحلوى، حديث المنفي. وما إن وضعت المرأة الصينية على المنضدة حتى قفز الرجل، كالزنبرك.

- عزيزتي سيلفيا، هذا هو ما ردده المعادون للشيوعية دائماً، وهو ما يردده الآن بورنهام وشاختمان لتبرير قطيعتهم مع الأممية الرابعة. أنا ما زلت أؤمن بأن واجب جميع الشيوعيين في العالم هو الدفاع عن الاتحاد السوفييتي إذا هاجمه الفاشيون الألمان أو أيّة قوة إمبرياليّة، لأنّ الأسس الاشتراكية للبلد ما زالت في حدّ ذاتها تمثل تقدماً كبيراً في تاريخ البشريّة. على الرغم من الجرائم ومعسكرات النفي، وعلى الرغم من المعاهدات... نعم، الاتحاد السوفييتي لديه الحق في الدفاع عن نفسه والشيوعيون لديهم المسؤولية الأخلاقية في الاصطفاف مع العمّال السوفييت للمحافظة على جوهر الثورة... ولكن إن وقع الانفجار الاجتماعي الذي أنتظره وانتصرت الثورة في عدة بلدان، فعلى هؤلاء العمال أنفسهم أن يضطلعوا بمهمة مساعدة رفاقهم السوفييت للتحرر من رجال العصابات في البيروقراطية الستالينيّة. لذلك فمن المهم جدّاً أن تتقوى أمميتنا، ومن هنا أسفي من موقف أصدقائك...

نظر جاك مورنارد إلى نتاليا سيدوفا وهي تقدم الشاي. حرّكت رائحة الحلوى الخارجة توّاً من الفرن للحظة شهيته، لكنّ كلمات المنفي قطعت تلك الشهيّة: لذلك الرجل هوى واحد وحيد، فهو حين يتكلّم

وكأنّه يخاطب الجماهير، مدفوعاً بحماس لا يتناسب وجمهوره القليل، ولكن بمنطق مقنع ومغرٍ. وخلص رامون إلى التفكير في أنّ الاستماع إليه لوقت طويل يمكن أن يكون خطيراً، فاحتمى بالدليل الماثل أمام عينيه من أنّ الباب الأخير أمام تنفيذ مهمته بدأ يتشكّل، وقرر التركيز على فتحه عنوة. فاندفع، في حماس لم تعهده سيلفيا فيه، مدافعاً عن وجهة نظر المنفي وانتقاد موقف بورنهام وشاختمان الوضيع، اللذين انشقا في وقت يستدعي الاتحاد. وردد ما قاله مضيفه، فانتقد ستالين، لكنّه دافع عن فكرة أنّ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية يحافظ على طابعه الاشتراكي، واتفق مع المنفي في الحاجة إلى الثورة العالمية، إلى أن وصلوا في منعطف من الحديث إلى الصعوبات التي تواجهها المقاومة الفرنسية أمام جيش ألماني يسيطر عملياً على جميع أنحاء البلاد.

طلبت نتاليا سيدوفا من الخادمة أن تعدّ إبريقاً ثانياً من الشاي، وفي تلك اللحظة فتحت بوّابة المدخل ودخل الفتى سييفا إلى الباحة يسبقه نباح آتيكا، الذي توجّه نحو المنفي مباشرة، من دون أن يعبأ بالحاضرين. ابتسم العجوز وداعب الحيوان وكلمه بالروسية في أذنه.

- هل تتحدث معه دائماً بالروسية؟ - ابتسم جاك، بعد أن حيّا سييفا، بل وضع ذراعه على كتفه.

- سييفا يكلمه بالفرنسية، في المطبخ يتكلمون معه بالإسبانية، وأنا أكلمه بالروسية- قال العجوز-. ويفهمنا جميعاً. ذكاء الكلاب لغز أمام البشر. أنا أظنّ دائماً أنّها تتفوق علينا ذهنيّاً، فلديها قدرة على فهمنا، حتى بلغات متعددة، بينما لا نستطيع نحن فهم لغتها.

- أعتقد أنّ معك الحق... يقول سييفا إنّ حضرتك كان لديك كلاب دائماً.

- ستالين سلبني الكثير من الأشياء، حتى حريتي في أن يكون لي كلاب. حين أخرجوني من موسكو اضطررت إلى ترك كلبين، وحين نفوني، أرادوا أن أرحل من دون كلبتي المفضلة، وهي الوحيدة التي

استطعت أن أحملها إلى آلماتا. لكنّ مايا عاشت معنا في تركيا وهناك دفناها. معها تعلّم سيفا حب الكلاب. حقّاً إنني أحببت الكلاب دائماً. فطيبتها وقدرتها على الوفاء تفوق ما لدى الكثيرين منه.

- أنا أيضاً أحب الكلاب- قال جاك، وكأنّ به خجل-. لكنّي منذ وقت طويل ليس عندي أيّ كلب. حين ينتهي كلّ هذا أتمنى أن أمتلك اثنين أو ثلاثة.

- ابحث لك عن بورزوي، كلب صيد روسي. مايا كانت بورزوي. إنّها أكثر الكلاب وفاءً وجمالاً وذكاء في العالم... ما عدا آتيكا، بالطبع - قال وهو يغمز بعينه ويداعب أذني الكلب، ليضمه بعد ذلك إلى صدره.

- هل تعلم؟ حضرتك أنك الشخص الثاني الذي يكلمني عن هذه الكلاب. تعرّفتُ إلى صحفي إنكليزي وقال لي إنّ لديه واحداً منها.

- اسمعني جيداً، جاكسون، إن صار لديك في يوم من الأيام كلب بورزوي فلن تنساني- قال العجوز ثمّ نظر إلى ساعته. في الحال ربّت على جنب آتيكا ونهض-. عليَّ أن أنصرف إلى أرانبي ولديَّ عمل متأخر. كان ممتعاً الحديث مع حضرتك ومع سيلفيا العنيدة.

- أتريد أن أساعدك في إطعام الأرانب؟ - تبرع جاك.

ابتسمت سيلفيا ونتاليا، ربّما لأنّهما يعلمان الجواب.

- لا تشغل بالك، شكراً. الأرانب ليست ذكية كالكلاب وهي تتوتر بحضور الغرباء.

- سيد تروتسكي... كنتُ أفكّر...، أقصد أنّني أتمنى أن أكتب شيئاً عن مشاكل الأحزاب السياسية والمقاومة الفرنسيّة. أعرف فرنسا جيداً، لكنّ أفكارك جعلتني أفهم الأمور بطريقة أخرى... هلاّ تفضلت حضرتك بمراجعة ما كتبت؟

نظر العجوز إلى أقفاص الأرانب. بدأ المساء يحلّ. فكّ بحركات ميكانيكية أزرار أكمامه ليشمّر قميصه الروسي عن ساعده.

- أعدك أنّني لن آخذ من وقتك الكثير - واصل جاك كلامه-. ورقتان أو ثلاث أوراق. إن قرأتها حضرتك، فسأكون مطمئناً من أنني لم أرتكب خطأً في التحليل.

- متى ستجلب لي المقال؟

- بعد غد، السبت.

- لا أريد أن تأخذ مني الكثير من وقتي.

- أعدك بذلك، سيد تروتسكي.

نظّف المنفي عدسات نظاراته بحافة قميصه. تقدم نحو جاك ونظر إليه بعد أن لبس النظارات.

- جاكسون...، أنتَ لا تبدو بلجيكيّاً. السبت عند الخامسة. اتني بشيء جدير بالقراءة. طاب مساؤك.

توجّه المنفي نحو أقفاص الأرانب. لم يكن جاك مورنارد، بابتسامته التي تجمدت عند شفتيه، قادراً على الردّ على تحية الوداع. لم يدرك إلَّا في تلك الليلة، وهو يضع ورقة بيضاء في عجلة ماكنة الكتابة، أنّ الرجل الذي عليه أن يقتله نفخ، بكلماته الأخيرة، في قفاه.

***

استيقظ وبه صداع وسوء مزاج. لم ينم إلَّا قليلاً، على الرغم من التعب الذي كلّفته إياه تلك الساعات الثلاث من الجهد، التي لم يستطع في نهايتها إلَّا كتابة فقرتين مضطربتين في ترتيبها غير متناسقتين في أفكارها. فمن أين يأتي للعجوز بما يثير اهتمامه؟ هو الآن واثق بأنّه حلم مجدداً بشاطئ وكلاب تجري على الرمال، وتذكّر أنّه استيقظ في الليل ملتاعاً. لم يهدئه يقينه من أنّ كلّ شيء سينتهي غداً، حين يغرس الفأس في جمجمة الخائن المرتد، بل ملأ روحه قلقاً. تناول مع القهوة حبتين مسكنتين، وحين سألته سيلفيا عن المكان الذي يقصده، همس لها بشيء عن المكاتب والبنّائين، وخرج إلى الشارع يحمل أوراقه المسوّدة.

كان معلمه ينتظره في شقّة «شارلي كورت». وبعد أن حكى له تفاصيل زيارة العصر الأخيرة، انفجر قلقه:

- أعرف كيف عليَّ أن أقتله، لكنّي لا أستطيع كتابة مقال! طلب مني أن أكتب شيئاً مثيراً للاهتمام! أيّ شيء مثير للاهتمام سأكتب!

أخذ توم الأوراق التي سلّمها إليه رامون كالمتوسل وقال له ألّا يقلق بشأن المقال.

- عليَّ أن أقوم بالمهمة غداً، توم. رتّب الأمور لمساعدتي على الهرب. لا أستطيع الانتظار أكثر. سأقتله غداً - كرر.

كانت كاريداد تستمع إليهما وهي جالسة على واحدة من الكنبات وظنّ رامون، في اضطرابه، أنّه رأى رعشة خفيفة في يد المرأة. نظر توم، والأوراق بين يديه، إلى الأسطر المكتوبة بالآلة الكاتبة، مليئة بالشطب والإضافات، فجعّد الأوراق ورمى بها إلى ركن وقال غير مبالٍ:

- لن تقتله غداً.

ظنّ رامون أنّه لم يسمع كلمات توم جيداً. انحنت كاريداد نحو الأمام.

- إن كنّا عملنا طوال ثلاث سنوات - واصل الكلام- ووصلنا إلى حيث نحن، فلكي يخرج كلّ شيء على نحو جيد. لستَ الوحيد الذي يغامر بحياته. لقد غفر لي ستالين كارثة المكسيكيين لأنّهم لم يكونوا قط موضع ثقة كبيرة من طرفنا، لكنّه لن يغفر لي فشلاً آخر. لا يمكن أن تفشل، لذلك فلن تقتله غداً.

- ولكن لماذا لا؟

- لأني أعرف ما أفعل، دائماً أعرف... حين تكون بمفردك مع ذكر البط ستكون جميع الخيوط في يدك، لكن عليك أن تمسك بها جيداً.

مال رامون برأسه. شعر، كالعادة، بأنّ رباطة جأش توم تلمسه، بل لقد بدأ قلقه يتلاشى.

أشعل توم سيجارته ووقف أمام فوجه الصغير: طلب من كاريداد أن

تعمل قهوة وأمر رامون بأن يذهب إلى جمعية «جبل التقوى» لشراء آلة كاتبة من النوع المحمول.

حين عاد رامون بالآلة الكاتبة، قدمت له كاريداد القهوة وأخبرته بأنّ توم ينتظره في الغرفة. وجده رامون منحنياً على منضدة اتخذ منها مكتباً ورأى على الأرضية أوراقاً مجعدة، مكتوبة بحروف روسيّة. طلب المستشار منه الصمت بإيماءة، من دون أن يكفّ عن ترديد تبّاً! تبّاً! ابالروسية. ظلّ رامون ينتظر واقفاً إلى أن استدار الآخر.

- هيّا. سأملي على كاريداد المقال والرسالة التي عليك أن تحملها معك.

- أيّة رسالة؟

- قصة الشاب التروتسكيّ اليائس.

- ماذا عليَّ أن أفعل غداً؟

- لنقل إنّك ستعمل بروفة عامة. ستذهب إلى بيت الخائن وأنت تحمل جميع الأسلحة، لكي ترى كيف تستطيع أن تدخل وتخرج من دون أن يشكّ أحد بشيء. ستعطيه المقال وستكون وحدك معه. سيكون المقال من الرداءة أنّه سيضطر إلى القيام بتصحيحات كثيرة عليه، وهو نفسه سيعرض عليك إمكانية العودة لمراجعة أخرى. حينئذٍ ستكون اللحظة مواتية، لأنّك ستكون قد حسبت جيداً الطريقة التي ستضربه بها، وطريقة الخروج... عليك أن تكون واثقاً من أنّك ستفعل كلّ شيء بهدوء وثقة. وأنتَ تعرف أنّك إن وضعت قدمك على الشارع فأنا أضمن لك الهرب، لكنّ حظك وحياتك، وأنتَ في داخل البيت، يعتمدان عليك.

- لن أخطئ. لكن دعني أقتله غداً. فقد لا أستطيع العودة لرؤيته؟

- لن تخطئ ولن تقتله غداً: وستعود لرؤيته، هذا أكيد- قال توم، وهو يمسك بوجهه ويجبره على النظر إلى عينيه-. عليك يعتمد مصير ناس كثيرين. ويعتمد أن نخرس أصوات الذين لم يثقوا بكم أنتم الشيوعيين

الإسبان، هل تتذكّر؟ ستثبت لهم مقدرة إسباني شجاع وفي رأسه أيديولوجية– وضرب بيده اليمنى صدغ رامون الأيسر–. ستثأر لأخيك الذي سقط في مدريد، والإهانات التي تحملتها أمّك، ستكسب الحق في أن تكون بطلاً وستثبت لأفريكا أنّ رامون ميركادير ليس رجلاً ضعيفاً.

– شكراً– قال رامون، من دون أن يعرف لماذا قال ذلك، بينما أحسّ بضغط يدي معلمه يتحوّل إلى حرارة سال لها العرق على وجهه. في تلك اللحظة اقتنع بأنّ قصّة إهانات كاريداد، الذي مرّ توم على ذكرها مرور الكرام، تشكّل في الواقع جزءاً من استراتيجيّة حاكتها أمّه والعميل لإشعال نار كراهيته: هكذا فقط يفهم كيف حصل توم على أخبار لقائه مع أمه في «غيللو». ولكن كيف لتوم أن يعلم بما تقول أفريكا له من أنّه بالغ الضعف؟

– هيّا، إلى العمل – ربّت توم على كتفه وأخرجه من بحر أفكاره–. عليك أن تحفظ عن ظهر قلب الرسالة التي سنكتبها. حين تنتهي، دعها تسقط على الأرض واخرج. فإن أمسكوا بك، فستكون هذه الرسالة هي ترسك الذي يحميك. عليك أن تقول دائماً إن اسمك هو جاك مورنارد وتكرر ما تقوله هذه الرسالة. لكنّهم لن يمسكوا بك، لن يمسكوا بك. أنتَ فتاي وستخرج. أقوله لك أنا...

عادا إلى الصالون. كانت كاريداد واقفة تدخن. لقد أخفى التوتر تلك المرأة، التي صارت في الأشهر الأخيرة من أهل الدنيا، وأعاد لها ملامحها الحادة القاسية المسترجلة، فكأنها تستعد هي أيضاً للحرب.

– اجلسي واكتبي– أمرها توم، فألقت هي بعقب السيكارة في ركن من أركان الغرفة وجلست قبالة آلة الكتابة الموضوعة على الطاولة. أدخلت ورقة ونظرت إلى الرجل.

– ماذا ستكتب؟

– الرسالة– ألقى توم بنفسه على كنبة، وقد رسم على وجهه علامة ألم. زحف بجسمه على المقعد وقرأ شيئاً من الأوراق التي كتب عليها

بالروسية وأغلق عينيه-. سنضع التاريخ فيما بعد. نبدأ: سادتي: وأنا أكتب هذه الرسالة لا أضع أمامي هدفاً آخر، في حال وقع لي حادث، غير أن أوضح، لا، انتظري...- مدّ يده كالأعمى الذي يبحث متحسساً-، أفضل... أشرح للرأي العام الأسباب التي تدفعني إلى تنفيذ الفعل العادل الذي أنوي فعله.

توقف توم، وعيناه ما زالتا مغلقتين وبيده بعض الأوراق، ليقرر كلماته التالية. كان رامون يدخن واقفاً ينظر إلى معلمه وإلى أمّه، ورأى كائنين مختلفين، منهمكين يؤديان بمسؤوليّة عملاً. العبارات التي راح الرجل يصنعها وتطبعها المرأة على الورق كانت حكماً على كائن بشري واعترافاً من قاتله، لكنّ موقف توم وكاريداد كان من الطبيعية والتآلف مع الموت أنّهما بديا ممثلين في مشهد.

بدأ جاك مورنارد، على لسان توم، يتكلّم عن أصله ومهنته وميوله السياسية التي حملته إلى الانضمام إلى تنظيمات تروتسكيّة.

- كنتُ نصيراً متفانياً من أنصار ليف تروتسكي، وكنتُ لأهب آخر قطرة من دمي دفاعاً عن قضيته. بدأتُ بدراسة كلّ ما كتبَ حول الحركات الثورية لأتثقّف ولأكون أكثر نفعاً للقضية. نقطة.

- نقطة ويتبع؟ - سألت كاريداد فهزّ توم رأسه بالنفي-. لحظة- قالت وحشرت ورقة أخرى في ماكنة الكتابة.

- اقرئي لي ما كتبتِ - طلب منها توم فنفذت كاريداد طلبه. في النهاية فتح المستشار عينيه ونظر إلى رامون-. ما رأيك؟

- سيلفيا ستكذّب ذلك.

- حين تتكلم سيلفيا أنتَ ستكون بعيداً. كاريداد، اقرئي مرة أخرى.

أغمض توم عينيه ثانية، وحين انتهت كاريداد من القراءة، بدأ باختراع قصّة أنّ عضواً في الأممية الرابعة اقترح على جاك، عقب عدة لقاءات بينهما في باريس، السفر إلى المكسيك للتعرّف إلى تروتسكي. فتحمس

مورنارد للفكرة وقبل بها، فقدم له عضو الأممية (أنتَ لم تعرف اسمه قط، وضّح لرامون؛ لكنّ هذا غير ممكن، ردّ عليه هذا؛ أخّري على ما هو ممكن، زفر الآخر) المال وحتى جواز سفر ليخرج به من أوروبا.

نهض توم فجأة ومزّق الأوراق التي كان ما زال يحملها في يده وأطلق كلمات بذيئة بالروسية. لاحظ رامون أنّ العرج، الذي اختفى في الأشهر الأخيرة، عاود توم. في تلك اللحظة لازمه إحساس بأنّ توم البائد هو من توجّه نحو المطبخ وعاد بزجاجة فودكا أخرجها من الثلاجة. وضع كأساً على المنضدة التي كانت كاريداد تعمل عليها وصبّ لنفسه جرعة كبيرة عبّها عبّاً.

- الفكرة التي يجب أن نوصلها هي أنّ تروتسكي كان ينتظر جاك لأنّه كان يريد منه شيئاً. يجب أن يبدو جاك عاطفيّاً جدّاً وأحمق بعض الشيء...

- رامون على حق. لن يصدّق أحد هذه القصّة- قالت كاريداد.

- ومتى راهنّا على ذكاء الناس؟ علينا أن نقول ما يخدمنا. أمّا موضوع التصديق فسيهتم به آخرون. ما يجب أن يكون واضحاً هو أنّ تروتسكي خائن، إرهابي من أحط الأنواع، وأنّه يتلقى تمويلاً من الإمبريالية...

عاد توم إلى كنبته وواصل الإملاء. شعر رامون بأنّه يضيع في متاهة من الأكاذيب التي يحيكها معلمه بسهولة من يحكي حقيقة عاشها وعايشها. استعاد خيط الحكاية حين وصل إلى موضوع الإحباط الذي أصيب به الشاب التروتسكي: لقد كشف الثوري الشهير عن إنسان وضيع وطامع حين عرض عليه، وهو لا يعرفه إلّا قليلاً، السفر إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية لتنفيذ أعمال تخريبة واغتيال ستالين. أضاف توم معلومة ثمينة: ذلك العمل المناهض للسوفييت كان سيكون بدعم من قوة أجنبية كبرى، هي التي تموّل الخائن بالطبع. شعر رامون بأنّ تلك الكلمات ليست غريبة عليه، فكأنّه قرأها أو سمعها من قبل.

- هذا هو التكتيك: إزاحة العدو ثمّ إلقاء الخراء، الكثير من الخراء

عليه حتّى يغطيه - هاج توم، ثمّ فصّل في دسائس المنفي ضد حكومة المكسيك وزعمائها في سبيل زعزعة استقرار البلد الذي احتضنه. لكنّ تروتسكي يجب أن يكون سافلاً أكثر: لقد صرّح لجاك باحتقاره لجميع أعضاء حزبه الذين لا يفكرون تماماً كما يفكر، بل لقد عبّر له عن فكرة التصفية الجسدية لأولئك المنشقين. ومع أنّ مورنارد لا يمتلك الدليل على أصل الأموال التي اشترى بها تروتسكي البيت وحصّنه فهو متأكد من أنّ ذلك المال لم يأتِ من أولئك المؤيدين العميان، بل من مصدر آخر وبأن من يعرف ذلك هو قنصل تلك القوة الإمبريالية العظمى الذي كان يزوره باستمرار.

- هل هناك من شاهد ذلك القنصل؟ - سألت كاريداد.

- هذا بلد عميان...- أجاب توم- وسنعطيهم الآن ما سيروق لهم.

دخل توم في ميدان من الميلودراما: فقد سافر جاك إلى المكسيك مع شابة كان يحبها ويتمنى الزواج بها. فإن ذهب إلى روسيا لارتكاب الجرائم التي خطط لها تروتسكي فعليه أن يقطع صلته بها، وهو ما شجع عليه المنفي، لأنّه كان يعتبر الشابة خائنة للقضية التروتسكية الحقيقية. وأنهى الرسالة بطريقة غير متوقعة:

- من الممكن ألّا تريد هذه الشابة، بعد ما فعلتُ، أن تعرف عنّي شيئاً. مع ذلك، فقد قررتُ، من أجلها أيضاً، أن أضحي بنفسي وأقدمَ على إزاحة قائد حركة عمالية لا يفعل شيئاً غير الإضرار بها، وأنا متأكد من أنّ الحزب والتاريخ سيكونان في صفّي حين يشهدان اختفاء أشرس عدوّ للبروليتاريا العالمية... أطلب، إذا ما تعرضتُ لسوء، نشر هذه الرسالة. نقطة نهاية.

مع ضربة المفتاح الأخيرة ساد الصمت. شعر رامون، وكان واقفاً دائماً، برجفة تصدر من أعماق روحه. ما عاد لديه ذلك الانطباع بأنّه سمع تلك الكلمات في مناسبة أخرى، فالأكاذيب التي كدسها معلمه كانت لها نبرة التهم التي وجّهت خلال سنوات، في محاكمات متتالية ومقالات وخطب

معادية لتروتسكي ولرجال آخرين حوكموا وصدر الحكم عليهم. ألا توجد حقائق؟ أما من وقائع حقيقية يستند عليها قرار حيوي يتخذه شاب ثوري محبط إلى درجة التضحية بنفسه وارتكاب جريمة لتحرير البروليتاريا من تأثير خائن؟ كان ثمّة شيء غامض ينبع من كلّ كلمة من كلمات تلك الرسالة. لقد أدرك رامون ميركادير أن سبب ارتجافه ليس هو الخوف الناجم عن فعل التزوير الذي كان شاهداً عليه: لقد اكتشف أنّه يخشى الذين يرسلونه لقتل رجل قدر ما يخشى عواقب فعله ذاك سواءً بسواء. كانت تلك الرسالة الدليل الأخير، إن كان ما زال يبحث عن دليل، على أن ليس أمامه من مخرج في العالم غير أن يصبح قاتلاً.

***

أوقف السيارة بالقرب من كويواكان. فتح صندوق السيارة، أخرج المعطف ووضعه على كتفه. شعر جاك، في تلك اللحظة، بالغثيان، وكأن ثقل المعطف يريد أن يغرقه، فعجّل في الانحناء ليتجنب أن يتسخ بدنه بالقيء. كان السائل مزيجاً من القهوة والصفراء، وكانت رائحته رائحة تبغ عفن، أثارت في نفسه سلسلة جديدة من التهوّع الجاف، بينما غطى جسمه عرق بارد. حين هدأت معدته، نظّف نفسه بالمنديل وفتح الكيس الذي كان يحفظ فيه الخنجر الإنكليزي والفأس ووضعهما في جيوب المعطف الداخلية. أمّا المسدس «ستار»، ذو الإطلاقات التسع فقد خبأه وراء ظهره، بين حزام البنطلون. تأكّد من أنّ أوراق المقالة موجودة في الجيب الجانبي الأيسر للمعطف وعاد إلى السيارة.

تذكر أنّ هناك صيدلية على الطريق، وحين رآها أوقف السيارة. اشترى زجاجة من مطهر للفم، وزجاجة أخرى من الكولونيا وعلبة من دواء مسكّن. تمضمض في الشارع عدة مرّات بالمطّهر ليزيل طعم القيء وتناول حبتين من المسكّن. لم يشكُ يوماً من الصداع وفكّر في احتمال أن يكون ارتفاع ضغطه هو علّة ذلك الضغط الذي ما انفكّ يشعر به في جمجمته منذ يومين. دعكَ بالكولونيا رقبته وجبهته وخديه وعاد إلى مقود السيارة.

حين دخل إلى جادة «فيينا» المتربة، شعر رامون بأنّه لم يستردّ بعد السيطرة على جاك مورنارد. لم تروّح عنه معرفته بأنّ الأمر يتعلق ببروفة، بالدخول إلى البيت والخروج منه في أسرع وقت ممكن. فهو ما زال يفضّل لو أنّ توم سمح له بتنفيذ واجبه في ذلك اليوم نفسه. فما كان له أن يحدث سيحدث، وخير البرّ عاجله، قال في نفسه. كانت كراهيته للمرتد، وهي أمضى أسلحته، تتبدد بين الخوف والشك، فما عاد يعرف إن كان يتصرف من وحي الأوامر التي لا تقبل النقض (اعتقال الرسام سيكيروس واحتمال عقد محاكمة علنية أقلقا موسكو، حسب توم) أم بسبب قناعة عميقة، صار استخراجها من ذهنه يصعب يوماً بعد يوم. لذلك قرّر رامون، ما إن شاهد الحصن المطلي بالأصفر المائل إلى البنّي: تلك ستكون آخر زيارة له لكويواكان.

أوقف السيارة بعد أن استدار بها ووضعها في اتجاه طريق العاصمة. غمر المنديل بالكولونيا وعاود تنظيف وجهه. أخذ نفساً عميقاً عدة مرّات وابتعد عن السيارة. حيّاه جاك كوبر من أعلى البرج وسأله عن سيلفيا فردّ عليه جاكسون بأنّه لن يتأخر إلّا بضع دقاقق لذلك فضل تركها في الفندق، وهي الثرثارة. أكّد له كوبر مبتسماً أن زوجه تصل الاثنين مساءً.

– سنلتقي إذن الثلاثاء – صاح جاك وفُتح الباب المحصن أمامه.

صافحه جو هانسن، سكرتير المرتد، وأفسح له الطريق.

– كانت أمي تستعمل هذه الكولونيا الألمانية دائماً – قال-. ألم يكن العجوز ينتظرك قبل هذا الوقت؟

– تأخرتُ عشر دقائق بسبب سيلفيا.

– إنّه الآن يعمل. سأسأله إن كان يمكنه أن يستقبلك.

تركه هانسن في الباحة. خلع هو المعطف وطواه بعناية على ذراعه. في زاوية من زوايا الحديقة، قريباً من السياج الذي يطلّ على النهر، شاهد ميلكياديس، الموظف الذي يعمل في البيت. كانت شبابيك الغرف التي

يشغلها المعاونون والحراس الشخصيون مفتوحة، لكن لم تكن تبدو هناك حركة. خامره حينئذٍ حدس قوي: نعم، فذلك هو يومه نهائيّاً. ولكي لا يفكّر، ركّز انتباهه في تأمل آثار العيارات النارية في جدران المنزل، إلى أن شعر بوجود أحد بالقرب منه. التفت فإذا هو آثتيكا، الذي راح يشمشم حذاءه، وتنبّه إلى أنّه مبقّع بالقيء. طوى المعطف بعناية وجلس القرفصاء بالقرب من الحيوان وداعبه بيده الشاغرة في رأسه وأذنيه. فقد جاك لدقائق إحساسه بالوقت وبالمكان الذي هو فيه وبما هو عازم على ارتكابه: كان شعر الحيوان ينساب من تحت أصابعه فيمنحه شعوراً بالراحة والثقة والهدوء. كان فكره خالياً حين فوجئ بسماع صوت الرجل.

- أنا مشغول جدّاً- قال المرتد، وهو ينظف عدسات نظارته بمنديل أحمر طرّز على زاوية من زواياه شعار المنجل والمطرقة.

- آسف، لقد تأخرت - قال، وقد نهض، بينما راح يبحث عن الأوراق المطبوعة في جيب المعطف الخارجي، مُراعياً ألّا يسقط المعطف من ذراعه من جراء ثقل الأسلحة-. لن آخذ من وقتك الكثير.

مدّ له جاك يده بالأوراق، وهو بعد محزون من ضعف أسلوب النص. استدار المنفي من دون أن يتناوله منه.

- هيا، لنطالع المقال.

اجتاز جاك مورنارد للمرة الأولى باب البيت. من المطبخ، كان يصدر ضجيج نشاط وروائح قلي، لكنّه لم يرَ أحداً. اجتاز غرفة الطعام خلف المرتد، حيث شاهد طاولة طويلة في وسطها إناء فواكه، ومرّا إلى غرفة المكتب. لاحظ على منضدة المكتب أوراقاً وكتباً وأقلاماً ومصباحاً ومُسجلاً، دفعه الرجل إلى الوراء ليفسح مجالاً على المنضدة.

- وزوجك؟ - تجرأ على سؤاله.

- ربما هي في المطبخ- كانت تلك هي إجابة المرتد الجافة، الذي جلس مقابل منضدة الكتابة-. لنرَ هذا المقال.

سلّمه جاك الأوراق وبدأ الرجل بقلم تلوين غليظ يمرّ بسرعة على الأسطر الأولى. تمكن رامون من أن يتخذ له موضعاً خلف فريسته ونظر إلى الغرفة. عند ظهره، على الحائط، هناك خزانة بدروج طويلة وواطئة كدس عليها ورق مطبوع على الآلة الكاتبة وفوقها مجسم للكرة الأرضية. علّقت على الحائط خارطة المكسيك وأمريكا الوسطى. على منضدة الكتابة هناك ملف قرأ عليه مكتوباً بخط روسي: «خاص». من مكانه لمح في الدرج المفتوح للنصف بريقاً غامقاً لمسدس ربّما من عيار 38 – وما أهميّة العيار في سلاح لا يدافع عن صاحبه؟ فكّر–. توقف عن الطواف بنظره في المكان وراح يفكّر في ما يجب فعله: إنّه على بعد ثلاث خطوات خلف الرجل، ورأسه يقع على سنتمترات قليلة من كتفه. لطالما ظنّ أنّه سيكون في وضعية أعلى، مع ذلك، فلو أنّه رفع ذراعه كثيراً فسيستطيع تسديد ضربة قاسية في وسط تلك الجمجمة التي بدأ الشعر يخفّ في قمّة رأسها. حشر يده في المعطف ومسّ الجزء المعدني من الفأس. إنّه قادر على أن يخرجها بسهولة، في ثوانٍ قليلة، وأن يضرب بقوة على المكان الدقيق الذي تسمح قلّة الشعر فيه برؤية الجلد الأبيض، البراق تقريباً، والمغري. ضغط بيده على المقبض المقطوع، واستعدّ لسحب السلاح، وعندها اكتشف أنّه لم يخلع قبعته وأنّ العرق يتجمع في جبهته ويهدد بالوصول إلى عينيه. فكّر في البحث عن المنديل، لكنّه عدل عن ذلك لتجنب حركة قوية مفاجئة. كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة لدخول نسيم العصر الممتع، ومن تلك الزاوية كانت تشاهد أحواض الصبارات وبعض الجهنميات المزهرة. وقدّر أنّه، إن ضرب بدقة، فلن يحتاج إلى أكثر من دقيقة واحدة ليصل بخطى سريعة إلى بوابة الخروج، ليطلب منهم أن يفتحوا له ثمّ ليغادر المنزل بعد أن يتكلّم لثوانٍ مع الحارس المناوب. وسيحتاج إلى دقيقتين، وربّما ثلاث دقائق، للصعود في سيارته، تعتمد خلالها نجاته على برودة أعصابه وعلى ألَّا يكتشف أحد جثة ذكر البط. لكن إن لم يمت الرجل بالضربة الأولى، أو إن ضعفت أعصابه هو واستعجل كثيراً، فسيصبح البيت المحصّن

قبراً لن يستطيع الفرار منه أبداً. أمسك بقوة بالفأس وركّز انتباهه في الجمجمة التي كانت أمامه. كان العجوز يعمل ويستعمل القلم كثيراً: يشطب كلمات ويضيف أخرى، بينما تنبعث من حنجرته تمتمات بعدم الرضا. مع ذلك ما زال رأسه على مرمى من ذراع رامون.

- يا للفرنسيين المساكين - قال المنفي.

في تلك اللحظة شاهد رامون عبر النافذة صورة مشوشة لهارولد روبنس. نظر رئيس الحرس الشخصي نحو المكتب ثمّ وجّه نظره إلى برج المراقبة. أخرج يده ببطء من المعطف وقرر البحث عن المنديل في جيب بنطلونه الخلفي. كانت نظاراته قد تندت بالعرق. جفّف وجهه من دون أن يترك المعطف، ونزع بصعوبة نظاراتيه وراح ينظفها.

عاد رأس المرتد واضحاً، بلا حركة، يتحداه. ذلك الرأس هو كلّ ما يملكه الرجل، وهو كلّ ما يعنيه، وهو الآن أمامه، تحت رحمته. لماذا لم يعطه كوتوف الرسالة التي كان عليه إسقاطها وهو يخرج؟ تركت حقيقة جديدة رامون، وهو يركز نظره في الموضع الذي سيغرس فيه الرأس الفولاذي، في ذهول: من الأفضل أن ينسى موضوع الرسالة الملعونة، إنّه لا يستطيع أن يواصل التفكير، إنّه يضيع الفرصة الذهبيّة التي خططوا لها لسنوات، فرصة قد لا تتكرر. لكنّه أدرك أنّه غير قادر في تلك اللحظة على تنفيذ الأمر، وإن منعه اضطرابه وتشتت فكره من معرفة السبب: هل هو الخوف؟ هل هي طاعة أوامر توم؟ هل هي الرسالة التي لا يحملها؟ هل هي الحاجة إلى إطالة لعبة السلطة المريضة تلك؟ هل هي شكوك حول قدرته على الوصول إلى الشارع؟ استبعد الاحتمال الأخير، فعلى الرغم من انفراده بالمرتد، فإنّ من الواضح أنّ احتمالات الهرب، التي طالما تحدث عنها توم، لن تصل إلى الثلاثين بالمئة. لن يتمكن من الخروج من البيت بعد توجيه الضربة إلّا إذا حدثت معجزة وتضافرت جملة من الصدف. تولدت فيه قناعة من أنّه إذا نفذ الضربة فسيحدث شيء يحول دون أن يتحقق ذلك الخيار الضعيف. عند دخوله في المرة

القادمة إلى القلعة ربّما سيتمكن من امتلاك قياد نفسه وقتل المطلوب المتميّز، العجوز الذي يمكن سماع صوت تنفسه، على خطوتين منه، والذي تواصل جمجمته تحديه واستفزازه. مع ذلك، فهو الآن متأكد تماماً من أنّه لن يفلح في الهرب. لكن، هل كان الهرب مطروحاً في مرة من المرات؟ صحيح أنّ رؤساءه يفضلون أن يفلح في الخروج من البيت، لكنّهم لن يشغلوا بالهم بمسألة خروجه أو عدم خروجه. لقد أدرك رامون أنّهم وجهوه ليرتكب جريمة هي، في الوقت نفسه، عمل انتحاري. بل أكثر من ذلك: فقد خطط معلمه ذلك السيناريو بمهارة ودقة لكي يكون المدان نفسه هو من سيحدد، في النهاية، تاريخ موته وتاريخ موت قاتله، وهكذا تبلغ الخطة درجة الكمال. وأدرك أنّ عدم قدرته على الحركة هي نتيجة تلك اللحظة القاتلة القادرة على التحكم في جسمه وإرادته.

- هذا يحتاج إلى عمل كثير - قال المنفي، من دون أن يرفع نظره.

- أتراه بالغ السوء؟- سأل جاك مورنارد، بعد ثوانٍ، وهو يخشى أن يخونه صوته.

- عليك أن تعيد كتابته كلّه و...

- حسناً - قاطعه واقترب من المنضدة-. سأعيد كتابته في نهاية الأسبوع. الآن عليَّ أن أذهب، سيلفيا تنتظرني للخروج للعشاء و...

كان جاك يحتاج إلى الانصراف من ذلك الحيّز الخانق. لكنّ المنفي أبقى على الأوراق التي راجعها في يده والتفت نحو الزائر، ورماه بنظرة حادة.

- لماذا لم تخلع قبعتك؟

رفع جاك يده إلى جبهته وحاول الابتسام.

- لأنّي مستعجل...

نظر إليه العجوز بحدة أكثر، وكأنه يرغب في الغوص في أعماقه.

- جاكسون، حضرتك أغرب بلجيكي قابلته في حياتي - قال، ومدّ له يده أخيراً بالأوراق، ونادى بصوت عالٍ-. ناتاشا!

أخذ جاك الأوراق وطواها كيفما اتفق، فشعر برطوبة يديه الباردة تلتصق بالورق، واستطاع، وهو يهيئ الابتسامة لوصول المرأة، من حشر الأوراق في جيب المعطف، الذي كان على وشك أن يقع منه من وطأة أدوات القتل التي كان يحملها. حرّك يده لاإرادياً إلى أن لمس مقبض الخنجر. كان وقع الخطى التي تقترب يدل على نشاط المنادى. أطلّت نتاليا سيدوفا، وهي تضع صدرية تغطي حضنها وصدرها، على المكتب وحين رأت جاك ابتسمت.

– ما كنتُ أعرف أنّ...

– مساء الخير مدام نتاليا – قال وهو يمسك بالخنجر.

– جاكسون ينصرف، عزيزتي. رافقيه من فضلك.

شعر رامون بأنّ كلمات المنفي لم تكن كلمات توديع بل أمراً بالطرد. كان يمسك بالخنجر بيده اليمنى، لكنّه فكّر في أنّ ما حدث هو ما كان له أن يحدث: فليس من الممكن أن يبقى ذلك الرجل، الذي يلاحقه الموت منذ سنوات كثيرة، داخل الشبكة التي تحيط به، غير مكترث، وكأنّه ينادي بنفسه منها على موته. ليس منطقياً، بل من غير المعقول، أنّه، بذكائه ومعرفته بأساليب مطارديه، استمرأ قصة البلجيكي الهارب، المنصرف إلى أعمال لا أحد يعلم ما هي، والذي يعمل في مكتب لا وجود له، ويجتمع برئيس وهمي، وينطق بأمور غير مناسبة للمقام، ويرتكب زلات فظيعة، أو يؤكد أنّه صحفي ويكتب مقالاً مليئاً ببديهيات الأمور، بل يزور بيتاً ويقف تحت سقفه من دون أن يخلع قبعته، وهو البلجيكي! أطلق رامون الخنجر ووضع، كما هو مكتوب في اللوح، حياته ومصيره في السؤال الذي وجهه إلى المنفي، من دون أن ينظر إلى عينيه، وهو عند باب الدخول إلى غرفة الطعام.

– متى سنلتقي من جديد؟

امتد الصمت وقتاً له طعم الاحتضار. فإن ردّ المرتد بعبارة: «لن نلتقي بعد هذا أبداً» فستكسب حياته وقتاً مضافاً وستدخل حياة رامون

ميركادير في مستقبل لا يمكن توقعه، بلا مجد ولا تاريخ، وربّما لوقت ليس بالطويل؛ أمّا إذا حدّد له تاريخاً، فسيحدد يوماً وساعة لموته، ولموت رامون المؤكد تقريباً. لكنّه، فكّر، إن قال: «لن نلتقي بعد هذا أبداً»، فيمكن أن يكون المسدس خياراً مطروحاً: رصاصتان للعجوز ورصاصة لزوجه ورصاصة أخرى له، وانتهى: سيكون العمل قد أنجز وزادت خمس رصاصات.

- أنا مشغول جدّاً. لا أجد من الوقت ما يكفيني - قال المدان وحرّك الميزان باتجاه نفسه.

- لا أحتاج من وقتك إلّا إلى دقائق قليلة، حضرتك تعرف المقال - تلجلج الجلاد المفترض، ومع تلك التوسلات سقطت حياة الاثنين في نقطة توازن حرج.

أخذ المنفي ثواني لتقرير مصيره، وكأنّه يخمّن العواقب الخطيرة التي تنطوي عليها كلماته. وضع قاتله المستقبلي يده اليمنى على خصره، وفي قرارة نفسه سحب المسدس.

- الثلاثاء. عند الخامسة. ولا تفعل معي ما فعلته اليوم... - قال.

- لا سيدي - تمتم رامون، ومن دون أن يتنفس، سحب جاك مورنارد نحو الحديقة، يبحث عن الطريق إلى الشارع وإلى الهواء الطلق الذي تحتاجه رئتاه، المحتقنتان باليأس. الموت لا يستعجل، أمامه ثلاثة أيام ليعود على يد رامون ميركادير إلى بيت كويواكان المحصّن ذاك.

***

كان على رامون أن ينتظر ثمانية وعشرين عاماً لكي يحصل على أجوبة عن الأسئلة التي أثارت قلقه والتي بدأت تتكدس في ذهنه منذ ذلك الحين. من بين تلك السنين التي عاشها تحت جلود راحت تتمزّق شيئاً فشيئاً، شأنه شأن أيّ مخلوق يولد من الخداع ومن التلاعب بالمشاعر، سيتذكر تلك الساعات السبعين، ساعات الموعد الذي فتحه المدان،

ساعات العبور الغامض نحو الفعل الذي سيقرر مصيره المحتوم، الذي وضع في يد غريبة، منذ فجر «غواداراما» ذاك، حين طرحت كاريداد سؤالاً ردّ عليه بنعم.

في تلك الليلة، حين غلبه التعب، تمكن من النوم ساعات من دون كوابيس. حين استيقظ رأى سيلفيا، جالسة بالقرب من طاولة الزينة، بتنورتها الداخلية السوداء ونظارات قصر النظر، وتمنّى ألَّا تكلمه. كان يخشى أن يصبّ خوفه وغضبه على تلك المرأة المثيرة للشفقة التي استخدم حياتها لتدميرها هي أيضاً. منذ مساء اليوم السابق اكتشف أنّ كراهيته لم تختفِ، بل لقد تضاعفت، وهي الآن قادرة على الانتشار في اتجاهات غير متوقعة: إنّه يكره العالم ويكره كلّ واحد من الأشخاص الذين يراهم يتحكمون (ظاهريّاً على الأقل) بإراداتهم وقراراتهم، بل إنّه ليكره نفسه. عند عودته من كويواكان دخل في جدل مع سائق حاول أن يتجاوزه في مدخل جادة «لاريفورما». وفي الإشارة الضوئية التالية، حين اشتعل الضوء الأحمر، نزل من سيارته وركض نحو السيارة الأخرى، متوتراً منفلتاً، وهو يحمل مسدسه بيده ويضع فوهة المسدس على رأس السائق المرتعش، شاتماً لاعناً، فكأنه يريد أن يفرّغ العنف المتفجر الذي كان يشتعل في داخله. إنّه ليشعر الآن، وهو يتذكّر ذلك المشهد، بخجل عميق بسبب تهوّره الذي كان له أن يفسد عملاً خطط له طوال ثلاث سنوات.

– اطلبي قهوة، سأذهب إلى العمل – قال لها وذهب إلى الحمام.
حين عاد، كان الفطور على طاولة الزينة فشرب القهوة وأشعل السيجارة الأولى من سجائر كثيرة سيشعلها طوال اليوم. نظرت إليه سيلفيا مرتبكة وعيناها نديتان، فلاحظ هو ذلك–: لا تكلميني، أنا قلق.

– ولكن جاك...

كان في نظرته من العنف أنّ المرأة ابتعدت عنه وهي تبكي، ودخلت إلى الحمام وأغلقت على نفسها.

قرر رامون ألَّا يقابل توم ولا كاريداد، على الأقل في ذلك اليوم.

جلس أمام الآلة الكاتبة المحمولة التي كان توم قد طلب منه استعمالها وهو يحمل الأوراق التي صححها المرتد. شعر بكراهية نحو الرجل المتكبر الذي ملأ النص بعلامات الاستفهام وكلمات حصرها بعلامات التعجّب: غبي! بديهي! غير مقبول! فكأنّ ذكاءه الفائق يخمّش وجهه.

حاول ببطء أن يبيّض ما كتبه توم مع تغيير بعض الكلمات. كان يعلم أنّ ما يقوله ليس مهمّاً، وليست مهمة طريقة قوله، المهم كان هو أن يظهر وكأنه نتيجة مراجعة، لكي يأخذ دقائق قليلة من انتباه المرتد، وهو كلّ ما يلزمه. مع ذلك، فقد اضطربت أصابعه، التي تدرّبت على كسر الأعناق وحمل السلاح والجرح والقتل، وهي تضرب على مفاتيح الحروف لتجبره على تمزيق الأوراق والبدء من جديد.

خرجت سيلفيا من الحمام، وهي بملابسها الكاملة، وغادرت الغرفة من دون أن تقول شيئاً. حين انتهى رامون من كتابة ورقة واحدة بأقل عدد من الأخطاء، شعر بالإرهاق، وكأنّه قطع أشجار غابة كاملة بالفأس. أكل بعض البسكوتات وتناول بقية القهوة الباردة وارتمى على السرير، وفي فمه سيجارة جديدة.

غرق في النوم، لكنّه استيقظ مذعوراً حين فتح باب الحمام. نظرت سيلفيا آجيلوف إليه من طرف السرير. لم تكن المسكينة يوماً هزيلة كما هي الآن، ولا شاحبة الوجه كما هي الآن.

- حبيبي، ما بك؟ هل قصّرتُ في شيء؟ ماذا فعلتُ؟

- لا تتفوّهي بحماقات. أنا قلق. ألا يمكنني أن أكون قلقاً؟ وأنتِ ألا يمكنكِ أن تبقي صامتة؟ هل أنتِ غبية إلى درجة أنّك لا تفهمين معنى أن تبقي ص ا- م- ت- ة؟

أجهشت سيلفيا بالبكاء وشعر جاك بالرغبة في ضربها. وبينما كان يرتدي ملابسه تذكّر أفريكا. كيف كانت ستسير الأمور لو أنّ أفريكا كانت معه في تلك المرحلة الصعبة؟ هل كانت ستستطيع أن تقوّي قناعته التي راحت تتصدّع؟ هل كانت ستمتلك القوة اللازمة لإخراجه من حفرة

الشكوك والخوف والكراهية المنفلتة تلك؟ ما كان يسنده غير التفكير في أنّ أفريكا، أينما كانت، ستهتزّ فخراً حين تعلم أنّه هو من أنجز تلك المهمّة التي كان الكثيرون من شيوعيي العالم، وهي منهم، مستعدين لبذل حياتهم من أجل إنجازها. بتلك الصورة في ذهنه خرج إلى الشارع وهام على وجهه إلى أن شعر بأنّه منهك. للمرة الأولى في ثلاثة أيام عاد إلى الشعور بالجوع فدخل إلى مطعم حيث طلب سمك «الباتزكوارو» وكأساً من النبيذ الأبيض الفرنسي. سار بعد ذلك نحو الكاتدرائية وتأمّل المتسولين المتحلقين حول أروقتها، مثل كائنات حاق بها بأس الأرض وبأس السماء. تضافر هواءُ المساء المنعش والسماء الصافية، التي راح يتأملها، على تهدئته، وتذكّر رامون الشاطئ الذي حلم به قبل عدة ليالٍ وتمنّى لو أنّه استلقى على الرمل، مقابل بحر ذلك الشرم الكريستالي.

حين عاد إلى الفندق وجد سيلفيا نائمة. أشعل الضوء وجلس ثانية أمام الآلة الكاتبة، وبعد ساعتين كان المقال الذي سيعيده إلى حصن كويواكان جاهزاً.

لم يشعر بالنعاس إلّا وقد تجاوزت الساعة الرابعة صباحاً... ربّما بسبب قيلولة منتصف النهار الطويلة. لقد تحوّلت ساعات الأرق إلى تنقّل مضطرب لمشاهد ورؤى حول لحظة التنفيذ التي راح عقله يصورها من دون تحكم ولا نظام، بينما لم يكن له تصوّر عما سيحدث بعد ذلك: فراغ مظلم لا يقترن إلّا بموته.

استيقظ مع الفجر وشعر بجسمه مضعضعاً، هامداً تقريباً. لعن الوقت الذي بدا وكأنه لا يمضي متوقفاً في ذلك الطريق المسدود المعذّب، وكأنّه يصرّ على أن يفقده عقله. ارتدى ملابسه ونزل إلى مطعم الفندق، حيث تناول قهوة ودخّن حتّى دقت الساعة الثامنة، فصعد إلى سيارته وتوجه إلى «شارلي كورت».

كان توم قد نهض للتوّ من فراشه، وكانت عيناه ما زالتا منتفختين. قدم له القهوة لكنّ رامون رفض شربها: إن هو شرب فنجاناً آخر فسينفجر

قلبه. خرجت كاريداد من الغرفة، ملتفّة برداء المنزل وشعرها مبلل. وبينما كان توم يأخذ دوشاً جلست كاريداد ورامون في الصالون يتبادلان النظر إلى العينين.

- أعرف أنّهم سيقتلونني - قال-. ما من فرصة أمامي للهرب.

- لا تفكّر في ذلك. سنكون نحن بانتظارك. ليس عليك إلّا أن تخرج إلى الشارع وسنتكفل نحن بالبقية. حتى لو استدعى الأمر تبادل إطلاق النار...

- لا تكرري عليَّ هذا الكلام، لا تقولي لي ذلك ولا مرة أخرى! أنتِ تعرفين بأن هذا كذب، إنّ كلّ شيء كذب.

- سنكون هناك، رامون! كيف يخطر على بالك أني سأتركك؟

- ليست هذه المرة الأولى.

- لكنّ هذا مختلف.

- طبعاً مختلف: لأني لن أخرج حيّاً من هناك.

فتح باب الغرفة وأطلّ توم برأسه، ومع أنّ رامون استطاع أن يرى كلّ جسمه، عارياً، وعانته، مغطاة بحلقات صفر من شعر مجعّد.

- كفاك تفاهات، تبّاً!

ظلّ رامون وكاريداد ساكتين إلى أن عاد توم، وقد ارتدى ملابسه. جرّ رامون من ذراعه.

- هيّا بنا - طلب منه وهو يجره جرّاً من الكنبة.

صعدا إلى «الكرايسلر» الخضراء الغامقة ودخل توم في جادة «لاريفورما»، نحو «تشابولتيبيك». كان الصباح دافئاً، مع ذلك، ومع دخول السيارة إلى الغابة، دخلت عبر نافذتها نسمة باردة وعطرة. تركا السيارة وسارا إلى أن عثرا على جذع ساقط فجلسا عليه.

- لمَ لمْ تأتني أمس؟

- لم أكن أريد أن أرى أحداً.

- لم تصب بنوبة هستيريّة، أليس كذلك؟
ظلّ رامون ساكتاً.
- أخبرني بما حدث.
- اتفقنا على أن أزوره غداً الثلاثاء، الساعة الخامسة.
- أعرف بهذا. كلمني عن التفاصيل اللعينة - طلب المستشار وركز نظره في العشب ليستمع إلى رامون، الذي اقتصر على سرد ما حصل من دون أن يبدي رأيه.
نهض توم وتقدم خطوتين عرجاوين.
- تبّاً! هذه الساق اللعينة... تخدر في كل لحظة - أخرج من جيب سترته الرسالة التي كتبها قبل أيام-. وقّعها باسم Jac، لكي تكون أكثر تشويشاً: Jacques, Jacson... وضع عليه تاريخ اليوم التالي. حين يسألونك عن الرسالة قل إنّك كتبتها قبل الدخول إلى البيت وبأنّك تخلصت من الآلة الكاتبة في الطريق. عليك أن تتخلص منها...
خبأ رامون الرسالة وظلّ ساكتاً.
- ما عدتَ تثق بي؟ - سأله توم.
- لا أدري - ردّ عليه رامون بكلّ صدقه وصراحته.
- لنرَ: صحيح أنّني لم أطلعك إطلاقاً على الحقيقة كلها، فليس لك ولا عليك أن تعرفها كاملة، لمصلحتك ولمصلحة أشخاص كثيرين، لكنّ كلّ ما قلته لك حقيقي. كلّ ما خططناه تمّ بالطريقة التي حكيتها لك. حتّى هذا اليوم. وغداً سيحدث ما نريد له أن يحدث. لم أؤكّد لك قط أنّك ستتمكن من الهرب من البيت، ولا أنّك ستخرج سالماً بعد أن تقتل ذكر البط. كلمتك عن مهمة تاريخيّة وعن مسؤوليتي في إخراجك من هذا البلد إن تمكنتَ أنتَ من الخروج من البيت. أعطيك كلمتي بأنني سأخرجك، لكن إن لم تصدق ما قلتُ، فانسها وفكّر في حاجتك: المهم هو أن تقتل ذلك الرجل، وألّا تقع، إن كان ذلك ممكناً، في أيدي الشرطة. ثقتي بك مطلقة، لكنّك رأيتَ كيف أنّ رجالاً من الأكثر خبرة

وحنكة في العالم، رجالاً بدا أنّهم قادرون على تحمل كل ذلك، اعترفوا حتى بما لم يفعلوه. لذلك فمن الأفضل أن تخرج، لأنّي لا أستطيع أن أكون واثقاً تماماً من سكوتك. ما أنا متأكد منه هو أنّك إن تكلمتَ فإن حياتك لن تساوي أكثر من بصقة - قال ذلك وبصق على العشب-. وحياة أمك ستساوي أقلّ من ذلك، ولن أكلمك عمّا ستساوي حياتي أنا، لأنّي سأكون أول من يطاح برأسه. إن لم تتكلم، سنكون دائماً إلى جنبك ونضمن لك دعمنا، في كلّ لحظة، أينما تكون... ها قد قلتُ كلّ ما أستطيع أن أقوله بوضوح، ولا قدرة لي على أن أكون أكثر وضوحاً.

كان الشاب ينظر نحو الغابة، محاولاً اجترار تلك الكلمات.

- أتمنّى أن أكون رامون الماضي، رامون قبل ثلاث سنوات، رامون قبل أن يبدأ الكذب - قال من دون أن ينتبه إلى أنّه بدأ يتكلم بالإسبانيّة-. أتمنّى أن أستطيع الدخول غداً في ذلك البيت وأنسف حياة خائن مرتد وأكون مطمئنّاً من أنّني أفعل ذلك من أجل قضيّة. أنا الآن لا أعرف أين تبدأ القضيّة وأين يبدأ الكذب.

أشعل توم سيجارة وركز تفكيره في شظايا الأعشاب التي راح يحركها بفرع يابس. حين تكلّم واصل التكلم بالفرنسيّة.

- الحقيقة والكذب أمران نسبيان، وفي هذا العمل الذي نقوم به أنا وأنت ليست هناك حدود بين شيء وآخر. هذه حرب مظلمة والحقيقة الوحيدة التي تهم هي تنفيذ الأوامر. لا فرق بين أن نصعد، للوصول إلى تلك اللحظة، على جبل من الأكاذيب أو جبل من الحقائق.

- لكنّ هذا استهتار!

- ربّما... أنت تريد حقيقة؟ أذكرك بواحدة: الحقيقة هي أنّ ذكر البط الآن يشكل تهديداً بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي. نحن الآن في لحظة نحكم فيها على من لا يقف مع ستالين بأنه يقف مع هتلر... ما من منطقة رمادية. فما أهمية عدد من الأكاذيب إن كانت تنفع لإنقاذ حقيقتنا الكبرى؟

نهض رامون. واكتشف توم أنّ الخوف والشكوك تركت أثراً واضحاً في تلميذه. لكنّه كان واثقاً من أنّ رامون فهم حقيقة وضعه: ليس أمامه من طريق للعودة.

- ما قلته لي عن أفريكا، عن أنني ضعيف... هل قالته لك هي؟

رمى توم بالفرع اليابس الذي كان يحرك به التراب.

- أفريكا متعصبة، إنّها آلة، وليست امرأة. ألا تلاحظ أنّ شخصاً كهذه لا يمكن أن يحبّ أحداً؟ كلّ شيء في نظرها تنافس لرؤية من القادر على أن يرفع شعارات أكثر. ولئن اعتقدتْ هي في لحظة ما أنّك ضعيف، فستعلم الآن كم هي مخطئة...

أحسّ رامون بالأثر الذي تركته فيه تلك الكلمات. وشعرت عضلاته بارتخاء أراحه.

- هيّا يا فتى. عد إلى الفندق وتناول شيئاً وحاول أن تنام. لا تفكر إلّا في أنّك ستخرج حيّاً من البيت وفي أنّك حين تصل إلى موسكو ستكون بطلاً... أنا سأتكفل بالبقيّة. سنأخذك إلى سانتياغو دي كوبا. أنا أفضّل أن أخرجك عبر غواتيمالا، وإن كانت كاريداد تريد الذهاب معك إلى سانتياغو، لأنّها لم تذهب إلى هناك منذ أن أخذوها إلى إسبانيا. هي تروي قصّة عن والدها، الذي كان أوّل من حرّر العبيد السود.

- كذبة أخرى - قال رامون وهو يبتسم تقريباً. هزّ توم رأسه، مبتسماً-. أجدادي كانوا مستغلين مجردين من كلّ حياء، ولذلك أصبحوا أغنياء... متى سنلتقي ثانية؟

- عليَّ أن أرتّب أموراً كثيرة. أرجو أن نلتقي غداً حين تنهي عملك في بيت ذكر البط. بالمناسبة، هل تعلم ما سيكون اسمك حين تخرج من هناك؟ خوان بيريث غونثالث. اسم غريب[149]، أليس كذلك؟

149- هو يقول هذا من باب التندّر والسخرية لأنّ اسم Juan واسمي العائلة González و Pérez هي من الأكثر شيوعاً في العالم الإسباني.

لم يردّ رامون. نهض توم، وبصمت، نزلا إلى حيث تركا «الكرايسلر». قاد المستشار باتجاه مركز المدينة، وبصره مثبت على الشارع. حين دخل إلى موقف «شارلي كورت»، بحث بنظره عن سيارة رامون ووقف إلى جانبها.

- لقد عملتُ معكَ على أفضلَ ما استطعتُ. أوصلتُكَ حتى مكتب الرجل الذي يحظى بأكبر حماية في الأرض، وأثبتُّ لك أنّ ذلك ممكن. صار الآن كل شيء في ملعبك، والبقية تعتمد على الحظ. لذلك أتمنّى لك كلّ حظوظ العالم. سنلتقي غداً عند خروجك من البيت... بالمناسبة، تقول كاريداد إنّ أجود أنواع الرون في العالم هو رون سانتياغو دي كوبا، وإنّ جدك، الذي حرر العبيد، كان شريكاً تجاريّاً لآل باكاردي الأوائل. ليتنا نستطيع أن نتحقق من صحة ذلك ثلاثتنا معاً. من موضوع الرون، طبعاً.

تذكّر رامون حديثه مع أمّه قبل أيام. وعاد يسأل نفسه إن كان توم قد أمر كاريداد أن تقصّ عليه تلك القصّة القذرة التي ولدت منها، إن كانت صحيحة، الكراهية التي ستميّز حياتهم.

- سنلتقي غداً – قال. وحين كان يهمّ بالخروج من السيارة، أحسّ بيد توم تمسك بذراعه. انحنى المستشار نحوه وقبّله من خديه ثمّ أحسّ بشفتي الرجل تطابق شفتيه، قبل أن يطلقه ويربّتُ على كتفه.

كان على رامون ميركادير أن ينتظر ثمانية وعشرين سنة ليعاود تلقي القبلة من الرجل الذي قاده إلى ضفة التاريخ.

***

ألحّت عليه سيلفيا: عليهما أن يذهبا إلى المستشفى. أخذ جاك قرصين آخرين مسكنين وأسند رأسه على المخدة بعد أن وضع منديلاً مبللاً على عينيه، وتوسل إليها أن تتركه وشأنه. التعب والألم ثمّ، أخيراً، الراحة التي شعر بها بعد تناول القرصين أغرقته في النوم، وحين استيقظ صباح اليوم التالي لم يكن يدري أين هو ولا من هو. غرفة الفندق، سيلفيا، الآلة الكاتبة وعليها أوراق المقال أعادته إلى الواقع وإلى روح جاك مورنارد.

أخذ دوشاً طويلاً ثمّ شرب، على الرغم من فقدان الشهية، القهوة بالحليب وتناول الخبز الطازج المطلي بالزبدة ومربى الفريز وقضم شريحة من لحم الخنزير المقلي. تناول القهوة وارتدى ملابسه. كانت سيلفيا طوال الوقت تنظر، كالحيوان الصغير الخائف، إليه من دون أن تجرؤ على الكلام. وحين رأته يتناول قبعته قالت:

- عزيزي، أنا...

- أنا ذاهب إلى المكتب لأرى ماذا فعل هؤلاء البناؤون الملعونون.

- متى نذهب إلى جاك كوبر وزوجه؟

- في السابعة.

- وأين تنوي أخذهما؟ ألا تعجبك «خوجيميلكو»؟

- لا بأس - قال-. آه، نسيت شيئاً... علينا غداً أن نسافر إلى نيويورك.

- لكن...

- حضّري الحقائب. في نيويورك سأعود إلى ما كنت عليه. أظنّ أن ارتفاع هذا البلد الجهنمي عن مستوى سطح البحر وطعامه هو ما يمرضني...- واقترب من سيلفيا. مسّ شفتيها بشفتيه مسّاً، لكنّ المرأة لم تستطع الإمساك بنفسها فعانقته.

- عزيزي، عزيزي... لا أحب أن أراك هكذا.

- ولا أنا. لذلك سنسافر غداً. هل لك أن تتركيني أنصرف، رجاءً؟

رفعت الضغط عن ذراعيه ورجع جاك مورنارد خطوة إلى الوراء. أخذ الأوراق المطبوعة والآلة الكاتبة واستعد للخروج من الغرفة. نظر إلى سيلفيا آجيلوف، إلى وجهها، الذي يشبه وجه عصفور خائف، وتذكر أيّام اللهو في باريس، حين بدا كلّ شيء لعبة صيادين وغزلان، لعبة حسابات باردة اشتعلت فيها أضوية ملونة بمجرد أن وضعت في مكانها المقرر، بينما راحت تشكّل قصّة حملته، شيئاً فشيئاً، إلى ذروة البطولة. ومن دون أن يدري، قال:

- الساعة الثانية عشرة سآتي لأخذك وسنذهب لتناول شيء.

ما زالت أمامه ثماني ساعات على موعده مع المدان. ماذا يفعل حتى الساعة الخامسة عصراً، وهي الساعة المحددة ليقتل رجلاً اسمه ليف دافيدوفيتش تروتسكي؟ قاد سيارة «البيوك» نحو ضواحي المدينة وعاود التفكير في أفريكا. فكّر أيضاً، للمرة الأولى منذ أشهر طويلة، في ابنته، لينينا، التي لم يعد يعرف عنها وعن مصيرها شيئاً. لا بدّ أنّها أصبحت الآن في السادسة من عمرها وربّما ما زالت تعيش في إسبانيا، لا تعرف شيئاً عن أبيها. كيف كانت ستكون حياته لو كانت ابنته معه؟ لقد فوّت عليه الملاعين الفاشيون والحرب اللعينة تلك الفرصة.

اتجه نحو مجمّع السيّاح حيث سكن عدة أشهر. بحث عن الطريق الذي أخفى فيه الفأس وأوقف السيارة بالقرب من الصخور المسامية. فتح صندوق السيارة وأخرج الآلة الكاتبة والظرف الذي يحوي الرسالة التي كتبها توم. جلس تحت ظل شجرة وبدأ يقرأ الرسالة. كان في حاجة إلى التركيز، فكلّ كلمة كانت تحمله إلى ذكريات ضائعة في ذهنه، كانت زقزقة العصافير تزعجه، حتى خرير الماء في الجدول القريب، لذلك اضطر إلى إعادة قراءة المكتوب عدة مرات إلى أن شعر بأنّه يقدر، شأن الأكاذيب الأخرى، أن يستوعبها ويحشرها في دمه ويخرجها متى شاء بإرادة دماغه. كانت أعقاب السجائر تتراكم إلى جانبه وتحوّلت معدته إلى مرجل يغلي. لكنّ الصداع الذي طالما حطّم أعصابه لم يعد يعذبه، لحسن الحظ.

ردد الرسالة حفظاً واستعرض في ذهنه، بعناية، سلسلة الأفعال التي عليه أن ينفذها في ذلك العصر. جمجمة ضحيته وشعره المجعد هما النقطة التي كان يصل إليها دائماً؛ ثمّ، يضيع في بلابل فكره. ما عاد في الواقع يدري إن كان سيحاول الهرب. صار يخشى ألّا تطاوعه ساقاه أو أن تفضحه عجلته واضطرابه، إن هو تمكن من الخروج إلى الباحة. أكثر ما كان يضايقه هو عدم مقدرته على تمييز مشاعره بوضوح، فقد كان

مقتنعاً بأنّ ما يمكن أن يشلّ حركته أو يدفعه إلى سباق مفضوح ليس هو الخوف الاعتيادي والطبيعي. إنّه خوف جديد، خوف أشد وخزاً، لم يكفّ عن النمو داخله: الرعب الناتج عن حقيقة أنّه فقد كلّ شيء، ليس اسمه فحسب، وليس التحكم بقراراته، بل متانة إيمانه، ملاذه الوحيد. الوقت اللعين لا يمضي...

سيتذكر رامون دائماً نهاية صباح العشرين من آب من عام 1940 وبداية عصره، تلك الساعات المحتضرة الضبابية. تزاحم في ذهنه خزين الأساليب النفسية الذي سلّحوه به في «مالاخوفكا»، والتي لم يبقَ مما تعلّمه منها غير الكراهية، لا الكراهية الموجهة المركزة التي زرعوها فيه، بل هي كراهية تزداد يوماً بعد يوم تناثراً ويصعب يوماً بعد يوم قيادها: كراهية شاملة، أكبر منه، داخليّة تأكل نفسها. في الساعة الواحدة تقريباً تذكر موعده مع سيلفيا. علم أنّ استعجالاً غريباً هو ما حمله على تحديد الموعد. إنه يحتاج إلى أن يشغل وقته كي لا يصاب بالجنون. عادت سيلفيا لتكون نافعة له. نهض وضرب الآلة الكاتبة بالصخور ورمى بحطامها إلى الجدول وعاد إلى السيارة.

كانت سيلفيا تنتظره عند باب الفندق، يرافقها جاك كوبر وامرأته، وهي شابة شقراء إلى حدّ الصفرة. لا يذكر رامون أنّه استطاع أن يتحكم بنفسه كما فعل أثناء حديثه لدقائق مع جاك وجيني وسيلفيا. أوضح له جاك، بعد أن قدم له امرأته، أنّهما كانا يمران صدفة من هناك وشاهدا سيلفيا. قد يتذكر رامون أنّه ابتسم، بل حكى لهم نكتة وأكّد على الزوجين موعد ذلك المساء، في السابعة. ودعهما وذهب مع سيلفيا إلى مطعم «دون كيشوت»، في فندق «ريجيس»، حيث تقدم مأكولات إسبانيّة. ما إن طلب الأطباق حتى أشعل سيجارة وقال لسيلفيا إنّ رأسه يؤلمه ولزم الصمت.

حكت له سيلفيا شيئاً يتصل بكوبر وامرأته. تحدثت له عن زيارات عليها أن تقوم بها في نيويورك، وقالت إنّها تتمنى أن تذهب لتوديع ليف

دافيدوفيتش قبل السفر. قال لها جاك، الذي لم يتناول إلّا قليلاً من طعامه (لن يتذكر أبداً ما قدموا له من طعام، بل يتذكر أنّه ما كان قادراً تقريباً على ابتلاعه)، إنّه سيصحبها عند الخامسة لتمضي دقائق في بيت كويواكان. حينها أحسّ بحاجة ماسة لأن يكون وحده. قدّر أنّه بعد أقل من ثلاث ساعات سيقتل رجلاً. أخرج بضع أوراق نقدية وسلمها إلى المرأة.

- ادفعي أنتِ. أنا ذاهب لأرى موضوع بطاقات الطائرة - قال وعبّ الماء الذي في كأسه عبّاً. نهض ونظر إلى سيلفيا آجيلوف. في تلك اللحظة شعر رامون بارتياح دافئ يسري في بدنه. انحنى ومسّ بشفتيه شفتي المرأة. حاولت هي أن تأخذ بيده، لكنّه تجنب ذلك بحركة سريعة. لقد أنهت سيلفيا آخر أدوارها وما عادت تنفعه في شيء. سيلفيا آجيلوف أصبحت من الماضي.

***

عند الرابعة عصراً قرر، وقد عذبه النبض الدائم في صدغيه والتعرق الذي يأتي ويذهب، أنّ الوقت حان لوضع حدٍّ للاحتضار. خرج من السينما، حيث أمضى ما يقرب من ساعتين بين تفكير وتدخين، وعاد إلى المرآب، حيث ترك سيارته. أخرج المعطف من صندوقها، حشر المسدس في خصره، وتأكد من أنّ بقية الأسلحة موضوعة في مكانها. وضع أوراق المقال في الجيب الخارجي، وخبأ أوراق الرسالة في السترة الصيفية التي كان قد اختارها في ذلك الصباح. وضع المعطف على المقعد المجاور لمقعد السائق وقاد سيارته بعناية وانتباه شديدين، فما لديه من الوقت يكفي ويزيد للوصول إلى كويواكان. حين مرّ من أمام كنيسة صغيرة مبنية من الحجارة فكر في التوقف والدخول إليها. كانت فكرة عابرة، صدرت عن أعمق أعماق لاوعيه، لكنّه تخلّى عنها فوراً. ليس للرب ما يفعله في هذه القصّة؛ ثمّ إنّه لا حظ له في الإيمان بأيّ ربّ. هو، في الواقع، ما عاد يؤمن في أشياء كثيرة.

بقيت ثماني دقائق على موعد الخامسة حين انحرف في شارع

«الموريلو» ودخل في جادة «فيينا» قبل أن يوقف السيارة أمام البيت- الحصن، ليكون في مواجهة الطريق المؤدي إلى العاصمة. حشر يده في جيب السترة وأخرج الرسالة، وكتب بقلم الحبر التاريخ على الصفحة الأولى 20- آب -1940 ووضع توقيعه -Jac- في الأخيرة، طوى الأوراق وضغط على صدغيه، وكانتا توشكان على الانفجار، وكرر مرتين أنّه جاك مورنارد. تنفس بعمق، وأخفى الرسالة وجفف العرق من جبهته ونزل من السيارة. حيّاه شارل كورنيل المكلف بحراسة البرج وحاول هو أن يبتسم له بينما كان يحرك يده له. انحنى رجل الشرطة المكسيكي الواقف بالقرب من الباب المصفح انحناءة خفيفة لم يكلّف جاك نفسه عناء الردّ عليها. تحركت آلية الباب ومدّ له هارولد روبنس، وكان يحمل بندقيته على كتفه، يده. حين سمح له روبنس بالمرور تذكر رامون أمراً. تراجع خطوة ونظر إلى الجانب الأيمن من الشارع. على مسافة مئة وخمسين متراً تقريباً رأى سيارة «كرايسلر» خضراء غامقة، وإن لم يستطع تمييز من كانوا فيها.

- السيد تروتسكي ينتظرني- قال لروبنس، من باب التوضيح.

رتبّ جاك مجدداً وضع المعطف على ذراعه اليسرى، مجاهداً في الموازنة بين طول المعطف ووزن الأدوات التي فيه.

- أعلم ذلك... إنّه عند أقفاص الأرانب- قال روبنس وأشار إلى حيث المنفي، الذي كان يعتني بالحيوانات وقد ارتدى قبعة من النسيج.

- أنا وسيلفيا سنسافر غداً إلى نيويورك.

- الأعمال؟ - سأل روبنس.

- نعم - قال جاك وعاد روبنس إلى الباب.

نظر رامون إلى الباحة. ما كان هناك غير ذكر البط والكلب آثتيكا. اقترب منهما ببطء.

- مساء الخير.

لم يلتفت العجوز. فقد ألقى للتوّ بالعشب الطري في السلة المعدنية في واحد من الأقفاص.

- أتيت بالمقال - وأخرج الأوراق المطبوعة كمن يقدّم أوراق اعتماده.

- نعم، طبعاً... دعني أنتهي- طلب المدان.

تقدم جاك مورنارد خطوات نحو وسط الباحة. إنّه يشعر بدوار. فكر في الجلوس على الدكّة المعدنيّة. في تلك اللحظة خرجت نتاليا سيدوفا من المطبخ وتوجهت صوبه. عند عتبة الباب شاهد جاك جو هانسن، الذي أشار إليه بالتحية وعاد إلى داخل البيت.

- مساء الخير، مدام نتاليا.

- ماذا جاء بك ثانية؟

- إنّه المقال، ألا تذكرين؟ - قال ثم أضاف-: غداً سنسافر إلى نيويورك.

كان آتيكا قد اقترب ونظر هو إلى الكلب وكأنه لا يراه. الحرقة كانت تشعل معدته، وبدأ يتعرق من جديد، وخشي أن يفقد تركيزه.

- لو أنكَ أخبرتني من قبلُ بسفركما لكنت أرسلتُ معكما بريداً إلى بعض الأصدقاء - تأسفت المرأة.

- يمكنني أن أعود غداً باكراً.

فكرت نتاليا في الأمر للحظة.

- لا. لا تشغل بالك... إذن جئت بالمقال؟

- نعم - قال ومدّ يده إليها بالمقال.

- إنّه مطبوع لحسن الحظ. ليف دافيدوفيتش لا يحبّ أن يقرأ أشياء مكتوبة باليد - قالت وأشارت إلى المعطف-. لماذا تحمل هذا؟

- خشيت أن يسقط المطر. الطقس هنا يتبدل بين دقيقة وأخرى...

- في كويواكان كان الطقس مشمساً وحارّاً طوال النهار. حضرتك تتصبب عرقاً.

- أنا لستُ على ما يرام. لم أرتح لطعام الغداء.

- هل تريد كوباً من الشاي؟

- كلا. ما زال الأكل في فم معدتي. إنّه يخنقني. ولكن تكرمي عليَّ بقليل من الماء.

كان المدان قد اقترب وسمع نهاية الحديث.

- سآتي لك بالماء - قالت نتاليا وعادت إلى البيت.

التفت جاك إلى جهة العجوز.

- إنّه الارتفاع والتوابل. ستقتلني.

- عليك أن تراعي صحتك، جاكسون - قال المنفي، وهو يخلع قفازيه-. لا تبدو بمظهر جيد...

- لذلك نسافر إلى نيويورك. لأراجع طبيباً جيداً.

- المعدة المريضة يمكن أن تكون لعنة، أنا أقول لك ذلك عن تجربة فقد قضيتُ على معدتي من سوء معاملتي لها على مدى سنوات.

ضرب المرتد على رجله لكي يقترب آتيكا منه. فنهض الكلب ووضع قدميه على فخذي العجوز، الذي داعبه بيديه من تحت أذنيه.

- ستأتي سيلفيا لوداعكم.

- الصغيرة سيلفيا مشوشة الفكر جدّاً - قال المنفي وهو ينظف نظارته بطرف قميصه الأزرق الفاتح الذي كان يرتديه في ذلك العصر.

عادت نتاليا سيدوفا تحمل كأس الماء على صحن صغير، شكرها جاك وتناول رشفتين.

- لنرَ المقال المبارك - قال المرتد وتوجه، من دون انتظار، إلى باب غرفة الطعام، لكنّه توقف وأوشك جاك أن يصطدم به. توجه إلى زوجه باللغة الروسية-: ناتاشا، لماذا لا تبقيهما على العشاء؟ سيسافران غداً.

- لا أظنّ أنّه يريد أكلَ شيء- ردّت عليه هي أيضاً بالروسية-. انظر إلى وجهه، لونه أخضر تقريباً.

- عليكَ أن تشرب شاياً - قال الرجل، هذه المرة بالفرنسية، وواصل المسير.

سار جاك خلفه نحو غرفة المكتب. حين مرّ من غرفة الطعام رأى المائدة مهيأة للعشاء، وبدت له الصورة غير مناسبة. حين دخل إلى المكتب وجد مسجل الإملاء وقد دفع نحو زاوية من زوايا المنضدة، فقد وضع مقابل المقعد الذي اعتاد المرتد الجلوس عليه ما يقرب من دزينة من الكتب، كتب ضخمة وثقيلة من مظهرها. كانت نافذة الحديقة ما زالت مفتوحة، كما في المرة السابقة، وكانت تشاهد النباتات التي ما زالت الشمس القوية تجلدها في تلك الساعة من العصر. نظّف المدان من جديد زجاج نظارتيه ونظر إليها عبر الضوء كالمستاء. وأخيراً حرك كرسيه وتسلّم الأوراق من جاك. سحب الرجل نحوه الملف الذي كتب عليه بحروف روسية، وكان موضوعاً فوق المنضدة، ربّما لاستعماله مسنداً.

- هل معنى هذه الحروف «خاص»؟- سأل جاك، من دون أن يعلم سبباً لسؤاله.

- حضرتك تعرف الروسية؟ - سأل المنفي.

- لا... ولكن...

- إنّها ملاحظات. إنّها بمثابة يوميات أكتبها متى استطعت...

- وهل كتبتَ فيها شيئاً عنّي؟

جلس المدان وقال:

- ممكن.

وسأل رامون نفسه عمّا يمكن لذلك الرجل أن يقول عن شخص مثل جاك مورنارد، وانتبه إلى أنّه يهتم بشيء لا أهمية له. نسي لثوانٍ مهمته تقريباً، وإن كانت المحادثة قد أفادته ليزيح جاك عن ذهنه نهائيّاً وليحل محله رامون. مع ذلك، فقد دفعته رغبة واخزة في قراءة تلك الأوراق إلى التفكير في إمكانية أن يحملها معه في محاولته للهرب: سيكون ذلك من

قبيل الحصول على أقصى درجات الكمال، إذ يستحوذ لا على جسم ضحيته بل وعلى روحه أيضاً.

استعاد رامون ميركادير السيطرة حين عاود النظر، من مكانه، إلى الرأس والبشرة البيضاء الظاهرة من بين الشعر القليل الذي بدا له دائماً يستدعي أن يقص من القفا. ومن دون أن ينتبه، راح ذهنه يعمل، آليّاً، في تعليلات بسيطة، موجهة إلى غاية واحدة: مهما اجتهد في التذكر، فإنّه لن يتذكّر أنّه، ولعدة سنوات، لم يفكّر إلّا في الآلية القادرة على وضعه خلف الرجل الجالس أمامه، وتحت رحمته. لن يتذكر حتى إن كان نبض قلبه في صدغيه أو الاختناق يعذبانه في تلك اللحظة. لا شكّ أنّه، بعد أيام من ذلك، بدأ يستعيد بعض التفاصيل، بل تصوّر أنّه في لحظة من اللحظات حلم بأنّه هرب ونجا. ربّما فكّر أيضاً في أفريكا وفي عجزها عن أن تحب. وربّما في الطريقة المدوية التي سيدخل بها التاريخ، في ظرف ثوانٍ. ومرّت بذهنه صورة شاطئ بحر يجري فيه كلبان وطفل، ربّما كانت لعبة من ألعاب ذاكرته. في المقابل، سيذكر دائماً، وبوضوح مثير، الإحساس بالحرية الذي بدأ يتملّكه حين رأى المرتد وهو يستعد لقراءة الأوراق المطبوعة بالآلة الكاتبة. أحسّ بنوع من انعدام الجاذبية يغزو جسمه وعقله. لا. ما عاد صدغاه ينبضان، ما عاد يتعرّق. حاول حينئذٍ أن يستردّ الكراهية التي يجب أن يحدثه فيه ذلك الرأس، وعدّد الأسباب التي دفعته إلى أن يكون حيث هو، على بعد سنتمترات منه: إنّه رأس أكبر أعداء الثورة، رأس الخطر الأكثر استهتاراً وتهكماً الذي يهدد الطبقة العاملة، رأس خائن، مرتد، إرهابي، باحث عن العودة إلى النظام القديم، فاشي. إنه الرأس الذي يضمّ ذهن رجل انتهك كل مبادئ الأخلاق الثوريّة ويستحق الموت، بضربة في الجبهة، كما يضرب العجل في المسلخ. كان المدان منهمكاً بالقراءة، يشطب ويشطب ويشطب، بحركات عصبية ومستاءة. كيف يجرؤ؟ أخرج رامون ميركادير الفأس. أحسّ بها في يده ساخنة ودقيقة. ومن دون أن يكفّ عن النظر إلى رأس ضحيته، وضع المعطف على الدرج السفلي، وراء ظهره، عند مجسم

الكرة الأرضية بالضبط، التي اهتزت وكانت على وشك السقوط. لاحظ رامون أنّ يديه غرقت من جديد بالعرق، وجبهته تشتعل، لكنّه أقنع نفسه بأنه لا يحتاج، من أجل الانتهاء من ذلك العذاب، إلّا إلى رفع الفأس. نظر إلى النقطة الدقيقة التي عليه أن يهوي عليها بضربته. ضربة واحدة وكل شيء ينتهي. سيستردّ حريته: حريّة جوهره. حتى لو قتله الحراس الشخصيون، فكّر، فإنّ الحرية ستكون كاملة. لماذا لا يضرب؟ هل هو خائف؟ سأل نفسه. هل ينتظر أن يقع شيء يمنعه من فعله؟: أن يدخل أحد الحراس، أن تدخل نتاليا سيدوفا، أن يلتفت العجوز؟ لكن لم يأتِ أحد، ولم تسقط الكرة الأرضية، ولم تنزلق الفأس في يده المتعرقة ولم يتحرّك العجوز في تلك اللحظة، لكنّه قال بالفرنسية شيئاً نهائيّاً:

- هذه زبالة، جاكسون- وشطب على الورقة بقلمه، من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين.

في تلك اللحظة شعر رامون ميركادير بأنّ ضحيته أعطاه الأمر. رفع ذراعه اليمنى، أعادها إلى الخلف من رأسه، وضغط بقوة على المقبض المقطوع وأغمض عينيه. لم يستطع أن يرى، في اللحظة الأخيرة، أن المدان، وهو يحمل بيده الأوراق المشطوبة، أدار رأسه وامتلك الوقت اللازم ليكتشف جاك مورنارد وهو يهوي بكل قوته بفأس تبحث عن يافوخه.

هزّت صرخة الرعب والألم أسس حصن جادة «فيينا» غير الحصين.

-28-

لا أدري على وجه الدقة متى بدأت أفكّر في ذلك، لا أدري إن كنتُ أحمله في رأسي حين تعرفتُ إلى الرجل الذي كان يحبّ الكلاب، وإن كنتُ أظنّ أنّ الأمر حدث بعد ذلك. أمّا ما أنا متأكد منه فهو أنّني كنتُ على مدى سنوات مهووساً (تبدو الكلمة كبيرة، لكنّها هي الكلمة التي أقصدها، بل هي الحقيقة) بالقدرة على تحديد اللحظة التي سينتهي بها القرن العشرون ومعه الألفية الثانية من التاريخ المسيحي. لأنّ ذلك بطبيعة الحال سيحدد اللحظة التي يبدأ بها القرن الحادي والعشرون ومعه الألفية الثالثة. ولطالما استندت في حساباتي تلك على عمري الذي بلغتُه - خمسين أو واحد وخمسين؟- عند بداية القرن الجديد، حسب التاريخ الذي يحدد نهاية سابقه: في عام 1999 أم في عام 2000؟ ومع أنّ مفترق القرون بالنسبة إلى الكثيرين ليس هو إلّا تغيّر في التواريخ والتقاويم في وسط مشاغل أخرى أكثر صعوبة، فقد كنتُ أصرّ على النظر إليه من زاوية أخرى، خصوصاً لأنّي بدأتُ في لحظة من السنوات الرهيبة السابقة بانتظار أن تُحدث تلك القفزة الزمنية العشوائية، مثلها مثل أيّ معتقد بشري، دورة حاسمة في حياتي أيضاً. حينئذٍ قبلتُ، بغضّ النظر عن المنطق الذي يفرضه التقويم الغريغوري الذي يغلق حلقاته في العام صفر، أن يكون يوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول من عام -1999 بعد قليل من عيد ميلادي الخمسين- هو اليوم الأخير من القرن ومن الألفيّة، باعتباره جزءاً من التقاليد ومجاراةً لأناس كثيرين في العالم. حين بدأ التاريخ بالاقتراب، أثارت تشوقي معرفة أنّ المبرمجين

في جميع أنحاء الكوكب عملوا طوال سنوات لتجنب الفوضى المعلوماتية التي قد يسببها التغيير الرقمي الجذري في ذلك اليوم، وأن الفرنسيين وضعوا جهاز توقيت تراجعي كبيراً في برج إيفل ليسجل الأيام والساعات والدقائق المتبقية قبل «القفزة الكبيرة».

لذلك حين اعتمدوا المنطق في كوبا وقرروا، رسميّاً تقريباً ونهائيّاً، أنّ الحادي والثلاثين من كانون الأول من عام 2000 هو نهاية القرن، وليس، كما ظنّت الأغلبية وأرادت، اليوم الأخير من عام 1999، رأيت في ذلك إهانة شخصيّة. وبسبب ذلك القرار، الذي يرقى إلى درجة المرسوم الحكومي تقريباً، وبينما كان العالم يحيي بالطبل والرقص الدخول المفترض في الألفية الثالثة والقرن الحادي والعشرين، ودّعت الجزيرة عاماً واستقبلت آخر شأن أيّ عام من الأعوام، بالأناشيد الوطنية والخطابات السياسية المألوفة. بعد أن حلمتُ كثيراً بوصول ذلك التاريخ، شعرتُ بأنّهم أفسدوا عليَّ مشاعري وتلهفي، بل لقد عزفتُ عن مشاهدة الصور الخاطفة التي عرضها التلفزيون عن احتفالات طوكيو ومدريد أو بالقرب من برج إيفل، وهم يحيّون محو الأرقام الأربعة من الساعات التاريخيّة. لازمني الضيق عدة أشهر، وحين أعلنت إحدى الصحف الكوبية في الحادي والثلاثين من كانون الأول من عام 2001، ومن دون اهتمام كبيرة، بأنّ العالم بلغ فعلاً وغريغوريّاً الألفية الجديدة، لم يفاجئني ألّا يهتمّ أحد بما اهتمّ به العالم أجمع تقريباً قبل عام في احتفال متسرّع ومخطئ وعنيد ولكنّه سعيد ومتطلّع. المهم: كنتُ أعرف تماماً أن لا شيء، غير الأرقام، سيتغيّر. وإن تغيّر فإلى الأسوأ.

أمّا سبب حديثي عن هذا الموضوع، وهو بالنسبة للكثيرين غير ذي بال، ولا صلة له في ظاهره بما أقصّه، فلأنه يتضمّن، في نظري، تشبيهاً دقيقاً: بعد كلّ ما جرى، لا أظنّ أنّ هناك كثيرين ممن يجرؤون على نفي أن التاريخ والحياة يتلذذان تلذذاً خبيثاً بنا، بجيلي، وخصوصاً بأحلامنا وإراداتنا الفردية، المنقادة إلى القرارات التي لا تقبل الردّ ولا النقض.

الوعود التي حقنونا بها وقت شبابنا وملأتنا بالإيمان، والرومانسية الجماعية وروح التضحية، صارت ماءً وملحاً بينما كنّا محاصرين بالفقر والارتباك وخيبة الأمل والإخفاق والهروب والتمزّق. لا أبالغ إذا قلتُ إننا مررنا بجميع مراحل الفقر الممكنة تقريباً. لكننا شهدنا تفرّق أصدقائنا الأشد عزماً أو الأشد يأساً، الذين اختاروا طريق المنفى بحثاً عن مصير أقلّ غموضاً، وإن لم يكن أقلّ غموضاً دائماً. كان الكثيرون منهم يعلمون إلى أيّة قطيعة مع الجذور، وإلى أيّة مجازفة بالشعور بالحنين المزمن هم ذاهبون، وكم من التنازلات والتضحيات سيقدمون، وكم من التوترات اليومية سيعانون، لكنّهم قرروا مواجهة التحدي وتوجهوا إلى ميامي والمكسيك وباريس أو مدريد، حيث بدؤوا يجاهدون لتكوين أنفسهم وهم في أعمار يفترض أن يكونوا فيها مكونين مكتملين. أمّا نحن الذين اخترنا البقاء، عن قناعة أو عن روح مقاومة أو حاجة إلى الانتماء أو لمجرد العناد أو الكسل أو الخوف من المجهول، فلم يكن همنا تكوين شيء أو إعادة بناء شيء قدر ما انصرفنا إلى انتظار أن تحلّ أوقات أفضل ورحنا، في هذه الأثناء، نضع دعامات لتجنب الانهيار (موضوع العيش بين دعامات هو في حالتي ليس من باب الاستعارة، بل هو حقيقة عشتها في بيتي). إلى ذلك المصير، الذي جنّ فيه جنون بوصلات الحياة وضاعت منه كلّ الآفاق والمنظورات، آلت تضحياتنا وطاعتنا ونفاقنا واعتقادنا الأعمى وشعاراتنا التي نسيناها وإلحادنا وشكّنا الواعي، بقدر صغير أو كبير، الموجّه، بدرجة صغيرة أو كبيرة، وفي تلك النقطة انتهت آمالنا المنكسرة بالمستقبل.

وعلى الرغم من ذلك المصير الأولي البدائي، الذي أضع مصيري ضمنه، فلطالما سألتُ نفسي إن لم أكن أنا بالذات من وقع عليه اختيار العناية السماوية، إن لم أكن تلك النعجة الموسومة المعيّنة لتلقي كلّ الركلات الممكنة. فلماذا تلقيتُ منها حصّة جيلي وزماني ومعها تلك التي أذاقوني إيّاها بدناءة وخبث لكي يثقلوا عليَّ ولكي يثبتوا لي أنّني

لن أنعم حينها ولا مستقبلاً بالسلام وبالراحة. لذلك حين بدأت علاقتي مع «آنا»، وربّما كانت تلك أفضل فترات حياتي البالغة، وقعتُ، وللمرة الأولى، في الحب تماماً، وبفضلها استرددتُ رغبتي وشجاعتي لكي أجلس وأكتب، ثمّ جاء المنعطف، الذي بدأ مرض زوجي ينجرف إليه ليحطّم كلّ أمل. في الحادي والثلاثين من كانون الأول من عام 1999، حين قالوا لنا إنّ يوم التغيير العظيم الذي كنتُ حلمت به طويلاً، لن يغيّر شيئاً، ولا حتى القرن المقزز الذي ولدنا فيه، رأيت عصفور حلمي الأخير الأزرق يخرج من نافذة شقتنا في «لاوتون»: عصفور صغير تافه، لكنّه عصفور ربيته وراعيته ثمّ جاءت رياح القرارات العالية لتخطفه من بين يدي. لأنّهم لم يمنحوني السلطة حتى على أن يكون لي ذلك الحلم الذي لا يضرّ أحداً.

***

في نهاية التسعينيات بدأت الحياة تستعيد شيئاً من وضعها الطبيعي الذي اضطرب تماماً إبّان سنوات الأزمة القاسية التي عصفت بالبلاد. لكن، بينما كان ذلك الوضع الطبيعي يعود انتبهنا إلى أنّ شيئاً مهمّاً ضاع منّا في الطريق، وأنّنا بتنا في دورة حلزونية غريبة تغيّرت فيها قواعد اللعبة. اعتباراً من تلك اللحظة ما عاد ممكناً العيش بالقروش القليلة التي يأتي بها الراتب الحكومي: لقد انقضى زمان الفقر العادل الشامل، الذي كان ينظر إليه على أنّه إنجاز اجتماعي، وبدأ ما وصفه ولدي باولو، بحسّ واقعي تفوّق فيه عليَّ، بأنّه زمن «لينجُ بجلده من استطاع» (والذي أخذ به وطبقه على نفسه، كما فعل الكثيرون من أبناء جيلي، وبالأسلوب الوحيد الممكن: الرحيل عن البلد). ومن الناس من ركن إلى اللامبالاة، وإلى روح البقاء على قيد الحياة في أفضل صورها، واستطاع أن يتكيف مع الواقع الجديد: هذا هو ما فعله داني حين ترك عمله في دار النشر ووضع كلّ أحلامه الأدبية في جراب وصار يكسب من عمله سائق أجرة في «البونتياك» موديل 1954 التي ورثها عن أبيه مالاً يفوق بكثير ما كان يكسبه

من دار النشر. وحصلت له زوجه على عمل جيد يقوم به في بيته لصالح شركة إسبانية (يدفعون له بعض الدولارات من تحت الطاولة ويعطونه كيسين من الطعام مرتين في الشهر) وهكذا يعيشان في حدّ أدنى من الرخاء. أمّا نحن الذين لا نعرف من أين تؤكل الكتف ولا من أين نسرق (أنا وزوجي وغيرنا الكثير) فقد بدأنا نرى الأمور أسوأ مما كانت عليه في سنوات انقطاع الكهرباء المستمر ووجبات الفطور التي تقوم على نقيع أكياس ورق البرتقال. فمع تقاعد «آنا» المبكر ومع عجزي الواضح عن مجاراة الحياة العمليّة، بدا وكأنّ الحبل الذي كان يلتفّ حول عنقينا ليس له من وظيفة غير الالتفاف أكثر فأكثر ليضعنا دائماً على شفا الاختناق، الذي كانت تبعدنا عنه هدايا أصحاب الكلاب والقطط، التي يقدمونها لي مقابل خدماتي، والقروش الإضافيّة التي كان مربّو الخنازير يدفعونها لي لقاء إخصاء حيواناتهم وتطهيرها من الطفيليات وأعمال أخرى كنتُ كثيراً ما أتقاضاها على طريقة «أعطني ما تشاء». لكن كان واضحاً أنّنا كنّا نغرق في قاع سلّم اجتماعي متوقف عن الصعود، حيث الذكاء واحترام النفس والمعرفة والقدرة على العمل تتراجع أمام الشطارة والمال والموقع السياسي والانتساب بالبنوّة والخؤولة والعمومة إلى «أحد»، وفنّ العثور على الحلول والاختراع وتحسين الوضع والهرب والتصنّع ونهب كل ما يُنهب. واللامبالاة، اللامبالاة الساقطة.

علمت حينها أنّ من غير الممكن للكثيرين من أبناء جيلي الخروج بسلام من تلك القفزة القاتلة ومن دون شبكة تحميك في حال سقوطك: كنّا جيل المؤمنين، جيل من قبلوا بكلّ شيء وبرروا كلّ شيء برومانسية وهم يتطلعون إلى المستقبل، جيل الذين قطعوا القصب مقتنعين بأنّ الواجب يقتضي أن نقطعه (وطبعاً من دون أن نتقاضى شيئاً عن ذلك العمل الحقير)؛ جيل الذين ذهبوا إلى الحرب في أنحاء العالم لأنّ ذلك هو ما دعت إليه الأممية البروليتاريّة، وذهبنا إلى هناك لا ننتظر مكافأة غير شكر الإنسانية والتاريخ؛ الجيل الذي عانى وقاوم هجمات التشدد الجنسي

والديني والأيديولوجي والثقافي، وحتى الكحولي، بحركة من الرأس، وفي كثير من الأحيان من دون أن يبدو علينا الاستياء أو اليأس الذي يحمل على الهرب، ذلك اليأس الذي يفتح الآن عيون الشباب ويحملهم على اختيار الهروب حتّى قبل أن يتلقوا أولى الركلات على مؤخرتهم. لقد كبرنا ونحن نرى (على هذا القدر من قصر النظر كنّا) في كلّ سوفييتي أو بلغاري أو جيكوسلوفاكي صديقاً صدوقاً، كما يقول مارتي[150]، وأخاً بروليتاريّاً، وعشنا تحت الشعار الذي طالما رددناه في طوابير المدارس الصباحية، والذي يقول إنّ الاشتراكية هي مستقبل الإنسانيّة (تلك الاشتراكية التي ربّما بدت لنا قبيحة قليلاً وفظّة، من الناحية الجمالية، وغير قادرة على إبداع أغنية لا تصل إلى نصف قدر أغنية «روكيت مان»، أو ثلث روعة «مهداة إلى شخص أحبّه»؛ وربّما أضاف صديقي وشبيهي ماريو كوندي إلى القائمة «ماري الفخورة» بأداء كريدينس[151]). قطعنا الحياة بعيدين جاهلين تماماً بالخيانات، كتلك التي وقعت في إسبانيا الجمهورية أو التي حدثت في بولونيا التي تعرضت للغزو، التي ارتكبت باسم تلك الاشتراكية نفسها. لم نعرف شيئاً عن أعمال القمع ولا عن المجازر في حق شعوب أو أعراق أو أحزاب سياسية بأكملها، ولا عن الملاحقات الدموية لمعارضين أو متدينين، ولا عن الهياج القاتل في معسكرات العمل، ولا عن اغتيال الشرعية والوحشية قبل وأثناء وبعد محاكمات موسكو. ولم تكن لدينا بالطبع أدنى فكرة عمن كان تروتسكي، ولا عن سبب قتله، ولا عن التسويات الحقيرة السرية، وحتى الواضحة، لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية مع النازية ومع الإمبريالية، ولا عن العنف الغازي لقياصرة موسكو الجدد، ولا عن الغزوات والتقطيعات الجغرافية والإنسانية والثقافية للأراضي المنتزعة

150- خوسيه مارتي (1853-1895). سياسي ومفكر وشاعر كوبي. من زعماء الاستقلال الكوبي وأحد رموز كوبا الوطنيّة.

151- هي عناوين أغانٍ اشتهرت في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات لمطربين وفرق أمريكية.

ولا عن عهر الأفكار والحقائق التي حولتها تلك الاشتراكية إلى شعارات مثيرة للغثيان، تلك الاشتراكية النموذجية التي ابتدعتها وقادتها عبقرية القائد العظيم للبروليتاريا العالمية، الرفيق ستالين، والتي أصلحها بعده ورثته، المدافعون عن أرثوذوكسية صلبة أدانوا بها أدنى انشقاق عن المبدأ الذي يستند إليه ظلمهم النابع من شعورهم بالعظمة. الآن تمكنّا، وبعد جهد جهيد، من فهم كيف ولماذا انهار كلّ ذلك الكمال بعد أن حُرك حجران من أحجار القلعة. حجران فحسب: حدّ أدنى من الدخول على المعلومات ونسيان الخوف (دائماً هو الخوف، دائماً، دائماً، دائماً) الذي عليه قام ذلك البناء وترسّخ. حجرتان وسقطت القلعة: قدما المارد كانتا من طين، وهو لم يقف على حاله إلّا بفضل الإرهاب والكذب... نبوءات تروتسكي تحققت، وحكايات أورويل الخيالية في عام 1984 تحوّلت إلى رواية واقعية. ونحن لا نعرف شيئاً... أم إننا لم نرد أن نعرف؟

***

هل كان محض صدفة أم إنّه اختار عن دراية تلك الليلة المعتمة من عام 1996، بعد مرور ما يقرب من عشرين سنة؟ هبّت ذلك العصر عاصفة هوجاء فيها مطر ورعد بدت وكأنّها تعلن نهاية العالم. وعند حلول الظلام وانطفاء الكهرباء، كان ما يزال يهطل رذاذ مطر بارد ومستمر. لذلك، حين سمعتُ طرقاً على الباب افترضتُ أنّ أحداً جاء على عجل لأعاين حيوانه، وذهبتُ، وأنا أندبُ حظي، لأفتح الباب وفي يدي مصباح الكيروسين.

وكان هو هناك. على الرغم من حالة الطقس والظلام، وعلى الرغم من أنّه كان أصلع الرأس تماماً، ومن أنّه كان الشخص الذي لم يكن ليخطر على بالي أن أراه واقفاً على باب بيتي، تعرفت على الأسود الطويل النحيف بمجرد أن رأيته، وعلى الفور راودني يقين قوي: لقد كان ذلك الرجل يترصدني طوال تلك السنوات.

إزاء صمتي، سلّم عليَّ الأسود وسألني إن كان في الإمكان أن نتحدث.

دعوته بالطبع للدخول. كانت «آنا» مع تاتو، في الغرفة، تحاول أن تستمع إلى المسلسل التلفزيوني من موجة «أف. أم.» من جهاز الراديو الذي يعمل بالبطارية، وناديتها ألّا تقلق لأنني أنا من سيفتح الباب. وببلادتي المعتادة، التي ازداد مقدارها مع المفاجأة، طلبت من الرجل أن ينتبه للأواني الموضوعة في أماكن متعددة لتتلقى ماء المطر الذي يقطر من السقف، وطلبت منه أن يجلس على واحد من الكراسي الحديدية. وبعد أن جلستُ على كرسي آخر من تلك الكراسي، وقفتُ ثانية وسألته إن كان يريد أن يشرب قهوة.

- لا شكراً. ولكن أعطني قليلاً من الماء...

قدمتُ له قدحاً من الماء. عاد الأسود يشكرني، لكنه لم يشرب إلّا رشفتين وترك القدح على المنضدة. على الرغم من العتمة، التي لم تنرها شعلة القنديل إلّا قليلاً، لاحظت أنّه في تلك الدقائق درس أجواء الشقّة، فكأنّه كان يبحث عن طريق للهرب إذا ما اعترضه موقف خطير، أو إن كان يريد أن يكوّن فكرة أخيرة عنّي. ولما كان الأسود قد صار أشد نحافة وأكبر سنّاً، ومن دون شعرة واحدة في رأسه، فقد بدا وجهه على ضوء القنديل الخافت وجه جمجمة معتمة: صوت قادم من الحياة الأخرى، فكرت.

- لقد طلب منّي الرفيق لوبيث أن أزورك ذات مرة - بدأ، وهو يجاهد للانطلاق في الحديث- وها قد جئت.

تأخر قليلاً في الزيارة، فكرتُ، لكنّي بقيت صامتاً. إن كان من شيء واضح فهو أنّ ذلك الشخص، الخارج من الضباب ومن الماضي، لن يقول لي غير ما قرّر أن يقول، لذلك لم يكن ضروريّاً أن أحاول إجباره على أيّ حديث خاص.

- هل تسلمت كتاب لويس ميركادير؟ في دائرة البريد أكدوا لي أنّك إن لم تتسلمه فسيعيدونه إليّ.

- ومن أين أتيت بعنواني؟

- أنتَ تعلم أنّ كلّ شيء هنا معروف - قال، متجنباً الردّ. ومن دون مقدمات أخرى، وكأنّه يردد نصّاً درسه منذ وقت طويل، أوضح لي أنّه في عام 1976 كان يعمل سائقاً لدى قائد في الجيش. استدعوه في يوم وقالوا له إنّ قائده سيرسل إلى الحرب في أنغولا، ولمّا كان يتمتع بكامل ثقتهم، وهو عضو في الحزب ومحارب قديم في النضال السري، فسيكلفونه بمهمة خاصة: قيادة السيارة و«العناية» بخايمي لوبيث، وهو ضابط في الجيش الجمهوري الإسباني يعيش في كوبا وقد منعه الأطباء من قيادة سيارته. نبهوه أيضاً إلى أنّ عمله يتطلّب أن يبقي على فمه مغلقاً، مع الجميع. وطلبوا منه أن يبلغهم في الحال عن أيّ شيء غريب يحدث في محيط الرجل، وشددوا عليه أنّ الرجل ما دام إسبانيّاً فكلّ شيء يمكن أن يكون غريباً...

حين بدأ بالعمل مع لوبيث، كان هناك رفاق آخرون تكفلوا بالعناية به، وأخذه إلى عيادة خاصة وحتى قيادة سيارته حين يذهب إلى بعض الاجتماعات أو إلى زيارات محددة. لم يفصحوا للأسود قط عن هوية لوبيث، وطبعاً هو لم يتجرأ على السؤال، وإن افترض منذ البداية أنّ في الغموض الذي يحيط به والناس الموجهين للعناية به (وماذا عن مراقبته؟ فكّر) ما يدلّ عن أنّ ذلك الرجل ليس هو أيّ لوبيث... بعد سنتين تقريباً، حين تدهورت صحة الرجل وظهر في كوبا أولاً أبناء أخيه ثم، بعد ذلك بقليل، أخوه، علم أخيراً أنّ خايمي لوبيث هو خايمي رامون ميركادير دل ريّو. ولما لم يكن سمع في حياته شيئاً عن رامون ميركادير، ولا شيء تقريباً عن تروتسكي، ولما لم يكن يقدر على أن يسأل أحداً عن أيّ شيء له علاقة بذلك الرجل، فقد صعب عليه فهم السر الذي كان يحيط به. لكنّه حين عرف هوية الضابط الإسباني الحقيقية، وما الذي فعله ولماذا كان يعيش في كوبا بصفة رجل آخر، تنبّه إلى أنّه كان متورطاً في شيء كبير بالنسبة إلى سائق سيارة بسيط، مهما كانت درجة انتمائه للحزب وخبرته في الجيش. وإذا كانوا قد طلبوا منه أن يلزم الصمت فهو يرى أنّ من الخير له أن يلزمه.

أكّد لي الأسود الطويل النحيف أنّ خايمي رامون لوبيث سافر إلى كوبا عام 1974. ومع أنّه لم يكن يعلم بهذا الأمر حينها، فقد علم في ما بعد أنّهم فتحوا له القفص السوفييتي وتركوه يسافر إلى الجزيرة الاشتراكية، مهد أجداده، لأنّ الموت ترك بصماته عليه. وحين كان ينهي آخر الترتيبات لسفره، فاجأته أولى نوبات مرض غريب. وحدد الأطباء في أفضل عيادات موسكو، حيث يعالج كبار موظفي الكرملين، إصابته بمرض رئوي سبب له نزيفاً. بقي رامون، الذي حافظ على صحة استطاعت أن تقاوم عشرين سنة من السجن وكلّ الفظائع التي عانى منها فيه، في العيادة لمدة ثلاثة أشهر. كان التشخيص بعد ذلك مطمئناً، لكنّه شعر بأن شيئاً ما في داخله قد خرج عن موضعه. منذ تلك اللحظة، وعلى الرغم من فترات التحسن المؤقت، لم يعد جسمه يتجاوب معه كما كان، وعاش حتى مماته وهو يعاني من حالات الدوار والحمى المتقطعة والصداع وآلام الحنجرة، وصعوبة دائمة في التنفس. لكنّه ظلّ يجهل حقيقة إصابته بسرطان ستتآكل بسببه عظامه ودماغه.

- أجروا له آلاف الاختبارات - قال لي الأسود، وبدا لي على صوته انعكاس حزن-، لا أحد يعلم كم من التحاليل والصور الدماغية والإشعاعية أجريت له، ولم يجدوا عنده شيئاً. ولكن حين عاينه اختصاصيو الأورام الكوبيون، شخصوا في الحال إصابته بالسرطان... ألا يبدو ذلك غريباً لك؟...

- يقول لويس ميركادير إنّ أيتنغون[152] كان متأكداً من أنّهم في موسكو سمموا دمه بإشعاعات عن طريق ساعة ذهبية أهداها له رفاقه في الكي. جي. بي. ثاليوم مشع.

152- Eithingon. هو ناحوم إيساكوفيتش أيتنغون (1899-1981). من رجال الشرطة السرية السوفييتية النشطين. وهو الذي يظهر في الرواية تحت مسميات (كوتوف) و(توم) وسواها والذي تولّى تجنيد رامون ميركادير وتدريبه ووضع له خطة اغتيال تروتسكي.

- نعم، لذلك قلتُ لك إنّه كان غريباً.

- لكنّي لا أصدق ذلك - قلتُ-. لو أنّهم أرادوا قتله لقتلوه وانتهى الأمر. فلديهم من الوقت والفرص الكثير.

- نعم، هذا أيضاً صحيح- قال، وبدا وكأنه ارتاح تقريباً حين أقرّ بذلك الاحتمال-. حسناً، الأطباء اكتشفوا السرطان عنده بداية عام 1978، بعد أن أمضى شهرين في السرير، لأنّ حالات الدوار ما كانت تسمح له تقريباً بالسير. حين بدأت تلك النوبة، كان يقول بأنّ كل ذلك سببه الألم الذي أحدثه فيه قتل كلبه داكس، الفحل، هل تذكره؟... بسبب حالات الدوار تلك لم يستطع الذهاب للقائك، كما اتفق معك. وبعد عدة أسابيع، حين ما عاد يدري إن كان سيستطيع الخروج إلى الشارع، بدأ بكتابة تلك الأوراق التي أرسلتها لك منذ سنوات، حتى ما عاد يستطيع أن يكتب المزيد، ولا حتى الحركة تقريباً... كان المسكين في النهاية يصرخ كالمجنون من الصداع، وكلما كان يقوم بحركة كان يخشى أن ينكسر عظم فيه. وأبقوا عليه حيّاً بحقن المورفين حتّى تشرين الأول.

- يكفي أن أسمعك لأشعر بالألم - علّقتُ.

- أنت لا تعلم شيئاً عن الألم... أسوأ ما في الأمر أنّه لم يفقد حالة صحوته ووضوح فكره. في آب كان من سوء الحال أن حضر أخوه لويس ليكون معه ساعة وفاته. لكن لويس اضطر إلى السفر في نهاية أيلول لانتهاء الترخيص السوفييتي الذي سمح له، بعد جهد كبير، أن يعود إلى إسبانيا مع زوجه. بعد أسبوعين من سفر الأخ تلقى رامون رسالة منه: كان حينها في برشلونه... سمعته يقول إنّه سيموت وهو سعيد لمعرفة أنّ واحداً من عائلته على الأقل تمكن من العودة...

- إذن، هو طلب المجيء إلى كوبا؟

- يبدو كذلك. لم يكن أمامه الكثير ليختار... من ناحية، لم يرد السوفييت أن يطلقوه، ومن ناحية أخرى، لم يكن من السهل أن يقرر أحد أن يتكفّل به. طبعاً، ما من أحد كان يريده... أظنّ أنّ المجيء إلى هنا

كان الخيار الوحيد الذي كان أمامه. لا أدري كيف جرى التفاوض بهذا الشأن، لكنّ الشرط الذي وضع لكي يأتي إلى هنا كان أن تظلّ شخصيته طيّ الكتمان وأن يلزم الصمت. على الرغم من ذلك، فقد تعرّف عليه البعض، لكنّ أغلب الأشخاص القريبين منه، وهم تقريباً جميع الذين اعتنوا به حين كان مريضاً وكانوا يزورون بيته، وأصدقاء أولاده والأطباء... ما كنّا نعرف من يكون في الحقيقة الرفيق لوبيث. أنا علمتُ بسبب الثقة التي وصلنا إليها، لأنّي بقيت معه حتى النهاية...

في تلك اللحظة شعرتُ باستيقاظ خوف قديم ونائم في إحدى زوايا ذاكرتي، وتجرأت على سؤاله:

- ألم تبلّغ حضرتك رؤساءك بلقاءات لوبيث معي؟ ألم أكن أنا واحداً من تلك الأشياء «الغريبة»؟

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي ابتسم فيها الأسود طيلة تلك الليلة

- لا. لم أجد الوقت لتبليغهم بذلك. المرة الأولى التي التقيتم فيها أظنّها كانت مصادفة، ولم أعرها أهمية. المرة الثانية، بعد أن تكلمتما، طلب هو منّي ألّا أقول شيئاً لكي لا يفزعوك من هناك، ولكي يستطيع الكلام معك. يبدو أنّك وقعت في نفسه موقعاً حسناً، أليس كذلك؟

- أنا أظنّ شيئاً آخر، ولكن لا يهم... وماذا عن الممرضة...؟

- إنّها أختي. أسدت لي خدمة... المسكينة، هي الآن مريضة وحالتها خطيرة، قد تغادرنا في أيّة لحظة... المشكلة هي أنّ لوبيث كلفني أن أعطيك تلك الأوراق، لكنّي لم أجرؤ على المجيء... ومع أنّني لم أقدم أيّ تقرير فقد علموا بأنكما كنتما تلتقيان وأتصوّر أنّهم كانوا يراقبونك قليلاً و...

كان لذلك الخبر في وقت آخر أن يصيبني بالشلل: لكنّه بدا لي في عام 1996 خبراً فولكلوريّاً، أو بالأحرى كوميديّاً، فقد اجتزت منذ زمن حدود العدم وبلغت مرحلة اللامرئي تقريباً. لذلك كان يهمني أن أعرف

ما فكّر وما شعر ذلك الشخص أكثر من محاولة أن أفهم معنى قوله بأنّهم يراقبونك «قليلاً».

- والآن، لماذا قررتَ المجيء، بعد كلّ هذه السنين؟

نظر إليّ الأسود الطويل والنحيف، وأدركت أنّني دخلتُ في أرض ملغومة. مما استطعت أن أرى في وجهه، لاحظتُ أنّه كان يفكّر في النهوض والانصراف. ثمّ فكرت بعد ذلك في الأسباب التي تدفع ذلك الرجل، بعد كل ذلك الوقت، إلى مخالفة أمر ربّما ما عاد أحد يتذكره وينجز الوعد بالمجيء لزيارتي: ربّما هو موشك على الموت، مثل أخته، وقرر أن ما عاد يهمّه ما قد يجري له. أو لأنّ الأمور تغيّرت كثيراً وبات خوفه أقل. ربّما تجرأ لأنه أدرك، بعد أن قرأ كتاب لويس، أن ما عاد يهم كثيراً إن حكيتُ شيئاً، ففي مقدوري أن أحصل على الكتاب بطرق أخرى... أو ببساطة قرر ذلك لأنّه اعتقد أنّ واجبه يلزمه بأن يحكي ذلك لي بعد أن قدم وعداً لرجل محتضر: يبدو أنّ أحداً، أخيراً، تصرّف تصرفاً طبيعيّاً في كل هذه القصّة...

- هل تظنّ أنّني تصرفتُ تصرف الجبناء؟

حاولتُ أن أبتسم قبل الردّ عليه.

- لا. بالطبع لا. من كان يتغوّط على نفسه خوفاً كنتُ أنا. هذا وأنا لم أكن متأكّداً من أنّهم كانوا يراقبونني قليلاً...

لكنّ جوابي لم يرضه، لأنّه عاد وكرر سؤاله:

- لماذا تأخر لويس في رأيك خمسة عشر عاماً ليؤلف الكتاب؟ هو كان يعيش في إسبانيا. كان يخشى من؟ - سألني بالنبرة نفسها وبالنغمة الصوتية ذاتها، فكأنّه يمثّل دوراً محدداً في ذلك الموقف-. لماذا انتظر لويس حتّى اختفى الاتحاد السوفييتي والكي. جي. بي. وكلّ ما يتعلّق به؟

- بسبب الخوف - أجبتُ، وعندها فعلت ما يمكن لأنظر إلى عينيه حين جاء دوري في السؤال-: ولماذا وضعتَ لي حضرتك ذلك الكتاب في البريد؟ لم يطلب أحد منك ذلك...

- عندما قرأته، رأيتُ أنّك أجدرُ شخص بقراءته، وخصوصاً ما يتصل بنهاية ميركادير، فأنتَ لا تعرف شيئاً عن نهايته. أيضاً لكي تكون لديك فكرة عمّا هو الخوف، وكم يمكن أن يكون طويلاً وكبيراً...

- حضرتك تقول لي هذا لأنّك قرأت رسالة لوبيث، أليس كذلك؟ إذن، قل لي، لماذا انتهت هكذا؟

عاد الأسود إلى التفكير. وقرر أنّ في إمكانه الردّ على سؤالي.

- لأنّ لوبيث، أقصد ميركادير، لم يتمكن من كتابة المزيد. في نيسان، حين اكتشفوا إصابته بسرطان اللوزتين، أرسلوا به ليتلقى جرعات إشعاعية، لكنّه كان حينها خراباً. في حزيران أو تمّوز كان من سوء الحال أنّ انكسرت إحدى ذراعيه حين أراد رفع قدح الماء. بدأت عظامه تتكسر. وما عاد قادراً على الكتابة...، لذلك انتهت هكذا، فجأة.

- وهل تعرف إن عاد إلى رؤية كاريداد؟

- أحد الذين عملوا مع لوبيث منذ البداية قال لي إنّ أمّه جاءت إلى هنا نهاية عام 1974 لزيارته وإنّها أفسدت عليه وعلى زوجه وأبنائه الأعياد. كانت عجوزاً مجنونة لا تطاق، قال لي. كان لديها أصدقاء في كوبا، شيوعيون مسنون تعرفت إليهم هنا في سنوات الأربعين ثمّ في فرنسا، بل كانت تفخر بأصلها الكوبيّ... تلك كان في ما يبدو المرة الأخيرة التي التقيا فيها، لأنّها ماتت في السنة التالية في باريس، وهي تتمنى، أتصوّر، العودة إلى برشلونه، شأن جميع آل ميركادير، لأنّ فرانكو تغلّب عليها في معركته مع الموت بشهر واحد وأبقى على أبواب إسبانيا مغلقة أمامها. وعلمتُ عن طريق زوجة لوبيث أنّ كاريداد ماتت وحيدة وأنّ جيرانها اكتشفوا جثتها مستدلين بالرائحة التي بدأت تنبعث من بيتها...

بينما كنت أسمعُ قصص الهجر والموت التي كان ذلك الرجل يحكيها لي، والذي بدا، على الرغم من قراره بالمجيء لزيارتي، وكأنّ الخوف ما زال يحوم بالقرب منه، اكتشفت أنّ قلقاً مزعجاً يترصدني من جديد، شعوراً خفيّاً يقرب كثيراً من الشفقة.

- سوء الحظ تلذذ بهم. كان شيئاً من قبيل العقاب - قلتُ.

الأسود وافق بالكاد، لكنّه ظلّ صامتاً، وهو ينظر إلى الأواني والعلب التي تتلقى قطرات الماء النازلة من السقف.

- هذا البيت سينهار عليك - قال أخيراً.

- ألا تريد قهوة حقّاً؟ - عدت لسؤاله، فقد أضعتُ المحادثة، وإن كنتُ أعلم أنّ الكثير من الفراغات ما زالت تتطلب الملء وكنتُ متيقناً من أنّ تلك المرة هي المرة الأخيرة التي أتكلم فيها مع ذلك الإنسان.

- لا شكراً، لا أريد حقّاً. عليَّ أن أنصرف... لعلّي أجد سيارة.

- ولماذا تعرف كلّ هذا عن ميركادير؟ لماذا وضع ثقته فيك وأعطاك تلك الأوراق؟

- حين كنّا نذهب مع الكلبين، كان يتكلم كثيراً معي. أحياناً أفكّر أنّه يحدثني بكل ذلك لكي أحكيه أنا فيما بعد إلى أحد ما. وعلى الرغم من أنّه لم يكشف لي قط عن هويته ولا عمّا فعله...، هذا اكتشفته أنا وحدي. لقد حكى لك أكثر مما حكى لي...

- وماذا عن الكلبة إيكس؟ ماذا جرى لها؟

- في مثل هذه الأشياء أظنّ أنّه كان يثق بي كثيراً: لقد وهبني لوبيث إياها، لأنّ امرأته ما كانت تريد الكلبة. كانت بمثابة ميراث تركه لي... إيكس عاشت معي أربع سنوات...

- وداكس؟ كيف قتلوه؟

عاود الأسود النظر إلى سقف الشقة، المظلم والمحتضر، وكأنه يخشى أن يكون سقوطه وشيكاً.

- حقيقة ما تقول، فقد انتهوا جميعاً نهاية تعيسة، حتى ستالين - قال وكأنّه لم يكتشف ذلك إلَّا في تلك الليلة في بيتي المتهالك والمعتم. أبعد نظره عن السقف وتوجه نحوي بنظره-. كان لوبيث في حال سيئة، لكنّه طلب منّي في يوم أن آخذه مع «داكس» إلى شاطئ صغير في خليج «هوندا». في ذلك المكان لا يوجد أحد في العادة، وفوقها كان قد سقط

المطر وكان الطقس بارداً لذلك لم تكن ترى نسمة واحدة في تلك الأنحاء. أطلق لوبيث الكلب، تركه يعدو برهة، لكنّ داكس تعب بسرعة وبدأ يسعل. راح هو يداعبه لوقت طويل ويكلمه إلى أن انقطع سعاله وتمدد. عندها طلب مني منشفة وبدأ يجفف بدنه. وكان داكس يحب كثيراً أن يجففوا له بطنه. بعد هنيهة وضع المنشفة على رأس الكلب وأخرج مسدساً... كان لوبيث متأكداً من أنّ كلبه مات على خير طريقة: من دون أن يعلم، ومن دون أن يشعر تقريباً بأيّ ألم... كان ذلك في نهاية كانون الثاني. ولم نعد بعدها إلى الشاطئ...– نهض الأسود وفي تلك اللحظة لم يبدُ لي طويلاً كثيراً–. منذ متى انطفأت الكهرباء؟

– منذ خمس ساعات تقريباً... أنا أحاول ألّا أحسب الوقت. المهم...

وبينما كنّا نتكلّم فتش الرجل في أحد جيوبه.

– تبّاً! كنتُ على وشك أن أنسى.

أخرج قطعة من القماش، أصغر من منديل، وفتحها. أخرج شيئاً ووضعه على المنضدة: لقد تمكنت على الرغم من العتمة أن أتعرّف على ولاعة خايمي لوبيث.

– هذه لك – قال وتنحنح–. هذا هو نصيبك من الميراث.

***

كانت نهاية القرن والألفية تقترب حين مات تاتو، كلب «آنا» البودل بسبب الشيخوخة، ودخلت علة زوجي العظمية في مرحلتها الشديدة بنوبة أبقت عليها مشلولة تقريباً، مع آلام شديدة طوال ثلاثة أشهر. لم نكن بعد نتصور مدى خطورة حالتها، وبدأ كلّ أصدقائي، داخل كوبا وخارجها، البحث عمّا بدا العلاج الأخير لمرضها: الفيتامينات – كالسيوم مع الفيتامين دي وفيتامين بي المركّب، خصوصاً–، ومرممات عظمية، وبضمنها ما قيل إنّه معجزة غضروف سمك القرش وحبوب «فورساماكس»، التي هي من قوة الأثر أنّ المريض يظل بعد تناولها ساعة كاملة من دون حركة. وتحسنت وضعيّة «آنا»، بينما راح تروكو، النبّاح

الضال والأجرب الذي تبنيته بعد وقت قليل من موت تاتو، يسمن وراح شعره يطول ويصبح أكثر أعضاء العائلة ذكاءً وسعادة.

ضاع انتقال القرن والألفيّة المنتظر وانتهى العالم، الذي بات مكاناً أكثر عدوانيّة، بحروبه وقنابله وتطرفه من كلّ نوع (كما كان ينتظر، بعد عبور القرن العشرين)، ليصير في نظري فضاءً غريباً، منفراً، رحتُ معه أقطع الجبال، بينما حملني شكّي وحزني ويقيني على أنّ الوحدة والإهمال يتربصان بي عند العطفة إلى السير على غير هدى.

كان أكثر ما يؤلمني هو رؤية «آنا»، وعلى الرغم من التحسن العابر بين الحين والحين، وهي تنطفئ بين جدران شقة «لاوتون» الأربعة الرطبة والمتقشرة والمسنودة بدعامات. ربّما بسبب ذلك، قصدتُ، في البداية مصاحباً ليأس زوجي، وبعد ذلك متعبداً ومتوسلاً، كنيسة ميثوديّة وحاولتُ أن أعلّق آمالي في غيب قد أجد فيه ما منعه عنّي الواقع. لكنّ قدرتي على الإيمان كانت قد فسدت إلى غير رجعة، ومع أنّني كنتُ أقرأ الكتاب المقدس وأداوم على العبادة، فقد كنتُ أخالف قواعد الدين القويم التي تتطلبها تلك العقيدة: أوامر وواجبات أكثر من كثيرة غير قابلة للنقض لحياة واحدة، رغبات أكثر من كثيرة للتحكّم بالمؤمنين وبأفكارهم لدين واحد اختاروه بحرية. التحكّم، التحكم السافل. أمّا ما عقّد اعتقادي فكان الدعوة إلى تواضع مسيحي ضروري صادرة من المنبر عن زعماء دينيين مسرحيين بدأت أشكّ في صدقهم حين علمتُ عن سيارات ورحلات إلى الخارج وامتيازات يأخذونها مقابل تناسي الماضي والتواطؤ في الذنب والسكوت عليه. لو لم يتعلّق الأمر بزوجي لأرسلت بأولئك الرعاة مرّات ومرّات ليغسلوا مؤخراتهم. لكنّها كانت تقول لي دائماً إنّ الربّ فوق كل البشر، الخطائين في جوهرهم وتعريفهم، فأسكت - كما اعتدت على مدى حياتي-. حينئذٍ تشبثت بالجوهري الذي يوفر لي ذلك الهروب واجتهدتُ للإيمان بما يقتضي الإيمان به. ولم أفلح: لم يهمّني لا الغيب ولا خلاص روحي الأبدية. كما لم تعنيني

الحياة الدنيا ولا الوعود التي يكيفونها على هواهم بمستقبل أفضل على حساب حاضر أسوأ. كنتُ أفضّل أن أسمع عن تعويضات أخرى، عن ثواب آخر.

وصارت حدود حياتي البائسة هي البحث عن الدواء والقليل من الطعام لزوجي، وتدخين السجائر بشراهة من يطلب الانتحار، ورعاية تروكو والعناية به بعد كلّ حادثة تقع له أو عراك يخوضه في الشارع مع الكلاب الأخرى، وما أكثر ما كان يتعارك، وأداء فروض دِين طاغٍ من دون إيمان به، والنظر ببعد رواقي إلى تصدعات جدران شقتنا وشقوق سقوفها الآيلة للانهيار، ومعالجة الكلاب الفقيرة والمتروكة، كما هي حال أصحابها. وصرت أصعد في كلّ ليلة، سواء أكان الطقس بارداً أم حارّاً، وبعد أن أرقد «آنا» - فما عادت وحدها تقوى على الرقاد-، وما بي رغبة لقراءة ولا لكتابة، على سور جاري وأجلس على تقاطع يشكله فرعان من شجرة مانغو. هناك، تحت نظرات تروكو، الذي كان يتابع من الممر كلّ حركة من حركاتي، كنت أدخن سيجارتين وأنصرف للتفكير في اكتمال تشكّل هزيمتي، وفي شيخوختي المبكرة وخيبة أملي المطلقة، ولاختبار الضمير الميت تقريباً للكائن البائس الذي انتهى إليه ذاك الرجل الذي كان في يوم من الأيام فتى مفعماً بالآمال، والذي كان يبدو مهيّأً ليروّض القدر وليركعه أمام قدميه. يا للكارثة.

بتلك الحالة المعنوية الصادقة كنتُ أسأل نفسي، وأنا أرقب الكون المطلق: من عساه يهتمّ بما يمكن أن أقوله في «كتاب»؟ كيف كان ممكناً أن أدع «آنا» تقنعني، بل أن أقنع أنا نفسي، بمحاولة كتابة «ذلك» الكتاب؟ من أين أتيتُ بفكرة أنّني أنا، إيبان كارديناس ماتوريل، أريد أن أكتبه وربما نشره؟ ومن أين أردت ذات مرة، في حياة أخرى بعيدة، أن أكون كاتباً، أو صدّقت أنني كاتب؟ وكان الجواب الوحيد الذي يأتيني هو أنّ تلك القصّة لاحقتني لأنّها «هي» كانت في حاجة إلى أن يكتبها أحد. ولم تختر ابنة القحبة سواي أنا.

القِسْمُ الثالِث

سِفْرُ الرّؤيَا

-29-

موسكو 1968

فَدَعَا الفريسيون الأعمى ثانية:

- انطق بالحقيقة أمام الرب. أنتَ تعْلَمُ أَنَّ هذَا الإِنْسَانَ خَاطِئٌ.

- لا أعلم إن كان خَاطِئاً أم لا - قال الرجل-. كلّ ما أعلمه هو أنّني كُنْتُ أَعْمَى وَالآنَ أُبْصِرُ.

(إنجيل يوحنا/ الإصحاح التاسع 24-26)

يمكن أن يكون للطقس في موسكو حرارة جهنّم أيضاً، ولا شكّ في أن عصر الثالث والعشرين من آب من عام 1968 كان أشدّ أوقات الفصل حرارة. لكنّهم، وبفضل الميداليات التي كانوا يزينون بها صدورهم، لم يضطروا إلى إبراز أيّة وثائق تعريفيّة لكي تفتح أمامهم أبواب فندق موسكو المتداعي ويستقبلهم الزفير البارد المنبعث من أجهزة التبريد ذات الصرير.

في السنوات الأخيرة، لجأ رامون بابلوفيتش مرات كثيرة إلى تكتيك تعليق ميداليات بطل الاتحاد السوفييتي ووسام لينين ذات النفوذ على طيّة سترته، لتتكفّل بفتح أبواب البلد الأكثر انغلاقاً في العالم تقريباً من دون كسر ولا قوّة. كانت روكيليا في الواقع هي من طبقت ذلك الاكتشاف الرائع صباح يوم من أيام شتاء عام 1961، وهي ترتجف في طابور طويل

كان يتحرك ببطء صوب شارع «25 أكتوبر»، مقابل الواجهات الزجاجية لمحل من محلات المجمع التجاري غوم. رأت روكيليا، وهي تلعن حظها والبرد والطوابير والتدافع الذي عليها أن تتحمله بصبر، رجلاً بساق واحدة يسير على عكازتين ويدخل من أمام صف المتطلعين إلى الشراء، ومن دون إذن، إلى المحل ليحمل ست لفافات من بسطرمة السلامي الهنغاريّة الثمينة واثنتي عشرة علبة من عجينة سرطانات كامشتكا النادرة. لقد أثارت الحصانة التي اخترق بها المعوّق صفّ السيدات الروسيات المقاتلات اللاتي كنّ يتصدرن الطابور، واللاتي اكتفين بلصق وجوههن بزجاج المحل ليعلقن مستاءات، ولكن بصوت خفيض، حول عدد لفافات السلامي التي وضعها الرجل في كيسه (وهنّ مرعوبات من احتمال أن يسمعن الصيحة التي يخشاها السوفييت أكثر من غيرها... انتهى، أيها الرفاق!)، تأثرها بروليتاريّاً: فما كان وضع إنسان معوّق ليُراعى هكذا لا في المكسيك ولا في أيّ بلد رأسمالي. لذلك، حين وضع الرجل آخر قطعة في كيسه (حيث كان قد وضع أيضاً زجاجتين من الفودكا)، استعانت روكيليا بالإشارة وبلغتها الروسية البدائية لتعلّق للمرأة التي كانت خلفها في الطابور على تلك الالتفاتة الإنسانية التي تميّز السوفييت؛ لكنّها فوجئت حين رأت، أو في الواقع حين ظنّت أنّها رأت، أنّ لا علاقة لإعاقة الرجل بالامتياز الذي حظي به، بل كان مردّ امتيازه هو الميدالية المتدلية من على جيب معطفه المنسول. فالمعاق بطل من أبطال الاتحاد السوفييتي وتلك الصفة تمنحه الحق بتجاوز الجميع في جميع الطوابير، وإن اضطرت الواحدة إلى أن تنام على الرصيف لتضمن الحصول على البضاعة التي جاءت من أجلها. أمّا ما كانت روكيليا متأكدة منه فهو أنّ النيشان الذي يحمله الرجل (اقتربت منه إلى حدّ عدم اللياقة تقريباً وإلى حدّ الشعور بالغثيان، بسبب الرائحة النتنة التي كانت تنبعث من البطل) شبيه بواحد من تلك التي يحتفظ بها زوجها في أحد الدروج في البيت. لذلك حين ذهبت، في الليلة التالية، مع رامون إلى الاحتفال الذي نظمه «بيت إسبانيا»، وتحدثت

مع قدامى المنفيات الجمهوريات، أدركت أنّ حياتها في موسكو قد تغيّرت. وصارت، منذ ذلك اليوم، كلما أرادت البحث عن منتج غير متوفر (والقائمة يمكن أن تكون طويلة) خرجت مع زوجها، بعد أن تعلّق على صدره كيس الميداليات، للحصول على اليخنة البلغارية والسلامي الهنغاري، أو على الورق الصحي، أو البرتقال أو بطاقات الدخول إلى مسرح البولشوي.

في عصر اليوم السابق رنّ جرس التلفون حين كان رامون بافلوفيتش يقرأ نسخة من صحيفة «لومانيتيه» التي كان يشتريها كلّ صباح من الكشك الكائن في المخرج الشمالي من حديقة غوركي، في الطرف الآخر من كورنيش فرونزا. صاحت به روكيلينا، التي كانت تكره رفع السماعة والتحدث بالروسية، طالبة منه وهي في المطبخ أن يردّ على التلفون. وكان رامون يكره أيّ مقاطعة لطقوسه في القراءة أو في استماعه إلى موسيقى باخ وبيتهوفن وفايّا، وقد بدا له ذلك العصر على وجه الخصوص مزعجاً، فقد كان منكبّاً على مقال يبيّن كيف أنّ الرجعيين التشيك عملوا بدهاء من أجل عودة باهظة التكلفة للرأسمالية، من وراء ظهر عمال البلد وفلاحيه. الجيش الأحمر، بدخوله في الوقت المناسب في براغ، بطلب من قيادة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، لم يفعل إلّا ضمان بقاء الخيار الاشتراكي الذي اختارته الجماهير العريضة لتلك الأمّة، وتنفيذ واحدة من اتفاقيات حلف وارشو، يوضح التعليق.

خلع رامون بافلوفيتش نظاراته المرقشة السميكة وما زال لديه الوقت لكي يقول لنفسه إنّ ذلك المقال يثبت أن لا شيء تغيّر: ولا حتّى اللغة. وقف على قدميه بصعوبة: على الرغم من أنّ روكيليا تلحّ عليه بتناول الخضروات، لم يفقد من وزنه شيئاً، وصار، مع السنوات، بطيء الحركة منهكاً. رفع قدميه ليعبر من فوق إيكس وداكس، صغيري كلاب الصيد الروسية، اللذين عادا، على الرغم من شبابهما، كسولين مع حرارة الصيف. كان رامون متأكداً تقريباً من أنّ المكالمة هي من ابنه أرتورو،

المراهق المفتون بالتلفون. عند الدقة العاشرة، تمكن من الإمساك بالسماعة الثقيلة.

- دا؟ - قال بالروسيّة، منزعج تقريباً.

- خراء! ها أنتَ تتكلم الروسيّة؟ - كان الصوتُ الساخر بالفرنسية ضربة سهم اخترق قلب ذكريات رامون بافلوفيتش.

- أهذا أنتَ؟ - سأل، أيضاً بالفرنسية، وهو يشعر بصدره وصدغيه يطرقان طرقاً عنيفاً.

- ثمانية وعشرون عاماً من دون أن نلتقي، أليس كذلك يا فتى؟ حسناً، ما عدتَ فتى.

- هل أنتَ في موسكو؟

- نعم، وأتمنى أن ألقاك. منذ ثلاث سنوات وأنا أسأل نفسي إن كان عليَّ أن أتصل بك أم لا، واليوم قررتُ. هل يمكن أن نلتقي؟

- طبعاً - قال رامون بافلوفيتش، بعد أن فكّر لثوانٍ، لكنه حاول أن يكون صوته واثقاً. طبعاً، إنّه يريد أن يراه، وإن فكّر، لألف سبب وسبب، إن كان من المناسب أن يراه. فهو يفترض، على الأقل، أنّ المكالمة مراقبة وأنّ عملاء الأمن سيصورون ذلك اللقاء، لكنّه قرّر، في النهاية، أن المخاطرة تستحق عناءها.

- غداً، الساعة الرابعة، أمام بار محطة لينينغراد. هل تذكر؟ اجلبْ معك نقوداً، نحن الآن ندفع من جيوبنا. وجيبي ليس بالتحديد عامراً.

- كيف تجري الأمور معك؟ - تجرأ رامون بافلوفيتش على السؤال.

- عال العال - قال الآخر، بالإسبانية، وكرر قبل أن ينهي المكالمة-: عال العال. أراك غداً.

ما إن وضع رامون بافلوفيتش السماعة حتى سمعَ الصرخة من جديد. لقد طاردته صرخة الألم والمفاجأة والغضب تلك طيلة تلك السنوات، ومع أنّها صارت، في السنوات الأخيرة، تحدث في أوقات متباعدة، فقد كانت حاضرة هناك دائماً، في دماغه، مثل وريد هاجع كامن مستعد

للتحرك والنشاط، بسبب أيّ تذكر للماضي أحياناً، وأحياناً من دون سبب واضح، فكأنّها زنبرك لا قدرة له ولا إمكانية على ضبط نفسه.

منذ أن وصل إلى موسكو، قبل ثماني سنوات، وهو يتمنّى أن يلقى ذلك الرجل «ماذا عساه يُسمى الآن؟ بل ما كان اسمه قبل أن يحمل قناعه الدائم؟»، وكان يخشى أن يحول موتُ أحدهما دون الحديث الضروري الذي يقرّبه من الحقائق التي يجهلها، على الرغم من أنّها أثرت كثيراً في مسارات حياته. والآن، حين بات يفكّر أن لقاءهما لن يحدث أبداً، يوشك هذا اللقاء أن يصبح حقيقة بمبادرة جاءته، كالعادة، من معلمه القديم والغامض دائماً.

- مَن؟ - سألته روكيليا حين خرجت من المطبخ، وهي تجفف يديها بالصدرية-. ما بكَ، رامون؟ وجهك شاحب...

استردّ نظارته وتناول سيجارة من العلبة الموضوعة على المنضدة القريبة من كرسي المطالعة وأشعلها.

- إنّه هو - قال.

خرج رامون والسيجارة في يده إلى الشرفة الصغيرة، ليستمتع منها بالنظر إلى النهر في طرف، وإلى الحديقة المشجرة في الطرف الآخر. إن هو نظر من شقته المرتفعة إلى الجنوب، شاهد مباني الجامعة وكنيسة «سان نيكولاس»؛ وإن توجّه بنظره نحو الشمال رأى جسر «كريمسكي»، من حيث اعتاد أن يعبر صوب حديقة غوركي. أمّا في الجانب الأبعد فيظهر أعلى أبراج الكرملين وقصوره. ابتعد إيكس وداكس، وراحا، وهما يقعوان، يلهثان ويتأملان المارة الصغار الذين يسيرون عند رصيف الميناء. أحسّ رامون كيف أنّ شعوراً قديماً بالخوف يعاوده ويضغط على صدره. ونظر بلا شعور إلى يده اليمنى حيث استقرت ندبة خفيفة لها شكل الهلال على سنتمترات قليلة من الجرح الذي أصابه في الأيام الأولى للحرب. لم يكن يحب أن ينظر إلى تلك الخطوط الأربعة الممتدة على جلده، بل كان يفضّل ألّا يتذكر، وإن بدت الذاكرة وكأنّها كلّ شيء في حياته منذ ذلك

الفجر البعيد الذي ردّ فيه على سؤال كاريداد بكلمة نعم: كانت ذاكرته تتصرف، من ناحيتها، باستقلالية عابرة لإرادة صاحبها المتضائلة.

سمع أولاً الصرخة، وحين فتح عينيه رأى أنّ الجريح، الذي التوت نظارتاه فوق أنفه، استطاع أن يتشبّث بيده التي تحمل السلاح ويمسك بها بقوة ليغرز فيها أسنانه ويجبره على الإلقاء بالفأس المضرجة بدمه وبكتلة من دماغه. ما حدث في الدقائق اللاحقة تحوّل إلى مزيج من الصور تختلط فيها ذكريات عاشها بحكايات سمعها وقرأها على مدى تلك السنوات. يؤكدون أنّه، وقد شلّته الصرخة وردة الفعل غير المنتظرة من طرف الجريح، لم يحاول حتى الخروج من المكتب، ويقولون إنّه، بينما كان الحراس الشخصيون يضربونه بالأيدي وأعقاب مسدساتهم، صرخ بالإنكليزية: «أمي رهينة لديهم. سيقتلون أمّي». من أيّ فجّ من فجاج ذهنه خرجت تلك الكلمات؟ تذكّر، في المقابل، أنّه حاول أن يغطي رأسه ليحميه من الضرب، وأنّه بدأ يبكي حين ظنّ أنّه فشل في محاولته: لم يستطع أن يصدق أنّ العجوز تحمّل الضربة وهاجمه بتلك القوة اليائسة. حينئذٍ بدأ يتوسل إليهم صارخاً أن يقتلوه: إنّه يتمنّى الموت، إنّه يستحقه. لقد أخفق، فكّر.

ما زال في مقدور رامون أن يشعر في صدره بصدى الضيق الذي قطع نفَسه حين سمع من الشرطي الذي كان يستجوبه تأكيده له، فضلاً عن تأكيد خبر وفاة المجني عليه، أنّ ضحيته أنقذ حياته، وهو يعاني من إصابته القاتلة، حين طلب من حراسه الشخصيين أن كفّوا عن ضربه، فمن الضروري إجباره على الكلام. جاءت تلك المعلومة لتعطي دلالة لما وقع في ذلك العصر، ولتغذّي، بطريقة غريبة، صرخة الألم والفزع التي ما انفكّت تلحّ على سمعه. استطاع، منذ تلك اللحظة، أن يستحضر بوضوح أكبر الراحة المفاجئة التي أحسّ بها مع توقف ضرب أعقاب المسدسات على رأسه، وأن يتذكر نظرة الاشمئزاز التي رمته بها نتاليا سيدوفا ولحظة دخول الكلب آتيكا إلى الغرفة واقترابه من الجريح،

المطروح على الأرض، وقد وضعت وسادة كبيرة تحت رأسه. كان رامون متأكداً من أنّه رآه وهو يداعب الكلب، وسمعه وهو يطلب منهم ألا يسمحوا لسيفيا بالدخول.

لم يستردّ رامون وعيه كاملاً، في الواقع، إلّا حين أخرجوه من البيت مقيداً، وقد بدأ الظلام يسدل أستاره. قبل أن يصعد إلى سيارة الإسعاف التي أخذته إلى مستشفى الصليب الأخضر، نظر نحو جهة اليسار وتحقق، والدم والورم يغلقان عينه اليمنى، من أنّ سيارة «الكرايسلر» الخضراء الغامقة، التي كانت واقفة بعيداً عن سيارات الشرطة التي ملأت شارع «فيينا»، قد اختفت. طلب من المسؤول عن حراسته، وهو في سيارة الإسعاف، أن يأخذ الرسالة الموجودة في جيب سترته الصيفيّة. لم يحل الألم الذي كان يشعر به في يده المعضوضة وفي رأسه ووجه المليئين بالكدمات، دون أن تغمره، وهو يرى الشرطي يفتح الرسالة، موجة من الانبساط، ولا أن تستحوذ فكرة وحيدة، واضحة ومحددة، على فكره: اسمي جاك مورنارد، أنا جاك مورنارد.

كان توم قد نبهه إلى أن تلك الرسالة ستكون حصنه الوحيد، وأنّ عليه أن يأخذ حذره بعدها بغضّ النظر عمّا يحصل. وهكذا فعل طيلة عشرين سنة أمضاها في جحيم الأرض المكثّف في السجون المكسيكية الثلاثة التي أمضى فيها عقوبته. لكنّ الأوقات الأشد قسوة كانت بلا شك تلك الأشهر التي احتجزوه أثناءها في الزنزانات المحصنة في الشعبة السادسة، حيث خضع لجلسات استجواب ماراثونيّة، ضرب ممنهج وصفع دائم وركل يومي؛ مقابلات مع سيلفيا، أشبعته أثناءها بصقاً على وجهه؛ مواجهات مع حراس المرتد الشخصيين، بل مع العديد ممن شاركوا في الهجوم الجماعي الذي قادة سيكيروس (القول بأنّه «قاده» هو مجرد كلام)، الذين لم يستطيعوا، بالطبع، التعرّف إليه ولا التحدث عن صلته باليهودي الفرنسي. ثم تتابعت المقابلات مع مسؤولين بلجيكيين أثبتوا زيف نسبه العائلي وجنسيته، وتلاحقت الاختبارات

النفسية الذكيّة، القريبة من التعذيب، التي كانت تتطلّب منه كل مقاومته الجسمانية وذكائه وخزين ما تدرب عليه في «مالاخاكوفا»، لكي ينجح في الإبقاء على مستوى مقاومته عالياً مرتفعاً. أمّا المشقّة الكبرى فقد صادفها حين طلب منه أن يعيد تمثيل مشاهد الهجوم، وحين أجبروه على أن يمثّل، بجريدة مطوية في يده، الطريقة التي ضرب بها المدان. تبيّن له هناك، من خلف المكتب الخشبي، والجريدة في الأعلى، أنّ الفأس أخطأت النقطة المحددة ببضعة سنتمترات، لأنّ المرتد التفت نحوه، وهو يحمل الأوراق، وذلك يعني أنّه امتلك الوقت ليرى كيف نزل الرأس المدبب القاتل وفتح جمجمته. لقد كان ذلك المشهد، الذي فسّر قرار الأطباء العدليين من أنّ الضحية تلقى الضربة من أمام، وأوضح الاحتمال الذي صعب تفسيره من أنّ العجوز تمكن من الوقوف على قدميه ومصارعة الجاني، بل والبقاء على قيد الحياة أربع وعشرين ساعة، من الوحشية أنّ الجاني سقط مغشيّاً عليه.

تذكر أيضاً اللحظة الصعبة التي واجهه فيها قاضي التحقيق بالأدلة على أنّ اسمه الحقيقي هو رامون ميركادير دل ريو، وإنّه كاتلاني الأصل، لأنّ بعض اللاجئين الإسبان تعرفوا على صورته في الصحف، ثمّ أطلعه على صورة فورية أخذت له في برشلونه، وهو بلباس عسكري. قاد ذلك الدليل إلى جولة أخرى من الاستجوابات والتعذيب هدفها انتزاع اعتراف كان الجميع يتمنون سماعه. وبدا رئيس الشرطة السريّة، سانجيث سالازار، وكأنّه تبنّى مهمة انتزاع ذلك الاعتراف منه باعتبارها مسألة شخصيّة، وكرر عليه مئات المرات، بل آلاف المرات الأسئلة ذاتها (أيّ عقل وضع السلاح في يده؟ من هم شركاؤه في الجريمة؟ من هم الذين بعثوا به إلى هنا، من هم الذين ساعدوه، من هم الذين زودوه بالموارد المالية ليحضر للاعتداء؟ ما هو اسمه الحقيقي؟). وكان هو، في جميع الحالات وفي جميع السنوات والمراحل، يحيلهم على الرسالة: لم يسلحه أحد، ليس لديه من شركاء ولا أعوان، سافر بالأموال

التي وفرها له عضو في الأممية الرابعة نسي اسمه، حلقة اتصاله الوحيدة في المكسيك هو شخص يدعى بارتولو، لا يذكر إن كان لقبة بيريث أم باريس، أمّا اسمه فهو جاك مورنارد فاندندريش، وإنّه ولد في طهران، أثناء مهمة والديه، وهما دبلوماسيان بلجيكيان، عاش معهما بعد ذلك في بروكسل، ولا يعرف أيّ شيء عن أيّ ميركادير دل ريو، ومع أنّ هناك شبهاً كبيراً فإنّه لا يمكن أن يكون الرجل الذي يظهر في الصورة.

أعادت له قدرته على المقاومة بصمت، وأعاد له إصراره على ما رأى فيه الجميع كذباً محضاً، قوته وقناعاته التي اهتزت في الأيام التي سبقت فعله. صار ينبع من داخله شعور بالتفوق، وقناعة بأنّهم لن يثنوا عزيمته. فكّر أكثر من مرّة في أندريس نين وفي ما فعل مع معتقليه، حين رفض التهم التي كانوا يحاولون توجيهها إليه. كان رامون يدرك أنّه إن وصلته الحماية التي وعد بها، وإن لم يصدر لأيّ من رجال الشرطة المرتشين أو لأيّ من السجناء الذين سيعيش معهم مستقبلاً الأمر بتصفيته، فسيستطيع التحمل، وللوقت اللازم، وفي الظروف والضغوط التي سيخضعونه لها، لأنّه يعلم أنّ حياته تعتمد على تلك المقاومة، على تلك المقاومة فحسب. وبدا مقتنعاً بأنّ كوتوف قد أبرّ بوعده، في البداية على الأقل، وإن لم تحصل له تلك القناعة إلّا بعد سبعة أشهر من العزل والضغوط، حين سمحوا له أن يستقبل محاميه، أوكتافيو مديين أوستوس، الذي وكّلته سيدة تدعى أيوستاسيا بيريث، في يوم 21 من آب ذاته. لقد سلّمته تلك المرأة، التي لم يرها المحامي ثانية، مبلغاً كبيراً لكي يتخذ الإجراءات الضرورية إلى أن تعاود هي أو وكيل من طرفها الاتصال به. فهم رامون حينها أنّه ما عاد وحيداً في اللعبة، وحين طلب منه مديين أوستوس أن يحكي له الحقيقة ليتمكن من مساعدته، كرر عليه حرفيّاً محتوى الرسالة التي سلمها إلى الشرطة.

- وهل تريد مني أن أصدقك، سيد مورنارد؟ - قال له المحامي، وهو ينظر إليه في عينيه.

- لا أريد إلَّا أن تدافع عني، دكتور. وعلى أفضل طريقة ممكنة.

- واضح أنّ كلّ ما قلته لي هو كذب محض. فلا أنت بلجيكي، ولا جاك مورنارد موجود، ولم تكن تروتسكيّاً، ولم تخطط للجريمة قبل أسبوع من وقوعها. هكذا سيكون الأمر صعباً...

- وماذا أستطيع أن أفعل إن كانت هذه هي الحقيقة، على الرغم من كلّ ما يريد الجميع تصديقه وقوله؟

- هكذا نبدأ بداية سيئة- تأسف الآخر-. لتكن الأمور واضحة: ستصر حكومة المكسيك حتى تجبرك على الاعتراف، لأنّ جريمتك أدت إلى فضيحة عالمية. لقد نسي الناس الحرب لأسابيع. هل قالوا لك إن تشييع تروتسكي شهد حشوداً لم يشهدها تشييع أيّ أجنبي في هذا البلد؟ هم يعرفون أنّ هويتك مزورة وأنّ حضرتك تفهم الإسبانية كما لو كانت لغتك الأصلية. كلّ هذا أثبتوه حين منحوك شرف إجراء أول عملية لتخطيط الدماغ في المكسيك. لقد تحققوا من أنّ قصّة لقاءاتك مع تروتسكي للتحضير لاعتداءات في الاتحاد السوفييتي هي مجرد هراء، فسجل الزيارات في البيت يؤكد أنّ حضرتك لم تمضِ معه أكثر مما مجموعه ساعتان، وأغلب الوقت في حضور أشخاص آخرين. الكل يعرف أنّ صديقك بارتولو باريس ما هو إلَّا شبح، وأن الرسالة التي سلمتها والتي كررتها عليَّ هي خدعة: من كتبها هو مستهتر يحمل أقصى قدر من الازدراء تجاه الذكاء، فهو يعرف أنّ تلك الأكاذيب ستنكشف في عشر دقائق. مع كلّ هذه الأمور التي هي في غير صالحك، ومع حكومة مصممة على أن تنتزع منك الحقيقة، كيف تريد أن أدافع عنك وأنا أعلم أنّ حضرتك كذّاب؟

- حضرتك المحامي، لستُ أنا. قتلته بسبب ما ذكرته في الرسالة. هذا كل ما أستطيع أن أقوله. وأريد أن تسدي إليّ معروفاً: اشترِ لي نظارات طبية مدرّجة، فما عدتُ أرى شيئاً- قال له، وهو يستعد لمواجهة كلّ العواقب.

فزع رامون حين خرجت روكيليا إلى الشرفة وهي تحمل كأساً من الماء وفنجاناً من القهوة على صينية أوزبكيّة ملونة.

- لماذا يطلبك الآن ذلك الرجل؟ - سألت بينما كان رامون بافلوفيتش يشرب الماء.

- لنتكلم، روكي، لنتكلم فحسب- قال وأعاد الكأس، واستعد لتناول الفنجان.

- هل أنت في حاجة إلى النبش في الماضي؟ أليس من الأفضل أن تعيش حاضرك؟

- أنتِ لا تفهمينني، روكي. إنّها ثمانٍ وعشرون سنة من الصمت... عليَّ أن أعرف...

- رامون، ألا ترى أنّ الأمور ليست على ما يرام. ما يحدث في تشيكوسلوفاكيا... هل تظنّ أنّهم سيدعونك تخرج من هنا؟

- لا تشغلي بالك الآن بهذا من فضلك. تعلمين أنّهم لن يدعوني أخرج أبداً. ثمّ إنّ ليس لديّ مكان أذهب إليه...

أخذ رشفة أولى من قهوته ونظر إلى زوجه. حتى روكيليا، بعد خمسة عشر عاماً من العلاقة، لا تستطيع أن تفهم ماذا يعني ذلك اللقاء مع معلمه القديم. منذ البداية، حتى مع يقينه بأنّ روكيليا أرسلت له من قبل رؤسائه البعيدين، فقد قرر أن يبقي المرأة على هامش التفاصيل الجزئية لعلاقته مع عالم الظلمات، فعدم المعرفة، بين القساة الدائمين، هو خير وسيلة لحماية النفس. وهذا هو الموقف الذي اتخذه مع شقيقة لويس منذ أن عاود لقاءه في موسكو وأسرّه هذا تطلعه إلى العودة إلى إسبانيا ذات يوم.

- ولكن لا تقلقي. ما عادوا يستطيعون أن يفعلوا بي شيئاً. فقد فعلوا معي كلّ شيء- قال وانتهى من شرب قهوته.

- في مقدورهم دائماً أن يفعلوا أكثر. ولدينا الآن أولاد...

- لن يحصل شيء. إن لم أتكلم... سأخرج للتجوال مع الكلاب.

صعد، ومعه كلباه، في المصعد، وضغط على زر الطابق الأسفل، وهو يحمل السيجارة في يد والسلسلة في اليد الأخرى. كانت تلك البناية الكائنة في رصيف فرونزا، والتي انتقل للسكن فيها قبل سنتين، سكناً لقادة حزبيين محليين ورؤساء شركات وزوج من اللاجئين الأجانب الرفيعين، وكان قاطنوها يحظون بخدمة المصعد والإنترفون في الطابق الأسفل (يعمل عليه بنشاط رجل الميليشيا الذي يعمل حارساً للبوابة)، الطوابق مبنيّة من الغرانيت وهناك حمام في كلّ شقة وغسالة، والأهم من ذلك موقع رائع على ضفة نهر «موسكوفا»، مقابل حديقة غوركي وعلى بعد خمس عشرة دقيقة من المركز مشياً على الأقدام. كان أولاده، أرتورو ولاورا، أكثر من يستمتع بوجود تلك الحديقة، حيث كانا يتزلجان على الجليد شتاءً ويمارسان الرياضة صيفاً. وكان إيكس وداكس ينتفعان أيضاً من الحديقة في الصباح، أمّا في المساء فقد كانت الجولة تقتصر على الممر المشجّر الذي ينساب بالقرب من جادة الرصيف، حيث علّمهما صاحبهما الجري والقفز من دون الاقتراب من الشارع.

أطلق رامون الكلبين واستغلّ دكّة شاغرة تحت ظلّ أشجار اسمها «سيرين»، كانت ما تزال محملة بعناقيدها من أجراس زرق. كان يعجبه أن يتطلّع إلى كلبيه وهما يجريان، وينظر إلى شعرهما البنّي وهو يتحرّك بينما تبدو رجلاهما الطويلتان وكأنهما لا تطآن العشب إلّا مسّاً بخببهما الرشيق الأنيق. منذ أن مات جورّو، ذلك الكلب الصغير المصوّف الذي انحشر في خندقه في جبال «غوادراما»، تلك الميتة العبثية البشعة، لم تسنح له فرصة أخرى لإطعام كلب والعناية به. في سنوات موسكو الأولى، قبل أن يتبنّى أرتورو ولاورا، أراد أن يحصل على جرو، لكنّ وصول الأطفال، الذين طالما تمنتهم روكيتا العاقر، أجبره على تأجيل رغبته، فما كان المكان يتسع في بناية حيّ «سوكول» الخروشوفيّة التي كان يسكن فيها إذاك. مع ذلك، حين ظهر شقيقه لويس، ربّما تنفيذاً لأمر غامض ولا يُرد، في شقته في فرونزا ومعه كلبان صغيران بورزوي، علم

رامون أنّ الكلبين هما جائزة وعقوبة عليه أن يتقبلها باعتبارها حملاً آخر من أحمال ذلك الماضي الذي لا ينمحي - المستعد الآن للعودة على يد الرجل الذي رسم، بصبر وتدبّر، مصيره.

يذكر رامون أنّهم حين حكموا عليه بالسجن عشرين سنة، وهي العقوبة القصوى في قانون العقوبات المكسيكي، ونقلوه إلى سجن «ليكومبيرّي» المرعب (الذي يسمى «القصر الأسود» بحق)، اهتزّت الثقة التي كان يعوّل عليها حتى تلك اللحظة: بين جدران ذلك السجن الدائري، المزدحم بالقتلة من كلّ صنف، ممن يتمتعون بكل مهارات القتل، دخلت حياته في نفق مسدود. لن يجد مخرجاً إلّا إذا كان وعد كوتوف له ما زال قائماً وإلّا إذا كان صمته على مدى سنتين تقريباً ذا جدوى. وإلّا فسيكون كمن نجا من سفينة غارقة وظهر في مكان لا يساوي فيه عنق الرجل أكثر من بضعة قروش. صار الخوف من الموت، وما كان يعدّه بين نقاط ضعفه، حاضراً، منذ تلك اللحظة، يرافقه ويترصده لألف سبب وسبب. كان رامون يعلم أنّه، وهو ميت، سيكون أقلّ إحراجاً للرؤوس التي، كما كان رجل الشرطة سانجيث سالازار يقول، مدّت ذراعه بالسلاح. مع ذلك، فالأسوأ هو أنّه صار يرى أنّ حمايته وتدبير هروبه ما عادا من ضمن أولويات تلك الرؤوس نفسها، وخصوصاً كوتوف، المنخرط بكل تأكيد في مهام أخرى أهمّ من حماية جندي وقع في أيدي الأعداء وأصبح في عداد خسائر المعركة. على ذلك اليقين المؤلم كان يصحو صباح كلّ يوم، ولطالما فتح عينيه وقد سمّر حدقتيه في سقف زنزانته الضاغطة، وهو يردد الكلمات التي كان قد سمعها من ضحيته: لقد أنعموا عليَّ بيوم آخر من الحياة، فهل سيكون يومي الأخير؟ منذ ذلك الحين طارده، بلا هوادة، إحساسه بأن مصيره ومصير الرجل الذي أمروه بقتله امتزجا في لقاء مروّع، ورافقته الصرخة التي تدوّي واضحة في سمعه، والندبة التي لها صورة الهلال، التي يحملها منذ ثمانية وعشرين عاماً على يده اليمنى.

***

لم يتغيّر بار محطة لينينغراد كثيراً في السنوات الثلاثين الأخيرة. ربّما صعد البخار الناتج عن التعرق، الذي تقويه حرارة آب، في تلك الأمسية إلى مرتبة الشم الأولى، لكنه ما زال مشفوعاً بروائح السمك والخميرة وبول السكارى الذين يتنازعون جرة الجعّة ليتناولوها مخلوطة بدفقة من الفودكا. ما زالت الأرضيّة ملطخة بالدسم، ووجوه الرواد، بأنوفهم التي تقطعها أوردة بنيّة وعيونهم السقيمة خلف لثام مكبودين، كانت تشبه صورة لا يؤثر فيها زمن لا يمضي في الواقع: قد يتراجع، كالخائف من المستقبل الذي طالما وعد به، مثلما يهرب أولئك الرجال (الذين تطلعوا ذات مرّة إلى أن يصبحوا «جديدين») من حالة الصحوة وما تكشف عنه في العادة. إنّ صورة الرجل الأعرج، الذي دعي «ليونيد ألكسندروفيتش» و«كوتوف» و«توم» و«أندرو روبرتس» و«غريغورييف»، وصورة الآخر، الذي تجاوز وزنه المئة كيلوغرام، والذي ما عاد يدعى «رامون ميركادير»، لتقومان شاهدتين على أنّ الرجلين ما عادا يستحمان في النهر ذاته.

- لقد سمنتَ يا فتى! - قال الأول وألقى بنفسه بين ذراعي رامون، الذي علم أنّ العناق سينتهي بقبلة مقززة تمكن من تفاديها.

- وأنت صرتَ عجوزاً أصلع! - ردّ عليه مفسحاً للآخر لكي يضمّه ثانية في عناق أشدّ حال دون أن يفلتَ فيه من القبلة الروسية المندفعة.

- إنّه الزمن والأحزان - قال السوفييتي، بالإسبانية.

- لنخرج من هنا، هذا مرحاض مقزز.

- أرى أنّك أصبحتَ رقيقاً. كيف يبدو لك بروليتاريونا؟ ما زالوا يحتاجون إلى الصابون، أليس كذلك؟ ما أجمل ثيابك! هذه ملابس أجنبية، أليس كذلك؟ تنبعث منها رائحة الغرب والانحطاط...

- جلبتها زوجي من المكسيك.

- وهل لديها البعض منها للبيع؟ - قال وضحك عميقاً وعالياً.

- «هم» يعرفون أيضاً أنّ روكيليا تجلب ملابس لتبيعها؟

- «هم» دائماً يعرفون كلّ شيء، أيها الفتى، دائماً وكلّ شيء.

خرجا إلى الشارع. لم يتردد رامون في تعليق النياشين في طية سترته قبل أن يصعدا في أوّل تكسي في طابور المحطة المزدحم. أمر سائق التكسي أن يوصلهما إلى شارع «أوخوتني رياد» أمام فندق موسكو.

- لماذا تريد الدخول إلى هناك؟ هذا الفندق مزروع بأجهزة التنصّت - قال السوفييتي بالفرنسية، حين شاهدا واجهة المبنى الذي صار مظهره مع السنين أكثر تنافراً وقبحاً.

- تكفّل أنتَ بتجنبها - ابتسم رامون-. انتظر لحظة، ما هو اسمك الآن؟

عاد كوتوف القديم إلى إطلاق ضحكة حنجرية من ضحكات الأزمنة القديمة.

- «الأسماء مكروهة». هل تتذكر؟ ما رأيك في أن اسمي الآن هو ليونيا، ليونيد أيتينغون؟

- لم يحاكموك بهذا الاسم... ألم يكن اسمك نوام إساكوفيتش؟ هلَّا أخبرتني باسمك الحقيقي؟

- كلّها حقيقية، مثل رامون بافلوفيتش لوبيث. أنتَ مدين لي حتى باسمك، رامون...

كان فندق موسكو رمزاً لماضٍ ما زال حيّاً، كالرجلين اللذين دخلا إلى البار المبرّد، الذي خلصهما من حرّ موسكو، بفضل النياشين الرفيعة. أوقف ليونيد رامون وتطلّع إلى المكان. أشار إلى إحدى الطاولات واستأنف المسير، بعرج بات أكثر وضوحاً.

- صار لدينا حتى مركبات فضائية، لكنّ ميكروفونات الكي. جي. بي. وشفرات الحلاقة التي يبيعونها ما زالت من العصر الحجري... انظر، هناك شيء أنا متأكد من أنّني لم أقله لك - ابتسم ليونيا-. الكثير من جدران هذا الفندق مزدوجة، هل تفهم؟ إنّها مكونة من جدارين، بينهما

مجال لوقوف رجل بينهما. شيدوا الفندق بهذه الطريقة لسماع ما يقوله بعض الضيوف في غرف معينة. ما رأيك؟

طلب رامون جرة من عصير البرتقال وزجاجة فودكا مجمدة وصحناً من الفريز وشرائح نقانق بولونية لا يبيعونها إلَّا في المحلات المخصصة للدبلوماسيين والخبراء الأجانب.

- وضعْ كافياراً أيضاً وخبزاً أبيض - طلب أيتينغون من النادل المندهش.

- لماذا اتصلتَ بي؟ ظننتُ أنّك ما عدتَ ترغب في الكلام معي.

- تعلم أنّني خرجتُ من السجن قبل ثلاث سنوات، أليس كذلك؟ - سأل أيتينغون وهزّ رامون رأسه موافقاً-. حين أطلقوا سراحي قالوا لي ألّا أسألَ عنك، وأنتَ تعرف ما تعنيه لنا كلمة «طاعة». لكن منذ وقت سألتُ صديقاً، ما زال يعمل في الجهاز، إن كانوا ما زالوا معنيين كثيراً في أن ألتقي بك لأتكلم معك عن الزمن الماضي... منذ أسبوع، حين أخلوا سبيل سودوبلاتوف، اتصل بي الصديق وقال لي لا، لا يهم كثيراً أن ألتقي بك... شرط أن أحكي لهم لاحقاً بعض الأمور.

- وهل ستحكي لهم شيئاً؟

- وهل تظنّ أنّني سأساعدهم بعد ما فعلوا بنا؟ هل تعلم أنّهم حبسوا سودوبلاتوف خمس عشرة سنة؟ - قال وأضاف بالإسبانية-: ليخروا على أمهاتهم القحبات... سأفكر في ما سأختلقه لهم. هل من الخطأ أن أستعمل كلمة «resputas» لوصف أمهاتهم بأنهنّ كثيرات وقحبات جدّاً؟

حين وصل رامون إلى موسكو، في أيّار من عام 1960، تكرّم الضابط الذي صاحبه واعتنى بأموره في الأشهر الأولى بإبلاغه بأنّ معلمه القديم يسلّم عليه ويرحب به وهو في سجنه الذي يقبع فيه بعد أن حكم عليه بالحبس لمدة اثني عشر عاماً بجريمة المشاركة في مؤامرة ضد الحكومة. لكنّ سجين «ليكومبيري» كان قد تلقى، وعن طريق رسائل

أوصلتها كاريداد له بواسطة المحامي إدوارد ثينيثيروس (الذي تكفّل بشؤون رامون بعد وفاة المحامي مديين أوستوس)، بعض الأخبار عن المصير الغريب الذي تلقاه معلمه. ومع أنّ الرسائل كانت مشوشة بطريقة متعمدة وغير مفهومة بالنسبة إلى من لا يمتلك الأوليات، فقد بات واضحاً لرامون أنّ معلمه، حين عاد إلى الاتحاد السوفييتي، بعد إنجاز أكبر مهمة في حياته، رقّي إلى رتبة جنرال ومنح أولى ميداليات بطل الاتحاد السوفييتي، التي تلقاها من الرفيق ستالين شخصياً. وواصل المستر K، أو الأعرج، (كما كانت كاريداد تسميه في تلك الرسائل) عمله مع سودوبلاتوف في ما دُعي بإدارة الأجانب في المصلحة السريّة، في إعداد العملاء المكلفين بالقيام بأعمال تخريب في مؤخرة الجيش الألماني. وعادوا فمنحوه عن هذا العمل (ما الذي فعله؟ تساءل رامون، وإن كان يستطيع أن يخمّن الجواب) ميدالية بطل الاتحاد السوفييتي ثانية ورقي إلى رتبة لواء. لكنّ نقل بيريا، في عام 1946، وأجهزة المخابرات إلى إدارة البحوث وتطوير الصناعة النووية، التي باتت الوسواس الأكبر في رأس ستالين، وهو يجهّز نفسه للحرب الذريّة، تُرك المستر K معلقاً في الهواء، وأوقفه المدير الجديد لأجهزة التجسس والتخريب في الحرب الباردة عن الخدمة. استناداً إلى رسائل أخرى تلقاها من كاريداد، التي كانت في تلك الفترة مقيمة في باريس، جرى كلّ شيء بشكل طبيعي ظاهريّاً في حياة العميل إلى أن أدخل السجن عام 1951 بأوامر من ستالين، مع أخته صوفيا، الدكتورة، بعد أن اعتقلا ضمن الحملة على الأطباء والعلماء وكبار الضباط (وعلى رأسهم وزير أمن الدولة أباكوموف بشحمه ولحمه)، وجميعهم من أصل يهودي. اتهموه هذه المرة بمحاولة تسميم ستالين وخروشوف ومالينكوف، بغية الاستيلاء على السلطة!! ظهرت أخبار القضية في الصحف، واستطاع جاك مورنارد أن يقرأ، وهو في سجنه، صحفاً فرنسية وإنكليزية ومكسيكية تتحدث بتفاصيل عمّا عرف بـ «مؤامرة الأطباء اليهود»، التي اكتشفتها مخابرات موسكو، لتحول هكذا دون اغتيال الرفيق ستالين وجماهير

كبيرة من السوفييتيين. أيقظت نبرة تلك التهم، المطيبة بالبهارات نفسها التي رشت على محاكمات أعوام الثلاثين، الخوف الذي نجح رامون في دفعه، بعد أكثر من عشر سنوات من إقامة هادئة نسبياً في السجن. لم يكن لقصّة تلك المؤامرة المرعبة في نظره غير قراءة واحدة: فخلف المؤامرة الحقيقية أو المزعومة تحضير لهجمة معادية للسامية وتصفية رجال مطلعين على أسرار الماضي غير المريحة. وخصوصاً معلمه، الذي كان، فضلاً عن أصله اليهودي، مطلعاً على واحد من أكثر الأسرار خطورة. إن هم قتلوا كوتوف، فكم من الوقت سيبقى هو حيّاً؟ هل ستواصل موسكو الدفع لكي يحظى بحسن المعاملة التي يوليها إليه مسؤولو السجن؟ أمضى السجين سنتين وهو يعيش في ذلك القلق، ينتظر في كلّ يوم أن يتلقى خبر إعدام الجنرال ناحوم إيساكوفيتش أيتينغون، بحسب ما كانت تسميه البرقيات الصحفية الرسمية. إلى أن بلغ السجن في آذار من عام 1953 نبأ وفاة ستالين.

في تلك الفترة صارت روكيليا هي من يحمل إليه الرسائل التي تبعث بها كاريداد من باريس. في واحدة من أولى تلك الرسائل، أخبرته أمّه أنّ بيريا أطلق سراح المستر K وجميع المتآمرين المزعومين، المعتقلين منذ عام 1951. وتنفّس رامون الصعداء. ولكن ليس لوقت طويل. حين أسقط الفريق الجديد في القيادة السوفييتية، بزعامة خروشوف، بيريا وأعدمه، شملت الحملة أيتينغون، وكانت تهمته هذه المرة التآمر مع رئيسه السابق لتنفيذ انقلاب، وحكم عليه بالسجن اثني عشر عاماً. أكدت له كاريداد في إحدى الرسائل أنّ تلك هي الطريقة التي يعبّر بها السوفييت عن شكرهم، ونبهته إلى ألّا يغفل ولا يسهو، ففي مقدور الشكر أن يعبر الأطلسي.

- ماذا فعلتَ منذ أن أطلقوا سراحك؟- صبّ رامون العصير لنفسه بينما شرب ليونيد كأسه الأولى من الفودكا.

- لمّحوا لي بأنّ خروشوف ارتكب خطأً في حقي وفي حق جنود آخرين من مرؤوسي بيريا. أعادوا لي راتبي التقاعدي، لكنّهم لم يعيدوا

لي الميداليات، وفروا لي عملاً في الترجمة، وسلّموني قسماً في «غوليانوفو»: قبو صغير من دون حمام خاص به. تلك المباني ليست مبنية من الإسمنت، بل من الكراهية... ألم تسمع بأغنية سائقي التكسي؟ - سأل وابتسم ثمّ غنّى بالروسيّة-: «سآخذك إلى صحراء الجليد/ سآخذك إلى سيبيريا/ سآخذك إلى حيث تريد/ لكن لا تطلب منّي أن آخذك إلى غوليانوفو...».

حاول ليونيد أن يبتسم لكنّه لم يستطع.

- وهل كانت الحياة قاسية؟ - شعر رامون، المثقل بتجربته في السجن، بأنّ من حقه أن يطرح ذلك السؤال.

- بالتأكيد أقسى من سجنك، وأنا العالم بأنّ السجن المكسيكي يمكن أن يبدو أقرب إلى الجحيم. لكنّك كنت تعلم أنّك تتمتع بحماية، أمّا أنا فلم يكن لديَّ مسمارٌ أمسك به، أنتَ كنت تعلم أنّك ستظل هناك عشرين سنة، أمّا في حالتي فما كان هناك من تاريخ استحقاق. ثمّ إنّ المكسيكيين يمكنهم أن يقتلوك ويخرجوا للاحتفال، لكنّهم لن يقدروا على فهم الأشياء التي تخطر على بال رفاقنا حين يريدون أن تعترف أنت بشيء، سواء أقمت به أم لا. والأدهى من ذلك هو حين تعلم أنّك تدفع أخطاء لم ترتكبها أنت. والأسوأ من ذلك حين يدوّر صامولات موتك ناسُك وأصدقاؤك... أضف إلى ذلك كلّه البرد اللعين... كم أكره البرد...

التهم ليونيد شريحتين من النقانق البولونية وشرب كأساً ثانية من الفودكا، ربّما ليبعث الحرارة في برد ذاكرته. حرّك رأسه رافضاً شيئاً منزوياً: في الواقع، -علّق-، منذ عام 1948 تنبأ بأن مصيره يمكن أن يتغيّر. في ذلك العام بدأ ستالين حملة تطهير بين قدامى المناضلين ضد الفاشيين الأوروبيين، ممن لم يتكيفوا على نموذج البيروقراطية الستالينية الذي تطالب به الاشتراكية الآخذة بالتوسع وصور الحرب الباردة التي بدأت مؤخراً. كانت حركة التطهير التي أعقبت أحداث براغ الإشارة على أنّ كلاب الماضي يجب أن تقتل، لكنّ أيتينغون أخطأ الحساب حين ظنّ

أنّ تلك المحاكمات الجديدة لا تمسّ رجالاً مثله، مهنيين حقيقيين، ذوي نفع وفائدة كبيرتين في أوقات الصيد.

لقد رفع فشل الربّان العظيم في بسط نفوذه على دولة إسرائيل الفتيّة (التي تلقت الدعم والمال السوفييتيين ثمّ اختارت أن تدير ظهرها إليهم وتدور في فلك واشنطن) الغطاء عن حقده القديم المقيم على اليهود. أخرج الأمين العام من كمّه ورقة مؤامرة الأطباء وانتهز، من باب التوفير، الفرصة ليطيح بيهود آخرين وغير يهود، قد يشكلون خطراً بسبب أفكارهم أو بسبب اطلاعهم على أسرار مزعجة.

- كان ستالين يعلم أنّ نجمه يجنح نحو الأفول، فبدأ يقرن بقاء الثورة ببقائه. كان يرى أنّه هو والاتحاد السوفييتي شيء واحد. طيب، كان الأمر تقريباً كذلك. اقترب من السبعين، وبعد صراع طويل من أجل الإمساك بالسلطة كلها في يديه، وبعد أن أصبح أقوى رجل في الأرض، صار يشعر بالتعب، وبدأ يتشمم ما سيحدث: حين يموت، سيحتقره كلابه أنفسهم. لا أحد يستطيع أن يخلق كلّ تلك الكراهية من دون أن يخاطر بأن يطفح الإناء عليه في لحظة من اللحظات، وهو ما حدث حين مات. لذلك دخل في عالم مريض من الوساوس. عقب الحرب، ومع حماس المنتصر، ومع أشياء كثيرة تنتظر إعادة البناء، كان الناس أكثر هدوءاً وكانت السيطرة عليهم ممكنة. نقل ستالين حينها اللعبة إلى دائرة الحزب: كان القوّاد يعرف جيداً أنّ ضمانة الحكم إلى النهاية هو ألّا يشعر أحد بأنّه آمن مطمئن. وأظن أنّ المرحلة التي أعقبت الحرب كانت أقسى من مرحلة أعوام 1937 و 1938. ألا توافقني؟ انظر، أيها الفتى، كان ستالين، على الرغم من وجود رجال حازوا ثقته مثل بيريا وجدانوف وكاغانوفيتش وابن القحبات الثلاث جدّاً المنشفي فيشنسكي وآخرين عديمي الفائدة من مثل مولوتوف فوروشيلوف، يرتاب منهم جميعاً، لأنّه كان رجلاً مسكوناً بعدم الثقة وبالخوف، بالخوف الكثير. هل تتصور أنّهم حين كانوا يستجوبوننا كانوا يسألوننا

دائماً إن كان أحد من أولئك الرجال، من كبار رجال الدولة، ومن رجال ثقته، متورطاً معنا في المؤامرة؟ هل تعلم أنّه أخضع كلّ واحد منهم إلى تجربة مرعبة؟ لقد أرسل بولينا، زوج مولوتوف، إلى أحد معسكرات العمل لكونها يهودية. وكانت زوج لينين، وهو رئيس الدولة، في السجن، وحين مرضت اضطر إلى الطلب من ستالين، من باب المعروف الشخصي، أن يوفر لها سريراً أفضل من مرتبة التبن التي وجدها مطروحة عليها نصف ميتة... رئيس اتحاد الجمهوريات، يا فتى! في تلك الفترة أدركتُ أنّ قسوة ستالين ليس مردها الضرورة السياسية أو الرغبة في السلطة فحسب، بل كراهيته للرجال، كراهيته لذاكرة الرجال الذين ساعدوه في خلق أكاذيبه، في الإضرار بالتاريخ وإعادة كتابته. لكنّي في الحقيقة لا أعرف من كان أشدّ مرضاً، ستالين أم المجتمع الذي سمح له بالنمو... تبّاً!

- هل هو نفسه ستالين الذي كنتَ تعبده وعلمتني أن أعبده؟- كلما تغلغل رامون في تلك المستنقعات، أحسّ بانفصاله عن مكانه، فكأنّهم يتحدثون له عن تاريخ غير تاريخه، عن واقع مختلف عن ذاك الذي أقامه هو في رأسه.

- دائماً كان هو نفسه، ابنٌ ولدته السياسة السوفييتية وليس جنيناً أسقطه الشر البشري...- ردّ ليونيد وتوقف عن الكلام-. حين أخذوني إلى سجن «ليفورتوفو»، علمتُ أنّ كلّ شيء انتهى. قالوا إنّهم سيقدموننا لمحاكمة علنية وطلبوا مني أن أوقع على تصريح أعترف فيه، من بين ألف شيء آخر، بأنني على اطلاع بخطط القتل التي وضعها الأطباء وبأنني وفّرت الدعم السياسي واللوجستي لهم. لكني قلت لهم إنني لن أوقع.

- وماذا فعلتَ لكي لا توقع؟

- أي رامون - ضحك ليونيد-، لماذا أوقّع؟ لنرَ، لكي تفهمني جيداً. كم كان عند تروتسكي من أولاد؟

- أربعة.

- أنا عندي ثلاثة وعدد من أبناء أزواجـي... ماذا جرى لأبناء تروتسكي؟

- قتلوهم، انتحروا...

- هل تذكر أن كان لتروتسكي أخت؟

- أولغا برونشتاين، التي كانت زوجة كامينيف.

- و؟

- يقولون إنّها اختفت في معسكر للعمل.

- أنا أيضاً عندي أخت، وكانت واحدة من الطبيبات المتهمات... حكموا عليها بالسجن عشر سنوات... هل تذكر يوم ذهبنا إلى المحكمة لمشاهدة إفادة ياغودا؟

- طبعاً.

- هل تعتقد أنّ من المجزي أن أغطّي على خرائي ظنّاً منّي بأنّني سأنقذ هكذا زوجي وأولادي وأختي؟ بأنّني بالاعتراف بأيّ عار سأساعد جمهورية السوفييت وربّما سأنقذ نفسي؟ ما الذي حدث لزينوفيف وكامينيف؟ هل أنقذا عائلتيهما حين اعترفا بأنّهما متآمران تروتسكيان؟ لقد غيّر ستالين قانون العقوبات ليقتل الأبناء القاصرين... إن اعترفتُ أنا بشيء، فأنا لن أقتل نفسي فحسب، بل سأقتل أناساً آخرين. وقلتُ لنفسي إنني سأتحمل كلّ شيء: وتحملت، ولم أتكلم. هل تعرف كيف؟ تركتُ نفسي أموت شيئاً فشيئاً، تحوّلت إلى هيكل كان يمكنهم تفكيكه بأيديهم. كانت الطريقة الوحيدة لتجنب أن يعذبوك...

لزم رامون الصمت. تذكر الهزّة التي أحدثتها فيه قراءة خطابات خروشوف، التي حملتها له روكيليا، حيث اعترف بتجاوزات ستالين: لكن ما إن وضعت لتلك «التجاوزات» أسماء ووجوه حتى صارت تدعى جرائم. لن ينسى أبداً، وقد استقر به المقام في موسكو، حين عاد شقيقه لويس ليحرّك ذلك الماء الراكد: لقد أراد أن يقرأ، وبسريّة تامة، رسالة بوخارين «إلى جيل المستقبل من قادة الحزب»، التي حفظتها عن

ظهر قلب امرأة الزعيم البلشفي طوال عشرين عاماً، عاشتها كلها تقريباً في معسكرات العمل. إنّها الوصية السياسية لرجل نبّه الجلادين - ولا بدّ أنّه كان ينظر إلى رامون وكوتوف وآخرين على شاكلتهم-، بعد أن وصف الرعب الستاليني بالآلة الجهنمية، إلى أنّ «المسألة حين تتصل بأمور بذيئة فإنّ التاريخ لا يحتمل شهوداً»، وإلى أنّ وقت الحكم عليهم يقترب أكثر فأكثر.

- أنا، مثلي مثلهم، لم أكن بريئاً من كلّ شيء. في المنطق الجديد، لا أحد في هذا البلد بريء تماماً...- كان ليونيا قد فقد جزءاً من عمق صوته الملجلج-. كانت لبيريا خططه للمستقبل وقد حدثني بها. لكنّ عدم توقيعي على ذلك الاعتراف وموت ستالين أنقذاني من الوقوف أمام فرقة الإعدام. لأنّهم كانوا سيعدمونني. أنا كنتُ الوحيد الذي أعرف قصتك كلّها، وأخرى أيضاً تقل عنها أو تزيد في رعبها، مثل قصة الاعتداء في أنقرة على نائب وزير الخارجية الألماني فون بابين وقصّة بعض الاختبارات الطبية على أسرى أثناء الحرب.

- عن أيّ شيء تتحدث؟ - نظر رامون إلى معلمه القديم وفكّر أن ليس في مقدور الجميع أن يقطع بفكر واعٍ يقظ صحارى السجن والتعذيب.

نظّف أيتينغون عدة مرات أصابعه بمنديل ورقي رمادي، وكأنه يريد التخلّص من مادة لاصقة علقت بها.

- سموم لا تترك أثراً. تجارب على مقاومة الإشعاعات، الثاليوم المخصّب، اليورانيوم. كانوا خونة أو مجرمي حرب، كانوا سيموتون على أيّة حال... ستالين كان مهووساً بصنع القنبلة الذريّة. أجريتْ تجارب كثيرة... كان أمراً مقززاً وقاسياً.

نظر رامون إلى عينيه: كان كوتوف العجوز يحافظ على تلك الشفافية الحادة في حدقتيه، التي كانت تحول دون معرفة كم من الكذب في كلامه وكم من الصدق. لكنّ شيئاً ما في تلك المناسبة نبّه رامون إلى أنّ ليونيد لم يكن صادقاً قدر ما كان عليه في تلك اللحظة.

أخذ أيتينغون سيجارة وبدأ يداعبها.

- حين توفي ستالين، أخرجني بيريا من السجن. أعادوا لي بطاقة الحزب ورتبتي العسكرية. وعلى الرغم من كلّ ما فعلوا بي، وعلى الرغم من أنّني خسرتُ أربعين كيلوغراماً من وزني، وعلى الرغم من الأشياء الفظيعة التي كنتُ مطلعاً عليها، فكرت أنّ العدالة موجودة وأنّ الحزب سينقذنا. لذلك حين وصلتُ إلى بيتي وحكى لي أولادي أنّ اثنين من الرفاق كانت لهما الشجاعة في تينك السنتين أنّهما زاراهم وعرضا عليهم المساعدة، قلتُ لهم إنّهم وأولئك الرفاق ارتكبوا خطأ كبيراً: إذا كنتُ أنا مسجوناً، متهماً بالخيانة، فليس على أحد أن يهتمّ بي ولا أن يواسيني أو يشفق عليَّ، ولا حتى هم... ما رأيك؟... ذلك كان العرض قبل الأخير لصدقي. كنتُ على قناعة بأنّ الحزب، من دون ستالين ومن دون كراهيته، سيحقق العدالة وأنّ النضال سيستردّ معناه ووجهته... لا شيء، أخطأتُ مرة أخرى. فكل شيء كان متعفناً. منذ متى لحقه العفن؟

- وما أدراني أنا!... لماذا تحكي لي كلّ هذا؟

أشعل ليونيا أخيراً سيجارته وحرّك الكأس على الطاولة، وكأنّه يريد أن يبعده عنه.

- لأنّي أعتقد أنّني مدين لك بكلّ قصتي. أنا علمتُ منك ما أنتَ عليه الآن، وأشعر بأنّ لك ديناً عليَّ في رقبتي. أنا كنتُ مؤمناً، لكنّي أجبرتك على الإيمان بأشياء كثيرة، وأنا أعلم أنّها أكاذيب.

- من مثل أنّ ستالين أراد قتل تروتسكي ليس لأنّه كان خائناً، بل لأنّه كان يكرهه؟

- من بين أشياء أخرى، رامون بافلوفيتش.

بعد أشهر من وفاة ستالين، حين نكب بيريا، اعتقل أيتينغون مجدداً. كان مديره السابق يتطلع حقيقة إلى السلطة، لكنّه ارتكب، بحسب ليونيد، الخطأ نفسه الذي ارتكبه تروتسكي: استهان بالخصم وظنّ أنّه في

موقع أفضل، يسيطر على المعلومات التي تضمن له الصعود والحصانة. رأى بيريا خروشوف يرقص كالمهرّج ليسلّي ستالين، وإن كان الجميع يعلمون أنّه كان يكره الجيورجي لأنّه لم يرحم ابن خروشوف حين سقط في يد الألمان أثناء الحرب ورفض الربان العظيم مبادلته بأسرى آخرين؛ لقد رأى بيريا خروشوف يبكي بعد أن عنّفه الرجل العظيم، وكان في حوزته مئات الأوامر بالإعدام من سنوات حركات التطهير تحمل توقيع خروشوف بصفته الأمين العام للحزب في أوكرانيا. كان بيريا يعده كائناً منحطّاً ذا طموحات محدودة، وكان هذا هو خطأه. لقد أجبره خروشوف على أن يلعب في ملعب الدسائس السياسية وأثبت أنّه أكثر دهاءً، وقبل أن ينتبه بيريا كان ذاك قد التهمه.

لكن ورقة خروشوف الرابحة كان ورقة الجيش، علّق أيتينغون، وهو يحمل إلى فمه قطعة من الخبز. لم يغفر العسكريون لبيريا تورطه في حركة التطهير في صفوف الماريشالات عام 1937، ورأوا فيه مواصلة لعهد ستالين، الذي سرق إنجازات النصر العسكري على الفاشية، الذي تحقق على الرغم من ستالين، بل ضد إرادته في بعض الأحيان. عرف خروشوف كيف يوظّف لصالحه البحث الجاري عن الغنائم الكبيرة للحرب التي حملها الكثير من الجنرالات إلى المناطق المحتلة من أوروبا الشرقية. كان في حوزة بيريا وثيقة من وثائق مجلس الوزراء تشير إلى مئات المعاطف الجلدية، عشرات اللوحات التي كانت في قصر «بوستدام»، الأثاث، المفروشات، السجاد، وأشياء نفيسة أخرى (آلاف الأمتار من مختلف أنواع القماش، كان مهووساً بالقماش!)، التي حملها معه البطل جوكوف عندما انتهت الحرب. لقد كلّفت تلك الوثيقة الماريشال خفض رتبته وإبعاده عن موسكو، بل إمكانية أن يحكم عليه في المحاكم المدنية. لكنّ اللفتنت جنرال كريوكوف والجنرال إيفان سيروف كانا قد أخذا نصيبهما من الغنائم أيضاً، وكانا يعرفان أنّ مصير الماريشال العظيم ذاته ينتظرهما. كان سيروف، بالاتفاق مع خروشوف،

هو من حرّض زملاءه على الإطاحة ببيريا، لذلك رقّي في ما بعد إلى منصب رئيس أمن الدولة والاستخبارات العسكرية. ما كانت مدرسة الجنرالات الجديدة التي أنشأها ستالين تشبه كثيراً الضباط الفقراء غير المهندمين الذين خدموا في عهد لينين وتروتسكي.

- وسقطنا جميعاً مع بيريا. أنا وسودوبلاتوف... محاكمتي دامت يوماً واحداً، وفي اليوم التالي كنتُ في أول سجن من السجون التي طفتُ فيها طوال اثنتي عشرة سنة. وما زلت أسأل نفسي لماذا لم يقتلوني. ربّما لأنّهم يعلمون أنّني أعرف، وقد يحتاجون في لحظة ما ما كنتُ أعرف...

- وماذا يفعل رجل مثلك حين لا يعود يؤمن بشيء؟

صبّ ليونيا لنفسه المزيد من الفودكا وأشعل سيجارة أخرى من سجائره المنتنة.

- وماذا أستطيع أن أفعل، أيها الفتى؟ أهرب، كما فعل أولوف؟ إن كان في مقدوري أن أهرب، وهو أمر قليل الاحتمال، إن اقتربتُ مسافة مئة كيلومتر من أيّة حدود فسيطلقون النار عليَّ ويعيدونني إلى أحد معسكرات العمل، هل أستطيع أن أخرج مع أولادي؟ هل لديَّ إمكانية أن أتحالف وأقايض حياة عائلتي بسكوتي؟ هل سيتجرأ أحد على الترحيب بي؟ لنرَ، كم بلداً رفض أن يمنحك تأشيرة المرور حين خرجت من السجن؟

- كلّها. إلّا كوبا، أعطوني اثنتين وسبعين ساعة.

- هل تدرك كم نحن منبوذون؟ هل تعلم أنّنا أسوأ ما خلق ستالين، لذلك لا أحد يحبنا، لا هنا ولا في الغرب؟ وأنّنا حين نقبل بأشرف مهمة فإننا ندين أنفسنا إلى الأبد، لأننا سننفذ فعلاً مشيناً يراه عقل ستالين المريض ضرورياً للحفاظ على السلطة؟

- ستالين لم يكن مريضاً. ليس في مقدور أيّ مريض أن يحكم نصف العالم طيلة ثلاثين عاماً. أنتم أنفسكم تقولون إنّ ستالين يعرف ماذا يفعل...

- هذا صحيح. لكنّ جزءاً منه كان مريضاً. يقال إنّه قتل ما يقرب من عشرين مليون شخص. يمكن أن يكون المليون ضرورة، أمّا التسعة عشر الأخرى فهي مرض، أظن... لكنّي قلتُ لك إنّ ستالين لم يكن المريض الوحيد.

في سنوات سجنه الطويلة، توفر لرامون الكثير من الوقت ليفكر في فصول حياته، وليحلم بذلك الوجود الموازي، الذي هو من عمل ذهنه في محاولة يائسة للتغلب على الكآبة والضيق. تمكّن في الفترات الأولى من السيطرة على الخوف حين اكتشف أنّهم لن يرفعوا عنه الحماية الموعودة وأنّ هناك خطّة ما تدبّر لإخراجه من السجن: حينئذٍ ألزم نفسه بطرد كل الشكوك التي صاحبته حين توجّه إلى كويواكان في ذلك اليوم العشرين من آب من عام 1940. إن هو وفى بوعده في الإبقاء على فمه مغلقاً، فكّر، فإنّ رؤساءه، ومعهم التاريخ، سيكافئونه على ما كان منه: رجل قادر على التضحية بنفسه في سبيل القضيّة الكبرى. لكنّ السنوات مضت ولم يكن الهروب سوى فكرة خطرت في بال كاريداد، وإن استمرت الحماية واستمر المحامي ثينيثيروس في توفير المال اللازم لتسهيل حياته في السجن على قدر ما يمكن. وبقي التسليم والقبول بما هو فيه، منذ ذلك الوقت، ملاذه الوحيد، وحاول أن يجاهد الوقت ويحافظ على توازنه العقلي.

- سأحكي لك شيئاً لا أحد يعرفه - قال رامون وصبّ هذه المرّة جرعة من الفودكا. شربها على الطريقة الروسيّة، دفعة واحدة، وشعر بنفسه ينقطع. انتظر أن يستعيد نفسه، بينما راح ينظر إلى ليونيد، وهو يلتهم شرائح النقانق التي يصفّها على الخبز الأبيض، على طريقة الجياع-. في عام 1948، تمكن محاميّ من تمرير رسالة لي وضعت في كتاب. مرسل الرسالة يهودي كان يعيش في نيويورك، ولكنّي ما إن قرأتها حتى عرفت من يكون...

- أورلوف- قال أيتينغون ووافق رامون-. ذلك المخنث يعشق كتابة الرسائل.

- وقعها باسم يوشع لا أدري ماذا، وقال فيها إنّه سيقصّ عليَّ أشياء حكاها له عميل قديم في جهاز مكافحة التجسس السوفييتي، وهو صديق مقرّب له، أشياء يرى أنّ من الواجب أن أعرفها... في الحقيقة، هو لم يقل شيئاً لم أكن فكرت به، لكنّ ما قاله كان يكتسب بعداً آخر، حملني على التفكير... حدثني عن الخدعة، بل عن الخدع. قال إنّ ستالين لم يرد قط أن ينتصر الجمهوريون في الحرب، وإنّهم أرسلوا بذلك الصديق إلى إسبانيا بالذات لتجنب قيام ثورة، وانتصار الجمهورية، بالتالي. ليس للحرب إلّا أن تدوم ما يلزم لكي يستخدم ستالين إسبانيا عملة للتبادل في صفقاته مع هتلر، وحين وصلت تلك اللحظة، تركنا لمصيرنا، لكنّه، بعد أن علّق على صدره ميدالية، لأنّه ساعد الجمهوريين، احتفظ بالذهب الإسباني على أنّه جائزة إضافيّة. حدثني أيضاً عن مقتل أندريس نين. لقد شارك صديقه في عملية المونتاج تلك، ويقول لي إنّ جميع الأدلة المفترضة لإدانة «نين»، كما هو شأن أدلة إدانة توخاتشيفيسكي والماريشالات، أعدّت في موسكو وفي برلين، باعتبارها جزءاً من التعاون مع الفاشيين.

- هذا ما حدث فعلاً - قال ليونيد، وعبّ جرعة أخرى من الفودكا-. ستالين وعملاؤه، ابن القحبة أورلوف بينهم، أعدوا كلّ شيء. وأظرف شيء أنّهم تمكنوا من جعل الكثير من الناس يؤمنون بهم... «أصدقاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية» القدامى والمطلقين، هل تذكر؟ كيف كنّا نحشوهم!... كم كان يروق لهم أن نحشوهم!

- وحدثني عن تروتسكي...- سكت رامون، أشعل سيجارة، ودعك أنفه-. حكى لي شيئاً أنت تعلمه جيداً: إنّ العجوز لم يكن قط على صلة بالألمان. والدليل الأكبر كان في محاكمات نورنبرغ، حيث لم تظهر أيّة إشارة على التعاون المزعوم بين تروتسكي والفاشيين... يقول لي بأني كنتُ أداة للكراهية وإن لم أصدقه فهو يأمل أن تكتب لي الحياة حتّى أرى ظهور تلك المؤامرة إلى النور... حين قرأت خطاب خروشوف عام

1956 تذكرت تلك الرسالة. أصعب ما حدث في تلك السنوات كلها كان اطلاعي على تلك الحقائق وتأكدي من أنني، على الرغم من كل الخداع، لا أستطيع الكلام.

- أتدري لماذا؟ لأنّنا في حقيقتنا مستهترون، مثل أورلوف، بل جبناء. كنّا دائماً خائفين ولم يكن الإيمان هو ما كان يحركنا، كما كنّا نردد يوميّاً، بل الخوف. بسبب الخوف التزم الكثيرون الصمت، وماذا كان في مقدورهم أن يفعلوا؟ أمّا نحن، رامون، فقد ذهبنا أبعد من ذلك، سحقنا ناساً، بل قتلنا...، لأننا كنّا نؤمن ولكن أيضاً بسبب الخوف - قال وابتسم مثيراً دهشة رامون-. كلانا يعرف أن لا عفو أمامنا... لكنّنا، من حسن الحظ، وبما أننا ما عدنا نؤمن في شيء، نستطيع أن نشرب الفودكا، بل أن نتناول الكافيار في هذا الجحيم المادي الجدلي الذي قدر لنا أن نعيشه بسبب أفعالنا وتفكيرنا...

***

كانا قد تواعدا في الساعة الخامسة، في حديقة غوركي، وعند السابعة كانا يجتازان النهر ويصعدان إلى شقة رامون، حيث روكيليا (تستاء كلما دعا زوجها أحداً)، «ستكرّم» ليونيا بعشاء مكسيكي.

في ذلك العصر، وصل معلمه القديم بخبر حصل عليه من مصدر موثوق مفاده أنّ ستة سوفييت خرجوا إلى الساحة الحمراء قبل يومين، بينما كانا هما يتحادثان في فندق موسكو، رافعين لافتات صغيرة، للاحتجاج على ما كانوا يدعونه هم بالغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا. بالطبع لم تعلّق الصحف ولا التلفزيون على الحادث الذي لم يبلغ مسامع المراسلين الأجانب المعتمدين في موسكو، إذ جرت محاصرته وإخماده بسرعة: لذلك فإنّ الاحتجاج لم يكن ولن يكون له وجود في نظر أحد ما عدا القلة القليلة التي عرفت به.

- أيّة جسارة! لا يفعل ذلك إلّا من كان مجنوناً - علّق رامون.

- أو من كان شجاعاً وتعباناً جدّاً من كلّ شيء- ردّ أيتينغون-. أولئك

الأشخاص الستة يعلمون أنّهم لن يحصلوا على شيء، ويدركون ما ينتظرهم، وهم متأكدون من أنّهم لن يصبحوا أشخاصاً في هذا البلد، لكنّهم تجرؤوا على قول ما يؤمنون به. وهو ما لم نفعله أنا وأنت وآخرون لا أدري كم مليوناً من السوفييت، أليس كذلك؟... ربّما مررنا من جنبهم حين كنّا نهمّ بالدخول إلى الفندق...

- وماذا حدث في براغ؟

- حدثت بداية النهاية... بريجنيف انطلق بكل قوته: تسع وعشرون كتيبة مشاة وسبعة آلاف وخمس مئة دبابة وألف طائرة... استعراض للقوة وللقرار. لقد ماتت أسطورة اتحاد العالم الاشتراكي في براغ، وأيضاً إمكانية تجديد الشيوعيّة. كان ستالين قد أفسد الأمر بنزاعاته مع تيتو، ثمّ جاء خروشوف فجثم على صدر البولنديين والهنغاريين، حتى إنّه تصارع مع الصينيين والألبان لأنّهم ستالينيون كثيراً... لكن هذه هي ترتيلة الموتى. في المرة القادمة (وستكون هناك مرّة قادمة، آجلاً أم عاجلاً)، فلن تكون لمراجعة شيء، بل لهدم كلّ شيء. لا تنظر إليّ هكذا: هذا جسم مريض، لأنّ كل ما موجود هنا اخترعه ستالين والهدف الوحيد لستالين كان ألّا يستطيع أحد أن ينتزع السلطة منه. لذلك سنواصل السباحة، وإن كنّا سننتهي موتى عند الضفة... ونحن الذين ظننا أنّ خروشوف خطط للقفزة من الاشتراكية إلى الشيوعيّة في العام 1980. تبّاً! ما أغرب الأشياء التي تخطر في باله...

طافا دروب الحديقة، بانتظار موعد العشاء، وهما يتأملان كلاب الصيد وهي تعدو. وراح رامون، وقد استفزته تنبؤات معلمه القديم، يستحضر وقت وصوله إلى موسكو والصعوبات التي واجهته ليتأقلم مع العالم الذي أعطى من أجله أفضل ما في حياته، وضحّى بروحه.

حين وافقت أمانة الحكومة على طلب السجين جاك مورنارد بتقديم موعد خروجه من السجن شهرين لتجنب الضجّة التي سيثيرها الصحفيون، الذين يتهيؤون للسفر إلى المكسيك في العشرين من آب

من عام 1960، صارت لدى رامون قناعة بأنّه لن يفعل شيئاً غير الانتقال من سجن إلى سجن. كان خروجه من سجن «سانتا مارتا أكاتيتلا»، الذي أمضى فيه آخر سنتين من محكوميته الطويلة، قد حدد ليوم الجمعة، السادس من أيار، بعد مفاوضات غريبة. ولما لم يكن للسجين جاك مورنارد قانوناً وجود، ولا يحمل، بالتالي، الجنسية البلجيكية، وواصل رفض الإقرار بأصله الإسباني (جرى التحقق من ذلك قبل عشر سنوات من ذلك عن طريق بصمات أصابعه المثبتة في سجلات الشرطة السابقة للحرب الأهلية الإسبانية)، فقد وافقت القنصلية التشيكوسلوفاكية على أن تصدر جوازاً له بالاسم الذي دخل فيه إلى السجن وأنهى فيه محكوميته. وصارت لدى رامون فكرة واضحة عن وضعه حين رفضت كلّ من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا منحه ولو تأشيرة المرور اللازمة أثناء هبوطه في مطاراتها في طريقه إلى براغ... كما حدث للمرتد قبل ثلاثين سنة، فقد تحول العالم بالنسبة إليه إلى كوكب لا يتوفر على جواز للمرور إليه. وعاد لقاء المصائر بين الضحية والجلاد، الذي انفجر مع سن فأس، إلى ترصد رامون، وحيداً لا ترافقه لا بقايا المجد ولا الكراهية غير المتناسبة أو الخوف الذي سببه له المنفي. كان يطارده الاحتقار ويهمشه النفور والدم العبثي ودور البطولة في قصة يتمنى الجميع دفنها. كان ملاذه الوحيد هو الاتحاد السوفييتي حيث، كان يعلم جيداً، لن يكون حضوره فيه موضع ترحيب مريح، فهو في نهاية المطاف واحد من أكثر الأدلة المزعجة على الستالينية التي ما زال البلد يناضل من أجل نفضها عنه وتشويه صورتها. راح، خلال الأسابيع الأخيرة من سجنه، يقرأ بشراهة خطابات خروشوف الجديدة، حيث يكشف النقاب عن «تجاوزات» أخرى من الحقبة الستالينية، وبلغ به الأمر أنّه صار يخشى ألّا تتحقق إمكانية سفره حتى إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية: هل سيوافقون علناً ويفخرون بأن جاك مورنارد أو رامون ميركادير كان على الدوام شيوعيّاً إسبانيّاً مطيعاً جنّده الفكر السوفييتي لارتكاب الجريمة الأكثر بشاعة وإثارة للكراهية؟ هل فكّر أحد ما ذات

مرّة في أنّه قد ينجو بعد الاعتداء، وسيفلت من كلّ مخاطر السجن، ومن مرور السنين وفي أنّه سيعود في يوم من العالم الآخر؟...

لكنّ موسكو كانت بانتظاره، بفخر واستعداد لتحدي العالم كلّه. كان مروره بكوبا الثوريّة السابقة لمرحلة الاشتراكية قصيراً إلى درجة أنّه لم يكوّن إلّا انطباعاً خاطفاً عن هافانا حين أخرجته شرطة الهجرة من طائرة شركة الخطوط الجوية الكوبية القادمة من المكسيك، وحملوه إلى السفينة السوفييتية المتجهة إلى «ريغا». نظر من كوّة قمرته إلى الصورة الحجرية لمباني المدينة وقلاعها وكنائسها، وإلى أشجارها بخضرتها البرّاقة وإلى البحر بصفائه المتعب، واستطاع أن يلمس تأثير الحنين إلى ذلك البلد الأسطوري، الذي ورثه من ذكريات عائلة أمّه، التي أقامت سنوات في تلك الأرض، مسقط رأس كاريداد.

كان انطباعه الأول لدى وصوله إلى موسكو هو انطباع من دخل إلى مكان له رائحة الصراصر، حيث لن يلتقي أبداً بالرجل الذي كان عليه هو من قبل، فموسكو عام 1969 ليست هي عاصمة البلد الذي زاره قبل ثلاث وعشرين سنة. عمّدوه هذه المرّة تحت اسم رامون بافلوفيتش لوبيث، وأسكنوه في بناية تابعة لجهاز كي. جي. بي. في ضواحي المدينة، وأرسلوا له في صباح ببدلة جديدة وأمروه بأن يكون جاهزاً عند الساعة السادسة عصراً، لأنّهم سيمرون عليه لأخذه. عاد رامون بافلوفيتش لوبيث في تلك الليلة إلى الدخول إلى الكرملين، وتلقى من يدي ليونيد بريجنيف، رئيس الدولة، نياشين لينين وبطل الاتحاد السوفييتي ولوحة تشير إلى أنّه عضو شرف في جهاز كي. جي. بي. وباقة عظيمة من الزهور والقبلات التي لا بدَّ منها، بينما كان فونوغراف صغير يصدح بأنغام «نشيد الأممية». شعر رامون بالهدوء وبالفخر، وتولد لديه الإحساس بأنّه كوفئ. وعده ضابط كي. جي. بي. الذي كان يرافقه، والذي تعشى معه عقب الاحتفال في صالة صغيرة من صالات قصر الكرملين الكبير، بأنّهم سيسلمونه قريباً مفاتيح شقة يستطيع فيها أن يستقبل زميلته روكيليا

مندوثا، لكنّه نبهه في الوقت نفسه إلى أن تحركاته في الاتحاد السوفييتي يجب أن تحظى بترخيص يحصل عليه من دائرة خاصة من دوائر كي. جي. بي. وأنّ في إمكانه أن يتصل بالمهاجرين الإسبان وبأقاربه المقيمين في الاتحاد السوفييتي فحسب، وأنّه ما زال مضطرّاً إلى التزام الصمت، قال، بلطف ولكن بكل وضوح، ذلك الديناصور، الباقي بلا شك من حقبة بيريا وستالين.

أضيف إلى تلك الحرية المشروطة، ومنذ البداية، المسافة التي يضعها السوفييت من كلّ الأعمار والظروف للتعامل معه، وهو ما كان يخلق حوله ذلك الفراغ من التواصل الذي يجعله يشعر بغربة مزدوجة.

- طبعاً لأنّك أجنبي! - أشعل أيتينغون إحدى سجائره-. أم إنّك تعقد أنّك لأنّك أنتَ ولأنّك أمضيت سنين في السجن تتعلم الروسية ستصبح أقلّ غربة وأجنبية؟... معظم السوفييت لا يخرجون أبداً من هذا البلد، ولذلك فالأجنبي عندهم هو رديف الممنوع والملعون. مع أنّهم يشعرون بالفضول، وحتى بالحسد (يكفي أن تنظر إلى طريقة لبسك، هذا القميص جلبته لك أيضاً امرأتك؟ لا أحد في موسكو يمتلك قميصاً كهذا)، لكنّك تثير خوفهم. هذا بلد معزول عن العالم، وزعماؤنا تكفلوا بتشويه صورة ما بقي خارج سلطتهم، أي كلّ ما يتصل بالقوّادين الأجانب. تذكّر أنّ ستالين كان في مقدوره أن يأمر بإعدامك أو بإرسالك لخمس سنين أو عشر إلى معسكر من معسكرات العمل بسبب اتصالك من دون ترخيص بأجانب. إنّ عبقرية الشعب الروسي تتمثّل في قدرته على البقاء على قيد الحياة. لذلك كسبنا الحرب...

- في البداية، تذكر رامون، حين كنتُ أخرج إلى الشارع، كنتُ أنظر إلى الناس وأسأل نفسي عمّا سيفكرون إن هم عرفوا هويتي، ولكن ما عاد هذا الشعور يعاودني كثيراً.

- يفكرون؟...- قال ليونيد وأشار إلى السماء، من حيث يجب أن يصدر الأمر المفترض بالتفكير في شيء-. الناس هنا تقريباً لا يفكرون،

رامون! التفكير ترف محظور هنا على الأحياء... فقد كان من الأفضل دائماً عدم التفكير للهروب من الخوف. أنتَ غير موجود، رامون؛ وأنا كذلك... وأقلّ مني ومنك أولئك الستة الذين احتجوا على غزو تشيكوسلوفاكيا...

مع ذلك فقد كانت الحديقة هناك تفيض حياة. كان أهالي موسكو ينتهزون الشهر الأخير الخالي من برد لقضاء ساعات لهوهم في الهواء الطلق، الناس يقرؤون وهم مستلقون على العشب، بل هناك عوائل تحلم بالقيام برحلة إلى الغابة. لذلك أيقظ عثور الخبيرين في العمل السرّي على مصطبة خالية، تظللها ظلال زيزفونة، شكوكهما. وبينما راح رامون يلاعب كلبيه، عاين أيتينغون المكان وانتهت به المعاينة إلى أنّ المكان آمن وخالٍ من أجهزة التنصت: على الرغم مما كان يراه ستالين دائماً، قال مبتسماً، فقد ثبت أنّ المصادفات لها وجود.

كان رامون، الذي ساءه ما سمع من كلام أيتينغون، يفضّل، وقد جلسا على المصطبة، أن يغيّر موضوع الحديث، لذلك راح يحدثه عن تعرّفه إلى روكيليا مندوثا، وكيف أنّه خمّن في الحال أنّها واحدة من وسائل الدعم التي وعدوه بتوفيرها. كانت روكيليا، وهي فتاة من طبقة متوسطة، وعملت راقصة فلكلورية، ابنة عم سجين في «ليكومبيري» يدعى إيسيدرو كورتيس، حكم عليه لقتله زوجه. وكان في إلحاح روكيليا على مصادقته ما أوحى له بدوافع المرأة.

- كانت آخر ما استطعتُ أن أفعله من أجلك - ابتسم أيتينغون-. سمح لي بيريا بالبحث عن متعاطفة مستعدة لمساعدتك. أرسلنا إلى المكسيك بصديقة كاريداد، كارمن بروفاو، وكانت هي من عثر على روكيليا، التي وافقت في الحال، لأنّها كانت معجبة بك وتحب ستالين. خصصوا لها مبلغاً معيناً من المال لحاجاتها بالإضافة إلى ما كان يتلقاه محاميك.

- في عام 1953 توقفوا لمدة عام تقريباً عن إرسال المال للمحامي،

لكنّها استمرت تساعدني. إنّها قبيحة ولا تطاق، مع ذلك فأنا مدين لها بالكثير.

- نعم، أتصوّر ذلك.

- لقد ساعدتني روكيليا على تحمّل ذلك كلّه... زارني الكثيرون في السجن، وتحت كلّ ذريعة، لكنّهم كانوا يزورونني، في الواقع، لأنّهم يرون فيّ حشرة غريبة... ذات مرة زارني شيوعي إسباني في صحبة أجمل امرأة رأيتها في حياتي. هي الآن ممثلة شهيرة. اسمها سارة مونتييل.

- سمعت بها - قال ليونيا، منشغلاً-، يقولون إنّها رائعة الجمال.

- لا يمكنك أن تتصور معنى أن يكون ذلك المخلوق على بعد متر منك... إنّها من تلك النساء اللواتي يمنحنك الرغبة في أكل التراب، في فعل أيّ شيء...

حاول أيتينغون أن يبدو الأمر عرضيّاً.

- ومنذ متى لم ترَ كاريداد؟

- جاءت لرؤيتي حين وصلتُ، وعادت مرتين أو ثلاث مرات. المرة الأخيرة كانت العام الماضي.

- هل كان مظهرها جيداً؟

- إنّها قوية، طبعها هو نفسه، لكنّها بدت وكأنّ عمرها مئتا سنة. حسن، أنا أتممت الخامسة والخمسين، لكنّي أبدو ابن مئة وعشر سنوات. أمّا أنتَ، فمع أنّك أصلع، فتبدو أحسن مظهراً منّا جميعاً.

- ربّما لأنّي محنّط في لاأباليتي - قال أيتينغون وأطلق ضحكة مدوية-. وماذا تفعل في باريس؟

- لا شيء... طيب، هي الآن مهتمة بالرسم - ابتسم رامون-، وبأن تكون جدة أبناء شقيقتي مونتسي، على الرغم من مونتسي. الواقع أن لا أحد يتمنى قربها منه... عملتْ خمس سنوات أو ست سنوات في السفارة الكوبية، أتصور مخبرة للـ كي. جي. بي. تقول إنّ الكوبيين مغامرون ولا يفهمون معنى الاشتراكية وميتون من الجوع وناكرون للجميل. تقول إنّها

تشتري من جيبها الصحف للسفير لكي يطلع على ما يجري في العالم، وهم الآن لا يدْعونها حتى لحفلات الاستقبال التي يقيمونها. لكنّها ترمي باللوم على بريجنيف، تقول إنّه أمر بإبعادها عن كلّ شيء، لكنّها ما زالت وإن لم تتلقَّ التقاعد الذي يبعثونه إليها من هنا...

- الأوقات تتغير. نحن، أنا وأنت وكاريداد، البطاطس الحارة التي لا يريدها أحد بين يديه. ولئن لم يقتلونا فلأنّهم يثقون بأنّ الطبيعة ستؤدي قريباً وظيفتها...- أكّد أيتينغون، ورفع ذراعي قميصه ليعرض ندبة حمراء-. في السجن أجروا لي عملية لإزالة ورم. أنا على قيد الحياة بالمعجزة، ولكن لا أدري إلى متى...

- هل يستطيع أحد أن يعرف، وهو يراها في باريس تؤدي دور الجدّة وترسم مناظر قبيحة ومليئة بالألوان، أيّ نوع من الشياطين هي؟

راح كلبا «البورزوي» يجريان في الحديقة، بينما كان رامون يراقبهما، فخوراً بجمال كلبيه الحقيقي، حين عاد ليونيد إلى الكلام.

- أنا مدين لك بالكثير من القصص، رامون. سأحكي لك بعضها مما قد لا تودُّ سماعه، فهي قصص تنتمي إليك.

اكتشف رامون أنّ من كان في تلك اللحظة إلى جانبه هو كوتوف. استعاد معلمه القديم الوضعيّة التي اتخذها قبل سنوات كثيرة ماضية في ميدان «كاتالونيا»: وضعية التمساح الساكن، الذي يحمل منديلاً في يده يستعمله لتجفيف عرقه.

- سألتني مرّة إن كنّا على صلة بموت سيدوفا، ابن تروتسكي، وأجبتك بالنفي: لقد كذبتُ عليك. لقد قتلناه نحن، عن طريق عميل حشرناه تحت القميص، كيوبيد. وأعدمنا أيضاً الولد الآخر سيرغي، بعد أن وضعناه زمناً في معسكر «فوركوتا» وهنا في اللوبيانكا، منتظرين أن يوقع على وثيقة يقرّ فيها بأنّ أباه أعطاه تعليمات لتسميم قنوات المياه في موسكو... الذين قتلوا أولئك الفتية كانوا ينفذون أوامر صدرت مباشرة من ستالين، مثلنا.

- لماذا كذبتَ عليَّ؟ كنتُ سأفهم أنّ الأمر كان ضرورياً.

- كان يتوجب عليك أن تذهب إلى مذبح التضحية وأنتَ في أنقى حالة ممكنة. الرسالة التي أعطيتك إياها لتحملها معك في ذلك اليوم كانت سلسلة من الأكاذيب، ولم يكن مهمّاً أن يصدقك أحد أم لا. كانت الفكرة هي أن تقتل أنت تروتسكي ثمّ يقتلك حراسه الشخصيون. كانت الأمور ستكون أسهل. هذا ما طلبه ستالين. هو لم يكن يريد أن يظلّ أيّ طرف سائب، أمّا حياتك فلا تسوى عنده شيئاً. لكن تروتسكي أبقى عليك حيّاً...

صُدم رامون، وهو يسمع من الرجل الذي رتّب مع ستالين تلك العملية، اعترافه بأنّه لم يُستخدم لتنفيذ عملية انتقام فحسب، بل كان قطعة يمكن الاستغناء عنها، وكان في ذلك ما هدّ آخر مسند قاوم مرور تلك السنوات من الأوهام والحقائق المؤلمة.

- لكنّك كنتَ تنتظرني...

- كان هناك دائماً إمكانية لتمكنك من الخروج. ثمّ إنّي لم أكن أستطيع أن أقول لكاريداد إنّني أرسلت بك إلى المسلخ، أو إنّ الأمر كان يقتضي تركك، في حال تمكنتَ من الهرب، في يد رفاق آخرين.

- كما حدث لشيلدون، أليس كذلك؟ إذن، أنتم قتلتموه؟

- لسنا نحن مباشرة. لكن لا أحد يقتل من دون أن نصرح له نحن بذلك.

- إن كانوا خططوا لقتلي فلماذا وفرتم لي الحماية في السجن، لماذا دفعتم للمحامين ولماذا أرسلتم روكيليا؟

- لأننا إن قتلناك في السجن بعد ما فعلت، فسيعلم العالم كله بمصدر الأمر. ما أنقذك هو التزامك الصمت. ثمّ إن ستالين، بعد مقتل العجوز، ما عاد مهتمّاً بالبقية، وخاصة في ذلك الوقت، حين كان الألمان منّا على مرمى حجر...

- ولماذا أخفق هجوم المكسيكيين؟

– ما حدث كان عملاً غير متقن. كان ستالين يريد ذلك: كان يريد شيئاً استعراضيّاً، صاخباً، لا ينسى. أنا رأيت أولئك البشر مرتين أو ثلاث مرات وأدركتُ أنّ تروتسكي كثير عليهم، كانوا دمى تنقصهم الجرأة. لذلك لم أرسلك معهم ولم أسمح بأن يعلموا عني وعنك شيئاً... ما لم أفهمه قط هو أنّ رجلنا في المجموعة، فيليب، هل تذكره؟ لم يدخل ليتأكد من أنّهم قتلوا ذكر البط أم لم يقتلوه... ذاك لغز لم أتمكن من حلّه إلى الآن...

رفع رامون نظره نحو حدود الحديقة، حيث يجري النهر. شعر بالإحباط وخيبة الأمل يجريان في داخله وبالخواء يملؤه. وراحت بقايا الكبرياء التي تشبّث بها بأظافره، على الرغم من الشكوك والتهميش، تتبخر على سخونة حقائق ساخرة. لم تكن سنوات السجن، وكان أثناءها يخشى في كل يوم على حياته، المرحلة الأسوأ: لقد أقضّت شكوكه، ثمّ تحققه من أنّه لم يكن إلّا دمية في مخطط غامض ودنيء، مضجعه أكثر ممّا فعل خوفه من طعنة قد يتلقاها من هذا السجين أو ذاك. تذكر بألم الشعور بالخداع الذي أحدثته فيه قراءة تقرير خروشوف، الذي ما كان فيه من أسرار، المقدم للمؤتمر العشرين للحزب، والقلق الذي لفّه منذ تلك اللحظة: ما الذي سيكون من حياته حين خروجه من السجن؟

– ولماذا لم يطلقوا النار عليَّ حين وصلتُ إلى موسكو؟... بل لقد علّقوا الميداليات على صدري، كنتُ أنتظر أن يصرفوني...

– أنتَ قلتَ ذلك: لقد وصلتَ إلى عالم آخر. لو كان ستالين وبيريا على قيد الحياة، لما اجتزت الأطلسي. أمّا خروشوف فكان سيشكر لك أن تروي الحقيقة، وإن لم يكن قادراً على تشجيعك، لأنّ روح ستالين كانت ما تزال حيّة، بل هي حيّة، ولا يريد خروشوف، ولا يستطيع، أن يخوض تلك الحرب، لذلك فضّل أن ينظر إلى طرف آخر ويتركك في أمان. أما وقد هزمت روحُ ستالين خروشوف، فما عدت تهم أحداً... ما دمت ملتزماً الصمت ولا تحاول مغادرة الاتحاد السوفييتي.

- وماذا تعرف كاريداد؟

- ما تعرفه أنتَ تقريباً. تذكّر أنّنا لم نثق قط كثيراً في طباع الإسبان. حين عادتْ، حاولت أن تقنع بيريا بأن يساعدوك في الهرب. وبعد أن ماطل بيريا في الأمر كثيراً، وافق على طلبها، شرط أن تتكفل هي بترتيب الأمور في المكسيك. منحوها جوازاً وكمية من النقود، ثمّ أرسل بيريا قاتلاً مأجوراً من الكومنترن لكي يخيفها بمجرد الوصول إلى المكسيك. ونجت كاريداد بمعجزة وتعلمت الدرس: ذهبت إلى باريس، ولزمت الهدوء، ولم تعاود الاحتجاج. فهي الآن مشغوفة برسم اللوحات؟

- عليَّ أن أصدق كلّ هذه الفظائع؟ هل كانوا مستهترين إلى هذا الحدّ؟ أنتَ كنتَ تعلم أنّهم سيقتلونني؟ وهل عرضتَ أن تفعل ذلك؟

- عليك أن تصدّق ما أقوله لك، كنّا مستهترين أكثر مما تتصوّر. أنت لم تكن الوحيد الذي كان سيقتل من أجل مثل أعلى لا وجود له. لقد زرع ستالين الفساد في كلّ شيء، وأجبر الناس على الكفاح وعلى الموت من أجله، ومن أجل احتياجاته، كراهيته، شعوره بالعظمة. انسَ أننا كنّا نكافح من أجل الاشتراكية. أيّة اشتراكية وأيّة مساواة؟ حكوا لي أنّ بريجينيف يمتلك مجموعة من السيارات القديمة...

- وأنتَ؟ لماذا ناضلت وكافحت؟

- في البداية لأنّي كنتُ أمتلك إيماناً، كنتُ أريد أن أغيّر العالم، ولأني كنتُ أحتاج زوجي الحذاء اللذين كانوا يعطونهما لعملاء التشيكا. بعد ذلك... تكلمنا عن الخوف، أليس كذلك؟: حين تدخل في المنظومة فلن تستطيع الخروج. وواصلت النضال لأني صرت مستهتراً أيضاً. ولكن بعد أن قضيت خمسة عشر عاماً في السجن، لأنّي كنتُ مستهتراً نشيطاً، وفي رقبتي ذنوب العديد من الموتى، بدأتُ أرى الأشياء بطريقة أخرى.

- وكيف يمكنك أن تعيش وأنت تحمل وزر ذلك كلّه على ظهرك؟

- كما يمكنك أنتَ أن تعيش، رامون ميركادير! يوم قتلتَ تروتسكي كنتَ تعرف لماذا تقتله، كنتَ تعلم أنّك جزءٌ من كذبة، أنّك تناضل من أجل منظومة تقوم على الخوف والموت. أنتَ لا تستطيع خداعي!... لذلك دخلتَ إلى ذلك البيت ورجلاك ترتعشان، لكنّك كنتَ مستعدّاً للقتل، لأنّك كنت تعلم جيداً أن لا تراجع ممكناً. حين تعود إلى الحديث مع كاريداد اسألها ماذا قلتُ لها حين وصلتَ إلى كويواكان. قلتُ لها: «أتصوّر رامون الآن وهو يتغوط على حاله من الخوف، لكنّه صار مثلنا، صار واحداً من المستهترين».

- اسكت، رجاءً - قال رامون، من دون أن يدري إن كان طلبه أمراً أم رجاءً.

نظّف زجاج نظارته المضبب بطرف قميصه. بدا له إطار نظارته، التي اشترتها له روكيليا في إحدى سفراتها إلى المكسيك، في يديه التي أمسكت بالفأس، شيئاً غريباً عليه. فأيتينغون، في نهاية المطاف، محقّ: فقد التفّ هو بالإيمان، بقناعة من يناضل من أجل عالم أفضل، ليغطّي بتلك البطانيات الحقائق التي لم يكن يريد أن يفكر فيها: اغتيال «نين» وروبليس، من بين أخرى، والتلاعب الذي مارسه الحزب قبل الحرب الأهلية وأثناءها، القصص الغامضة حول سيدوفا أو شيلدون هارت أو رودولف كليمنت، اعتراف ياغودا الغريب الذي شهده هو بنفسه، التلاعب بأحداث أيار 1937 في برشلونه، المتسول الذي اضطر إلى قتله في «مالاخوفكا» كما يقتل الخنزير، الأكاذيب حول تروتسكي وتعاونه مع الفاشيين، الاستخدام الشرير لسيلفيا آجيلوف... كانت أيّة واحدة من تلك الحقائق كافية لكي يقرّ بأنّه ليس مجرد كائن عديم الرحمة بل كائن مستهتر.

- في السجن قرأتُ لتروتسكي - قال، وقد وضع النظارات ولاحظ بوضوح ندبة الهلال على قفا يده اليمنى -. جميع المساجين كان يعرفون أنّني قتلته، وإن كان أغلبهم لا يعرف من هو تروتسكي ولا يفهم لماذا اغتلته. هم قتلوا لأمور واقعية: امرأة خانتهم أو صديق سرقهم أو مومس

كانت تبحث عن قوّاد آخر... حين عدت في يوم إلى الزنزانة، وجدت على سريري كتاباً لتروتسكي. «الثورة المغدورة». من تركه هناك؟ بدأت أقرؤه فتشوش فكري أكثر من ذي قبل. فكّرتُ في ما قرأت وانتظرت شهوراً لكي يأتوني بكتاب آخر، لكنّ الكتاب الآخر لم يصل. لم أعرف قط من الذي وضعه في زنزانتي. لكنّي أعرف أنّني، لو كنتُ قرأت تلك الكتب، قبل سفري إلى المكسيك، لما قتلتُ مؤلفها... لكنّك على حق، أنا كنتُ مستهتراً يوم قتلته. هذا هو ما حولتموني إليه. كنتُ دمية، شقيّاً مفعماً بالإيمان، صدّق ما قاله له أشخاص مثلك ومثل كاريداد.

- أيها الفتى، لقد خُدعنا جميعاً.

- خدعوا بعضنا أكثر من بعضنا الآخر، ليونيا، بعضنا أكثر من بعضنا الآخر...

- لكننا أرشدناك إلى كلّ العلامات التي تدلّ على الحقيقة، ولم تشأ أن تكتشفها. هل تعرف لماذا؟ لأنّك تريد أن تكون كما كنت. فلا تقصص عليَّ حكاياتك، رامون ميركادير... ثمّ إنّ الأمور كانت واضحة منذ البداية: منذ أن عرفتَ بمهمتك، ما كان أمامك من مجال للتراجع. ولا يهمّ ما قرأته في ما بعد...

***

كان المسير في موسكو أثناء شهر أيلول بالنسبة إلى رامون من باب الدخول إلى كونشيرتو في لحظة تنفيذ الحركة الأخيرة من إحدى السمفونيّات. يرتفع صوت الموسيقى، تشارك جميع الآلات وتحين لحظة الذروة، لكن يبدو على النوتات تعب حزين، فكأنّه تنبيه إلى أنّ النهاية محتومة. بينما كان ورق الأشجار يغيّر لونه، ليملأ الهواء بمسحة بنيّة اللون، وبينما كانت ساعات المساء، الغافية، تقصر، كان تهديد تشرين الأول ووصول البرد، والظلام، والاعتكاف القسري يتوضّح لرامون. حين يستقر الشتاء، تزداد عدوانية إحساسه القديم، الذي اكتشفه قبل ثلاثين سنة، بأنّ العاصمة السوفييتية ضيعة كبيرة محشورة بين

عالمين. فالغابات التي تنمو داخلها، والسهوب التي تبدو متغلغلة عبر جاداتها وميادينها غير المتناسبة، تكتسي لون الثلج والجليد، لتحوّلها إلى أرض غامضة، نائية، مسكونة بالجباه المقطبة والوجوه الفظّة. حينئذٍ يحاصره حلمه المتجدد بالعودة إلى إسبانيا ويلحّ عليه. صار ذهنه، وهو يقرأ أو يستمع إلى الموسيقى، يزداد شروداً عن الحروف وعن النوتات، ليسافر إلى شاطئ من شواطئ كاتالونيا، برمالها الخشنة، بين البحر والجبل، حيث يعاود لقاء ذاته، بعيداً عن البرد والوحدة وانقطاع الجذور والخوف. بل يعود إلى اسمه رامون ميركادير ويتلاشى ماضيه مثل ذكرى شريرة يفلح في النهاية في طردها. لكنّ أبواب إسبانيا كانت مغلقة دونه بقفلين اثنين، واحد من كل جانب من جانبيها. أصبح يرى في اضطراره لقضاء بقية أيامه في ذلك العالم الذي يجده غريباً عليه، شاعراً بشعور من يقبع بين أربعة جدران لا يمكن اجتيازها، وفي أكبر بلاد الأرض وأكثرها خصباً، طريقة خفيّة لعقاب يعرف جيداً أن لا خلاص منه. ولطالما هرب في ساعات العصر الصيفية من شقته، مع روكيليا أو من دونها، بحثاً عن راحة يعلم أنّها مزيفة، ليحمل معه خيبات أمله وإحباطاته إلى نصب الهزيمة والحنين للإسبان العالقين في موسكو.

– وكيف سارت أمورك مع بني وطنك في البداية؟ – سأله أيتينغون حين التقاه يوم الأحد التالي مقابل مقهى «كوفينيا» في شارع «أربات» القديمة، الذي أغلق في زمن ستالين، لأنّ الأمين العام كان يمرّ به يوميّاً ذهاباً وإياباً وهو في طريقه إلى عزبة «كونتسيفو». لقد صدر قرار بأن تغلق في ذلك الطريق أيّة محلات يمكن أن يعقد فيها لقاء أو اجتماع، وشمل القرار حتّى الأشجار: ففي بلد الخوف، كان حتّى ستالين يعيش في خوف. أمّا في عهد خروشوف فقد تحوّل المكان إلى محل لبيع الأسطوانات، ولطالما تردد عليه رامون لشراء روائع السمفونيات بأسعار زهيدة.

بينما كانا يسيران على غير هدى، يدخنان سيكاراً كوبيّاً كانت كاريداد قد بعثت به إليه من باريس (على رامون أن يغلّفه بقماش رطب ليعيد له

شيئاً من نعومته الكاريبية التي سلبها إيّاها الطقس الجاف الأوروبي)، قصّ رامون على معلمه القديم أنّه بعد عدة أشهر من وصوله إلى موسكو، بدأ، بصحبة أخيه لويس، بزيارة «بيت إسبانيا». إنّه يتذكر تماماً دخوله الأول المحبط في تلك الأرض الخيالية، المشيّدة بجرعة محسوبة من الذاكرة ومن النسيان، حيث يجتمع الناجون من الحرب الخاسرة، يحرّكهم، في بلد المستقبل الغريب حلم باطل في إعادة بناء قطعة من وطن الماضي. وعلى الرغم من أنّ قسماً معتبراً من اللاجئين الذين ظلوا في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي الإسباني، اختارهم إخوانهم السوفييت ورحبوا بهم وتكفلوا بمعيشتهم، فقد وجد رامون أيضاً كمية معتبرة ممن عرفوا بأطفال الحرب (الذين أطلقت عليهم تسمية الإسبان- السوفييت)، الذين خرجوا من شبه الجزيرة الإيبيرية حين كانت أعمارهم تقل عن العاشرة والذين كانوا يترددون على «بيت إسبانيا» بحثاً عن أفضل قهوة أكسبريس في موسكو وعن الهوية المحطمة التي كانوا يتشبثون بها بإصرار.

كان لويس قد لاحظ منذ سنوات كثيرة أنّ شيخ تلك القبيلة المهاجرة هي دولورس إيباروري، التي يعرفها الجميع باسم «باسيوناريا». كانت من الإدمان على السلطة والتفرد على الطريقة الستالينيّة أنّها ما كانت ترضى بمجرد الاختلاف مع أفكارها، على الأقل داخل جدران ذلك البناء وداخل حزبها، الذي أصبحت رئيسة له، بعد أن سلّمت، في عام 1960، الأمانة العامة، مجزوءة، إلى سانتياغو كارّيو. حين استمع رامون إلى أخيه، لم يستطع إلّا أن يتذكّر الليلة التي ذهب فيها مع كاريداد إلى «لابيدريرا» وسمع الشتائم التي كالها أندريه مارتي لامرأة تدعى «باسيوناريا»، رآها مطأطأة الرأس منقادة. لكنّ رامون كان يخشى، على وجه الخصوص، الطريقة التي سيتلقاه فيها رفاقه القدامى: لن يكفي بالتأكيد أنّه يستطيع أن يعلّق على سترته الميداليتين المنفوستين

في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ليتجاوز الحفيظة التي سيثيرها تاريخه الشخصي في نفوس الكثيرين منهم.

- معظمهم زمرة من المنافقين - قال رامون بالإسبانية-. هنؤوني على عودتي وعلى تكريمي وسلموني بطاقة العضوية في الحزب الشيوعي الإسباني، لكنّي اكتشفتُ في عيونهم شعوراً مزدوجاً لم يستطع الأنذال إخفاءه: الخوف والاحتقار. أنا أمثّل في نظرهم الرمز الحيّ لخطئهم العظيم، حين خضعوا كدوارة الريح لأوامر موسكو ولشرطة ستالين وتحول الكثيرون منهم، الكثيرون منّا، إلى جلادين؛ لكنّي كنتُ أيضاً النموذج الأرذل لتلك الطاعة العقيمة... بعضهم لم يكلمني إطلاقاً. آخرون صاروا أصدقائي...، أظن. أمّا أكثر ما أزعجني فهو أنّهم يرون أنفسهم «نظيفين» بينما أنا «وسخ»، رجل البلاليع، والحقيقة هي أنّ العديدين منهم يغطيه الخراء حتّى شعره.

- وأعلى من الشعر- أكّد المستشار السوفييتي السابق.

عند تمثال غوغول انحرفا إلى اليسار، وكأنهما كانا متفقين من دون الحاجة إلى الكلام.

- وهل عرفتك باسيوناريا؟- أراد أيتينغون أن يعرف.

- إن عرفتني فقد تصنّعت أنّها لم تعرفني. لقد أظهرتْ دائماً أنّني لا أروق لها. كاريداد تقول إنّها ستهبّ في وجهها يوماً من الأيام...

- عليَّ أن أذهب ذات يوم معك... إن سمحوا لي. بعض الموجودين هناك من الذين يقصون القصص سيتغوّطون على أنفسهم ما إن يروني. هم يعرفون أن كوتوف يعرف الكثير الكثير من قصصهم. ولئن قتلت أنتَ تروتسكي لأننا أمرناك بقتله، فبعضهم قتلوا أناساً آخرين لأننا أمرناهم، وأحياناً من دون أن نأمرهم، لأنّهم كانوا يظنون أنّهم بقسوتهم سيكونون أجدر بصداقتنا...

لقد حوّلت سهولة الحركة الفيزيولوجية تقريباً في أرض معروفة،

على الرغم من وضعها الشائك، رامون إلى واحد من مرتادي «بيت إسبانيا» الدائمين. فموسكو ما زالت بالنسبة إليه مدينة ذات شفرات وإشارات يصعب عليه هضمها، بينما هو هناك، على الأقل هناك، يجتمع مع شيوعيين ستالينيين وبعض الخروشوفيين أو جمهوريين بسيطين، مثقلين بالحنين وخيبة الأمل، على لغة فاسدة واحدة: الهزيمة. أقام رامون، بفضل شقيقه لويس، وقدرته هو على إخفاء مشاعره، علاقات وثيقة مع رفاق قدامى من أيام النضال الرومانسية في برشلونه، ومع بعض الذين عرفهم مؤخراً، والذين كانوا، على الرغم من كلّ شيء، يحترمونه، أو على الأقل، يتحملونه ويتقبلونه، ليس بسبب ما فعل، بل بسبب طريقته في مقاومة السجن طوال عشرين سنة: لقد برهن على أنّه إسباني، كاتالاني من أولئك الذين لا يترددون ولا يتراجعون، كما أنّه يفضّل الطبيخ الإسباني الذكي الرائحة على السوليانكا[153] التي تنبعث منها رائحة الكرنب الكريهة.

– من السوليانكا لا تنبعث رائحة الكرنب الكريهة – احتج ليونيا–. سأدعوك في يوم لتناولها، وسأعدّها بنفسي، طبعاً.

– لا بدّ أنّ شيئاً ما حدث لي حين طلبت منهم أن يضموني إلى الفريق المكلف بكتابة تاريخ الحرب الأهلية، ذلك التاريخ الذي بدأ ينشر عام 1966 بمناسبة مرور ثلاثين سنة على بداية المعارك.

– لقد قرأته ولم يفاجئني ما قرأت. جرائم فرانكو وجماعته هي الفصل الأفظع في ما جرى في إسبانيا، هو ما أعطى الحرب لونها، وهذا يعرفه الجميع. لكنّه ليس التاريخ القبيح الوحيد.

– هذا أنتَ تعلمه جيداً، أليس كذلك؟...– انقضّ رامون عليه، فهزّ أيتينغون كتفيه–. طبعاً، لأنّ هيكليّة كتابته أعدّت بإشراف «باسيوناريا»، وهي لم تبدُ راضية عن وجودي ضمن الفريق. لكنّ آخرين أصرّوا

153– Solianka اسم لأصناف من الحساء الروسي والأوكراني الذي يكون عنصرها الأساس اللحم أو السمك أو الفطر مع الخيار والكرنب.

على وجودي، لا أدري، ربّما لأنّهم أشفقوا عليَّ. ثمّ أوكلوا إليّ مهمة مقابلة المحاربين الذين شاركوا في الحرب وجمع ذكرياتهم ونظرتهم إلى الأحداث التي عاشوها أو علموا بها من مصادر مباشرة، ربّما لكي يعملوا بهدوء من دوني. وكما توقعتُ، فقد كان كل واحد من الذين قابلتهم يصرّ على أن يأخذ النار إلى رغيفه، وأحياناً بوقاحة، فلا يذكرون إلَّا ما كان يلائم أفكارهم السياسية، ورؤيتهم وروايتهم للحرب. هل تدري كم واحداً منهم حدثني عن عمليات نقل الأسرى من مدريد إلى بلنسية أو عن إعدامات باراكويّوس؟

- لا أحد.

نظر رامون إلى معلمه القديم واضطر إلى الابتسام.

- وكأنّ ما حدث لم يحدث... ما زال الخوف يلاحقهم، وهم لا يجرؤون على التصريح بأيّ شيء يمكن أن يكشف عن الحقيقة. الأدهى هو رؤيتهم وهم يحرفون قصصاً عشتها أنا وعشتها أنتَ حين كنتَ كوتوف. يقولون إنّ إعدامات باراكويّوس كانت من عمل الفوضويين. وما زالوا يعدّون الهجوم على مصلحة الاتصالات عملاً ضروريّاً للتخلص من التروتسكيين والطابور الخامس الذين افتضح أمرهم. يبررون اختفاء «نين» أو لا يتكلمون عن اختفائه، بعضهم يصرّ على التقليل من أهمية الألوية الدوليّة في الدفاع عن مدريد، ولا يتذكرون شيئاً عن التسويات التي رتبتموها لإزاحة المجموعات الأخرى...

كان رامون، بصفته عضواً في اللجنة التحقيقية، قد اتخذ قراراً حدّث به أخاه لويس فقط: لقد ذهب إلى أكاديمية التاريخ في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، التي كان يمول (ويسيطر على) المشروع ونشره مستقبلاً. وبدأ بدراسة الوثائق الموضوعة تحت تصرف المؤرخين. في تلك الفترة قامت روكيليا، وقد أرعبها الشتاء في موسكو، بأولى سفراتها إلى المكسيك مع أرتورو ولاورا. فصار لدى رامون وقت كثير انصرف فيه إلى ذلك البحث، واكتشف، في البداية مستغرباً ثمّ مرعوباً، أنّ

الوثائق التي بين يديه لم تكن منحازة ولا ميّالة ميلاً بطولياً لصالح تعاون السوفييت والكومنترن مع الجمهورية، بل إنّها أحياناً تختلف وتتناقض مع ما عاشه هو وشهده.

- وماذا كنتَ تنتظر، أيّها الفتى؟ التاريخ الحقيقي لفتح إسبانيا الجديدة؟- مصّ ليونيد سيكاره ووجد أنّه انطفأ- . ألم تفعل جماعة فرانكو الشيء نفسه، ولكن بلباقة أقلّ ووقاحة أكبر؟... سياسة إذابة الجليد التي يتبعها خروشوف ليست إلّا لتحريك الجليد الفائض قليلاً. فلا الشيوعيون الإسبان ولا الحكومة السوفييتية في وضع يسمح لهما بالوصول إلى العمق، بل لا يريدان ذلك، لأنّ الشيء الغامض المخبأ هناك، وإن كان متجمّداً، فهو خراء. إنّه من قبيل خراء الماموث المتحجر الذي عثروا عليه قبل وقت قصير في سيبيريا: خراء ألفي، لكنّه خراء على أيّة حال.

قبل أن يصوّر أيتينغون الأمر بتلك الاستعارات الآثارية، كان رامون قد أدرك أنّ أمراً صدر بأن يظل الخراء، مهما كان عتيقاً، مطموراً: لا يستطيع ولا يجب أن يطفو على السطح. علم بذلك يوم وصل إلى أكاديمية التاريخ فلم يجد موظفة الأرشيف اللطيفة التي كانت تعنى بطلباته: إنّها مجازة مرضياً، قالت له بديلتها، التي أخذت منه ورقة الطلب وعادت إليه بعد خمس دقائق لتقول له إنّ الأرشيفات التي طلبها الرفيق رامون بافلوفيتش لوبيث نقلت إلى قسم مغلق ولا يستطيع الوصول إليها إلّا بترخيص من دائرة الكرملين المكلفة بمعاهد التاريخ والبحث الاجتماعي. حين ظهرت الأجزاء الأولى من «حرب وثورة في إسبانيا 1936-1939»، عن دار التقدم»، لم يفاجأ رامون بعدم ظهور اسمه بين أسماء فريق الباحثين، الذي ترأسته دولورس إيباروري بالاشتراك مع معاونيها الخلصاء.

- بماذا شعرتَ؟ - سأل أيتينغون.

- بالإحباط. لكنّي اعتدتُ ذلك.

- نعم... والآن تذكّر أنّ إعادة كتابة التاريخ ووضعه في المكان الذي

يناسب السلطة لم يكن اختراعاً جاء به ستالين، وإن استعمله بطريقة فظّة ومهينة إلى أقصى حدّ. وماذا عن الحديث عن «ثورة» في إسبانيا، بينما كانت الثورة هي أول ما حُرّم ومنع، وماذا عن تجنب الحديث عن الفظائع التي ارتكبها الجمهوريون... طيب، إنّه تحريف للتاريخ. لذلك فمن الأفضل أن يظلّ التاريخ المثير للجدل مكمماً...

بذل أيتينغون جهداً وتمكن من إشعال سيكاره من جديد. نظر رامون إلى سيكاره: إنّه ما يزال مشتعلاً بنسق واحد ومتوهج.

- في «بيت إسبانيا» تجري مؤخراً بعض الأمور.

مع أنّ الكثيرين من اللاجئين تمكنوا من العودة إلى إسبانيا ابتداءً من عام 1956، فمن بقي منهم واصلوا النضال من أجل موقعهم في السلطة. صارت باسيوناريا، وكان خوان موديستو ذراعها الأيمن المخلص، تشعر بأنّ موقعها المطلق صار في السنوات الأخيرة موضع أخذ وردّ: فقد بدأ أنريكي ليستر[154]، مسلحاً بأساطيره في الحرب الأهليّة وفي الحرب العظمى الوطنية وفي حرب العصابات اليوغسلافية، وسانتياغو كارّيّو، يناصبان المناضلة الستالينية الشهيرة عناداً مضطرداً. إنّها الأغنية الأبدية ذاتها، علّق لويس حين بدا الشرخ ظاهراً للعيان: يوم نتوقف عن قتال بعضنا نكون قد فقدنا إسبانيتنا.

- لا يتصل الأمر بإسبانيتكم، أيها الفتى، فأنتم سياسيون - قال ليونيا، هذه المرّة بالإسبانية-. نهاية فرانكو تلوح في الأفق، وقد اقترب وقت قطف العنب. يجب الاستعداد، فربّما حدث توزيع جديد! يجب تجميل الصورة، تحريكها مع الأوقات!

154- Enrique Líster (1907-1994). سياسي شيوعي وعسكري إسباني شارك في قيادة وتنظيم قوات الجمهوريّة إبّان الحرب الأهليّة ولجأ إلى الاتحاد السوفييتي، حيث انخرط في الجيش الأحمر وشارك في الحرب العالمية الثانية. انشقّ عن الحزب الشيوعي الإسبانيPCE بقيادة سانتياغو كاريّو وأسس الحزب الشيوعي العمالي الإسبانيPCOE

كلاهما كان يعلم أنّ مياه «بيت إسبانيا»، الذي كانا يقفان في تلك اللحظة أمام جدرانه، تعكّرت كثيراً في الأشهر الأخيرة. لقد تجرأ بعض قادة الحزب الشيوعي الإسباني، إثر التدخل العسكري السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا، على التعبير عن شكوكهم حيال الغزو، مما أحدث انشقاقاً في قيادة الحزب. ذلك الموقف يعود، في نظر إيتينغون، إلى الحاجة إلى الابتعاد عن الجانب الأكثر قتامة من التأثير السوفييتي، وارتداء ربطة عنق من أجل مظهر أكثر ديموقراطيّة؛ أمّا رامون، فقد رأى في ما حدث مجرد مناسبة مواتية، على الرغم من خطورتها، لنيل جرعة من السلطة داخل الجالية، أو، بالأحرى، في إسبانيا المستقبل. بل لقد أقدم اللاجئون الأكثر جرأة، بتحريض من سانتياغو كارّيو وإغناثيو غايّيغو، على عملية فريدة: قرروا فتح ملفات «بيت إسبانيا» والبحث في الأضابير الشخصيّة لكل واحد من الإسبان المقيمين في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. كان ذلك المقترح من باب تقريب النار من الديناميت. فإن كُشف النقاب عن وثائق معينة أغلق عليها في الطابق الثاني من المبنى الكائن في شارع «جدانوف»، فستظهر الدناءات والتسويات التي تورّط فيها الكثيرون من اللاجئين، ممّن أصبحوا وشاة وحماة لآخرين كثيرين منهم. وعاد الرفاق القدامى، مدفوعين هذه المرة بالخوف من أن يفتضح أمرهم، بالانقسام إلى مجاميع لخوض حرب تجاوزت حدود الكلام ودخلت في ميدان العراك بالأيدي والكراسي. من الجانب السفلي للبناية، التي كان يشغلها البنك القديم، وفي الناصية المقابلة لبيت إسبانيا، قاد رامون ليونيا ليريه نافذة الطابق الثالث التي ألقي منها بواحد من مواطنيه.

- يقال إنّه سقط هناك، وسط الشارع. لقد ظنّ الجميع أنّه مات، لأنّه سقط بلا حراك. لكنّه سرعان ما نهض، بصق، هرش رأسه ثم صعد ثانية ليواصل تبادل اللكمات.

- وما زالوا يرددون أننا متوحشون - ابتسم أيتينغون واستأنفا سيرهما

ليتوقفا عند حانة «ساردينكا»، حيث اعتاد اللاجئون الإسبان على التجمع ليطفئوا تعطشهم للشرب، فقد كان ممنوعاً تقديم تلك المادة القابلة للاشتعال في مرافق البيت.

انتهت حرب اللكمات الإسبانية بوصول الحرس، الذين أخلوا المكان، واصل رامون حديثه. لكنّ أسباب استئناف العراك، الذي كان متوقعاً، انتفت في تلك الليلة ذاتها حين حملت وحدة من الكي. جي. بي. أرشيفات مليئة بوشايات بين الإخوة وأودعتها في مكان أمين.

بعد ساعة، حين وصل رامون وليونيد إلى ميدان «زيرجينسكي»، نظر رامون شزراً إلى تمثال مؤسس التشيكا وإلى البناء الأكثر إثارة للرعب في الاتحاد السوفييتي، خلف ظهر رجل البرونز.

- هل ذكرتُ لك أنّني كنتُ مرّة هناك أيضاً؟ - قال ليونيد، مرة ثانية بالفرنسية، وهو يشير بأنفه إلى أقبية اللوبيانكا-. لا أدري كم من الوقت، لكنّها كانت الأسوأ في حياتي... يا أولاد القحبة! - قال بغضب صادر من أعمق أعماقه، ولم يدرِ رامون إن كان شتم المبنى أم تمثال البرونز.

- منذ أن وصلتُ إلى موسكو وأنا أستغرب أن يقاوم هذ التمثال «إذابة الجليد».

- لقد بذلوا جهداً كبيراً مع نُصُب ستالين وتماثيله النصفيّة. كانت بالملايين في أنحاء البلاد. في جورجيا، حيث كان ستالين أكثر دموية، وكان السكان أكثر معرفة به، حدثت احتجاجات وتمرد حين حاولوا سحب التماثيل الأكبر حجماً. كان الناس قد اعتادوا العيش تحت حكم ستالين والتحرك وفق قواعد لعبه إلى درجة أنّهم كانوا خائفين، فربّما ظنّ من يراهم بأنّهم يجيزون هدم التماثيل! هل تلاحظ ما يفعله الخوف حين يصبح نمطاً في الحياة؟ ولكي يشغلوا ملايين الفراغات التي خلفها رفع تماثيل ستالين، اضطروا إلى بناء مئات من النصب والتماثيل النصفية للينين.

اجتازا الميدان، وعند الخروج إلى شارع «كيروف»، دخل أيتينغون في بار وخرج وهو يحمل زجاجتي فودكا صغيرتين. بحثا في جادة

«بيتروفسكي» عن دكة شاغرة، وقبل أن يجلسا، ضرب ليونيد مرتين أو ثلاثاً على ساقه العرجاء، وهو يناديها «قحبة»، وتناول الجرعة الأولى. وضع أصبعين على قاعدة العنق، داعياً رامون إلى الشرب، لكن رامون رفض الدعوة. بدأت الشمس تجنح إلى الغروب وبدأ الطقس يبرد. حين رأى أيتينغون يجلس بالوضعيّة التي يرتاح إليها، فكّر في أن يتناول جرعة من الفودكا، لكنّه فضّل الانتظار.

- ما حدث لأرشيف «بيت إسبانيا» والصراعات على السلطة بين الإسبان تذكرني بشيء لا تعرفه بالتأكيد - قال أيتينغون وتناول جرعة ثانية-. حين توفي ستالين جرت أحداث كثيرة في أيام معدودة. تحرك بيريا وخروشوف وبولغانين ومالينكوف، وكان أول ما فعلوه تقريباً هو أنّهم أمروا مجموعة خاصة من وزارة الداخلية بنقل كلّ مقتنيات ستالين وأضابيره التي كانت في عزبة «كونتسيفو» وفي مكاتبه العديدة في الكرملين. انتزعوا من ابنته زفيتلانا جوازاً كانت تستطيع الدخول به إلى مكاتب والدها، وكانت، حتى العام الماضي، حين استطاعت، بعد جهد، أن تهرب من الاتحاد السوفييتي، تردد أنّ خروشوف وبيريا سرقا كنوز ستالين.

- عن أيّة كنوز كانت تتحدث؟

- ما من كنوز. ولماذا يريد مالاً أو جواهر رجل هو مالك بلاد عظيمة وسيدها، بكل ما فيها، وحين أقول «كلّ» أقصد «كلّ»، جبالها وبحيراتها وثلوجها وطائراتها ونفطها، حتى ناسها، وحيواتهم؟... صحيح كانت هناك حاجات كثيرة مصنوعة من الفضة، خصوصاً تماثيل نصفية ولوحات كانت قد أهديت له، لكنّ ذلك كلّه أرسل به إلى المصهر. أمّا الأثاث والأواني والسجاد وهذه الأشياء فقد وزعت على أماكن مختلفة. تقرر أن يحتفظ القسم المخصص للأسرة في معهد التاريخ ببدلة الماريشال التي تعود إليه وببعض النماذج من الهدايا التي كان العمّال يقدمونها له كلّ يوم. لكنّ القسم الأكبر من ملابسه ما كان ينفع في شيء،

بل إنّ بعضها كان مستهلكاً، وما لم يتخلصوا منه فقد تبرعوا به إلى مراكز المحاربين القدماء المعوقين.

- فإذن ما كان هناك من أموال؟

- كان. أصيب الذين تكلفوا بالعملية بالدهشة من كمية الظروف التي عثروا عليها في كلّ زاوية وركن وفي داخلها أوراق نقدية. كان ستالين يتقاضى راتباً عن كلّ واحد من مناصبه العشرة، لكنّه لم يكن يحتاج أن يشتري شيئاً ولا أن يهدي شيئاً ولا أن يقيم احتفالاً... لكنّ تلك الأموال ما كانت لتجعل أحداً غنيّاً، وما كان زملائي يبحثون عنه هي الوثائق. فالذين كانوا يتطلعون في قرارة أنفسهم إلى السلطة، كانوا يخافون أن تظهر وصية كتلك التي تركها لينين، تعقد حياة بعضهم وتعود بالنفع على حياة آخرين. لذلك قرروا، في سلوك فروسي، أن يُخرجوا جميع أوراق ستالين ويحرقوها، لكي لا يحوز أحدهم سبقاً على الآخر، بأنّ ستالين اختار هذا وأبعد ذاك.

- وكيف علمتَ بكلّ ذلك؟

تناول ليونيد جرعة أخرى من الفودكا فمدّ رامون يده طالباً الزجاجة. كان في حاجة إلى جرعة.

- بعد خروجي من السجن واستعادتي لشيء من وضعي الطبيعي، بدأت بالعمل مع بيريا. ضمّوني إلى ذلك الفريق، وكنتُ واحداً من الذين عثروا، بعد حرق الأوراق، في درج واحد من مكاتب الكرملين على رسائل ظلّت مخبأة تحت جريدة. بقيت خمس رسائل، خمس رسائل فقط، ويبدو أنّ ستالين كان يقرؤها في كل حين: واحدة منها كتبها لينين في الخامس من آذار من عام 1923، لن أنسى هذا التاريخ، ويطلب فيها من ستالين العذر لأنّه شتم امرأته، لا كروبسكايا. رسالة أخرى من بوخارين، كتبها قبيل إعدامه، وفيها يعبّر فيها لستالين عن مقدار حبّه له... وهناك رسالة أخرى، قصيرة موجزة، كاتبها هو الماريشال تيتو، مؤرخة في عام 1959، يبدو لي، وأذكر تماماً أنّه يقول فيها: «ستالين، كفّ عن

إرسال مأجوريك لقتلي. لقد أمسكنا بخمسة. إن لم تتوقف عن ذلك، فسأرسل أنا برجل إلى موسكو، ولن تكون هناك حاجة لإرسال آخر»...

- وهل علم أحد بأنّ أوراق ستالين اختفت؟

- لم يصرّح بذلك رسميّاً، بالطبع لا. لكن بالإضافة إلى الوثائق الرسمية كان هناك ما عرف بـ«الدروج الخاصة»، وهي سجلات بالغة السريّة كانت الوثائق تحفظ فيها ويختم عليها بالشمع الأحمر، وما كان ممكناً الاطلاع عليها إلّا بترخيص من ستالين. هذه بقيت محفوظة وأتصوّر أنّ فيها تقارير على درجة كبيرة من الخطورة، إذ لا أحد يعرف إلى الآن بمكان وجودها، هذا إن كانت ما تزال موجودة. ليتنا نستطيع الاطلاع عليها في يوم، وسنكتشف حينها أنّ الأرض ليست دائرية...

- مثل ماذا؟

- معاهدات ستالين مع هتلر ثم مع روزفلت وتشرشل. أم إنّك تظنّ أنّ إعادة تقسيم أوروبا تمّ كيفما اتفق، على طريقة «أنا وصلتُ أولاً فهذا لي»؟ وكيف تفسر عدم فوز الشيوعيين في الانتخابات لا في إيطاليا ولا في اليونان والحزب الشيوعي فيهما هو أقوى الأحزاب؟ وماذا عن البولونيين، هل تعتقد أنّ البولونيين شيوعيون وأنّهم يحبوننا بصفتنا إخوتهم؟

رفع أيتينغون الزجاجة، لكنّ شيئاً ما أوقفه. تجهم وجهه وسكت ثم قال:

- هل تعتقد أنّ تماثيل لينين ستسقط أيضاً؟

نظر رامون صوب النهر، تجاه مغرب الشمس وسأل:

- وهل في الأرشيف شيء عن موضوعنا؟

تناول أيتينغون جرعة وتحرك قليلاً على المصطبة. وفجأة بدا مسترخياً.

- لا. موضوعنا لن يظهر أبداً. أولاً لأنّ شيئاً لم يكتب عنه تقريباً، وما كان يكتب كان يذهب مباشرة إلى أرشيف ستالين الشخصي. لقد حكى

لي بيريا أنّ القائد الذي لا يقهر كان يجلس، بين حين وحين، قبالة مدفأة ليشوي ما كان لديه في عزبة «كونتسيفو»، ويحرق الأوراق التي يرى أن من غير الممكن الاطلاع عليها. هذا هو معنى أن يمتلك المرء إحساساً جيداً بالتاريخ. نحن ذهبنا إلى السحاب، رامون، كما حصل لقصص أخرى كثيرة، مبعوثين من طرف رفيقنا العزيز ستالين.

***

خشي رامون أن يكون قد تجاوز حدود المسموح به حين قبل الدعوة. بدا له لعبه على جسّ نبض المقابل مشابهاً للعب الذي مارسه التشيكوسلوفاكيون طيلة الأشهر الأولى من عام 1968 ذاك، وفكّر أنّه، إن لامس حافة خطيرة، وربما مكهربة، فقد يتعرض هدوؤه المشروط لغزو بالمشاة والدبابات والطائرات، المستعدة لإعادة النظام. لذلك قرر أن يجرب انفعالاته من جديد.

في أحاديثه مع ليونيد أيتينغون على مدى الشهرين الأخيرين، تلقّى رامون من الاعترافات ومن الكشف عن الحقائق حول الصناعة المرعبة التي استهدفت مصيره ومصير الملايين الكثيرة من المؤمنين ما جعله مدمناً على تلك الحوارات التي كان كلّ واحد منهما يلقي فيها من تلة معرفته بالضوء الذي تعوزه الحوادث التي شهدتها حياتاهما، وتعوزه الفكرة التي من أجلها ناضلا وقتلا وعانيا السجن والتعذيب، لكي يعيشا في النهاية وجوداً لا شكل له، محبطاً، لا وجهة له ولا دليل. كانا كلاهما مطلعين على فصول غير مريحة من الماضي، ويواسيان نفسيهما بذلك الغوص المؤلم في الصور المعتمة التي كانت تهيم فيها روحاهما التائهتان. لقد أجبر أيتينغون تلميذه، من أعالي استخفافه واستهانته، وبالتأثير القوي الذي مارسه دائماً عليه، أن ينظر إلى نفسه من زوايا أخرى، وأن يلاحظ، على نحو خاص، الجوانب المظللة من الطوباوية التي توجّه إليها رامون، نقيّاً ومفعماً بالحماس (قال ليونيد)، إلى مذبح التضحية، لكي يكتشف أو يثبت أنّه، من بين الكثيرين المخدوعين، له

بعض الحق في الأولوية، كما في طوابير المحلات التجارية: ففعله يميّزه في الحلبة المطلقة لذلك السيرك الذي كثيراً ما فرقعت فيه السياط وطالما رقص فيه المهرجون، بابتساماتهم المتجمدة.

كان لويس قد أكّد له أنّه يعرف موسكو كما يعرف راحة يده، وأنّه لن يواجه أيّة مشكلة في العثور على الشقة 18ª الدرج F من البنايةC-26 من القاطع السابع من شارع «كارل ماركس»، في حيّ «غوليانوفو». وذكر لهم أيتينغون تمثال لينين، وهو يمدّ يده نحو المستقبل، نقطة يستدلون بها: من هناك سيصلون إلى روضة «أصدقاء الحرس»، ثمّ يستديرون يساراً (على اليسار دائماً، كرر) وسيعثرون على الشارع والمجمّع والبناية إلى الجنب تماماً من روضة «إرنست ثلمان».[28]

خصصت لرامون، عن خدماته التي قدمها للوطن السوفييتي، سيارة محليّة الصنع - تحتاج، وهي الخارجة للتوّ من المصنع، إلى ضربة لكي تغلق بابها-، لكنّه أعطاها لأخيه يوم تسلمها، لأنّ لويس ميركادير، وهو مهندس وأستاذ جامعي وعضو في الحزب وقاتل في الحرب الوطنية العظمى، لم يتمكن من صعود السلّم ولم يحصل على عربة خاصة به. في تلك الليلة حضر لويس قبيل الساعة السابعة، ولمّا كانت روكيليا فضّلت البقاء في البيت، فقد تركت غالينا، زوجة لويس، أولادها مع أولاد رامون لتستمتع بالمغامرة أكثر.

كانت رائحة ستالين تنبعث من حيّ «غوليانوفو». مجمعات من المساكن، مربعة ورمادية، مليئة بآثار الإسمنت فوق الشقوق، بنوافذ صغيرة ينشر السكان عليها غسيلهم، تفصل بينها ممرات ترابية ديست وازدحمت بالأشجار. كانت الرتابة الهندسية المتعجلة، المصرّة على إثبات أنّ الشخص الواحد لا يحتاج إلى أكثر من أمتار مربعة مسقفة ليعيش عيشة اجتماعيّة، تبعث على إحساس بالدوار بسبب طرازها الموحد والخالي من أيّة لمسة فارقة. أمّا الأرقام التي وضعت للتعريف بالقطاعات والبنايات والدروج فقد مسحت منذ وقت من أثر الثلج

والمطر. يافطات الشوارع اختفت، وفوق كلّ منصّة أعيد تدويرها «وصلوا بالعدّ حتّى أربعة» يقوم تمثال يصوّر لينين مقطب الجبين، متيقظاً، صُهر بأعداد كبيرة، وعلى يد عمال متطوعين. ولكن أيّاً من تلك التماثيل ما كانت تشير إلى أيّ جهة. كان جميع المارة القلائل الذين تحدوا البرد وخرجوا من منازلهم يعرفون العنوان. سألتهم غالينا، التي تكفلت بالمهمة، لأنّها من أهل البلد، عن العنوان: لكن، هل تسألون عن شارع «ماركس» أم عن شارع «ماركس وإنجلز» أم عن جادة «كارل ماركس»؟ نعم، طبعاً، لقد ذكر الجميع روضة أصدقاء الحرس، وقال لهم الجميع أن يلفوا يساراً «دائماً إلى اليسار» وأن يسألوا هناك، مشيرين إلى نقطة غير محددة في متاهة المباني المستنسخة على قالب القباحة الأشد فظاعة.

ولما لم يكن ليونيد أيتينغون واحداً من المحظوظين الذين وافق المجلس المحلي على منحهم خطّاً للتلفون، وحين وجد لويس نفسه ضائعاً في عطفة من عطفات المدينة التابعة، بعد ما يقرب من ساعة من البحث، اقترح عليهم رامون أن يكفوا عن المحاولة. تأسف أن أضاع معلمه القديم وقته ومدخراته ليحضر لهم طعاماً لائقاً، وألّا يستطيع أن يهديه زجاجات الفودكا التي كانت تتصادم بالقرب من غالينا كلما نزل لويس بالسيارة في حفرة، لكن، كان عليهم أن يقروا بذلك: لقد كانوا ضائعين تائهين وسط مدينة بروليتاريّة. في تلك اللحظة وقعت المعجزة، إذ شاهد لويس سيارة تكسي تجوب وسط «غوليانوفو». وبعد أن أهدى السائق زجاجة فودكا، قادهم هذا في دقيقتين إلى البناية رقم 26-C من القاطع 7º. نزلت غالينا حينها من السيارة ودقت على باب الشقة القريبة، خرجت منها امرأة، بدا عليها مظهر الفلاحات، إلى الشارع وأشارت إلى الدرج قبل الأخير من البناية الطويلة وعدّت بيدها الطوابق التي عليهم أن يصعدوها للوصول إلى الشقة المطلوبة.

استقبلهم أيتينغون بابتسامة عريضة، واضطر الجميع إلى الخضوع لعناق الدب العجوز وقبلاته الأثيلية. وبينما كان يشكرهم على الفودكا قدم

لهم زوجه، يفغينيا بوريزوفا، التي تصغره بخمسة عشر أو عشرين عاماً، وإن بدت أقلّ نضارة منه. علم رامون أنّ أيتينغون، بعد خروجه من الحبس، استأنف علاقته بزوجه الأولى، أولغا ناوموفا، التي ماتت بعد وقت قصير، ومنذ سنتين وهو يعيش مع «ينيا»، التي أصبحت زوجه الخامسة.

جلس المضيف وزواره حول المنضدة في وسط الصالة، التي هي، حسب ما علموا بعد ذلك، غرفة نوم ابنتي «ينيا»، اللتين تسكنان معهما، أيضاً. صُفّت على المنضدة، المفروشة بغطاء من المشمّع، أطباق الدخول الحادة المذاق التي يحضّر بها الروسُ المعدة لاستقبال الفودكا: جمبون مفروم ومخلل الخيار والطماطم والتفاح وشرائح سمك الرنجة والسلمون، والقليل من الكافيار الأحمر وحبات البصل الصغيرة والسلطة الروسية والفرنسية وحلقات الباسطرمة ومربعات شحم الخنزير والخبز الأسود.

- علامَ شكواك إذن؟- قال رامون وهو يقضم مخلل الخيار الذي أعجب به على غير ما كان متوقعاً.

قدّم ليونيد الفودكا في أقداح زجاجية صغيرة عبّأها حتى حافاتها وطلب من زوجه أن تأتي لهم بجرة عصير البرتقال، الذي أعدّه خصيصاً تقريباً لرامون الممتنع عن شرب المسكرات. من المطبخ الصغير كانت تنبعث رائحة الكرنب المغلي النفاذة، وترجاهم رامون ألّا يضيفوا إلى الشيشبرك الكثير من الفلفل الحار المسيّل لدموعه.

- لم أكن أتوقع حضوركم مبكراً - قال ليونيا وهو يقدّم كؤوس الفودكا لغالينا ولويس.

- لكننا ظللنا ساعة نلف وندور!...- قال رامون معبّراً عن انزعاجه.

- هذا أمر طبيعي. وما رأيك بالحيّ؟

- فظيع- قال رامون، ثمّ جرّب الكافيار بعد أن وضعه على الخبز الأسود.

- هذا هو الوصف الصحيح: فظيع. يبدو أنّ الجمال والاشتراكية يلعبان في فريقين متنافسين. لكنّ الواحد منّا يعتاد كلّ شيء. لكي ترى كم أنتَ محظوظ إذ تسكن مقابل كورنيش فرونزا، في شقة تضمّ ثلاث غرف، وفيها شرفة... أليس كذلك؟ - دعا غالينا ولويس، ورفع الثلاثة كؤوسهم وتناولوا الفودكا بجرعة واحدة، حتى رؤية القعر، كما طلب المضيف.

- لم أحظَ دائماً بالعيش هكذا. حين وصلت روكيليا، أعطونا شقة أكبر من هذه بقليل في «سوكول»...

- لا يمكن أن تشبه هذه إطلاقاً. «سوكول» هي المدخل إلى الجنّة، رامون. خطوات قليلة وتجد نفسك في المدينة الفاضلة.

تذكر رامون جولاته في المدينة الفاضلة، كما سماها أيتينغون. في سنوات الثلاثين، حين كان القمع والعسرة أشدّ وطاة، حصلت مجموعة من الفنانين، أغلبهم من الرسامين، على ترخيص من «الرئيس» لإقامة بلدية مثالية في «سوكول»، بل تلقوا مواد لتشييد بيوت عائلية مفردة مع باحة وحديقة. بنى فيها الكثيرون بيوتاً خشبية وأكواخاً اسكندنافية، يمكن أيضاً أن تشاهد هنا وهناك قصراً موريسكيّاً أو بيتاً ذا تصميم متوسطي. واختاروا عن قصد أن تكون شوارعها متعرجة، مليئة بالمنعطفات، والحدائق في الزوايا، وقد وضعت فيها أبراج للحمام من كلّ تصميم ولون. زرعت المناطق الخاصة بالبلدية بتنويعة من الأشجار لا نظير لها في المدينة: أشجار الردندرة واللوز والسفرجل موزعة بطريقة تجعل من أوراقها في فصل الخريف تعرض تشكيلة مبهرة من الألوان. بين رتابة المباني المتعجلة التي شيدها خروشوف، حيث تقرر أن يقيم، ما كان رامون يحتاج إلَّا إلى أن يقطع شارعين لينتقل من عزلته تلك إلى ذلك الفضاء الموسكوفي الفريد، الذي اختارت مشيئة قاطنيه نوع البيت الذي يريدون العيش فيه والأشجار التي يريدون زرعها. كانت تلك الناحية من «سوكول» كمتحف للحلم الاشتراكي والجمال الذي لم يصلوا إليه، نتوء منفرد وإنساني متناقض في المنظومة المصممة في قوالب من

حديد للمدينة السوفييتية الصارمة التي خطط لها ستالين منذ أن عزم على «إجراء عملية قيصرية لموسكو القديمة»، المفرطة في الفوضى والفخامة بالنسبة إلى ذوقه، ذوق المهندس الأعظم.

- أمر ستالين ببناء حيّ «غوليانوفو» بعد الحرب. وكعادته، فقد حدد مهلة لإكمال البناء، دون تفكير في المحصلة- قال أيتينغون بينما كان يفسح المجال لكي تضع زوجه طنجرة الجولوديتس، وهو لحم قوائم الخنزير الدسمة الذي يتحوّل بالتبريد إلى مادة جيلاتينيّة، على الطاولة وتضع معها علبة الخردل وصحناً من دوائر الفجل البري الحاد-. لكن، إذا كانت الشقق صغيرة وقبيحة، فالذنب بالطبع هو ذنب الإمبريالية، التي هي مسؤولة أيضاً عن أنّ الأحذية السوفييتية قاسية وعن غياب مزيل رائحة العرق وعن أنّ معاجين الأسنان تجرّح اللثة.

ابتسم لويس وهو ينفي شيئاً بحركة من رأسه، بينما صبّ لنفسه الجولوديتس مع الفجل الحار الذي كان رامون ينفر منه.

- ما أغربك، كوتوف... أذكر حين تعرفتُ إليك في برشلونه. كنتُ طفلاً تقريباً، وانظر الآن، أنا أصلع.

نظر ليونيا إلى المطبخ، وكانت زوجه قد عادت إليه، ونبّهه بصوت واطئ بالكاتلانية:

- ممنوع هنا ذكر كاريداد.

- هل تفهم «ينيا» الكتلان؟

- لا، لكن من باب الاحتياط. أليس هذا هو الشعب الأكثر ثقافة في العالم؟

كان رامون هو من ابتسم هذه المرّة.

- لا تزعجوا أكثر وتكلموا بالروسية- طلبت منهم غالينا بالإسبانية-. ثمّ إنّ كاريداد عجوز قبيحة تملأ التجاعيد وجهها.

- ليس للشيطان تجاعيد من الداخل - قال أيتينغون ووافق الآخرون على ما قال.

- أتذكر حين كان كوتوف يكلمني عن الاتحاد السوفييتي - استذكر لويس وأمسك بيد زوجه-. أنا كنتُ أحلم بهذا، وكان يوم وصولي إلى هنا واحداً من أسعد أيام حياتي، فقد وصلتُ فيه إلى المستقبل.

- ووصلتَ إلى المستقبل...- رمى أيتينغون في فمه قطعاً من شحم الخنزير ونظّف فمه بجرعة من الفودكا-. بحسب قادتنا «هذا» هو المستقبل. الغرب هو الماضي المنحط المتدهور. والمزعج في الأمر أنّ هذا صحيح. فقد أعطت الرأسمالية كلّ ما يمكنها أن تعطيه. لكنّ من الصحيح أيضاً أنّ المستقبل إن كان مثل «غوليانوفو»، فسيفضّل الناس ولوقت طويل الانحطاط مع مزيل رائحة العرق والسيارات الحقيقية. إنّ العالم ساقط في فخّ، والفظيع أنّنا نضيّع الفرصة لإنقاذه. هل تعرف ما هو الحل؟

- لا تقل لي إنّ لديك الحل! - أبدى لويس دهشته وابتسم أيتينغون راضياً.

- إغلاق هذا الحانوت وفتح حانوت آخر على بعد شارعين من هنا. على شرط البداية بالتجارة من دون غش أحد، ولا مضايقة أحد، لمجرد أنّه لا يفكر كما تفكر أنت؛ من دون أن يبحثوا عن حجج لإسكاتك ومن دون أن يقولوا لك إنّهم حين يتغوطون عليك إنّما يفعلون ذلك لمصلحتك ومن أجل الإنسانيّة، وإنّ ليس من حقك أن تحتج ولا أن تشكو من ألم، فليس من واجبك أن تمنح العدو كلّ هذه الحجج والتبريرات. من دون ابتزاز... المشكلة هي أنّ من قرروا نيابة عنّا، قرروا أن لا ضير في القليل من الديموقراطية، لكن بحدود... ثم نسوا حتى القليل الذي هو من حقنا، وتحوّلت كلّ تلك المسألة الجميلة إلى مركز شرطة مهمته حماية السلطة.

- فأنتَ إذن ما عدت شيوعيّاً؟ - سأل لويس وخفض صوته.

- إنهما موضوعان مختلفان. أنا ما زلتُ شيوعيّاً وسأبقى شيوعيّاً حتى آخر يوم في حياتي. أمّا من امتلكوا كلّ شيء وسمسروا بكل شيء فهل

هؤلاء شيوعيون؟ الذين خدعوني وخدعوا رامون، هل هم شيوعيون؟ رجاءً، لويس...

تناولت غالينا كأسها من الفودكا وقالت وهي تنظر إلى قعره.

- فتروتسكي إذن كان شيوعيّاً؟ لقد دعا خروشوف نتاليا سيدوفا لزيارة موسكو لكنّها رفضت، لكنّ مجرد دعوتها يشير إلى شيء.

- إن خروشوف كان على الدوام مهرجاً - قال أيتينغون وملأ كأسه.

أمسك رامون بموضع الندبة التي لها شكل الهلال على يده، من دون أن يعلّق بشيء: كان مؤثراً أن يرى معلمه في دور الضحيّة. وبدا أيتينغون، من ناحيته، مستاءً. تناول قليلاً من كلّ طبق، وكأنّ به لهفة، وفي تلك اللحظة تذكر رامون دعوات العشاء الفاخرة، مع النبيذ الراقي، التي حضرها في باريس ونيويورك والمكسيك أيام كان عميلاً تدفع خزانة الدولة السوفييتيّة نفقاته. كم من تلك الأموال أموال جاءت من الخزانة الإسبانية؟

- من أجل بلد المستقبل أمر ستالين بقتل الملايين من البشر - واصل أيتينغون-... لكن ما أمرونا أن نقوم به كان أمراً مبالغاً فيه. كان علينا أن نترك العجوز يموت في وحدته أو أن يرتكب خطأً نابعاً من يأسه ليكسي نفسه بالخراء بنفسه. لقد أنقذناه نحن من النسيان وجعلنا منه شهيداً.

- كفى- قاطعة رامون، الذي رفض أن يستمع إلى تلك الفكرة-. هل علينا أن نفتح هذا الموضوع؟- وصبّ دفقة من الفودكا في عصير البرتقال.

- وعن أيّ موضوع غير البحرِ يستطيع الناجون من الغرق أن يتحدثوا، رامون بافلوفيتش؟ لنشرب، لنشرب نخب الناجين في العالم! حتى النهاية! - وعبّ الفودكا عبّاً.

بعد الصخب حلّ الصمت في الغرفة الصغيرة، لكن صوت المنقذة يفغينيا بوريزوفا وصل من المطبخ معلناً عن أنّ الطعام جاهز. انهمك

ليونيد ولويس وغالينا في تناول ما في الأطباق الأولى بعناية، وهو ما كان يثير نفور رامون دائماً. نهض أيتينغون وهو ينظف فمه بظاهر يده، وبينما كان الضيوف يرفعون الزجاجات والأطباق الفارغة عن الطاولة، وضع المضيف سلة أخرى من الخبز الأسود وصينية الكرنب الحامض بشحم الخنزير وصحناً من اللحم والبطاطس المشوية والزيت والخل، ثمّ وزّع أطباقاً أخرى نظيفة، من تشكيلات مختلفة. دخلت ينيا مع طنجرة منبعجة قليلاً ووضعتها في وسط الطاولة: اكتشف رامون أنّ منظر الشيشبرك وافق شهيته.

- البنات أكلن. إنّهنّ يشاهدن التلفزيون في بيت أحد جيراننا. تفضلوا بالأكل على راحتكم.

رشّ رامون الخل على الشيشبرك وتحقق من أنّها، وقد حشتها زوج أيتينغون بلحم الضأن وطبختها، أفضل بكثير من التي اعتادت غالينا عملها.

- قال لي ليونيا إنّ زوجك تسافر كل سنة إلى المكسيك - علقت ينيا، محاولة أن يكون لكلماتها وقع عرضي وسط طقطقة الأطباق ورنين الأقداح وضجيج الفكوك.

- هي الآن تستعد لسفرة قادمة. ما إن نصل إلى الشتاء حتى تنطلق جرياً من هنا.

ابتسمت ينيا وكأنها تسمع نكتة.

- ما أجمل أن يستطيع الواحد أن يسافر...- قالت وشكّت قطعة من الشيشبرك وأبقت عليها معلقة في الهواء وتجاسرت على الطلب-: هل يمكنك أن تكلفها بأن تجلب لنا ملابس جميلة للبنات؟ سأدفع لها بالطبع- بادرت موضحة.

انتهى رامون من المضغ وأجاب موافقاً.

- قولي لي القياسات. وأنا سأتكفل بالأمر.

- يقول ليونيا إنّ شقتكم جميلة جدّاً - واصلت يفغينيا بوريزوفا، وهي راضية عن خروجها من الحرج بلا صعوبة. لا شكّ أنّ رأسها، الذي غطّته دبابيس الشعر وكساه الشيب المصفر، كان يموج بصور البنطلونات والقمصان والأحذية وماسكات الشعر التي ستضعها بناتها، وما يعنيه ارتداء تلك الملابس من تميّز: ستكون نسمة من الغرب، شيطانية، لكنّها موضع لهفة ورغبة يشعر بها كلّ سوفييتي.

- الأثاث والكثير من حاجات الزينة اشتريناها بالنقود التي نحصل عليها من الأشياء التي تبيعها روكيليا...- ابتسم رامون وأضاف قليلاً من الخل على الشيشبرك، قبل أن يهجم على البطاطس واللحم المشوي.

وبينما كانت ينيا تعدّ الشاي والقهوة، جرّب رامون قطعة من حلوى التفاح التي جلبتها غالينا واستعد لمواجهة الجزء الأصعب من تلك الوليمة الروسية: كما كان متوقعاً، فإنّ أيتينغون سيحاول أن يدخل البهجة على الأمسية بأغانيه وأنخابه. بحث الداعي، وهو يدمدم مع نفسه، عن موسيقى في الراديو، لكنّ المذيعين في جميع الإذاعات تقريباً كانوا يتكلمون بلا انقطاع، وحين عثر على واحدة كانت تنقل كونشيرتو لم يستطع أحد التعرف عليه، ترك الجهاز على مستوى منخفض من الصوت.

- منذ أيام وأنا أريد أن أسألك، أيها الفتى... هل تحريت من أصدقائك الآن إن كانوا يعرفون شيئاً عن أفريكا؟

نظر رامون إلى عينيه. كانت الزرقة الحادة في حدقتي معلمه القديم قد ذابت في الكحول، لكنّها ما زالت قاطعة.

- لماذا تسألني عنها؟

- لأنّي فقدتُ أثرها منذ أن أخرجوني من اللعبة... أعلم أنّها اشتغلت أثناء الحرب عاملة راديو مع رجال العصابات الذين كانوا يتسللون إلى القوات الخلفية ونالت العديد من أنواط الشجاعة... أتصوّر أنّها لم تحظَ بالعرفان من ستالين.

- العرفان من ستالين؟ - سألت غالينا، وقد جذبتها الكلمات الغريبة.

- ستالين كان كريماً مع كلّ من خدمه، أليس كذلك؟...- تكلّف أيتينغون ضحكة مؤلمة، ولم تفلح كلّ الفودكا التي عبّها في إطفاء حقده-. الحقيقة، إنّ أفضل ما يمكن أن يقع لكَ هو أن ينساك. لكنّه لم ينسني... بعد الحرب عاد ليبدأ المطاردة، داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه. ولكن بعد فظائع النازيين والقنبلتين النوويتين، من كان سيتجرأ على القول بأنّه قتل مئة أو مئتين أو ألفاً من معاونيه السابقين بعد أن اتهمهم بالخيانة؟ أحد الذين دفعوا ثمن معروفه غالياً عند ستالين هو أوتو كاتز[155]، وكان واحداً من خيرة عملائنا. كان هو من أشار علينا بسيلفيا آجيلوف ومهّد لنا الأرضية في نيويورك.

حرك اسم سيلفيا ذاكرة رامون بقوة فاقت ما فعله اسم أفريكا أو تروتسكي. لم يستطع أن ينسى كيف كانت المرأة، في كلّ مرة من لقائها في المواجهات العديدة التي رتبت بينهما، تتحول إلى شيطان بصّاق، بل إنّه، وهو يستحضر ذكراها الآن، ليشعر بحرارة بصاقها على وجهه.

- لم يعمل أحدٌ بقذارة أشدّ وأكثر مما عمل ويلي مونزنبيرغ[156] وأوتو كاتز لتعزيز صورة ستالين في أوروبا. ويلي قتلوه في فرنسا حين وقع الغزو الألماني. وما زلتُ لا أعرف إن كان النازيون هم من قتلوه أم قتلناه نحن... أمّا أوتو فقد واصل العمل، وبعد الحرب ظنّ أنّ الوقت قد حان ليقبض المكافأة. لكنّ ستالين اعتبره هو وأشكاله خدماً يشكلون خطراً، وقرر أنّ الوقت قد حان لمكافأتهم...- شحن ليونيد قوته وواصل الكلام-. حبسوا أوتو كاتز في براغ وأجبروه على الاعتراف بكافة الجرائم التي تخطر على البال. وفي يوم الاعتراف أمام الجمهور

155- Otto Katz (1895-1952). عرف أيضاً باسم (أندريه سيمون). من أبرز عملاء المخابرات السوفييتية على عهد ستالين. أعدم عام 52 بتهمة التآمر والخيانة.

156- Willi Münzenberg (1889-1940). من مؤسسي الحزب الشيوعي الألماني ورئيس أول شبيبة شيوعية عالمية. مات (منتحراً) في معسكر اعتقاله في فرنسا.

اضطروا إلى أن يضعوا له طقم أسنان أخذوه من أحد المعدومين بعد أن فقد في جلسات التحقيق كلّ أسنانه. وأعدموه مع مجموعة أخرى وألقوا بجثثهم في قبر جماعي، في ضواحي براغ...- وأضاف، وقد التفت إلى رامون-: لذلك سألتك إن كنتَ تعرف شيئاً عن أفريكا.

تناول رامون القهوة التي صبتها له يفغينيا بوريزوفا، وأشعل سيجارة.

- كانت تعمل في أمريكا الجنوبية، إلى أن أحالوها على التقاعد وكرّموها... منذ أن وصلتُ لم أرها إلَّا مرة واحدة. هي الآن تحاضر وتنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية من الكي. جي. بي... في عام 1956 بعثت لي برسالة إلى السجن.

كان رامون يفضل لو أنّه لم يتكلم عن تلك الحكاية التي لم يفلح في دفنها إلَّا بجهد كبير. لذلك قال لهم إنّها في رسالتها حكت له إنّها تواصل العمل وإنّها بالكتابة إليه ترتكب عملاً مخالفاً للانضباط، بل وتغامر بحياتها، لكنّها كانت تريد أن تقول له إنّها تهنئه على عزيمته الشيوعية التي واجه بها سنوات سجنه. مع ذلك لم يحك لهم رامون عن أنّه وجد ما كتبته أفريكا ظريفاً وممتعاً - بدا كاريكاتيراً للخطابات الحماسية التي كانت الفتاة الشابة تلقيها في الاجتماعات الجماهيرية في برشلونه- لو لم يثر الخبر الذي تلاه حزنه إلى حدّ البكاء: فلقد ماتت لينينا قبل سنتين من ذلك، وهي في العشرين من عمرها. لقد تحوّلت الفرحة التي غمرته، وهو يتلقى تلك الرسالة، الموقعة باسم ماريا لويسا يرو، والتي كان، مع ذلك، يعرف رسم حروفها كما يعرف الندب المرسومة على يده اليمنى، إلى ألم مكتوم لم يستطع التخلص منه. كانت لينينا قد التحقت بواحدة من المجاميع التي كانت تحارب بيأس قوات فرانكو وقتلت في إحدى المناوشات. يمكن لوالديها أن يكونا فخورين بها، كتبت أفريكا، ببرود مقلق، بل غير طبيعي، وكأنها تكتب بياناً عسكريّاً. وحاول رامون، الذي كان قد طوّر استراتيجية تصوّر حياة موازية لحياته الحقيقية، أن يفسح في حياته المستحيلة مكاناً للبنت التي لم يرها قط، ولم يقبلها قط، وحاول أن

يتصوّر حياة تلك الفتاة بالقرب من والدين قادرين على تعليمها وحمايتها وغمرها بالحب. لم يخفف عجزه عن التأثير على حياة الكائن الذي جاء به إلى الوجود من حدّة الألم الغريب الذي أحدثه فيه موت ذلك الكائن الذي لم يكن، منذ ولادته، غير اسم. القضيّة أم الأسرة؟ أحسّ رامون في صدره وطأة التطرّف الذي خضع له، والذي منعه حتى من أن يدرس إمكانية ألّا يفرط بأفكاره لينجز واجبه الآخر في البحث عن ابنته. حينئذٍ وجد أنّه لن يغفر لأفريكا تزمتها المريض وإبعادها إياه عن قرار كان هو أيضاً طرفاً فيه. لكنّه، في الوقت نفسه، اضطر إلى الإقرار بذنوبه وضعفه. ألم يتقبل إرادة أفريكا واعتبرها صحيحة منطقيّاً وتاريخيّاً وأيديولوجيّاً؟ لم يعد لديه غير العزاء البعيد في أن يقول لنفسه إنّه أيضاً، شأن لينينا، كان سيقاتل فرانكو، وربما كان من الأفضل أن يموت ميتتها على أن يعيش عيشته هذه، بصرخة واضحة في سمعه وقناعة بأنّه كان دمية.

- ماذا جرى لك، رامون؟ - كسرت غالينا الصمت وأخذت يده.

وأعاده شخير أيتينغون إلى الواقع.

- لا شيء، ذكرى مؤلمة... ليونيا لن يغني، ألا نذهب؟

***

سمحت حالة الوحدة التي تتركه فيها سفرات روكيليا، والعزلة القسرية التي يفرضها عليه شتاء موسكو القاتل، لرامون أن يستعيد واحدة من هواياته القديمة: الطبخ.

في السنوات التي أنفقها في السجن، وبعد انتهاء مرحلة الاستجواب والضرب والسجن الانفرادي، التي انتهت مع صدور الحكم عليه، شعر بحاجة ماسة إلى ترشيد طاقته الفكرية، فطلب من محاميه أن يشتري له كتباً ليدرس الكهرباء ويتعلم اللغات. لقد جذبه دائماً لغز الكهرباء، ولفّه الفضول للاطلاع على الحياة الداخلية للغات، وشعر في ذلك الوقت، وأمامه سبعة عشر عاماً من السجن (بدأ يفقد الأمل في أن يرتب له أعوانه سبيلاً للهرب) وتجنباً للوقوع بين مخالب الجنون، بأن في إمكانه، بل من

واجبه، أن يرضي بعضاً من جوانب فضوله الفكري. وهكذا باتت إقامته في السجن ألطف وأخفّ. بالدراسة كان يهرب ذهنيّاً من ممرات سجن «ليكومبيري»، وهي دائرة جهنمية حقيقية، وسمحت له معارفه بحرية وامتيازات كان المجرمون الأميون والفظون المكدسون في السجن محرومين منها. في عام 1944 تولّى المحكوم جاك مورنارد، كان زملاؤه في السجن يدعونه جاك، المسؤولية في ورشة الكهرباء التابعة للسجن، وسرعان من أضاف إلى تلك المسؤولية إدارة ورشة النجارة، بل لقد كلفوه بمنظومة الصوت في المسرح والسينما في السجن. لكنّ صعوده السريع، الذي كان يدعمه بعض المسؤولين الإداريين في السجن، وكانوا على اتصال بمن ترسلهم موسكو، أثار مشاعر الحسد، وأجبره على أن يذكّر أكثر من سجين بأنّه إن كان غرس فأسه في رأس رجل قاد جيوشاً، فلن يهمه أن يقطع ذراع نكرة ملعون. وزادت مكانته بين المحكومين حين بلغه، وكان يتعلّم الروسية والإيطالية، قرار حكومي يقضي بتخفيض مدة المحكومية سنة واحدة على المحكوم الذي يعلّم خمسين من زملائه القراءة والكتابة. بدأ جاك مهمته، وتمكنّ، بمساعدة من روكيليا، التي أتت له بكتب التعليم المطبوعة، وابن عمها إيسيدرو كورتيس، وهو مسجون معه، من تعليم ما يقرب من خمس مئة سجين، وهو عدد لم يبلغه أحد في منظومة السجون المكسيكية. مع ذلك فقد أبلغته السلطات المسؤولة، بعد أن سلمته شهادة تقديرية، أنّ من غير الممكن تطبيق فقرة تخفيض المدة المذكورة عليه، ما لم يعترف بهويته الحقيقية والأسباب التي دفعته إلى ارتكاب جريمته. كرر رامون أنّ اسمه هو جاك مورنارد، واكتفى بأن السجناء الذين انتفعوا من جهوده وإصراره- بعد أن تعلموا القراءة والكتابة حوّل الكثيرين منهم إلى عمال كهرباء- عبّروا له عن شكرهم بالعملة الأكثر قيمة في السجون: الاحترام والأمان.

كان رامون على الدوام سجيناً من نوع خاص. ليس لأنّه يحظى بحماية من نوع ما، بل لأنّ الأشياء في داخله تعمل بطريقة أخرى. لم

يخفضوا له الحكم، كما لم يسمحوا له بالزواج من روكيليا، لأنّه إن تزوجها فسيكون في مقدوره أن يبقى في المكسيك، وهم لا يريدون له أن يبقى في المكسيك. مع ذلك، ساعدوا سيكيروس على الخروج من البلد، حين اصطحبه بابلو نيرودا، وكان حينها قنصل تشيلي، معه إلى خارج البلاد. أمّا دييغو ريبيرا، فحين أراد العودة إلى الحزب، راح يعلن على الملأ أنّه استضاف تروتسكي في بيته ليسهل قتله، وصفق له الجميع. كانت تلك الأشياء تثير اشمئزاز رامون. أمّا هو فكان مرفوضاً، منافقو العالم يقولون إنّهم يشعرون بالاشمئزاز والقرف منه، بينما يستحسنون نكات القوّاد ريبيرا والجبان سيكيروس (الذي تجرأ على إرسال واحدة من لوحاته هدية له).

أفادته معرفته بالعديد من اللغات، وهو في موسكو، في إعطاء قيمة للوقت، وفي كسب مال إضافي من ترجماته. في تلك الأثناء، سمحت له هواية الطبخ، التي مارسها في السجن، فضلاً عن شغل ساعات فراغه، بتسليم قياد نفسه إلى مشاعر الحنين إلى أيام شبابه في كاتالونيا ووضع أجنحة لأحلامه.

منذ أربع سنوات، أو خمس، اعتاد رامون أن يجهّز عشاءً فاخراً لوداع روكيليا، التي كانت تضع قدمها في الطائرة المسافرة إلى المكسيك مع أول نذر سقوط الثلج. في تلك المرّة، كان من بين المدعوين ليونيد أيتينغون وزوجه ينيا، بالإضافة إلى المدعوين المألوفين ممن كان يسمح له بإقامة علاقات معهم (لويس وغالينا وكونجيتا بروفاو وزوجها الروسي وزوج من أصدقاء «بيت إسبانيا» وإيلينا فيرشتين، اليهودية السوفييتية التي كان يعمل معها في ترجماته).

في ذلك الصباح، حين باشر رامون عمله في المطبخ، اعتكفت روكيليا، التي كانت تمقت أيّ تغيير يطرأ على طقوسها اليومية، في غرفتها، محتجة بتحضير حقائب سفرها. ولما كان أرتورو وخورخي في المدرسة، فقد كانت الصغيرة لاورا، الجالسة على كنبة، والكلبان

إيكس وداكس، هم الشهود المتميزين على إعداد العشاء وعلى تعليقات «الشيف» بشأن التوابل والمقادير والوقت اللازم للطبخ. والحقيقة هي أنّ رامون كان قد بدأ بالتفكير في ذلك الطبق الكاتلاني قبل أسبوع من ذلك، لكنّ صعوبة العثور على بعض المكونات في موسكو حدد إمكاناته في الطبخ الوطني، فقد طاف «وهو يحمل الميدالية» في عدة أسواق، وجمع كلّ ما بدا له ممكن الاستعمال، فاختار رزّاً مطبوخاً بالسمك ليكون بداية القصف بالمدفعية، وأقدام الخنزير (أسف لعدم عثوره على الزعتر اللازم للوصفة الصحيحة) للهجوم الكبير. ولم يفته الخبز بالطماطم وفطائر مربى البرتقال ليغلق بها المأدبة. جلبت كونجيتا بروفاو نبيذ البنديس، وجاء لويس بزجاجتين من الشامبانيا من أجل الأنخاب التي كان السوفييت مولعين بها.

تلك الرحلات الغذائية التي تعود به إلى الأصول، والتي اعتاد تقاسمها مع لويس، وأحياناً مع شقيقه خورخي، وهو رئيس طباخين، كانت تخفي أشدّ آمال رامون ميركادير لهفة وحرارة في العودة إلى إسبانيا. كان رامون ولويس يضاعفان، أثناء الأشهر التي تستغرقها سفرات روكيليا إلى المكسيك، لقاءاتهما في مطبخ الشقة. واعتادا، وهما محاصران بالثلج، الاستعانة بالطعام لاستحضار الذكريات وإنتاج الأحلام. كان لويس، وقد تجاوز الأربعين، يحلم بأنّ أبواب إسبانيا، بعد موت القائد (لا بدّ أن يموت القواد في يوم)، ستفتح من جديد أمام آلاف اللاجئين الذين ما زالوا يهيمون على وجوههم في شتى أرجاء العالم. وكان صغير أسرة ميركادير يحلم بأن يمنحه السوفييت ترخيصاً بالخروج من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وهي مسألة معقدة بالنسبة إليه، على الرغم من أصله، وصعبة جدّاً بالنسبة إلى غالينا وأولادها بسبب جنسيتهم السوفييتية. أمّا رامون فكان يعرف أنّهم لن يسمحوا له بالخروج من الأراضي السوفييتية، ثمّ إنّ أيّ بلد من بلدان العالم، بدءاً بإسبانيا، لن يتكرم ويستقبله على أرضه. لكنّ رامون اعتاد، في أحلامه

المعلنة، أن يحدّث لويس عن خطط لفتح مطعم في ساحل «إمبوردا»، وفي شاطئ «سانت فيليو غيشولز» بالذات: هناك، في شهور الربيع والخريف اللطيفة المعتدلة وفي أشهر الصيف الحارة، يمكن كسب العيش من إعداد أطباق صار يتقن طبخها ويحسّن طعومها ونوعيتها ومظهرها المرّة بعد المرّة. سيكون عيشه قبالة البحر، حرّاً من كلّ خوف ومن مشاعر الحبس، وغير مضطر إلى أن يخفي اسمه الحقيقي، تتويجاً سعيداً لحياته الغريبة البائسة.

قبل أشهر من ذلك، أخطأ رامون حين تحدث برغبته تلك لسانتياغو كارّيّو، زعيم الشيوعيين الإسبان. قال له كارّيّو، كما كان رامون ينتظر، إنّ حالته، على أقلّ تقدير، خاصة، وبأنّه لن يكون سهلاً عليه التخلص من القيود التي تربطه بموسكو. ألا يذكر أحدٌ أنّ كارّيّو، وفق مذكرات فرض عليها كثير من التكتم، ربّما تلقى طرطشة من الدماء التي سالت في إعدامات باراكويّوس [87] المؤسفة بحق معتقلين؟... على رامون، في الوقت الحاضر، شأنه شأن بقية اللاجئين، أن يصلي كل ليلة على الطريقة الشيوعية من أجل أن يموت فرانكو، وسنرى ما سيجري بعد ذلك، قال له أمين عام حزبه الجديد. وهكذا بقي الحلم والشاطئ والحرارة حيّاً ملازماً، في صورة رغبة لا يمكنه نوالها، لكنّ من المستحيل أن يتنازل عنها.

كان عشاء تلك الليلة من ليالي نهاية تشرين الأول نجاحاً كبيراً. حتى روكيليا كانت في مزاج رائق (بسبب قرب سفرها) وأثنى الجميع على قابليات رامون في الطبخ. أمّا ليونيد أيتينغون فقد التهم كمية كبيرة من مقادم الخنزير وشرب النبيذ والشمبانيا والفودكا وحتى الرون الكوبي من زجاجة جاءت بها ألينا فيرشتين (كانت واقعة في حب كوبي خلاسي من هافانا يدرس في الأكاديمية العسكرية بموسكو)، وبدا أسعد خلق الله. بعد أن تولّى إدارة الأنخاب، كان أول من بدأ غناء الكلمات القديمة للأناشيد الجمهورية. بالسيجار في أفواههم، وقفوا لالتقاط الصورة التي

التقطها لهم أرتورو، وحكت لهم كونجيتا نصف دزينة من النكات التي كان موضوعها الرئيس عودة مفترضة للينين أو ستالين إلى الحياة. أمّا النكتة التي حازت قدراً أكبر من النجاح فكانت عن أفضل طريقة لصيد أسد:

- سهل جدّاً: تمسك بأرنب وتبدأ بصفعه وتقول له إنّك ستقتل جميع صغاره... إلى أن يعترف بأنّه في الواقع أسد متنكر في زي أرنب.

- أحبّ أن أراكم هكذا- قال أيتينغون-. سعداء وغير مهمومين... ألا تعرفون أنّ هذه المباني مشيدة من الميكروإسمنت؟

- ميكروإسمنت؟ - سأل ألينا فيرشتين.

- عشرون بالمئة من الميكروفونات والبقية من الإسمنت...

في تلك الليلة، فكّر رامون، مدفوعاً بالكحول الذي رخّص لنفسه به في تلك المناسبة، أنّ الحياة، على الرغم من الوحدة والصمت والإحباط، بل والخوف والهوس بالميكروفونات الحقيقية والمتخيلة، تستحق العناء. وأمامك أيتينغون: إنّه مثال واضح على تلك الحقيقة. لامبالاته، المجرّبة بالضرب وسنوات السجن، كانت منقذة ونموذجيّة. ألم يكن هو مستهتراً، لامبالياً بقدر ما كان معلمه؟ فكّر أنّ إيمانه وجهاده من أجل طوباوية عظيمة لم يتصوّر أحد وجودها يستدعي جرعاً لازمة من التضحيات. هو، رامون ميركادير، كان واحداً من الذين جرفتهم أنهار تلك الصراعات الجوفيّة غير المتكافئة، وليس من المجدي التنصّل من مسؤولياته ولا محاولة الإلقاء بوزر ذنوبه وأخطائه على الخداع والتلاعب الذي تعرض له: إنّه يجسد واحداً من الثمار العفنة التي تزرع حتى في أفضل محصول وحصاد. صحيح أنّ آخرين فتحوا له الباب، لكنّه هو من اجتاز، وبملء إرادته، عتبة جهنم، مقتنعاً بضرورة وجود منزل للظلمة لكي يوجد عالم للنور.

بعد أن انتصف الليل واقتربت ساعة التوديع، طلب لويس من رامون أن يرافقه إلى المطبخ. اتكأ لويس، وسيكاره الموشك على الانتهاء في

شدقيه، على الطاولة التي تكدست عليها أواني الخزف التي يتحتّم على رامون غسلها (وكان هذا جزءاً من تعهد رامون لروكيليا) قبل أن يخلد إلى النوم.

- ما الأمر؟ هل تحتاج شيئاً؟ - صبّ رامون قليلاً من القهوة وأشعل سيجارة. شعر بأن حماسه الأثيلي راح يفسح الطريق لحزن غامض لكنّه شامل.

- لم أشأ أن أعكّر صفو الاحتفال، لكن المشكلة هي أنّ...

نظر رامون إلى أخيه وظلّ صامتاً. لقد علمته التجربة ألّا حاجة لاستعجال الأخبار السيئة: لأنّها تسقط بفعل وزنها.

- كاريداد ستصل في ظرف يومين. لقد اتصلتْ بي عصراً.

نظر رامون نحو الخارج. كانت السماء تبدو محمرة، وهو نذير سقوط ثلج. رمى لويس بسيجارته المطفأة في سلة المهملات.

- سألتْني إن كانت تستطيع أن تبقى عندك. بما أنّ روكيليا ستسافر...

- لا. قل لها لا- قال رامون، من دون تفكير تقريباً، وعاد إلى الصالة، حيث كان المدعوون يرتدون معاطفهم استعداداً للخروج. ودّعهم رامون بوعد بلقاءات قريبة، وحين همّ ليونيد بتقبيله، حرّك هو وجهه وهمس في أذن المستشار.

- كاريداد قادمة - قال له وقبّله.

استطاع رامون أن يلاحظ أنّ عيني أيتينغون الزرقاوين استردت بريقها الذي أطفأه الكحول. كان مجرد ذكر ذلك الاسم كفيلاً في ما يبدو بالكشف عن ردات فعل كيمياوية معقدة تتحرك بعيداً عن الشعور الجنسي المستهلك: فقد كانا على أيّة حال روحين توأمين، متحدتين بقدرتهما على الكره والتدمير.

- سأتصل بك غداً، أيها الفتى - ابتسم وضرب بيده المحشورة في القفاز على وجه رامون.

- لا، من الأفضل ألّا تعاود الاتصال بي... فقد مللتُ من التمرّغ في الخراء.

بينما راح رامون يغسل الأطباق والطناجر، وضع في الفونوغراف وبصوت منخفض أسطوانة من الأغاني اليونانية التي كان معجباً بها. كانت زيارة أمّه الوشيكة تقلقه، وحين بدأ يجفف الأطباق توقف ليمعن النظر في يده اليمنى إلى الندبة التي لها شكل الهلال. تلك الآثار على جلده وتلك الصيحة في سمعه، مضافاً إليهما ظلّ كاريداد، كانت بمثابة قيود تربطه إلى ماضيه، وقد تكون ثلاثتها بالغة الوطأة إن هو حاول أن يحركها مجتمعة. ولئن لم يكن هناك من سبيل إلى محو الندبة والصرخة فقد كان في مقدوره، على الأقل، أن يبقي على أمّه بعيدة عنه. لقد واصل في سجنه، من دون صحبة غير الصرخة والندبة، تمرنه على كره كاريداد حين ألقى عليها باللائمة في فشل خططه للهرب. لكنّه تذكّر أنّ المختصين، خلال الاختبارات النفسية الكثيرة التي خضع لها في المكسيك، وعلى الرغم من تلك الكراهية، مالوا إلى القول بوجود وسواس يتركز حول شخصيّة الوالدة، وقد وصفه بعضهم بعقدة أوديب. حين سمع بتلك الأحكام لم يجد بدّاً من الضحك في وجه الأطباء النفسانيين، لكنّه علم أنّ شيئاً ما ضائعاً في لاوعيه، ربّما انطلق من مسار غير متوقع، هو ما أثار استغراب الأطباء. إنّ في ذكرى قبلات كاريداد، التي كان لعابها الساخن الممزوج بطعم الأنيس يحدث فيه مشاعر ملتبسة، والضيق الذي أحدثه فيه دائماً رؤيتها في صحبة رجال آخرين، والسلطة المنفلتة التي مارستها أمّه عليه، عنصر غير صحي حاول أن يتحرر منه عن طريق الابتعاد، بل الكراهية. لقد جعله رأي الاختصاصيين يفكّر في مواقفها منه وفي شعوره هو بالضعف والحاجة تجاهها، وبدأ يسترجع من ذاكرته مداعبات وكلمات وإيماءات وتقرّب وتحسسات وجدها مؤلمة في انحطاطها وانحرافها.

على الرغم من تعب يوم كامل من العمل، ومع أنّه شرب أكثر من المعتاد، فقد تقلّب رامون في فراشه، تلاحقه فكرة لقاء جديد مع أمّه،

حتى بدا له اقتراب الفجر في السماء وشاهد سقوط أولى ندف الثلج في ذلك الخريف. تذكر رامون، وهو ينظر إلى الثلج المتساقط، سفره في القطار أواخر عام 1960 ووصوله حتّى حدود آسيا السوفييتيّة، برفقة روكيليا وشابين من ضباط الكي. جي. بي. دليلين وحارسين. لا شكّ أنّ تلك السفرة، بعد عشرين سنة من الحبس، كانت عملاً من أعمال التحرر واستعادة المتعة بالتحرك أياماً وأياماً، قاطعين عوالم متباينة، وعابرين خطوط التوقيت ومنطق الزمن (على بعد أمتار من الوقت الحاضر تعود القهقرى لتجد نفسك في الأمس أو تقفز إلى الأمام لتجد نفسك في الغد). اكتشف بأمّ عينيه التقدم الاقتصادي للبلد، المدارس المزروعة في كلّ ناحية من أرضه الشاسعة، كرامة الفقر لدى الأطفال الأوزبكيين والقرغيسيين والسيبيريين، عالم جديد أشعره براحة من كوفيء حين اضطر إلى التفكير في أنّ تضحيته الشخصيّة كان هدفها هو ذلك الواقع. لكنّ رحلة العودة، دائماً في عربة الدرجة الأولى من قطار سيبيريا، خلّفت فيه إحساساً متناقضاً. لم يكن مردّ ذلك أنّ عربة المطعم تحولت، خلال اليومين اللذين توقف فيهما القطار بسبب موجة الثلج، إلى نوع من البار- المرحاض حين سيطرت مجموعة من العسكريين عليه وأمضوا كلّ ساعة من ساعات توقفه في عبّ الفودكا والتبول والتقيؤ في زواياه. ما حدث له هو أنّ بقاءهم من دون حركة، محاطين ببياض السهب المتجمد اللامتناهي والمستغلق، أعاد له شعوراً جارفاً بالضعف وانعدام الحيلة، أشدّ وطأة من ذلك الذي لفّه في الزنزانات الكثيرة التي عاش فيها. كان في ذلك المشهد السيبيري الكانوني ما شلّ حركته وضيّق عليه. كان ضيقاً، -فكّر-، معاكساً تماماً في مفهومه للحبس والحجز: كان ضيقاً ناتجاً عن العجز عن قياس العظمة المحيطية لمنظر أبيض لا يمكن تأمله في ساعات قليلة من ساعات النهار. كانت السعة الفيزيائية تخنقه. لقد أدرك أنّ ذلك اللامتناهي الأبيض قادر على أن يرهقه إلى حدّ الجنون.

لم ينتبه رامون إلى اللحظة التي نام فيها. وحين استيقظ، قريباً من

الثامنة، شاهد بالقرب من السرير وجهي إيكس وداكس المتلهفين، وقد مرّت ساعة قضاء الحاجة الصباحية لديهما. مع ذلك لم يحرره النوم القصير من الضيق المتنامي الذي تربص به طوال الليلة.

وضع القهوة على النار وراح يرتدي ملابسه. رأى أنّ ترمومتر الشرفة يسجّل درجة حرارة مقدارها ثماني درجات تحت الصفر. نظر إلى حديقة غوركي، على الجانب الآخر من النهر، فوجدها مغطاة تماماً بالثلج النقي. حين رفع القهوة من على النار، وضع على اللهب نصل سكين، شبيه بالتي كان يستعملها في «مالاخوفكا». تناول القهوة وأشعل سيجارة ودخنها إلى أن رأى أن لون الفولاذ صار أحمر. أطفأ السيجارة بنقعها في مغسلة الأطباق، بحث عن قطعة القماش التي جفف بها في الليلة الماضية الأطباق وطواها مرتين وحشرها بين أسنانه وعض عليها بقوة. تناول باليد اليسرى مقبض السكين، الذي انقلبت حمرته إلى بياض، وأغلق عينيه، ووضع النصل على الندبة في يده اليمنى. ثنى الألم ركبتيه وانتزع منه دموعاً وزفيراً مكتوماً. ألقى بالسكين إلى المغسلة فسمع له طقطقة في الماء. حين فتح عينيه رأى بقايا دخان رمادي وبصق قطعة القماش. كانت رائحة اللحم المحترق مزعجة ومثيرة للغثيان. فتح حنفيّة الماء ووضع يده تحت الماء المثلج، بينما راح باليد اليسرى يبلل وجهه. شعر بالراحة حين خدرت يده من البرد. أخرج منديلاً من جيبه، وبعد أن جفف وجهه، غطّى الجلد المحروق الذي اختفت من عليه الندبة كما يفترض. شعر، على الرغم من الألم، بأنّ روحه صارت أخفّ وزناً. تناول منديلاً آخر نظيفاً، وربط من جديد يده واستعد للخروج.

نبح إيكس وداكس مرتين من اللهفة وهما ينزلان بالمصعد. وعلّق حارس البناية بشيء، لم يسمعه رامون المتألم، عن الطقس وعن الاستعدادات الجارية للاستعراض بمناسبة ذكرى الثورة. لفّ على عجل، وبيده اليسرى، التلفيعة وخرج نحو الممشى، حيث انطلق كلبا «البورزوي»، وقد لصقا خطمهما بالثلج، بحثاً عن رائحة تحفزهما على

فتح عضلاتهما العاصرة. وما إن أفرغا جوفيهما حتى راحا يجريان على الثلج، مثل طفلين يطآنه لأول مرة. ما زالت ندف متفرقة من الثلج تسقط، فرفع رامون غطاء سترته. عبر، وهو يمسك بسيور الكلبين بيده اليسرى، ويحمل بين شفتيه سيجارة، جادة كورنيش فرونزا يتبعه كلباه وهبط من الدرج النازل من الرصيف نحو منصة موضوعة عند مستوى النهر تقريباً.

اتكأ على الدرابزين المعدني، وجلس كلباه بالقرب منه. راح يدخّن، وندف من الثلج على سترته، ويده مربوطة بمنديل ذي طرر سود، وقد ثبّت عينيه في تدفق مياه النهر، الذي تكوّنت على ضفتيه طبقة من الصقيع. هل سيعود ذات مرّة لرؤية شاطئ «سانت فيليو غيشولز» المضيء بدلاً من ذلك النهر الوسخ والمتجمد؟ صوّر له الألم والمرارة سقوطاً بين شدقي شفتين، حين قال بصوت عالٍ:

- «أنا شبح». (بالكاتلان).

تخيّل، وهو يتنفس ذلك الهواء الجليدي ويشعر بالألم الحارق الصاعد من ذراعه، حال ذلك الطيف الذي كان في وقت من الأوقات يسمّى رامون ميركادير دل ريو. كيف كانت ستمضي حياته لو أنّه قال «لا» في ذلك الفجر البعيد على سفح جبال «غوداراما». لكان، فكّر كما كان يعجبه أن يفعل، قتل في الحرب، كما قتل الكثيرون من أصدقائه ورفاقه. لكنّه قال لنفسه، ولذلك يعجبه الخوض في تلك اللعبة، إنّ ذلك المصير الآخر ما كان سيكون الأسوأ، لأنّ رامون ميركادير في ذلك الوقت، الشاب والمفعم بالإيمان ما كان يخشى الموت: كان رامون قد فتح كلّ نوافذ روحه للعقلية الجماعية، للنضال من أجل عالم أفضل، ولو أنّه مات وهو يقاتل من أجل ذلك العالم، لكان كسب مكاناً خالداً في جنّة الأبطال الأنقياء. فكّر رامون في تلك اللحظة في مبلغ شوقه إلى أن يرى بالقرب منه ذلك الرامون الآخر، الحقيقي، البطل، النقي، وأن يستطيع أن يحكي له قصّة الرجل الذي كانه هو طوال تلك السنين التي عاش أثناءها أطول كوابيسه وأشدها ضِعة.

-30-

صلاة

منذ واحد وثلاثين عاماً اعترف لي إيبان بأنّ حلماً واحداً راوده لوقت طويل: السفر إلى إيطاليا. كان يتمنّى أن يقوم بعدّة أشياء في إيطاليا- الحلم: زيارة قلعة «سان آنجلو»؛ والحج إلى فلورنسا لتأمل المناظر التوسكانية التي كان ليوناردو شاهدها ذات مرّة؛ والوقوف مذهولاً أمام كاتدرائية المدينة وقطع رخامها الأخضر؛ والطواف في «بومبي» ليقرأ فيها كتاباً خالداً عن خلود الحياة والعشق والموت؛ وتناول بيتزا وسباغيتي حقيقيين، يفضّل أن يكونا من نابولي؛ والرمي بقطعة نقود في نافورة «تريفي»، لضمان عودته إليها. وبانتظار أن تحين اللحظة العظيمة، راح إيبان يغذّي حلمه بدراسة أعمال ليوناردو (وإن كان من يثير إعجابه إلى حدّ الجنون هو كارافاجيو[157])، ومشاهدة أفلام فيسكونتي[158] وأفلام دي سيكا، وقراءة كالفينو وروايات ليوناردو شاشا الصقلية، وتناول البيتزا الهشّة والبطاطس الطريّة، اللتين شاع تناولهما في الجزيرة في أعوام الستينيات، واللتين طالما قتلتا جوعنا لسنوات. كان حلمه من

157- Caravaggio المقصود به ميكيل آنجلو الرسام الإيطالي الشهير (1571-1610). سمّي (كارافاجيو) نسبة إلى مسقط رأسه.

158- Luchino Visconti (1906-1976) واحد من أشهر المخرجين السينمائيين الإيطاليين والعالميين.

الشدة والتخطيط أنّني استنتجتُ أن إيبان ما درس الصحافة إلَّا على أمل السفر في يوم (إلى إيطاليا) في تلك الأوقات التي ما كان لأحد أن يسافر فيها، وإن سافر، ففي مهمة رسميّة.

المرة الأولى التي حدثني فيها صديقي عن ذلك الحلم الكوبي في السفر إلى خارج الجزيرة واختفائه كان على سطح بيته، بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من تعارفنا. كنتُ في تلك الفترة أسوأ قارئ من بين طلبة مدرسة الآداب، وفي ذلك اليوم وضع إيبان بين يدي، بعد أن حدثني عن أمله الضائع، رواية لبافيزي وأخرى لكالفينو[159]، بينما رحتُ أنا أتساءل كيف يمكن أن يتقبل شخص مثله الخسارة، وأن يتكلم، وهو ابن العشرين وقليل، عن أحلام ميتة، وما زال أمامنا مستقبل يبدو مشرقاً وأفضل.

المرة الأخيرة التي رأيت فيها إيبان حيّاً كانت قبل وفاة «آنا» بثلاثة أيام. في تلك الليلة من أواخر أيلول من عام 2004، بينما كان يدور بيننا أغرب حديث، عثرتُ، في لحظة من اللحظات، على قصّة الحلم الإيطالي لصديقي، في صندوق الأماني الضالة العميق، وربّما لن أتمكن أبداً من معرفة إن كان ذلك الاستذكار، الذي كان عمره إحدى وثلاثين سنة، تعبيراً لاواعياً عن هاجس داخلي، أم جواباً مقدماً من دماغي على بحث عن أصول الكارثة.

منذ تلك الليلة، عشت طوال أسابيع محشوراً في مستنقع التناقض، أشعر وكأني أغرق في وحل أنانيتي. على أيّة حال، ولأنّ إيبان لم يعد إلى بيتي، فقد التزمتُ أنا بطلبه ألّا أعود لزيارته، هذا هو ما طلبه منّي حين ودعني، وتصرفت بسفالة وصبيانية حين منعت على نفسي من أن أنكث وعدي وأعاود زيارته، وإن كنتُ أعرف أنّ ذلك هو ما يجب فعله. مع ذلك، فقد كنتُ، كلما التقيت أصدقاءنا، كالأسود فرانك أو آنسيلمو، أسألهما إن كانا التقيا إيبان، ولم يفاجئني، أو بالأحرى كان يطمئنني أن

159- Cesare Pavese (1908-1950) أحد أهم أدباء إيطاليا في القرن العشرين.
Italo Calvino (1923-1985) من أدباء الواقعية الجديدة في إيطاليا.

أسمع دائماً الجواب ذاته: لم يروه، يقول إنّه لا يريد أن يرى أحداً، يبدو أنّه ينتهي من كتابة شيء. و(شأن كاتب متوسط القدر، وفوق هذا، جاف) فقد اكتفيت بتلك الحجة ولم أسعَ إلى البحث عنه.

أعرف أنّ ابتعادي يعود أيضاً، أكثر من حسد محتمل، إلى الخوف من مسؤوليةٍ ألقاها إيبان على عاتقي، وما كنتُ أعرف كيف أتصرف معها: ماذا سأفعل بما ينتهي إيبان الآن من كتابته؟ هل أحتفظ به في جرار، كما قد يفعل هو؟ هل أحاول نشره، كما قد يفعل، وإن لم يشأ أن يقوم به هو؟ ذلك القرار الغريب من طرف صديقي في تسليمي عمله، وذلك الهوس الذي عمره سنوات لقطع كلّ الحبال بتلك القصّة وبحياته، بدت لي، أيضاً، مرضية، بل جبانة؛ فتلك هي مشكلته وكتابه وقصته، لا مشكلتي وكتابي وقصتي، -فكرتُ-.

ما بي حاجة لكي أقول، بعد كلّ ما جرى، إن موت «آنا» شكّل بالنسبة إلى إيبان أقسى ضربة تصوّرنا، بل تصوّر هو نفسه، وقوعها. ومع أنّه، في الأشهر الأخيرة، اعترف لي أكثر من مرّة، وهو يتعذب بسبب شعوره بالعجز والألم من رؤية زوجه، بأنّ من الأفضل لها أن تستريح، فإنّ موتها أغرقه في سوداوية لم تكن لصديقي القدرة ولا الرغبة في الخروج منها.

في زيارتي الأخيرة له في شقته في «لاوتون»، تبيّن لي مدى العجلة التي كان يشعر بها للتصريح بشهادات الألم التي عاشها لا أدري كم من السنين. لا شكّ في أنّ النشاط الذي أبداه في الأيام التي تلت دفن «آنا» كان محموماً، فحين دخلتُ إلى بيته كان أوّل ما لاحظته اختفاء كلّ المظاهر الاستشفائية والعلاجية التي كانت تملأ ذلك المكان. لقد اختفى السرير القابل للطي وكرسي العجلات، كما اختفت حمالة الأمصال والمبولة والسرنجات وعلب الأدوية وحتى جهاز التلفزيون الملون ذو جهاز التحكم عن بعد (استعاره من جار له، لكي تتسلى «آنا» بشيء أجدر بالمشاهدة من التلفزيون الرمّاش الأسود والأبيض الذي كان أحد زبائن عيادة إيبان قد أهداه له قبل أن يغادر كوبا قبل سنوات من ذلك). من

الأرضية كانت تنبعث رائحة مطهّر رخيص، بينما كانت الجدران تنفث كعادتها رائحة الرطوبة، لا رائحة الكحول والمراهم. بل لقد غيّر إيبان من مظهره، فحلق رأسه، الذي بدا مليئاً بالتلال، ومقطوعاً بنهر الندبة التي سببها له، من سنوات سابقة، شجار وقع له في أحد البارات، وأبقى عليه طريحاً في قسم الكسور في مستشفى كاليستو غارثيّا.

عمل تغيّر الأجواء ومظهر صديقي، الشبيه بمظهر الخارج حديثاً من معسكر اعتقال، على إبراز الخراب البدني الذي عانى منه في الأشهر الأخيرة (في لحظة ما خطرت ببالي فكرة: سيختفي إيبان وسيصعد إلى السماء)، وجهّزني جيداً لأسمع، في نهاية تلك الليلة، الكلمة الثاقبة النافذة، الشعور القادر على شلّ ما خبّأه عني طوال عشر سنوات، خجلاً من المعنى الذي تنطوي عليه ردة فعل غير مناسبة: الشفقة. فلا الخوف ولا ذلك الاسم الملتوي، الذي كان يحاول الخلاص منه أيضاً، كانا، في النهاية، الحجر الذي سند بناية التأجيلات والألغاز والغموض التي ضاع خلفها إيبان نفسه.

- لماذا فعلتَ هذا برأسك؟ هل تدري ماذا تشبه الآن؟- قلت له ما إن رأيته-، لكنّ صديقي لم يردّ عليَّ، وأخذ منّي، وهو يبتسم ابتسامة حزينة، علبة الطعام الذي كانت امرأتي قد أعدّته له. بدأ يملأ صحنه العميق بصمت، لكنّه، وقبل أنّ يجلس لتناول الطعام، ذهب إلى الغرفة وعاد وفي يده ظرف.

- منذ وقت وأنت تريد قراءة هذا...

ما إن سمعته حتى خمّنتُ مراده: لا بدّ أنّها، وكانت هي فعلاً، الأوراق التي كتبها منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً ذلك الإنسان- الدمية خايمي لوبيث، الأوراق التي كنتُ أعرف بوجودها منذ عشر سنوات، والتي كنتُ أطلب من إيبان، كلما تطرقنا إلى الموضوع، أن يسمح لي بقراءتها، لأنّي كنتُ أرى أنّني بقراءتها أستطيع أن ألمس بيدي روح الرجل الذي كان يحبّ الكلاب.

بينما كان هو يأكل، رحتُ أنا أتوغّل في مزيج من حكاية وتأمّل ورسالة حول السنوات التي أمضاها في موسكو شخص اسمه رامون ميركادير، يصرّ، إصراراً مريضاً، على التشبث بوساطة مخجلة لدمية تتكلم من بطنها اسمها خايمي لوبيث، وعلى أن يقدم نفسه على أنّه شخص ثانٍ يمكن النظر إليه من على بعد. أم إنّه شعر بعظم تجرده من أناه، وابتعاده عن رامون ميركادير الأصلي الذي فضّل أن يكون، حتى النهاية، واحداً من أقنعته؟ فأين الرجل الأصلي، الأولي، الذي كان في جبال «غوادا راما»؟ هل التهمته المهمة والعقيدة وعقوق التاريخ، حتّى تحوّل إلى شخصيّة منظورة من بعيد، أكثر من تحوله إلى شخص؟ يتبيّن ممّا كتب طعم اعتراف مرّ يشي باعتذار وبإحباط رجل يواجه في النهاية، ومن منظور السنوات والأحداث، نفسه وما عناه هو في حبكة فاحشة، موجّهة إلى ازدراده حتى آخر خلية فيه.

أمّا أكثر ما أقلقني فكان رؤية التعليقات والأسئلة التي كان إيبان أضافها على هوامش الأوراق بحروف صغيرة وبحبر ملوّن وبفروق بسيطة متنوعة: إشارات عودة وسواسية إلى تلك الكلمات على مدى السنوات. سألتُ نفسي إن لم يكن إيبان يبحث في الاعتراف، أكثر من استجواب مؤلفه، عن جواب ضائع داخل نفسه. ثمّ إنّ الأوراق كانت مستهلكة فكأنّ أيادي كثيرة تعاورتها، بينما أنا أعرف أن إيبان وحده والأسود الطويل النحيف الذي حملها له هما من كانت الأوراق تحت نظريهما، (وماذا عن آنا؟). أقلقتني العلاقة التي تمكن صديقي من إقامتها مع ذلك السر ومع الكائن الغامض الذي يقف وراءه.

– لقد تركتني متشوقاً لمعرفة ما الذي جرى حين وصلت كاريداد إلى موسكو، وكيف تمكن رامون من أن يقنعهم بتركه يخرج من هناك...– قلتُ له حين انتهيت من القراءة، من دون أن أتجرأ على الكلام عن أن قلقي الحقيقي يتعلق به. حينئذٍ مدّ لي إيبان فنجاناً من القهوة المعمولة حديثاً واستدار، وكأنّ فضولي لا يعنيه.

على الطاولة بدأ إيبان يعدّ الطعام لتروكو. ولما لم أكن أنا هاوياً للكلاب، على نحو خاص، فقد نسيت في تلك الليلة الحيوان، لكنّي انتبهتُ، في تلك اللحظة، إلى أنّه لم يخرج لتحيتي. بحثت عنه ووجدته تحت الكنبة، مستلقياً على قطعة من القماش، وقد فتح عينيه. قرّب له إيبان الصحن البلاستيكي، فأكل تروكو الطعام، وإن بدا أنّه لم يتحمس لذوقه.

- هيّا، صغيري، كُل- قال له إيبان، وقد جلس القرفصاء بالقرب من الحيوان، وأضاف بحنان، وكأنه مندهش-:هيّا، انظر، إنّه لحم.

- هل أنت مريض؟

- إنّه حزين - أكد لي إيبان، وهو يمرر يده على رأس الحيوان. نظرت إلى عيني الكلب ومع أنني لستُ ممن يعتقدون بهذه الأمورـ فقد بدا لي أنني اكتشفت قدراً من الألم في نظرته النديّة الحزينة. أظهر له إيبان قليلاً من الطعام، لكن الكلب أدار وجهه-. هو يعرف ما حدث. منذ ثلاثة أيام وهو لا يأكل. يا لتروكو المسكين!

بدا صوت إيبان كالأنين. ابتعد عن تروكو، غسل يديه وتناول قهوته. جلس إلى المنضدة وأشعل سيجارته وهو ينظر إلى كلبه، وأذكر أنّني فكرت: إيبان سيبكي.

- ما لدى تروكو يسمى السوداوية، وهو مرض يزول وحده أو إنّه قد يقتله...- قال، وهو يجرجر كلماته تقريباً. سحب نفساً من السيجارة مرتين ثم رفع أخيراً بصره نحوي-. خذ معك هذه الأوراق. لا أريد أن تظلّ معي.

- ماذا دهاك إيبان؟ - بدأ موقفه يفاجئني، بل يقلقني. كان في عينيه حزن ندي، شبيه بذاك الذي كان يظهر على نظرة كلبه.

- كان لقائي بذلك الرجل هو أسوأ ما مرّ عليَّ في حياتي. وقد حدثت لي بعض الأمور المزعجة جدّاً... سأنتهي من الكتابة عن الطريقة التي

تعرفت إليه بها، ولماذا لم أتجرأ منذ البداية على رواية قصته. لا أريد أن أفعل ذلك، لكن عليَّ أن أكتبه. حين الانتهاء سأعطيك كلّ أوراقي لكي تفعل بها ما تستطيع... أنا لست كاتباً ولم أكن كاتباً يوماً من الأيام، ولا يهمني أن ينشر أو أن يقرأه أحد...

ترك إيبان السيجارة في المنفضة الموضوعة على الطاولة. بدا متعباً جدّاً، وكأنّ شيئاً لا يهمه كثيراً، بل بدا لي أنّه يتنفس بصعوبة، كأنّه مصاب بالربو. حين هممت بلومه على كلماته الأخيرة، بادرني هو:

- أنا أيضاً شبح...

في تلك اللحظة فهمت على نحو أفضل ما كان إيبان يحاول أن يقوله لي. وفكرتُ في الأسوأ: سينتحر.

- لماذا تريد أن تعطيني ما هو مكتوب عندك؟ ماذا يعني هذا؟ - تجرأتُ على سؤاله، وأنا أخشى أن أسمع منه أسوأ اعتراف، وأردتُ أن أخفف من مأساوية الموضوع-. ألا ترى أنّك لستَ كافكا...

- لن أنتحر- قال، بعد أن تركني أعاني لثوانٍ-. وأنا لستُ مجنوناً. فقط لا أريد أن أرى تلك الأوراق بعد الآن. من الأفضل أن تكون معك، فأنتَ ما زلتَ تكتب... ولكن إن أردت يمكنك حرقها، الأمر عندي سيان...

- لا أفهمك، إيبان. ألا تهمّك الحقيقة؟ ذلك الرجل كان ابن قحبة وليس لديه تبرير ولا...

- أيّة حقيقة؟ ما هي الحقيقة؟ وهو لم يكن ابن القحبة الوحيد الذي فعل أشياء غير مبررة.

- بالطبع لا. لكنّه كان واحداً من الذين أعانوا ستالين على أن يقتل عشرين مليون شخص باسم الشيوعية... ولم يقتل أشخاصاً عاديين... قتل ابن قحبة آخر، أطاح حين كان ممسكاً بالسلطة، برؤوس لا أحد يعلم كم من البشر... كلّ هذا شديد الوقع، إيبان. لاحظ أنّ الروس، بعد أن

كشفوا غطاء الطنجرة، عادوا إلى غلقها غلقاً محكماً... لا بدّ من فعل أشياء كثيرة فظيعة ليقتل هذا العدد الكبير من الناس...

- ميركادير كان ضحيّة وجلاداً، شأنه شأن الأغلبية- احتجّ، باندفاع أقل، بينما كان ينظر إلى الولاعة التي كان الرجل الذي كان يحب الكلاب قد تركها له إرثاً.

- كان جلاداً أكثر منه ضحيّة، وهذا هو ما لم يدعه يعيش باطمئنان. هل تعرف لماذا حكى لك قصته ثمّ كتب هذا الرسالة؟... لكي تقوم أنتَ بكتابتها ونشرها...

دعك إيبان رأسه الحليق بقوة وكأنه يريد أن يمحو شيئاً ما داخله. ويقول إنّه ليس مجنوناً؟

- أحياناً أفكّر مثلك. لكنّي في أحيان أخرى أرى أنّها كانت حاجة شخص محتضر. لا بدّ أنّ من المزعج جدّاً أن تحيا حياة كاملة وكأنك لستَ أنتَ، وتصرّح بأنّك غيرك، وأن تعرف أنّ من الأفضل أن تكون متوارياً خلف اسم آخر، لأنّك تحسّ بالخجل من نفسك...

- عن أيّ خجل تحدثني؟ ما كان أيّ منهم يشعر بالخجل ولا شيء يشبه الخجل...

- ألا تعتقد أنّه دفع ثمن جميع ذنوبه؟ هل تعلم أنّ أحد سجناء «ليكومبيري» حكى أنّهم اغتصبوا رامون في السجن.

- كان عليه أن يعلم بما يخاطر به، ومع ذلك قبِلَ بكل شيء... ويبدو لي جيداً أنهم فعلوا به ما فعلوا في السجن.

- لكنّه لم يكن هناك ليقتل الناس... كان جنديّاً ينفذ الأوامر. فعل ما أمروه به عن طاعة وقناعة...

نهض إيبان، وصبّ مزيداً من القهوة في الفنجانين، لكنّ أيّاً منهما لم يشرب قهوته. نظر إلى كلبه ثم قال لي:

- هل تعرف كيف تحققتُ من أنّ خايمي لوبيث هو رامون ميركادير، حتّى قبل أن أقرأ هذه الأوراق، وقبل أن أشاهد الصور؟

- لا أعرف... مما قاله لكَ عن صرخة تروتسكي، أليس كذلك؟ - خمّنتُ، وأنا مستعد لمنحه هدنة: فإيبان، على أيّة حال، لم يقتل أحداً، ولم يساعد على أن يقتلوا آخرين. بل كان هو ضحية، المهم.

- لا، لا، المفتاح كان في طريقة معاملته لكلبيه، وطريقته التي كان ينظر بها إلى البحر. كان ذاك الميركادير الذي يبحث عن السعادة التي شعر بها في «سانت فيليو دي غيشولز». فردوسه المفقود... كوبا كانت علاجاً وهميّاً.

- وكيف استطعت مواصلة الكلام معه بعد أن تأكدت أنّه ميركادير؟

حدّق إيبان في عينيّ ونظرت أنا إليه أيضاً. شرب بصورة آلية قهوته، وتناول علبة السجائر وأخرج سيجارة أخرى. كم سيجارة سيدخن؟

- أظنّ أنني لم أكن يوماً ما متأكداً من أنّه كان ميركادير. حين كان لوبيث يحكي لي عن حياة ميركادير، كان يبدو لي أنّه يتكلّم عن رجل من زمن بعيد، لا أدري، من القرن التاسع عشر... كنتُ أريد أن أعرف كيف انتهت القصة، وإن كان ذلك مروعاً. لذلك شعرت بأنّه كان في حاجة إلى أن أستمع إليه...- توقف وأشعل سيجارته-. هل تدري ما هو أكثر ما يزعجني في القصة كلها؟

- الأكاذيب؟

- فضلاً عن الأكاذيب.

- أن ستالين أفسد كلّ شيء؟ إمكانية أن يكون رفاقه أنفسهم هم من سمم ميركادير بالإشعاعات؟

- أكثر من ذلك.

بقيت ساكتاً: والواقع هو أنّ كلّ شيء في تلك القصة يزعجني، والقائمة يمكن أن تكون طويلة جدّاً. كان إيبان يواصل التدخين من دون أن يكف عن التطلع إليّ.

- ما حشره هنا، في رأسي - قال وأشار إلى رأسه الحليق-. حين

قرأتُ تلك الأوراق وتكونت لديّ فكرة شاملة عمّا فعله رامون ميركادير، شعرتُ بالاشمئزاز. لكنّي شعرت أيضاً بالشفقة والحزن عليه، من الطريقة التي استعملوه بها، من العار الذي شعر به من كونه نفسه. أعرف أنّه قاتل ولا يستحق الرأفة ولا الشفقة، لكنّي ما زلت غير قادر على تجنب ذلك الشعور! قد يكون صحيحاً أنّ جماعته نفسها حقنت دمه بالإشعاعات لقتله، كما يقول أيتينغون، لكن ما كان من داعٍ لذلك، فلقد قتلوه مرّات كثيرة. نزعوا منه كلّ شيء: اسمه وماضيه وإرادته وكرامته. ومن أجل ماذا؟ منذ أن ردّ على كاريداد بنعم، عاش رامون في سجن لاحقه حتى يوم موته. ما كان له أن يزيح تاريخه عنه حتّى لو أحرق كلّ جسمه، وحتى لو اعتقد أنّه غيره... ولكن على الرغم من كلّ شيء، تحزنني الطريقة التي انتهى بها، لأنّه كان على الدوام جنديّاً مأموراً، حاله حال الكثيرين من الناس... وإن كانوا قتلوه هم أنفسهم، فلا يمكن إلّا أن تشعر بالشفقة عليه. تلك الشفقة تجعل الواحد يشعر بالقذارة، بأنّه ملوّث بمصير رجل غير جدير برحمة ولا بحزن. لذلك أرفض أن أصدّق أنّ من قتله هم ناسه: لأنّ ذلك سيحوله، بشكل من الأشكال، إلى شهيد... ولا أريد أن أنشر شيئاً، لأنّ مجرد التفكير بأنّ هذه القصة يمكن أن تثير في أحدهم القليل من الشفقة يسبب لي غثياناً ورغبة في التقيؤ...

نظرتُ إلى صديقي وشعرت بأنّه بدأ أخيراً يفهم شيئاً. كانت حياته (وقد وصلتم إلى هذه النقطة المتقدمة من القصة وصرتم تدركون ذلك) مسبحة من المصائب والإحباطات غير المستحقة والمحتومة، مع ذلك. يبدو أنّ من المستحيل أن يقع على رأس رجل واحد، وفي الوقت نفسه، ثقل زمنه وظروفه مجتمعة: فكأنّه تلقى بمفرده كلّ واحدة من الضربات التي كانت من نصيب جيل من السُّذّج رغماً عنهم. ومما زاد الطين بلّة أنّه عاش مع تلك القصّة اللعينة في داخله طوال ثلاثين عاماً تقريباً، وأنّ «آنا»، وهي أنقى شيء في حياته، كررت بموتها مشهد عذاب رامون ميركادير الأخير، وأنّه وجد نفسه مضطرّاً ليشهد يوماً بعد يوم احتضاراً

يذكره باحتضار قاتل حقير ومحتقر. مع ذلك كلّه، ومع غضبه واستيائه، فقد كان إيبان يشعر بالشفقة على ذلك الرجل وعلى نهايته، وكان ذلك الشعور يثير فيه كرها شديداً لنفسه.

- إيبان، هو كان واحداً منهم وهم عاملوه كما علّموه منذ البداية أن يعامل الآخرين: من دون رحمة. لذلك فهو لا يستحق شفقتك.

تأمّل إيبان لثوانٍ طويلة. كان عليه أن يزن عواقب ما يهمّ بقوله لي، وكان يكفي أن أنظر إليه لكي أخمّن ذلك: لن يكون شيئاً لطيفاً. في تلك اللحظة تذكرتُ، لا أدري من أيّ توارد للخواطر، قصة رغبته في السفر إلى إيطاليا.

- ما عدتُ أستطيع أكثر...- قال أخيراً-. قضيت حياتي البائسة وأنا أحمل شعور من يهرب من شيء يمسك به دائماً، وقد تعبتُ من الجري... خذ تلك الأوراق وانصرف. هيّا، أريد أن أنام.

نهضتُ وأنا أشعر بالراحة تقريباً، لكنّي لم آخذ الأوراق. حين هممتُ بالخروج التفتُّ فرأيتُه يدخن ثانية. كانت نظراته مركزة في تروكو، الذي نام في زاوية من زوايا الغرفة. شعرتُ بالحزن على صديقي وعلى كلبه، حزن حقيقي ومبرر، لكنّي شعرت أيضاً برغبة عظيمة في أن أنصرف عن كلّ شيء، في أن أهرب من العالم كله، في أن أختفي. طبعاً، ما كانت هناك من حاجة لأن أسأل إيبان عمّا كان يهرب منه طوال حياته: كنتُ أعرف أنّه كان يهرب من الخوف، ولكن، كما قال هو نفسه، مهما ركضتَ وتخبأتَ، فسيصل إليك الخوف دائماً. وأنا أعرف ذلك جيداً.

- كلّنا متعبون. - قلتُ، لا أدري إن كنتُ قلت ذلك بصوت عالٍ.

كيف يمكن أنّه انتظر كلّ هذا الوقت؟ صحيح أنّني كنتُ، وما زلتُ، أيضاً أخاف، لكنّ إيبان يستحق ما هو أكثر منّي.

لم أقرر التنازل والخروج للبحث عن إيبان إلّا في الثاني والعشرين من كانون الأول، قبل يومين من ليلة الميلاد. أمّا الحجّة فقد أسعفتني

بها امرأتي، وإن لم تكن حجة قوية: هي تريد أن تدعوه للعشاء معنا ليلة الرابع والعشرين. لكنّ المشكلة كانت في أنّنا، أنا وإيبان، كنّا نكره أجواء أعياد الميلاد والروح الاحتفالية التي تشيع بين الناس فرضاً من الفروض.

حين وصلتُ إلى شقته وجدت الباب والشباك مغلقين. دققتُ على الباب عدة مرات، لكنّي لم أسمع ردّاً. شيء ما في أجواء البيت بدا لي غريباً، وإن لم أنتبه في تلك اللحظة إلى الشيء الذي يمكن أن يكون غير طبيعي، ما عدا الغلق والصمت.

كانت الساعة ما زالت الثالثة عصراً، لذلك ذهبتُ إلى العيادة البيطرية، حيث كان إيبان يعمل، فوجدتها مغلقة أيضاً، بالسلسلة والقفل التي اعتاد وضعهما بين الباب والإطار. سألت امرأة تسكن على الرصيف المقابل فقالت لي إنّ إيبان لا يأتي منذ يومين أو ثلاثة أيام، وإنّها قلقة بشأنه، لأنّ من غير عادته أن يغيب وقتاً طويلاً.

عدتُ إلى منطقة سكنه وطرقت باب الجار الذي كان أعاره تلفزيونه الملون أثناء مرض «آنا». عرفني الرجل ودعاني للدخول، لكنّي قلتُ له إني مستعجل وأريد أن أعرف إن كان رأى إيبان.

- منذ ثلاثة أيام... نعم. لم أره منذ ثلاثة أيام.

شكرت الرجل وتمنيت له، من باب المجاملة الأساسية، أعياد ميلاد سعيدة، فردّ عليَّ الرجل بالعبارة المليئة بالمعنى:

- أتمنى لك الشيء نفسه.

وأنا أسير صوب «الكاديلاك»، أسأل نفسي عن المكان الذي قد يكون إيبان قد حشر فيه نفسه، تذكرتُ أنّ عبارة أعياد الميلاد التي وجهها إليّ جاره هي نفسها التي وجهها هو على سبيل التوديع للرجل الذي كان يحب الكلاب، في اليوم الذي التقيا فيها للمرة الأخيرة، قبل سبعة وعشرين عاماً بالضبط. في تلك اللحظة اشتعل في رأسي ضوء: كيف يمكن ألَّا ينبح تروكو حين طرقتُ على باب الشقة؟ فكلب إيبان و«آنا»

كلب نبّاح نشيط، وليس له أن يكفّ عن إثارة الضجة إلَّا لأسباب قليلة: كأن يكون مريضاً أو لأنّه ليس في البيت أو - وهذا هو الأكثر احتمالاً- لأنّه مات، ربّما كمداً على غياب «آنا».

بذلك الشعور السلبي غيّرت اتجاهي وذهبتُ للبحث عن التلفون العمومي الوحيد في الخدمة في الحيّ، في كشك الصحف والمجلات الذي لا يبيع صحفاً ولا مجلات. تمكنت من الاتصال بفرانك وآنسيلمو، اللذين أكدا لي أنّ إيبان لم يمرّ بهما منذ وقت طويل. فاتصلت حينئذٍ براكيليتا، فقالت لي إنّها لم تره منذ قرون، وإنّ من الأفضل ألَّا تعود إلى رؤية «الشقي آكل الخراء». عدتُ إلى «البونتياك» ورحت أفكّر، والواقع أنني لم أجد إلَّا خيارات قليلة: ما كانت لديَّ أدنى فكرة عن المكان الذي يتحتم عليَّ أن أبحث عنه فيه، وإن كنتُ أرى أن عليَّ أن أواصل البحث عنه. في هذا البلد ليس من المألوف أن يختفي الناس: حين يضيع أحد فلأنّ البحر ابتلعه أو لأنّه يبحث عن قطعة نقدية ليتصل من أول تلفون يجده في ميامي. لكنّ تلك لن تكون حال إيبان. ليس الآن، بعد أن عاش كلّ ما عاشه بين جدران الجزيرة الأربعة.

فجأة راودتني فكرة ملهمة. أشعلتُ سيجارة وخرجتُ قاصداً المقبرة. كان المكان مقفراً، بعد آخر دفن جرى عصراً. بحثتُ عن قبر «آنا» بين قبور عائلتها، ووجدت كلّ شيء في حالة الوحشة التي عادة ما يظلّ فيها الموتى. أكاليل من الزهور تركت في مكانها منذ وقت طويل نهباً للتراب والوساخة، في مكان بدا أنّ أحداً لم يزره منذ أسابيع عديدة.

تعقبتُ خارج المقبرة تلفوناً آخر تدب فيه الحياة واتصلتُ بخيسيلا، شقيقة «آنا». إنّها لا تعرف شيئاً عن إيبان؛ بل لم يتصل بها بعد دفن شقيقتها. تذكرتُ، وقلقي في تصاعد وازدياد، أقرباءه في «آنتيّا»، في جهة الشرق، حيث ذهب إيبان للعيش معهم لأسابيع بعد خروجه من قسم المرضى المدمنين في مستشفى كاليستو غارثيا. ولما كنتُ في منطقة «البيدادو»، فقد توجهتُ بسيارتي حتى بيت راكيليتا (البيت الرائع الذي

«رتّبه» لها زوجها الثاني، والرجل الحقيقي في حياتها، تاجر الجواهر والمهرّب البدين الذي تعرفه نصف هافانا بـ «الساحر»)، وتمكنت زوجه السابقة من أن تعثر لي في دفتر قديم على رقم تلفون سيرافين وماريا، أبناء عم والدة إيبان، في آنتيّا. سرت عدوى قلقي إلى راكيليتا، على الرغم منها، فاتصلت هي بنفسها، لكنّه تلقت الأجوبة ذاتها التي كنتُ حصلتُ عليها حتى ذلك الوقت: لم يكن الأقرباء في آنتيّا قد علموا حتى بموت «آنا». حين خرجت من بيت راكيليتا، كنتُ أحمل في صدري ألماً إضافيّاً، فقد كان واضحاً أن فرانثيسكا ما كانت مهتمة كثيراً بما يمكن أن يكون وقع لأبيها، وإن لم يثر استغرابي أنّها كانت أيضاً تحاول السفر والرحيل عن الجزيرة – وهو قرار كان أخوها باولو وابناي، وهم ممثلون نموذجيون لجيلهم، سبقوها إلى اتخاذه.

في المساء، بينما كنتُ ألوكُ، ولا أقول آكل، ما قدمته لي زوجي، لاحظتُ أنّ قلقي تحوّل إلى شعور بالذنب، فقد كنتُ متيقناً من أنّ أمراً خطيراً وقع. كلمتُ زوجي عن تحرياتي في ذلك العصر فأعطتني حلاّ لم أفكر فيه من قبل: أن أذهب إلى الشرطة. بدا لي الأمر مضحكاً ومبالغاً فيه، لكنّي بدأتُ بتدوير الفكرة في رأسي. لا بدّ أنّ شيئاً وقع له، ربّما هو في أحد المستشفيات بعد أن تعرّض لحادثة، أو لنوبة قلبية، لا أدري كم من المشاهد خطرت ببالي. وماذا لو أنّه صعد فعلاً في مركب لكنّه لم يصل بعد إلى أيّ مكان أو أنّه غرق كما غرق أخوه وليام؟... عند منتصف الليل تقريباً، وبدلاً من أن أنحشر في الفراش، ارتديت ملابسي ثانية وأنا عازم على تقديم بلاغ إلى قسم الشرطة في جادة «أكوستا»، وعندما كنت على بعد بنايتين من مركز الشرطة، تلقيتُ بريق حقيقة. انحرفتُ ونزلتُ صوب «لاوتون». كنتُ ما زلت لا أعرف (ولا أعرف إلى الآن) لماذا كنتُ واثقاً مما سأجده.

دخلت من الممر المظلم والزلق المؤدي إلى الشقة. حملتُ المطرقة الثقيلة التي كنت أضعها دائماً في صندوق «البونتياك». لفّني أمام الباب

جوّ نتن لم ألاحظه في ذلك العصر، وسرعان ما انقلب الهاجس إلى واقع. مع ذلك، طرقت الباب عدة مرات، وناديت على إيبان وعلى تروكو باسميهما: وردّ عليَّ الصمت بالجواب. لم أنتظر أكثر. بضربة واحدة من المطرقة الثقيلة أطحت بقفل الباب، وكان من التلف أنّ إطاره كاد يتهاوى. اشتدت عليَّ رائحة كريهة، بحثت متلمساً مفتاح الدورة الكهربائية، وأنا أحذر الارتطام بالدعامات الخشبية التي تسند البناء. حين أضيئت الشقة، شاهدت، وأنا بعد في الغرفة التي كانت تقوم مقام الصالة، ما لم أكن أتمنى مشاهدته: في الغرفة الأخرى، كان السرير غاطساً، القوائم مكسورة من الحمل الذي كان عليها. فوق المرتبة، الغاطسة أيضاً من الحمل، بدا لي، تحت قطع الخشب والكونكريت والجبصين، شكل ساقين وذراع وجزء من رأس بشري وجزء من شعر أصفر لكلب. رفعتُ بصري ورأيتُ قطعاً فولاذية تتدلى من السقف، صدئة مأكولة، ورأيتُ، هناك، سماءً، بلا سحر، غريبة، ومن دون نجوم.

سحبتُ أحد الكراسي الحديدية وسقطتُ عليه منهاراً. كانت أمامي النهاية المتوقعة لطريق، كارثة لها حجم القيامة، أطلال بيت ومدينة بأكملها، ولكن على نحو خاص، أطلال أحلام وحيوات. ذلك التل من الأنقاض القاتلة هو الضريح الذي يناسب موت صديقي إيبان كارديناس ماتوريل، رجل طيب في مواجهة ما تواطأ عليه القدر والحياة والتاريخ وصولاً إلى تدميره. لقد تهاوى أخيراً عالمه المتصدع وقتله بتلك الطريقة الغريبة والمرعبة. وكان الأدهى من ذلك معرفتنا بأنّ اختفاء إيبان هو، بشكل من الأشكال- كثير من الأشكال- اختفاء عالمي وعالم الكثير من الناس الذين قاسمونا مكاننا وزماننا. لقد هرب إيبان في النهاية، وترك إرثاً لي هي خيبته الكونيّة والثقل الباهظ لشفقة ما كان يرغب في أن يشعر بها وعلبة من الكارتون، كتب عليها اسمي، ووضع فيها كلّ تلك الأوراق التي كتبها هو وكتبها رامون ميركادير (في الحقيقة خايمي لوبيث) والتي كانت خير صورة لروحه وزمانه... فيمَ كان إيبان

يفكّر حين سمع صرير الدعامة الخشبية ورأى الموت يسقط عليه من السماء، مجروراً بالخمود وبالجاذبية، وهما القوتان الوحيدتان اللتان ما زالتا قادرتين على تحريكنا من مكاننا؟ ربّما لم يكن قادراً على التفكير في شيء: كان قد انتهى من كتابة ما كان عليه أن يكتب، لتلبية حاجة فسيولوجية فحسب، وانقلبت حياته إلى أشدّ الفراغات تدميراً. هذا هو ما وصلنا إليه بعد كلّ هذا المسير، بعينين مربوطتين. وفي تلك اللحظة تذكرتُ إيبان وهو يكلمني عن حزن كلبه، وعن الحرية المطلقة وعن النوافذ المفتوحة نحو العقليات الجماعية... وأيضاً، مرة أخرى، وردت على خاطري صورة غير واضحة لنافورة «تريفي»، حيث لم نستطع لا أنا ولا هو أن نلقي فيها بأيّة قطعة نقدية.

***

وأخيراً استطعتُ أن أقرأ مجموعة أوراق إيبان. أكثر من خمس مئة صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة، مليئة بالشطب والإضافات، لكنّها رتبت بعناية في ثلاثة ظروف كتب عليها اسمي كاملاً بالقلم الملون العريض: دانييل فونسيكا ليديسما، وكأنّه يريد أن يتفادى أيّة إمكانية للخلط.

ومع تقدمي في القراءة، رحت ألاحظ كيف أنّ إيبان كان يتجرّد من جلده فلا يعود ذلك الشخص الذي يكتب، بل ليصبح شخصية من شخوص المكتوب: في قصته، يظهر صديقي خلاصة لزمننا؛ رسماً بولِغ أحياناً في تراجيديته، على الرغم من نفسه الواقعي الذي لا جدال فيه. فدور إيبان هو تمثيل الجمهور، تمثيل الحشد المحكوم بأنّ يظلّ مجهولاً مغفلاً، وشخصيته هي استعارة مجازية لجيل كامل، ونتيجة واقعيّة لهزيمة تاريخيّة.

مع أنّي حاولتُ، وأنا أقرأ تلك الأوراق، تجنب الشعور بالشفقة، فقد كنت أشعر بها تغزوني. تململتُ ورفضتُ، لكنّها كانت شفقة على إيبان فحسب، على صديقي فحسب، لأنّه يستحقها، يستحقها كثيراً: يستحقها

كما يستحقها جميع الضحايا، جميع المخلوقات الخاضعة لقوى عليا توجّه مصائرها وتتجاوزها وتتلاعب بها إلى أن تحيلها إلى خراء. ذلك هو قدرنا الجمعي، وليذهب تروتسكي إلى الجحيم إن كان، بتعصبه الأعمى وعقده الشخصية التاريخية التي فيه، لا يعتقد إلّا بتغيّرات في المراحل الاجتماعية والفوق بشريّة، ولا يعتقد بوجود مآسٍ شخصيّة. فماذا عن الأشخاص؟ هل فكّر أحد منهم ذات مرّة في الأشخاص؟ هل سألوني، هل سألوا إيبان، إن كنّا موافقين على تأجيل أحلامنا وحيواتنا وكلّ الأشياء الأخرى إلى أن تتلاشى «الأحلام والحياة وحتى كأس القدّاس المبارك» في التعب التاريخي وفي الطوباوية الفاسدة؟

***

لن أفكّر في الأمر كثيراً، فقد أندم على ذلك. سأفعل الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله إن لم أشأ أن أحكم على نفسي بأنّي أجرّ ورائي حملاً ميتاً لقصة من قصص الجريمة والخداع، إن لم أرد أن أرث، حتّى آخر مليغرام، الخوف الذي طارد إيبان، إن لم أرد أن أشعر بالذنب لأني نفذت أو لم أنفّذ إرادة صديقي. سأعيد له ما هو له.

وضعت كلّ الأوراق في علبة صغيرة من الكارتون. بدأتُ بختمها بشريط لاصق إلى أن غطّى الشريط الرمادي السطح كله. هذا الصباح دفنتُ تروكو بالقرب من سور باحة بيتي، وحشرت داخل كفن القماش الذي صنعته له نسخة من مجموعة قصص إيبان القديمة وولاعة ميركادير ونسخة «آنا» من الكتاب المقدس. هذا المساء، حين يغلقون تابوت صديقي، سيذهب معه الصليب الغريق «غرقنا كلنا» وعلبة الكارتون هذه المليئة بالخراء، والكراهية وأطنان خيبات الأمل والكثير من الخوف: ستذهب معه إلى السماء أو إلى عفونة الموت المادية. ربّما إلى كوكب ما زال للحقيقة فيه قيمة وأهمية. أو إلى نجمة حيث لا يوجد ما يوجب الخوف وحيث نستطيع حتى أن نسعد للشعور بالشفقة. إلى مجرّة حيث يعرف إيبان ما عليه أن يفعله بصليب اخترمه البحر وبهذه القصّة، التي

ليست هي بقصته، وإن كانت في الواقع قصته، وهي أيضاً قصتي وقصة الكثيرين من الناس ممن لا نطالب أن نكون فيها، لكننا لا نستطيع الهرب منها: ربّما يذهبان إلى مكان طوباوي، حيث يعرف صديقي، من دون أدنى شك، ماذا يفعل بالحقيقة والثقة والشفقة.

مانتيّا في أيار 2006 – حزيران 2009

شكر

ربّما بدأتُ بكتابة هذه الرواية في شهر تشرين الأول من عام 1989، بينما كان جدار برلين، وأكثر الناس بعدُ بين مصدّق ومكذّب، يميل، قبل أن يتداعى وينهار، بعد أسابيع قليلة.

كنتُ قد أتممت للتوّ الرابعة والثلاثين من عمري وبدأتُ أولى زياراتي إلى المكسيك. ولمّا كنتُ أعرف أنّ كويواكان بعيدة جدّاً عن المركز، فقد حملني رامون آرينثيبيا، وهو صديق مكسيكي- كوبي يمتلك أبشع سيارة في العاصمة، لزيارة البيت الذي عاش فيه ومات ليون تروتسكي. وعلى الرغم من جهلي المطلق تقريباً «شأن أيّ كوبي من أبناء جيلي» بمجريات حياة الزعيم البلشفي السابق وأفكاره، وبُعدي، بالتالي، عن أن أكون تروتسكيّاً، فأنا أظنّ أنّ التأثر الإنساني البحت الذي أحسستُ به وأنا أطوف في ذلك المكان، الذي حوّل، منذ سنوات عدة، إلى متحف وإلى نصب للرعب والخوف وانتصار الكراهية، منذ أن سكنه آل تروتسكي، كان البذرة التي ولدت منها، بعد فترة حضانة طويلة، فكرة كتابة هذه الرواية.

حين عدتُ إلى التفكير في كتابة الرواية، عقب خمس عشرة سنة، وكنا قد أصبحنا في القرن الحادي والعشرين، وكان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية قد مات ودفن، أردتُ أن أستعمل قصّة اغتيال تروتسكي مجالاً للتفكّر حول انحراف طوباويّة القرن العشرين العظمى، تلك المسيرة التي علّق الكثيرون آمالهم عليها، وأضاع الكثيرون منّا، في

سبيل تحقيقها، أحلاماً وأعواماً ودماءً، بل وحيوات. لذلك راعيتُ، بكل الصدق والمصداقية الممكنة (يجب التنويه إلى أنّ ما ألّفت هي رواية، على الرغم من الحضور المرهق للتاريخ في كلّ واحدة من صفحاتها)، الفصول والتسلسل الزمني في حياة ليون تروتسكي في سنوات نفيه، طريداً ثمّ قتيلاً، وحاولتُ أن أستخرجَ بكلّ دقّة وصدق ما نعرفه (وهو قليل جدّاً في الواقع) عن سيرته أو عن سيرة رامون ميركادير، المبنيّة، معظمها، على أساس من التكهن القائم على ما يمكن إثباته وما هو تاريخي، وما هو ممكن ضمن ظرفه وسياقه. إنّ هذا التمرين، الذي يتراوح بين الواقع الممكن والخيال، مشروع ومقبول، سواء في حالة ميركادير أم في حالة الكثير من الشخصيات الحقيقية الواقعية التي تظهر في الحكاية الروائية - أكرر: الروائية-، أي المبنيّة وفق ما يجيزه الخيال ويسمح به وما يستدعيه ويتطلبه.

بين النيّة في كتابة هذه الرواية والشروع في كتابتها مرّت سنوات من التفكير والقراءة والبحث والنقاش والدخول، خصوصاً الدخول، بذهول ورعب، على الأقل، إلى جزء من حقيقة قصّة نموذجية من قصص القرن العشرين، وإلى سِير تلك الشخصيات الغامضة، الواقعية بالطبع، التي تظهر على مدى الكتاب. في تلك العملية المطوّلة كان لا غناء لي عن الكثير من الأشخاص: تعاونهم ومعرفتهم وخبرتهم، بل لقد تقاسموا معي في بعض الحالات تجاربهم الحياتية وحتّى شكوكهم حول تاريخ طمره وحرّفه، في أحيان كثيرة، زعماء كانوا، على مدى سبعين سنة، أصحاب السلطة و«التاريخ»، بالطبع.

وكالعادة فإنّ الكتابة والنشر يستدعيان العون من العديد من الأصدقاء الذين قدموا لي، بين بحث عن المعلومة وقراءة للأقوال المختلفة فيها، التي استطعتُ من خلالها أن أرسم خطوط الرواية، ونقاش لمحتواها وأجوبتها الأدبية، مساهمة مكّنتني شيئاً فشيئاً من تحديد ما يتراوح بين علامات الترقيم والمنظورات السردية وصولاً إلى الرؤى التاريخية والفلسفيّة التي استعملتها في كتاب يشغل أكثر من خمس مئة صفحة.

لذلك أودّ أن أعبّر عن شكري العظيم لكلّ الذين ساعدوني، بطريقة أو بأخرى، في مرحلة أو في أخرى، بصبرهم ومعارفهم وإحساسهم المشترك، أو ببساطة من خلف مقود سيارة «كالصديق رامون آرانثيبيا»، على تصوّر هذه الرواية ووضع خطوطها العريضة وكتابتها وإعادة كتابتها مرات ومرات. في إسبانيا تلقيت الدعم الكريم من «خابيير ريويو» و«خوسيه لويس لوبيث لينارس» و«خايمي بوتيّا» و«فيليب إيرنانديث كابا» و«لويس بلانتيير» و«شابيير أيثاغيري» و«إيميليا آنغلادا» وصديقتي القديمة، الكوبية بالطبع، «لوردس غوميث». وما كان لموسكو أن تظهر لي واضحة لولا المعونة الكريمة من طرف «فيكتور أندريسكو» و«ميغيل باس» و«ألكسندر كازاشكوف - شورا-» و«تاتيانا بيغاريوفا» و«خورخي مارتي» و«ميرتا كارسيك». وكان معاونوي في فرنسا هم «إليسا رابيلو» و«فرانسوا كورزاد» وناشرتي العزيزة «آن ماري متيلييه». أمّا صديقي الطيب «جوني أندرسن» فقد كان دليلي في مشوار تروتسكي الدنماركي. أشكر لأصدقائي البيروفي «غابرييل غارثيا إيغيراس» والأرجنتيني «داريّو آليساندرو» والمكسيكيين «ميغيل دياث رينوسو» و«خيراردو آريولا»، وهذان الأخيران هما، ربّما، أكثر الداعمين لهذا المشروع تحمساً، قراءاتهم ومساهماتهم البيبليوغرافية الثمينة، كما أشكر لهم ذكاءهم وفطنتهم. من كندا وإنكلترا وصلني عون الأساتذة الأصدقاء «جون كيرك» و«ستيف ويلكنسون». من بين الكوبيين الكثيرين «أو نصف الكوبيين في الكثير من الحالات»، ممّن مدّوا لي يد العون، أودّ أن أنوّه بذكر المكتبي «بارباريتو» و«داليا أكوستا» و«هلينا نونيث» و«ستانيسلاف فيربوف» و«آليكس فليتس» و«فرناندو رودريغيث» و«إستيلا نابارو» و«خوان مانويل تابيّو» و«خوسيه لويس فرير»، من الطرف الآخر من البحر، و«ليونيل ماثا» و«هارولد غراتماخيس» و«الدكتور فيرمين» و«الدكتور آثكوي» و«لوردس تورس» و«أرتورو أرانغو» و«رافائيل أكوستا».

أودّ، على عادتي في كتبي الأخيرة، أن أعبر عن شكري الخاص

للناشرين الإسبان «بيارتريث مورا» و«أنطونيو لوبيث لامدريد»، على عملهم وشغفهم وثقتهم وصبرهم، وعلى نحو خاص لـ «خوان ثيريثو»، على أن راجع الكتاب كلمة كلمة، بفطنة وتفانٍ وحبّ لا يحظى به إلّا القليل من الناشرين، ولا يمارسه إلّا الأقل. شكري أيضاً موجه إلى «آنا استيبان»، التي تكفّلت بطبع النص. لا أنسى بالطبع القراءة المخلصة والذكية التي تكفّلت بها «مدام آن ماري ميتيلييه»...

وأخيراً، أظنّ أنّني لن أستطيع أن أوفي العمل «الاستاخانوفي» الذي قامت به قارئتاي المخلصتان والدؤوبتان «إلينا ثاياس» في باريس، و«فيفيان ليتشوغا»، هنا في هافانا، حقّه. هما، في الواقع، كتبتا الرواية معي.

ولا يمكنني بالطبع إلّا أن أوجّه أعظم شكري وأشدّه إلى حبيبتي «لوثيا»، التي حشرت نفسها في الرواية وساعدتني أكثر من سواها وأوحت لي بأفضل الأفكار، والتي، وهذا هو الأهم والأعظم، تحملتني وصبرت عليَّ طوال خمس سنوات من الأحزان والأفراح والشكوك والمخاوف «هل تذكرون إيبان؟»، خمس سنوات أنفقتُ صباحاتها وأمسياتها ولياليها وساعات فجرها لأعدّل وأصوّر وأستخرج من داخلي هذه القصّة النموذجية، قصّة الحب والجنون والموت التي أتمنى أن تضيف شيئاً على الصورة التي تبيّن لنا كيف انحرفت الطوباوية، ولماذا فسدت المثاليّة؟ أتمنّى أيضاً أن تثير فينا الشفقة.

ليوناردو بادورا فوينتس

دائماً في مانتيّا. صيف عام 2009

في عام 2004، عادت ذاكرة إيبان، صاحب العيادة البيطرية البسيطة في هافانا، الذي كان يحلم بأن يصبح كاتباً، إلى فصل من فصول حياته وقع له عام 1977 حين تعرّف إلى رجل غامض رآه يتنزّه عند شاطئ البحر برفقة كلبي صيد روسيين. جرت عدة لقاءات بينه وبين ذلك الرجل، الذي كان مطّلعاً على تفاصيل دقيقة عن رامون ميركادير، قاتل تروتسكي، كشف له فيها النقاب عن أسرار فريدة محورها شخصية القاتل. أعاد إيبان، بفضل تلك الاعترافات، بناء الخطوط التي سارت عليها حياة ليف دافيدوفيتش برونشتاين، أو تروتسكي، وحياة رامون ميركادير، الذي عُرف أيضاً بـ«جاك مورنارد»، وكيف تحوّل الاثنان إلى ضحيّة وجلّاد، في واحدة من أكثر جرائم القرن العشرين دلالة ووقعاً. لقد تشابكت حياتاهما بدءاً من المنفى الذي فُرض على تروتسكي عام 1929 ورحلته الشاقّة إلى المنفى، ومن طفولة ميركادير في برشلونه البرجوازية ومغامراته العاطفية ومعاناته أثناء الحرب الأهليّة أو بعدها، وهو في موسكو وباريس، قبل أن يلتقي الاثنان في المكسيك. تُكمّل القصتان إحداهما الأخرى حين يضيف إيبان إلى حياتيهما مجريات حياته الشخصيّة والفكريّة في هافانا المعاصرة وعلاقته المدمّرة بذلك «الرجل الذي كان يحب الكلاب».




ISBN 978-2843091780
9 782843 091780